لماذا فسروا القرآن؟

القرآن بين التقييد والهجران

بقلم

عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

كثيرة هي الأمور اللامنطقية التي يتقبلها الإنسان، ويمر عليها مرور الكرام! ومن أبرز الأمور اللامنطقية قبولا من الإنسان، هو قول المسلمين أن القرآن بحاجة إلى تفسير! فهم يقرون من ناحية بما قال الله، أنه كتاب مبين وأنه أحسن تفسيرا وأنه تبيان لكل شيء وأن آياته محكمة مفصلة، ويقبلون من الناحية الأخرى بحاجته إلى تفسير! فكيف يحتاج المبين إلى إبانة؟ وإذا كان مؤلف الكتاب هو رب الأرباب، فكيف أنزل كتابا مبهما؟! وإذا أنزله مبهما، فمن يقدر على تفسيره؟!

وهذا الكتاب يعرض ناقدا لمنهج المفسرين في التعامل مع النص القرآني، مبينا أن القرآن العظيم لا يحتاج إلى تفسير، لأنه قرين الإبهام، وقائد لا محالة إلى التقييد والغموض في النص، وعلو المتعامل معه عليه، بدلا من أن يخضع له! ويعرف بالمنهج الصحيح في التعامل مع الكتاب العزيز وهو التأويل، ولكن ليس بالمعنى المشتهر المألوف، وإنما بمعنى مغاير تماما، يعرضه في طيات هذا الكتاب.

ويطيل الكتاب النفس في عرض النماذج المؤيدة لمنهجه من القرآن، والمبينة للاختلاف بينه وبين القول بالتفسير، وللتدليل على ذلك يقدم نظرية جديدة في خلق الإنسان الأول، مستخرجة كلية من القرآن، تدليلاً على السبق العلمي للقرآن.

هذا ويناقش الكتاب مسائل أخرى عديدة بمناظير جديدة، تجدونها بين طياته وعلى صفحاته، كمدلل صغير على عموم وشمولية وبيان القرآن.

تقديم

تكفير، تفسيق، تضليل، موالاة وبراء، قطيعة، استباحة دماء، جهل مطبق، تقاتل على السفاسف، ترك لعظام الأمور، اتباع سنن من قبلنا، شبرا بشبر وذراعا بذراع.

هذا هو وللأسف العظيم حال المسلمين في هذا العصر وعصور سابقة غابرة، والكل يشتكي ويندب حاله وحال الأمة ويدلي بدلوه في المسألة، فيحلل أسباب هذا الخلل وعوامل هذا التراجع، فهذا يرجعه إلى ظهور تيارات دينية فكرية متشددة، وذاك يرجعه إلى احتلال غاشم، وآخر يرجعه إلى الفساد المستشري، وكل ينظر إلى المسألة من وجهة نظر معينة يريد أن يضخمها ويبرزها، ويجعلها العامل الرئيس في هذا الحال المؤلم الذي صار إليه المسلمون.

وأنا لأنني مسلم من المسلمين أهتم لحالهم وأغتم لشأنهم، كنت أنظر في حال المسلمين، وأتساءل: ما السبب الذي أدى إلى هذا التخلف والشقاق بين أتباع الملة الواحدة، على الرغم من ما مضى من العصور الزاهرة والأمجاد الغابرة؟ فرأيت –بعد فكر جهيد وبحث طويل– أن سبب هذا التخلف والشقاق هو إعراض هذه الأمة عن الرسالة التي خُلقت من أجلها، ولهذا الإعراض أسباب عدة، أهمها تعاملهم مع القرآن، فمنهم من هو عنه معرض وتارك، فهو متخلف جاهل أهوج أحمق، ومنهم من جعل القرآن منطلقا له فيما يفعله من تطرف وسفك وقتل! فتساءلت في قرارة نفسي: أأنزل الله كتابه رحمة وهداية وجمعا للعالمين، أم أنزله للتفريق وللشقاق والمعاداة؟

بداهة هو كتاب تجميع وهداية، فهو يحثنا على المودة والتعارف، فالله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [سورة الحجرات ,١٣]، **إذن حتما ولزاما هذا الخلاف والشقاق من عند أنفسنا والقرآن منه براء، وما دام من عند أنفسنا فحتما نبع هذا من اتباعنا سبلا ضالة في التعامل مع القرآن، رسخناها ودافعنا**

عنها وجعلناها السبيل الوحيد للوصول إلى معاني القرآن، وكأزهري يتبنى المنهج الوسطي ويتقبل الطرف الآخر ويبحث عن الحقيقة والمنهج القويم كنت أبحث وأنقب في القرآن منذ صغري بمفردي عما يقنعني، فلقد وُهبت نهما عجيبا بالقرآن، فعلى الرغم من أن دراستي في الأزهر كانت دراسة دينية، إلا أني لم أكن أتقبل كل ما نُلقن، فلقد كانت تقابلني بعض المسائل التي أرفضها عقلا مهما حاولوا أن يبرروها، فمما رفضته أثناء الدراسة مسألة النسخ، فقد قالوا لنا أن الله أنزل آيات ثم رفعها، وعلى الرغم من ذلك نحن مطالبين بالعمل بها، فتسآلنا كأطفال: لم أنزلت طالما سترفع؟ وإذا كانت ستطبق فلما رفعت؟ قالوا لنا: كان هذا من أجل التدرج من التشريع والانتقال من مرحلة إلى أخرى.

وفي تلك المرحلة التي درست فيها هذا الكلام لم أكن أعرف السعة الكبيرة للشريعة الإسلامية وكنت أظن أن هذا هي، ولا شيء سواه، فقبلت على مضض، وواصلت الدراسة وكانت ثاني صدمة واجهتها هي مسألة عذاب القبر، فعذاب القبر من المسائل التي تُدرس في دروس العقيدة، ثم فوجئت بهم يتحدثون عن فرق تنكر عذاب القبر، ثم قالوا لنا: إن منكر عذاب القبر يفسق ولا يكفر، فكنت أضرب كفا بكف، وأتعجب كيف ينكر أحدهم عذاب القبر والرسول(ص) قد قال به صراحة؟ ولم لا يكفر إذن؟!! -ما كنت قد سمعت في هذا الوقت عما يسمى بالحديث الضعيف أو الموضوع-، وكنا ندرس أيضا في مادة العقيدة الفرق الإسلامية من شيعة إمامية إلى معتزلة، ومن أشعرية وماتريدية إلى أباضية ومن زيدية إلى بهائية ومن قديانية إلى إسماعيلية وما شابه من الفرق. وعندما كنت أقرأ مبادىء هذه الفرق كنت أتعجب كثيرا وأتسائل: هل كان الناس بهذه الدرجة من الحمق والغفلة، فإذا سلمنا أن رؤوس هذه الفرق المؤسسين، كانوا يريدون الكيد للإسلام، فهل كان متبعوهم غافلين أم متغافلين؟

وكان عجبي يزداد عندما كنت أعلم أن بعض هذه الفرق لا يزال موجودا حتى الآن، وأتساءل: كيف استمرت هذه المبادىء حتى عصرنا هذا؟ ولكن كانت هذه التساؤلات تمر علي مرور الكرام ولا تشغل بالي كثيرا، فالحمقى كثيرون وكلٌ له عقله! وواصلت

دراستي وقراءتي بجوار الدراسة وأنا على قناعة تامة بما أقرأه، وأدافع عنه شديد الدفاع فنحن على صواب جلي ظاهر، والآخرون الله أعلم بعقولهم ونواياهم، وهو وحده يعلم كيف يقبلون هذا اللغو!

وواصلت القراءة على مذهب أهل السنة بفرقها المختلفة وتياراتها المتعددة، ولم أكن أريد أن أسمع أو أقرأ للفرق الأخرى، إلى أن حصلت لي صدمة كبرى بدأت تجعلني أغير مسار تفكيري، فلقد شاهدت بالصدفة قناة فضائية لجماعة سمعنا عنها الأعاجيب، فوجدت خطابهم مقبولا لا بأس به، فأخذت أتابع برامجهم إلى أن ظهر لي أن تسعة أعشار ما قيل ويقال عنهم هو من باب الأكاذيب المفتراة[1]، فتساءلت: لم وكيف يدلس المسلمون على مخالفيهم من الفرق الإسلامية، ولم هذا التزوير والتشويه للمخالفين في الفكر والمبادىء الفرعية؟

ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أصدق ما تقوله أو تكتبه أي فرقة عن الأخرى، وإنما أحاول جاهدا أن أقرأ من كتبهم أو أسمعهم يقولون بهذا، وللأسف بعد أن استطعت أن أطلع على كتابات معظم الفرق الإسلامية، وجدت أن ما تعلمناه وقرأناه ونقرأه في الكتب التي تتكلم عن الجماعات والفرق الإسلامية إما غير صحيح بتاتا أو أنه معروض عرضا سطحيا، وأن نقاط الاتفاق بيننا وبينهم كبيرة ولا مبرر لهذا التنافر والشقاق، ولكن للأسف لا أحد يسمع! والآخرون يفعلون نفس الشيء معنا، فلكل فرقة مبادئها التي تسعى للحفاظ عليها حتى يستمر لها التميز عن غيرها من الفرق، وحتى لا يحدث لها الإنصهار والضياع.

وعلى الرغم من أننا لا نمانع من أن تبقى بعض نقاط الاختلاف، فهذا ما لا يمكن القضاء عليه تماما، ولكن أن تدافع كل فرقة عن كل صغيرة وكبيرة من آرائها وتعده من الصواب الذي لا يصله الخطأ، فهذا من باب التعصب الذي لا يقدم ولا يؤخر، فحتما

---

[1] تحادثت مع بعض الأخوة في شأنهم، فقال لي: هذا من باب الخداع حتى يجذبوا الناس إليهم. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأين متبعوا هذه الفرقة، ألم يسمعوا عن هذه القناة أو يزوروا مواقعها على الشبكة المعلوماتية، ويروا أنهم يقولون لهم شيئا غير الذي يخاطبون به الناس؟ وما الذي يجبر من إقتنع بمبادئهم أن يستمر على مذهبهم إذا عرف أنهم مخادعون؟

في اعتقاد كل إنسان في هذا العالم خطأ وصواب، ولكن المسألة تتركز في أي موضع يقع الخطأ وأين يكمن الصواب. فقد يكون الخطأ في المسألة الأم فيذهب كل عمله هباءا منثورا، ومن الممكن أن يكون الخطأ في مسألة فرعية لا يقدم أو يؤخر. فيجب على من عرف الصواب أن يتبعه، لا أن يحاول جاهدا أن يثبت أن كل ما يعتقد به من آراء هي عين الصواب، وأن الآخرين دوما على باطل. وهذا الذي ساقنا إلى التأخر وأدى بنا إلى التناحر والتقاتل واستباحة دماء إخواننا من الفرق المخالفة، ظانين أنهم من الكفرة الفجرة المخالفين المستباحين.

ولكن للأسف لا أحد يحاول أن يسمع، فكلٌ يرى أنه يمبادئه هذه هو الفرقة الناجية أما الباقون فالله أعلم بهم؛ وهو الحريص المدافع عن بيضة الإسلام أما الآخرون فهم أتباع كذا وكذا. وهكذا دوما خلاف وتركيز على نقاط الخلاف ورمي بالضلال، فعندما كنت أقرأ في كتب الأشاعرة –المتأخرين منهم– أجد هجوما حادا على ابن تيمية ومحاولات حارة من أجل تخطيئ كل ما خالف فيه!، وإظهاره بصورة المجسم، وأنه لا يكاد يفقه وأنه كذا وكذا، وإذا قرأت للسلفية تجد دفاعا مريرا عن جل آراء ابن تيمية وإظهارها بمظهر الصواب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويرمون الأشاعرة ب...، وإذا قرأت للظاهرية تجدهم يقولون أنهم مجتهدون وأنهم لم يقولوا بأقوال ابن حزم إلا لأن اجتهاداتهم وافقت اجتهاده، وعلى الرغم من ذلك لا تجدهم يخالفون ابن حزم قدر أنملة، وإذا قرأت عن الشيعة في كتب أهل السنة تجد تشويها للصورة وتخويفا من هذا المذهب، فهذا المذهب أتباع المجوس!! الذين ابتدعوا هذه العقيدة في الدين، ويُتصيد بعض الآراء والأقوال من أجل إظهار فساد هذا المذهب.

وتقرأ للشيعة فتجد إظهار مذهب أهل السنة بمظهر المتهجم على أهل البيت، المتبع للسلطة القائل بأقوال عجيبة مناقضة للعقل. وبغض النظر عن أن من أسس المذهب الشيعي هم المجوس وكان غرضهم الطعن في الدين، أو أن أهل السنة مذهب سلطوي كما يرى الشيعة، فهل الشيعة الآن مسلمون يحبون دينهم أم ليسوا كذلك؟ وهل أهل السنة لا يزالون تابعين للتيار الأموي؟

بداهة، الشيعة مسلمون محبون لدينهم والسنة كذلك، وإذا حدث بعض الخلافات بين الفريقين فهما لا يزالا مسلمين، والخلاف في الفروع مقبول، والأصول نحن متفقون عليها، ولكن المشكلة أن كل فريق يريد أن يجعل كل آراءه أصولا لا يمكن التنازل عنها[2]، أما أصول الآخرين ففروع. واقرأ إن شئت الكتب التي تتحدث عن محاولات التقريب بين المذهبين السنة والشيعة بالذات، تجد إتهامات تتراشق، وكل طرف يرى أن على الآخر أن يتنازل وأنه قدّم بعض التنازلات أما الآخر فلم يقدم شيئا! وهذه هي آفة التمسك بالفروع وعدّها من العلامات المميزة للدين، التي لا يجوز التنازل عنها أو مجرد التفكير في ذلك.

والذي يرى هذا الخلاف كله يتفكر في سبب هذا الخلاف، أولسنا كلنا مسلمين نؤمن بنفس الكتاب ونتبع نفس النبي فلما الخلاف إذن؟ "تقديس الأقدمين" هو آفة المسلمين اليوم، علمائهم وعوامهم وسبب خلافهم، فهم يقدسون جل ما قاله الأقدمون، فهم العلماء الموثقون الذين يأخذ المرء دينه منهم وهو واثق مطمئن، أما علماء هذه الأيام فالله أعلم بإيمانهم وأغراضهم! فمن الأفضل أن يعرض الإنسان عنهم لأنهم يقدمون التنازلات الكثيرة في دينهم.

وهكذا انتقل حال المسلمين من "تقدير السلف" إلى "تقديس السلف"، مع أنهم يرحمهم الله ما امتلكوا المناهج العلمية الدقيقة في البحث، ولا الاستقراءات الشاملة التي تقدمها أجهزة الحاسوب الحديثة، والتي توفر الوقت وتعطي النتائج الدقيقة، وكانت وسائل البحث فردية بدرجة كبيرة، لأنهم كانوا لا يزالون في مرحلة بدء التقعيد والتأصيل. لذا لا ننسى أن لهم فضل السبق، ولكن لا نقدس كل ما قاله الأقدمون، ونعرف أنه يسعنا الاختلاف كما وسعهم، فما داموا قد خالفوا بعضهم فلنا أن نخالفهم أيضا. ولا يعني هذا أننا ندعوا إلى الاختلاف بلا مبرر، لا فنحن ندعو إلى التوحيد قدر

[2] كنت أقرأ لأحد العلماء الأفاضل الذين يتكلمون عن المهدي المنتظر فقال: إن مهدي السنة وارد بالأحاديث الصحيحة فهو ثابت حاصل لا محالة، أما مهدي الشيعة فوارد في رواياتهم وهي غير صحيحة، فمهديهم باطل أما مهدينا فثابت خارج بإذن الله!!

المستطاع. وهذا السؤال طرحته على نفسي عندما كنت أقرأ في كتب الفقه والعقائد، لم هذا الخلاف ما دام الأصل واحد؟

فعرفت أن هذا الخلاف كله يرجع في فهم كل للقرآن، فالكل يفهم القرآن بشكل معين ويستخرج منه أصولا يجعلها أسسا للدين وللأحكام الفقهية، لا يمكن التنازل عنها، فلما عرفت أن المسألة مسألة أصول، قررت أن أنتقل من القراءة في الفروع فهي لن تقدم أو تأخر ما دام المرء لا يعرف أي أصل يستند إليه،[3] فالخلاف نابع من الأصول ولا بد لتضييق الخلاف من معرفة الأصول، فانتقلت إلى القراءة في الأصول، والحق يقال أن القراءة في كتب أصول الفقه أو في كتب العقيدة مجهد وغير مثير، وكل يدلي بدلوه حسبما يرى في كتاب الله، والخلاف لا يزال موجودا في علم الأصول كذلك والمسائل كثيرة، فعرفت أن المبدأ والمعاد إلى كتاب الله فقررت أن أوازن الآراء بكتاب الله.

ولله الحمد لم تقابلني أي مشكلة في التعامل مع كتاب الله كما تقابل الأكثرية، ففي هذه الفترة وعلى التوازي كنت أقرأ في كتب التفسير بنهم شديد، فأقرأ أي كتاب يقع في يدي يتعرض لأي مسألة ويربطها بكتاب الله نفيا أو إثباتا، ومن خلال القراءة لجميع التيارات –السنية منها فلم أكن قد بدأت أقرأ في كتب التفسير الشيعة–، من تيار سلفي يسوق الآيات إلى الروايات، ولو أدى الأمر إلى ليها أو تعطيلها، فالرواية هي لا محالة تفسير الآية ولا بأس ولا حرج أن تأول الآيات بأي شكل كان، فالروايات هي الفيصل[4] التي توضح القرآن، وتركها واتباع غيرها ضلال كبير، وإلى تيار يفسر الآيات تفسيرا عقليا، مُنَصِبا العقل حجة وحاكما على النص، فما وافق عقله أخذ به وما لم يوافق أوّله!

---

[3] يُنصح بقراءة كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد، لمن يريد أن يعرف كيف كان الفقهاء يتعاملون مع الأدلة فهو كتاب أكثر من رائع بأسلوب غير معقد وحجم ليس بالكبير، قبل الانتقال إلى مرحلة القراءة في كتب أصول الفقه.

[4] العجيب أن التيار السلفي يهاجم كل من يأول القرآن لأي سبب غير الروايات، مدعيا أن هذه الأسباب غير ذات بال، أما الروايات فهي الفيصل!

ولتيار يجعل غالب القرآن لأهل الكتاب، فيتوسع في فهم آيات القرآن فيكاد يجعله كله مخاطبا لأهل الكتاب ومسقطا على أحداثهم وتاريخهم أولا، ثم باقي العالم ثانيا،[5] ولتيار يريد أن يحصر القرآن في ثوب تاريخي يؤدي به في النهاية إلى التهميش، ولتيار يُحكِّم اللسان في فهم النص، ولكنه يقودها إلى حيث عقيدته أو هواه لا إلى ما يقوله النص، ولتيارات عدة تأخذ من هذا وذاك، وفي نهاية المطاف اقتنعت أن القرآن نص لساني مؤلفه الله أحكم الحاكمين؛ ولزاما أنه أدرى بما قال، فاقتنعت بالتوجه الظاهري في فهم القرآن.

ومن الغريب أن من أهم الدوافع لاعتناق المذهب الظاهري كانت كتابات الدكتور محمد شحرور، ومن يعرف من هو محمد شحرور وكيف يتعامل مع القرآن يتعجب من أن يكون هو أو كتاباته دافعة إلى المذهب الظاهري! ولكن كانت كتاباته ذات أثر كبير في توجهي إلى المذهب الظاهري وفي اكتشافي للوجه الحقيقي لبينة القرآن.

وبعد أن رأيت أن المذهب الظاهري في التعامل مع القرآن هو المذهب الأمثل أخذت أرجح قواعد أصول الفقه على هذا الأساس، واتبعت المذهب الظاهري في تفسير القرآن وفهمه، ثم انتبهت إلى الخدعة الكبرى التي وقعنا فيها كلنا ألا وهي الاقتناع بحاجة القرآن إلى تفسير، فلقد كنت بعد اقتناعي بالمذهب الظاهري من كبار المدافعين عنه، وخاصة في التعامل مع النص القرآني، فلقد توصلت من خلاله إلى آراء كنت أعتقد أني ما سُبقت إليها،[6] ولكني اكتشفت في نهاية المطاف أنني لا أقوم بتفسير القرآن ولكن كل ما أقوم به هو تصحيح لأخطاء الآخرين والرد على ما قاله الآخرون، والتوضيح لم أن الآخرين مخطئون في هذا التفسير أو ذاك.

---

[5] شيخ هذا التيار وفارسه الأوحد بلا منازع هو الدكتور أحمد حجازي السقا، وعلى الرغم من أني لا أوافقه في كثير من تأويلاته لكتاب الله، إلا أن كتبه في مجال مقارنة الأديان لا يختلف عليها اثنان، فهي غزيرة الفائدة، فما من مجال أو حادثة تظهر على الساحة إلا ويسارع في الكتابة عنها وإظهار وجه الشبه والخلاف بيننا وبين أهل الكتاب، رحمه الله رحمة واسعة.

[6] اكتشفت في أثناء تأليفي هذا الكتاب أن بعض الآراء التي توصلت إليها قال بها آخرون، فحزنت لفقد السبق –في النشر–، وسررت للاتفاق في النتائج بدون اتصال، لتقارب المنهج بيننا في التعامل مع النص القرآني، فاتفاق النتائج دليل على صحة المنهج.

فكانت هذه نقطة حاسمة في تعاملي مع النص القرآني، فقررت أن أقرأ القرآن مرة أخرى قراءة مختلفة، تبحث عن مواضع غامضة في كتاب الله تحتاج تفسيرا، وللعجب الشديد لم أجد أي غموض في القرآن من أوله إلى آخره. بل وجدته كله واضحا لا يحتاج إلى أي تفسير، واكتشفت في نهاية المطاف أن هذا ما يجب أن يكون عليه كتاب الله الرسالة الخاتمة للبشر، فلا بد أن تكون واضحة تمام الوضوح لا تحتاج إلى أي تفسير، والقرآن كذلك. والعجيب إننا إذا قلنا أن القرآن لا يحتاج تفسيرا، يتعجب الناس ويرفضون ذلك! والمشكلة في هذا هو الألفة فلقد وجدوا القرآن مفسرا، وقدم لهم العلماء منهجا في التعامل مع القرآن، أشكله وجعله في حاجة إلى تفسير.

والسبب في هذا التخبط الشديد راجع إلى العلماء أنفسهم، فلقد اتبعوا منهجا مقلوبا عجيبا في التوفيق بين القرآن والسنة، ومنهجا أعجب في فهم القرآن ذاته، وبسبب هذا المنهج العجيب المخالف لسيرة النبي(ص) والصحابة في التعامل مع القرآن، ظهرت كتب التفسير! والقرآن ما كان له أن يُفسر ولا يستطيع أحد أن يفسره مهما على كعبه، فالرسول المعصوم ما فسره قط، وكل ما فعله أنه أوّل منه بعض الآيات التي كان الناس في حاجة إلى تأويلها في هذا العصر، وكان على المسلمين أن يتبعوا منهج النبي(ص) والصحابة في التعامل مع القرآن، فيأولون في كل عصر ما يستطيعون تأويله، ويدعون ما لا يستطيعون، ولكن للأسف الشديد ومع إنقضاء عصر الصحابة انمحى عند المسلمين فهم ومعرفة الآية[7] الحقيقية للقرآن، فوجدنا من يقول أنه فسر القرآن كله!

ثم ظهرت بعد ذلك كتب التفسير، وكانت هذه هي الطامة الكبرى في التعامل مع القرآن، فمع ظهور كتب التفسير تراجع القرآن وتقدمت هذه الكتب، وصار كل فريق يؤلف الكتب في نصرة مذهبه ونقل روايات فريقه، ثم ازداد المسلمون تخلفا وظهرت شروح الشروح واندثر اللسان العربي وانمحى أثره أو كاد، وأصبح القرآن ألغازا يُحتاج

[7] نرفض استعمال كلمة معجزة مع القرآن الكريم، ونعده لأسباب كثيرة –ليس هذا محل ذكرها– استعمالا غير صحيح، ونستعمل ما استعمله الله عز وجل وهو "آية".

إلى فك طلاسمها، وكان الملجأ والملاذ في هذا هو الرجوع إلى كتب التفسير، فانكب الناس على كتب التفسير يفهمون بها كتاب الله!، ثم صارت كتب التفسير هي القرآن أو تكاد، فما قاله المفسر الفلاني أو ما نُسب إلى الصحابي العلاني هو تفسير الآية، ولا يجوز أن نعدل عنه بل لا بد أن يؤخذ كما هو. ونحن نقول: هذا كله ترهات يجب على المسلم تركها وراء ظهره، ولا يلقي لها بالا، فالمسلم لا يجوز له التقليد بأي حال في أوامر أو نواهي القرآن، وبداهة لا يجوز كذلك في عقيدته.

وطبعا سيعجب الكثيرون ويتساءلون: كيف يفعل المسلم هذا، فهذا يحتاج إلى أدوات لا تتوفر لكل مسلم، فمن أين لنا بالزمان أو المكان لمعرفة أحكام الدين؟ ونحن نقول: الدين يسير وأوامره أسهل ولا تحتاج إلى كبير مجهود، ومن يقرأ القرآن كقرآن ويفهم السنة من خلاله، يعرف أن الدين جد يسير وأن القرآن ورب الكعبة ما احتاج – ولن يحتاج– في أي يوم إلى تفسير. فإذا كان الكلام المبين كلام رب العالمين يحتاج إلى تفسير فهو ليس بمبين، وإذا كان أحسن القصص يحتاج إلى تفسير فهو ليس بجيد، بله أن يكون كما قال الله أحسن القصص، أفندعي نحن أنها تحتاج تفسيرا؟ فهل وجدتم ظلما حاق بكتاب أكبر مما حاق بهذا الكتاب المبين، المرسل رحمة للعالمين؟

لذا أدعوك عزيزي القارىء أن تأخذ جولة طويلة بعض الشيء[8] في هذا الكتاب، نوضح لك فيها لم أن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، وأن كل الكتب الموجودة على الساحة بلا استثناء هي كتب –تعسير– وليست تفسير، كتب وضعت الحواجز أمام كتاب الله،[9] أمام الفهم الصحيح والتأويل الصريح لكتاب الله، وأن القرآن كتاب تجميع لا تفريق، وهداية لا غواية، وأن علينا أن ندع هذه الكتب لأهلها من طلبة العلم

(8) سبب طول هذا الكتاب هو الرد على المفسرين، وإظهار مواطن الخلل في كتبهم عن طريق الكثير من النماذج، ولولا هذا لصغر حجم الكتاب كثيرا، ولكن هذا جد ضروري لعرض الاختلاف بين المنهجين في التعامل مع القرآن الكريم.

(9) نحن لا نطعن في المفسرين أو نواياهم أو إيمانهم، فلقد كانوا جميعا متبعين للمنهج السائد في عصرهم، ونحن نقر أنهم علماء أجلاء جهابذة أوسع منا علما، ولكن ماذا يجدي العلم مع خطأ المنهج؟

الذين يدرسون هذه العلوم، أما المسلم العادي فعليه أن يأخذ دينه من كتاب ربه مباشرة.

وندعو الله أن لا نكون من المتقولين عليه أو على كتابه، وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من سهو أو نسيان أو خطأ أو زلل فمني ومن الشيطان، والله المستعان.

تنويه

نود التنويه هنا إلى بعض المصطلحات المستخدمة في الكتاب حتى لا يحدث لبس في فهم المعنى المراد:

يُستعمل "التأويل" في الكتاب بمعنيين مختلفين، فيستعمل مع غير المؤلف بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح، وهو ما لا يجوز بأي حال، ويستعمل مع المؤلف بمعنى تنزيل الآية على الواقع وفهمها من خلال النص بدون زيادة أو نقصان.

يستعمل "اللسان" كإشارة إلى معجم لسان العرب الشهير لابن منظور، وأحيانا يُستعمل بمعنى اللغة العربية.

يستعمل "المقاييس" كإشارة إلى معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس، ويعد هذا المعجم الوحيد في اللغة العربية الذي قام على نظام الاشتقاق الكبير، الذي يعيد المعاني المختلفة للكلمة إلى أصل واحد أو أصلين.

"المتن" هو نص الحديث.

"السند" هو الرجال الذين نقلوا الخبر.

وصف العلماء "بالأفاضل أو السادة الأفاضل" هو وصف حقيقي وليس من باب السخرية، حتى لا نُحمل ما لم نقل أو نقصد.

المقدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [سورة محمّـد, ٢٤]، ويقول كذلك: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [سورة الفرقان, ٣٠]، ويقول أيضا: ﴿... وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [سورة آل عمران, ٢٤]

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على خير الأنام، المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار، أما بعد: فمن حق الله على عباده أن يقرأوا كتابه ويتدبروا آياته، ليروا ويعرفوا ما أمرهم به ربهم وما ينصلح به حالهم وتزكى به نفوسهم ويقوم به أمرهم ويتأسس عليه بنيانهم، وينشأ عليه صغيرهم ويشب عليه غلامهم ويعيش به رجالهم ويموت عليه شيوخهم.

لذا أمر الله عز وجل كل خلقه بقراءة كتابه وتدبر آياته في كل الأزمنة والدهور والأمكنة: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٢٩﴾ [سورة ص, ٢٩]، فلم يستثن الله سبحانه أحدا من قراءة كتابه وتدبره، ولكنه لم يلزم جميع خلقه بأن يكونوا فقهاء في الدين فهذا أمر جد عسير وإيجابه ملزم للشدة والتقتير، والله بخلقه رحيم ومع عباده اجتنب الشدة والتعسير، فلم يكلفهم إلا بكل يسير؛ يقول تعالى: ﴿... لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [سورة الـطلاق, ٧].

فعلى كل العباد القراءة والتدبر وعلى فريق التفقه والتفكر: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [سورة التوبة, ١٢٢]

فالإسلام وإن لم يكن فيه رجال دين -فكل المسلمين سواء- ولكن هناك علماء دين يوضحوا للناس ما قد يلتبس عليهم من ما ورد في دين الله وما أمر به في كتابه الكريم، وهذا مراد الله ومبتغاه حيث ختم الرسالات بسيد الخلق أجمعين وبقرآنه المبين، وترك رسالة السماء بين البشر ليتدبروا أمورهم، وبطبيعة الحال تفرغ بعض الخلق لخدمة كتاب الخالق، ووثق الناس بهم وأخذوا ما قالوا به، فهم كما يرى كثير من الناس موقعون عن رب الأرباب.

وحتى هذه النقطة فالأمور تسير بشكل حسن وجميل ولكن -وآه من لكن هذه- التقعيد شيء والتطبيق شيء آخر، فالله عز وجل أنزل كتابه خالصا صافيا واجبا -والحمد لله تكفل الله بحفظه فحفظ كما هو خالصا صافيا- ولكن لحقه على مر العصور كثير من الشوائب والعوائق والقيود، التي قيدته وفي بعض الأحيان ألغت آيته وأحكامه. فالقرآن لن يدخله التحريف فقد حفظه العزيز اللطيف، ولكن مشكلة الناس العظمى معه تكمن في التفسير فهو في عرفهم يحتاج إلى تفسير!، والناس متفاوتو الأفهام والميول وكلٌ له حدود فيها يصول ويجول وبعدها لا سبيل للوصول إلا بفتح الغفور الشكور.

وعلى الرغم من محدودية عقول الناس خاضوا في التفسير وحددوا معاني كتاب الله عز وجل، ثم أصبحت فيما بعد كتب التفسير عند عامة الناس على نفس القدم مع كتاب الله عز وجل أو تكاد، مع أنه لا يفترض أن توجد كتب تفسير بأي حال، وذلك لأن كتاب الله مطلق والتفاسير مهما كانت ومهما علا شأن صاحبها نسبية، لا تصلح إلا كفهم مرحلي لكتاب الله عز وجل، ولكن لما استمرت التفاسير النسبية على الرغم من تقادم عهدها وعدم صلاحيتها لخطأ نهجها، كان لا بد من وقفة في هذا العصر مع كتاب الله نحاول بها أن نزيح كثيرا مما علق به على مر العصور ولحق به على مدار الدهور، وننظر هل وفاه الناس حقه وهل تدبروه أم أنهم فقط تلوه؟ ولاكته الألسنة والشفاة بدون مدلول في العقول والقلوب؟

فقد اختلط الأمر هذه الأيام اختلاطا شديدا وأصبحنا نرى ونسمع تقولا شديدا على الله عز وجل ويقول هذا ويتشدق ذاك "هذا أمر الله، هذا مراد الله، هذا ما قاله الله عز وجل" والله عز وجل مما يقولون براء. وينظر المرء في مستند هؤلاء، فلا يجد معهم إلا تفسيرات واهية أو حتى عاتية يقيدون بها كلام الله عز وجل ويحرفونه عن مواضعه، فوقعوا في نفس خطأ الأمم السابقة فغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون.

وبعد ظهور وتراكم هذه الكميات الهائلة من كتب التفسير التي بها الكثير والكثير من الغث والسمين، انزوى النص القرآني بعيدا وأصبح شيئا مؤخرا والتفاسير والأقوال هي المراد وعين الصواب، وعبنا على النصارى عدم أخذهم ما في كتبهم وإتباعهم أقوال رجال، ووقعنا نحن معهم في نفس الدرك فقلنا: "هؤلاء علماء ثقات ربانيون يأخذ منهم المرء دينه أما رجال الديانات الأخرى فكان غرضهم التحريف".

ولعمري لقد كان هذا نفس فكر الآخرين ومعتقدهم، ولا يعني هذا أننا نطعن في علمائنا وسلفنا ولكن لزام كما قيل من النظر من أين نأخذ ديننا، فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع، ففيه ومنه نستخرج كل ما تحتاجه البشرية في حياتها وبعد مماتها حقا لا مبالغة أو مجازا، لذا كان هذا الكتاب الذي يحاول على استحياء نفض أكوام التراب الفكري والتراثي والقبَلي الذي تراكم على كتاب الله فقل ضياؤه وإشعاعه –وإن كان لا يزال متوهجا وقادا– وحتى يعود إليه صفائه وبهاؤه، ويؤدي دوره في قيادة وإصلاح الدنيا والناس كما فعل عند نزوله، ويحاول أن يقف وقفة بسيطة مع كتاب الله –كاملا لا بعضا منه– والتفاسير التي ظهرت في تفسيره، ونحاول أن نبين ونوضح كيف ينبغي أن نتعامل مع كتاب الله، كيف نفهم كلام الله، كيف نجعل القرآن أمام عيوننا وزماما لأنفسنا ولا نتخذه ورائنا ظهريا، وكيف نجعل القرآن جزءً هاما في حياة كل مسلم، يُسأل عن ترك النظر فيه وعدم التدبر في آياته، فهو عنه بذاته مسؤول ولا يصح تحميله لفقهاء أو خلافه بل الكل مسؤول عن نفسه.

والناظر في حال المسلمين من القرآن في هذا الزمان وقبله بأزمان، يتحسر على موقفهم من القرآن فالناس في زماننا من القرآن فريقان، فريق ينظر إلى القرآن على أنه كتاب هداية وأخلاق وهو لا يصلح لآليات هذا العصر، بل يجب حصره في نطاق الأخلاق العامة، وهم وإن لم يقولوها بألسنتهم –منهم من قالها– ولكن هذا واضح من أحوالهم. وفريق يقر لكتاب الله بكل خير وإجلال ولكنه أيضا عنه معرض ولا يقربه إلا تلاوة –إذا تلاه– ويستقي أحكامه من كتب التفسير والفقه، ومقر بالتبعية والقيادة لكل إمام مسجد أو قاريء للكتب أو مرجعية!!، وكلا الفريقين لكتاب الله تارك وعنه معرض، وغير ذلك من الفريقين قلة قليلة تنظر في كتاب الله وتتدبر فيه ولكنها لا تكاد تذكر، وعلى الرغم من نظرها فهي تقيد فهمها بأصول وقواعد أصلت في فهم كتاب الله، فيتحيرون ويتيهون.

وأمة هكذا حالها من كتاب ربها ومصدر عزها أنّى لها أن تنهض وأنى لها أن تتقدم، وما أقوله ليس كلاما إنشائيا بل سنعرض في الكتاب بإذن الله أن ما في القرآن أكثر من كاف وشاف لإصلاح حال المسلمين وتغيير شأنهم، ولكن أن يصير حال القرآن مع عامة المسلمين القراءة في المآتم والوضع في العربات من أجل البركة والزينة، وبخلاف ذلك يتراكم عليه التراب طيلة العام ما عدا الشهر الكريم، فهذا ما لا أمل فيه أو منه.

فبعد أن كان القرآن شفاءا للصدور في كل مجال وراحة للعقول ومخاطبة للفؤاد وبعد أن كان الجواب الشافي الكافي عن كل أسئلة الإنسان الخالدة الحائرة في كل مجال، اختُزلت نطاقات وفعاليات القرآن في مجالين اثنين لا ثالث لهما وهما الفقه والعقيدة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ... ۝٩﴾ [سورة الإسراء ,٩]

وهذا يعني أنه يجب ثم يجب ثم يجب علينا أن نستخرج من القرآن أسس كل العلوم والفنون. فمن يرد معرفة كيف نشأ الكون فليرجع إلى القرآن، من يرد معرفة كيف خلق الإنسان فليرجع إلى القرآن لا إلى كتب التفسير، من أراد معرفة ما المآل بعد الموت

فليرجع إلى القرآن، من أراد معرفة الخالق فليرجع إلى القرآن، من أراد معرفة هدفه في الحياة فعنده القرآن، من أراد معرفة كيف يحيى الحياة المثلى فعنده القرآن، من أراد معرفة الخطوط العريضة لتاريخ البشرية فعليه بالقرآن، من أراد معرفة السنن الكونية فعليه بالقرآن، من أراد معرفة الخطوط العريضة لنظم الحكم والسياسة والاقتصاد فعليه بالقرآن، من أراد التمتع بالجمال فعليه بالقرآن، من أراد طرق التفكير القويمة السليمة فعليه بالقرآن، من أراد نماذج جامعة لكل طرق الأدب فعليه بالقرآن، من أراد أسس العلوم التطبيقية –العلمية– أو النظرية فعليه بالقرآن، وخلاصة القول ما قاله الله عز وجل: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ... ٣٨﴾ [سورة الأنعام ,٣٨] أما أن نأخذ بعض الكتاب ونترك بعضه فحالنا إذا مثل حال من قيل فيهم: ﴿... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥﴾ [سورة البقرة ,٨٥]، ونستحق أن ينزل بنا الذل والهوان ويحيق بنا المحق والخسران.

والحل جد يسير: خذوا الكتاب كله وقولوا نحن مسلمون، أما أن نستحي من قرآننا لأن كتب الآخرين علامة سذاجة وبدائية وتخلف، فليكن هذا شأنهم أما القرآن ففيه كل العلم والتقدم والتحرر فلا نستحي من كتابنا بل نأخذه كله ونطبقه كله كما هو، وبهذا يكون الفلاح والنجاح والصلاح والنصرة والتمكين.

لذا سيكون الغرض الأكبر من هذا الكتاب أن نظهر للقارىء الفارق بين النص القرآني الإلهي المطلق المعصوم والتفسير البشري العاجز المحدود، وكيف أنه أدى في كثير من الأحيان إلى تشويه فهم النص القرآني وأن النص القرآني سهل يسير، متعال عن قدرة البشر أن يأتوا بمثله، وأنه ذو مكانة عالية لا يقدح فيها إلا جاهل، ونحاول أن نضع بهذا الكتاب حاجزا بين النص الإلهي والتفسير، فلقد اقترب الاثنان عند كثير من الناس، فما عادوا يفهمون القرآن إلا من خلال كتب التفسير، وما يؤخذ على أقوال المفسرين يؤخذ على القرآن، فنضع حواجز كبيرة وفواصل عاتية حتى يظل

النص الإلهي كما كان وينبغي دوما أن يكون في أبراج مشيدة، لا تنالها سهام الطاعنين ولا ألسنة المعاجزين، ويمسه فقط المطهرون المتبعون، ويظل الفهم البشري دوما مهما كان صاحبه فهما قاصرا محتملا للخطأ لا يحيط بمعاني كلمات الرحمن، بل كل مناسب لعصره ولعقله لا يتخطاه، وعلى من يأتي بعد أن يأول التأويل المناسب لهذا العصر بأدوات هذا العصر، وأن نرد إلى جميع أجزاء القرآن حقها المهدر والمضيع في التواجد على ساحة الواجبات في حياة المسلم التي أهملت أيما إهمال، حتى كأننا لسنا مطالبين بها وأنها موجودة في كتاب الله من أجل التسلية أو البركة!

لذا كان حتما ولزاما من وقفة مع مدارس التفسير المختلفة عند أهل السنة[10]، نوضح بها لم كانت كل هذه المدارس بلا استثناء مدارس قاصرة عن امتثال المنهج المناسب في التعامل مع كتاب الله تعالى، ونوضح المنهج الواجب الاتباع في التعامل مع كتاب الله تعالى المأخوذ من القرآن ومن فعل النبي(ص)، وسنضرب على ذلك بعون المنان أمثلة عديدة توضح لم كانت كل هذه التفاسير تفاسير ناقصة لا توفي النص حقه، هذا إذا قلنا أن التفاسير كانت تفسر النص القرآني!

وندعو القارىء أن يقرأ هذا الكتاب بحيادية تامة، ولا يحمله التعصب على رفض ما جاء فيه، فسيفاجىء القارىء في هذا الكتاب بكثير مما سيخالف ما ألفه وعدّه دينا، فنرجو منه أن ينزل على الحق، وألا يكون ممن قالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الزخرف, ٢٢]

وسيكتشف القارىء أن الدين وأوامره وأحكامه وعقائده جد يسيرين. وأنا أعرف أن هذا التصور سيُرفض عند كثير من الناس، عندما يكتشف أن الدين سهل يسير، لأنه ظل طيلة عمره ينظر للدين وللقرآن نظرة معينة ويرى أن ما خالفها غير صحيح ولا يجوز، ولهؤلاء نقول: إقرأ واحكم.

---

(10) أعرضنا عن تناول المدارس الشيعية لأنها تتفق مع أهل السنة في جزء كبير، وذلك لأخذهم عامة القواعد والأصول من أهل السنة، ويظهر الاختلاف عند تناول قضايا بعينها، وما عدا ذلك فالمنهج واحد تقريبا.

فالحق لا يعرف بالرجال ولكن يعرف الرجال بالحق، والحق أحق أن يتبع، فإذا رفضت رأيا في هذا الكتاب فسل نفسك لم رفضته، هل لأنه خالف المألوف وما يقول به الناس، أما لأن الدليل غير مقنع؟ فإذا لم يقنعك الدليل وعرفت سبب الخطأ فأنت على صواب، أما أن يكون ردك مثلما قيل لي: "كلامك مقنع بس مش هاقتنع" أو "هو كده" أو "هو غلط وما عرفش الصح"، فاعلم أنك ممن يقولون: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ... ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزخرف ,٢٣].

فندعو العزيز المنان أن يعصم أقدامنا من الزلل ومن أن نعيب على الناس ونفعل مثلهم. ومن يتوكل على الله فهو حسبه والله خير معين.

بدأنا في تأليف هذا الكتاب في يوم الأحد لخمس عشر مضين من ذي الحجة لعام ست وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة النبوية الشريفة، الموافق للخامس عشر من يناير لعام ست وألفين بعد ميلاد المسيح، وندعو الله أن يساعدنا في إتمامه وإخراجه كما ينبغي وفي أسرع وقت، والله المستعان.

العبد الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

الباب الأول

التأصيل

الفصل الأول: تعريف عام

القرآن نص!

كتاب الله كتاب هداية تحار له العقول والأفهام، ويخشع له الخواص والعوام، وهو وإن كان "نص لغوي" ولكنه نص لا شبيه له فهو نص معجز محكم متشابه! فهو النص الوحيد الذي احتوى علما مطلقا، قابلا للفهم البشري والتطبيق المحدودين، لذا كان من المنطقي أن يصاب العرب الأُول عند سماعهم للقرآن بتلك الصدمة الهائلة، فذهلت عقولهم وتحيرت أفئدتهم في مقابل هذا الكتاب العجيب؛ فهم يشعرون أنه مفهوم وأنه من لسانهم، ولكنه في نفس الوقت يعلو عقولهم بكثير ويتجاوز أفهامهم بمراحل عدة –وهذا ما يشعر به كل من يقرأ كتاب الله، فهو قريب بعيد دان عال سهل مستعص، تشعر فيه بكثير من الألفة وببعض الغرابة– فما هذا أسلوبهم وما كان هذا ديدنهم في الكتابة فتوقفت العقول أمام هذا النص المعجز واحتاروا فيما يقول، فما استطاعوا أن يقولوا فيه كلمة، إلا أنه من قبيل السحر أو مُكتتب من أساطير الأولين.

وتورع من ءامن منهم أن يقول في كتاب الله ما لم يرده الله عز وجل، واكتفوا بالقول في كتاب الله مما سمعوه من الرسول وما لم يجدوا فيه قولا آخر محتملا، وتحرجوا عن الخوض في متشابهه وءامنوا به كما هو وسلموا فيه وبه إلى الله عز وجل، ثم جاء بعدهم التابعون وتابعوهم فما اقتفوا أثرهم وما مشوا على خطاهم، ثم ظهر بعد ذلك المدارس المختلفة للقرآن فوجدنا من فسر القرآن تفسيرا بلاغيا، ومنهم من فسره تفسيرا فقهيا ومنهم من فسره تفسيرا نحويا.

واختلفت المدارس التفسيرية اختلافا كبيرا إلى يومنا هذا، وظهرت مدارس تفسيرية كثيرة مختلفة المناهج والأهواء كل منها يفسر القرآن على منهجه وأصوله، وبطبيعة

الحال كان ثمة أصول للتفسير متفق عليها أشهرها ما استقاه الإمام ابن تيمية رحمه الله في التفسير.

ولكن للأسف الشديد لم يتوسع الناس في علم أصول التفسير كما توسعوا في علم أصول الفقه، لذا استمر علم التفسير علما غير ناضج، خداج يحتاج إلى تقعيد واسع. ولو حاولوا أن يتوسعوا ويدققوا قليلا في أصول التفسير من كتاب الله لانهار هذا الصرح، ولعلموا أنه لا يحتاج إلى تفسير بل إلى منهج آخر، ولكن لم يحدث هذا، بل تخبط الناس في تفسير كتاب ربهم وتحيروا فيه، وكلٌ تابع لأصول من سبقه في التفسير فهذا له فيه رأي، وهذا لا يتبع ذاك في أصوله ولكنه يؤصل أصولا أخرى، وكل يدعي أن أصوله هي الأقوم والأصح والآخر جانبه الصواب في تأصيله، وهذه هي آسفة الآسافي فالإنسان يرى الدليل والبرهان أمامه واضحا ولكن لا يلتفت إليه لأنه ينظره من زاوية مقلوبة، والعيب منه فلا بد من النظر من زاوية صحيحة حتى يفهم النص، أما أن نقلبه ليستقيم معنا فهذا ما لا يصح بأي حال من الأحوال.

لذا سنحاول أن يكون تحركنا في هذا الكتاب تحركا قرآنيا قدر الإمكان نستنبط منه القواعد والأسس، حتى لا يكون الأمر مثار خلاف وشقاق، ولكن قبل الخوض في أي نقطة من النقاط لا بد من التعرض لبينة القرآن وما هي الآية الحقيقية فيه؟ ففي هذه النقطة الفيصل في التعامل مع القرآن.آية القرآن.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء ,٨٨]، ويقول أيضا: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الطور ,٣٤]، ويقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣]

القرآن، كتاب الله الخاتم أنزله على عبده محمد، الرسول الأعظم السراج المنير فنزل النور على النور، فأضاء العالم ضياءا مستمرا إلى قيام الساعة ضياءا لا قرب منه ولا

مضاهاة، أنهى الله به اتصال السماء بالأرض وختم به الكتب وهيمن عليها، وانقطع الوحي التشريعي من الله فلا تبديل ولا نسخ، فالكتاب منزل لكل زمان ومكان جان وإنسان، كتاب يدعي المسلمون عن إيمان عميق أنه كتاب بيّن، لا شبيه له يخاطب العقول والقلوب، صالح لمن يعيش في الغابات ولإنسان القرون القادمات، ولكن يحق للمسلم ولغير المسلم أيضا أن يسأل ما آية القرآن، فهو نص متلو مكتوب كغيره من النصوص يقرأه الكافر فلا يؤمن، فما المزية في هذا الكتاب عن غيره من الكتب؟

لا بد من البداية أن نُذكر أن القرآن كتاب بيّن لا كتاب سحر، يخاطب العقول والقلوب فمن أغلقهما فما من سبيل إليه، والقرآن نفسه يشير إلى هذا النقطة فيقول ﴿... قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة فصّلت, ٤٤] فمن فتح قلبه خاطبه القرآن ومن أغلقه وقال "قلوبنا في أكنة" فلا سبيل للقرآن معه، ونعود مرة أخرى إلى سؤالنا، ما هي آية القرآن البينة؟

آية القرآن

اختلفت الآراء في آية –إعجاز، تبعا للاستعمال المعوج– القرآن اختلافا كبيرا وسنعرض هذه الآراء، ثم نعرض في نهاية المطاف رأينا في آية القرآن. الآراء في آية القرآن هي:

1– وجه "إعجاز" القرآن هو الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل ... قد نضدت عباراته نضداً مؤتلفاً، ونظمت فرائده نظماً متلائماً، وضعت كل لفظة منه في موضعها اللائق بها، ورصفت كل كلمة منه إلى كلمات تناسبها وتوائمها، وضعاً دقيقاً ورصفاً تاماً، يجمع بين أناقة التعبير وسلاسة البيان، وجزالة اللفظ وفخامة الكلام، حلواً رشيقاً وعذباً سائغاً،

يستلذه الذوق ويستطيبه الطبع ... مما يستشفّ عن إحاطة واسعة ومعرفة كاملة بأوضاع اللغة ومزايا الألفاظ والكلمات والتعابير ... ويقصر دونه طوق البشر المحدود! قالوا في دقة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثم أدير بها لسان العرب كله على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاص، لم توجد البتة..

2- وتوسع المحدثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب: أنغام وألحان تبهر العقول وتذهل النفوس، نظمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة، ورصفت ألفاظه وعباراته على ترصيفات موسيقية رقيقة، متناسبات الأجراس، متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة وجذبة شعرية عجيبة، واستهواء سحريّ غريب!

3- وأضاف المحققون جانب اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تنبئك عن لطيف سرّ الخليقة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وجمال وعظمة وكبرياء، بما يترفع كثيراً عما راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواء في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيين.

4- وهكذا تشريعاته جاءت حكيمة ومتينة، متوافقة مع الفطرة ومتوائمة مع العقل السليم ... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشأتين.

5- وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق الدعوة وإثبات الرسالة ... في بيان رصين ومنطق رزين وفصل خطاب.

6- واشتماله على أنباء غيبية، إما سالفة كانت محرفة سقيمة، فجاءت محررة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عما يأتي، تحقق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.

7- إلى جنب إشارات علمية عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، مما لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان العائش يومذاك.

8- وأخيراً استقامته في البيان، وسلامته من أي تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كل مشتمل على مزية ذات حكمة لا توجد في أختها، وكذا خلوه عن الأباطيل وعما لا طائل تحتها.

9- لكن هناك وجه آخر يجعل آيته أمراً خارجياً عن جوهر القرآن بعيداً عن ذاته، وإنما هو لعجز أحدثه الله في أنفس العرب والناس جميعاً، ومنعهم دون القيام بمعارضته قهراً عليهم. وهو القول بالصرفة، الذي عليه بعض المتكلمين الأوائل،[11] ومن لف لفهم من الكتاب الأدباء.

وبعد أن عرضنا هذه الآراء حول آية القرآن، نبدأ في مناقشتها، ولنرى إلى أي مدى كانت على صواب، وإلى أي حد جانبها التوفيق:

إذا نظرنا إلى أوجه الإعجاز وجدنا أن الرأي الأول والثاني يدوران في فلك البينة اللغوية، سواء كانت بلاغية أم سماعية موسيقية أو تناسقيا، وهذا وجه من أوجه جمال القرآن التي لا تظهر بهذا الشكل في أي كتاب آخر ولكن هل يمكن أن يكون هذا آية القرآن الذي أخبر أن البشر قاطبة لن تأتي بمثله؟

ونحن نجد أنه إذا أراد أي مسلم أن يتحدث عن آية القرآن، فأول ما يبدأ به هو بينته اللسانية، وأنه نص لا شبيه له من حيث الفصاحة والبلاغة والتناسب والتناسق والانسياب وموسيقية النص إلى آخره من خصائص النص العربي، وبداهة لا يمكن أن يكون هذا آية القرآن الأولى، فالقرآن للناس كافة وهذا الوجه يخص العرب منهم فلو جعلناه كذلك لكان معنى ذلك أن القرآن منزل إلى العرب خاصة وهذا ما لا يقول به مسلم، فالمسلمون مجمعون على أنه للناس كافة، ولا يقبل التمحك والقول بأن "إذا

---

[11] من العجيب أن المعتزلة كانوا من القائلين بالصرفة.!!

لم يستطع العرب وهم أرباب اللسان والبيان، فلن يستطيع غيرهم"، لأنه أخبر أن الكل لن يأتوا بمثله أبدا، عربا كانوا أو عجما، إنسا كانوا أو جنا.

إذا فالبينة اللسانية يستطيبها العرب ويستشعرونها، أما غير العربي فلا يدخل في هذا الباب لأنه لا يفهم العربية ولا يستشعرها، وإن كان يمكن أن يشعر بانسيابية النص وتناسقه الصوتي وإن لم يفهمه، إذا فالوجه الأول والثاني وهما أكثر الوجوه شهرة يمثلان جانبا بسيطا من بينة القرآن، ولكن لا يمكن أن يكونا آيته بأي حال.

وإذا نظرنا في القول الثالث وهو قوله باشتمال القرآن، على معارف سامية وتعاليم راقية تنبئك عن لطيف سرّ الخليقة، وبديع فلسفة الوجود فهو قول رائع وهو من أوضح نواتج آية القرآن، وهي وإن كانت تعلو على مثيلاتها في الكتب المقدسة الأخرى ولكن أتباع الديانات الأخرى السماوية والوضعية يرون أن أديانهم تشتمل على فلسفات ومعارف راقية سامية أفضل من القرآن أو مثلها.

وإذا نظرنا إلى الرأيين الرابع والخامس وهما اشتماله على التشريع المناسب الموافق للفطرة والبراهين المنطقية المستقيمة الواضحة على صدق الرسالة، فهذا ناتج من نواتج البينة، ولكنه لا يكفي ولا يصح أن يكون النقطة الفاصلة، فهناك من يرى أن تشريعات القرآن مأخوذة من الكتب السابقة ومن بيئة العرب، فلا وجه للجدة في هذا الأمر ويرى أن تشريعات القرآن غير صالحة لكل العصور والأزمنة.[12]

أما مسألة اشتماله على أنباء غيبية فهو وجه عظيم كآية للقرآن، ولكن لا يمكن أن يستخدم مع غير المسلمين كوجه من وجوه التدليل، لأنهم سيقولون أخبارنا هي الصحيحة وأخباركم هي السقيمة وأما التنبؤات المستقبلية فهي من باب الصدفة وهي ليست كثيرة.

[12] نبع هذا القول بسبب المساواة بين الشرائع القرآنية الخالدة الثابتة المستمرة وبين التأويلات النبوية المؤقتة، التي جعلها السادة الفقهاء تشريعات دائمة، فتراكمت التشريعات التي لا يمكن أن تكون بأي حال مناسبة لجميع العصور.

أما مسألة اشتماله على إشارات علمية إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود فهو من أكبر بينات القرآن، إن لم يكن أكبرها، ولكن غير المسلمين يدعون أن المسلمين يتمحلون من أجل تفسير النصوص بهذا الشكل، ويقولون هذا تعسف في التفسير، فلو كانت الآيات تفهم كما تقولون فلم لم تكتشفوها أنتم قبل الغرب؟ وسيرد على هذا القول ردا واسعا.

أما مسألة استقامته في البيان، وسلامته من أي تناقض واختلاف، في طول فترة نزوله فهو أيضا من أكبر الدلائل، ولكن غير المسلمين يقولون أن هذا القول غير سليم، وأن القرآن مليء بالتناقضات بدليل وجود الناسخ والمنسوخ، هذا غير الأيات المتعارضة التي لا يمكن التوفيق بينها، وسنفند هذا القول أيضا.

أما القول بالصرفة فهو من أوهن الأقوال التي لا يمكن قبولها ولا يصدر إلا من إنسان لم ينظر في كتاب الله ولم يتدبره، فلما لم يجد فيه شيئا، قال أن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله وإن كانوا يستطيعون لخُلِّيَ بينهم وبين الإتيان بمثله!!

وبعد أن عرضنا لأشهر الأقوال حول آية القرآن ووضحنا قصورها وأنه لا يسلم أحدها من مطعن ونقص، نذكر الآن آية القرآن الكبرى، فنقول: آية القرآن هي القرآن نفسه كله أو جزأه، إذ لا يصح أن يُسأل: أين الإنسان من الإنسان أو أين الساق من الساق؟! سيسأل سائل: كيف ذلك، أنت لم تعط إجابة للسؤال؟ نقول: البينات منتشرة وموجودة في القرآن كله ولا يمكن تخصيص شيء منه لأن القرآن ببساطة هو كتاب الله، والله مطلق الذات مطلق العلم، فعندما أنزل الله للبشر كتابا يحتوي علماً من علمه أنزل كتابا ثابت النص –فحروف القرآن وكلامه ثابت لم ولن يتغير– ولكن مضمونها ومفهومها ودلالتها هائل متغير لا ينتهي ولا يقف عند حدود زمان أو مكان، بل هو مناسب ومطابق لكل العلوم في كل الأزمنة والأمكنة، وقد توجد به بعض الغرابة ولكن لا يوجد أبدا تعارض بين القرآن وبين العلوم والعقول بل يظهر لكلماته دوما

دلالات جديدة، وهذا هو آية القرآن فهو فيه كله وفي جزأه سيان وهو المدلول المطلق في النص الثابت في مقابلة العقل العاجز المتغير بصياغة بلاغية راقية.

وهذه النقطة كانت وستكون مشكلة التفسير العظمى عند المسلمين، فهم جميعا يتشدقون بصلاحية القرآن لكل زمان ومكان، ولكن عندما يفسرون القرآن يثبتون المدلولات والماصدق للآيات على ما قاله الأقدمون ولا يراعون المحتوى الهائل للكلمة،[13] وبذلك يقعون في مأزق تاريخية النص، الذي يؤدي حتما إلى القول بعدم صلاحية القرآن للعصور الحالية والقادمة. أما إذا طبقنا ما نقول به، وفهمنا القرآن من خلال ما ندعيه ونراه فستظهر آية القرآن، واضحة جلية في كل زمان ومكان، في السورة الواحدة كما في القرآن كله.

ولسائل أن يسأل: ما الدليل على صحة ما تقول، لم لا تكون الأقوال السابقة هي الصحيحة، وما تدعيه هو الخطأ؟ فنقول: الدليل على ذلك هو القرآن نفسه، حيث أنه أخبر[14] أن الناس قاطبة لن يأتوا بسورة من مثله، وإلى الآن لم يأت أحد بمثله، ولو كانت آية القرآن –كما يرى بعضهم– هو في البيان والبلاغة، فلن يعجز العالم أن يأتي بنص قمة في الفصاحة والبيان لا يتجاوز السطرين. ولو كانت المسألة تشريعا، فليست كل السور مشتملة على تشريع وفلسفة وجود، ولو كان الأمر إخبار بغيبيات فليس في كل سور القرآن ذلك بل ذلك في قلة من السور.

إذا يكون القول أن كل ما ذكر مسبقا هو ناتج لآيته، وليس الآية نفسها، لأن آية القرآن الموجود فيه كله كوحدة واحدة موجودة في جزئه، الذي قد لا يذكر فيه غيبيات أو تشريع. إذن فآية الكل هي آية الجزء وهي: "المدلول المطلق في النص الثابت في مقابلة العقل العاجز المتغير بصياغة بلاغية راقية".

---

(13) ولا نعني بذلك أن نسقط الدلالات القرآنية على ألفاظ مستحدثة الاستخدام مثل ذلك العالم الذي فسر "الجوار الكنس" بالثقوب السوداء لأنها تشبه في عملها المكانس الكهربائية .

(14) ما جاء في القرآن هو من باب الإخبار وليس من باب التحدي، لأن الله تعالى أكبر من أن يتحدى البشر أو أي خلق آخر!

ونورد ما ذكره الدكتور محمد شحرور في هذا السياق حيث قال: "لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود بحيث نفهم فهماً نسبياً حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يحاول فهم القرآن فيه. فهو قد حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي لهذه الحقيقة بآن واحد، وهذا لا يمكن لإنسان أياً كان أن يفعله. فالمطلق عبر عنه مادياً في الصيغة اللغوية المحدثة "الذكر"، فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذي عاش فيه ابن كثير فما علينا إلا أن نقرأ تفسيره، وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة فما علينا إلا أن نتتبع تفسيراتهم وعلى رأسهم ابن عباس. فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن لا المعرفة المطلقة، وهذا هو سر الإعجاز الأكبر في القرآن وهو "التشابه". أما الوجه الثالث من أوجه الإعجاز فهو أننا نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللغوية هما الصياغة العلمية الموضوعية كصياغة إسحاق نيوتن وآلبرت انشتاين وابن الهيثم لنظرياتهم، وهناك الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وأينشتاين وابن سينا وابن الهيثم صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين وشكسبير دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن تكون على حسابها؟ إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة وهذا هو الوجه الثالث من الإعجاز. إن كل ما كتب عن إعجاز القرآن عند السلف إنما يتعلق بالجزء الأدبي من الوجه الثالث للإعجاز، أقول إنه لو كان الإعجاز فقط أدبياً، وافترضنا أنه لا يمكن تقليد صياغة القرآن من الناحية الأدبية الفنية فهذا يعني أن الإعجاز واقع على العرب فقط دون غيرهم لأن الصياغة القرآنية جاءت بلسان العرب. والقرآن نفسه يقول: إنه لو كان المقصود بالإعجاز الصياغة فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من الناحية الصنعية فقط وهذا ما جاء في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾] سورة هود ,١٣[في هذه الآية جاء النوع الأول من التحدي وهو أن يكون الموضوع غير قرآني والصياغة قرآنية. وهذا ما سماه بالإفتراء، ففي هذه الحالة طلب عشر سور ووضع الإعجاز فيها فيمكن أن

نستنتج بالضرورة أن المفتري يمكنه أن يأتي بأقل من عشر سور. فهل هذا الإعجاز واقع على العرب وحدهم أو عليهم وعلى غيرهم؟ الجواب: على العرب وعلى غيرهم من الأقوام لأن المطلوب هو الافتراء من الناس، كلٌ في لغته، العربي بالعربية والفارسي بالفارسية والإنكليزي بالإنكليزية وهكذا دواليك. فالمطلوب بالضبط هو أن يؤخذ موضوع غير قرآني مفترى. مثال على ذلك قصة حب بين رجل وامرأة أو قانون علمي موضوعي كقانون الجاذبية، وتصاغ هذه القصة أو القانون بشكل قرآني أي أنها يجب أن تحتوي على الشروط التالية:

1- أن تحتوي على القوانين المطلقة للحب بشكل يفهمها كل قارئ حسب وعيه ومداركه عن الحب أي أن تحتوي على علاقة جدلية بين المطلق والنسبي.

2- أن تكون فيها المعقولات عن الحب تسبق المحسوسات "أي الأخبار عن الحب سبق معلومات الناس عنه".

3- أن تصاغ صياغة فنية رفيعة.

هذه الشروط الثلاثة وبشكل خاص الشرطان الأول والثاني هي التي تسمح بالتأويل. (...)، والشكل الثاني والذي جاء على شكل سورة واحدة هو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾] سورة البقرة ,٢٣[(...) أما التحدي الأكبر فهو اجتماع الإنس والجن قاطبة لغاية واحدة وهي الإتيان بمثل هذا القرآن. أي لو جند الإنس والجن علماءهم وأدباءهم ومعاهد أبحاثهم لهذه الغاية فقط فإنهم مع ذلك لا يستطيعون تحقيقها. إنه من الخطأ القول كما قال بعضهم: إنه تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة، والخطأ في ذلك أن كل آية من آيات التحدي تمثل نوعاً من التحدي مختلفاً عن الآخر. والتحدي في كل

أنواعه لم يكن للعرب وحدهم وإنما كان للناس جميعاً كل في لسانه، وليس من الضروري على غير العربي أن يتعلم العربية لكي يشمله الإعجاز."اهـ[15]

إذا فآية القرآن واحدة، وهي كما ذكرت في أول الكتاب أنه نص مطلق يحتوي علم الله المطلق الذي لا يحيطه زمان أو مكان وهذا النص ينطبق مع الواقع في كل زمان ومكان، فإذا لم يظهر هذا التطابق فالعيب في تأويلنا نحن للنص لا في النص ذاته أو أن هذا الواقع ليس بواقع بل هو وهم كبير، وكل ما ذكره المسلمون من وجوه لآية القرآن ما هي إلا نواتج لإعجاز القرآن وليست آيته ذاتها، والله أعلم.

نظرة موجزة في تاريخ القرآن

في يوم موعود وليلة مباركة[16] في شهر طيب وفي مكان طاهر في ساعة من ساعات الليل بدأ الوحي، وبدأ نزول القرآن على آخر المرسلين وخير خلق الله أجمعين، وبدأت رحلة النبي والمسلمين مع كتاب ربهم، وبدأ تلقي الوحي من الأمين جبريل عليه السلام. وكما نعلم كان النبي(ص) أميا –لنا مع هذه الكلمة وقفة فيما بعد– أي لا يقرأ ولا يكتب، فتعهد الوحي بكتبة مخصوصين يكتبون كل ما ينزل على النبي من قرآن وكان من كتبة الوحي هؤلاء زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبي بن كعب الأنصاري والزبير بن العوام، وكان كلما ينزل على النبي(ص) جزء من القرآن كبر أم صغر يستدعي الكتبة فيدونون ما نزل على النبي في ألواح ورقائق، روى أبو صالح عن ابن عباس في سورة الأنعام قال هي مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم".

---

(15) محمد شحرور، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة.

(16) وهذه الليلة المباركة هي ليلة القدر التي تحل في العشر الأواخر من رمضان كما جاء في الأحاديث الصحيحة ويجتهد المسلمون في طلبها كل عام ويرون أنها ليلة معينة ولكن الذي أراه أنها تدور في ليال العشر الأواخر فتأتي كل عام في ليلة مخالفة ليلة العام الماضي أو موافقة، كل بأمر الله.

ولا خلاف بين المسلمين في أن القرآن على عهد النبي كان يحفظه المئات من المسلمين كله أو جزءا منه بجوار النسخ المكتوبة من الصحابة، وإنما الخلاف بين السنة والشيعة في هذا الشأن يدور حول نقطة واحدة وهي: هل ترك الرسول(ص) القرآن ككتاب مجموع أم أنه تركه مفرقا في الصحائف والصدور ثم جمعه أبو بكر الصديق بمشورة عمر بن الخطاب؟

يرى أهل السنة أن القرآن كان مكتوبا على عهد النبي، ولكنه كان موزعا على الرقائق التي كانت مع الصحابة ثم جُمع في مصحف واحد، ويستدلون بما رواه البخاري: "أن عمر أتى أبا بكر وقال له: إني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقال له أبو بكر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) –إلى أن قال:– قال أبو بكر لزيد: إنك رجل شاب لا نتهمك ... قال زيد: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال"

ويرى الشيعة أن القرآن كان مجموعا على عهد النبي في مصحف، ولا يشترط أن يكون المصحف مخيطا وله غلاف، ولكن يكفي فيه الجمع في مكان واحد وبطبيعة الحال كان المصحف الذي عند النبي هو المصحف المرتب بالترتيب المعتمد، وكان ثمة مصاحف موجودة عند الصحابة رضوان الله عليهم، ويستدلون على ذلك بما رواه البخاري: "4619– عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك (رضي الله عنه): من جمع القرآن على عهد النبي (صلى الله عليه وآله)؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه." قال الشارح العسقلاني: قوله "أبو زيد ونحن ورثناه" القائل ذلك هو أنس، وقد تقدم في مناقب زيد بن ثابت. قال قتادة: قلت: ومن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي." ومنها: ما أخرجه النسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر: "قال: جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: اقرأه في شهر. ومنها: ما رواه الحاكم عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) نؤلف القرآن من الرقاع، ثم

قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفيه الدليل الواضح على أن القرآن إنما جمع على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)."[17] اهـ

فهم يقولون أن قول أنس يعد دليلا صريحا لما يذهبون إليه من القول بأن القرآن كان مجموعا في عهد النبي(ص) حيث أن حمل "الجمع" هنا على الجمع في المصحف أولى من الحمل على الحفظ، لأن القرآن كما هو معلوم كان يحفظه أكثر من هؤلاء الأربعة.

ولأهل السنة في تأويل هذه الرواية وجعلها على الحفظ وجه متعسف، ونحن نرى أنه كان هناك عدة مصاحف في عهد النبي، منها ما كان عند النبي، ومنها ما كان عند الصحابة، واستدلال الأخوة الشيعة بهذه الرواية في ما يقولون به مقبول جدا وأولى، لموافقته المشاهد من وجود مصاحف للصحابة وموافقة للفظ وموافقة للعقل. حيث أنه يبعد جدا أن يكون الصحابة كأفراد قد جمعوا المصحف لأنفسهم وترك الرسول(ص) المصحف مفرقا.

وقد كانت مسألة وجود مصاحف للصحابة تحيرني جدا، فكيف يكون لأفراد من الصحابة مصاحف مخصوصة ومصحف النبي مفرق بين الأمة، ولكن لما قرأت هذا الرأي للشيعة من وجود مصحف للنبي(ص) وجدت أنه مقبول جدا، مع الفارق أننا نقول أن المصاحف كانت مجموعة ومرتبة ككتاب وليس كصحف فقط.

والقول بهذا القول أولى من عدة أوجه نذكر منها:

1- الرد على الطعن في تواتر القرآن فقد كان موجودا في صدور المئات من الرجال وموجودا في أكثر من نسخة مكتوبة، ومن المسلم به أن وجود نسخ كثيرة أفضل من وجود نسخة واحدة متفرقة.

2- درأ التعارض بين وجود مصاحف للصحابة وعدم تحصل ذلك للنبي(ص).

(17) بحوث في تاريخ القرآن، السيد مير محمد زرندي.

3- إظهار اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب ربهم فقد كان بعض مستطيعي الكتابة يقضي الليالي في نسخ ما أنزل إلى النبي(ص) وجمعه في كتاب حتى لا يضيع.

4- إمكانية عرض القرآن المنزل على غير المسلمين عند دعوتهم إلى الدين.

أما مسألة جمع الصديق للمصحف فالشيعة يقولون أن الجمع الذي قام به أبو بكر كان جمعا له لشخصه بصفته أمير المؤمنين حيث أنه لا بد من وجود نسخة للمصحف عند القيادة العامة للمسلمين ويرون أن الجمع كان نقلا عن الصحف التي كان يأخذ الكتبة منها نسخة لأنفسهم، فإذا أمرهم النبي(ص) بكتابة بعض الآيات يخطونها مرتين مرة للنبي ومرة لأنفسهم ومن هذه النسخ الإحتياطية جُمع مصحف أبو بكر.

أما الاعتراض بأن عمر بن الخطاب كان يخاف أن يضيع القرآن بموت الحفظة فهذا ما لم أجد له تفسيرا بأي حال، مع إقرار أهل السنة بأنه كان هناك مصاحف للصحابة مثل مصحف ابن مسعود فكيف يتحقق هذا القول مع هذا الواقع؟ الله أعلم، والغالب أن هذه الروايات موضوعة.

ولا نريد أن نخوض في هذه النقطة أكثر من ذلك ولا أن ننتصر لفريق من الآخر ولكن يكفي القول بأن هناك ثلاث آراء في جمع القرآن:

- جمع في عهد الرسول عنده وعند بعض الصحابة وبعد موته انتقلت نسخة النبي(ص) إلى سيدنا علي بن أبي طالب.

- جمع في عهد سيدنا أبي بكر من صحاف متفرقة كانت موجودة في عهد النبي، وكانت هناك مصاحف موجودة مع الصحابة!!

- وقرأت رأيا جديدا يقول: لم يتم جمع القرآن، بل كان هناك الكثير والكثير من نسخ القرآن في عصر النبي، وكان يتم نسخها في كل عصر بكثرة وبعثها إلى الأمصار.

ترتيب المصحف

اختلفت الآراء في ترتيب المصحف بين العلماء فمنهم من يرى أن ترتيب السور والآيات توقيفي من النبي(ص)، ومنهم من يرى أن ترتيب السور كان من الصحابة رضوان الله عليهم ولكلٍ أدلته في هذا الشأن.

ونشأ هذا الخلاف لأنهم رأوا أن النبي(ص) ترك القرآن مفرقا في اللخاف والصدور وجُمع بعد النبي(ص)، ومن يرى ذلك يحق له أن يختلف في ترتيبه هل هو توقيفي أم اجتهادي، أما نحن فنرى أن النبي(ص) ترك القرآن كما هو بهذا الترتيب، وبنفس الكتابة فلم يزد حرف أو ينقص، وحتى تبعا للروايات؛ فالقائلة أن القرآن كان مرتبا أقوى وأصح من التي تقول بأن الصحابة هم الذين رتبوه.

وبغض النظر عن الروايات فنحن نقول للقارىء: انظر في كتاب الله وتتبع العلاقات بين خواتيم السور وفواتح السور التي تليها، ففي هذا البرهان الأعظم على أن ترتيب القرآن كان من عند الله وكل ما فعله الصحابة في ذلك أنهم نقلوا المصحف بنفس الترتيب الذي تركه النبي(ص) كما هو.

القرآن في عهد الصحابة

كما ذكرنا كان هناك عدد من المصاحف في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ولا نريد أن نخوض في السبب الذي حمل سيدنا عثمان على حرق المصاحف المنتشرة في المدينة، وبطبيعة الحال اعترض الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الفعل فلم يكن بالأمر اليسير الحصول على نسخة مصحف في تلكموا الأيام. ولك أن تتخيل عزيزي القارىء الجهد الذي بذلوه في كتابة هذه النسخ لأنفسهم والشرف الذي

يتحقق لهم بوجود المصحف بين أيديهم، والمزية التي تتحق لهم بوجود النسخ، من وجود مرجع يرجعون إليه بسهولة إذا خيف اللبس أو النسيان وغير ذلك من المزايا.

وكان هناك الكثير من النسخ التي أرسلت إلى الأمصار قبل ذلك، وكان الناس يقرأون القرآن منها، إذ يستحيل أن يظل المسلمون في الأمصار سنونا طويلة بدون مصاحف، فكان أن حُرقت مصاحف المدينة ونسخت نسخ جديدة أرسلت إلى الأمصار، ولما أرسلت هذه النسخ الجديدة إلى الأمصار اعتقد الرواة أن هذه هي النسخ المرسلة الأولى، ولكن كما قلنا من المستحيل أن تظل الأمصار بلا مصاحف، والذي نراه أن هذه المصاحف كانت دفعة من ضمن دفعات المصاحف التي أرسلت إلى الأمصار وليس أولها، ولا يزال المسلمون حتى الآن يعون القرآن كما وصل إليهم شفاهة من شيوخهم وآبائهم وأجدادهم، وكما أخذوه هم أيضا من شيوخهم كما أُخذ كذلك من شيوخ الشيوخ إلى النبي(ص)، وكما ورد في النسخ الخطية المكتوبة من قبل عهد عثمان رضي الله عنه، والتي هي في الأساس مكتوبة بين يدي النبي(ص) ومراجعة بواسطته قراءة وكتابة وتصحيحا.

موقف الصحابة من القرآن

إذا نظر أي منا إلى كل الكتب –السنية– التي تتحدث عن تفسير القرآن، يجد أن معظمها يدور في دائرة معروفة، وهي القول بأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يكثرون من القول في تفسير القرآن، وأن جل ما كانوا يقولونه كان مأخوذا من النبي(ص)، فكان تفسيرهم على سبيل الرواية وليس على سبيل القول بالرأي، وأنهم في بعض الأحيان القليلة جدا كانوا يجتهدون في فهم النص فيقولون بما رأوه. ولكن لنا وقفتان مع هاتين النقطتين، وهما:

الأولى: هل كان الصحابة يفسرون القرآن؟

الثانية: هل كان أكثر ما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم مأخوذا من النبي(ص)، أم كان هناك اجتهاد من الصحابة؟

بطبيعة الحال فإن للنقطة الأولى دور جوهري في كتابنا، حيث أننا ننطلق من القول بأن القرآن ليس بحاجة إلى تفسير بل هو واضح تمام الوضوح، ولكن يجب التعامل معه من منطلق آخر وهو التأويل. وقد يبدو التعبيران بالنسبة للقارىء متقاربان إن لم يكونا مترادفين، ولكن شتان ما بين الاثنين فبينهما بعد المشرقين، ولكن نظرا لأن هذين التعبيرين ارتبطا في أذهان الناس بأفهام معينة، وجب علينا الرجوع لمصادر اللغة وأولها القرآن لنعرف كيف استعملها وماذا كان يقصد بها:

ما المراد من التفسير؟

اشتُقت كلمة "تفسير" من "فسر"، وهي كما ورد في تاج العروس: "الفسر: الإبانة وكشف المغطى كما قاله ابن الأعرابي أو كشف المعنى المعقول كما في البصائر "وكما جاء في لسان العرب "الفسر البيان ... الفسر كشف المغطى" وهذا ما نجده تقريبا في كل المعاجم، ولكن كيف وأين استعمل القرآن هذه الكلمة أو مشتقاتها؟ نجد أن القرآن لم يستعمل هذه الكلمة أو أيا من مشتقاتها إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [سورة الفرقان, ٣٣]

والتفسير هنا لا علاقة له بالقرآن بل بالرد على المشركين، ويسم الله القرآن أنه أكثر وضوحا وبيانا من أمثلة المشركين. إذن فالآية الوحيدة التي ورد فيها التفسير كانت تقول أن القرآن غاية في الوضوح والبيان، وهذا يناقض ما قالوا به من حاجة القرآن إلى تفسير، وليست هذه الآية وحسب، بل نجد القرآن طافحا بالآيات التي توضح أن

القرآن واضح وميسر وسهل ومبين ومبسط، فكيف يكون هذا حال ما يحتاج إلى توضيح؟!

فنجد على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [سورة مريم, ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [سورة القمر, ١٧]، وقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [سورة هود, ١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣﴾ [سورة طه, ١١٣]، والعربي بخلاف اللسان هو الواضح السليم الظاهر، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [سورة فصّلت, ٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [سورة البقرة, ١٥٩]

وغير ذلك من الآيات التي توضح أن القرآن غاية في البيان والعروبة. ونحن أنفسنا نجد أن القرآن عندما يتكلم عن نفسه نجد أنه يتحدث عن "تأويل" دائما وعن مجيء التأويل وليس التفسير، فعلى سبيل المثال نجد قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ... ٥٣﴾ [سورة الأعراف, ٥٣] وقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [سورة يونس, ٣٩]

فالقرآن يتحدث عن "تأويل" وهم يتحدثون عن التفسير، ولما كان اللفظ مستعملا في القرآن واستعمل بجواره من البشر "التفسير" وهو ما لا يمكن استعماله مع القرآن، اختلفوا في الفرق بين التفسير والتأويل على أقوال عدة نذكرها ولكن بعد أن نذكر المعنى المراد لكلمة "أول ".

إذا نظرنا في المعاجم نجد أن معنى "أول" كما ورد في اللسان هو: "الأول الرجوع، آل الشيء يؤول، أولا ومآلا رجع وأول إليه الشيء رجعه وألت عن الشيء ارتددت" وهو كما ورد في المقاييس: "(أول) الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه. أما الأَوَّل فالأوّل، وهو مبتدأُ الشيء، والمؤنَّثة الأولى، مثل أفعل وفُعْلى، وجمع الأُولى أولَيات مثل الأخْرى." اهـ.

إذا نخرج من هذا أن "التأويل" يأتي بمعنى الخروج من الشيء أو الرجوع إليه، فهو من ألفاظ الأضداد التي تأتي بالمعنى وضدده، فيكون معنى التأويل الرد إلى أصل الشيء وما يصير إليه الشيء، فهذا هو معنى التأويل في اللغة، ولننظر الآن كيف استعملها العلماء في مقابل التفسير: في وجوه الافتراق والالتقاء بين التفسير والتأويل عدة مذاهب للعلماء، يمكن حصرها فيما يأتي:

1- إن التفسير والتأويل بمعنى واحد، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وجماعة من العلماء.

2- إن التفسير أهم من التأويل، وإليه ذهب الراغب الأصبهاني بقوله: التفسير أهم من التأويل، وأكثر إستعماله في الألفاظ، وأكثر إستعمال التأويل في المعاني.

3- إن إبانة حكم اللفظ هو التفسير، وأن تحميل اللفظ ما هو يحتمله من المعنى هو التأويل.

4- إن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وهو رأي الطبرسي.

5- إن التفسير يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة. وإن التأويل أكثره في الجمل ويستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، وهو رأي أبي مسلم محمد بن بحر الأصبهاني.

6- إن التفسير هو القطع بالمراد، وإن التأويل هو المحتمل غير المقطوع به، وهو ما ذهب إليه الماتريدي.

7- إن المراد بالتأويل نقل ظاهرة اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ. (ومعنى هذا أن المراد بالتأويل حمل اللفظ على المعني المجازي أو الاستعمال الكنائي، بينما التفسير قصر اللفظ على معناه الحقيقي).

8- أن التفسير كشف المغطى، والتأويل إنتهاء الشيء ومصيره وما يؤول إليه أمره.

9- إن التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة أو مجازاً، وأن التأويل تفسير باطن اللفظ.

10- إختصاص التفسير بالرواية، وإختصاص التأويل بالدراية، وإلى هذا يميل البجلي.

11- إختصاص أحدهما بالظاهر والآخر بالسماع، وفيه رأيان متقابلان: الأول: أن التفسير ظاهر معنى الآية، والتأويل يقع على مراد الله، ولا يوقف عليه إلا بالسماع. الثاني: ضده، أن التأويل ظاهر معنى الآية، والتفسير يقع على مراد الله، ولا يوقف عليه إلا بالسماع.

12- إن التفسير هو تبيين وتعيين السُّنة، وأن التأويل هو ما إستنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب، وهذا ما لخصه السيوطي.

وإذا نحن نظرنا في هذه الأقوال وجدنا فيها بعض الأقوال التي يعجب المرء لها ويتساءل من أين أخذوها فهي لم ترد هكذا في كتاب الله أو مستند اللغة، ولكن بطبيعة الحال لوجود أفهام في تفسير كتاب الله بشكل معين حمل المعنى على هذا الفهم فصار مما يعتد به أيضا، ولكن يمكن أن نخرج من هذه الأقوال بعدة أقوال هي الأقرب والأرجح إلى اللسان والقرآن، وهذه الأقوال هي: الرابع والثامن ويمكن أخذ التاسع أيضا، ولكن هذا طبعا كفهم للفظ التفسير والتأويل عامة ولكن لا يمكن قبول التفسير على القرآن. سيقول قائل: كيف يكون ما تقوله صحيحا وأن القرآن كله واضح لا يحتاج إلى تفسير، والله عز وجل يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [سورة آل عمران ,٧]، فالله عز وجل ذاته قسم القرآن إلى محكم ومتشابه ولا يعلم تأويل المتشابه إلا الله والراسخون في العلم فكيف يكون واضحا كله غير محتاج إلى تفسير؟ نقول: عندما تكلم الله عز وجل عن كتابه ذكر الوضوح والبيان كما جاء في الآيات التي ذكرناها سابقا، وقسمه إلى محكم ومتشابه كما ورد في هذه الآية، وقال أنه كله متشابه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [سورة الزمر ,٢٣]

فسمة الكتاب كله بأنه متشابه، والتشابه لا يعني الغموض أواللبس بل يعني التقارب والألفة وتصديق بعضه بعضا، فهو متشابه وليس مشتبه، فالاشتباه هو الذي يورث الخبط والحيرة وليس التشابه، ووجوب الإنتباه إلى الفروق بين آي القرآن ولا يحمل بعضها على بعض لمجرد التشابه، فلكل كلمة غرض وهدف ورسالة ودور يختلف عن دور الأخرى، ويظهر هذا جليا من خلال السياق القرآني وربط الآيات بعضها بعضا.

كما نلاحظ أن الله عز وجل قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ... ۝٧﴾ [سورة آل عمران ,٧] ولم يقل: "والأخر متشابهات" وهذا يعني أنه في كتاب الله آيات محكمات، لسن أم الكتاب أو أن الآيات المتشابهات نفسها محكمات ولكنها ليست من أم الكتاب! وحتى عندما تكلم الله عز وجل عن المتشابه والمحكم قال: ﴿... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ... ۝٧﴾ [سورة آل عمران ,٧] على قراءة الوصل، فالمتشابه أيضا يحتاج إلى تأويل وليس إلى تفسير.

وهذه الآية تجرنا إلى الحديث عن المحكم والمتشابه؛ والأقوال في المحكم والمتشابه كثيرة، ولكنا نقول أن المحكم هو آيات الأحكام فهي محكمة ثابتة في جميع العصور وهي أم الكتاب ولا مثار للفتنة فيها، أما المتشابهات فهي آيات العلوم أو القصص –

التاريخ- فهي التي تختلف من عصر إلى عصر ويختلف فهم الناس لها حسب الأرضية المعرفية لهم، وهي مثار الفتن دوما، لذا قد يظهر عند بعض الناس أن بعض الآيات غير دقيقة أو غير صحيحة!! فيحاول أن يشكك فيها أو أن يصرفها عن مدلولها لقصور علمه وعقله.

والأمثلة على علو العلوم المعرفية القرآنية على عقول البشر في القرآن كثيرة، ونورد هنا مثالا بسيطا لها، وهو قوله تعالى: ﴿... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧﴾ [سورة الكهف, ٧٧]، فهذه الآية مثار عجب عند كثير من المسلمين، حيث أنهم يرون أن الجدار لا إرادة له! على الرغم من أن الآية ذكرت له صراحة إرادة –الله أعلم بكيفها-، فوجدنا في تاريخنا من طعن في هذه الآية من المسلمين، وتعجب أن يكون للجدار إرادة وطلب لذلك دليلا من لسان العرب، فأتى له محاوره بدليل من الشعر على ذلك!! فهؤلاء ممن في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولكن أنى لهم ذلك –ولما يأتهم تأويله-، ونحن لا نحتاج إلى دليل من لغة العرب على ما يقوله القرآن، بل الشعر هو الذي يحتاج إلى القرآن.

إذا فالمتشابه في القرآن محكم، ولكن المشكلة في قصور العلم وفي قلب المتعامل مع النص وليس في النص ذاته، لذا لا بد من مراعاة أن آي القرآن تتحرك تبعا للمستوى المعرفي بين محكم ومتشابه –بالنسبة للإنسان-، فقد تكون الآية في زمن من الأزمنة متشابهة ثم تصير محكمة. ولله الحمد فآيات القرآن المحكمات التي كانت في بعض الأزمنة متشابهات تنتقل بفضل العلم، الذي يحيطنا الله به بما شاء، إلى محكمات عندنا ومع مرور الزمان وتطور الإنسان يقل عدد الآيات المتشابهات، حتى تكاد تنتهي فقد أتى تأويلها كما جاءت في القرآن وهناك تقوم الساعة، ولا يبقى إلا الآيات المتعلقة بيوم القيامة وهي التي سيكون تأويلها في هذا الموقف العظيم ظاهرا وواضحا لكل ذي عينين. وسنوضح بالتفصيل ما المراد من التأويل وكيف نتعامل مع القرآن في فصل "كيف نتعامل مع القرآن".

ونود الإشارة هنا إلى أن الصحابة كما قلنا لم يفسروا القرآن، بل توقفوا أمامه وتحرجوا من الخوض في تأويله لأنهم –كما يبدو لي– فهموا وأحسوا بآية القرآن وأنه ليس لجيل واحد ولا عصر واحد بل هو كتاب مطلق فتوقفوا من أجل ذلك، ولم يقعوا في المأزق الذي وقع فيه من جاء بعدهم –وحسب أن القرآن نص عادي يحتاج إلى تفسير واهتم بتنزيله على عصره فظهرت الكتب الكبار في تفسير القرآن!!– ولم يقولوا فيه إلا بما جاء تأويله من النبي، أو ما ظهر جليا لهم أنه لا حصر ولا تضييق للنص فيه، وما كان الناس في حاجة ماسة إلى معرفته.

ونأتي إلى النقطة الثانية وهي: هل كان أكثر ما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم مأخوذا من النبي(ص)؟ وهذه النقطة بالذات هامة جدا لنا، حيث أننا نرى فعلا أن أكثر ما صح عن الصحابة هو مأخوذ عن النبي(ص) لأن أكثر ما نقل عنهم كان في الجزء الذي كان واجبا على النبي(ص) تأويله، فنقلوا لنا تأويل النبي(ص) للآيات، وما بخلاف ذلك فقليل جدا، ولكن لا يعني هذا أن أكثر ما نقل عنهم هو من النبي(ص)، بل كثير منه مختلق موضوع على ألسنتهم وهم والرسول ونحن منه براء.

القرآن مع التابعين

ونُذكِّر مرة أخرى أننا لا نقول بحاجة القرآن إلى تفسير ولكن نزولا على عرف القوم سنستعمل مفرداتهم فنقول: اشتهر بالتفسير[18] من الصحابة الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود وأبي ابن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وأبو موسى الأشعري وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان من غيرهم من الصحابة لا يقوم ب

---

[18] الحالة الوحيدة التي يفسر فيها القرآن هي أن يعرض القرآن على غير العربي أوعلى متعلمي اللغة العربية الذين لم يعرفوا منها إلا القليل –وهذا ما كان في بداية الفتوحات الإسلامية وما يحدث هذه الأيام من دخول بعض الأعاجم في الإسلام، وللأسف استمر هذا العرف وهذه التسمية وانتقلت أيضا إلى القرآن كاملا بين المسلمين العرب وقالوا بتفسيره– أما العربي فلا يمكن ولا يجوز أن يفسر له القرآن بل يجب عليه أن يتأوله التأول الأدنى بذاته على الأقل ولا يقبل منه أقل من ذلك.

"تفسير" القرآن ولكن هؤلاء هم من اشتهروا به، وبعد اتساع الدولة الإسلامية وتفرق الصحابة ظهرت مدارس في التفسير من أجيال التابعين كل يأخذ من صحابي معين وينسب له، فكانت هناك العديد من المدارس التفسيرية في مختلف البلدان، فكان منها على سبيل المثال:

– مدرسة مكة: وكان شيوخها من تلاميذ ابن عباس وأشهرهم: سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان اليماني وعطاء بن أبي رباح.

– مدرسة المدينة: وكان شيوخها من تلاميذ أبي بن كعب وأشهرهم: أبو العالية، زيد بن أسلم، محمد بن كعب القرظي.

– مدرسة العراق: وكان شيوخها من تلاميذ ابن مسعود وأشهرهم: علقمة بن قيس، مسروق، الأسود بن يزيد، مرة الهمداني، عامر الشعبي، الحسن البصري، قتادة.

وكان هناك مدارس أخرى في التفسير ظهرت ونشأت، ولكن هذه المدارس هي أشهرها وروادها هم الذين شهد لهم وأخذ منهم.

وكانت ملامح هذا العصر في التعامل مع القرآن مختلفة بعض الشيء عن ملامح التعامل في عهد الصحابة، حيث أن التابعين(19) لم يعاصروا التأويل من النبي بل إن منهم من وقع في مأزق التفسير ولم يفهم الآية الحقيقية للقرآن، ومنهم من تصدر للتفسير لينال الوجاه ومنهم من قال في كتاب الله بهواه! لذا يعتبر أهم ما ميز هذه المرحلة هو استمرار الرواية ولكن ظهر القول بالرأي أكثر من زمن الصحابة، وتم لي أعناق الآيات لتوافق اعتقاداتهم وأرائهم والمرويات الإسرائيلية التي رأوا أنها تفسر كتاب الله عز وجل!

(19) نود الإشارة هنا إلى أن كثيرا من الناس يلتبس عليه مفهوم التابعين ويعتقد أنهم جيل تربى على يد الصحابة! وهذا تصور خاطئ، فهناك من التابعين من كان أكبر من الصحابة سنا وكان فيهم من هو في مثل أعمارهم وكان فيهم من هو أصغر منهم وكان فيهم من تربى على أيديهم، فالصحبة كانت بمصاحبة النبي(ص)، والتابعية كانت برؤية الصحابة وهناك من أسلم بعد وفاة النبي(ص) وكان قد بلغ من الكبر عتيا، وهذا بطبيعة الحال تابعي وابن عباس مثلا صحابي!

فأولت النصوص تأويلا عجيبا، وبدلا من أن يُنطلق في فهم النص من النص، فُهم النص من خلال الرواية وافقت النص أو خالفته، ومع تسلل الإسرائيليات كمفسر لكتاب الله ومع انتشار القول بالرأي كان بدهيا أن يظهر الخلاف وينتشر انتشارا واسعا[20] وسواء كان هذا الاختلاف حميدا أو مذموما كثيرا أو قليلا فقد بدأ الخلاف، وهذا أمر حتمي لأن الكل ينظر ويرى رأيا معينا في الآية ويرفض غيره، وكان للظروف السياسية لهذا الوقت أثر كبير في انتشار حركة الوضع على النبي(ص)، الذي تؤخذ أقواله كتفسير مسلّم به للقرآن، ويرى كثيرون ممن كتبوا عن التفسير –من أهل السنة– أن أول الوضع كان سنة 41هـ، حين افترق المسلمون سياسيا[21] فنشأ الوضع على النبي(ص).

ولكن هذا القول يعتمد على نظريتين أساسيتين، هما:

1– عدالة الصحابة حيث أنهم يرون أن الصحابة رضوان الله عليهم جميعا عدول كلهم، لا يمكن أن يصدر عنهم الكذب، وكل ما قالوه هو صواب أو اعتقدوا أنه صواب ولا يتعمدون الكذب.

2– الاعتقاد أن التابعين تبعوا الصحابة مع أنهم كانوا معاصرين لهم وكثير منهم من أسلم من عام 11هـ إلى 35هـ وما بعد ذلك.

ولا يمكن القول بأي حال من الأحوال أن كل من أسلم من هؤلاء كان حسن النية، وحسن إسلامه وتأدب بأخلاق الإسلام، فقد كان منهم من أسلم مضطرا لإسلام قومه وللظروف المحيطة ومنهم من أسلم من أجل المصلحة، ومنهم من أسلم من أجل أشياء أخرى غير وجه الله! وكان أمرا عاديا، أن يتقول هؤلاء على الرسول بعد وفاته من

[20] يحلو للمتبعين للتفسير السلفي أو المأثور القول أن الاختلاف في هذه الفترة –فترة الصحابة والتابعين– كان اختلافا حميدا فهو اختلاف يدور في دائرة التعبير عن الشيء الواحد بأشكال وصور مختلفة ولم يكن واسعا، وأن الاختلاف الكبير المذموم نشأ بعد ذلك.

[21] الحديث هنا عن الوضع في ذم صحابة معينين أو في فضل آخرين والاستدلال على ذلك من القرآن، مثل تفسير الشيعة ﴿... وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ... ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الإسراء ,٦٠] ببني أمية.

أجل الحصول على المكانة والمنزلة في المجتمع الجديد، الذي يُبنى على أسس جديدة وتُنال الوجاهه لأسباب جديدة، من أهمها طبعا العلم بتعاليم القرآن وأسس الدين الجديد.

لذا فيمكننا القول عن ثقة أن الوضع كان قبل هذا التاريخ ولكن لم يكن بكثير، ولا يحتاج المرء للإتيان على ذلك بدليل من الأثر فالأمر بدهي لا يحتاج إلى دليل، فقد دخل في دين الله بجوار كفار قريش وجزيرة العرب الكثير من اليهود والنصارى، وكان لهم بطبيعة الحال الدور الكبير في توجه التفسير هذا التوجه، فقد وجدوا في القرآن ما يشبه الموجود في كتبهم فحملوا –عن حسن نية أو سوءها– ما جاء في القرآن على ما وُجد في كتبهم، ونسبوا ذلك إلى النبي(ص) والصحابة ليكسبوا لقولهم حجة، وعلى الرغم من تصدي رجال الحديث لهذه المرويات إلا أن وجودها في كتب التفسير – التي ستدون فيما بعد– كفل لها الانتشار، وألصقت بكتاب الله حتى صار الفهم المعهود للآيات هو الإسرائيليات المصاحبة لها! وبدأ تسلل الإسرائيليات شفاهة، وفي نهاية هذا العصر بدء تدوين الحديث وكانت الروايات الواردة في التفسير تُدون أيضا، سواء وردت عن الرسول أو الصحابة أو حتى بعض التابعين.

مراحل علم التفسير

انتهى هذا العصر وقد غلبته الرواية ولكن بدأ معه عنصر التدوين وإن لم يكن مستقلا، ولكن بشكل عام بدء عصر الكتابة في الأمة الإسلامية وبدء عصر التقعيد والتأصيل للعلوم[22] على أيدي رواد أمثال يزيد بن هارون السلمي ت 117هـ، شعبة بن الحجاج ت 160هـ، وكيع بن الجراح ت 197هـ، سفيان بن عيينة ت 198هـ، عبد الرازق بن

[22] هناك من يرى أن التفسير بالرأي ظهر متأخرا بعد فترة طويلة من سيطرة التفسير بالمأثور ولكن هذا يتعلق بالمراد من "المأثور" وهذا ما سنناقشه عند الحديث عن كيفية التعامل مع القرآن الكريم.

همام ت 211هـ، فكتبهم وإن لم تكن متخصصة ومفصلة ولكن يحسب لهم شرف البدء والنسج على غير منوال.

ثم انتقل التفسير خطوة جديدة حاسمة، وهي انفصاله كعلم مستقل عن علم الحديث، وخُطت الكتب في علم التفسير فقط، فظهرت الكتب التي تفسر القرآن كاملا آية آية! ولا حول ولا قوة إلا بالله[23] وكان لأئمة أمثال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ت 310هـ وابن أبي حاتم ت 327هـ وأبو بكر بن المنذر النيسابوري ت 318هـ السبق في التدوين في تفسير القرآن كاملا، ومن جاء بعدهم نهج نهجهم ولم يغير إلا قليلا بل اختصر وزاد ورجح ولكن كان يدور في دائرة تفسير هؤلاء الشيوخ[24] فيشعر المرء أنه لا يجد شيئا جديدا في كتب التفسير قاطبة، بل كلها إعادات وتكرارات واختصارات وخاصة لما في تفسير الطبري.

وبعد ذلك ظهر الكثير من الكتب التفسيرية وكل مفسر يركز في تفسيره على العلم الذي يبرع فيه والمذهب الذي يميل إليه فظهرت كتب تفسير تركز على الجانب الفقهي مثل تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" وتفسير الجصاص وتفسير ابن العربي "أحكام القرآن"، وظهرت كتب تفسير تركز على الجانب اللغوي مثل "البحر المحيط" لابن حيان، وكتب تفسير تتبع المنهج الصوفي مثل "لطائف الإشارات" للقشيري و"الفتوحات المكية" لابن عربي، وكتب تفسير تركز على الجانب العقلي مثل عامة تفاسير المعتزلة، وظهرت كتب تفسير متأخرة جدا مثل "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي ولكنها أعادت النهج القديم في الاعتماد على الروايات، وكثرت

[23] لا يُعرف على سبيل التحديد أي كتاب كان له السبق في تفسير القرآن كاملا ولكن هناك بعض التخمينات والترجيحات.

[24] بطبيعة الحال يستثنى من هذا التيار المعتزلي في التفسير فقد كان له الكثير والكثير من الإنجازات الجيدة في "تفسير" كتاب الله ولكن للأسف لم يصلنا منها إلا أقل القليل القليل مثل تفسير الكشاف وبعض الأقوال المنثورة في تفسير الفخر الرازي، وكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن، ويستثنى أيضا التيار الصوفي فقد كان لهم نهج آخر في التفسير، وبطبيعة الحال كان للتفسير الشيعي نهج يتفق مع السنة في التفسير الروائي ولكن يختلفون معهم في الناتج ويختلفون معهم أيضا في مسألة الظاهر والباطن.

في هذه النوعية من الكتب قديمها وحديثها الإسرائيليات[25]. وركزت بعض التفاسير الحديثة على الجانب الأدبي مثل التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ.

إذن ركز كلٌ على العلم والمذهب الذي برع فيه، مع أن هذا كله لا علاقه له بالتفسير كتفسير،[26] وبطبيعة الحال قسمت هذه الكتب إلى صنفين:

1- تفسير بالمأثور، ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور: "جامع البيان في تأويل القرآن" لابن جرير الطبري، "بحر العلوم" لأبي الليث السمرقندي، "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" لأبي إسحاق الثعلبي، "معالم التنزيل" للبغوي، "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي، "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" لعبد الرحمن الثعالبي، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي.

2- تفسير بالرأي، ومن أشهر كتب التفسير بالرأي: "مفاتيح الغيب" للرازي، و"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي، و"تفسير الجلالين" للمحلي والسيوطي، و"الكشاف" للزمخشري، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، و"روح المعاني" للألوسي، وتفسير النسفي وتفسير الخازن وفتح القدير للشوكاني.

وهناك العديد من التفاسير الحديثة التي تُصنف تحت التفسير بالرأي[27] مثل: "في ظلال القرآن "لسيد قطب، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، والتفسير الواضح لمحمد محمود حجازي، والتفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، و"المنتخب" للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، وأيسر التفاسير

---

(25) هناك أجزاء كبيرة في الكتاب بإذن الله عن الإسرائيليات وعن الدور الخطير السيء الذي لعبته في توجيه التفسير وتوجيه الفكر الإسلامي.

(26) سنوضح هذا عند الحديث عن كيفية التعامل مع القرآن.

(27) لاحظت في الفترة الأخيرة بعض الرجوع إلى الطريقة القديمة من جمع الروايات –الصحيحة– الواردة في سورة واحدة وإفرادها في تصانيف مستقلة كتفسير مأثور صحيح، وتصدر هذه الكتب أو الكتيبات بطبيعة الحال من التيار السلفي.

لأبي بكر الجزائري، وصفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، والتفسير المنير والوجيز لوهبة الزحيلي، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية.

ويلاحظ أن التفاسير الحديثة تحررت كثيرا من أسر الكتب الأثرية، إلا أنها ظلت في الغالب تدور في فلكها بشكل كبير، وتنتهج في الغالب نفس نهجها، فهي بين اختصار وحذف وتوضيح للغامض في كتب التفسير السابقة! وبين ترجيح لرأي معين من الآراء.

هذا إذا غضضنا الطرف عن التفسير الأدبي الذي لا يعده الكثيرون تفسيرا للقرآن، والذي لم ولا ينتهج هذا النهج مطلقا.

ونود الإشارة إلى أننا لا نقوم بتتبع تاريخي لتطور التفسير ومراحله المختلفة وانتقاله من طور إلى آخر ولكننا نمر مرور الكرام على مراحل التعامل مع القرآن لنعطي للقارئ تصورا بسيطا عن تطور طريقة التعامل مع القرآن.

الفصل الثاني: المنهج

كيف نتعامل مع القرآن؟

القرآن الكريم كتاب الله الخاتم، رسالة الله عز وجل للناس أجمعين كتاب أنزله الله ليكون للعالمين نذيرا كتاب لكل زمان ومكان، رسول يقود ولا يقاد يعلو ولا يعلى عليه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه كل ما يحتاجه الإنسان: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ... ٣٨﴾ [سورة الأنعام, ٣٨]، شمل كل أنواع العلوم الدنيوية والأخروية مما يحتاجه الإنسان في كل زمان ومكان.

وفي الواقع عندما كنت أقرأ عدد العلوم في القرآن وأجد أن بعضهم أوصلها إلى "77200" علما، كنت أرى أن هذا من باب الشطحات والتزود والمبالغة، ولكن مع قراءاتي، التي لا أعدها عميقة في القرآن، أيقنت أن هذا العدد قليل ولم يوف القرآن حقه؛ فالقرآن فيه إجابة لكل سؤال وفيه شفاء لما يجول في الصدور، وفيه وفيه ... ولن نخوض كثيرا في شأن فضل القرآن، وإنما سنلج مباشرة إلى طريقة التعامل معه، هل تكون بالتفسير؟ هل يكون له القيادة أم يكون هو المقود؟ هل القرآن صالح لكل زمان ومكان حقا أم أنها مجرد شعارات مرفوعة لا واقع لها؟

بادئ ذي بدء لا بد من القول بأن القرآن ما هو إلا "نص"، أي كلام محدد منمق ذو معنى بلسان ما، وهذا اللسان هو اللسان العربي، الذي هو أم اللغات ومنها تشعبت وخرجت كل لغات العالم. ولكن القرآن ينفرد عن كل النصوص الأخرى بأنه ذو أصل إلهي، فمؤلفه ليس بشرا بل هو خالق البشر المولى عز وجل. إذا فبداهة أن يتعامل مع القرآن على هذا الأساس؛ أنه "نص" و"إلهي"، لكل الناس وليس لطائفة معينة في زمان أو مكان معين. ولنا أن نتساءل: هل تعامل المسلمون مع القرآن على هذا الأساس؟

للأسف الشديد نجد أن المسلمين لم يتعاملوا مع القرآن على هذا الأساس، وإنما تعاملوا معه أحيانا كأنه ليس نصا لغوي، ككلام فاقد الدلالة يحتاج من أوما يعطيه دلالته، فتعاملوا معه بمناهج عجيبة فجزأوه وقطعوه وفصلوه[28]، ونجدهم تعاملوا معه أحايين أخرى كنص ولكن ليس كنص إلهي فأسقطوا مدلولاته على واقعهم المعاصر، كأن القرآن لم يأت إلا لهم ولزمانهم. وكلا الطريقين خطأ، وبطبيعة الحال كان لهذا الخطأ المنهجي أسبابه، فلا يمكن أن تنحرف البوصلة عن المنهج السليم بدون أسباب قوية تؤدي بها إلى هذا الميل، فما الذي أدى بالأمة إلى هذا الانحراف الكبير في منهج[29] التعامل مع القرآن، حتى ظهرت كتب لتفسير القرآن كاملا؟

يعود السبب الرئيس في ذلك –كما أرى– أن القرآن نص فريد بخلاف أي نص في العالم، وبخلاف أنه نص مطلق فهو نص كبير الحجم جدا، نصٌ يزيد عدد صفحاته على خمسمائة صفحة، نصٌ جمع كل أنواع العلوم؛ من علوم طبيعية إلى علوم تاريخية إلى أوامر تشريعية ومن سمات إلهية إلى غيبيات ذهنية وطبيعية، ومن مواضيع مجمعة مذكورة في مكان واحد إلى مواضيع سُردت في كامل القرآن، ومن موضوع طرح كلا وجزءا في القرآن فتأويله قرآني إلى ما ذكر أصله في القرآن وأتي تأويله في السنة، وهناك ما تأويله في الطبيعة! فهو نص عجيب شمل كل أنواع النصوص في الدنيا وخالفها في نفس الوقت، فما من نظم سليم الأسلوب إلا وله نظير في القرآن، كثرت نماذج هذا النظم أو قلّت.

والبارز أن هذا التنوع المثير في النص القرآني أدى إلى حدوث بعض الحيرة عند العقلية العربية في كيفية التعامل معه، فالعقلية العربية في ذلك الوقت كانت عقلية ميالة إلى الحفظ والاستظهار أكثر منها إلى التتبع والنسج والتنظيم.

---

(28) للأسف لا يزال الكثيرون لا يفهمون القرآن إلا من خلال الروايات التي توضح المعنى المراد، سواء كانت من الرسول أو من الصحابة أو التابعين.

(29) المنهج لغة: الطريق الواضح أو الطريقة الواضحة، قال تعالى: ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة المائدة ,٤٨] يقال «نهجت الطريق أي سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك ما سلكه، ونهج الأمر وأنهج لغتان إذا وضَّح». وباختصار المنهج هو طريقة البحث، وتختلف المناهج باختلاف العلوم، ولكل علم منهج بحث خاص يلائمه.

وبسبب هذا التنوع الفريد تعامل علماء المسلمين مع القرآن بمنهجية غير واضحة، هذا إذا كان هناك منهجية من الأساس في تعاملهم معه، فبسبب انتشار الرواية وصيرورتها هي المنهج المعتمد في التعامل مع القرآن –للشعور العام بعلو القرآن على الكلام العادي– حدث اللبس عند الناس، واعتقدوا أن الروايات تفسر القرآن مع أن السنة تؤول جزءا منه فقط، ومع ظهور التفسير بالرأي بعد ذلك لم نجد حتى الآن منهجا تفسيريا، يُطبق على القرآن الكريم كاملا، مقدما من أي مدرسة تفسيرية، بل نجد كل مدرسة تتعامل مع القرآن بمنهجين اثنين، فتستعمل هذا أحيانا والآخر أحيانا أخر.

فنجدهم جميعا يتعاملون مع القرآن على أنه يشتمل حقيقة ومجازا، ويختلف كل فريق في القول بالحقيقة والمجاز، فالفريق السلفي جعل معظم القرآن على سبيل المجاز ولا يتحرج من ذلك لأن سبب القول بالمجاز هنا هو السنة وهذا أكثر من كاف لقبول المجاز! (وإن كان لا يقول أن هذا مجاز!)، والفرق العقلية ترى أن معارضة العقل كاف للقول بالمجاز!! فالعقل هو الدليل الأول[30] ولا بد من تقديمه.

فأصبح القرآن مقودا في كلتا الحالتين، مقودا من فهمهم للسنة المفسرة للقرآن ومقودا من العقل، وهذا كله للجوئهم إلى تفسير القرآن، ومن سلك مسلكا خاطئا لن يصل إلا إلى طريق مسدود! والجلي أنهم جميعا جعلوا في القرآن نوعين من الكلام: كلام حقيقي وكلام مجازي، وكلٌ يحدد المجاز من الحقيقة تبعا لأدلة ناقصة عاجزة، وتقلب القرآن بين حقيقة ومجاز، وبين واضح جلي وبين ما يحتاج إلى تفسير!

ولننظر الآن إلى هذه المناهج في التعامل مع القرآن تفصيليا، ولنتفكر: هل هي مناهج صحيحة أم مناهج ظاهره الصحة وباطنها العوج والخلل.

---

[30] هذه المقولة وإن كانت صحيحة، لكون العقل مناط التكليف، وهو الذي قيل فيه "إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب"، ولكن لا بد أن يعي العقل دوما أن له حدوده التي يتوقف عندها فهو محصور بزمانه وبيئته، فهو نسبي، وعليه أن يتبع المطلق أي القرآن وليس العكس.

تفسير القرآن

أجمعت!! الأمة على أن القرآن بحاجة إلى التفسير، سنغض الطرف ونقول على مضض: إذن فالقرآن الذي أنزله الله عز وجل إلى البشر ليقوم لهم حياتهم ويهديهم إلى التي هي أقوم –في كل شيء– وإلى الصراط المستقيم يحتاج إلى تفسير، إذا فكلام الله غامض وليس واضحا، فأجيبونا يرحمكم الله كيف نفسر القرآن حتى يصير واضحا للناس؟ الإجابة الجاهزة لهذا السؤال: تفسير القرآن ينقسم إلى قسمين:

1– تفسير بالمأثور وهو ما كان من تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير القرآن بالسنة أو تفسير القرآن بأقوال الصحابة أو تفسير القرآن بأقوال التابعين.

2– تفسير بالرأي وهو ما ورد من خلاف ذلك أي ما جاء من المتأخرين. وينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين أيضا:

أ– التفسير بالرأي المذموم وهو ما جاء مخالفا لقواعد اللغة أو ما جاء مخالفا للسنة أو لقواعد الدين وإن كان موافقا للغة!!.

ب– التفسير الحميد وهو ما جاء موافقا للسان، وما كان موافقا لأسس الدين وقواعده.

إذا التفسير بالرأي فيه محمود ومذموم، أما التفسير بالمأثور فحميد كله وليس مذموما فإن أخطأ السلف فلا حرج! ونتوقف لنناقش هذا التقسيم الثابت الذي استقر عند جل المتعاملين مع التفسير، فهذا التقسيم هو العمدة، فننظر هل هذا التقسيم ذو أسس متينة أم أنه واه أيضا؟

التفسير بالمأثور

كلمة "المأثور" جاءت من "الأثر" وهو ما تركه السابقون أو ما أُخذ عنهم، ونسأل: هل يعد تفسير القرآن بالقرآن من قبيل التفسير بالمأثور؟ لا يمكن أن يعد تفسير القرآن بالقرآن من قبيل التفسير بالمأثور فهو كله وحدة واحدة، وفي هذ يقول الدكتور منقذ السقار: "ولا شكَّ أن حمل معنى آية على آية هو من اجتهاد المفسِّر، سواءً أكان المفسر من الصحابة، أم كان من التابعين، أم كان ممن جاء بعدهم، والاجتهاد عرضة للخطأ، ويوزن بميزانٍ علميٍّ معروفٍ، ولا يقبل إلاَّ إذا حَفَّتْ به شرائطُ القبولِ، كأيِّ اجتهادٍ علميٍّ آخر. ومن هنا يجب أن تُفَرِّقَ بين كون القرآن مصدرًا من مصادر التفسير، أوأنه أحسن طرق التفسير، وبين كون التفسير به يُعدُّ من التفسير بالمأثور، والفرق بين هذين واضحٌ."[31] اهـ

على أي أساس حدد التفسير بالمأثور بهذه العصور فقط؟ من المعروف أن كل ما وردنا من السابقين هو من باب المأثور، فتفسير "تنزيه القرآن عن المطاعن" للقاضي عبد الجبار المعتزلي هو من باب المأثور بالنسبة لنا، فلم خصص قول الصحابة والتابعين بالمأثور وجعل لهم هذه المزية؟ كان للشيخين محمد عبد العظيم الزرقاني ومحمد حسين الذهبي الدور الكبير في ظهور هذا التقسيم عندما عرضا لذلك في كتابيهما "مناهل العرفان" و"التفسير والمفسرون" ومن جاء بعدهما نسج على منوالهما. كيف يمكن إثبات أن كل ما جاء عنهم هو من قبيل المأثور، أي ما جاء هو عن النبي(ص)، حتى يكون مأثورا كما يدعون؟ فإذا كان من قول الصحابي نفسه فهذا يعني أنه من باب الرأي، وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى وهي أن قول الصحابي أيضا به من الرأي، فلم جُعل من باب القول الحجة الذي يؤخذ به في فهم كتاب الله؟

فمن المعروف والبدهي أن الصحابة أيضا اجتهدوا في فهم القرآن، وكان اجتهادهم نابعا من اللغة ومناسبات نزول الآيات والبيئة المحيطة وبعض ما أخذوه عن أهل

[31] مساعد الطيار، مفهوم التفسير والتأويل والتدبر.

الكتاب!، فهذا حتما من باب التفسير بالرأي وفي نفس الوقت هو من باب المأثور لنا وللتابعين من باب أولى، وتفسير التابعين كذلك من باب الرأي وهو لمن بعدهم من باب المأثور ولا بد من النظر فيه كله. وعامة تفسير السابق هو للاحق مأثور وإن كان رأيا، ولا حجة لأحد على أحد، فلا حجة للصحابي ولا للتابعي ولا لأي أحد بل الحجة للنص ذاته لا للأقوال.

التفسير بالرأي، بقسميه الحميد والمذموم

رأينا أن التقسيم إلى تفسير بالرأي وتفسير مأثور لا يصح بل التفسير السابق –المأثور – هو في نفس الوقت تفسير بالرأي، ومن المتفق عليه أن التفسير إذا خالف قواعد اللغة وأصول الدين فهو تفسير مذموم مردود، سواء ورد عن الصحابة أو التابعين أو حتى المعاصرين، ولا يعد من باب التفسير بل هو من باب التعقيد والتغميض إذا جاز التعبير.

إذن يخلص من هذا من قال بتفسير القرآن بما قال به الدكتور السقار: "1– أنَّ جعل التفسير بالمأثور مقابلاً للتفسير بالرأي لا يصح. 2– أنَّ تسمية الوارد عن السلف بأنه مأثور لا إشكال فيه، لكن لا يقابله غيره على أنه تفسير بالرأي، لأنَّ في هذا نسيان للرأي الواردِ عن السلفِ. 3– أنَّ الحكم على التفسير المأثور بالقبول، يصحُّ من حيث الجملة، لكنه لا يتلاءم مع الاختلاف المحقق الوارد عنهم، وفي هذه الحال لا بدَّ من معرفة القول الأولى أو القول الصحيح في الآية، وهذا يحتاج إلى رأي جديد، فهل تقف عند الاختلاف بزعم قبول المأثور، أم ترجِّح ما تراه صوابًا، فتكون ممن قال برأيه؟"اهـ

إذا فالتقسيم المعتاد إلى مأثور ورأي لا يصح، فكلاهما مختلط فالمأثور رأي والرأي مأثور -لمن جاء بعد القائل- ولا حجة لأي منهما، وإذا رأينا أن التقسيم المعهود غير صحيح، فلننظر إلى العلم نفسه أي التفسير، هل هو تفسير حقا أم خلاف ذلك؟

هل يعد التفسير من باب التفسير؟

قد يبدو السؤال غريبا بعض الشيء ولكن لا بد من طرحه، هل كتب التفسير تقوم بتفسير القرآن؟ للإجابة على هذا السؤال لا بد من النظر أولا في معنى التفسير، ثم النظر في كتب التفسير نفسها، وهل هي من باب التفسير أم أضافت أشياء أخر لا علاقة لها به؟ نقول: أولا التفسير لغة: من فسر إذ كشف وأضاء وأظهر، كما ذكرنا سابقا.

ولم يتفق العلماء في تعريف العلم اصطلاحا فلكل تعريفه في هذا الشأن، ولكن نورد هنا بعض التعريفات التي وردت في تعريف هذا العلم:

- تعريفُ ابن جُزَيٍّ: معنى التَّفسيرِ: شرحُ القرآنِ، وبيانُ معناه، والإفصاحُ بما يقتضيه بنصِّه أو إشارَتِه أو نجواه.

- تعرّيَفُ أبي حيان: التفسيرُ: علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بألفاظِ القرآنِ، ومدلولاتِها، وأحكامِها الإفراديَّةِ والتركيبيَّةِ، ومعانيها التي تُحمَلُ عليها حالَ التركيبِ، وتتماتُ ذلك.

- تعريف الزركشي: علمٌ يُعرفُ به فَهْمُ كتابِ اللهِ المنَزَّلِ على نبيه محمد(ص)، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامِه وحِكَمِه.

- تعريف ابن عرفه المالكي: هو العلمُ بمدلولِ القرآنِ وخاصِّيَةِ كيفيةِ دلالتِه، وأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ.

وهناك العديد من التعريفات الأخرى ولكن لنكتف بهذه التعريفات، ولننظر هل هي مطابقة لما في كتب التفسير وللغرض منها؟

إذا نحن نظرنا في تعريف أبي حيان وجدناه يقول: "علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بألفاظِ القرآن"، هل هذا له علاقة بالتفسير؟ ليس لهذا أي علاقة بالتفسير فهذا هو عين علم القراءات. (ومدلولاتها) أي: مدلولاتِ تلك الألفاظِ، وهذا علمُ اللُّغةِ الذي يُحْتاجُ إليه في هذا العلمِ. (وأحكامها الإفرادية والتَّركيبية): هذا يشمل علمَ التَّصريفِ وعلمَ الإعرابِ وعلمَ البيانِ وعلمَ البديعِ.

وإذا نظرنا مثلا في تعريف ابن عرفه، وجدناه يذكر الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول مع استحالة وجودهما في القرآن! وهذا بطبيعة الحال من الفهم المقلوب الذي استعمل مع القرآن مثل اشتراط تحصيل علوم معينة للتصدي لتفسير القرآن، فبدلا من أن نستخرج من القرآن ما ينفعنا أصبحنا نشترط العديد والعديد من العلوم حتى نفسر القرآن!

وأنا أرى أن أقرب التعريفات إلى الصواب –لمن يقول بالتفسير– هو تعريف الزركشي، لأن كتب التفسير قد خلطت فيها ما لا علاقة له بتفسير القرآن، من روايات توضح! الآيات ومن ترجيحات لأقوال السلف صاحبة الحجية، ومن تركيز على العلم الذي يبرع فيه المفسر ومن تعرض للمسائل البلاغية في الآيات، وكل هذا لا علاقة له بالتفسير، فمن أراد أن يفسر كلام الله فليوضح الغامض وليصمت –هذا إذا وجده–.

ولكن ما ظهر لي هو أن السادة المفسرين لم يفهموا النسق الذي جاء عليه القرآن، ولم يفهموا العلاقة بين القرآن والوحي التطبيقي –السنة– كما يسمونه، ولم يضعوا أي نظرية عامة للتعامل مع القرآن، فحشوا كتبهم وأدمغتنا بهذه الأشياء التي لا علاقة لها بالتفسير، وللأسف كان هذا دافع قوي لانصراف الناس عن القرآن بسبب الشكل التعقيدي، الذي قُدم به القرآن للناس فهو نص طويل، يزيد على الخمسمائة صفحة،

وإذا اقتصر الأمر على خمسمائة صفحة فالأمر هين، ولكنه مرتبط بآلاف الصفحات من روايات وترجيحات وتعقيدات وتقييدات وتفنيدات وتحكمات وإسقاطات!

وبسبب القول بتفسير القرآن لا بتأويله ركن العامة إلى أقوال العلماء وأصبحوا يأخذون دينهم من المشائخ، فالقرآن كما أشاعوا نص غامض محتاج إلى تفسير وعامه ليس بعام والخاص فيه ليس بخاص، وهناك أحكام مرفوعة غير مطالبين بها، فاحذر من الوقوع في الزلل!! فأنى للناس بعد ذلك أن يأخذوا من القرآن فهو مزلة أقدام ولا يخوض فيه العوام، ومن خاض فيه يلام، فما له أن يتجرأ على الكلام، بل عليه أن يتركه لما هو أهل له. ولما كان عادة العلماء في ذلك الزمان الاعتماد على الروايات، فقد ملأوا بها كتبهم حتى يظهر العلم، فما الفارق بين العالم والعوام إذا خَلَّصَ كتبه من الروايات!

وبطبيعة الحال كان لا بد من التعرض لبعض القضايا الموجودة في هذا العصر، وإذا لم يفعل ذلك فما الجديد الذي يقدمه في كتابه؟ فقد أتى الأقدمون بما قال، فلا بد من تشويق واختصار أو الزيادة عما قالوا، فقد اختصروا في هذا الموضع وكان ينبغي عليهم أن يزيدوا فنزيد نحن، وزادوا في ذاك الموضع والأمر لا يحتاج إلى زيادتهم فنختصر نحن. وفي هذا الفلك دارت كتب التفسير حتى اختفى النص الأصلي وأصبح من يريد الكلام في القرآن يُلام ويعاب عليه، وأنى له ذلك؟ فهو ليس من أهل العلم، فالقرآن أُنزل للعلماء فقط ثم بعد ذلك يفسروه هم للناس!

ونجد أن العلماء قد اشترطوا في المفسر الذي يريد تفسير القرآن أن يكون ملماً بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيراً عقلياً مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع في الخطأ وتحميه من القول على الله بدون علم؛ فلا بد للمفسر أن يتمكن منها، وهي بشكل مختصر:

1- علم اللغة.

2- علم النحو.

3- علم الصرف.

4- علم الاشتقاق.

5- علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، البيان، البديع.

6- علم القراءات.

7- علم أصول الدين (علم الكلام أوعلم العقيدة).

8- علم أصول الفقه.

9- علم أسباب النزول.

10- علم القصص.

11- علم الناسخ والمنسوخ.

12- الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، ليستطيع توضيح ما يشكل عليه.

13- علم مصطلح الحديث ليدرس الروايات التي يعتمد عليها في تفسيره، سواء كانت أحاديث مرفوعة أو موقوفة أو مقطوعة.

14- علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بعلمه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [سورة البقرة, ٢٨٢].

15- علم أحوال البشر، (علم التاريخ)، ليعرف أطوار البشر وأدوارهم، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعزة وذل، وعلم وجه ... وغير ذلك، ومن جملته أيام الجاهلية، والسيرة النبوية.

16- الإلمام بمسلمات العلوم الحديثة والاستعانة منها بما يخدم التفسير وخاصة ضمن الآيات الكونية، كنشوء الرياح والسحاب والأمطار وطبقات الأرض ... وغير ذلك.

ولنا أن نسأل: هل ألمَّ المفسرون بهذه الجوانب فعلا، أم أنهم اكتفوا بالجانب الديني واللساني فقط،؟! ونحن لا نقصد بذلك العيب على العلماء فيما قاموا به، فهم علماء أفاضل نجلهم ونحترمهم كلهم، إلا أن سيرهم على هذا النهج هو للأسف الشديد كان من باب التقليد، فالمتأخر يقلد المتقدم ومن يأتي بعدهم لا بد أن يقلدهم، فما كان له أن يخالف كل ما سبقوه وهلم جرا، حتى يصبح الأمر من المحرمات التي يستحيل على المرأ أن يقربها، فإذا قرب المرء المنطقة المحرمة وسار على غير ما اختاره الأقدمون، اتهمه الجميع بالابتداع أو على الأقل بأنه لم يأت بما يجدي أو ينفع، كما حدث مع تفسير الإمام الفخر الرازي "مفاتيح الغيب" –الذي أرى أنه لو كان هناك تفسير للقرآن فسيكونه– حيث وُصف بأنه فيه كل شيء إلا التفسير! لمجرد أنه خرج عن النهج المألوف قليلا، وضمن تفسيره بعض أقوال المعتزلة ومن خالف منهج أهل السنة، وحاول أن يتعامل مع النص ذاته.

ويظهر لنا في النهاية جليا أن العلماء الذين لم يأولوا القرآن ووقعوا في فخ التفسير لم يقوموا فقط بتفسير القرآن أي تبين مبهمه ومشكله وغامضه!! –غير الموجودين أساسا– بل أضافوا إلى ذلك ترجيحاتهم الفقهية وأرائهم العقيدية ونظراتهم البيانية، والروايات الواردة في قراءة الآيات وأقوال فلسفية، وهذا كله قلَبَ كتب التفسير من كتب تبيين! إلى موسوعة إسلامية مصغرة تشمل الحديث ومصطلح الحديث والفقه والعقيدة واللغة والفلسفة والمنطق أحيانا وبعض العلوم الطبيعية.

في نهاية المطاف نجد أنهم قالوا بالتفسير وعلى الرغم من ذلك لم يكن في كتبهم من التفسير إلا الجزء اليسير جدا، والأكثر والأعم ليس من التفسير. وإحقاقا للحق لا بد من الإشارة والتنبيه هنا إلى أن بعضا من كتب التفسير بالرأي قد قربت من تأويل القرآن ولكنها للأسف الشديد اكتفت بالدوران في فلك التفسير بدون الخروج منه.

ويسأل سائل: أنت تنتقد العلماء والمفسرين وتعيب عليهم أنهم فسروا القرآن وأدخلوا في تفسيره ما ليس منه، ونحن نقبل أن ترفض الحشو الفقهي والعقيدي والكلامي

وحتى الروائي بكل أنواعه، ولكن ما المشكلة في التفسير ذاته؟ وإذا كان القرآن ذاته لا يحتاج إلى تفسير كما تقول، فكيف ينبغي أن نتعامل معه إذا؟ أقول: الأمر بكل بساطة ينبغي أن نتعامل معه كما أمر الله عز وجل وهو أن نؤوله لا أن نفسره، والتأويل ليس المعنى المتبادر إلى أذهان القراء، بل له معنى آخر تماما، وهذا ما سنوضحه في الفصل القادم بإذن الله.

تأويـل القرآن

للأسف الشديد ارتبطت هذه الكلمة "التأويل" في أذهان الناس منذ بدايات عصر التقعيد والتأصيل والتدوين الإسلاميين بمعنى مغاير تماما للذي قال به الله عز وجل، وحتى لما ورد في اللسان من أصل واشتقاق. فلقد ذكرنا سابقا الأصل الذي اشتُق منه هذه المفردة، والمعنى المحتمل لها، ولكن إذا أُطلق هذا اللفظ الآن فهم منه أشياء عديدة غير المعنى المراد منه، فيفهم منه –على سبيل المثال– أنه: صرفُ اللَّفظِ عن ظاهرِهِ إلى معنى مرجوحٍ لقرينةٍ تدلُّ عليه. أو هو: صرف الكلامِ عن ظاهره إلى وجه يحتملُه. أو هو: نقل اللفظ عَمَّا اقتضاه ظاهره وعَمَّا وُضِعَ له في اللُّغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صحَّ ببرهان، وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق. وإن كان نقله بخلاف ذلك، أطُّرِحَ ولم يلتفت إليه، وحُكِمَ لذلك النَّقل بأنه باطل. أو هو: نقل الكلام عن وضعه وأصله السابق من ظاهره في تعاريف اللغة والشرع أو العادة، إلى ما يحتاج في فهمه والعلم بالمراد به إلى قرينة تدل عليه، لعائق منع من استمراره على مقتضى لفظه، وهو مأخوذ من المآل.

والتعريف الثالث للتأويل وهو تعريف ابن حزم من أعجب التعريفات التي يقابلها المرء، فما معنى "وعَمَّا وُضِعَ له في اللُّغة"، هل وضعت الألفاظ في اللغة لمعان محددة فقط وما بخلافها لا يمكن الحمل عليه أم أنها عقدة التجسيم؟!

وباقي التعريف لابن حزم يدور حول تأويل النبي(ص) للآيات، فمن المعروف أن الحجة عند الإمام ابن حزم فقط في قول النبي(ص)، فهو يريد بقوله: "فإن كان نقله قد صحَّ ببرهان، وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق. وإن كان نقله بخلاف ذلك، أطُّرِحَ ولم يلتفت إليه، وحُكِمَ لذلك النَّقل بأنه باطل."، أن الحديث إن صح عن النبي(ص) كان ذلك مبررا لصرف الآيات عن ظاهرها، لأن هذا هو قول النبي(ص) وهو حجة بذاته، أما ما بخلاف ذلك من الأقوال، أو إذا لم يصح النقل فلا يعتد به في صرف الكلام عن ظاهره بل يؤخذ كما هو بدون تأويل.

ولست أفهم صراحة ما الأصل اللغوي الذي عادوا إليه في جعل التأويل بهذا المعنى فهو يدور كله على الرجوع للأصل أو الانطلاق منه، وليس إلى المرجوح مثلا، ولكن كل هذا يعود إلى التقسيم الساذج للكلام إلى حقيقة ومجاز وظهر وبطن. وبسبب التأصيل الخاطيء لعلم اللغة ظهر التقسيم إلى حقيقة ومجاز، وترتب على ذلك أن الشائع أن التفسير هو من باب الحقيقة والتأويل من باب المجاز.[32]

وإذا رأينا أن هذا التقسيم غير صحيح أو دقيق لغويا –وهو ما لا يصح علميا إذ يجب أن يكون التعريف متطابقا مع معرَّفه تماما بلا زيادة أو نقصان، أو كما يقال: أن يكون التعريف جامعا مانعا، وهذا ما لا ينطبق بحال مع تعريفهم للتفسير وللتأويل، فزادوا عن التفسير وانحرفوا عن مفهوم التأويل[33]– وجب علينا أن نطرح مفهومنا نحن للتأويل، الذي يأتي مغايرا لهذه الأقوال تماما فهو متفق مع الأصل اللغوي، نابع من الاستعمال القرآني متفق مع التطبيق النبوي، ولم نبتدع كما فعل الأخوة وفسروا القرآن كاملا مع أن النبي لم يفعل ذلك.

---

(32) نلاحظ أن كتاب الطبري كان اسمه "جامع البيان في *تأويل* القرآن" حيث أن هذا التقسيم لم يكن قد ظهر وانتشر بعد، فاستعمل الإمام الطبري هذا اللفظ كما ورد في القرآن ظانا أنه يؤول القرآن!!

(33) قد يعترض معترض على هذا التقسيم، فيقول ليس هذا شرطا فهذا من باب الاصطلاح وما تعارف عليه أهل العلم فصار كالحقيقة اللغوية المعهودة. فنقول: نعم قد يعتبر هذا من باب الاصطلاح إذا كنا سنصطلح على شيء جديد ليس له دلالة لغوية، وليس له مقابل في الذهن كاختراع جديد أو وصف معنوي حادث فلا مانع من إطلاق اسم مناسب له، أما أن يكون اللفظ له استعماله الخاص في أدق الكتب فنلغي الاستعمال، ونخلق له معنى جديدا فهذا ما لا يصح ولا يقبل بأي حال من الأحوال.

وقبل أن نعرض مفهومنا للتأويل نذكر خبرا واردا عن ابن مسعود رضي الله عنه، يتفق مع فهمنا للتأويل، والذي رواه البيهقي في شعب الإيمان وهذا الخبر هو: "عن أبي العالية في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [سورة المائدة, ١٠٥]، قال: كانوا عند ابن مسعود جلوسًا، فكان بين رجلين ما يكونُ بين النَّاسِ، حتَّى قامَ كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحِبه، فقال رجلٌ من جُلساءِ عبد اللهِ: ألا أقومُ فآمرُهما بالمعروفِ وأنهاهما عن المنكرِ؟. فقال رجلٌ آخرُ إلى جنبهِ: عليك بنفسك، فإنَّ الله يقولُ: ﴿... عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ... ۝١٠٥﴾ [سورة المائدة, ١٠٥]. قال: فَسَمِعَهُمَا ابنُ مسعودٍ، فقال: مَهْ، لمَّا يجيء تأويلُ هذه بعدُ. إنَّ القرآنَ أُنزِلَ حيثُ أنزِلَ، ومنه آيٌ قد مضى تأويلهُنَّ قبل أن ينزلن، ومنه آيٌ وقع تأويلُهَنَّ على عهدِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ومنه آيٌ وقع تأويلُهُنَّ بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بيسيرٍ، ومنه آيٌ يقع تأويلُهنَّ بعد اليوم، ومنه آيٌ يقع تأويلُهُنَّ عند السَّاعةِ على ما ذُكِرَ من السَّاعةِ، ومنه آيٌ يقع تأويلُهُنَّ يوم الحسابِ على ما ذُكِرَ من الحسابِ والجنَّةِ والنَّارِ."

انظر أخي في الله إلى فهم هذا الصحابي للقرآن –وفهم الصحابة كلهم متفق معه ومعنا، حيث أنهم لم يخوضوا في القرآن إلا في أقل القليل– حيث فهم أن القرآن ذوطابع مطلق وتطبيق نسبي، فلا يمكن أن يُطبق كله في عصر واحد بل فيه ما أتى تأويله –جزئيا–، ومنه ما وقع تأويله على عهد النبي(ص)، ومنه ما يقع تأويله بعد عصرهم، وهذا ما يحدث إلى الآن من تأويل آيات الكتاب العزيز، ومنه ما يأتي تأويله في اليوم الآخر، وبهذا يكون القرآن قد أُول تأويلا كاملا تاما.

تعريف التأويل

نقول: "التأويل" لغة كما جاء في المقاييس: "الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه. أما الأوَّل فالأوّل، وهو مبتدأُ الشيء، والمؤنَّثة الأولى، مثل أفعل وفُعْلى، وجمع الأُولى أولَيات مثل الأخْرى ... وقولهم آل اللّبنُ أي خَثُر من هذا الباب، وذلك لأنه لا يخثر [إلاّ] آخِر أمْرِه. قال الخليل أو غيرُه: الإيال على فِعالٍ: وعاءٌ يُجمع فيه الشَّرابُ أيّاماً حتّى يَجُود. قال:

يفُضّ الخِتامَ وقد أَزْمَنَتْ وأَحْدَثَ بعدَ إيالٍ إيالاَ

وآلَ يَؤُول أَي رجع. قال يعقوب: يقال "أَوَّلَ الحُكْمَ إلى أَهْلِه" أي أرجَعه ورَدّه إليهم. قال الأعشى: أُؤَوِّلُ الحُكْمَ إلى أَهلِه (...) والأصل الثّاني قال الخليل: الأَيِّل الذكر من الوُعول، والجمع أيائِل. وإنّما سمّي أَيِّلاً لأنّه يَؤُول إلى الجبل يتحصَّن، والإيالة السِّياسةُ من هذا الباب، لأن مرجعَ الرّعيةِ إلى راعيها (...) والآلَة: الحالة. قال:

سأَحْمِلُ نفسي على آلةٍ فإمَّا عليها وإمَّا لها

ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ... ﴿٥٣﴾﴾] سورة الأعراف ,٥٣[. يقول: ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم. وقال الأعشى:

على أنَّها كانَتْ تأَوّلُ حُبّها تأَوُّلُ رِبِعِيِّ السِّقابِ فأصحبا

يريد مرجعَه وعاقبتَه. وذلك مِنْ آل يَؤُولُ." اهـ

كان هذا معنى التأويل في اللغة، ولننظر الآن كيف استعمل القرآن هذه المفردة.

التأويل في القرآن

نجد أن القرآن استعمل "التأويل" في خمسة عشر موضعا، وردت ثمانية منها في سورة يوسف وحدها، واستعملت جميعها مع الرؤى والأحلام إلا في آية واحدة، يمكن حملها عليه أيضا، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة يوسف, ٣٧].

ووردت مرتين في سورة الكهف وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الكهف, ٧٨] و﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أبو هُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الكهف, ٨٢][34]

ووردت بخلاف ذلك مرة في سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ٧]

[34] أغلب الظن أن السادة المفسرين أخذوا فهمهم ل "التأويل" من هاتين الآيتين واستنبطوا من ذلك أنه صرف الشيء عن ظاهره، على الرغم من أنه كان يجب عليهم فهم الكلمة من كل الاستعمالات القرآنية وليس من هاتين فقط، ولو أنهم فهموا المغزى الحقيقي من القصة لما فهموا التأويل هذا الفهم، فالمغزى الواضح من قصة موسى والخضر أن الحكم مع عدم العلم قد يؤدي بالإنسان إلى الفهم الخاطيء ومع وجود العلم يصل الإنسان إلى الحكم الصحيح. ولكنهم للأسف لم يفهموا هذا الدرس وتصرفوا نفس تصرف سيدنا موسى عليه السلام، وأصروا أن يفسروا القرآن على الرغم من قلة علمهم، فموسى عليه السلام كان مضرب المثل لنا فله عذره، أما نحن، الذين ضُرب لنا المثل، فما عذرنا؟!

ومرة في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء, ٥٩]

ومرة في سورة االأعراف وهي قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾]سورة الأعراف, ٥٣]

ومرة في سورة يونس وهي قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [سورة يونس, ٣٩]

ومرة في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [سورة الإسراء, ٣٥]

هذه هي المواضع التي ذُكر فيها التأويل في القرآن، ونجد أن القرآن استعملها كأسلوب للتعامل معه في ثلاث آيات وهي آية آل عمران والأعراف ويونس. وهذه الآيات هي التي يجب علينا أن نطبق ما جاء فيها في تعاملنا مع القرآن، فلا يمكن أن ندعي أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين، ولا يكون قد أعطانا الطريقة المثلى لكيفية التعامل معه، فطريقة التعامل مع القرآن واضحة في القرآن تمام الوضوح، ولكن للأسف انصرف الناس عن تطبيقها وحاولوا ابتكار وسائل أخرى في التعامل معه، من تفسير وخلافه. ولننظر الآن نظرة شاملة كيف استعمل القرآن هذه الكلمة في كل المواضع، لا في موضع أو اثنين فقط:

ونبدأ بسورة آل عمران حيث يقول الله عز وجل: ﴿... فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ... ٧﴾ [سورة آل عمران ,٧]، فالذين في قلوبهم زيغ سلكوا هذا المسلك من أجل الفتنة والتأويل ولم يعب عليهم الله تأويله، فالتأويل ذاته سليم، ولكن ليس لهم ذلك فتأويله عند الله والراسخين، فلا ينبغي أن نتتبع ما لم يظهر لنا لأننا لن نستطيع تأويله، وسنثير البلبلة عند الناس فقط إذا أوّلنا أوفسرنا ما لم يأت تأويله، وهذا ما حدث مع جميع تفاسير القرآن حيث وقعت في التناقض وفي تقييد النص وأدت إلى القول بتاريخية النص.

وننتقل إلى سورة الأعراف، حيث قال الله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ ... ٥٣﴾ [سورة الأعراف ,٥٣] فالآية واضحة في أن تأويل الآيات المتعلقة باليوم الآخر سيكون تأويلها فيه، أي وقوعها.

وننتقل إلى سورة يونس حيث يقول الله عز وجل: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ... ٣٩﴾ [سورة يونس ,٣٩] أي أن تأويل ما كذبوا به لما يأت بعد ولكنه سيأتي حتما، فما لم يعلم اليوم سيعلم غدا.

ونأتي إلى آيات سورة "يوسف"، فنجد أنها كلها تتكلم عن تأويل الأحلام، أي عن تحديد كيف تتحق وتحدث في الواقع أي إخبار عن المقابلة مع الواقع.

أما آيتي سورة الكهف فليس المراد منها هنا الالتفات عن الظاهر إلى الباطن، وإنما المراد المقابلة مع الواقع، فلنقص علم سيدنا موسى تسرع وأخطأ الفهم، ولكن من عنده العلم هو الذي يعرف الواقع الحقيقي وليس السطحي. وهذا هو المأزق الذي وقع فيه كلُ المفسرين، حيث فسروا ما لم يحيطوا بعلمه، كما فعل سيدنا موسى؛ ولقصر وعجز الأدوات كان التفسير خاطئا، ولكن إذا صبر المرء حتى يتحصل على الأداة لخرج بالمراد.

أما آيتي النساء والإسراء فتظهر أن معنى التأويل هو الرجوع أي المآل والتطبيق، أي أن تطبيق هذا الشيء أفضل تطبيقا للأمر وأفضل عاقبة.

ونخرج من تتبعنا لآيات القرآن أن التأويل استعمل في الآيات نفس استعماله اللساني –وهكذا يكون دوما في القرآن– وهو بمعنى الرجوع إلى الأول والأصل والمطابقة معه وبمعنى ما يؤول إليه الأمر أي ما يصير إليه، وأن تأويل القرآن مرحلي لا يجوز أن نأوله كله بل لا بد من تأويله تأويلا مرحليا كما وضح القرآن، إلا في نوع واحد من التأويل وهو تأويل النبي(ص) لآيات العبادات، وكما فعل الرسول وكما فهم الصحابة ونفذوا، وهذا التأويل المرحلي يجب أن يعمل على عدة مستويات.

ولقائل أن يقول: نحتاج إلى مزيد توضيح في معنى التأويل، وكيف نأول القرآن؟ نقول كان هذا فقط مجرد مفهوم عام عن معنى كلمة "التأويل"، فكيفية التأويل هو ما سنفرد له العنصر القادم كاملا.

كيف نأول القرآن؟

العلماء الذين قالوا بالتفسير انطلقوا من منطلقات عدة، فرأوا أن تفسير القرآن يكون بالقرآن وبقول النبي والصحابة والتابعين واللسان، فكيف نأول نحن القرآن؟ نقول: تأويل القرآن يكون من النبي(ص) فقط ومن الواقع، وبطبيعة الحال فإن الأداة المستعملة لذلك هي اللسان والعقل التابع للنص، أما فهم القرآن فيكون من النص ذاته فقط.

إذن فما الفارق بين التفسير والتأويل؟ نقول: نحن أولا لا نقول بتأويل القرآن كله إذ لا يمكن لأحد ذلك، بل نحن نقول بتأويل أجزاء من القرآن فقط، هي ما انطبقت مع الواقع أو ما يجب أن نطابقها نحن مع الواقع، أما المفسرون فيفسرون القرآن كاملا.

إذا وما الفارق بين القول أن النبي(ص) فسر آيات وبين القول أن النبي(ص) أوّل آيات؟ نقول: الفارق كبير، فالقول بالتفسير يعني أن الآيات نفسها غامضة ويمكن أن تفسر، وإذا أمكن ذلك فسيختلف الناس في فهم وكشف جلاء هذا الغامض، ولكن مع القول بالتأويل فهذا يعني أن الآيات نفسها واضحة تماما ولكنها بحاجة إلى التطبيق والمقابلة، -وسنذكر لم كان التأويل خارج القرآن عند الحديث عن النظرية العامة للقرآن- وهذا ما قام به النبي(ص)، فنحن لا نقول أن النبي(ص) فسر آيات القرآن، وإنما نقول أن النبي طبق آيات القرآن، فعلى سبيل المثال نجد أن القرآن عندما أمر بالصلاة وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، لم يخف على أحد ما هي الصلاة، فالصلاة نفسها معروفة من دعاء وصلة وخلافه فالأمر ذاته مفهوم فلا بد من الصلة بالله ولا بد من دعائه، ولكن ما هي الكيفية؟ هنا يأتي دور الوحي التطبيقي وهو التوضيح كيف نقيم الصلاة، وكذلك عندما أمر بالزكاة، فالأمر ذاته مفهوم، ولكن كيف نؤتي زكاة المال؟ هنا يحين دور الوحي التطبيقي فيوضح لنا مقادير الزكاة وهلم جرا[35]، وعندما يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [سورة الجمعة, ٩] فنعرف أن هناك نداء للصلاة فتوضح لنا السنة كيفية النداء أو الآذان، وإذا قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ

---

(35) قد يقول قائل: ما تقوله ليس مطردا، فقد يفسر النبي(ص) للصحابة ما التبس عليهم، مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [سورة الأنعام, ٨٢] في التفاسير -نورد هنا من تفسير الطبري-: عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ... ۝٨٢﴾ [سورة الأنعام, ٨٢]، شقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا وهو يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان لابنه: ﴿... إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [سورة لقمان, ١٣]
فقد التبس الأمر على الصحابة ففسره النبي. نقول: هذا ليس من باب التفسير بل هو من باب التصحيح والإرشاد إلى المنهج في فهم القرآن، فنحن لا يجب أن نفهم القرآن بمعزل عن بعضه بل كله وحدة واحدة يصدق بعضه بعضا، والصحابة أنفسهم هم الذين أخطأوا في فهم الآية فالإنسان لا يمكن أن يلبس إيمانه أي يحيطه بظلم إلا إذا كان هذا الظلم هو الشرك، فالشرك هو الوحيد الذي يحيط بالإيمان وما بخلاف ذلك من الذنوب يمكن أن يغفرها الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [سورة النساء, ٤٨]، فالآية غاية في الوضوح، وليس الخطأ في الفهم عند الصحابة يجعلها تفسر بل الذي يفسر هو الغامض وهي هنا واضحة والحمد لله، بل يُصحح الفهم.

فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾] سورة البقرة, ٢٢٢[فالآية تقول أن المحيض أذى يحتاج إلى تطهر، وما يؤدي إلى تطهر فهو رافع للصلاة، وهذا ما قالت به السنة،[36] وهو نابع من القرآن فالحكم واضح والتأويل من النبي(ص).

ونضيف إلى ذلك أيضا أن القول بتفسير الآيات سيؤدي إلى الوقوع في تاريخية النص، فالتأويل النبوي منه ما هو مطلق لكل زمان ومكان، ومنه ما هو نسبي مرتبط بزمان معين وبيئة خاصة، فإذا قلنا أن التأويل النبوي هو من باب التفسير وليس التطبيق التأويلي، فسيعني هذا أن ترتبط الآيات بهذا التطبيق ارتباطا تاما ولا تعطي أي مدلول إلا ما كان في عصر النبي(ص)، وهذا سيؤدي حتميا إلى تاريخية النص واحتياجه التام إلى السنة فيصبح بذلك محتاجا تمام الاحتياج إلى السنة وتصبح السنة قاضية على القرآن –كما قال بعض العلماء!!– لا القرآن قاضيا على السنة كما ينبغي أن يكون، وسنضرب لذلك أمثلة عدة عند الحديث على الجزء التشريعي في القرآن.

أما التأويل بالواقع فهو أمر بسيط حيث يكون بمطابقة ما ورد في القرآن فقط مع الواقع بدون تقدير محذوف أو حذف مذكور –عن طريق القول بالزيادة– وبدون قول بمجاز أو أي إخراج للنص عن حقيقته[37]، فإذا كان في الآية أمر فتأويلها تنفيذ هذا الأمر، فإذا قالت الآية ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فتأويلها إقامة الصلاة، وإذا كان في الآية نهي فتأويلها ترك المنهي عنه، أما القول بأن هناك أمر في القرآن ليس على سبيل الوجوب فعجيب مردود، وإذ كان بالآية عرض علمي وجب علينا أن نبحث عنه وأن نطابق الآية به، وإذا كان في الآية حديث عن تاريخ الأمم الغابرة فيجب علينا أن نبحث لنكتشف هذه الحقائق القرآنية، وإذا ورد سؤال في القرآن فهذا يعني أن الله يوجه هذا السؤال لنا، وعلينا أن نجيبه، فالله تعالى أعلم به ولكنه يريدنا أن نجيب نحن هذا السؤال لأنفسنا.

[36] ردا على القرآنيين الذين يوجبون الصلاة على الحائض!

[37] سنناقش التقسيم الساذج للغة إلى حقيقة ومجاز فيما بعد.

وإذا اتبعنا هذا المنهج في تأويل ما تصل إليه عقولنا وعلومنا، وتركنا ما لا تصل إليه حتى يأتي زمانه، سيأتي زمن نكون فيه قد أولنا القرآن تأويلا شبه كلي ولم يبق إلا القليل مما عجزنا عنه ومما سيأتي تأويله اليوم الآخر.

نموذج للتأويل

ونورد نموذجا في كيفية تأويل بعض الآيات المتعلقة بأهل الكتاب: فإذا مر علينا في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴿١٥٧﴾﴾]سورة الأعراف, ١٥٧[، فكيف نأول هذه الآية؟ الآية واضحة ولا تحتاج إلى أي تفسير، ولكنا سنأول جزءا منها فقط، وهو قوله تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾.

وقبل أن نبدأ في تأويل هذه الآية نقول إذا أخبر القرآن عن شيء فعله أهل الكتاب، فلا يشترط أن يكون سجلوه في كتبهم، ولكنه حتما حدث فهذا نسلم به ونبحث عنه في الأرض، أما إذا أخبر عن شيء في التوراة أو الإنجيل فهو حتما ولزاما فيهما، فيجب علينا أن نستخرجه منهما، وبذلك نكون قد أوّلنا الآيات، ولا يعني ذلك أننا نستدل بالتوراة أو الإنجيل على دعوانا، لا فلقد دخلهما الكثير من التحريف، ولكن القرآن أخبر بوجود هذا النعت فيهما فلا بد من استخراجه منهما.

لذا لا بد من أن نستخرج هذه النبوءة من التوراة والإنجيل، لأنه لو لم يكن مكتوبا أو مُحي في أي عصر –ماض أو مستقبل– فستصبح هذه الآية غير مطابقة للواقع، ونحن نجزم أن هذه الآيات ستظل في الكتاب المقدس مهما عدلوا ونقحوا وحذفوا وأضافوا ولن تُقرب.

ومواضع ذكر النبي(ص) في التوراة خاصة كثيرة جدا[38] ولكن أشهر موضع له هو ما جاء في سفر التثنية: "قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم، مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أني أطالبه"

وهذا الموضع مرتبط بالمناسبة التي وردت فيها الآية، فهي تتكلم عن اجتماع قوم موسى في خيمة الرب في حوريب بعد إختياره منهم سبعين رجلا، فلما أخذتهم الرجفة طلبوا إلى موسى ألا يتكرر هذا الموقف مرة أخرى، فاستجاب لهم الله وبشرهم بهذه البشارة التي وردت في التوراة.

أما أشهر ذكر له في الإنجيل فهو ما ورد في إنجيل يوحنا: "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله أو يعرفه أما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم (يوحنا 14: 15–17) "وأما المعزى روح القدس الذي يرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا 14: 26) ف "المعزي" الوارد في النص هي تعريب غير صحيح بأي حال لكلمة "بارقليط"، ولن ندخل في الجدل العقيم حول هذه الكلمة، وهل هي اسم أم صفة، ولكن المعروف أنهم كانوا

[38] منها ما كان مشتهرا في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، فلقد روي عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ فَقَالَ أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾] سورة الأحزاب ,٤٥["وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ –قَالَ يُونُسُ وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ– وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا"

وما جاء في سفر إشعياء: "هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع، ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفيء، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، وتنتظر الجزائر شرعته، ... أنا الرب قد دعوتك للبر فأمسك بيدك وأجعلك عهدا للشعب، ونورا للأمم فتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة ..."

ومن أراد التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى العمل الجامع للدكتور أحمد حجازي السقا: "البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل"، فلقد جمع فيه فأوعى.

يستعملونها كما هي "بارقليط"، إلى أن بدأ إستدلال المسلمين بها فقاموا بتعريبها بالمعزي وبعدة ألقاب أخر كالمعين!.

إذا هذا نموذج بسيط لتأويل آية تتحدث عن شيء مذكور في التوراة والإنجيل فالتأويل يكون بالمطابقة.

ونورد نموذجا آخر، وهذا النموذج هو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [سورة الفتح, ٢٩]

ومن ينظر في هذه الآية يجد أن الله تعالى يخبر بسمت صحابة الرسول(ص) في التوراة والإنجيل، فيقول أن سمتهم في التوراة –الوارد بشكل المثل– هو الركع السجود سيماهم في وجوههم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، فأين نجد هذا في التوراة والإنجيل؟ بما أن الله أخبر بوجودهما فهما موجودان، وهذان المثلان هما في هذين الموضعين، ونبدأ بالمثل الموجود في التوراة:

ورد هذا المثل في سفر المزامير وهو من أسفار التوراة العبرانية: "لأن الرب راض عن شعبه، يجمل الودعاء بالخلاص، ليبتهج الأتقياء بمجد، ليرنموا على مضاجعهم، تنويهات الله في أفواههم وسيف ذي حدين في يدهم، ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود، وشرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب، كرامة هذا لجميع أتقيائه" (المزمور 149).

أما مثلهم في الإنجيل: فعند متى ومرقس ولوقا: فعند متّى: "يشبه ملكوت السماء حبة خردل، أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة، حتى أن طيور السماء تتأتي وتتآوى في أغصانها" (متى 13: 31-32). وعند مرقس: "وقال: بماذا نشبه ملكوت الله؟ أو بأي مثل نمثله؟ مثل حبة خردل متى زرعت في الأرض فهي أصغر جميع البذور التي على الأرض، ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول وتصنع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلها" (مرقس 4:30- 32) وعند لوقا: "فقال ماذا يشبه ملكوت السماء؟ وبماذا أشبهه؟ يشبه حبة خردل أخذها إنسان وألقاها في بستانه، فنمت وصارت شجرة كبيرة وتوت طيور السماء في أغصانها" (لوقا 3: 18-19).

فعندما نتكلم عن تأويل هذه الآية أو شبيهاتها لا بد أن نأتي بما يطابقها في التوراة أو الإنجيل، ونقول هذا ما بقي من ذكرهما في التوراة والإنجيل، وبذلك نكون قد أولناها كما يجب، لا أن نتكلم عنها كلاما إنشائيا، ونقول ذكر الله في التوراة والإنجيل كذا وكذا في نعت المؤمنين بدون تحديد لمكانها.

إذن تأويل آيات الأمر يكون بتنفيذها، فإذا نفذت الآيات وطبقتها في حياتي فأنا أؤول الآيات، وإذا لم أنفذها فأنا لم أؤولها، ويكون فهمها حجة علي. ويختلف تأويل آيات الأمر من عصر إلى عصر، فهناك آيات تأويلها ثابت مثل آيات الصلاة والصوم، فهذه أُولت من زمان النبي(ص) ولا بد أن تأول في جميع الأعصار بنفس التأويل، وهناك آيات يختلف تأويلها من عصر إلى عصر، فلا بد أن تأول تبعا لآليات ذلك العصر.

فإذا أخذنا آيات مثل قوله تعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٥٩]، ومثل قوله تعالى: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الشورى, ٣٨] نجد أن تأويلها يختلف من عصر إلى آخر، فتطبيق الشورى في القرن الأول الهجري يختلف عنه في الخامس

عشر، وحتما فإن هذين التأويلين لا يصلحان للقرن العشرين الهجري، فلا بد من تأويل جديد لآيات الشورى.

كذلك تأويل آيات الإنفاق الحر التطوعي لا بد أن يختلف من عصر إلى آخر، فمع تغير ظروف وأشكال المجتمعات لا بد أن نتحرك بشكل آخر في الإنفاق، فلا يصح أن نظل نخرج أموالنا بنفس الشكل الساذج من إعطائها مباشرة للفقراء كشكل صدقة أو في بناء المساجد أو تزيينها بشكل مبالغ لا حاجة إليه، بل لا بد من تطوير وسائل الإنفاق حتى تتفق مع متطلبات العصر، من أجل تحقيق نهضة حقيقية للمجتمع.

وأما تأويل آيات النهي فواحد في جميع العصور، ويكون بترك المنهي عنه. وتأويل آيات القصص القرآني يكون على مستويات عدة بعد فهمها كنص، بتفعيل دورها في التربية والاقتداء بها في الأدب القصصي واستخراج السنن الكونية وتطبيقها في الحياة.

وتأويل الآيات العلمية يكون بمطابقتها للواقع، ولكن يشترط في جميع الأنواع عدم الخروج عن النص بأي حال، فلا نفترض محذوفا أو نحذف موجودا، ولا بد من مراعاة السياق وربط الآيات في السورة ببعض، وربطها بالآيات المتعلقة بالموضوع في القرآن، حتى نصل إلى الفهم السليم للنص.

إذا مع المنهج التأويلي للقرآن سيُلغي ما يُسمى بكتاب التفسير، أي لن يوجد كتاب يفسر القرآن تفسيرا كاملا، ولكن سيوجد كتب متعلقة بآيات من القرآن أو كتب متعلقة بآية من القرآن تحاول أن تأول هذه الآية، أما الذي يدعي أنه يفسر القرآن كاملا أو يأوله كاملا فهو واهم، فلم ولن يوجد على وجه البسيطة من يستطيع فعل ذلك، أما علمائنا الأفاضل الذين قاموا بتفسير القرآن كاملا فما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يفهموا ويعرفوا الآية الحقيقية للقرآن وظنوا أنه نص مثل باقي النصوص يحتاج إلى تفسير، فقاموا بتفسيره ويا ليتهم فسروا بل عسروا!

أما مع المنهج التأويلي فلن يتم التعرض إلى المستوى الأول أي مستوى فهم الآيات، فهذا مما يجب على كل مسلم أن يقوم به بذاته، بل سيكون التأويل دوما متعلقا

بالمستويات اللاحقة، فالقرآن ميسر سهل واضح لكل ذي عينين، فإذا أردت أن أتحدث عن تأويل بعض الأحكام الفقهية، فلا بد أن تكون هذه الآيات من الآيات ذات التأويل المتغير الذي يتغير عبر الزمان، أما الآيات ذات التأويل الثابت مثل آيات الصلاة فلا يُتحدث عنها، وآيات القصص القرآني لا تُفسر، فهي غاية في الوضوح ولكن يتم عرض كيف يستفاد منها في المجتمع واستخراج تاريخ البشرية منها، والآيات العلمية يُبحث عنها في الطبيعة حتى يحدث مطابقة بينها وبين الواقع.

ونود التنويه أن هذا التقسيم لا يوجد في القرآن واضحا كما نقول به، فآيات القصص القرآني تتداخل مع آيات ذات طابع علمي، وآيات الفقه تتجاور مع آيات العقيدة، بل إن الآيات ذات الطابع القصصي يستخرج منها بجوار الجزء التاريخي مدلولات علمية وأدبية وفقهية أيضا. وهكذا يُتحرك مع آيات القرآن على جميع المستويات حتى يتم استخراج أكبر قدر ممكن من العلوم المختزنة في هذه الآيات.

الآيات غير القابلة للتأويل

أما الجزء الوحيد غير القابل للتأويل في القرآن، ويُكتفى فيه بفهمه فقط، فهو الجزء المتعلق بأسماء الله عز وجل[39]، فهذه الآيات غير قابلة للتأويل، وإنما تُفهم فقط كما هي، فالله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ونحن نلاحظ أنه بدأ ظهور بعض الكتب التي اقتربت من المنهج التأويلي في التعامل مع النص القرآني، مثل الكتب التي تتحدث عن الإعجاز العلمي للقرآن، وسيلاحظ القارىء أنها كلها تتبع المنهج الذي نقول به وسنعرضه فيما بعد في فهم القرآن، ومثل الكتب التي تتحدث عن الجانب البلاغي البياني للقرآن. ولكن يؤخذ على هذه الكتب أنها لم تقم حتى الآن باستخراج تأصيل كامل للعلوم البيانية مستخرج من القرآن يسير

[39] ليس لله عز وجل صفات، والقول بالصفات بدعة، فله سبحانه الأسماء الحسنى!

على خطاه الأدباء في صياغتهم لجميع أعمالهم الأدبية، خطابية أو روائية أو علمية، بل جعلت القرآن على نفس القدم مع الأعمال البشرية، ويؤخذ عليها كذلك أنها لا تزال تسير على النسق المألوف من افتراض محذوفات في البنية اللغوية وهذا نابع من الاستقراء الخاطىء للغة والقرآن.

وأنا أعرف أن هذا المنهج لن يعجب الكثير من القراء، فمعظمهم لا يستطيع أن يقرأ القرآن بله أن يفهمه، ولكن هذا ليس ذنب القرآن بل هو ذنب القراء أنهم تركوا القرآن، فهل أتى لهم من قال: أنه يجوز للمسلم أن يتكل على غيره في أحكام دينه، بدليل على قوله هذا؟!

وهذه هي آفة التقليد؛ الترك التام للدين، ولكن مع المنهج التأويلي فكلٌ مطالب ومسؤول عن نفسه، وإذا التبس عليه فهم بعض الآيات يسأل فيها أهل الذكر، لا أن يترك القرآن تماما ويأخذ دينه من العلماء فهذا ما لا يُقبل بحال، وأما مسألة عدم فهم الآيات فهذا راجع إلى الجهل بمفردات اللغة وليس إلى بنية الآية نفسها، وهذه المفردات غير المألوفة أو غير معروفة المدلول في القرآن ليست بالكثيرة، ويمكن معرفتها بالرجوع إلى المعاجم.

وبهذا المنهج يكون الإنسان المسلم مرتبطا بكتاب ربه تمام الارتباط، وليس من الذين قال فيهم الرسول: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [سورة الفرقان, ٣٠].

المنهج العام للقرآن

نعود فنقول القرآن كتاب عام شامل فيه كل شيء: ﴿... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ... ٨٩﴾ [سورة النحل, ٨٩]، ونجد أن القرآن عرّف نفسه بنعوت عدة،

منها أنه يهدي للأقوم في كل شيء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ... ﴿٩﴾﴾]سورة الإسراء ,٩[، وأنه قرآنا عجبا، كيف ولم كان ذلك؟ كان ذلك بكل بساطة لأنه كلام الله، وإذا قلنا أنه كلام الله فيجب أن يتبادر إلى الذهن مباشرة، أنه وإن كان مكونا من كلمات وحروف مثل باقي الكتب، فلا بد أنه مختلف تماما الاختلاف عنها، ولا بد أن نلحظ هذا بوضوح في النص القرآني، فالنص القرآني يتميز بخاصية لم ولن تتوفر في أي نص آخر، ألا وهي "الشمولية المطلقة" بمعنى أنه –وكما قلنا في المقدمة– نص مطلق لا يحده زمان أو مكان، فهو صالح لكل زمان ومكان.

وإذا كان هذا هو حال نص مكون من ما يزيد قليلا عن الخمسمائة صفحة، فلا بد أن يشتمل على كم هائل من العلوم التي تنفع الناس في حياتهم، وعندما أقول العلوم فأنا أعني العلوم بكل مجالاتها أي أنه جلّ شأنه لم يدع بحثاً في السياسة والطبيعة والأخلاق والتمدن والاقتصاد والاجتماع والأحكام والعبادات وعلم الكلام وغيرها من العلوم إلا وأتى بها مفصلةً في هذا القرآن، فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ... ﴿٨٩﴾﴾] سورة الإسراء ,٨٩[وهذا يتأتى فقط بالتحرك على عدة مستويات مع المفردة القرآنية، فالمفردة في القرآن لا يمكن أن توظف توظيفا واحدا، وإنما لها عدة مستويات في التوظيف والاستعمال والتلميح والإشارة، ولكننا نحن الذين قصّرنا في استخراج هذه العلوم من القرآن.

والأمثلة على شمولية النص، أو قل إن شئت المفردة القرآنية، متناثرة في القرآن كله، فالمفردة الواحدة تشتمل على معان عدة وكل المعان واردة بشكل أو بآخر، ولكننا للأسف الشديد قمنا بتحديد المعاني للمفردات في القرآن، جريا ونزولا على المألوف فلم نستطع أن نستخرج هذه الكنوز، فالقرآن يشتمل علوما[40] ونبؤات وأخبارا عجيبة

---

[40] سنغض الطرف هنا عن علم التوافق العددي للقرآن تماما، وهو ما يسمى ب*الإعجاز* العددي للقرآن، على الرغم مما فيه من الفوائد العظيمة والإشارات التي يستحيل صدورها من محمد بن عبد الله، ولكن نورد هنا مقتطفات سريعة: ورد "عيسى" في القرآن خمسا وعشرين مرة وهذا نفس عدد مرات ورود "آدم"، ونتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ... ﴿٥٩﴾﴾] سورة آل عمران ,٥٩[، فنجد التماثل حتى في عدد مرات الذكر في القرآن. وردت كلمة الصلوات في القرآن خمس

﴿... قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [سورة الجن ,١]، تفوق قدرة العقل البشري، وسنظل نكتشف من حين لآخر جانبا جديدا من المعاني التي جاد بها القرآن، فما لاحظته من خلال قراءتي للقرآن في مقابل كتب التفسير هو أن المفردة القرآنية مثلها مثل أي مفردة تحتمل الكثير والكثير من المعاني والإشارات والمدلولات، مع الفارق أن القرآن مطلق وأي نص آخر نسبي تاريخي، يُفهم من خلال ظروف وأحداث زمانه، وكل ما فعله السادة المفسرون أنهم حددوا وضيقوا علينا مدلولات وإمكانيات فهم مفردات القرآن، فنجد أنهم قالوا بمعنى محتمل لكلمة ما ثم تمر قرون وتطفوا معان جديدة محتملة للكلمة مع تغير الخلفية أو الأرضية المعرفية لهذا العصر، ثم تمر قرون وتطفوا معان ووظائف جديدة للكلمة، وتظهر إشارات جديدة في المفردة، يمكن أن تُفهم على أساسها فهما أوسع وأجود، وهذا ما قلته وأكره دوما أننا نسبح في بحار الكلمة القرآنية، ويجب علينا أن لا نتجاوز شواطئها! وأن لا نقيم لها السياج بل نتركها طليقة، تحلق في آفاق المدلولات والمعاني كما هي، فالقرآن وسع العلوم ونحن ضيّقنا على أنفسنا.

ولن يقنع هذا القول بعض الأخوة، وسيقول: نحن قرأنا القرآن مرات ومرات، ولم نر فيه ما تقول، نعم القرآن فيه الكثير من الحقائق العلمية والكونية ولكن لا داعي للتعميم. نقول: هذه هي آفة الإنسان، أنه يعجز أن يرى أبعد من أنفه، فطالما أنه لم ير

مرات، وكذلك التوافق بين نسب ذكر الأشياء في القرآن ونسب وجودها في الطبيعة أو الحياة. ولو نظرنا الى كلمة المصيبة ومشتقاتها، وكلمة الشكر ومشتقاتها، لوجدناهما تردان بشكل متناظر تماماً في القرأن الكريم، فكلمة المصيبة ومشتقاتها وردت 75 مرة، وكلمة الشكر ومشتقاتها وردت 75 مرة، وردت كلمة "شيخ" ثلاث مرات في القرآن وكذلك كلمة "طفل"، وردت كلمة "شيوخ" مرة واحدة وكذلك "الأطفال"، وردت كلمة "فرات" في القرآن ثلاث مرات و"أجاج" كذلك، ومثل أن القرآن مائة وأربع عشرة سورة، نصفها في الثلاثة أجزاء الأخيرة ومثل هذا كثير ويستخرج منه الكثير والكثير.

وعلم التوافق العددي للقرآن هذا علم كامل لا مراء فيه، ويجب أن يكون من ضمن درجات تأويل القرآن، والدليل على جواز تأويل القرآن تأويلا عدديا آية المدثر: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ... ٣١﴾ [سورة المدّثر ,٣٠-٣١]، فلو لم يكن ثمة درجة من درجات التأويل القرآني هي التأويل العددي فستصبح هذه الآية بلا مدلول ولن نصل إلى مراد الله منها.

الشيء ينكره، وأنى له أن يفهمه وهو لم يصل إلى المرحلة التي يأتي فيها تأويل هذا الشيء!

مثال لقصور العلوم

ونذكر مثالا واحدا على قصور العقل البشري في استخراج العلوم من القرآن لنقص العلوم المطلوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [سورة الكهف, ١٨]

هذه الآية تتحدث عن أصحاب الكهف، وهم الفتية الذين فروا بدينهم ودخلوا في كهف فناموا فيه ثلاثمائة سنين وتسعة[41] وهي معروفة في الأدب الأوروبي ب "النائمين السبعة"، وعندما كنت أقرأ هذه الآيات وأنا صغير كنت أتفهم وأتقبل أن الشمس تزحزح عن الكهف يمنة ويسرة، لكيلا تصيبهم الحرارة أو الضوء فيستيقظوا، ولكن عندما كنت أقرأ الآية التي تليها أمر عليها مر الكرام مثل كثير من المؤمنين الآن، ولكن ظهر لنا فيها كشف علمي كبير وهو التوصيف الدقيق للمغيبين، وكيفية التعامل مع من يسقطون في غيبوبة أو يضطرون للرقاد فترة طويلة.

وتأمل معي في الآيات التي تعطيك المنهج السليم لذلك:

أولا: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ ... ١١﴾ [سورة الكهف, ١١]، ضُرب على الآذان حتى لا يسمعوا شيئا فيستيقظون.

[41] لا يوجد أي دليل على أن المراد من التسع سنين الزائدة هي السنوات الهجرية، وأنها الفرق بين السنوات الهجرية والميلادية، والأولى تركها كما هي، أي أنهم لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين.

ثانيا: العين تفتح وتغلق، بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ ... ١٨﴾]سورة الكهف ,١٨[، والحالة الوحيدة التي أرى فيها مستلقيا وأحسبه مستيقظا أن تكون عينه مفتوحة وتغلق كل برهة، فلو كانت مفتوحة دوما لظننته ميتا، ولو كانت مغلقة لظننته نائما أو ميتا.

ثالثا: يقلبون يمنة ويسرة.

رابعا: الكلب ثابت لا يقلب وباسط ذراعيه للوصيد.

وهذا قمة في التوصيف، فالإنسان إذا وقع في غيبوبة طويلة يوضع على سرير متموج أو يقلب يمنة ويسرة حتى لا يصاب بقرحة الفراش، وهذا ما ذكرته الآية فهم كانوا يُقلبون، بخلاف الكلب الذي لا يصاب أبدا بهذا المرض، فذكرت الآية أنه كان في حالة ثابتة باسطا ذراعيه إلى الوصيد وبغير حاجة للتقليب.

وإذا ظل الإنسان لفترة طويلة جدا مغمض العينين فإما يصاب بالعمى أو بالضعف الشديد للبصر، لذلك جعل الله عيونهم مفتوحة وتغلق كل فترة –مثل المستيقظ– حتى لا يشعروا بتغير عندما يستيقظون.

فهذه مجموعة من الآيات اشتملت عرضا علميا دقيقا لحالة المغيبين وكيفية التعامل معهم، ولو عرضناها على كل عباقرة التفسير في العصور الماضية، لما رأوا فيها شيئا بل سيرون فقط أنهم كانوا يقلبون، لماذا؟ هذا الأمر لا يعنيهم، ما يفيد هو أن الله أخبر بتقليبهم ولا يعرفون السبب ولا يهمهم!! فكما يبدو هذا جزء من القصة –حبكة درامية أو إكمال للصورة!!–، فهذا نموذج بسيط لقصة قرآنية لم ير فيها الأقدمون إلا قصة، أما نحن فنراها قصة قرآنية تخلد ذكر أبطالها، ونراها واقعة تاريخية تحكي مرحلة من مراحل الاضطهاد الديني، ونرى أنها احتوت علوما طبيعية، ويمكن فهمها بأشكال مختلفة أخرى، مثل فهمها على أنها نبؤة قرآنية تتحدث عن تاريخ المسيحية،

وكيف أنها ظلت محبوسة في ظلمات الجهل لسنين طويلة ثم تنتشر بعد ذلك لفترة قصيرة ثم تعود إلى الاضمحلال، وغير ذلك رؤى كثيرة، وعلى ذلك فقس.

فكثير من العلوم المتناثرة في القرآن نمر عليها مرور الكرام بدون أن نلقي لها بالا، لقصر علومنا ونظرنا، ولكن لو عرفنا أن لكل حرف في القرآن حكم وأهداف لتغير حالنا كثيرا، ولكنه القصور العقلي والرضا به!

العموم والشمولية

ونعود مرة أخرى إلى موضوع الشمولية، فنقول: إن المنهج العام في القرآن هو العموم والتوسع، كُلاً ككتاب أو موضوعات وجزءا ككلمات، فمن يقرأ القرآن يتأكد تماما أن هذا الكتاب لا يخاطب بيئة معينة أو أفرادا معينين في زمان مخصوص، ومن يستقرأ القرآن يجد هذا الشعور، فعندما نقرأ القصص القرآني مثلا نجد أنه لا يذكر الأسماء بالتحديد غالبا، وقد لا يذكر المكان ولا الزمان، فالغرض من الحادثة هو الذي يتم إبرازه، حتى تصبح الحادثة صالحة لكل زمان ومكان، بل إن القرآن عندما أراد تخليد بعض أحداث معينة في تاريخ البعثة المحمدية ذكرها بطريقة عامة يمكن إسقاطها على كل زمان ومكان، فانظر مثلا عزيزي القارىء في سورة الأنفال التي نزلت كلها بعد غزوة بدر وتتحدث عنها، هل لاحظت أنها محصورة في نطاق هذه الغزوة أم أنك تشعر أن هذه السورة تتحدث عن أحداث يمكن أن تتكرر في مواقف مختلفة وكثيرة؟ وهل شعرت أن التشريع الوارد فيها هو مختص بغزوة بدر أم أنه حكم صالح لكل الغزوات؟

مشاهدةً يستشعر المرء أن هذه الأحكام عامة والعرض كذلك يمكن إسقاطه على أي واقعة تاريخية مماثلة، ولينظر القارىء مرة أخرى في سورة آل عمران، والتي نزل جزء

كبير منها يتحدث عن غزوة أحد، فهل يستشعر أن السورة تدور في نطاق هذه الغزوة أم أنها تدور في نطاق عام يصح إسقاطه على مواقف مختلفة؟

ومن ينظر سيجد أن الإسقاط إسقاط عام لا يصح حصره بأي حال(42) في واقعة أُحد، بل هو مطابق لحال كثير من الوقائع التي هي لا محالة واقعة في المجتمع الإسلامي، ففي حالة وقوعها يستخرج حكمها من الآيات القرآنية هذه وشبيهاتها.

وعندما يتحدث عن حكم شرعي مقدر تتغير قيمته مع الزمان تجده يحدد ذلك بالمعروف، فنجد مثلا أن الله لم يحدد قِيَم هذه الأشياء بل تركها تابعة للعرف في هذا الزمان، فنجد أن الله تعالى يترك مقدار الوصية للعرف: ﴿... إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٠]

ونجد أن الله تعالى لم يحدد واجبات الرجل أو المرأة في البيت بل ترك ذلك للعرف، ووضع القاعدة العامة بقوله: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٢٨]، ونجد أن الله تعالى يقول في موضع آخر: ﴿... وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٣٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٣] وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤١] ويقول في موضع آخر: ﴿...

(42) لاحظت من خلال استقرائي للقرآن هذا التعميم بشدة فمثلا كلمة "بدر" الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٢٣]، التي يحملها المفسرون على مكان الغزوة يمكن حملها أيضا على النبي(ص)، أي أننا نصرنا ببدر وهو النبي(ص)، فالنبي(ص) بدر وسراج منير، وفي قوله تعالى: ﴿... فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ... ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٧]، فزيد هذا هو زيد ابن ثابت ولكن الاسم نفسه "زيد" يرتبط في أذهان الناس بالمجهول كما تقول س من الناس، وكما نجد كلنا في كتب النحو: جاء زيد أو حضر عمرو، فحتى الاسم الوارد يميل إلى عدم التحديد، وفي قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [سورة المسد, ١]، فأبو لهب هذا هو عم النبي(ص)، ولكن الاسم نفسه يشعرك أنه صفة، ويمكن حملها على كل من كان هذا حاله من الشرور والآثام وإيذاء الآخرين، وطبعا نحن لا ننكر هذه الشخصيات أو الوقائع ولكن نشير إلى الجانب التعميمي في هذه المسميات، فمن الممكن أن تعمم أيضا.

وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾] سورة النساء ,٦[

وغير ذلك كثير من المواضع التي لم تحدَد فيها القيمة بل تُركت للعرف وللزمان والمكان، ولو حدد القرآن قيمة هذه التعاملات لوقع في مأزق كبير ألا وهو تاريخية النص، فمن المعلوم أن هذه المقادير من المتغيرات التي لا تثبت، فلو حددت في القرآن لعلم أن هذا الكتاب ابن بيئته وزمانه[43]، فلا يصلح أن يكون لكل زمان ومكان، ولكن لمّا كان الكتاب من عند الله فلا بد أن يكون مطلقا، ولكي يكون مطلقا لا بد أن يكون عاما، ويستقصي هذه الشمولية والعموم في جميع آياته.

ولقد رأيت أن المحافظة على العموم في القرآن كانت –والله أعلم– من أهم الأسباب التي جعلت تفاصيل الصلاة لا تذكر في القرآن، فلو ذُكرت تفاصيل الصلاة في القرآن لقضت على الشمولية والعموم في القرآن، فنحن نعرف أن "الصلاة" لها معنى شرعي ولغوي –هذا إذا قلنا بالتقسيمة المألوفة للألفاظ إلى شرعية ولغوية– والشرعي هو صلوات المسلمين الخمس من الفجر إلى العشاء، ونجد أن "الصلاة" في القرآن تتحرك على عدة مستويات من صلاة الأنبياء وأقوامهم[44] ومن صلاة بالمعنى اللغوي أي الدعاء والصلة ومن صلاة المسلمين المألوفة، وعند الحديث عن الصلاة يتم دخول كل هذه المستويات في الحديث ولا يراد إلغاء أي جزء منها فعند الحديث عن الصلاة يقصد الصلاة المألوفة والدعاء والصلة بالله، وبطبيعة الحال عند الكلام عن الصلاة عند السابقين لا يقصد صلاتنا هذه، لهذا كما أرى وحتى لا نقع في تفصيلات كثيرة طويلة لا تُحمل على العموم بل وتقضي على العموم لم يتم ذكر تفاصيل

(43) في حالة ورود أحاديث في تأويل الآيات التي تذكر مصطلح "بالمعروف"، فهي من أحاديث التأويل المرحلي، التي كانت مناسبة لعصرها وزمانها، والتي لا يجوز أن نستمر عليها مع تغير الزمان والمكان، بل لا بد من استحداث قيم ومقادير مناسبة لزماننا.

(44) الذي أراه أن الصلاة في جميع الشرائع كانت بنفس الشكل، وندلل على ذلك بأن الانحناء "الركوع" يُعد من علامات التحية والاحترام والخضوع في جميع أنحاء العالم، وكذلك نجد أن السجود لا يزال يعد قمة الخضوع عند جميع الشعوب حتى المتخلفة منها، فتجدهم يسجدون لأصنامهم!!

الصلاة[45]، ولأن هذه التفاصيل من باب التأويل أي التطبيق والمقابلة فقد أُوحي بها إلى النبي وحيا تعليميا مستقلا، ليعلم المسلمين كيف يقومون بالصلاة.

وعند الحديث عن الحج ذكر بعض التفاصيل ليس على سببيل التعليم بل على سبيل الإخبار، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ... ﴿١٩٧﴾﴾ [سورة البقرة, ١٩٧]، و﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [سورة البقرة, ١٩٨]

فنلاحظ أنه قال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ ... ﴿١٩٨﴾﴾ [سورة البقرة, ١٩٨] ولم يقل: "أفيضوا من عرفات وافعلوا كذا"، ولكن الحديث هنا عن شيء معروف وليس على سبيل ذكر التفاصيل للتعليم، لأن هذا أيضا من المواضع التي تؤول وأولها لنا النبي(ص).

ولكن تخيل أن تأتي تفاصيل الصلاة في القرآن مثل ما جاءت تفاصيل الوضوء، ونحن جميعا نقرأ تفاصيل الوضوء الواردة في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة المائدة, ٦]

(45) تصور معي عزيزي القارىء أن القرآن عرض لتفاصيل الصلاة من قيام وركوع وسجود وتشهد، وعدد ركعات كل صلاة، ومتى تُدرك الركعة ومتى لا تدرك، كم كان سيحتاج هذه من الآيات بل الصفحات التي لا يمكن حملها على أي مستوى آخر إلا تعليم الصلاة، بخلاف جميع آيات القرآن التي تتحرك في مستويات عدة بمدلولات مختلفة كثيرة.

ونجد أنها آية جامعة مانعة عامة شملت الوضوء وحالة عدم الماء الحقيقي أو الاعتباري، وهي قمة في الاختصار ولم نجد لهذا الموضوع أي ذكر بعد ذلك في القرآن بتاتا، فالوضوء لم يذكر إلا في هذه الآية، والصيام ذكرت فروضه وأحواله في مجموعة آيات متتاليات في سورة واحدة بشكل عام جامع مانع ولم يذكر في أي مكان آخر، ثم إن الحديث في القرآن عن الصيام يدور في نطاق واحد وهو الصيام كما علمناه ولا يتحرك في أكثر من دائرة بل إذا ذُكر الصوم إنصرف الذهن مباشرة إلى الصيام الذي نعرفه، وفي نفس الوقت تفاصيل الصيام قليلة بخلاف تفاصيل الصلاة، التي من الأنسب لها أن تؤول أي تُطبق بدلا من أن تفصل.

ولا بد من أن نتذكر أن القرآن إذا كان "نصا" شموليا ويتحرك على سبيل العموم لا بد من أن نجده كذلك شاملا جميع الأشكال الأدبية التي وُجدت والتي لم توجد حتى الآن، ما دام هذا التوجه في الكتابة عقلاني مقبول موجه وليس على سبيل الفوضى أو معدوم الهدف، فتنوع النص القرآني من قصة قصيرة إلى قصة طويلة إلى الأمثال إلى القصة المجزئة إلى القصة ذات النهايات المفتوحة إلى الأسلوب المقتضب وحتى التوظيف الجنسي في الرواية، ولكن التوظيف النظيف الذي يلعب دورا هاما ومحوريا في القصة، نخرج منه بدروس كثيرة وليس بإثارة شهوات وتحريكٍ للنزوات، وإلى التكرار اللفظي وإن كان السياق يعطي دلالات ودور مختلف تماما، ومن نص قانوني إلى نص علمي بصياغة أدبية عالية[46] إلى نص تصويري عالي الدقة في العرض وإلى نص تاريخي يعرض أحوال البشرية والكون عرضا شيقا دقيقا صادقا وإلى وإلى...، فهو من حيث الشمول كنص أيضا شامل كل أنواع الكتابات وكلها على سبيل العموم وتعدد المستويات في الحركة.

فعلى سبيل المثال نجد أن القرآن ذكر قصة كاملة في آية واحدة، وفيها من الحكم والمواعظ والدروس الكثير، ولكن من يستنطق القرآن؟! ونجد هذا في قوله تعالى:

[46] لم يظهر حتى الآن أي كتاب علمي دقيق مصاغا بصياغة أدبية عالية، بل كل الكتابات العلمية مصاغة صياغة جافة لا يمكن قراءتها كأدب بأي حال من الأحوال.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [سورة البقرة ,٢٥٩]

فهذه قصة كاملة لا تحتاج إلا أن نستخرج منها الدروس والعظات وأن نربطها بما قبلها وبعدها، أما أن نفعل ما وقع فيه السادة المفسرون من أنهم فصّلوا ما أجمله القرآن! فهذا أمر عجيب ودليل على أنهم لم يفهموا النهج القرآني، فبما أن الله ذكرها هكذا عامة فيجب أن نفهمها عامة ونستنطقها عامة مجملة، ولا ينبغي أن نفصلها بأي حال من الأحوال لأن هذا هو العبث بعينه، وإلا لم ذكرها الله هكذا؟

ونجد أن القرآن ذكر القصة المجزئة في عديد من سوره، وأشهر نموذج لذلك هو قصة سيدنا موسى[47]، وتعرض القرآن كذلك للقصة الطويلة الكاملة وهي قصة سيدنا يوسف،[48] والكتابات التاريخية منثورة في قصص الأنبياء، ولكن من يستنطق؟

والكتابات العلمية بالصياغة الأدبية العالية تملأ القرآن ولكن من يتدبر، وبطبيعة الحال هناك أشكال أدبية كثيرة أخرى في القرآن وللأسف لن نفهمها إلا بعد أن تظهر على الساحة الأدبية، بدلا من أن نقلدها نحن، نتعجب منها ولا نفعل شيئا.

إذن فالقرآن ككتاب هو كتاب شامل ومبني على العموم فيه جماع كل شيء صراحة أو تلميحا، وكنص هو نص شامل جامع لكل أنواع الكتابات، بل سبق إلى أنواع لم يأت

(47) نشير إلى أننا نتحدث هنا عن القصص من منظور أدبي، أي أقل مستوى يجب التعامل فيه مع القصص القرآني، ونحن نرى أنه يجب التعامل مع القصص القرآني على مستويات أعلى من ذلك مثل المستوى التأريخي والمستوى الطبيعي والمستوى الاجتماعي وهلم جرا.

(48) كان صديق لي يتحاور مع بعض زملائه في قصة سيدنا يوسف فقال له أحدهم "لقد حدث كذا وكذا" في موقف سيدنا يوسف مع امرأة العزيز، فقال له: لقد قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ... ٣﴾ [سورة يوسف ,٣] وما في السورة هو أحسن القصص ولسنا بحاجة إلى غيره، فبهت الرجل.

بها أحد من العالمين، وحتى في تفصيله مبني على العموم والشمول لكل جزئية في النص القرآني، ولو كان النص القرآني غير مبني على العموم الشامل ما أمكن وضع صورة مصغرة للكون في هذا القرآن، وكما يقال دوما: لله كتابان؛ أحدهما مقروء وهو القرآن والآخر منظور وهو الكون وكلاهما متطابقان، وكل حرف في كلمة مستخدم أمثل استخدام ولا يمكن أن تحل كلمة محل كلمة ولا حرف مكان حرف، وكل هذا لأنه مبني على العموم ولولا العموم لأمكن استبدال لفظ مكان آخر ولا فارق كبير، ونضرب لذلك مثلا وهو كلمة "تفتأ". ونقول: لنتصور أن هذه الكلمة في غير القرآن، وجاءت في نفس هذه الجملة: ﴿... تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة يوسف ,٨٥] لم لا يجوز أن نستبدلها بأي كلمة أخرى؟

لا يجوز لأن كلمة (تفتأ) هنا بمعنى لا يزال وهي من أخوات كان (ما انفك، ما برح، ما زال، ما فتيء)، ويبقى السؤال لماذا لا يجوز وضع أحدا من أخواتها التي قد تعطي نفس المعنى من الإستمرار والدوام؟ نستعرض معنى كلمة فتيء في اللغة: فنجد أن من معانيها (سكّن) بمعنى مستمر لأنه عندما لا يسكن فهو مستمر، ومعناها أطفأ النار (يقال فتيء النار) ومن معانيها أيضاً نسي (فتئت الأمر أي نسيته). إذن كلمة (فتأ) لها ثلاثة معاني سكّن وأطفأ النار ونسي. وفاقد العزيز سكن بمجرد مرور الزمن فمن مات له ميت يسكن بعد فترة لكن الله تعالى أراد أن يعقوب لا ينسى ولا يكفّ بدليل قوله تعالى: (﴿... وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة يوسف ,٨٤])، وفاقد العزيز كأنما هناك ناراً تحرق جنبيه ويقال (حرق قلبي) والنار التي بين جنبي يعقوب عليه السلام لم تنطفئ مع مرور الأيام ولم تزل النار ملتهبة مستعرة في قلب يعقوب عليه السلام، وهو لم ينس وفاقد العزيز ينسى بعد فترة ولذا يدعو له المعزّون بالصبر والسلوان. إذن "تفتأ" جمعت كل هذه المعاني المرادة هنا في الآية ولا يؤدي أي لفظ آخر هذه المعاني مجتمعة غير هذه الكلمة. والقرآن الكريم لم يستعمل هذه الكلمة إلا في هذا الموضع في سورة يوسف واستعمل (يزال ولا يزال) كثيراً في آيات عديدة:

﴿... وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة المائدة ,١٣]. واستخدام كلمة حرضاً في الآية تدل على الذي يمرض مرضاً شديداً ويهلك."اهـ[49]

ونعيد السؤال مرة أخرى: هل يمكن أن تحل أي كلمة في اللغة محل هذه الكلمة؟

وبعد أن وضحنا للقارىء أن المنهج العام في القرآن هو العموم والتوسع، وأنه يجب أن نتعامل معه بنفس المنهج فنعممه نحن أيضا قدر الإمكان والاستطاعة، فالقرآن لم يأت عاما لنخصصه أو لنضيقه فنتحجر واسعا، بل لا بد أن ندعه يأخذ مجراه ومساره، وننشأ له نحن المسارات المهيئة الموافقة له.

نماذج للتوسع

وحتى لا يكون الكلام كلاما عاما لا مدلول له، نبحر الآن في القرآن من خلال عرض بعض الأمثلة التي تظهر عمومه الشامل وتظهر فائدة كل كلمة وحرف إذا شئنا الدقة، وستكون هذه الأمثلة نماذج للتوسع في فهم كلمات القرآن، بخلاف النموذج السابق لسورة الكهف الذي كان التوسع في فهمه ككل، ونتفكر قليلا كم ضيّقنا واسعا، وكم أضعنا على أنفسنا من روائع قرآنية، وكم هضمناه حقه:

ونبدأ الآن بآية هي غاية في الفصاحة وقمة في التعبير البياني، وهي قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأحزاب ,١٠] فسرت هذه الآية من زاوية واحدة وهي زاوية المجاز المجسم، ونورد هنا نموذجا من هذه التفاسير وهو تفسير القرطبي، حيث قال: ﴿... وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ... ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأحزاب ,١٠] أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم، واحدها حنجرة؛ فلولا أن

[49] الدكتور فاضل السامرائي، لمسات بيانية.

الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة. وقيل: هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد!!!؛ قال: إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما. أي كادت تقطر. ويقال: إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلا؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره. وقيل: إنه مثل مضروب في شدة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة. قال معناه عكرمة. روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: بلغ فزعها. والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحنجرة والحنجور (بزيادة النون) حرف الحلق."اهـ

وبطبيعة الحال فسر المفسرون "القلوب" هنا على أنها الأعضاء الموجودة في الصدور، وقدروا محذوفا وحملوا الكلام على المبالغة!، ونحن نرفض كل هذا، مع أن كلمة قلب تحتمل معان عديدة، والقرآن نفسه يقول بهذا القول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج, ٤٦]

فعندما خصص القلوب بقوله "في الصدور" عُلم أنه هناك قلوب ليست في الصدور، أو هناك أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تسمى قلوبا وهي ليست في الصدور، وحتى نفك هذا اللبس لننظر أولا ما معنى قلب في اللغة؟ يقول ابن فارس في المقاييس: "قلب القاف واللام والباء أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلّ على خالِص شَيءٍ وشَرِيفه، والآخَرُ على رَدّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة. فالأوَّل القَلْبُ: قلب الإنسان وغيره، سمّي لأنَّه أخْلصُ شيءٍ فيه وأرفَعُه، وخالِصُ كلّ شيءٍ وأشرفُه قَلْبُه،"اهـ

إذا فالقلب يحتمل معان عدة، ولكن لما قال الله عز وجل: ﴿... وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ... ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأحزاب, ١٠] انصرف الذهن مباشرة إلى ذلك العضو الموجود في الصدر، ولم يفكر أحدهم في معنى آخر لهذه الكلمة، ولكن المعنى الراجح موجود بإذن الله، وهو أن القلب يراد به خالص الشيء وداخله أو يراد به

التحويل والتغير والتصرف –لا يغرك تقلبهم في البلاد–، وكلا الوجهين مرادان في المفردة، فمكنونات الأنفس –المعنى الأول للقلب– وصلت الحناجر ونطقت بها وتغيرات وتقلبات وتصرفات النفس –المعنى الثاني– وصلت أيضا للحناجر ونُطق بها.

ولا ننسى اللفتة البلاغية أن هذا اللفظ يوحي أيضا أن العضو المتعارف عليه قفز ووصل إلى الحنجرة من شدة الفزع، وهذا تعبير في قمة الروعة والبلاغة، ولهذا قلنا أنه لا يمكن أن تحل لفظة مكان أخرى أبدا، فما هي اللفظة التي يمكن أن تعطي معنى تمثيلي –وصول العضو الجسدي إلى الحنجرة من شدة الفزع– ومعنى ظهور تقلبات ومكنونات النفس على الألسن؟!

فلو بحثنا في اللسان العربي بأكمله عن كلمة تحل محل هذه الكلمة في هذا المكان ما وجدنا، نعم سنجد كلمات تعطي جزء المعنى والتصور لا كله.

ونورد نموذجا آخر من التوسع في المعاني وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ [سورة سبإ ,٧]، وسيكون الحديث هنا عن كلمة "مزقتم"، ولننظر أولا كيف فسر المفسرون هذه الكلمة؟

ونذكر هنا ما قاله الإمام الطبري في تفسير هذه الآية، حيث قال: "يقول تعالى ذكره: وقال الذين كفروا بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، متعجبين من وعده إياهم البعث بعد الممات بعضهم لبعض: ﴿... هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧﴾ [سورة سبإ ,٧] يقول: يخبركم أنكم بعد تقطعكم في الأرض بلاء وبعد مصيركم في التراب رفاتا، عائدون كهيئتكم قبل الممات خلقا جديدا، كما: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... ٧﴾ [سورة سبإ ,٧] قال: ذلك مشركو قُريش والمشركون من الناس، ﴿... يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...

﴿٧﴾ [سورة سبإ ,٧]: إذا أكلتكم الأرض، وصرتم رفاتا وعظاما، وقطّعتكم السباع والطير إنّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ستحيون وتبعثون."اهـ

والحديث في الآية عن البعث بعد الموت وهو فهم سليم، ولكن يمكن التوسع في المدلول والقول أن المراد من التمزيق هنا هو تمزيق الجماعة والأمة وليس تمزيق الجسد، أي أنكم إذا أسلمتم فستدوم لكم العزة ولن تنتهوا أبدا، فدولة الإسلام قائمة حتى قيام الساعة، وإن مر عليها وأصابها المصاب العسير وتمزقت فسيُلم شملها وستنتصر في آخر المطاف، وسيكون لها العزة بإذن الله، والله أعلى وأعلم.

وتذكر عزيزي القارىء أن التوسع في المعنى حتمي لفهم كتاب الله حتى لا نقع في معضلة تاريخية النص فالله عز وجل عندما يقول مثلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ [سورة الحجرات ,١] وعندما يقول ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ [سورة آل عمران ,١٠١]

فلا بد من أن نفهم أن الرسول هنا هو القرآن، ففي زمن الرسول حملت الكلمة مدلولين والآن انخفضت مدلولات الكلمة إلى مدلول واحد، وهكذا في عموم القرآن الكلمة تحمل مدلولات عدة يظهر منها لكل عصر ما يناسبه، ولذا تتحرك مدلولات القرآن بين زيادة ونقصان على مر العصور، ولكن يستحيل أن يخلو العصر من مدلول مطابق للكلمة المستعملة في النص القرآني.

ونذكر نموذجا آخر للعموم والإيجاز في القرآن، وهو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ٥٥﴾ [سورة القمر ,٥٤-٥٥] حيث جمع في كلمة واحدة معان عدة ومدلولات واسعة تفصل حالة المتقين، وهذه الكلمة هي "نهر"، والمتبادر إلى الذهن أن هذه الكلمة هي مفرد أنهار وهي بهذا المعنى فعلا، ولكنها تعني أيضا الضياء، فأهل الجنة في ضياء دائم لا يأتي عليهم

ظلام، وتعني أيضا السعة، فالمتقين في سعة وضياء تجري من تحتهم الأنهار. فانظر كيف جُمع النعيم في كلمة واحدة، وكل هذا النعيم ليس باطلا أو منتهيا بل هو دائم.

والذي أراه بجوار هذا المعنى أن مقعد الصدق هو المطابق لما وعد الله به عباده في الكتاب فهو كما أخبر ليس أقل أو من باب التمثيل، لا فهو حق كما قال الله، والله أعلى وأعلم.

وإلى نموذج رائع للتوسع في فهم كلمة، نمر عليها مر الكرام، وهي كلمة "الأمي"، ونعرض هنا نموذجا لفهم هذه الكلمة فهما موسعا: "... لم ترد "الأمي" وصفاً لرسول الله في القرآن إلا مرتين، ولم يوصف بها نبيّ غير محمد عليه الصلاة والسلام، فوردت مرة في دعوة اليهود والنصارى لوجوب إتباعه على أنه: ﴿... ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٥٧]، ثم في الآية التي تليها مباشرة من سورة الأعراف: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٥٨]

فبهذه الصفات الثلاث متتالية يوجب الله على الناس جميعاً –بما فيهم أهل الكتاب– أن يتبعوا هذا "الرسول النبي الأمّي .." والشائع عند العلماء أن المراد من "الأمي" هو الذي لم يكن من أهل الكتاب أولا يستطيع القراءة والكتابة، ولكن ما المزية في هذه الصفة التي يجب أن يتفرد بها النبي(ص)، حتى أنها تكون ركناً وشرطاً أساساً في وجوب اتباعه من الناس كافة، كرُكني الرسالة والنبوة، يجد المدعو بهذه الآية نفسه طائعاً مقتنعاً بوجوب اتباعه لأنه "الأمّي" والرسول والنبي .!، إذا ماذا؟ فنقول "الأمّي" أصلها "أُمْ" أضيفت إليها ياءُ النسبة، ك "مكِّي" نسبة لمكة، والأم بلسان القرآن العربي: الأصل والأول، فأم الرجل أصله وأوله ومنشأه، كما في سورة القَصَص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا ... ﴿٥٩﴾﴾ [سورة القصص, ٥٩]، أي في أصولها وجمعها، وآية آل عمران دليل آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ

ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴿٧﴾] سورة آل عمران ,٧[بما تحمله الآية من معاني الأصول والجوهر.

فهو بذلك الرسول النبي "الأصل" و"الأول" بكل ما تعنيه الكلمة من معاني " الأصل" في الرسالة والمنشأ، وحتى "أصل" اللغة واللسان، فهو بهذا "أم" الرسالة والنبوة، لم يرسل رسول ولا نبي، إلا وأُمر باتباع "الرسول النبي الأمّي"، وأن يأمر قومه باتباعه!

فكان بذلك كل نبي ورسول يرسل الى قومه خاصة وهو يعلم أن محمدا رسول الله، ويأمر بها قومه، حتى إذا أدى كل نبي ما عليه في كل الأمم، بُعث الرسول النبي "الأمّي" عامة لكل الأمم، فكل الرسل والنبيين مقدِّمون "خاصون" للرسالة العامة "الأم" بالرسول النبي "الأمّي". أمية أخرى عظيمة: فهو رسول الله الى الناس جميعاً كونه "الأمّي"، نسبة الى منشأ الناس الأول، وقريتهم الأم "أم القرى"، ﴿... لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ... ﴿٧﴾] سورة الشورى ,٧[و ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ... ﴿٩٦﴾] سورة آل عمران ,٩٦[، فمكة "أم القرى" وأصل نشأة الناس وانتشارهم، ليكون بذلك النبي "الأمّي" للناس جميعاً، كونه من "أم قراهم"، ومن "بيت" أبيهم الأول، وإن تباعدت بهم السبل وتفرقت بهم الأرضون، فهذه أرضهم "وبيت" أبيهم آدم من قبل، فهو لهم كافة. أمية ثالثة كبيرة: ثم هو النبي "الأمّي" الوحيد الذي تكلم بلغة الناس "الأم"، ولعل هذا الفهم الذي نطرحه، ما قد يحل سؤالاً عظيماً، ألا وهو ما ورد في آية سورة إبراهيم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ... ﴿٤﴾] سورة إبراهيم ,٤[، فأرسل نوح بلسان قومه ليبين لهم، وكذا موسى وعيسى، وسائر النبيين، فإذا كان رسول الله محمد رسول الى الناس جميعاً، وكتابه الوحي رسالة الناس جميعاً، وجب أن يكون لسانه لسان الناس جميعاً، وهذا ما لم يكن فيما يظهر لنا ونراه، فكيف يستقيم هذا؟

وكيف يعقل أن موسى النبي الخاص لبني اسرائيل يبعث بآية يعقلها كل أهل الأرض، ومثله عيسى ابن مريم، ويرسل محمد رسول الله إلى الناس جميعاً بآية لا يعقلها إلا خاصته وقومه؟!، هذا إلا أن يكون أمراً آخر وأعظم مما كان يبدو لنا.

فآية إبراهيم تحل مسألة وتفرض فرضاً، نقرأه بالمفهوم اللازم للنص، أنه إن كان كل رسول يرسل بلسان قومه، فيكون لسان القوم لسان نبيهم، وأرسل محمد عليه الصلاة والسلام الى الناس جميعاً، لزم أن يكون لسان الناس جميعاً، لسان نبي الناس جميعاً، محمد عليه الصلاة والسلام بلسانه العربي "الأُم"، الذي أرسل به وأنزل به كلام الرب الذي خلق الناس جميعا.!

فهو بهذا أرسل بلسانهم "الأم" الذي كان عليه الناس أول ما كانوا، ثم تبدلت ألسنتهم واختلفت، فعليهم هم أن يرجعوا إلى لسانهم الأم، لسان نبيهم "الأم" محمد.

وليس بين كل إنسان مهما كانت لغته وعمرها وأمته وحضارتها، ليس بينه وبين لسان النبي "الأم" إلا أم هذا الانسان وأبوه، فإن نشأ الغلام الصيني مثلاً بين العرب تكلم بلسانهم كواحد منهم بلا خلاف، دون أن يكون لخمسة آلاف سنة من حضارة قومه شأن ولا مانع. والقرآن شاهد على ما نقول، فالقرآن لا يُقر إلا "لسانين" إما عربي أو أعجمي، فكل الألسن على اختلافها ما لم تكن عربية فهي أعجمية، والأعجمي هو الذي لا يُبين ولا يُفصّل. "والعربي" لغة: ما أبان وفصّل، وهذا ظاهر نصوص القرآن .

وآية سورة "فصلت" تفصل هذا بوضوح، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ... ٤٤﴾ [سورة فصّلت, ٤٤]، فالأعجمي بنص الآية غير مفصَّل ولا مفصِّل، إنما هاتان الصفتان للسان "العربي" ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [سورة النحل, ١٠٣]، فالأعجمي لا يبين، إنما العربي هو المفصل المبين، ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ

مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [سورة فصّلت , ١-٣]

ولعل هذا الفهم أيضاً بخصوص الفرق بين العربي والأعجمي، قد يحل مشكل آية فصلت، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ... ۝٤٤﴾ [سورة فصّلت , ٤٤]. فكل من ينظر في التفسير يجد خلافاً في التأويل لا يكاد يشفي سائلاً ولا مستفسراً، أما بهذا الفهم فيمكن حل مشكِلها، فالعربي هو المفصل فقط، فلا يكون أعجميا ومفصلاً، لتفهم الآية بعدها هكذا: "ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته، أأعجمي "ومفصل"؟!، فلا يطلب التفصيل في ما أعجم؛ إنما العربي هو المفصل! ولسان العرب حجة لما نقول، فيقال: رجل مُعرِب إذا كان فصيحاً مبيناً، وإن كان عجمي النسب، والإعراب هو الإبانة. بهذا يصبح "الرسول النبي الأمّي" واجب الاتباع بهذه الأركان الثلاثة، أمّية الرسالة والنبيين وإمامتهم، و"أمّية" الأرض والمنشأ في أم القرى، وأمّية اللسان واللغة، فهو للناس جميعا بلسانهم "الأم" وإن تبدلوا بها أي لغة كانت فهذا لسانهم "الأم" أولى بهم أن يتعلموه وأن يرجعوا له، وهذه أرضهم "الأم" وبيت أبيهم الأول. بهذه الثلاث يصبح الرسول النبي "الأمّي" ملزم الإتباع واجب القبول. ولنا اليوم –بهذا الفهم لا بالفهم السابق– أن ندعو أهل الكتاب والناس جميعاً لاتباعه، فهو نبيهم "الأم" بكل ما في الكلمة من معاني"اهـ[50]

فتأمل أخي هذا الفهم الموسع للكلمة وقارن بينه وبين الفهم السابق، وكيف أنه يتوافق مع الآيات القرآنية الأخرى ويحل المشاكل التي أظهرتها التفسيرات السابقة.

ولقد قرأت بعد أن توصلت إلى وجوب الفهم الموسع الدقيق لألفاظ القرآن الكتاب القيم للعلامة أبي الأعلى المودودي "المصطلحات الأربعة: الإله والرب والدين والعبادة" وهو كتاب أكثر من رائع –ينصح بقراءته– ينم عن فهم عميق للغة العربية ودراسة دقيقة للقرآن الكريم وتبيين للفروق بين الكلمات والمعاني ولقد تبين لي أنه

---

(50) هذا الفهم الموسع للشيخ صلاح الدين إبراهيم أبو عرفة.

كان يستعمل في هذا الكتاب نفس المنهج الذي توصلت إليه وهو الفهم الموسع للألفاظ مع عدم الخلط أو المساواة بينها.

ونأتي هنا إلى آية اخرى فهمت خلاف الأوْلى مع أنها واضحة وضوح الشمس وهي قولة تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [سورة الضحى ,٤] حيث رأى عامة المفسرين أن الآخرة هي الدار الآخرة، ولننظر ماذا قالوا، وكنموذج نعرض قول الإمام الطبري، حيث قال: "وقوله: وَلّلاَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى يقول تعالى ذكره: وللدار الآَخرة، وما أعدّ الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها يقول: فلا تخزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خير لك منها. وقوله: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتَرْضَى يقول تعالى ذكره: ولسوف يعطيك يا محمد ربك في الآَخرة من فواضل نِعَمه، حتى ترضى.

وقد اختلف أهل العلم في الذي وعده من العطاء، فقال بعضهم: هو ما: حدثني به موسى بن سهل الرمليّ، قال: حدثنا عمرو بن هاشم، قال: سمعت الأوزاعيّ يحدّث، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي، عن عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، قال: عُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده، كَفْرا كَفْرا، فسرّ بذلك، فأنزل الله وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتَرْضَى فأعطاه في الجنة ألف قصر، في كلّ قصر، ما ينبغي من الأزواج والخدم. حدثني محمد بن خلف العسقلانيّ، قال: ثني رَوّاد بن الجراح، عن الأوزاعيّ، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن عليّ بن عبد الله بن عباس، في قوله: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتَرْضَى قال: ألف قصر من لؤلؤ، ترابهنّ المسك، وفيهنّ ما يصلحهنّ. حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتْرَضَى، وذلك يوم القيامة. وقال آخرون في ذلك ما: حدثني به عباد بن يعقوب، قال: حدثنا الحكم بن ظهير، عن السديّ، عن ابن عباس، في قوله: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَترْضَى قال: من رضا محمد صلى الله عليه وسلم ألاّ يدخل أحد من أهل بيته النار"اهـ

وبمثل ذلك قال الإمام القرطبي وابن كثير من أنها الآخرة، مع أن الله عز وجل لم يقل: "وللآخرة خير لك من الدنيا"

ولقد كنت أعتقد أن كل المفسرين قالوا بمثل هذا القول إلى أن ظهر لي أن الإمام السعدي قال في هذه الآية قولا جامعا مانعا رائعا وافقته فيه، ففيه الصواب إن شاء الله، حيث قال ما نصه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة الضحى ,٤]، أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة. فلم يزل صلى الله عليه وسلم يصعد في درجات المعالي، ويمكن الله له دينه، وينصره على أعدائه، ويسدده في أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال ما وصل إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب. ثم بعد هذا، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام. ولهذا قال: "ولسوف يعطيك ربك فترضى"اهـ.

وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة الموجزة، والله أعلم.

ونأتي إلى فهم لن يعجب الكثيرين، ولكن نقول اقرأ عزيزي القارىء وتدبر: هل يمكن أن يكون: ﴿... الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... ﴿٧﴾﴾ [سورة الفاتحة ,٧] في سورة الفاتحة بالدلالة الجزئية هم: ﴿... الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ... ﴿٧﴾﴾ [سورة الفاتحة ,٧].

أنا أعرف أن هذا السؤال سيكون مستغربا جدا، ولكن عند التدقيق سيظهر أن المراد هو الفهم الجزئي لهذه المعاني، حيث أن الفهم العام "للمغضوب عليهم" يدخل فيه كل من عرف الحق وتركه والضال هو من عمل بغير علم واستمر على جهله بإرادته، ولكن المشهور في تفسير "المغضوب عليهم" أنهم هم اليهود، فهذا ما يمكن تسميه فهم جزئي، فهم ممن تنطبق فيهم الآية ولكن لا يمكن حملها عليهم فقط، والمدلول العام "للذين أنعمت عليهم" هو النبيين والصالحين والصديقين والشهداء، ولكن المدلول الجزئي يصدق أيضا على اليهود ألم يقل الله فيهم: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا

نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾] سورة البقرة, ٤٧["؟
سيقول قائل ولكن هذه قد تكون أي نعمة، فلم نربطها بالصراط هنا؟ أقول إذا نظر المرء في القرآن وجد أن الله تعالى قال كذلك عن بني إسرائيل في سورة الصافات ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾] سورة الصّافّات, ١١٤-١١٨[فهذه نعم الله التي أنعمها عليهم نجاهم ونصرهم وآتاهم الكتاب المستبين وهداهم الصراط المستقيم بعد أن أرشدهم موسى وهارون إليه، ولكنهم على الرغم من ذلك تنكروا لنعم الله، وجحدوا وعملوا بخلاف ما علموا فاستحقوا اللعن والطرد والاستبدال.

إذا نخلص في النهاية إلى أن المغضوب عليهم دخل فيهم الذين أنعم عليهم، فليحذر المسلمون أن يحذو حذوهم ويأخذوا طريقهم ويغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ويتكلوا على مغفرة الله وشفاعة الرسول فيتركوا العمل فيضلوا ويضلوا، فما ترك قوم العمل بعد الجهاد إلا ذلوا، والله أعلم.

فانظر أخي في الله هذا بعض مما فتح الله علينا في مدلولات الألفاظ القرآنية، وبطبيعة الحال نحن لا نقول أن هذه دلالات الألفاظ ولكن نحن نقول هذا فقط بعض ما خرجنا به من محاولة تأويل بعض المدلولات طبقا لعلمنا وما لم نعلمه سلمنا به وتركناه لغيرنا لكي يأتي ويأوله بما يفتح الله عليه به. هذه نماذج نذكرها فقط ولكن من ينظر في القرآن بأكمله سيجد أن دلالاته أوسع مما قلنا بكثير ومما قاله الأقدمون ولكن بشرط أن يفهم النص من النص لا من عقله أو خلافه.

كيف نفهم القرآن؟

إذا أردنا أن نطبق قانون التأويل على القرآن فسنجد أننا سنتحرك على عدة مستويات مختلفة، فالقرآن اشتمل على كل العلوم التي يحتاجها الإنسان، وفيه الأجوبة السليمة للأسئلة الخالدة التي يسألها ويتفكر فيها الإنسان في كل زمان، وبدونها لا يكون إنسانا بل هو أدنى من الحيوان، وهذه الأسئلة الخالدة هي: من خلق الكون؟ وكيف هو؟ وكيف خلق العالم؟ وكيف خلق الإنسان؟ وما هو تاريخ الإنسان؟ وماذا واجه حتى أتينا نحن؟ وكيف ينبغي أن أعيش في هذه العالم؟ وكيف يعمل هذا العالم؟ وهل هناك حياة بعد الموت وكيف هي؟

هذه هي الأسئلة الخالدة، التي يجب أن يسألها الإنسان نفسه في كل زمان ومكان، والتي احتار وضل فيها الفلاسفة، أعطانا القرآن إجابتها على طبق من ذهب كما يقال، وتحت هذه المسائل وأجوبتها يدور القرآن كاملا، وتدبر عزيزي القارىء هذه الكلمة القادمة عن النص القرآني: "يجيب النص القرآني عن أسئلة الوجود والأخلاق والمصير. وهو يجيب عن ذلك بشكل جمالي–فني، ولهذا يمكن وصفه بأنه نص لغوي– أعني لا بد لفهمه من فهم لغته أولاً. وهذه اللغة ليست مجرد مفردات وتراكيب، وإنما تحمل رؤيا معينة للإنسان والحياة، وللكون– أصلاً، وغيباً، ومآلاً. وقد تجسّد هذا الشكل الجمالي في كتابة فاجأت العرب، بحيث أجمعوا على أنها فريدة، لم يروا مثلها، وعلى أنها لا تضاهى. وهكذا لم يعرفوا كيف يحددونها، استناداً إلى المعايير التي يعرفونها، فقالوا: إنها نثر لكنها ليست كمثل النثر، وإنها شعر لكنها ليست كمثل الشعر. وهي إذن كتابة أكثر من أن تنحصر في الشعر أو النثر. وقالوا: إنها كتابة لا توصف، وسر لا يمكن سبره. واتفقوا على إنها نقض لعادة الكتابة شعراً وسجعاً، خطابة ورسالة، وأنها نوع من النظم في تركيب جديد وصف النص القرآني نفسه بأنه ﴿... قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾] سورة الجن ,١[لا من حيث لغته وحدها، بل أيضاً من حيث إجابته عن أسئلة الوجود والأخلاق والمصير. ووصف نفسه بأنه "الكتاب"

من حيث أنه مطلق اللغة ومطلق الوجود، ومطلق المعنى. يتألف النص القرآني من سور، وتتألف السورة من آيات. والسورة لغة، هي المنزلة أو الرفعة. وهي كذلك ما حسن من البناء وطال. وهي كل منزلة منه. وسمّيت السورة من النص القرآني سورة لأنها تتدرج منزلة منزلة، منقطعة عما يسبقها وعما يليها. أي أن لكل سورة مبتدأ وخاتمة، بهما تتميز عن غيرها. أما الآية فسميت بهذا الاسم إما لأنها علامة تشير إلى وقف وانقطاع، وإما لأنها مجموعة من حروف القرآن. والسورة من حيث البناء مقطعة متقطعة مسجعة غالباً ومقفاة أحياناً، خصوصاً في السور المكية. وهناك سور هي على العكس منتظمة متواصلة بأوزان متنوعة، وفقاً لإيقاعات تخرج على النظام الوزني. السورة بشكل عام مفتوحة كجزء محدود من فضاء غير محدود. (...) في الكتاب في شكل كتابته، تنصهر الأفكار والأشياء، الحياة والأخلاق، الواقع والغيب. وهذا الشكل شبكة تتداخل خيوطها وتنحبك في علاقات متعددة، ومتنوعة، مفتوحة كالفضاء. إنه فن آخر من القول، وفن آخر للقول. فن في الكتابة، وفن في تكوين النص. كأنه نوع من فكر الكتابة يتبطن نوعاً من كتابة الفكر. أو لنقل: إنه، بوصفه نوعاً من كتابة المطلق، نوع من مطلق الكتابة. إنه الكتابة المطلقة لكتابة المطلق. تفتح التجربة الصوفية أفقاً آخر لهذه الكتابة، في قراءتها وفهمها. وهي تعطي للنص القرآني أبعاداً غنية ومتنوعة يجدر الوقوف عندها، ولو بشكل سريع. ذلك أنها أساسية في إضاءة الدلالة الكيانية للغة وللكتابة معاً. النص القرآني، كما تنظر إليه التجربة الصوفية، دال لغوي لمدلول هو الوجود. الأول هو رمز، والثاني مرموز إليه. فالكتاب هو كلمات الله التي توازي الوجود وترمز إلى حقائقه، وتوازي الإنسان، وترمز إليه. إنه البرزخ بين الله والإنسان، بين المطلق والنسبي. والكلمة الإلهية: "كن" هي في آن قول –فعل. فليس الوجود إلا كلمات الله. هكذا تكون اللغة وجوداً، ويكون الوجود لغة. ويكون الكتاب هو نفسه الوجود من حيث أنه القول– أو اللغة ممثلة في الكلمة الإلهية: "كن". (...) أولاً، إن النص القرآني يتجاوز الشخص: الله هو الذي أوحاه، ونقله إلى النبي ملاك، وبلغه النبي إلى الناس، ودونه كتاب الوحي. إنه عمل إلهي– إنساني. عمل كوني. وهو بوصفه كذلك محيط بلا نهاية للمتخيل. إذا كان النص، بمعنى ما قراءته أي كيفية

قراءته، وكان مستواه تابعاً لمستوى هذه القراءة، دقة وفهما وغنىً، فإن للنص مستويات متعددة، تعدد قراءاته. انطلاقاً من ذلك، يمكن أن نطرح هذا السؤال: ما مستوى القراءة السائدة للنص القرآني؟ والجواب كما يبدو لي هو أن في هذه القراءة ما يشوش الأفق المعرفي الإسلامي، وفيها كذلك ما يقلص الرؤية إلى العالم والإنسان والأشياء. إنها بالأحرى قراءة لا تجعل من هذا النص أفقاً بقدر ما تجعل منه نفقاً. والسبب في ذلك عائد إلى أمور كثيرة بينها، على الأخص، تغليب المنظور الشرعي، بحيث تبدو الشريعة أساساً وحيداً للفكر والعمل للكون والأشياء."اه[51]

فهذا بعض ما يمكن أن يوصف به القرآن من وجهة نظر معينة، ولكن يمكن النظر إليه من زوايا متعددة مختلفة، ولقد كتب الشيخ الغزالي رحمه الله كتابا كاملا حول هذا الموضوع أسماه "محاور القرآن الخمسة" ورأى أن القرآن يدور في محاور خمسة وهي: الحديث عن الله وهذا ما يسمى بالعقيدة، والكون الدال عليه وهذا ما يندرج تحت خلق العالم وكيف خلق وهو ما يسمى بالنظر في الكون، والقصص القرآني وهو ما يكون من تاريخ موجز للبشرية، وهو للأسف ما اعتبر فقط القصص القرآني وتعامل معه على أنه من باب القصص، والتربية والتشريع وهو ما يندرج تحت الطريقة المثلى للحياة في العالم، والبعث والجزاء وهو ما يندرج عن الحياة بعد الموت وكيف تكون.

وأجمل الشيخ الغزالي في نقطتين؛ وهما كيف ظهر الإنسان خاصة فلم يتعرض لها، ولعله رأها تندرج تحت خلق الكون مع أن القرآن أفرد لها الأجزاء الطوال في الحديث عنها فقط، ولم يفرد استخراج كيفية عمل العالم من الكون، لأنه رأى أنها تحت النظر في الكون، ولكنا نرى أن هذه نقرة وتلك أخرى، فالنظر كيف بدأ الكون قد يكون نظرا عقليا أكثر منه تطبيقيا، فالإنسان يحتاج إلى معرفة كيفية سير العالم أكثر من كيفية خلقه، وإن كان كلاهما ضروري، ويحتاج لمعرفة كيف خلق الإنسان وباقي الحيوانات لأن هذا يلعب دورا هاما في الإيمان.

[51] أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة.

إذا فالشيخ الغزالي رأها خمسا ونحن رأيناها سبعا، ولغيرنا أن يراها أكثر أو أقل فيجعلها ثلاثة محاور مثلا فيجعل الله والملائكة واليوم الآخر في باب واحد وهو الغيب، ويجعل التربية والتشريع محورا واحدا ويجعل كل ما يتعلق بالكون بابا آخر، ولكن هذه المحاور من وجهة نظرنا هي المحاور الرئيسة للقرآن، ويجب أن نتذكر أنها ليست بمعزل عن بعضها بل نجدها متداخلة متشابكة فآيات التشريع تتداخل مع الآيات ذات المعنى التاريخي (القصص) وآيات خلق الإنسان تأتي قبل آيات تتحدث عن الأخرة، بل إن الآيات ذاتها تستعمل على مستويات عدة؛ فالقصص يستخرج منه ما يستخدم في التشريع، والجزء العلمي يستخدم في إثبات الإيمانيات، والعقيدة تستخدم كدافع للإنسان للانسجام مع الكون، وهلم جرا وآيات الأحكام تسري كنصوص بلاغية عالية المستوى لا تداني.

إذا فالقرآن يتحرك على عدة مستويات، فهل هناك منهج محدد للتعامل مع القرآن بكل مستوياته؟ نقول: نعم، المنهج هو التأويل، ولكن لكي نقوم بتأويل النص القرآني لا بد أن نفهمه أولا، وبعد أن نفهمه نقوم بتأويله، وهنا يطرح السؤال نفسه مرة أخرى بصيغة أخرى: كيف نفهم القرآن؟

أسس فهم القرآن

نقول فهم القرآن لا يحتاج إلى منهج معقد، ولا إلى أي منهج إذا جاز التعبير، بل نقول القرآن يفهم على أنه قرآن مبين كامل واضح دقيق قائم بذاته، فالقرآن كتاب الله وليس محمد، وعلى هذا الأساس لا بد أن يكون الفهم منطلقا من النص ذاته لا من مسلمات موجودة عندنا نحن بل يجب:

1- التسليم العقلي بما ورد في القرآن

فالعقل وإن كان كما يقول المعتزلة هو الدليل الأول، وهذا صحيح بمعنى أن كل الأدلة تحتاج إلى العقل ليثبت أنه دليل، فعلى أساس العقل يحاسب الإنسان ويجازى، فمن لا عقل له لا تكليف عليه، وإلا على أي أساس سيحاسب الناس على كفرهم، فإذا كان أمر الإيمان بالله به ذرة لبس ما كان الحساب عادلا، ولكن أمر الإيمان بدهية عقلية، والملحدون كلهم ما ألحدوا إلا لزيغ في قلوبهم وليس عقولهم!

وبالعقل يتقرر التوحيد التنزيهي لذات الله، وإثبات العدل في أفعاله، أي بعد إقامة الدليل العقلي على وحدانية الله من خلال النظر في الكون، أقام العقل الدليل على وجود الله وأنَّ الله لا يفعل القبيح، فهو عدل في أفعاله كلها، وبدون قيام الدليل العقلي على التوحيد والعدل -وهما أساسا الإيمان الإسلامي-، لا يمكن الاستدلال بالقرآن الكريم والاحتجاج بما يدل عليه.

ولكن العقل له السبق في هذه الخطوة ولكن بعد الإقرار بالقرآن والخضوع له ككتاب من عند الله، يجب على العقل أن يعرف حدوده ويتحرك داخل النص أي يتحرك في فهم النص لا أن يضيف للنص أو يحذف منه، فما وافق كان بها ونعمت وما لم ينتظر، وهذا للأسف الطامة الكبرى التي وقعت فيها كل الفرق الإسلامية بنسب متفاوتة، فأوّلوا ما لا يتوافق مع عقولهم بدلا من أن ينتظروا حتى يأتي تأويله.

نماذج لعدم التسليم

يقول الله عز وجل: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [سورة الحج ,٣١]، والناس حتى الآن يستغربون هذه الكلمة ويقولون ما هذا الطير الذي يخطف الإنسان

ويعدونه من باب التشبيه! وبطبيعة الحال مر السادة المفسرون على الكلمة مرور الكرام وكأنها شيء عادي مألوف يرونها في حياتهم اليومية، وهناك من ذكر أنها "مثل مضروب" كالإمام الطبري حيث أورد رواية فيها، فقال: "حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قَتادة: فَكَأَنَّمَا خَرّ منَ السّماءِ قال: هذا مَثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده من الهُدى وهلاكه فَتَخْطَفُهُ الطّيْرُ أو تَهوي بِهِ الرّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ" اهـ

ونحن نقول أنها ليست "مثل" بل هي تشبيه والفارق بين الاثنين واضح، ولكن كيف تُأول هذه الآية؟ نجد أن المفسرين أولوها تأويلا غريبا جدا مثل ما ذكره الإمام القرطبي حيث قال: "ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء" أي هو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا؛ فهو بمنزلة من خر من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ومعنى "فتخطفه الطير" أي تقطعه بمخالبها. وقيل: هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يفتح لها فيرمى بها إلى الأرض؛ كما في حديث البراء" اهـ

حيث استغرب جدا أن يسقط أحد من السماء، لأن الطيران في عصره كان مستحيلا! وهذه مشكلة التأويل بسبب الأرضية المعرفية، فقالوا أن هذا يكون يوم القيامة أو عند صعود الروح، والآية لم تذكر أي شيء من هذا، فكل ما قالت: "خر من السماء فتخطفه"، فأين يوم القيامة وأين صعود الروح؟ كل هذه الاستنتاجات لا وجود لها في النص، ونحن الآن وجدنا الناس تخر من السماء بسقوط طائراتهم ولم يبق على الأجيال القادمة إلا أن يرووا تلك الطيور التي تخطف الناس.

ولا بد من الإشارة هنا أن لفظ "الطير" يحتمل الطائرات أيضا، ولكن الذي أرجحه أن الطير هو المخلوق الرباني، وبإذن الله سيظهر هذا في السنين أو القرون القادمة، والسنون بيننا. فهذا نموذج للتأويل والانحراف عن الفهم المباشر لأنه لا يجد لها مقابلا عقليا فحار ودار حتى يخرج لها بشيء.

ونورد نموذجا آخر: حيث قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النمل, ٢٥] قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض، وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل اللّه فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها" اهـ

وذكر مثل هذا في تفسير القرطبي والطبري حيث مالوا جميعا إلى أن خبأ السماوات إما المطر أو الغيب وخبأ الأرض هو النبات، ولكن اللفظة عامة ولا مبرر لتخصصيها فيجب حملها على معناها العام، فيكون معنى الخبأ محتملا للنبات وللمطر ولكل ما يمكن أن يخرج ولكل ما تحتمله اللفظة من معاني، وكما ورد في اللسان "قال الأزهري: الصحيح والله أعلم أن الخبأ كل ما غاب"، وهذه المشكلة الأزلية للتأويل فهم لم يتصوروا أبدا أن يوجد ما يمكن أن يخرج في خارج الأرض أو أن يكون ما هو مخبأ في السماوات، ولكنا عرفنا في أيامنا هذه أنه يمكن أن يخرج نباتات وما بخلافه في خارج الأرض، ويمكن أن ينزل المطر في خارج الأرض في الكواكب الأخرى، وبهذا يتضح أن الآية على عمومها ولا مبرر لتخصصيها، والله أعلم.

2– التسليم بدقة النص القرآني

فلقد قال مؤلف الكتاب في حقه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [سورة هود, ١]، وغير ذلك من الآيات كثير، التي تبين دقته وصحته، وبالتالي لا يمكن الحديث عن أي تهاون في صياغة النص القرآني، أو جريانه على طريقة البشر، وإنما نجد الاختلاف بين الكتابتين، لاختلاف المؤلفين. ومن ثم يترتب على ذلك أن تختلف نظرتنا للنص القرآني، بمعنى أنه لن يسير على نفس

قواعدنا، فيجب علينا أن نتوقع اختلافا في الصياغة، ويظهر ذلك في عدد من النقاط المختلفة! أولها: المجاز، فما موقف القرآن بالنسبة للمجاز؟ هذا ما ستجيبه النقطة القادمة.

القرآن والمجاز

قُتل هذا الموضوع بحثا، بين مثبت وناف، فمن مثبث للمجاز في القرآن واللغة ومن مثبت للمجاز في اللغة وناف له في القرآن إلى ناف له في اللغة والقرآن معا، ولكل منهما أدلته في هذا الموضوع، ولكن لنا أن نطرح هنا سؤالا عقليا بحتا: أيهما أفضل: أن يحتوي القرآن الصور البلاغية ويكون من باب الحقيقة، أم يحتوي الصور البلاغية ويكون من باب المجاز؟ بشكل بدهي، من الأفضل أن يحتوي القرآن الصور البلاغية ويكون من باب الحقيقة، ولكن سيعترض معترض ولكن المجاز وقع في القرآن فعلا.

والمشكلة كما قلنا في قصور العقل عند التعامل مع القرآن وهذا ما يؤدي إلى القول بالمجاز، سيقول قائل: ولكن هناك العديد من الآيات التي لا تعتمد على الخلفية المعرفية أو التاريخية بل هي حتما من باب المجاز بداهة. نقول لقد رد الإمام ابن تيمية على هذه الأقوال ردا أكثر من رائع وفند حججها، ونعرض هنا أقوال الإمام في إبطال المجاز، ولكن نود التوضيح هنا فقط لبعض الناس الذين يخطأون في فهم موقف الإمام ابن تيمية من المجاز –وللأسف رأيت هذا واضحا عند داعية كبير جدا– حيث يعتقدون أن الإمام عندما يقول بنفي المجاز يفهم الألفاظ على أنها من باب التجسيم، وهذا ما لاحظته عامة عند الحديث عن المجاز من المثبتين، فلقد كنت أقرأ ذات مرة للأستاذ سيد قطب وهو يتكلم عن المجاز في القرآن، والجمال في هذا الشكل البلاغي في آية في سورة النور، وكيف أن الصورة المجازية كذا وكذا، فانتبهت أن المجاز والحقيقة عند هؤلاء يدور على المادي والمعنوي، حيث جعلوا المادي هو الحقيقة والأصل والمعنوي من باب المجاز، فإذا نُعت المعنوي مثل الحب أو

الكراهية بأي صفة غير مألوفة من صفات المادي فهذا من باب المجاز وليس من باب الحقيقة!

وهذا الفهم القاصر للغة لم نجده عند القدماء، ولكن عند التقعيد الخاطىء والرغبة عند وضع حد للحقيقة والمجاز جُعل المادي من باب الحقيقة، والمعنوي هو المجاز! مع أن كلاهما من باب الحقيقة فلا بد لنا من وصف المعنويات بصفات معينة حتى تقرب من الذهن ونستطيع أن نتصورها، والذهن لا يتصور إلا المجسم فلي أن أصف المعنويات بما يحلو لي وكما أتصورها أنا وليس لأحد أن يأتي بعدي ويعد وصفي للمعنوي هذا من باب المجاز لمجرد أني أسقطت عليه صفات متنوعة من باب المادي المجسم، فالإمام ابن تيمية عندما يقول أن: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ... ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الإسراء, ٢٤] من باب الحقيقة وليس من باب المجاز، فهو لا يقصد بأي حال من الأحوال أن الذل له جناح مثل الطائر ويجب علي أن أخفضه لهما، ولكنه يفهم العلاقة بين المفردات في اللغة وكيف تتركب، ويفهما فهما مطابقا لمن قال بالمجاز ولكنه لسعة فهمه لتراكيب اللغة لم يقع في المأزق الذي وقع فيه السابقون، وهو مأزق "الحقيقة الجسد" كما يحلو لي أن أسميها.

قال الإمام ردا على من أثبت المجاز في القرآن في فتاويه ما نصه: "قال الآمدي: حجة المثبتين أنه قد ثبت إطلاق أهل اللغة اسم الأسد على الإنسان الشجاع؛ والحمار على الإنسان البليد؛ وقولهم ظهر الطريق ومتنها؛ وفلان على جناح السفر؛ وشابت لمة الليل؛ وقامت الحرب على ساق؛ وكبد السماء وغير ذلك. وإطلاق هذه الأسماء لغة مما لا ينكر إلا عن عناد. وعند ذلك فإما أن يقال: هذه الأسماء حقيقة في هذه الصورة أو مجازية؛ لاستحالة خلو هذه الأسماء اللغوية عنها ما سوى الوضع الأول كما سبق تحقيقه لا جائز أن يقال: بكونها حقيقة فيها؛ لأنها حقيقة فيما سواه بالاتفاق فإن لفظ الأسد حقيقة في السبع؛ والحمار في البهيمة والظهر والمتن والساق والكبد في الأعضاء المخصوصة بالحيوان؛ واللمة في الشعر إذا جاوز الأذن. وعند ذلك فلو كانت هذه الأسماء حقيقة فيما ذكر من الصور لكان اللفظ مشتركا، ولو

كان مشتركا لما سبق إلى الفهم عند إطلاق هذه الألفاظ البعض دون البعض ضرورة التساوي في الأدلة الحقيقية. ولا شك أن السابق إلى الفهم من إطلاق لفظ الأسد إنما هو السبع، ومن إطلاق لفظ الحمار إنما هو البهيمة، وكذلك في باقي الصور، كيف وأن أهل الأعصار لم تزل تتناقل في أقوالها وكتبها عن أهل الوضع تسمية هذا حقيقة وهذا مجازا؟ فإن قيل: لو كان في لغة العرب لفظ مجازي فإما أن يقيد معناه بقرينة؛ أولا يقيد بقرينة، فإن كان الأول فهو مع القرينة لا يحتمل غير ذلك المعنى فكان مع القرينة حقيقة في ذلك المعنى وإن كان الثاني فهو أيضا حقيقة؛ إذ لا معنى للحقيقة إلا ما يكون مستعملا بالإفادة من غير قرينة. وأيضا فإنه ما من صورة من الصور إلا ويمكن أن يعبر عنها باللفظ الحقيقي الخاص بها فاستعمال اللفظ المجازي فيها مع افتقاره إلى القرينة من غير حاجة بعيد عن أهل الحكمة والبلاغة في وضعهم. قلنا: الجواب عن الأول أن المجاز لا يفيد عند عدم الشهرة إلا بقرينة، ولا معنى للمجاز سوى هذا النوع في ذلك اللفظي. كيف وأن المجاز والحقيقة من صفات الألفاظ دون القرائن المعنوية؛ فلا تكون الحقيقة صفة للمجموع. وجواب ثان: أن الفائدة في استعمال اللفظ المجازي دون الحقيقة قد يكون لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظما ونثرا، أو للمطابقة والمجانسة والسجع، وقصد التعظيم، والعدول عن الحقيقي للتحقير، إلى غير ذلك من المقاصد المطلوبة في الكلام. هذا كلام أبي الحسن الآمدي في كتابه الكبير وهو أجل كتب المتأخرين الناصرين لهذا الفرق. والجواب عن هذه الحجة من وجوه: أحدها: أن يقال ما ذكرته من الاستعمال غير ممنوع لكن قولك إن هذه الأسماء إما أن تكون حقيقية أو مجازية: إنما يصح إذا ثبت انقسام الكلام إلى الحقيقة والمجاز وإلا فمن ينازعك ويقول لك: لم تذكر حدا فاصلا معقولا بين الحقيقة والمجاز يتميز به هذا عن هذا؛ (لا يستطيع أن يقول أن الحقيقة هي المادي المجسم لأن هذا غير مطرد دوما ولكنهم يقسمونها كذلك لا شعوريا – المؤلف–). وأنا أطالبك بذكر هذا الفرق بين النوعين، أو يقول: ليس في نفس الأمر بينهما فرق ثابت. أو يقول: أنا لا أثبت انقسام الكلام إلى حقيقة ومجاز إما لمانع عقلي أو شرعي أو غير ذلك، أو يقول: لم يثبت عندي انقسام الكلام إلى هذا

وهذا؛ وجواز ذلك في اللغة والشرع والعقل ونحو ذلك من الأقوال: ليس لك أن تحتج عليه بقولك: إما أن تكون حقيقية أو مجازية؛ إذ دخول هذه الألفاظ في أحد النوعين فرع ثبوت التقسيم فلو أثبت التقسيم بهذا كان دورا؛ فإنه لا يمكن أن يقال: إن هذه من أحد القسمين دون الآخر إلا إذا أثبت أن هناك قسمين لا ثالث لهما وأنه لا يتناول شيء من أحدهما شيئا من الآخر؟ وهذا محل النزاع؛ فكيف تجعل محل النزاع مقدمة في إثبات نفسه وتصادر على المطلوب؟ فإن ذلك أثبت الشيء بنفسه فلم تذكر دليلا وهذا أثبت الأصل بفرعه الذي لا يثبت إلا به فهذا التطويل أثبت غاية المصادرة على المطلوب. الوجه الثاني: أن يقال: من الناس القائلين بالحقيقة والمجاز من جعل بعض الكلام حقيقة ومجازا فوصف اللفظ الواحد بأنه حقيقة ومجاز كألفاظ العموم المخصوصة؛ فإن كثيرا من الناس قال: هي حقيقة باعتبار دلالتها على ما بقي؛ وهي مجاز باعتبار سلب دلالتها على ما أخرج. وعند هؤلاء: الكلام إما حقيقة وإما مجاز؛ وإما حقيقة ومجاز. الوجه الثالث: أنك أنت وطائفة كالرازي ومن اتبعه كابن الحاجب، يقولون: إن الألفاظ قبل استعمالها وبعد وضعها ليست حقيقة ولا مجازا (متى حدث هذا؟!! –المؤلف–)، أو المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له؛ وحينئذ فهذه الألفاظ كقولهم: ظهر الطريق؛ وجناح السفر؛ ونحوها: إن لم يثبتوا أنها وضعت لمعنى ثم استعملت في غيره لم يثبت أنها مجاز وهذا مما لا سبيل لأحد إليه؛ فإنه لا يمكن أحدا أن ينقل عن العرب أنها وضعت هذه الألفاظ لغير هذه المعاني المستعملة فيها. فإن قالوا: قد قالوا: جناح الطائر وظهر الإنسان وتكلموا بلفظ الظهر والجناح، وأرادوا به ظهر الإنسان وجناح الطائر. قيل لهم: هذا لا يقتضي أنهم وضعوا جناح السفر وظهر الطريق، بل هذا استعمل مضافا إلى غير ما أضيف إليه ذاك؛ إن كان ذلك مضافا. وإن لم يكن ذلك مضافا فالمضاف ليس هو مثل المعرف الذي ليس بمضاف؛ فاللفظ المعرف والمضاف إلى شيء ليس هو مثل اللفظ المضاف إلى شيء آخر، فإذا قال: الجناح والظهر؛ وقيل: جناح الطائر وظهر الإنسان: فليس هذا وهذا مثل لفظ جناح السفر وظهر الطريق؛ وجناح الذل. كذلك إذا قيل: رأس الطريق وظهره ووسطه وأعلاه وأسفله كان ذلك مختصا بالطريق؛ وإن لم

يكن ذلك مماثلا كرأس الإنسان وظهره ووسطه وأعلاه وأسفله وكذلك أسفل الجبل وأعلاه هو مما يختص به وكذلك سائر الأسماء المضافة يتميز معناه بالإضافة ومعلوم أن اللفظ المركب تركيب مزج أو إسناد أو إضافة ليس هو من لغتهم كاللفظ المجرد عن ذلك لا في الإعراب ولا في المعنى. بل يفرقون بينهما في النداء والنفي فيقولون: يا زيد، ويا عمرو بالضم كقوله: يا آدم ويا نوح، ويقولون في المضاف وما أشبهه: يا عبد الله، يا غلام زيد كقوله: يا بني آدم يا بني إسرائيل، ويا أهل الكتاب، ويا أهل يثرب، ويا قومنا أجيبوا داعي الله، ونحو ذلك في المضاف المنصوب. وكذلك في تركيب المزج فليس قولهم: خمسة، كقولهم: خمسة عشر بل بالتركيب يغير المعنى. وإذا كان كذلك فلو قال القائل: الخمسة حقيقة في الخمسة؛ وخمسة عشر مجاز: كان جاهلا؛ لأن هذا اللفظ ليس هو ذلك وإن كان لفظ الخمسة موجودا في الموضعين؛ لأنها ركبت تركيبا آخر وجنس هذا التركيب موضوع كما أن جنس الإضافة موضوع. وكذلك قولهم: جناح السفر والذل، وظهر الطريق تركيب آخر أضيف فيه الاسم إلى غير ما أضيف إليه في ذلك المكان، فليس هذا كالمجرد مثل الخمسة؛ ولا كالمقرون بغيره كلفظ الخمسة والعشرين، وهذا المعنى يقال في: الوجه الرابع: وهو أنه سواء ثبت وضع متقدم على الاستعمال!؛ أو كان المراد بالوضع هو ما عرف من الاستعمال: فعلى التقديرين فإن هذا اللفظ المضاف لم يوضع ولم يستعمل إلا في هذا المعنى، ولا يُفهم منه غيره بل ولا يحتمل سواه ولا يحتاج في فهم المراد به إلا قرينة معنوية غير ما ذكر في الإضافة بل دلالة الإضافة على معناه كدلالة سائر الألفاظ المضافة، فكل لفظ أضيف إلى لفظ دل على معنى يختص ذلك المضاف إليه، فكما إذا قيل: يد زيد ورأسه؛ وعلمه ودينه؛ وقوله وحكمه وخبره: دل على ما يختص به وإن لم يكن دين زيد مثل دين عمرو؛ بل دين هذا الكفر ودين هذا الإسلام ولا حكمه مثل حكمه؛ بل هذا الحكم بالجور وهذا الحكم بالعدل ولا خبره مثل خبره؛ بل خبر هذا صدق وخبر هذا كذب وكذلك إذا قيل: لون هذا ولون هذا كان لون كل منهما يختص به وإن كان هذا أسود وهذا أبيض. فقد يكون اللفظ المضاف واحدا مع اختلاف الحقائق في الموضعين؛ كالسواد والبياض وإنما يميز اللون أحدهما عن الآخر بإضافته

إلى ما يميزه. فإن قيل: لفظ الكون والدين والخبر ونحو ذلك عند الإطلاق يعم هذه الأنواع فكانت عامة؛ وتسمى متواطئة؛ بخلاف لفظ الرأس والظهر والجناح فإنها عند الإطلاق إنما تنصرف إلى أعضاء الحيوان. قيل: فهب أن الأمر كذلك : أليست بالإضافة اختصت؟ فكانت عامة مطلقة ثم تخصصت بالإضافة أو التعريف فهي من باب اللفظ العام إذا خص بإضافة أو تعريف. وتخصيصه بذلك كتخصيصه بالصفة والاستثناء؛ والبدل والغاية كما يقال: اللون الأحمر والخبر الصادق أو قيل: ألف إلا خمسين فقد تغيرت دلالتها بالإطلاق والتقييد. ثم إنه في كلا الموضعين لم يستعمل اللفظ المعين في غير ما استعمل فيه أولا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: (رأس الأمر الإسلام؛ وعموده الصلاة: وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) وقال: (وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) قد أضاف الرأس إلى الأمر، وهذا اللفظ لم يستعمل في رأس الحيوان. وكذلك إذا قالوا: رأس المال؛ والشريكان يقتسمان ما يفضل بعد رأس المال والمضارب يستحق نصيبه من الربح بعد رأس المال فلفظ رأس المال لم يستعمل في رأس الحيوان. وكذلك لفظ رأس العين سواء كان جنسا أو علما بالغلبة."اهـ[52]

وأعتقد أن فيما ذكره الإمام كفاية لمن يريد التدبر ولا يتمسك بالفهم الأزلي أن الحقيقة هي الجسد المادي وإذا أشبهها المعنوي فهو من باب المجاز، فكلاهما من باب الحقيقة والمعنى يظهر واضحا جليا من خلال السياق والقرينة التي تحمله على المعنى المراد أما التجسيم والقول بالمجاز في أمثلة مضحكة فهذا ما لايصح ولا يكون، ونود أن ننبه القارىء إلى أن كل هذا اللبس والخلط بين الحقيقة والمجاز في اللغة عائد إلى القول باعتباطية اللغة، أي أن الحروف في ذاتها لا تحمل أي مدلول، وأن إسقاط الأسماء على مسمياتها هو من باب الصدفة، وكان من الممكن أن يكون اسم هذا عوضا عن ذاك، وهذا ما سنناقشه عند الحديث عن الاعتباطية اللغوية والتخبط.

---

(52) ابن تيمية، مجموع الفتاوى أصول الفقه، المجلد العشرون، فصل في الحقيقة والمجاز.

نماذج للمجاز المزعوم

ونذكر هنا العديد من الأمثلة التي استدلوا بها على المجاز، تبعا لتقسيمهم الخاطىء للحقيقة والمجاز: أول ما نبدأ به، هو ما قالوه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [سورة آل عمران, ٧٢] إن "وجه النهار" مجاز لأن النهار ليس له وجه !! كأن الوجه لا يكون إلا للإنسان أو الحيوان مع أن الوجه له معان عديدة وهو هنا بمعنى أول النهار بدليل مقابلته بآخره، ولا مجاز في الكلمة ولا رائحته فالوجه كما ورد في المقاييس هو: "الواو والجيم والهاء أصلٌ واحد يدلُّ على مقابلةٍ لشيء. وَالوجه مستقبِلٌ لكل شيء، يقال وَجْه الرّجلِ وغَيره، وربَّما عُبِّر عن الذات بالوَجْه؛ "إذا فلا مجال للمجاز هنا ولكن المشكلة كما قلنا أن الأخوة الأدباء حصروا المعاني العديدة للكلمة في المعنى الشائع المجسم وجعلوه هو الحقيقة وما سواه فهو مجاز وهذا مما لا يعقل أو يصح بأي شكل من الاشكال فالكلمة تأتي على الحقيقة للمادي والمعنوي وللطبيعي أيضا، فرحاب المدلولات واسع ولا برهان لمن يحصره في الشائع بل هو دليل على قصر النظر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونورد نموذجا آخرا من عجيب القول بالمجاز، وهو جعلهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ ... ٤٦﴾ [سورة الإسراء, ٤٦] من باب المجاز حيث قالوا أنه لا يوجد أكنة على القلب إذا فهذا مجاز علاقته كذا وكذا! وكأني بهم يتوقعون وجود أحجبة على القلب تمنع الفهم؟! وما علاقة الأحجبة المادية بالفهم والفقه؟! فالفقه عملية معنوية صرفة تحتاج إلى أحجبة معنوية أيضا لكي تمنعها وهذا ما ذكره القرآن في آية أخرى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥﴾ [سورة الإسراء, ٤٥]

فالحجاب مستور والأكنة كذلك مستورة لا تُرى ولا تُحس لأنها أحجبة وأكنة معنوية من الغفلة والعناد وما شابه، فالآية لا رائحة للمجاز بها ولكنها مشكلة حصر الحقيقة في المجسمات أو ما أسميه بظاهرة "الجسم الحقيقة عند البلغاء!!".

ونأتي إلى آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾ [سورة الزخرف ,٣٨] فنجد أن الإمام الطبري قال في تفسير "المشرقين" ما نصه: "وقوله:(يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) يقول تعالى ذكره: قال أحد هذين القرينين لصاحبه الآخر: وددت أن بيني وبينك بعد المشرقين: أي بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما على الآخر، كما قيل: شبه القمرين، وكما قال الشاعر:

أخَذْنا بآفاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ لنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِعُ"اهـ

قالوا: أي المشرق والمغرب وسماهما مشرقين لأن المشرق أشهر أو من باب التغليب فغلب على المغرب!! ولست أدري من قال إن هذا من باب التغليب أو أن أحدهما أشهر من الآخر؟ فالمشرق في شهرة المغرب، وقد ذكر المشرقين والمغربين سوية في نصٍ واحدٍ، وهو قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [سورة الرحمن ,١٧]. فهذه آية وتلك أخرى تماما، ولا يمكن حمل هذا على ذاك بأفهامنا القاصرة بل لكل معناه ومغزاه، والله أعلم.

وإلى آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [سورة القيامة ,٢٢] فقالوا: الأصل، الأجساد وعدل عنه الى الوجوه. ولنا أن نسأل: أوليس ظهور النعيم والخشوع على الوجوه خاصة؟ وكيف يعرف الإنسان أن فلانا هذا أو ذاك نَعِمٌ أو شقي؟ يظهر هذا كله في الوجه لا في أي موضع آخر، فقد يزداد وزن الإنسان ويمتليء جسده ولكن تعرف أنه مهموم ومريض، وذلك من ظهور آثار الحزن والهم على وجهه، على الرغم من زيادة وزنه.

لذلك قال في موضع آخر: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [سورة المطـفـفين, ٢٤]، فلا يمكن حمل الوجه هنا على الجسد، فتأمل أخي في الدقة القرآنية في التوصيف، وأعجب من جر الناس النصوص إلى ما يرغبون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونورد نموذجا مضحكا فعلا للقول بالمجاز، فعندما أنظر في أقوال العلماء في الآيات التي يقولون فيها بالمجاز، أتعجب عجبا شديدا بل إني أضحك وأكاد أبكي منها في كثير من الأحيان، وأتساءل: على أي منهج يقولون بالمجاز، أم أنهم يتصيدون الآيات التي لا تتفق معهم فيقولون فيها بالمجاز؟ ونموذج هذا التناقض العجيب، هو تفسيرهم آية: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [سورة يوسف, ٣٦]، حيث قالوا في هذه الآية مجاز ألا وهو قوله تعالى: "أعصر خمرا" وهذا مجاز مرسل علاقته المستقبلية، حيث أن الخمر لا يعصر بل الذي يعصر هو العنب إذا فهذا الكلمة مجاز!!، أما عندما تعرضوا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [سورة يوسف, ٤٣] ما رأينا أحدا قال أنها مجاز.

فتأملت قولهم وضربت كفا بكف وقلت: لم يروا حرجا في أن تأكل البقرات العجاف البقرات السمان، لم؟ لأن هذه رؤيا وفي الرؤى كل شيء ممكن، أما أن يعصر الساقي خمرا في الرؤيا الأخرى فهذا ما لا يكون ولا يصح، فلا يجوز لساق أن يحلم ويرى أنه يعصر سائلا فهذا مخالف لقوانين الأحلام التي وضعتها لجنتهم! فخبطت كفا بكف وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله ولله في خلقه شؤون.

ونورد الاستدلال الشهير للمجاز وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ [سورة الإسراء, ٧٢] فيقولون: "من المعلوم قطعا أن

المراد من الأعمى هنا ليس أعمى البصر بل أعمى البصيرة، ولكن القرآن اقتصر فقط على قول أعمى وهو أصل في فاقد البصر، وهذا ما لا يمكن حمله على ظاهره بأي حال من الأحوال." فنقول: لا حول ولا قوة إلا بالله وهل عميت بصائرهم هم؟! فالله عز وجل يقول: ﴿... فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [سورة الإسراء, ٧٢] فالكلام واضح على أن المراد من الأعمى في هذه الآية هو "أعمى البصيرة " وليس البصر، والدليل على ذلك هو قوله تعالى "وأضل سبيلا"، فالمعروف أن الإنسان الأعمى لا يشترط فيه أن يكون ضال السبيل، أما الإنسان أعمى البصيرة فهو الانسان الضال السبيل حتما، فإذا كان الإنسان في الدنيا أعمى البصيرة ضال السبيل فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، فالقرينة واضحة في الآية نفسها، ولست أدري أعميت الأبصار أم كلت الأفهام والأنظار؟! ولا حول ولا قوة إلا بالله. ونقول أيضا: الرد السابق على المشهور والمألوف، ولكن الصحيح أن "أعمى" هي أصل في عمى البصيرة بجانب فقد البصر، والدليل على ما نقول هو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [سورة الحج, ٤٦]

ومن تتبع كلمة "أعمى" في القرآن يجد أنها ذكرت ثلاث عشرة مرة، أكثرها في موضع الذم وأقلها في موضع العيب الجسدي، فإذا أكثر القرآن من ذكر لفظة معينة بمعنى معين، فيكون هذا هو الأصل الذي يحمل عليه، فالقرآن هو الميزان والقسطاس المستقيم، فعلم أن الأعمى أصل في عمى البصيرة كما هي في عمى البصر.

إذا نخرج من هذا أن استعمال "الأعمى" لمن فقد بصره وإن كان مشتهرا فهو استعمال مرجوح وليس خاطيء، لاستعمال القرآن هذا المعنى أقل من الآخر، والله أعلم.

ونذكر استدلالا آخرا شهيرا على القول بالمجاز وهو قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [سورة النحل, ١]، فالأخوة المفسرون

فهموا ال "أمر" فهما خاطئا وعلى هذا الأساس قالوا أن معنى "أتى" مؤول والمراد "يأتي أو سيأتي" فعلى سبيل المثال أورد الإمام القرطبي في تفسيره: "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" قيل: "أتى" بمعنى يأتي؛ فهو كقولك: إن أكرمتني أكرمتك! وقد تقدم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء!!؛ لأنه آت لا محالة، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ... ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٤٤]. و"أمر الله" عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. قال الحسن وابن جريج والضحاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه. وفيه بعد؛ لأنه لم ينقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم، حتى قال النضر بن الحارث: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك" الآية، فاستعجل العذاب. قلت: قد يستدل الضحاك بقول عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر؛ خرجه مسلم والبخاري. وقال الزجاج: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ... ﴿٤٠﴾﴾ [سورة هود, ٤٠]. وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها"

إذا فالإمام القرطبي لا يرجح أن أمر الله هو ما جاء به القرآن من الفرائض ويراه بعيدا. ونجد أن الإمام الطبري أيضا بعد أن ذكر الروايات التي تذكر الرأيين عاد فرجح مثل ترجيح الأمام القرطبي فقال "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو تهديد من أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك وذلك أنه عقّب ذلك بقوله سبحانه وتعالى: عَمّا يُشْرِكُونَ فدلّ بذلك على تقريعه المشركين ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا" اهـ

ولقد نظرت في تفسير البغوي وفي التفسيرات الحديثة مثل تفسير السعدي وأضواء البيان فوجدت الكلام مكرورا ولا جديد، ولنا هنا أن نسأل الأخوة المفسرين رحمهم الله: إذا كان المعنى كما تقولون فما الرابط بين هذه الآية والتي تليها التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [سورة النحل ,٢].

بطبيعة الحال لا رابط مباشر بين الآيتين عند تأويل الفعل أتى والفهم الخاطىء لمعنى الأمر، والذي أراه والله أعلم أن المراد من الأمر هنا هو القرآن بأحكامه وأوامره وعقائده كما قال الإمام الضحاك، فبهذا يستقيم المعنى فلا نحتاج إلى تأويل الفعل أتى، ولا حجة في قولهم "فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها" فعدم الدليل ليس بدليل كما يقول علماء الأصول، وهل عدم وصول الرواية إلينا كاف لتأويل الآيات ورفع ظاهرها؟!

ثم أنه بهذا التأويل يحدث الربط بين الآية والآية التي تليها حيث تفهم الآيات كالتالي: "أتى القرآن من عند الله فلا تستعجلوه سبحان الله عما يشركون فهو الذي ينزل الملائكة "بالروح من أمره" وهو الوحي أو النبوة كما قال ابن عباس –يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [سورة الشورى ,٥٢]– من أجل إنذار الناس بعدم اتخاذ الند والشريك مع الله، فالله متعال عما يصفونه بالشريك أو الولد فليتقوا الله من أجل ذلك فقد جاءهم الوحي فلا حجة في الشرك.

فانظر عزيزي القارىء كيف أدى الاعتماد على الروايات في فهم كتاب الله إلى تعطيل الفهم، فإذا لم تأت رواية تؤيد المعنى الواضح من الآية أو الكلمة، إذا فهذا المعنى غير مراد ولا بد من تأويل الآية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذا كما رأينا فالفهم النابع من النص هو الأرجح ولا حاجة للقول بمخالفة المدلول للدال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونورد نموذجا آخر للقول بالمجاز –والقول به مرادف للقول بعدم الدقة في كتاب الله، فالله عز وجل بعلمه يقول شيئا ثم يأتي السادة الأفاضل فيقولون بعلمهم الشاسع ليس المراد هذا، ولكن المراد كذا بإضافة أو حذف كأن هذا غاب عن الله عز وجل–، وهو تأويلهم قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [سورة مريم ,٩] حيث قالوا وليس المراد أنه لم يك شيئا على الإطلاق ولكن المراد ولم تك شيئا مذكورا – انظر إلى الدقة!– عندما كان منيا في ظهر أبيه. وأقول وهذا قصور أيضا في فهم المفسرين، ولنا أن نسألهم: وأين كان قبل أن يكون منيا في ظهر أبيه؟ الإجابة أنه لم يكن موجودا، فالمني والبييضات ينشأن ويتكونان من الغذاء الذي يأكله الإنسان وعندما يدخل إلى جسم الإنسان يتحول إلى مواد عديدة، ولا يمكن أن يقال أن الإنسان كان هذا اللحم أو الخضار مثلا لأنه لو ظل قرونا فسيبقى لحما ولكن لما دخل جسم الإنسان حول إلى مواد أولية ثم صيرت منيا أو بييضة، إذا فالإنسان في الأساس لم يك شيئا ثم بسبب بعض العمليات الواقعة على بعض المواد تحولت المواد إلى مواد أولية ثم تحولت إلى مني وبييضات ثم أصبح بعد ذلك إنسانا، فالنص في غاية الدقة في وصفه العلمي ولا رائحة للمجاز فيه، والعيب في تأويل ما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله، والله أعلى وأعلم.

وإلى مثال آخر لما يرونه مجازا هو قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [سورة الحاقّة ,٢١] حيث قالوا: ليس المراد هنا أن العيشة راضية فالعيشة لا تكون راضية بل تكون مرضية فهنا مجاز. قلنا هذا وجه غير محتمل وبعيد، فالله قال في غير هذا الموضع: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [سورة الفجر ,٢٨] فاستعمل كلمة "مرضية" فلم لم يستعملها هنا؟ هل يمكن حمل كلام الله على المبالغة؟ حاشا لله أن يحمل كلامه على المبالغة فقوله الحق عين الحق، والذي ينبغي الحمل عليه وهو

المطابق للكلام والحال هو ما ذكره الإمام القرطبي في تأويلها حيث قال: "وقيل: "عيشة راضية" أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله أتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضا من الارتفاع، فإذا أشتهى ولي الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولي الله قاعدا وقائما، وذلك قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾ [سورة الحاقة, ٢٣]. وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، علوا وسفلا، وذلك قوله تعالى: ﴿... يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [سورة الإنسان, ٦]. فيروى في الخبر (إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه). فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي أنزلت وانقادت بذلا وسماحة"اهـ

لقد تخيّلواَ أنَّ العيشة هي اسمٌ لشيءٍ لا حقيقة له، أو هي اسمٌ منفصلٌ عن العائش أو هي اسمٌ لجماد، فلا يمكن أنَّ تكون (راضية) لأنَّها غير عاقلة، وعليه فهي مرضية من قبل العائش. لكن هذه المفردة تتضمّن العائش لأنَّها مرتبطة به فهي ليست كأيِّ لفظٍ آخر، مثل (بستان) يموت صاحبه ويبقى هو، لأنَّ العيشة تنتهي بالعائش، فهي اسمٌ لحياة الكائن الحي العاقل وقد اقترنت قرآنياً بالخَلْقِ ذوي العقول والشعور والتمييز. فيمكن أنَّ تقول عاش الرجل عيشةً مرضيةً وعيشةً راضيةً. والتعبير الأول معناه أنَّ العائش راضٍ عن العيشة، ولكن ليس بمقدوره عدم الاهتمام بها، لأنّك بهذا التعبير قد فصلته عنها. فعيشتُهُ صارت مقابلةً له.. وإذن فهو ينظر لها ويهتمُّ بها وإن كان راضياً بها!. ولكن حينما تقول (عاش الرجل عيشةً راضيةً) فقد صارت العيشة هي الراضية فخرج بذلك عن الاهتمام بها خروجاً كاملاً وصارت هي المهتمة به!. ولا توجد في الحقيقة عيشة على هذا النحو الأخير إلاَّ تلك التي يعطيها الربُّ العظيمُ لعباده الذين رضيَ عنهم. فانظر ماذا حدث عندما قالوا: (راضية بمعنى مرضية).. لقد جعلوها (أي

العيشة) نكدةً علينا هذه المرّة! ثمَّ انظر كم هو الفرق بين قول الله تعالى المبارك وبين قولهم. فتأمل أخي وتدبر، وأعلم أن هذا ما ينبغي القول به لنطابق كلام الله لا لنتعجب منه فنأوله، والله أعلم.

وإلى آية أخرى يستدل بها دوما عند الحديث عن المجاز، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿... وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [سورة مريم ,٤]، حيث قالوا: وإنَّما هو اشتعل الشيبُ في الرأس! وهذا القول ناتج عن لبسهم في فهم معنى "اشتعل"، ونحن نسألك عزيزي القارىء: هل تشعل السراج بالنار أم تشعل النار بالسراج؟ العبارة الأولى هي الصحيحة، لأنَّ النار لا تشتعل فهي نفسها شعلةٌ فهل يصحّ أنَّ تقول: (أشعلُ الشعلة)؟! إنَّمَا هم قد ظنّوا أنَّ النار تشتعل! وصحّ عندهم القول (اشتعلت النار في دار فلان)، وإنَّما هو: (اشتعلت دار فلان بالنار). وعليه فإنَّ الرأس هو الذي يشتعلُ شيباً لا العكس، والأمر كما ذكره الله تعالى لأنَّه شبّه الشيبَ بالنار ولم يكن التشبيه للرأس. كلُّ هذا ونحن معهم على أنَّه تشبيهٌ! بينما هو في الحقيقة لا تشبيهٌ لأنَّ الاشتعال كما جاء في المقاييس: "الشين والعين واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على انتشارٍ وتفرُّق في الشيء الواحد من جوانبه" اهـ

ولا يخص في إطلاقه النار وحدها بل هو عام يشمل أي انتشار سريع في شيء ما. ولذلك كانت الضرورة تقتضي ذكر المفعول دوماً فنقول: (اشتعلت دار فلانٍ ناراً أو بالنار) لأنَّها ممكن أنَّ تشتعل بأيِّ شيءٍ آخرٍ له القدرة على الانتشار والسريان في كلّ الأجزاء بحيث تتغير الصورة المنظورة كما لو (اشتعلت بالفتنة) أو غير ذلك. إذا فالآية لا مجاز فيها ولكنهم لا يريدون أكثر من إبراز صور جمالية في القرآن، وكأن الجمال والحلاوة لا يكونان إلا بالتعقيد والحذف والغموض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونذكر نموذجا آخر في الفهم المقلوب للآيات، وهو قوله تعالى: ﴿... فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [سورة محمّـد ,٢١]، فقالوا: هنا مجاز، وإنَّما معنى الآية هو: فإذا عزمتم على الأمر! فهم يقولون بمضمرات تخمينا وظنا من عند

أنفسهم، نعم.. إنَّه مُضمَرٌ لا وجود له إلاَّ في أذهانهم، لأنَّ الأمرَ يعزمُ والمرءُ يعزمُ سواء بسواء. ذلك أنَّ المرءَ يعزم في الشيء الذي منه عدَّة خيارات ممكنة، فيعزم على أنَّ يأتي أحدها. ولكن إذا عزم الأمرُ فلا خيارات ممكنة، بل هو خيارٌ واحدٌ وهو الخيار الذي يرضي الله تعالى، والمرء لا يُمسكُ بجميع أطراف الأمر، فأحياناً يعزمُ الأمرُ فلا خيارَ له سوى ذلك الخيار، وفيه ما فيه من التبكيت والتوبيخ لهم. فأينَ يذهبُ التوبيخُ إذا كانوا هم العازمين (على الأمر) كما زعموا بعد أن قال تعالى: ﴿... فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [سورة محمّـد , ٢١]، فعلى تقدير ابن خالويه: (إذا عزمتم على الأمر –ولكم خياراتكم– ولهم خياراتهم) فلماذا إذن يوبّخهم على خياراتهم؟ ولم يردْ في القرآن كلّه التركيب المقدّر (عَزَمَ على الأمر)، لأنَّ العزمَ نفسه (أمرٌ)، فيكون هذا التركيب ركيكاً وخاطئاً جداً. ولذلك قال: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [سورة آل عمران , ١٥٩]، بمعنى: وشاورهم في الأمر الذي فيه خيارات، إذ لا مشاورة فيما ليس فيه اختيار آخر، فإذا عزمت أنت فتوكّل على الله ولم يقلْ: (فإذا عزمتَ على الأمر). لقد ظنّوا كما في المسائل السابقة أنَّ الأمر غير عاقل ولا يمكن أنْ يعزم.. بينما الفعل (عَزَمَ) هو وصفٌ للحركة التي تنتج من مجموع خياراتٍ وظروفٍ بحيث يكون الاختيار الصحيح واحداً فقط. وما تلك إلاَّ إرادات (عقلاء). فالأمر يرجع ليكون خيارات العقلاء وليس هناك إضمارٌ ولا تقديرٌ لمفرداتٍ غائبةٍ أو محذوفةٍ!، فالآية لا علاقة لها بالمجاز.

ونختم حديثنا عن المجاز بالقول أن المجاز وإن قُبل[53] أن يأتي في النصوص الأدبية فهي نصوص أدبية خبرها ليس بخبر وإنشاءها ليس بإنشاء، أي أن ما يذكر في الأدب من أحداث ووصف لا يشترط فيه الصحة بل قد يكون التركيب خاطئ لساناً، ولكن يقول الشاعر أو الأديب ما يحلو له بأي صيغة شاء من المبالغات أو الزيادات والغاية في نهاية المطاف هو الحبكة اللفظية الدرامية كما يقال، وأن يخرج النص في صورة حسنة، ولذا عاب القرآن على الشعراء هذا المسلك حيث قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ

[53] نحن لا نقر بوجود مجاز في اللغة من الأساس ولا محذوفات مقدرة أو زوائد.

ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [سورة الشعراء ,٢٢٤-٢٢٦] فكيف يعيب عليهم هذا السلوك ويأتيه هو؟ هذا ما لا يصح ولا ينطبق مع قوله تعالى: "قوله الحق" فكيف يكون الحق حقا وهو ليس بحق، بل من باب الجماليات الأدبية، التي تلبس على الناس أمور حياتهم؟ فكل ما فيه من باب الحقيقة التي لا مراء فيها، ونحن نلاحظ هذه الدقة في القرآن، فما جاء على سبيل العموم فهو عام وما جاء على سبيل الخصوص فهو خاص، فلا يجوز تعميم الخاص ولا تخصيص العام، ولا الخروج عن النص بأي حال[54] والأمثلة على ذلك شديدة الوضوح في القرآن، فعندما يتكلم عن شيء عام يذكره عاما وعندما يتكلم عن خاص يظهر جليا أنه خاص وعندما يريد الحديث عن الأكثرية لا يلحقها بالكل، بل يوضح أنها أكثرية مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة المائدة ,٧١]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة البقرة ,١٠٩]، ﴿... وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الإسراء ,٧٠]

فعندما أراد التعبير عن الأكثرية وضح أنها أكثرية ولم يعمم، لأن هذا يجعل الخبر غير دقيق، والقرآن ليس كتابا أدبيا بل كتاب حق لا يكون فيه إلا حق، والمبالغات والإلحاقات لا تكون حقا بل لغوا، والآيات التي رأى فيها السادة البلغاء العلماء أنها من باب التعميم أو التخصيص، كان العيب منهم هم، فهم أولوها تأويلا خاطئا من عند أنفسهم ثم قالوا: هنا تعميم، هنا تخصيص! والعيب من أفهامهم.

---

(54) سنتعرض لمسألة تخصيص السنة للقرآن عند الحديث عن التأويل الفقهي للقرآن.

نماذج للتغليب المزعوم

ونورد هنا نماذجا لما جعلوه على سبيل الغالب وليس على سبيل المطابقة، ونكرر كل هذا لأنهم أولوا ما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله، ولو صبروا لأراحوا واستراحوا: من أبرز ما يستدلون به قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة التوبة ,٣٠] فيحتجون بذلك قائلين: "إن اليهود ما يقولون بهذا، وما كان فيهم من يقول: عزير ابن الله في زمن نزول القرآن، وإنما هي مقولة تاريخية لفئة منهم، قالتها ثم انقرضت كما نقله القرطبي عن النقاش، وكما هو معروف في كتب اليهود وعقائدهم، ولذلك ضرب أعداء الإسلام في الكلام على هذا الموضوع، وزعموا أن في القرآن من الأخبار عن عقائد اليهود ما ليس في عقائدهم، وقال اليهود منهم: إن القرآن يقوّلنا ما لم نقل في كتبنا!

ولقد كانت هذه الآية مصدر حيرة شديدة بالنسبة لي، فالمعروف فعلا أن هذا القول لم ينتشر عنهم، إلى أن قرأت ما يشفي الغليل في هذه الآية، وهو كالتالي: "صدر هذه الآية وهو قوله تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله) يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن، ذلك أن اسم عزير، لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر، واختلاطهم بأهلها، واتصالهم بعقائدها: واسم "أوزيرس" كما ينطق به الإفرنج، أو "عوزر" كما ينطق به قدماء المصريين. وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد، وانتحلوا عبادة الشمس كانوا يعتقدون في "عوزر" أو "أوزيرس" أنه ابن الله، وكذلك بنو إسرائيل في دور أدوار حلولهم في مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدة أن عوزر ابن الله، وصار اسم أوزيرس أو عوزر من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه ضلالاً وكفراً فعاب الله عليهم ذلك في القرآن الحكيم، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعا.

قال صاحب مجلة الفتح: إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا في وقت من الأوقات أن اسم عزير، كان معروفاً عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين، وهذا الاسم في لغتهم من مادة "عوزر" وهي تدل على الألوهية، ومعناه: الإله المعين، وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين في اسم عوزر أو أوزيرس، الذي كان عندهم في الدهر الأول بمعنى الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادة الشمس، واليهود أخذوا منهم هذا الإسم في الطور الثاني، عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن الله"اهـ

ففي هذا الرد الشفاء والغنى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونورد نموذجا آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة البقرة, ١٢٠] حيث قالوا المراد هنا على سبيل الغالب، حيث أنه يوجد الكثير من اليهود والنصارى الذين لا يحقدون على الإسلام بعد تراجع النزعات الدينية عند الناس في الغرب بل ربما أنهم يقومون بالمظاهرات نصرة للمسلمين احتجاجا على ما يحدث لنا، فالآية هنا من باب الغالب.

وأنظر إلى الآية وأتعجب: هل قالت الآية شيئا مما يتكلمون عنه؟ ففي الآية خطاب واضح للرسول لا يمكن تعميمه لباقي المسلمين كما في معظم آيات القرآن، فالخطاب للرسول أن مهادنة اليهود ولا النصارى لن تجدي شيئا مهما فعل إلا أن يتبع ملتهم، وبطبيعة الحال مات الرسول(ص)، واليهود والنصارى في عصره عنه غير راضين –والآية تتحدث عن عدم الرضا فقط ولم تقل شيئا آخر–، فقد يكون وُجد بعض اليهود والنصارى لم يكرهوا الرسول ولكنهم لم يؤمنوا به، ولكن لو وجد من رضي عنه لآمن به، فالآية قمة في التحديد وهي مانعة جامعة كما يقال، ولست أدري كيف لمن ينظر بالمقلوب أن يطالب بتصحيح وضع الصورة؟!

ونذكر نموذجا آخرا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة فاطر, ١٢] تذكر الآية صراحة أن الأنهار –البحار العذبة– والبحار المالحة لا يستوون، وأننا نأكل منهما اللحم الطري ونستخرج منهما الحلي التي نلبسها، وهنا إشكالية: يمكن القول أن اللحم يخرج من البحرين، ولكن اللؤلؤ والمرجان مثلا لا يخرجان إلا من البحار المالحة، فكيف التوفيق؟ نقول أثبت العلم الحديث أن هناك الكثير من الأنهار التي يستخرج منها الحلي مثل العقيق وبرادة الذهب واللؤلؤ ويوجد ذلك في إنجلترا واسكتلندا وتشيكوسلوفاكيا واليابان وبعض المواد الأخرى التي تستخدم للزينة مثل الماس والياقوت تستخرج من أنهار في بورما العليا وسيام وروسيا والبرازيل.

وهذه الحقيقة العلمية لم تكتشف إلا حديثا جدا وهي حتى الآن لا تزال خافية عند أكثر البشر –من يرد التثبت فليرجع إلى الموسوعة البريطانية الطبعة الرابعة عشر–، حتى أن المستشرقين مترجمي القرآن مثل رودي بارت المستشرق الألماني وروديل المستشرق الإنجليزي عندما تصديا لترجمة هذه الآية قاما بصياغتها لكي يفهم منها أن المراد يخرج من المالح فقط وهذا ما لم تقله الآية، ولقد كانت هذه الآية مصدر إزعاج شديد للمفسرين، لمعرفتهم أن الحلي تخرج من البحر المالح فقط فأولوا الآية –كالعادة– وقالوا المراد البحر المالح هنا وهذه إشارة بلاغية هي كذا وكذا!! وتمر الأيام ويظهر صدق الوصف القرآني الحرفي بدون أي مخالفة أو تأويل.

وفي نهاية المطاف نود القول أنه لو تتبع الإنسان المواضع التي قالوا فيها بالمجاز في القرآن بأكمله لظهر جليا، أنها جعلت كذلك لقصور علم –ولما يأتهم تأويله– أو لقصور نظر وعدم فهمهم طبيعة اللغة، ولإهمال السياق والترابط بين الآيات والتراكيب اللغوية، التي لها الدور الرئيس في تحديد المعنى المراد في أي نص كان.

وهي كلها على سبيل الحقيقة والمطابقة فعندما يريد الله ضرب مثل يقول أن هذا مثل، والأمثلة المضروبة في القرآن كثيرة وواضح أنها من باب التمثيل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البقرة, ١٧] و﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة البقرة, ١٧١] و﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٦١] و﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ١١٧]

والأمثال في القرآن كثيرة ولكن واضح أنها أمثال، فلا يصح أن نأتي إلى ما استعصى على أذهاننا ونقول هذا من باب التمثيل! ﴿... قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة البقرة, ١٤٠].

وعندما يريد التشبيه فيظهر جليا أن هذا تشبيه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الحج, ٤٧]، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحاقة, ٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة المنافقون, ٤]

فالصياغة القرآنية قمة في الوضوح والمطابقة، ولا غموض فيها ولا إشكال، ومن يقرأ القرآن يفهمه، بشرط أن يقرأه بدون أي مدلول مسبق في الذهن يريد أن يسقط عليه القرآن.

انتفاء الترادف في القرآن

من النقاط التي تترب على دقة النص القرآني، ومخالفته للنصوص البشرية انتفاء الترادف في القرآن، ونعرض بسرعة للترادف، وموقف العلماء منه، فنقول: الترادف هو: اشتراك لفظين أو أكثر في حمل معنى واحد باعتبار واحد، أي أن يكونا من نوع واحد اسمين أو صفتين ليسا متغايرين. هل اتفق العلماء على الإقرار بالترادف؟

ليس الترادف مما اتفق العلماء على الإقرار به في لغتنا العربية الجميلة، فبعض العلماء من المتقدمين والمحدثين أقر به واعتبر تلك الألفاظ مؤدية لمعنى واحد كالأصمعي والفيروزأبادي صاحب القاموس المحيط، ومنهم من لا يرى ذلك كأبي منصور الثعالبي؛ صاحب كتاب "فقه اللغة وأسرار العربية"، وكأبي هلال العسكري، الذي ترجم إنكار الترادف عمليا بتصنيف كتاب (الفروق في اللغة) ليؤكد من خلاله أن هذ الألفاظ ليست مترادفة. فهذا الفريق يؤمن بهذه الفكرة ويرى أن الألفاظ التي يظن أنها مترادفة ليست كذلك حقيقة، لكنها متقاربة، وهي تحمل فروقا دقيقة بينها لم تكن تخفى على أصحاب اللسان، الذين كانت اللغة عندهم حسا وذوقا وفطرة.

أسباب الترادف عند القائلين به

ما هي أسباب الترادف عند القائلين به؟

– المصدر الأول: التساهل في العزو: فقد يختلف اللفظ من حي إلى حي، ويتحد المدلول عند الحيين جميعا، حتى إذا ظفر الرواة باللفظين في الحيين من أحياء القبيلة الواحدة، سجلوهما للمعنى الواحد، دون أن يعنوا في الكثير من الحالات إلى الاختلاف في الاستعمال بين الحيين وحين رأى المتأخرون الكلمات المتعددة ترد على

المعنى الواحد، دون إشارة على مصادرها جعلوها مترادفة، كما لو كانت قد وردت على لسان المتكلم الواحد.

– المصدر الثاني: إثبات المهجور: وذلك لأن الرواة لم يهجروا المهجور، وربما أهملوا الإشارة إلى بعض المهجور أنه مهجور، فكانوا إذا ورد المهجور في شعر جاهلي احتفظوا به وقيدوه، ووضعوه موضع المستعمل، فبقي في المعاجم مرادفا للمستعمل، فشغل الدارسون به أنفسهم، وجعلوه مظهرا من مظاهر الترادف.

– المصدر الثالث: الحقيقة والمجاز: فاللفظ قد ترد عليه الحقيقة والمجاز!، لأنه من المعروف أن ألفاظ اللغة متناهية، وأن المعاني غير متناهية، فمن المحال أن تستطيع لغة ما أن تقدم لفظا منفصلا لكل معنى يرد على الخاطر، ولأن الذاكرة الإنسانية ذات طاقة اختزانية معينة لا تمكنها من استيعاب ما لا يقع تحت الحصر من الألفاظ. فإذا كان ذلك كذلك؛ فلا بد من التوسع في استعمال اللفظ بأن نُجوز به معناه الحقيقي الذي كان له بأصل الوضع، ونستعمله بواسطة هذا "الجواز" أو "المجاز" في معنى آخر تطبيقا لفكرة الاقتصاد في الاستعمال اللغوي، وأي اقتصاد أفضل من أن تعبر بالقليل من الألفاظ عن الكثير من المعاني. كل ما هنالك أن هذا المجاز مشروط دائما بوجود العلاقة والقرينة، وهكذا يمكن للفظين أن يستعملا لمعنى واحد يكون أحدهما مستعملا على سبيل الحقيقة، والآخر على سبيل المجاز، كما يمكن أن يكون كلاهما على سبيل المجاز، فإذا اشتهر هذا المجاز على الألسنة لصق المجاز باللفظ حتى صار كالحقيقة فيه، فإذا دل لفظ آخر بالحقيقة على هذا المعنى عد اللفظان مترادفين.

– المصدر الرابع: التوليد والتعريب: التوليد والتعريب يحمل أحيانا اللفظ القديم ولكنه لا يميته، فيظل المولد والمعرب، ويستعمل على لسان طبقة من طبقات المجتمع، ويظل اللفظ القديم يستعمل على ألسنة الطبقات الأخرى، فلا يجد اللغوي مفرا من

اعتبار اللفظين: القديم والمولد مترادفين، دون أن يعنى بذكر الفروق الاجتماعية في استعمالهما، وهذا شبيه بإهمال الفروق الجغرافية بين اللهجتين.

– المصدر الخامس: تاريخ التدوين والكتابة العربية: يعود تاريخ الكتابة العربية التي كانت في فترة من هذا التاريخ تسمح بالكثير من التصحيف، الذي يؤدي بدوره إلى إيجاد الألفاظ الجديدة التي تؤخذ بنفس معاني الكلمات القديمة، فتصبح مرادفة لها، ويتضح هذا في المترادفات التي يتحد رسمها ويختلف نطقها كما في "ناض" و"ناص" وكلاهما بمعنى تحرك!

إذا هذه هي الأسباب التي تؤدي إلى ظهور الترادف –عند القائلين به–، وهذه القضية قُتلت بحثا، وبادئ ذي بدء لا بد من القول إن جذر هذه القضية يعود إلى أصل نشأة اللغة والتسليم باعتباطيتها، ومعلوم أن علماء اللغة على اختلاف واسع ومبسوط في كتب اللغة، ويكاد الرأي الأخير يتشعب إلى رأيين أحدهما يرى التوقيف في أصل نشأة اللغة، وأن الله علّم آدم الأسماء كلها، ورأي آخر يرى أن اللغة قائمة في أصلها على الاصطلاح والتواضع وسنعرض لهذه النقطة عند الحديث عن نشأة اللغة.

وإذا كان الفريق الذي يثبت الترادف في اللغة يقر بأنه يوجد فروق صغيرة بين كلمات كثيرة مما نقول فيها بالترادف، وأن قليل منها فقط هو من المترادفات، فهذا ما يكفي للبحث في كتاب الله عن الفروق بين الألفاظ وبالذات إذا استعمل المفردتين في القرآن، فهذا دليل عين للمثبتين على أن المراد هنا غير المراد هناك وإلا لما خالف الله عز وجل واستعمل كلمة أخرى، فإذا سلمنا بتلك الدلالات المتعددة فلا ترادف.

حجج المنكرين للترادف

أما المنكرون للترادف فيرون بأن الشارع حكيم، ومن العبث أن يأتي الترادف إلا ولكل كلمة دلالة، فإذا سلمنا بتلك الدلالات المتعددة فلا ترادف بل إن أبا هلال العسكري

قد أنكر حتى المشترك اللفظي، وأن يكون فعل وأفعل بمعنى واحد، بل إن أصحاب هذا الرأي ومنهم أبو هلال العسكري يقولون بعدم تعاقب حروف الجر، وعللوا ذلك بأنه يوقع في الإشكال واللبس على المخاطب، وليس من الحكمة وضع الأدلة المشكلة.. وقال المحققون: لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد (كالبر والبر والبر بفتح الباء وكسرها وضمها فالمعنى مختلف في الثلاثة – المؤلف–)، ثم يقول: وإذا كان اختلاف الحركات يوجب اختلاف المعاني، فاختلاف المعاني أنفسها أولى أن يكون كذلك. ولهذا المعنى قال المحققون من أهل العربية: إن حروف الجر لا تتعاقب. ويقول ابن درستويه: في جواز تعاقب حروف الجر إبطال لحقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس، ويسحب أبو هلال العسكري المبرّد إلى القائلين بإنكار الترادف وينقل عنه قوله: (... قولنا اللب، وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيده العقل، وكذلك المؤمن، ومستحق الثواب، لكل منهما معنى زائدة. ويفرق المبرّد بين قولي "أبصرته، وبصرت به" على اجتماعهما في فائدة شبه متساوية إلاّ أن أبصرت به معناه أنك صرت به بصيرا بموضعه، وفعلت أي انتقلت إلى هذه الحال، وأما أبصرته فقد يجوز أن يكون مرة وأن يكون لأكثر من ذلك، وكذلك "أدخلته ودخلت به"، فإذا قلت أدخلته جاز أن تدخله وأنت معه، وجاز ألا تكون معه، ودخلت به إخبار بأن الدخول لك وهو معك، وبسببك.

وممن أنكر الترادف ابن فارس، وقد بسط رأيه الذي لا يبعد في استدلاله عن آراء ابن درستويه ومعاصره أبي هلال العسكري، وهو رأي لابن الأنباري –صاحب الأضداد يقول ابن الأنباري [يذهب ابن الأعرابي إلى أن مكة سميت بذلك لجذب الناس إليها] ثم يقول بعد كلام طويل عن علة بعض التسميات لبعض البلدان– فإن قال رجل: لأي علة سمى الرجل رجلا، والمرأة امرأة قلنا: لعلة علمتها العرب وجهلناها، فلم تزل عن العرب حكمة العلم بما لحقنا من غموض العلة وصعوبة الاستخراج علينا[55]. ويعلل

(55) سنفرد الكلام عن العلاقة بين الدال والمدلول عند الحديث عن نشأة اللغة.

قطرب تكرار العرب للفظتين على المعنى الواحد بعلة أن ذلك يدل على اتساعهم في كلامهم كما زاحفوا في أجزاء الشعر، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم.

ويتفق أكثر العلماء في هذه النقطة، وهي عدم الترادف أو ندرته في القرآن، وهم في هذا تبع للإمام ابن تيمية، حيث قال في ذلك الموضوع قولا جيدا، نذكره هنا: "فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إعْجَازِ الْقُرْآنِ فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ إنَّ الْمَوْرَ هو الْحَرَكَةُ كَانَ تَقْرِيبًا إذْ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ. وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ: "الْوَحْيُ" الْإِعْلَامُ أَو قِيلَ ﴿أَوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ أَنْزَلْنَا إلَيْك أَو قِيلَ: ﴿وَقَضَيْنَا إلَى بَنِي إسْرائِيلَ﴾ أَيْ أَعْلَمْنَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَهَذَا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ فَإِنَّ الْوَحْيَ هو إعْلَامٌ سَرِيعٌ خَفِيٌّ وَالْقَضَاءُ إلَيْهِمْ أَخَصُّ مِنْ الْإِعْلَامِ فَإِنَّ فِيهِ إنْزَالًا إلَيْهِمْ وَإِيحَاءً إلَيْهِمْ. وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلَى نِعَاجِهِ﴾ أَيْ مَعَ نِعَاجِهِ و﴿مَنْ أَنْصَارِي إلَى اللَّهِ﴾ أَيْ مَعَ اللَّهِ وَنحو ذَلِكَ وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنْ التَّضْمِينِ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إلَى نِعَاجِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى يُزِيغُونَك وَيَصُدُّونَك وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ضُمِّنَ مَعْنَى نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ضُمِّنَ يُرْوَى بِهَا وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ. وَمَنْ قَالَ "لَا رَيْبَ لَا شَكَّ" فَهَذَا تَقْرِيبٌ وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ كَمَا قَالَ: {دَعْ مَا يَرِيبُك إلَى مَا لَا يَرِيبُك} وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ {مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ فَقَالَ: لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ} فَكَمَا أَنَّ الْيَقِينَ ضُمِّنَ السُّكُونَ وَالطُّمَأْنِينَةَ فَالرَّيْبُ ضِدُّهُ ضُمِّنَ الِاضْطِرَابَ وَالْحَرَكَةَ. وَلَفْظُ "الشَّكِّ" وَإِنْ قِيلَ: إنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَى؛ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ: ذَلِكَ الْكِتَابُ هَذَا الْقُرْآنُ فَهَذَا تَقْرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْمُشَارَ إلَيْهِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَالْإِشَارَةُ بِجِهَةِ الْحُضُورِ غَيْرُ الْإِشَارَةِ بِجِهَةِ الْبُعْدِ وَالْغَيْبَةِ وَلَفْظُ

"الْكِتَابِ" يَتَضَمَّنُ مِنْ كَوْنِهِ مَكْتُوبًا مَضْمُومًا مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ الْقُرْآنِ مِنْ كَوْنِهِ مَقْرُوءًا مُظْهَرًا بَادِيًا فَهَذِهِ الْفُرُوقُ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: (أَنْ تُبْسَلَ أَيْ تَحْبِسَ وَقَالَ الْآخَرُ: تُرْتَهَنَ وَنحو ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ اخْتِلَافِ التَّضَادِّ وَإِنْ كَانَ الْمَحْبُوسُ قَدْ يَكُونُ مُرْتَهَنًا وَقَدْ لَا يَكُونُ إذْ هَذَا تَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَى كَمَا تَقَدَّمَ وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ جِدًّا"اهـ.

ونلاحظ أن الإمام ابن تيمية هنا لا ينفي القول بالترادف تماما، بل يجعل ذلك من باب النادر الذي لا يكاد يوجد، ونحن بطبيعة الحال نرفض أن يكون هناك ترادف في اللغة بأي حال، كما رفضنا وجود المجاز من قبل.

نماذج لمترادفات مزعومة

ونذكر هنا نماذج للعديد من الكلمات التي وردت في القرآن ويحسبها الناس من المترادفات، وإن كان بينها الفروق البسيطة التي انتبه إليها العلماء الفحول الفطاحل:

– "الأب والوالد": الوالد هو الأب المباشر الذي أنجب هذا الإنسان، أما الأب فيمكن أن يكون الأب أو الجد أو العم أو حتى من له علاقة شديدة بالإنسان، وهذا ينطبق كذلك على "الأم والوالدة" ونحن نجد أن الله عز وجل قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ﴿٦﴾﴾ [سورة الأحزاب ,٦] فلم يقل أزواجه والداتهم بل قال أمهاتهم، وعندما يريد التركيز على الأبوين المباشرين يستعمل لفظ "الوالدين". ونجد ذلك واضحا في كل القرآن ونجده يربط ذلك بعبادته تعالى فعلى سبيل المثال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴿٨٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٨٣]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النساء ,٣٦]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ

شَيْـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ... ﴿١٥١﴾] سورة الأنعام, ١٥١[، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ... ﴿٢٣﴾] سورة الإسراء, ٢٣[فلا بد من التدقيق في المعاني المختلفة للكلمة ودلالات كل منها، بدلا من التسرع والقول بالترادف الذي يوقعنا في مشاكل نحن في غنى عنها، فعلى سبيل المثال إذا قلنا أن "الأب" هو الوالد فهذا يوقعنا في مشكلة عويصة، وهي كيف يدعو سيدنا إبراهيم لأبيه عند الكبر مع أن الله عز وجل قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾] سورة التوبة, ١١٤[. فالخليل استغفر لأبيه فتره قصيرة في مرحلة الشباب، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ولكن نجد أن الخليل عاد في الكبر مرة اخرى، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾] سورة إبراهيم, ٣٩[، ثم قال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾] سورة إبراهيم, ٤١[، فنحن الآن أمام مشكلة كبيرة وهي: كيف يعود الخليل للاستغفار لأبيه في الكبر مرة أخرى بعد أن تبرأ منه؟ وهذا ما يحتمه القول بالترادف بين الأب والوالد، ولكن إذا قلنا أن الوالد هو الأب الذي أنجب وأن الأب لفظ يحتمل معان عديدة منها الوالد والجد والعم والمربي وغير ذلك، زال الإشكال فيمكن أن نقول هنا بسهولة أن الخليل كان يستغفر لأبيه الذي ليس بوالده –من الممكن أن يكون عمه أو مربيه أو جده أو...،– لموعدته فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وعندما بلغ الخليل الكبر لم ينس حق والديه عليه الذين أسلما، فدعا لهما وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ... ﴿٤١﴾] سورة إبراهيم, ٤١[، وبذلك يرتفع الإشكال.

– الكذب والإفك: الكذب: اسم موضوع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به، سواء أكان فاحش القبح أم لا. والإفك: هو الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن، ومثل قذف المحصنات.

– القراءة والتلاوة: التلاوة:لا تكون إلا لكلمتين فصاعدا، وذلك أن التلاوة إتباع الشيءِ الشيءَ، يقال: تلا الشيء إذا تبعه، فتكون للكلمات يتبع بعضها بعضاولا تكون إلا أمام مستمع، أما القراءة: تكون للكلمة الواحدة يقال قرأ فلان اسمه، ولا يقال تلا اسمه.

– الاستهزاء والسخرية: أن الإنسان يُستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يُستهزأ من أجله، والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه.

– الدلو والذَّنوب: أن الدلو تكون فارغة وملأى، والذَّنوب لا تكون إلا ملأى. وكذلك الفرق بين القدح والكأس، فالكأس لا تكون إلا مملوءة، والقدح تكون مملوءة وغير مملوءة.

– ويمتد الفرق بين الألفاظ إلى استعمال الجمع والمفرد منها، فلكل موضع يناسب المقام الذي يذكر فيه، فحين تُفرَد الرياح بالذكر فإنها تحمل العذاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [سورة القمر, ١٩-٢٠]، و ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ [سورة الإسراء, ٦٩]، أما إن جاءت الرياح بالجمع فإنها تدل على الرحمة والبركة، أو مبشرة بنعمة تأتي من بعد كالغيث والإخصاب، قال عز وجل: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [سورة الحجر, ٢٢]، وقال أيضا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ ... ٥٧﴾ [سورة الأعراف, ٥٧].

– الريب والشك: دأب المفسرون على تعريف أحدهما بالآخر، والحقيقة أن بينهما تقاربا في المعنى يسوغ ذلك، ويسوغ له أن ألفاظ العربية ـ حسب المنكرين للترادف ـ لا يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر، فالريب والشك بينهما فروق في المعنى، وأكثر

ما يؤكد الفرق بينهما أن الريب جاء وصفا للشك في عدة مواقع من القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة هود, ١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة سبإ, ٥٤] والشيء لا يُنعت بنفسه ولكن بوصف يقاربه معنى، وهذا يؤكد قول المنكرين للترادف الباحثين عن الفروق. فالشك هو التداخل الداعي إلى الغموض وعدم استبانة الأمور، والتردد. أما الريب فهو شك مع تهمة مصحوبة بقلق النفس واضطرابها، والشك المريب هو التردد الموقع في القلق والاضطراب.

– ويفرق القرآن الكريم في الاستعمال أيضا بين المطر والغيث، فنرى المطر في مواطن العذاب والانتقام كقوله تعالى في سورتي الشعراء والنمل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وقوله عز وجل في الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٤]. أما الغيث فيغلب وروده في مواطن الرحمة والخير المقترن بالبشرى والخصب والنماء، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الشورى, ٢٨][56]

فكما رأينا، ما من كلمتين قيل بترادفهما، إلا وثمت فارق بينهما دق أو ظهر، وعلى من يريد معرفة الفروق الرجوع إلى أهل الاختصاص، وقول من جهل ليس بحجة على من علم وخبر، والله أعلم.

إذا فيجب على من يريد فهم القرآن أن يستند إلى هذه القاعدة ولا يقع في المأزق الذي وقع فيه السادة المفسرون، حيث أن أكثرهم ينفون الترادف أو يقولون بندرته

(56) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري والإعجاز البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ، و(الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم للدكتور وليد قصاب، والفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم) للدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع.

الشديدة وعلى الرغم من ذلك لم نجدهم في تفسيراتهم!! يقدمون لنا الفروق بين المفردات اللهم في ندر، إذا انتبهوا لذلك، فماذا كانوا يفسرون إذن؟

والعجيب أن السادة المفسرين يفسرون الكلمة بما لا يمكن أن يكون مترادفها، فعلى سبيل المثال يفسرون قوله تعالى: ﴿... إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾]سورة الأعراف, ٥٦[تفسيرا عجيبا، فنجد أن الإمام الطبري يقول فيها أشياء عجيبة، ونذكر هنا ما قاله في تفسير كلمة "رحمة"، حيث قال: "إن رحمة الله قريب من المحسنين" يقول تعالى ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا، قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم ولذلك من المعنى ذُكِّر قوله: "قريب"، وهو من خبر "الرحمة"، و"الرحمة" مؤنثة، لأنه أريد به القرب في الوقت لا في النَّسب، والأوقات بذلك المعنى إذا وقعت أخبارًا للأسماء، أجرتها العرب مجرى الحال، فوحّدتها مع الواحد والاثنين والجميع، وذكَّرتها مع المؤنث، فقالوا: " كرامة الله بعيد من فلان"، و"هي قريب من فلان" اهـ

وقال الجوهري: "أي إحسان الله قريب فهي على هذا المعنى. ذكر ذلك تخلصاً من عدم تأنيث (قريب) وهو غير صحيح. لأن القرآن لم يستعمل (فعيلة) تأنيثاً لفعيل مطلقاً في الظرفين. ومثله ﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾] سورة الشورى, ١٧[.

إذا فالإمام الطبري يجعل رحمة الله ثواب الله، والإمام الجوهري يجعلها إحسان، ونحن نرى أنها رحمة الله ولا حاجة بنا لإيجاد معنى آخر خوفا من المخالفة، لأن هذه المفردات (قريب، بعيد) ليست صفات لتؤنث وإنما هي ظروف ولو كانت مشتقة من أفعال متصرفة. ومعلوم أن الظرف لا يحتاج إلى تحويلات لأنه ظرف يستوعب الحركة الفاعلة سواء كان الفاعل مذكراً أم مؤنثاً. ولكن المفردة ترجع الى تصرفها حينما لا تسلك سلوك الظرف، فإذا اقترنت بنكرة تحولت الى صفة وأعربت (فتحاً قريباً)،

(عرضاً قريبا)، (عذاباً قريبا). في حين أنها كانت في الآيات موضع الشاهد بمثابة الظرف، وليس الظرف كالصفة، وليس لأحد أن يجعل (رحمة الله) بنفس معنى (إحسان الله أو ثواب الله) بصورة اعتباطية.

هذا ونود التذكير هنا إلى أننا ننفي الترادف في القرآن وفي اللغة بكل أشكاله وألوانه، فلا يمكن أن يحل حرف محل حرف أو كلمة محل كلمة أو أن يكون هناك جملة مثل جملة أخرى أو آية مثل آية، بل كلٌ له معناه ودلالته المختلفة من خلال السياق، فإذا ورد على سبيل المثال آيتان في القرآن بلا اختلاف حتى في حرف واحد، فليس مدلول هذه الآية مثل تلك، وإنما لكل منهما مدلول مختلف، ويظهر هذا الاختلاف السياق الذي يحدد المعنى.

وليعلم من فهم الكلمة بكلمة أخرى بدون معرفة الفرق بينهما أنه هو من باب التقريب، وأنه بهذا الفهم لم يصل إلى الدرجة التي تؤهله لتأويل القرآن بمستوياته، ولكنه أدى الواجب عليه من فهم القرآن بأقل درجاته، وكل ما فعله هو الحد الأدنى لفهم الكلمة ولا يمكن أن ينتقل إلى المستوى التالي في التعامل مع النص وهو التأويل على مستويات أعلى بأي حال من الأحوال.

البعد عن التراكيب البلاغية المعقدة

كما يترتب على دقة النص القرآني واختلافه عن النصوص البشرية، أن نفهمه بشكل منطقي مألوف، يتناسب مع سياقه ووروده، لا أن نفترض فيه تركيبات غريبة عجيبة، والتي قد تكون وردت عند فلان أو علان من الشعراء، لحكم الوزن أو القافية، أو لضيق أفق، أو لأي سبب من الأسباب! فيُفهم النص بالمشتهر المألوف، وليس بالغريب النادر، فالقرآن ليس ألغازا نحتار في حلها أوفهمها، وإنما نص سهل ميسر واضح، يُفهم من خلال السياق الواضح الظاهر لكل ذي عينين، أما أن ننزع الكلم من

سياقه ونود أن نفهمه هكذا منفردا فلن نصل إلا إلى فهم خاطيء، ونذكر هنا نموذجا للتخبط في التفسير لأنهم عزلوا الكلم عن سياقه في الآية: قوله تعالى: ﴿... وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾ [سورة الجن ,٢٢-٢٣] فقد اختلف العلماء في فهم هذه الآية اختلافا شديدا، لم؟ ذلك لمخالفتها الثابت من العقائد عندهم أن المعصية فقط لا توجب الخلود المؤبد في النار، فكيف قالت الآية ذلك؟ نذكر هنا نموذجا مما قال به المفسرون في تفسير هذه الآية، ولننظر كيف خرّجوها ووفقوا بينها وبين المتعارف عليه من العقائد، ونورد هنا نموذجا من تفسير القرطبي، حيث قال ما نصه: "قوله تعالى: "ومن يعص الله ورسوله" في التوحيد والعبادة. "فإن له نار جهنم" كسرت إن لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم. "خالدين فيها" نصب على الحال، وجمع "خالدين" لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أولا للفظ "من" ثم جمع للمعنى. وقوله "أبدا" دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى "خالدين فيها أبدا" إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة !!!، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو. وقد مضى هذا المعنى مبينا في سورة "النساء" وغيرها"اهـ

وبمثل ذلك قال الإمام الطبري، إذا فهم يرون أن العاصي هو الإنسان العادي ويرون أن المعصية هي الشرك حتى يخلد في النار. ولكن ظهر لي في هذه الآيات فهم آخر يتفق مع سياق الآيات، وهو أن العاصي هنا هو الرسول، أي رسول مرسل من عند الله، فلو رجعنا إلى الوراء قليلا ونظرنا في الآيات وجدناها تتكلم عن أن الرسول لما قام يدعو إلى الله اجتمع عليه المشركون ليثنوه وليردوه عن دعوته، فقال لهم مهما فعلتم فأنا أدعو ربي ولن أشرك به أحدا، فلن يجيرني منه منكم أحد ولن أجد ملجأ سواه، والملجأ الوحيد من الله هو تبليغ رسالاته فأنا لا أستطيع تركها، ومن يعص الله ورسوله أي الوحي، فلم يبلغه أو بلغ بخلافه فإن له نار جهنم خالدا فيها أبدا، وهذا ديدن كل الرسل وليس حالي فقط.

إذا فالواضح من السياق أن العصيان يكون من الرسول فيما أمره الله به، بكتمان الوحي أو تحريفه، فمن يفعل هذا من الرسل مصيره النار خالدا فيها أبدا، والحمد لله فقد بلغ الرسول الرسالة ونصح للأمة وترك ما رغبت فيه قريش. وبهذا الفهم يظهر لنا الترابط بين الآية وسابقتها. وإذا فهمنا النصوص من خلال سياقها، وجب علينا أن نفهمها بشكل منطقي متناسق.

ولسائل أن يسأل: كيف نميز الفهم المنطقي من غير المنطقي؟ نقول: الأمر جدا واضح، لو سارت الكلمة على النهج العادي المألوف المستعمل المفهوم في جميع العصور فهو الفهم الطبيعي المنطقي، والدليل على كون الفهم غير منطقي أو طبيعي محاولة المفسرين أو النحو يين تبريره وتصحيحه، إذ لو كان مألوفا لمروا عليه مرور الكرام وما تعرضوا له، ولكن لما خالف المألوف أخذوا في التمحك من أجل تثبيت الفهم الخاطىء للتركيبة البلاغية.

الضمائر في القرآن

هناك الكثير من النماذج التي يظهر فيها جليا الفهم غير المنطقي للتركيبات اللغوية، ولكن سنركز هنا على موضوع واحد وهو موضوع "الضمائر في القرآن"[57] أو مسألة "الراوي" أي على لسان من يُحكى القرآن الكريم!

القرآن كتاب الله، ولكنا نلاحظ أن الحديث فيه عن الله يكون غالبا بصيغة الغائب، وأن الضمائر فيه تسير بشكل غير مألوف، وبطبيعة الحال كنت عندما أقرأ القرآن يلفت نظري موضوع الضمائر هذا، ولكن كانت الإجابة التي تريح الذهن هي ما لُقناه في المراحل الدراسية من أن هذا أسلوب بلاغي معروف في اللغة! وأنا لم أكن أرى فيه شيئا مثيرا جدا، أن ينتقل الحديث من المتكلم إلى الغائب أو من المفرد إلى

---

[57] هذا الموضوع منقول بتصرف كبير من كتاب "مفاتح القرآن والعقل"، من إصدرات جمعية التجديد، مع بعض الإضافات.

الجمع أو العكس، ولكن كنت أقرأ ذات مرة في كتاب ناقش هذا الموضوع وفصله تفصيلا رائعا.

وأنا وإن كنت أرى أن هذا الموضوع جائز في اللغة العربية، ولكنه يسبب الكثير من اللبس وفيه خروج عن المألوف، وبداهة فإن الأسلوب المباشر أفضل وأكثر وضوحا، وهو ما يجب أن يظهر جليا في القرآن، فرأيت أن كلامهم جيد وخاصة أنهم يكادون يتفقون معي في النهج الذي أتبعه. ينطلق قولهم هذا من فهم آية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ [سورة الشورى ,٥١] فهذه الآية غاية في الوضوح –مثل باقي آيات القرآن– وعلى الرغم من ذلك لم يفسرها أحد من المفسرين كما ينبغي!، فالكلمة تُقرأ بدون أي دلالة في الذهن، لذا فلنجزأ الآية جزءا جزءا حتى نُفهّمها لهم!: الآية تتكلم عن طرق كلام الله للبشر، وهي ثلاثة:

1- الوحي وهو الإعلام الخفي[58].

2- من وراء حجاب.

3- أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء.

---

[58] للوحي بصورة عامة عدة أنواع منها الوحي عن طريق توارد الخواطر وهذا الوحي وارد لكل البشر حتى يومنا هذا وهو عندما يقع الإنسان في مأزق أو يفكر في مشكلة علمية تستحوذ على كل تفكيره، تأتيه فكرة أو خاطرة ما فيها الخروج من المأزق أو حل المشكلة العلمية "كتفاحة نيوتن".

وهذا النوع من الوحي جاء في الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [سورة القصص ,٧]، ومنها الوحي عن طريق المنام وهو أحد أنواع الوحي للأنبياء وبالنسبة لغير الأنبياء يسمى المبشرات وهو الرؤيا الصادقة، ومازالت الرؤيا الصادقة ظاهرة شائعة بين الناس بغض النظر عن التقوى وهي ليست حلما. لقد جاء الوحي في المنام إلى إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [سورة الصافّات ,١٠٢]، هنا جاء الوحي بإعطاء أمر من الأوامر. وكذلك الوحي عن طريق البرمجة العضوية –طبقا لعلمنا القاصر– في الكائنات الحية أو الوظيفية في ظواهر الطبيعة: وذلك عن طريق تخزين معلومات وأوامر في البنية الجينية للخلايا كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾ [سورة النحل ,٦٨]. ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾ [سورة النحل ,٦٩].

والنوع الثالث هو ما حدث مع النبي(ص)، حيث جاءه جبريل وأوحى إليه الكتاب بإذن الله. ولزيادة التوضيح، نقول: كلنا نُقر أن القرآن كلام الله، ولكن هناك آيات توضع على لسان غير الله مثل: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [سورة الفرقان ,٣٠] فهذا من كلام الله ولكنه محكي على لسان الرسول لأنه هو الذي سيقول ذلك، ومثل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [سورة القصص ,٣٨]، فكذلك هذا الكلام محكي على لسان فرعون ولكنه من كلام الله، فالخلاصة أن القرآن كله من عند الله وهو كلام الله، ولكن الحكاية على لسان أفراد مختلفين، فهو يحكى على لسان موسى وعيسى والرسول والملائكة ويحكى من الله وعلى لسان النبي، وهكذا دواليك. فمن الذي يحكي عن الله في عامة القرآن، حتى أننا نجد أن الحديث عنه غالبا يكون في صيغة الغائب: "إن الله غفور رحيم، وقال الله، ضرب الله مثلا..." ففي هذه الأمثلة وكثير غيرها، يكون الحديث عن غائب، فأنا لا أتكلم عن نفسي، وقال: قال عمر وكذا! وفعل عمرو كذا"، وإنما أقول: قلت كذا وفعلت كذا! فمن المتكلم في هذه الآيات؟

الناظر يجد أن معظم القرآن يُحكى على لسان الملائكة، لذا نجد أن الحديث غالبا عن الله على سبيل الحكاية. فإذا نحن انتبهنا إلى هذه النقطة زال الإشكال في فهم الضمائر في القرآن، حيث أن الكثير من الأفعال التي نسبت إلى الله حكيت على لسان الملائكة على أساس أنهم المباشرون لفعل هذا الشيء، ولنبدأ ببعض الآيات الواضحة في الدلالة على الملائكة ونبدأ بسورة النجم، حيث يقول الله عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [سورة النجم ,١٠]، فالحديث هنا من الله عن جبريل عليه السلام وعلى النبي(ص)، ولقد كانت كلمة "عبده" هنا تثير لي مشكلة كبيرة جدا، إذ كيف يقول الله عز وجل عن سيدنا محمد(ص) أنه عبد لجبريل عليه السلام؟ وكنت أحاول أن أجعل الحديث هنا عن الله عز وجل، ولكن لم يكن هناك أي ذكر لله عز وجل من أول السورة، فيجب حمل الكلام هنا على جبريل عليه السلام،

ويجب ألا نتحرج من هذه الكلمة فقد استعملها الله عز وجل فلا يجوز لنا أن نستثقلها وخاصة أن كلمة "عبد" لا تعني فقط العبودية الدينية بل هي واسعة المعاني،[59] ونحن لا نستعملها في حياتنا بمعنى أن العبيد يعبدوننا بل نعني أنهم تحت إمرتنا، فكذلك الرسول لا يعبد جبريل عليه السلام.

فإذا انطلقنا من هذه الآية وعرفنا أن القرآن يُحكي على ألسنة الملائكة سواء جبريل فردا أو هم عامة، على أساس أنهم المباشرون لكثير من الأعمال في هذا الكون، وأنهم هم الذين تولوا تربية الإنسان وتعليمه في بدايته –مع سيدنا آدم وبعده، ولا يزالون يقومون بأدوار عدة في حياة الإنسان– انتظم فهمنا كثيرا للآيات وتحركت الآيات بشكل طبيعي مألوف. فمن ذلك قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [سورة مريم ,٦٣-٦٤]، فقد استعمل الله عز وجل كلمة "عبادنا" بالنسبة للملائكة، والآية واضحة الدلالة جدا في أن الحديث هنا على لسان الملائكة، أي أنهم هم الذين سيورثون المتقين الجنة يوم القيامة –بأمر الله طبعا– وأنهم لا يتنزلون إلا بأمر الله فله ما بين أيديهم وما خلفهم ...، فلا يصح بحال من الأحوال أن نقول أن الكلام في الآية الأولى عن الله وفي الثانية عن الملائكة، بل كلاهما محكي على لسان الملائكة[60]، والسياق قبل وبعد الآية يحتم الحمل على ذلك.

---

[59] كلمة "عبد" واسعة الدلالة جدا، يضاف إلى ذلك أنها من الأضداد، فقد تأتي بمعنى الكفر كما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١﴾ [سورة الزخرف ,٨١].

[60] للملائكة دور عظيم في حياة الإنسان وفي تسيير الكون، ونذكر هنا بعضا من وظائف الملائكة حتى يتذكر الإنسان فضل الله عليه في تسخيرهم له، ويتذكر دورهم في حياته:

1– حفظ الإنسان من كثير من المخاطر: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [سورة الرّعد ,١١]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [سورة الأنعام ,٦١] فالملائكة تقوم بحفظ الإنسان من كثير من المخاطر التي يتعرض لها وقد ينجومنها بطريقة غريبة، ولا يتفكر كيف نجا من هذا الموقف، ويظن في نهاية المطاف أنها صدفة!!.

فإذا فهمنا أن الحديث عن الله بصيغة الغائب هو من كلام الله، ولكنه محكي على لسان الملائكة زال الإشكال، وأن الحديث إذا كان عن الله بصيغة الغائب ثم انتقل إلى الجمع أو العكس فيكون الحديث عن الله من الملائكة ثم عن الملائكة أو عن الملائكة ثم عن الله، وتدبر معي أخي في الله هذه الآيات على هذا الأساس وانظر كيف سيرتفع الإشكال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [سورة الأعراف, ١٤٣]

يقول جل -إن لم يكن كل- المفسرين أن الضمير في "ميقاتنا" يعود على الله والضمير في "ربه" يعود على الله أيضا، وهذا الكلام بعيد جدا، إذ أنه من المفترض أن يقال "وكلمناه" أو فلما "تجليت أو تجلينا" ولكن أن يقال "ميقاتنا وربه" فهذا غير مألوف وغريب. وكانت هذه الآية تسبب لي حيرة كبيرة، وذهب ذهني في فهمها إلى أفهام عجيبة! ولكن إذا فهمنا أن الكلام محكي على لسان الملائكة وأن الضمير في "ميقاتنا" يعود على الملائكة أي لما جاء موسى للميقات الذي حددته له الملائكة، وكلمه ربه أي الله عز وجل فيكون الكلام مستقيما تمام الاستقامة ولا وجه للغرابة فيه.

2- إنزال العذاب بالأقوام الطاغية الظالمة: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ [سورة العنكبوت, ٣٣-٣٤]

3- توفي الأنفس: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [سورة الأنعام, ٦١]

4- مراقبة الإنسان وتدوين أعماله التي اقترفها: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [سورة ق, ١٦-١٨].

5- تثبيت المؤمنين ونصرتهم في ساحات القتال نصرا معنويا وماديا: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [سورة الأنفال, ١٢]اهـ

منقول بتصرف من كتاب "التوحيد عقيدة الأمة منذ آدم"، من إصدارات جمعية التجديد.

ونذكر آية أخرى، وهي قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة هود ,١٠١] فإذا فهمنا أن الملائكة هي التي تقول: وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، وأن آلهتهم لم تغن عنهم شيئا من دون الله، لم يكن هناك أي وجه للغرابة في هذه الجملة من انتقال من متكلم إلى غائب أو من جمع إلى مفرد، ولكن أن نقول أن "ظلمناهم" محكية من الله وليست على لسان الملائكة فيكون من الأولى أن يقال "فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دوننا أو من دوني لما جاء أمرنا أو أمري"، ولكن إذا فهمنا أن هذا على سبيل الحكاية على لسان الملائكة، التي باشرت هذا الفعل، فيكون الكلام قد سار في المسار المألوف.

ونضيف آية أخرى، استعصت على كثير من المفسرين، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الواقعة ,٨٥] حيث احتاروا كيف يكون الله عز وجل أقرب إلى الإنسان منا، فهذا يفيد المادية والتحيز، فالله كما هو معلوم قريب من كل شيء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة ,١٨٦] ولكن لا يمكن نعته بأنه أقرب من شيء إلى آخر. لذا وجدنا منهم من قال أن المراد من ذلك هو الملائكة، أي أن الله عنى الملائكة، وهذا التخريج وإن كان صحيحا ولكن لا يمكن أن يكون الكلام محكيا عن الله ويكون المقصود من قوله "نحن" الملائكة، إذ أن الله ليس واحدا منهم حتى يقول: "نحن" ويقصدهم هم، أما إذا كان الكلام محكيا على لسان الملائكة أي أن الملائكة هي التي تقول للبشر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الواقعة ,٨٥] فيستقيم المعنى ويصير كالمألوف في الكلام.

ونذكر آية أخرى أُشكلت على السادة المفسرين وهي قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأنبياء ,١١٢]. حيث

سببت لهم جملة ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ إشكالية عظيمة في الفهم، ألا وهي من قائل هذه العبارة؟ ذهبت التفاسير إلى أن القائل هو الرسول(ص)، ولكن إذا نحن نظرنا إلى الآية وجدنا أن شطرها الأول إنشائي والشطر الثاني خبري، وهناك خلاف في جواز عطف الخبري على الإنشائي، وبطبيعة الحال ثمة تقدير محذوف –عندهم– وهو قوله: "–وقل– ربنا الرحمن المستعان"! وهذه هي آفة المفسرين فلا مانع من تقدير محذوف والقول بتقديم أو تأخير حتى يستقيم الفهم، وكل شيء جائز في اللغة والأمثلة على ذلك في اللغة كثير! ولكن بقولنا نحن أن الرواية على لسان الملائكة، يستقيم المعنى بدون أي تقدير لمحذوف أو خلافه.

ونذكر آية أخرى تؤيد تماما ما ذهبنا إليه، وتبين هذه التقسيمة والراوي، وهي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [سورة الشورى, ١٣]، فهذه الآية بدأت بالحديث عن الله اتفاقا بأنه شرع لنا ما وصى به نوحا، والحديث عن الله بصيغة الغائب ثم تحول إلى المتكلم الجمع، فقالت الآية: ﴿... وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ ... ١٣﴾ [سورة الشورى, ١٣]، فلو قلنا أن الكلام هنا محكي على لسان الله عز وجل لكان معنى هذا أنه حكى عن ذاته بالغائب المفرد ثم انتقل إلى المتكلم الجمع وهذا يسبب لبسا، أما إذا قلنا أن الكلام هنا محكي على لسان الملائكة فيكون متسقا مع النظام الطبيعي المألوف فيكون أن الملائكة تقول أن الله شرع لنا ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك –على سبيل التبليغ فهو أساسا من الله– وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، فيكون الكلام مستقيما والدلالة واضحة، فالملائكة هي التي تبلغ الوحي أو هي التي توحي إلى البشر من الله فهم الواسطة فلو قيل أنهم أوحوا إلى الأنبياء كان ذلك على سبيل الحقيقة.

وختاما نذكر آية أُشكلت على السادة المفسرين، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [سورة هود, ٧٤]، حيث تعجبوا كيف يجادل إبراهيم عليه السلام الله عز وجل! وقالوا المراد من ذلك الملائكة، ولكن هذا لا يستقيم إذا كان الكلام محكيا عن الله عز وجل، أما إذا كان الكلام محكيا على لسان الملائكة فلا لبس ولا إشكال، أي أن إبراهيم جادل رسل الملائكة بعد البشرى في قوم لوط، لم يهلكون إذا كان فيهم المؤمنين؟

ولعل القارئ يعجب من كثرة المحكي على لسان الملائكة في القرآن، ولكن كل هذا يزول إذا نظر الإنسان إلى القرآن من زاوية سليمة ففيه الكثير من الآيات التي تُحكى على لسان الملائكة لتوضح دورهم وفضلهم. لذا نقول: جل ما ورد في القرآن من صيغة الجمع ثم خولفت الصيغة إلى غائب أو مفرد فاعلم أنه محكي على لسان الملائكة، لكونهم الفاعل المباشر، وجل ما أُخبر به عن الله بصيغة الغائب فهو محكي على لسان الملائكة، وهذا كثير جدا في القرآن، فإذا قرأنا مثلا: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ [سورة النحل, ٥١] فأيهما أكثر منطقية وجريان مع المألوف؛ أن يكون هذا محكيا على لسان الملائكة أم يقال أنه محكي من الله عن الله؟! وعندما يقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [سورة البقرة, ١٦٣]، و ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [سورة طه, ٩٨]، وغير ذلك كثير آيات، وردت عن الله بصيغة الغائب ثم يظهر بعد ذلك مباشرة ما يُشعر باختلاف المتكلم. سيقال: ولكنه من المشتهر في اللغة أن يتكلم المرء عن نفسه بصيغة التعظيم أو التواضع. نقول: نعم هذا مشهور ومألوف في اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [سورة الأنبياء, ٢٥]، ولكن أن أتكلم عن نفسي بصيغة المتكلم المعظم لنفسه ثم انتقل إلى صيغة المفرد الغائب، فهذا هو غير المألوف، فإذا قلتُ: "نحن أمرنا بفعل كذا وإرسال كذا ثم استقبلنا الضيف وأكرمناه

وأدينا حقه" فهذا ما لا حرج فيه لغة أو عقلا، ولكن تأمل معي واستسغ هذه الجملة: "نحن أمرنا بفعل كذا وإرسال كذا ثم استقبل عمرو الضيف وأكرمه وأدى حقه"، فأي قارىء سيفهم أن "عمرا" هنا شخص آخر غير المتكلم، وسيخرِّج البلغاء لهذه الجملة وأمثالها مائة تخريج ووجه بلاغي!، ولكنا نعود ونسأل: أيهما أكثر ألفة ومنطقية وشهرة في الاستعمال اللغوي المتوقع في كل اللغات وليس العربية فقط، الوجه الأول أم الثاني؟

بطبيعة الحال هو الوجه الأول، وهذا ما لا يجادل فيه اثنان. لذا نقول بلا تحرج أن القرآن كلام الله ولكن معظمه محكي على لسان الملائكة وأننا وُصفنا بالعباد لهم. ولا يتحرج المرء من ذلك فالله عز وجل هو الإله الواحد الأحد والرب الأوحد والفاعل الحقيقي والموجد لكل شيء ولكنه يجعل لكل شيء سببا ومن هذا كثير وواضح في القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الزمر, ٤٢]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الأنفال, ٥٠]، ثم يقول في موضع آخر: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة السجدة, ١١].

ولا تعارض في هذا كله بل كله من الله وهؤلاء هم الأسباب المباشرة، فكما أن الإنسان المسلم لا يرى حرجا من ذلك، فلا حرج أيضا من أن يُفهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق, ١٦] أنه محكي أيضا على لسان الملائكة وأنهم أيضا هم فقط الوسائل أو الأسلوب، فلقد قال الله في آيات أخرى أنه هو الذي باشر الخلق مثل: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾﴾ [سورة ص, ٧١] ومثل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾

]سورة ص ,٧٥[ومثل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾] سورة البقرة ,٢١[، وآيات كثيرة جدا في القرآن فبنفس آلية عمل الملائكة بإذن الله في التوفي تعمل كذلك في الخلق[61]، فالله خالق كل شيء ومتوفي الناس وما هؤلاء إلا أدوات ووسائل ونحن كذلك.

وبهذا الفهم العادي للضمائر الذي عليه الناس في العالم كله من أن الحديث عن الذات بصيغة الغائب لا يكون من المرء نفسه إلا إذا كان على سبيل الحكاية، وأن الحديث عن الفرد بصيغة الجمع المتكلم ثم الانتقال إلى الغائب غير مألوف أيضا، أما الحديث عن الجماعة بالجمع والحديث عن المفرد الغائب بصيغة الغائب فهذا هو الذي عليه الناس في كل العالم، ولا يحتاج المرء لأي درجة من العبقرية ليفهم هذا الموضوع[62].

التقديم والتأخير

ويندرج تحت الفهم الطبيعي للقرآن البعيد عن التراكيب البلاغية المعقدة: مسألة التقديم والتأخير، حيث أننا رأينا الكثير من السادة المفسرين يقولون بالتقديم والتأخير في تركيبة الجملة القرآنية، لمجرد أن هذا يخالف المعهود عندهم أو لوجود بعض الروايات الإسرائيلية في هذا الشأن، فأصبح النص القرآني غير قائم بذاته بل هو تبع لأشياء عدة من عقل وروايات وخلافه، فيُقدم ويؤخر بلا معيار ثابت، وهذا طبعا يزيد من صعوبة فهم النص أن ندعي أن النص به تقديم وتأخير بلا دليل.

[61] سنعرض لهذا الأمر بتفصيل أكبر عند الحديث عن خلق الإنسان.

[62] أرجو أن لا يعتقد البعض أننا ندعو إلى تقديس الملائكة، فهذا القصد لم يخطر لنا على بال، فالملائكة عباد مكلفون مختارون مثلنا تماما، ولكنهم قاموا بأدوار في حياتنا ولا يزالون، فلا يصح أن نبخسهم حقوقهم.

وما نود الإشارة إليه هنا هو أن التقديم والتأخير في القرآن غاية في الوضوح، ويفهم كل إنسان من السياق أن في الآية تقديم أو تأخير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة, ٥]، فقد قدّم المفعول به إياك على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية قلم يقل (إيانا اهد) كما قال في الأولين، وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يُعبد أحد غيره ولا يستعان به. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [سورة الزمر, ٦٦] وقوله: ﴿... وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [سورة البقرة, ١٧٢]، فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿... أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [سورة الشورى, ٥٣]، لأن المعنى هو أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [سورة الغاشية, ٢٥-٢٦]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله وهو نظير قوله تعالى: ﴿... إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ۝٣٦﴾ [سورة الرّعد, ٣٦] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [سورة القيامة, ٣٠] فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب بعضهم، بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ۝٤﴾ [سورة يونس, ٤] وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾ [سورة الأنبياء, ٩٣] وغير ذلك من الآيات.

ونحن لا نود الحديث هنا عن أغراض التقديم أو التأخير،[63] فهي كثيرة ولكن كل ما نود قوله هو أن ما جاء في القرآن مقدما فهو مقدم وما جاء مؤخرا فهو آخر، ولا يصح

---

(63) من أشهر أسباب التقديم والتأخير غير المنتظمين: الأول: الاضطرار. وذلك مثلما يضطرّ الشاعر التزاماً بالرويّ والوزن والقافية، أو كما يضطرّ الخطيب الذي يهتم بالسجع والتزويق على حساب المضمون، أو كما يضطرّ الناثر لنفس الغرض. وهو أمرٌ يدلُّ على العجز أو الحمق. ومن البُلغاء من عرف الناس بلاغته لتجاوزه الالتزام بذلك مقدّماً المضمون على الشكل. والخالق

بأي شكل أو حال أن نؤخر لفظا قدمه القرآن ونقول: "هذا وإن كان مقدما ولكنه من باب التقديم والتأخير" كأنه يراد القول أنه في الواقع كان ينبغي أن يؤخر! ولكن لنكتة بلاغية قُدم!، ولا يوجد في القرآن ما قُدم أو أخر من أجل نكتة بلاغية أو من أجل مراعاة رؤوس الآيات، بل كل لفظة قدمت فمحلها التقديم وكل لفظة أُخرت فمكانها التأخير، وعلينا نحن البحث لم قدم هذا ولم أخر هذا، لا أن نقلبهما!

ونود لفت انتباه القارىء أن التقديم الذي يرد في القرآن لا يغير المعنى ولكن يزيد فيه، فإذا قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [سورة الفاتحة ,٥]، فهذا من باب التقديم الملاحظ لكل ذي عينين، وسيفهم القارىء من هذه الكلمة أننا نعبد الله، فهل يعد هذا الفهم خاطئا؟ لا يُعد هذا الفهم خاطئا، بل يعد ناقصا، لأنه يضاف لهذا الفهم أننا نعبد الله فقط ولا نعبد سواه، فالتقديم يفيد الحصر والاختصاص بخلاف الحكي العادي، فإذا قلتُ "أعبدك" فهذا لا ينفي أنني أعبد غيرك معك، أما إذا قلت "إياك أعبد" فهذا يعني أنني لا أعبد سواك. إذن فالتقديم والتأخير في القرآن لا يغير المعنى المفهوم بل يعطيه بعض الزيادات كما يقال، أما المعنى الأساسي المفهوم فهو كما هو. وبطبيعة الحال هناك الكثير من الأمثلة التي قال فيها السادة الفقهاء بالتقديم والتأخير لمجرد مخالفة ذلك لفهمهم هم بعض الروايات الصحيحة أو لوجود بعض الإسرائيليات التي قالت شيئا آخر.

تعالى منزّهٌ عن كلّ ذلك. الثاني: السهو والنسيان أو عدم الإدراك أو العجلة في الكلام ممَّا يؤدّي إلى تغيير الترتيب، وكل ذلك مرجعه إلى القصور والعجز. والخالقُ تعالى منزّهٌ عن كلّ ذلك. الثالث القصد تلاعباً بالألفاظ للإبهام أو الإيهام أو التمويه أو السخرية أو لإخفاء أمر أو إظهار ما لا شأن له أو لتزوير حقيقةٍ أو إبطال حقٍّ.. وكلُّ ذلك مرجعه إلى الحيلة التي يحتّمها العجز أو التهاون في قول الحقّ. وكلُّ ذلك منزّهٌ عنه الخالق سبحانه وتعالى عمّا يصفون. فهل يمكن القول أن الله قدم أو أخر من أجل سبب من هذه الأسباب؟

انعدام الزيادات في القرآن

ويترتب على القول بدقة النص القرآني ومخالفته لكتابات البشر، الإيمان الجازم بانعدام الزيادات في القرآن. وهذه بدهية مفترضة فيمن يؤمن بألوهية مصدره، إلا أنه من الطوام الكبرى التي قال بها المفسرون، أنهم قالوا بوجود زيادات في القرآن، ولولا الملامة لقالوا أنها حشو!، ولعجزهم عن فهم النصوص بسبب الخطأ في اتباع المنهج من أوله قالوا بوجود زيادات –لا تغير المعنى ويمكن حذفها في غير القرآن–، ولهذا القول نماذج كثيرة عند السادة المفسرين في القرآن!، ونذكر هنا أشهر نموذج للقول بالزيادة وهو القول بزيادة "لا" في عدة مواضع، أشهرها قوله تعالى "لا أقسم".

والناظر يجد أن هذا التعبير ورد في القرآن ثمان مرات هي: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [سورة الواقعة, ٧٥]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾ [سورة الحاقة, ٣٨]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [سورة المعارج, ٤٠]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [سورة القيامة, ١]، ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [سورة القيامة, ٢]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ [سورة التكوير, ١٥]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾ [سورة الانشقاق, ١٦]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [سورة البلد, ١].

وهذه الطامة نبعت من عنصرين: القول بالترادف، وقبول وجود زيادات في القرآن! ونذكر للقارىء كيف فسر السادة المفسرون هذه الآيات، ونذكر ما قاله الإمام الطبري في تفسير هذه الآيات كنموذج، حيث قال ما نصه: "وقوله: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) فقال بعضهم: عُنِي بقوله: (فَلا أُقْسِمُ): أقسم. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن ابن جُرَيج، عن الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير (فَلا أُقْسِمُ) قال: أقسم. وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: (فَلا) فليس الأمر كما تقولون ثم استأنف

القسم بعد فقيل أقسم وقوله: (بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فلا أقسم بمنازل القرآن"اه

إذا فالسادة المفسرون على بكرة أبيهم يرون أن المراد من "لا أقسم" هو "أقسم"، و"لا" هنا زائدة، أو أن "لا" ليست زائدة ولكنها تنفي ما قبلها –وإذا لم يكن هناك سابق؟!–، ويبدأ الكلام ب "أقسم"، وفي كلتا الحالتين هي بمعنى أقسم. ونحن نرفض قولهم هذا، فإذا قال الله تعالى "لا أقسم"، فمعناه لا أقسم وليس "أقسم" وليس أي شي آخر، ف "لا أقسم" بمعنى أن هذا الأمر أكثر من عظيم وعلى الرغم من عظمته فأنا لا أقسم به، وهذا الرأي عند السادة الفقهاء والمفسرين مرجوح، لأنه غير ما رجحه الأقدمون، على الرغم من أن العقل والسياق يرجحانه! إذا لا يُقبل وجود ما يُسمى بالزيادة في القرآن، ولا تقتنع بمن يقول لك هذا، فكل حرف له مكانه ومكانته ودوره ووظيفته التي لا يمكن أن يستغنى عنها[64].

---

[64] الحق يقال أن الآية الوحيدة التي قد تبدو مخالفة لما نقول به هي قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٢]، فقد يرى البعض أن "لا" لا بد أن تكون هنا زائدة لا محالة؟ ونقول: كانت هذه الآية تسبب لي إشكالا كبيرا، إلى أن حله لي الأستاذ عالم سبيط النيلي حيث قال في هذه الآية ما نصه:" في قصة السجود ثلاث مراحل مختصرة والآيتان كلّ منهما في مرحلة منها. ويتوجب معرفة العلاقة بين الفعل (منع) وبين عمل (لا). فلو قلت لك: (ما منعك أن تزورني) فإني أشتهي منك أن تعتذر لأني أسأل عما منعك عن الزيارة، فلم أقم بنفي الزيارة وإنّما أسال عن المانع، لأنك إذا كنت ترغب في زيارتي بأدنى حدٍّ ممكنٍ فذلك كاف لأجعلك تزورني كلّما سألتك عن المانع. وحينما أقول: (ما منعك أن لا تزورني) فإني أجعل الزيارة منتفية في داخلك ولا أسألك عن مانع خارجي بل أسألك الآن بالضبط عن سبب عدم رغبتك في زيارتي، لأن (لا) تنفي الكليات فهي تنفي السجود في الواقع وفي النوايا. ألا ترى التلطّف في قوله تعالى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)، وهذا في مرحلةٍ سُميت في مبحثنا مرحلة الطين، أو مرحلة سورة صاد. وانظر إلى الأسلوب كيف تغيّر وانظر إلى المراحل كيف ذكرت واكتملت وانظر إلى تسميته. فقد سمي الآن (آدم) بخلاف تلك المراحل وهي المرحلة النهائية والتي سميت مرحلة الآدمية أو مرحلة الأعراف أو البقرة: (ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين). في البقرة التعقيب على هذه المرحلة: (إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) (قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) والعلاقات اللفظية هنا كثيرة جداً ومتشابكة لا يسعها هذا الموضع، والخلاصة أنّه في المرحلة النهائية يسأل عن سبب عدم السجود لا عن مانع السجود ليقرّ الإقرار الأخير بكونه مستكبراً لا غير. ومعلوم أن كلّ ذلك لا يتمّ بدقةٍ ما لم تعلم أن (المانع) يكون أحيانا هو (الدافع) بالمعنى الداخلي المتعلق بالنوايا، ولا يتمّ أبداً إذا تخيلت أن الفعل (منع) لا يعمل إلاّ في خارج النفس."اه

ويمكن التوفيق بكل سهولة بالقول أن "منع" من أفعال الأضداد فهي تأتي بالمعنى وضده، وأستعملت هنا بضد معنى المنع وهو الدفع.

كان هذا عزيزي القارىء أشهر موطن قالوا فيه بالزيادة، بيّنا لك أنه ليس بزائد وإنما هو ضروري حتمي لفهم الآيات، وما يقال في هذه الآيات يقال في باقي القرآن.

القرآن وحدة واحدة

ويترتب على إيماننا بدقة القرآن أن ننظر إلى القرآن على أنه وحدة واحدة، أو موضوع واحد يصدق أوله آخره، ويجب أن ننظر إلى سور القرآن على هذا الأساس، فسور القرآن ليست مجرد تجميع للآيات، لا يجمعها رابط، بحيث يكون لكل آية وجهة مخالفة لما قبلها، فالقرآن ليس نموذجا للنص الفوضوي، كما يدعي أعداء الإسلام وغير المتدبرين في القرآن، وإنما سوره كلها وحدة واحدة، تناقش موضوعا واحدا من زوايا عدة، ومن يناقش موضوعا فإنه يعرض عددا من العناصر، التي تصب في نهاية المطاف في نطاق هذا الموضوع.

ولقد غفل السادة المفسرون فيما مضى عن هذه النقطة بشكل كبير، فلم يهتموا بالسياق الخاص الذي وردت فيه الآية ولا المنظور العام للسورة، فقدموا أفهاما عجيبة، نجزم بخطأها، لمخالفتها السياق وموضوع السورة. وقد ظهرت في عصرنا الحديث بعض التوجهات لتفسير القرآن تفسيرا موضوعيا، وإبراز الوحدة الموضوعية للسورة، إلا أن الكتابات في هذا الجانب لا تزال قليلة.

وبخلاف اتصال الآيات داخل السورة الواحدة، فإن السور نفسها تتصل ببعضها بعضا، بحيث تشكل عقدا متلألأً، لا يمكن فرط حباته، يبين جازما أن ترتيب هذا الكتاب من عند الله، لاتصال وارتباط مواضيع السورة التالية بالسابقة لها، ولإكمالها ما ورد فيما سبقها.

ولأن القرآن من عند الله، وليس فيه أي اختلاف، نجد أن الآيات التي تؤدي دورا معينا كعنصر داخل سورة، تلعب دورا آخر في تصديق غيرها في باقي السور، وفي إكمال

التصور عن هذا الموضوع في كامل القرآن. فقد يطرح الموضوع في عدة سور أو في سورة واحدة، لذا لا يجوز أن نفهم القرآن فهما مجتزئا فنخرج بأحكام مبتورة، بل لا بد من تتبع هذا الموضوع في القرآن كاملا حتى نصل إلى التصور الشامل الذي يطرحه القرآن في هذا الشأن.

3– عدم الحاجة إلى علم أسباب النزول

ويترتب على إيماننا بمصدر القرآن الإلهي، القول بأنه كتاب مطلق، ومن ثم لا يُحتاج في فهمه إلى علم أسباب النزول. وأنا أعلم أن هذا القول سيثير الكثير من القراء، وخاصة الأخوة العلماء وطالبي العلم، الذين يروون أن هذا العلم ضروري لمعرفة المراد من آيات القرآن!، فربما يقرأ الإنسان الآية ولا يعرف السبب التي نزلت فيها فيخطأ في فهما فيضل ويضل![65].

ولاعتمادهم على أسباب النزول في فهم الآيات ذكر الإمام الواحدي في مقدمة كتابه أسباب النزول كلمة، توضح أهمية هذا العلم عندهم، فقال: "غير أن الرغبات اليوم عن علوم القرآن صادفة كاذبة فيها، قد عجزت قوى الملام عن تلافيها، فآل الامر بنا إلى إفادة المبتدئين المتسترين بعلوم الكتاب، إبانة ما أنزل فيه من الاسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الاسباب، وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار (...) حدثنا أبو عمير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن. وأما اليوم فكل أحد

[65] ألا يلاحظ القارىء أن نص القرآن أصبح مصدر ضلال كبير، إذا اعتمدناه كما هو؟!، فلا بد من الرجوع إلى مراجع عدة فيها الصواب في فهم كتاب الله إلا كتاب الله!

يخترع شيئا ويختلق إفكا وكذبا ملقيا زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب، لينتهي إليه طالبو هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب، ويجدوا في تحفظه بعد السماع والطلب " اهـ.

فهاهو الإمام يرى أن علم أسباب النزول ضروري في فهم الآيات حتى تُفسر تفسيرا سليما، وبغير هذا العلم قد يضل المرء في فهم المراد من القرآن، ولكنا نحن نقول للإمام: هذا العلم لا ضرورة له في فهم القرآن.

ولزاما أن نوضح للقارىء لم قلنا بهذا، حيث أن هذا العلم خاصة، أدى بسبب سوء التعامل مع معطياته إلى إدخال القرآن في أنفاق مظلمة، وإلى القول بنسخ الكثير من الآيات القرآنية وأدى إلى دخول القرآن النفق المظلم المسمى "النص التاريخي" وأدى في الغالب إلى فهم القرآن فهما خاصا وليس عاما. ونحن كلنا كمسلمين نرفض أن يكون القرآن محددا لزمان أو لمكان معينين، بل نؤمن تماما الإيمان أن القرآن كتاب خالد غير مقيد، ولكن للأسف تُعومل مع هذا العلم تعاملا مقلوبا، فأدى ذلك إلى نواتج وخيمة.

قد يسأل سائل: هل تقصد أنه لا يوجد أي سبب لنزول الآيات، وأنها كلها مطلقة ويجب أن تُحمل على ذلك؟ نقول: لا بطبيعة الحال نحن لا نقصد ذلك، فهناك بعض الآيات التي وردت في القرآن ولا بد من فهمها فهما تاريخيا –لا يمنع ذلك من استخراج الأحكام والعبر منها–، مثل تحريم النبي(ص) على نفسه ما أحل الله له ابتغاء مرضات أزواجه، ومثل عتابه على تصرفه في غزوة بدر، ومثل التشريعات الخاصة بأزواج النبي(ص) ومثل الآيات الواردة في صدر سورة التوبة، وبعض الآيات الأخرى القليلة المرتبطة بأحداث جرت في عهد النبي، فجاءت تمثل الجزء التاريخي الصغير في القرآن، تعليما للمسلمين وتمجيدا لهذه الشخصيات عن طريق سرد هذه الأحداث في كتاب الله عز وجل، وبداهة يُستخرج من كل هذه الوقائع الأحكام الشرعية.

إذا فنحن نقر أن هناك آيات لها سبب نزول وهي قلة قليلة جدا بالنسبة لآيات القرآن، إلا أنه لنا وقفة مع هذه الآيات التي اعترفنا أن لها سبب نزول ونسأل: هل عدم معرفتنا سبب النزول في هذه الآيات يؤثر في فهمنا لها، فيؤدي بنا إلى الفهم الخاطيء للآيات؟ بطبيعة الحال لم ولن يختلف ولن يؤثر معرفة السبب على فهم الآيات، فإذا نحن قرأنا مثلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [سورة التحريم, ١] ماذا سنفهم منها؟ سنفهم منها أن النبي حرم على نفسه أشياءا ابتغاء مرضات أزواجه، وسواء كان هذا الشيء المحرم هو مارية القبطية ابتغاء مرضات حفصة بنت عمر أو العسل ابتغاء مرضات عائشة وحفصة، فهذا لن يغير من الفهم شيئا، حيث أن الآية مفهومة بذاتها.

وإذا نحن قرأنا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [سورة الأنفال, ٦٧-٦٨] سنفهم منه أن الله عز وجل يعاتب النبي(ص) على أخذ الأسرى قبل الإثخان في الأرض، فإن ديدن الأنبياء –عامة وليس هو فقط– أن يكثروا من قتل المشركين ليكسر شوكتهم ويظهروا لهم قدر المسلمين قبل أن يبدأ في أخذ الأسرى، ابتغاء عرض الدنيا.[66]

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾ [سورة المسد, ١-٣] ماذا سنفهم من ذلك؟ سنفهم من

---

[66] سبب النزول المشهور في هذه الآية –عند أهل السنة– هو أن النبي(ص) كان له أسرى ولكنه بدلا من أن يقتلهم، أخذ منهم الفداء، نزولا على رأي أبي بكر ومخالفا لعمر، وهو سبب نزول موضوع حتما لمخالفته السياق ولا يتفق مع آية محمد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤﴾ [سورة محمد, ٤] التي توضح كيفية التعامل في الحرب، وذلك يكون بالإثخان أي شدة التقتيل ثم بعد ذلك أخذ الأسرى، والتعامل مع الأسرى يكون إما منا وإما فداءا. وينكر الشيعة سبب النزول هذا، ويعدونه تقولا على النبي(ص).

ذلك أن هناك شخصا ثريا اسمه أبو لهب لن ينفعه ماله وما كسب وسيدخل النار، أما كونه عم النبي فلن يغير من الفهم شيئا.

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١﴾]سورة التوبة ,١[وما بعدها من الآيات لفهمنا أن المسلمين كانوا على عهد مع المشركين، وأن هؤلاء المشركين أخذوا في نقض عهودهم، فأمهلهم الله عز وجل فرصة أربعة أشهر يسيحون في الأرض، وبداهة لا يدخل في هؤلاء من لم ينقض العهد أو يحالف من نقض العهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤﴾]سورة التوبة ,٤[فهؤلاء يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، فالآيات بحد ذاتها مفهومة ولا حاجة لنا في فهمها إلى أسباب النزول.

هذه بعض آيات من قلة قليلة جدا في القرآن لها سبب نزول، أما ما بخلاف ذلك من آيات الأحكام والآيات الكونية فلا سبب لنزولها بل هناك مناسبة لنزولها، وشتان ما بين الاثنين، فسبب النزول في غير هذه الآيات القليلات وما شابها واحد، وهو حاجة الناس، في هذا الزمان وفي كل زمان وفي هذا المكان وفي كل مكان، إلى هذا التشريع وإلى هذه الآيات.

نماذج لتأثير أسباب النزول على فهم النص

ولننظر في كيفية التعامل من السادة المفسرين مع النص القرآني وكيف أنهم أدوا بنا إلى هذا المأزق، وسيكون الاقتباس في هذا الموضوع من كتاب أسباب النزول للواحدي: ونبدأ هنا بآية في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ

إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾] سورة البقرة, ١٤٢[حيث قالوا "نزلت في اليهود وذلك أن الرسول (ص) لما قدم المدينة صلى ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس وكان يريد الصلاة إلى بيت الله الحرام فأنزل الله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ... ﴿١٤٤﴾] سورة البقرة, ١٤٤[إلى آخر الآية، فقال السفهاء من الناس وهم اليهود: ﴿... مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ... ﴿١٤٢﴾] سورة البقرة, ١٤٢[، قال الله تعالى "قل لله المشرق والمغرب" الآية. فهذه الآية وعلى الرغم من أنها لا تحتوي أي حكم شرعي إلا أني آثرت ذكرها هنا، لأن فيها نموذجا خطيرا في فهم القرآن، فالآية قالت "سيقول السفهاء"، والرواية قالت: "فقال السفهاء"، وهذا يعني أن الآية نزلت قبل قول اليهود فهي تحكي عن قول مستقبلي والرواية جعلت الآية رد فعل! مع أن قول اليهود وغيرهم كان رد الفعل وليس الآية، مع أن ما صدر عنهم كان تصديقا للقرآن من أنهم سيقولون وليس أنهم قالوا. والطامة العظمى بجانب ذلك في الفهم، حيث أن المسلم إذا قرأ هذه الآية انصرف ذهنه مباشرة إلى اليهود، مع أن الآية عامة والسفهاء من الناس إلى قيام الساعة، سيستخدمون هذه الواقعة في الطعن على المسلمين في دينهم، وهذا ما نراه حتى الآن على صفحات الشبكة المعلوماتية وعلى صفحات الكتب التي تشكك في الدين الإسلامي الحنيف. فأدت الرواية إلى تضييق الفهم.

ونأتي إلى الآية الشهيرة التي يستدلون بها على أهمية علم أسباب النزول، وأنه عصمة للأقدام من الزلل في فهم القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾] سورة البقرة, ١٩٥[. حيث قالوا في سبب نزولها: "نزلت في الانصار، أمسكوا عن النفقة في سبيل الله تعالى، فنزلت هذه الآية وبهذا الإسناد عن هشيم حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن عكرمة قال: نزلت في النفقات في سبيل الله." ويرون حادثة متعلقة بها وهي: "أخبرني الحكم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصففنا لهم صفا عظيما من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا مقبلا، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الانصار، إنا لما أعز الله تعالى دينه وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به، فقال –وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة– في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال فنصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازيا في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل."اهـ.

فنقول في الرد على هذه الرواية: أولا: هذا ظن من أبي أيوب حيث أنه يرى أن هذه الآية نزلت في ذلك، وقد يرى غيره أنها نزلت في غير ذلك فكل ينظر إلى الأمر من وجهة نظر معينة، فهذا معتقده ولكن لا دليل على ما يقول. ثانيا: على الرغم من أن هذا مجرد رأي من أبي أيوب، إلا أننا نتفق معه بعض الاتفاق فيما ذهب إليه، بدون علم سبب النزول، لم؟ لأن هذا ما قالته الآية فالآية تقول: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [سورة البقرة, ١٩٥]، فيفهم بداهة أن المراد بإلقاء النفس إلى التهلكة متعلق بالمال أيضا، ويكون ذلك بعدم الإنفاق في سبيل الله –كما فهم أبو أيوب–، ويكون كذلك بإنفاق الأموال سفها وفيما لا يجدي وبالإسراف، فهذا منطوق ومفهوم الآية البدهي، الذي لا يحتاج إلى معرفة سبب نزول أو خلافه. ثالثا: كما قلنا من قبل أن آيات القرآن يجب أن تفهم على عدة مستويات، فلا حرج ولا مانع من أن تفهم هذه الجملة كجملة مستقلة عن سابقتها، أي كأمر عام بعدم إلقاء النفس إلى التهلكة، فيمكن أن تستخدم في أي موقف فيه إلقاء النفس في التهلكة. ونحن نعيب عليهم استعمالهم هذه الجملة مع رجل يحمل على العدو في سبيل الله، فهو إما قاتل وإما شهيد، فكيف يكون ألقى

بنفسه إلى التهلكة؟ أما أن أرى إنسانا يقفز أمام القطار مثلا فلا مانع ولا حرج من القول "ألقى بنفسه إلى التهلكة".

وإلى نموذج آخر متعلق بحكم شرعي وهو قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ... ﴿٢٥٦﴾﴾]سورة البقرة, ٢٥٦[حيث قالوا في سبب نزول هذه الآية: "عن ابن عباس قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى –لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي". وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان له غلام أسود يقال له صبيح، وكان يكرهه على الإسلام. وقال السدى: نزلت في رجل من الأنصار يكنى أبا الحصين، وكان له ابنان، فقدم تجار الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا وخرجا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اطلبهما، فأنزل الله عز وجل –لاإكراه في الدين– فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبعدهما الله هما أول من كفر" قال: وكان هذا قبل أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال أهل الكتاب، ثم نسخ قوله –لا إكراه في الدين– وأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة." اهـ

ونجد أن أسباب النزول الواردة في هذه الآية تؤيد منطوقها وعمومها، فالآية تقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴿٢٥٦﴾﴾] سورة البقرة, ٢٥٦[، فيفهم منها أنه لا إكراه في الدين بأي شكل من الأشكال، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فليس لنا أن نكره الناس على الدخول في الإسلام، كما في الرواية الثانية عن مجاهد، وليس لنا أن نحولهم من دين إلى دين، وليس لنا أن نردهم إلى الإسلام إذا ارتدوا عنه، فلا يوجد حد لمجرد الردة كما يعتقد البعض!

ونظرا لأن الرواية الثالثة تؤيد هذا الفهم والقول، تفضل السيد مؤلف الكتاب بالتوضيح أن هذا كان قبل أن يؤمر بقتال أهل الكتاب، ولست أدري حتى على فهمه، ما العلاقة

بين قتال أهل الكتاب وإجبار الناس على عدم العودة إلى الإسلام؟! وعلى حد علمي لم يوجد أي عالم يقول أنه يجب على المسلمين إجبار أهل الكتاب على الدخول في الإسلام!

وبطبيعة الحال أُهملت الرواية الأخيرة كسبب نزول، وصار المشتهر من الروايات هو الرواية الأولى والثانية لأنها توافق الرأي الذي قال به الفقهاء من وجوب قتل كل مرتد، أما منطوقها فمخالف لهم، فحتى الروايات الواردة في أسباب النزول أهمل جزء منها،- طبعا هي موجود في الكتب ولكن لا يشار إليها فأنا مثلا لم أسمع بهذه الرواية عندما كنت صغيرا- كأن النص القرآني ينقصه التخصيص. فهذا الفهم المعتمد على بعض الروايات الواردة في سبب النزول يؤدي إلى القول بتخصيص النص القرآني وهذه طامة عظمى، أن نخصص ما عممه الله.

والمشكلة أن السادة الفقهاء لا يفرقون بين الخروج من الدين والخروج على الدين، فالخروج من الدين ليس له عقوبة دنيوية بل له عقوبة في الآخرة فقط. ﴿... وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [سورة البقرة, ٢١٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [سورة المائدة, ٥٤]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [سورة آل عمران, ١٤٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [سورة النساء, ١٣٧]

فالقرآن تحدث عن المرتد ولم يذكر له عقوبة دنيوية ولكن توعده بالعذاب في الآخرة، وتأمل في آية النساء حيث تذكر أن هناك أناسا ءامنوا ثم كفروا ثم ءامنوا ثم كفروا،

ولو كان هناك ثمة عقوبة للمرتد لما حدث هذا، ولكن لما كان هناك حرية دينية في الإسلام فقد دخل بعض ضعاف النفوس في الدين ثم خرجوا ثم عادوا فدخلوا ثم خرجوا فتوعدهم الله بالعذاب في الآخرة، ولم يذكر لهم أي عقاب دنيوي.

أما الخروج على الدين والطعن فيه فهو الذي له عقوبة وهي القتال والقتل، ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [سورة التوبة ,١٢]

فترك الفقهاء الآيات الكثيرات الواضحات وأخذوا بعموم الحديث الذي رواه البخاري: "... مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"، مع أنه لا يمكن أن يكون عاما، فهل إذا أصبح اليهودي مسلما نقتله؟ أم إذا أصبح النصراني يهوديا نقتله؟

هذا لا يقول به أحد، وتركوا قوله صلى الله عليه وسلم المخصص لهذا الحديث والذي رواه البخاري كذلك "... وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ"، فهذا الذي يقام عليه حد الردة ويقتل ولو تحصن يُقاتَل، وهناك العديد من الأحاديث التي تنهى عن قتل المرأة المرتدة وهي تطابق القرآن، فهذا يوضح أن العبرة بالخروج على الدين وليس بالخروج من الدين.

ثم كيف يعيب الإسلام على المشركين اضطهادهم للمسلمين بسبب خروجهم من دينهم ثم يفعل هو نفس الشيء؟ ألا يعد هذا من باب "اتمسكن لحد ما تمكن!"، ولا يصح التحجج بأننا الدين الحق، فما من دين إلا ويرى أصحابه أنهم أصحاب الدين الحق، وهذا لا يعطيهم الحق في إكراه أي إنسان على البقاء معتنقا لدينهم. ثم لمَ لمْ يوضح القرآن أو الرسول كيفية تطبيق الحد وكيفية الاستتابة؟

فنحن نجد أنه لعدم الدليل قال بعض العلماء باستتابة المرتد أبدا وقال بعضهم لا يستتاب بل يُقتل فورا، وقال بعضهم يستتاب ثلاثة أيام فإن لم يتب قُتل، وكلها

اجتهادات لا دليل على صحة أيها لعدم الدليل أساسا، والموضوع طويل ويحتاج إلى زيادة توضيح ولكن نكتفي بهذا القدر، والله أعلم.

ونأتي إلى آية أخرى، نعرض كيف فسرها السادة المفسرون بسبب سبب النزول، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾]سورة النساء, ١٩[حيث قال الإمام الفخر الرازي في تفسيرها: "اعلم أنه تعالى بعد وصف التوبة عاد الى أحكام النساء، واعلم أن أهل الجاهلية كانوا يؤذون النساء بأنواع كثيرة من الايذاء، ويظلمونهن بضروب من الظلم، فالله تعالى نهاهم عنها في هذه الآيات. فالنوع الأول: قوله تعالى: ﴿... لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ... ١٩﴾]سورة النساء, ١٩[وفيه مسألتان: المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: كان الرجل في الجاهلية اذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال: ورثت امرأته كما ورثت ماله، فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها، فان شاء تزوجها بغير صداق، إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من إنسان آخر وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن ذلك حرام وأن الرجل لا يرث امرأة الميت منه، فعلى هذا القول المراد بقوله: ﴿... أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ ... ١٩﴾] سورة النساء, ١٩[عين النساء، وأنهن لا يورثن من الميت. والقول الثاني: ان الوراثة تعود الى المال، وذلك أن وارث الميت كان له أن يمنعها من الأزواج حتى تموت فيرثها مالها، فقال تعالى: لا يحل لكم أن ترثوا أموالهن وهن كارهات " اهـ.

فانظر أخي القارىء كيف انحرف فهم كتاب الله، لورود رواية تقول أن العرب كانوا يفعلون كذا وكذا في الجاهلية، وبغض النظر عن وقوع هذا في الجاهلية أو عدمه، فكل ما نريد قوله هو أن التشريع القرآني تشريع خالد غير مرتبط بزمان أو مكان، ونزل

لمصلحة الناس جميعا، ويجب علينا أن نفهمه كما هو لا كما تقول الروايات، فبسبب هذه الرواية التي أدت لهذا الفهم من السادة المفسرين وجعلت مفسرا من كبار مفسري الرأي مثل الفخر الرازي يقول ذلك، وقد تؤدي رواية كهذه إلى أن يخرج علينا يوما أحد أعداء الإسلام قائلا: إن الإسلام يعامل المرأة كالمتاع فهو يجيز أن تورث بإرادتها، فإذا قال القرآن: ﴿... لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ... ١٩﴾]سورة النساء, ١٩[فهذا يعني أنه يحل لكم أن ترثوهن طوعا!

وبداهة فإن القرآن لم يقصد ذلك، ولم يكن هذا الفهم ليتأتى لذهن أي مفسر لولا هذه الرواية، ولننظر إلى تفسيره في آخر سورة النساء حيث قال الله تعالى: ﴿... وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ... ١٧٦﴾ [سورة النساء, ١٧٦] فقال "يعني أن الأخ يستغرق ميراث الأخت إذا لم يكن للأخت ولد، إلاّ أن هذا الأخ من الأب والأم أو من الأب، أما الأخ من الأم فإنه لا يستغرق الميراث" اهـ

فلم يفهم من قوله تعالى "يرثها" ذلك المعنى المعوج لعدم الرواية، فانظر أخي في الله كيف أثر سبب النزول في فهم الآية.

ونأتي إلى آية أخرى فُهمت فهما خاطئا تماما بسبب فهم العلماء لسبب النزول، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥﴾ [سورة الإسراء, ٨٥] حيث قالوا في سبب نزول هذه الآية: "قال عكرمة عن ابن عباس: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت هذه الآية. وقال المفسرون: إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله سلوا محمدا عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، فإن أصاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك فليس نبيا، وإن أجاب في بعض وأمسك عن بعضه فهو نبي فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية: "أم حسبت أن أصحاب الكهف– إلى آخر القصة، ونزل في الروح قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح."اهـ

فقد فهم السادة العلماء أن المراد من "الروح" المسؤول عنها هنا، الروح التي تكون في داخل الإنسان. ولست أدري من أين جاؤا بهذا الفهم أن بداخل الإنسان روحا، مع ملاحظة أن القرآن لم يقل أبدا أن الإنسان بداخله روح بل يقول دوما أن بداخله نفس! وعند الموت تخرج النفس وليس الروح، والآيات في هذا كثيرة منثورة في القرآن، ومن وجد أي ذكر للروح مع الموت أو الحياة في القرآن فليخرجها لنا،[67] وحقيقة لست أدري لم انصرف ذهنهم إلى هذا الفهم دونا عن غيره من الاحتمالات في الفهم، ولم يسألوا أنفسهم مرة ما المعنى المراد من هذا السؤال، وما علاقته بكونه رسولا أم لا؟ ونقول لهم: الملاحظ أن اليهود أو المشركين سألوا عن "الروح" وليس أي روح، فيُفترض أن يكون هذا الروح معروفا، ويجب أن يكون وراء سؤالهم غرض ما؟ فما هو هذا الغرض؟

إذا نحن نظرنا إلى استعمال كلمة "الروح" –وليس "روح"– في القرآن، وجدنا أنها تدور على معنيين اثنين فقط هما: الوحي والملائكة –حملة الوحي–، فعلى أي منهما ينبغي علينا أن نفهم هذا "الروح" في هذه الآية؟ نقول: الذي نراه أن المراد من "الروح" هنا هو الوحي أي القرآن، والدليل على ذلك أن الله عز وجل قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الإسراء, ٨٥]، ونجد أن الله قال عن الوحي في آيات أخر: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [سورة النحل, ٢]، وقال أيضا: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [سورة غافر, ١٥].

ففي هذه الآيات كان الحديث عن الوحي ووصف دوما أنه "من أمر الله"، فالأولى أن تحمل الآية في الإسراء على هذا المحمل. ثم إذا نحن نظرنا إلى الآية التالية، وجدنا الله عز وجل يقول: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا

[67] طبعا عمدتهم في هذا الاعتقاد هو أن الله نفخ في آدم عليه السلام الروح فصار إنسانا، إذا فالروح هي سر الحياة وإذا خرجت يموت الإنسان، والروح نفخت في آدم بعد أن صار حيا، ولا علاقة لها بالموت أو الحياة، وسنزيد هذه المسألة تفصيلا عند الحديث عن خلق الإنسان.

وَكِيلًا ﴿٨٦﴾] سورة الإسراء ,٨٦[فهذا دليل على أن الكلام هنا على الوحي، فهنا تظهر العلاقة واضحة فالله يقول أن الروح من أمره، ولئن شاء لذهب به فهو ليس من عند محمد ولا يستطيع أن يفعل شيئا حيال ذلك. ويكون السبب في سؤال اليهود عن "الروح" لم هو، وما فائدته ما دامت التوراة موجودة؟ فقال الله على لسان محمد: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم في التوراة والإنجيل وغيرهما إلا قليلا، فكان لا بد من الروح.

فإذا حملنا الآية على هذا المحمل اتفقت مع مثيلاتها من الآيات، ويكون قد ظهر لنا غرض اليهود من السؤال، أما القول بأن اليهود كانوا يسألون عن الروح الذي (ليس) في الجسد، ليكون ذلك علامة على النبوة فلا معنى له.

مأزق التاريخانية

هذا الذي ذكرناه عزيزي القارىء هو غيض من فيض في مسألة أسباب النزول، ويكفي هذا العلم أنه خصص كتاب الله تخصيصا كبيرا، ونحن نعرف أن العلماء يقولون أن المقصود من أسباب النزول قد يكون في كثير من الأحايين مناسبة النزول، ولكن أنا لا أتكلم هنا عن العلماء بالدرجة الأولى، فأنا أعرف أنهم لم يقعوا في هذا الفخ كلية، بل نجحوا في الإفلات منه جزئيا فقالوا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وطبقوا ذلك في بعض الأحيان، ووقعوا في فخ التاريخانية والتخصيص في معظم الأحيان، ولكن الطامة الكبرى في العوام وحتى أنصاف المتعلمين الذين يقرأون أن سبب نزول الآية الفلانية كذا وكذا، ويقرأون لما كانت العرب تفعل كذا وكذا نزل قول الله تعالى كذا وكذا، أو لما فعلت اليهود كذا نزل قول الله تعالى ردا عليهم بكذا! فكيف لا يقع القارىء العادي في مأزق تاريخية النص؟

بداهة هو لا يعرف هذا المصطلح وربما لم يسمع به من قبل، ولكن هذا ما لا حظته من كثير من المتعاملين مع القرآن، من أنهم لا يشعرون أن القرآن معهم في هذا العصر بل هو كان فقط لذلك العصر الذي نزل فيه، وأحداثه مرتبطه بالعرب وبيئتهم، وإن هذا لعمري طامة كبرى تصرف الكثير من العوام أيضا عن القرآن، فقد كنت جالسا ذات مرة في المسجد بعد الصلاة أتلو الأذكار، فالتفت الإمام وبدأ في تفسير الآيات، وتكلم عن سبب النزول وكيف كان حال العرب وماذا كانوا يفعلون، فقلت في نفسي: كثقافة عامة هذا جيد أن يعرف الناس أحوال العرب القدامي، ولكن هل يُشعر هذا التفسير الناس بقرب القرآن منهم أم أنه يشعرهم أن القرآن في واد وهم في واد آخر؟ فالسامع من العوام يقول: أين نحن من هؤلاء، أحوالهم غير أحوالنا وزمانهم غير زماننا ما لنا ودنياهم؟

والطامة الكبرى أن الدعاة لا يربطون الآية بالواقع المعاصر بعد عرض سبب النزول – إذا كان سببا للنزول أساسا–، فيكتفون بسبب النزول، وللأسف لاحظت ذلك حتى مع بعض كبار الدعاة، فلو فعلوا لارتفع الحرج ولكنهم لا يفعلون، والأمر الأدهى من ذلك كله هو ربط الإسلام ببيئة معينة وزمان معين ومكان معين، ولو اقتصر الأمر علينا لقبلنا الأمر على مضض شديد، أما أن نعرض الإسلام على غيرنا بهذا الفهم المحلي فهذا ما لا يصح وما لا يجوز، فالدين يسير واسع عام وعلينا أن لا نخصصه بل نتركه كما هو، حتى يؤدي دوره كما أراد الله عز وجل له أن يكون.

هل ندعو إلى إلغاء أسباب النزول؟

وفي نهاية المطاف نقول: نحن لا ندعو إلى إلغاء علم أسباب النزول، ولكن كل ما أطلبه من السادة العلماء والدعاة هو أن يغيروا من اللفظ المستعمل، فيقولوا علم مناسبة النزول لا علم أسباب النزول، ومع مرور الزمن سيترسخ هذا المصطلح في

أذهان العامة، وصدقوني سيُغير هذا الفارق البسيط كثيرا جدا في فهم الناس، فالناس يأخذون انطباعاتهم من هذه الألفاظ البسيطة.

ونود أن نقول أيضا أن علم أسباب النزول له أهمية لمن يريد أن يدرس تاريخ القرآن وبداية نزوله وتدرج التشريع وما بخلافه، ونحن لا ندعو إلى إهماله، فالقرآن كتاب عزيز ولم ينشأ بجواره علم لا فائدة له، بل كل علم نشأ بجوار القرآن له فائدة، ولكن الصواب أن يوضع هذا العلم في مساره الصحيح، فنحن نرفض جملة وتفصيلا أن يكون لأسباب النزول أي دور في تغيير فهم الآية، فآيات القرآن واضحة بذاتها وسواء وجدت الروايات التي تتكلم عن مناسبة نزول الآيات أو حتى وجدت الروايات التي تتحدث عن سبب نزول بعض الآيات التاريخية –المرتبطة بحادثة معينة في زمن النبي(ص) مثل واقعة زيد وزينب لا الآيات التي تتعلق بالتاريخ–، فيجب أن يظل الفهم واحدا ويكون كل ما تفعله الروايات القادمة في مناسبات النزول أو أحيانا أسباب النزول هو الدور المتعلق بعلوم القرآن من تفصيل لتاريخ القرآن، فالقرآن كتاب يستحق كل عناية فلا بد –من باب التقدير وإنزاله منزله الذي يستحق– أن نعتني بالقرآن أشد العناية في جميع النواحي، ولكن بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى الطغيان على النص أو تحجيمه.

وبهذه الأسس التي طرحناها نستطيع أن ننطلق في تأويل القرآن تأويلا سليما، تقل فيه نسبة الخطأ قدر الإمكان وننطلق في حدود ما علمنا من أنواع القرآن ونتوقف فيما لا علم لنا به.

وبعد أن أعطينا هذا التأصيل التنظيري لكيفية التعامل مع القرآن، ونظرا لأن السنة تلعب دورا كبيرا في تأويل القرآن، وللأسف الشديد، لا يعرف القارىء كيفية التوفيق بين القرآن والسنة، لذا سنعرض هنا لكيفية التعامل مع السنة، وكيف تأول السنة القرآن.

الفصل الثالث: السنة وتأويل القرآن

للأسف الشديد يجد المرء نفسه مضطرا للاعتراف، أن من أقوى الأسباب التي جعلت العلماء يقولون بتفسير القرآن لا بتأويله هو فهمهم لدور السنة بالنسبة للقرآن، فبدلا من أن يجعلوا القرآن هو الحاكم والسنة تابعة له، قلبوا الآية فجعلوا القرآن محكوما بالسنة تابعا لها، وجعلوا القرآن أحوج إلى السنة من حاجة السنة للقرآن، كما قال الإمام الأوزاعي وغيره! مع أن القرآن كتاب مطلق صالح لكل مكان وزمان، أما السنة ففيها المطلق والنسبي والخاص والعام والمندوب والواجب، والسبيل الوحيد لتمييز ذلك وتحديده هو القرآن، وبرد الروايات إلى القرآن نعرف مطلقها من نسبيها وعامها من خاصها، ولكن للأسف قُلبت الآية فقُدمت السنة على القرآن، وأُسيء فهم العلاقة بين النصين، فكان لا بد من القول بالتفسير والنسخ والتخصيص وما شابه، لذا سنعرض فهمنا للعلاقة بين السنة والقرآن وكيف يسير الاثنان في مجرى واحد بلا تعارض ولا تخصيص ولا نسخ وخلافه، ونبدأ بتعريف السنة.

تعريف السنة

فنقول: السنة لغة: الطريقة المسلوكة، وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريقا. وقال الكسائي: معناها الدوام، فقولنا: سنة، معناها الأمر بالإدامة من قولهم: سننت الماء إذا واليت في صبه. وقال الخطابي: أصلها الطريقة المحمودة، فإذا أطلقت انصرفت إليها، وقد تستعمل في غيرها مقيدة، كقوله: من سن سنة سيئة. وقيل: هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: من سن سنة حسنة فله أجرها واجر من عمل بها إلى يوم القيمة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة".

وهي في اصطلاح الفقهاء والأصوليين وعلماء الكلام: تُطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة في مقابل البدعة فإنها تطلق على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة وربما استعملها الكلاميون بهذا الاصطلاح، كما تطلق في اصطلاح آخر لهم على ما يرجح جانب وجوده على جانب عدمه ترجيحا ليس معه المنع من النقيض وهي بذلك ترادف كلمة المستحب، وربما كان إطلاقها على النافلة في العبادات من باب إطلاق العام على الخاص، وكذلك إطلاقها على خصوص ما واظب على فعله النبي(ص) مع ترك ما بلا عذر كما جاء في بعض التحديدات.

السنة عند الأصوليين: وقد اختلفوا في مدلولها من حيث السعة والضيق مع اتفاقهم على صدقها على ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير. والتعريف الشهير لها هو: كل ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو عمل أو إقرار وهذا التعريف وإن كان فيه تعميم كبير ولكن يمكن قبوله، إذا فالخلاصة أن السنة هي فعل النبي(ص) أو قوله أو إقراره.

موقف السنة من القرآن

إذا سألنا السادة الفقهاء العلماء: ما موقف السنة بالنسبة للقرآن؟ فيقولون: أقسام الحديث بالنسبة للقرآن ثلاثة: "قال محمد بن المسرة: الحديث ثلاثة أقسام: فحديث موافق لما في القرآن فالأخذ به فرض وحديث زائد على ما في القرآن[68] فهو مضاف إلى ما في القرآن والأخذ به فرض وحديث مخالف لما في القرآن فهو مطرح"[69].

[68] نلاحظ أن الشيعة والأباضية والزيدية لا يقولون بزيادة السنة عما في القرآن بل هي تابعة له وهذا صحيح تماما، ولكن نظرا لأن الشيعة لم يشترطوا التطابق بين الروايات والنص القرآني وعلى الرغم من قولهم بهذا القول ظهرت عندهم روايات ما أنزل الله بها من سلطان، تخالف النصوص القرآنية ويتأولونها على أساس أنها مندرجة تحت النص القرآني!

[69] مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع.

إذا فالسنة عند معظم فقهاء السنة تستقل بالتشريع ويمكن أن نأخذ منها أحكاما بحل وحرمة لا وجود لها في القرآن، ولنتوقف مع كل نقطة من التي قالوها لنر هل هذا الكلام الذي يقولونه سوي أم أنه لا يصح، بخلاف أنهم أنفسهم خالفوه فلم يطبقوه، ولكننا سنبدأ بالعكس أي من النوع الثالث إلى الثاني ثم إلى الأول:

النوع الثالث: حديث مخالف للقرآن فهو مطرح. ولنسأل هؤلاء السادة، ما هو الحديث المخالف للقرآن؟ وبطبيعة الحال الحديث المخالف للقرآن هو الحديث الذي حرم أشياءا أحلها القرآن أو العكس أو أخبر بأخبار تناقض ما في القرآن. ولنسألهم: هل قاموا بفعل ذلك حقا، أي طرحوا الحديث المخالف للقرآن؟ الإجابة وللأسف البالغ أنهم قالوا شيئا وتحركوا في واد أخر تماما، فوجدناهم قالوا أن السنة المتواترة تنسخ القرآن وبعضهم قال أن خبر الآحاد ينسخ القرآن، واتفقوا جميعا على أن السنة تخصص القرآن!، أي أن السنة لها السلطة لتخصيص العام وتعميم الخاص وما بخلافه فتجعل العام خاصا والخاص عاما.

وأريد أن أسأل السادة الفقهاء العلماء أي فارق بين السنة الناسخة للقرآن أو المخصصة لعمومه أو المُعممة لخاصه وبين السنة المعارضة للقرآن؟ وكيف يريدون أن تأتي السنة المعارضة للقرآن لكي يردونها؟ هل يتوقعون أن يأتي الحديث المخالف للقرآن فيقول لهم: أنا لست ناسخا ولكني مخالف فردّوني!، فمن المعروف أن الحديث الناسخ للقرآن مخالف له، ولا فارق بينهما سوى أنه صح عندهم سندا فقبلوه متنا مع أنه معارض للقرآن!.

ونأتي إلى النوع الثاني وهو: "الحديث الزائد على ما في القرآن ولكنه ليس مخالف لما في القرآن" فقالوا أنه مضاف إلى ما في القرآن والأخذ به فرض، أي أن القرآن لم يكتمل فيه الحلال والحرام وأكملته السنة! وهذا النوع مرفوض كذلك، لأن هذا يناقض قوله تعالى: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام ,٣٨]، **فإذا كان القرآن لم يشتمل على كل المحرمات والواجبات فقد فرط فيه، ولا يغرنك**

قولهم: إن هذا وحي وهذا وحي فيكمل بعضهم بعضا بلا حرج. فلا معنى للتكملة إلا النقص، ولو كان المكمل وحيا أيضا، فالاكمال مقابل النقص لا محالة، والنقص محال على كتاب الله.

والنوع الأول وهو الحديث الذي جاء موافقا لما في القرآن فيجب الأخذ به ونحن نتفق معهم في أنه يجب الأخذ به، إذا كان موافقا لما جاء في النص القرآني منطبقا معه تماما التطابق. وللأسف البالغ أنكرت طائفة القرآنيين حجية السنة تماما وقالوا بكفاية القرآن. والناظر يجد أن القرآنيين مختلفون في قبول بعض السنة أو رفضها، فمنهم من يرفض الصلاة بالشكل الذي يصليها عامة المسلمين ويصليها بشكل غريب غير ما نصلي به، ومنهم من يقبل الصلاة بشكلها العادي ويرفض أن يكون للسنة أي دور بل يكتفي فقط بالقرآن، ولنر ما حجج هؤلاء ونرد عليها أولا لنثبت حجية السنة في تأويل القرآن ثم نعود لمناقشة هذا التقسيم العجيب[70].

حجج القرآنيين في إنكار السنة

1– القرآن يقيني والسنة ظنية. ويحتجون قائلين: "مشكلتنا نحن المسلمين أن علماء الحديث يؤكدون أن الأغلبية العظمى من الأحاديث المنسوبة للرسول الكريم هى أحاديث آحاد ويؤكدون أنها تفيد الظن ولا تفيد اليقين..ومع ذلك يأمرنا بعضهم باتباع الظن مع أن الظن لا يغنى من الحق شيئا.. هدانا الله إلى الطريق المستقيم..

ويلفت النظر أن الله تعالى وصف ذاته العلية بأنه الحق، ووصف إنزال القرآن بأنه أنزله بالحق، ووصف القرآن نفسه بأنه الحق.. وعن وصف القرآن بأنه الحق يقول تعالى:

(70) أود الإشارة أنني لم أقابل أحدا من القرآنيين ولم أفلح في العثور على أي موقع لهم على الشبكة المعلوماتية!، وكل ما وجدته هو كتاب "القرآن وكفى مصدرا للتشريع الإسلامي" للدكتور أحمد صبحي منصور، وهو ما نقلنا منه آراء القرآنيين.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ ... ٣١﴾ [سورة فاطر, ٣١]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ ... ٦٢﴾ [سورة آل عمران, ٦٢].

بل إن الله تعالى يصف الحق القرآني بأنه الحق اليقينى المطلق، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥﴾ [سورة الواقعة, ٩٥]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١﴾ [سورة الحاقّة, ٥١]. وجاءت الصيغة بالتأكيد..، فإذا كان الله قد أكرمنا بالحق اليقيني فكيف نأخذ معه أقاويل ظنية.. مع أنه لا مجال فى الدين الحق للظن؟؟

2– القرآن هو الحديث الوحيد الذى ينبغى الإيمان به. وصف الله تعالى القرآن بأنه حديث وتحدى المشركين أن يأتوا بحديث مثله فقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [سورة الطور, ٣٣-٣٤]

ووصف القرآن بأنه أحسن الحديث: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ... ٢٣﴾ [سورة الزمر, ٢٣]، فإذا أكرمنا الله تعالى بأحسن الحديث فكيف نتركه إلى غيره؟.

وأوضح رب العزة أن الصدق كله في حديث الله تعالى في القرآن: ﴿... وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [سورة النساء, ٨٧].

وتوعد الله تعالى من يكذب بحديثه فى القرآن: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾ [سورة القلم, ٤٤].

وأكد رب العزة أن الإيمان لا يكون إلا بحديثه تعالى فى القرآن الكريم فقال فى آخر سورة المرسلات: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾ [سورة المرسلات, ٥٠]، وتكرر نفس المعنى في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ

مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾]سورة الأعراف, ١٨٥[.

3– القرآن الكريم ما فرط فى شيء. بيان القرآن فى داخل القرآن، القرآن كتاب مبين فى ذاته، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَأبو ا وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾] سورة البقرة, ١٥٩-١٦٠[كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات أي التى لا تحتاج فى تبيينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكر والتدبر فيها. والذي جعل الكتاب مبيناً وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل: ﴿... بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ... ١٥٩﴾]سورة البقرة, ١٥٩[والقائل عن كتابه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾] سورة القمر, ٢٢[، و ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾] سورة مريم, ٩٧[.

4– القرآن هو صراط الله المستقيم وما عداه خروج عن الصراط المستقيم. في الفاتحة ندعو الله تعالى فنقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾] سورة الفاتحة, ٦[والصراط المستقيم هو القرآن الكريم، يقول تعالى عن كتابه الكريم: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾] سورة الأنعام, ١٢٦[.

ويقول تعالى يأمر باتباع القرآن الصراط المستقيم دون غيره: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾] سورة الأنعام, ١٥٣[. فالله تعالى أوصى باتباع القرآن صراطه المستقيم ونهى عن اتباع غيره من السبل حتى لا يقع المسلمون فى التفرق والابتعاد عن سبيل الله. وحدث ما حذر منه رب العزة فاختار المسلمون أحاديث نسبوها للنبى عليه السلام واختلفوا فى أسانيدها، وقام (علم الحديث) على تنقيح تلك الروايات

وتلك الأسانيد، وقوله تعالى "ولا تتبعوا السبل" أي لا تتبعوا الطرق، فالسبيل هو الطريق، ومن العجيب أن علماء الحديث يقيمون تلك الأسانيد وتلك الروايات على سلاسل و"طرق" فيقولون أن الحديث من "السلسلة" الفلانية، وأن تلك الرواية جاءت من "طريق فلان" أي أنهم حين تنكبوا الصراط المستقيم ونبذوه وقعوا فى اتباع السبل وتناسوا قول الله تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ... ﴿١٥٣﴾﴾]سورة الأنعام, ١٥٣[وتلك السلاسل والطرق التى قام عليها علم الحديث أوقعته فى تفرق واختلاف لا ينتهي، وصدق ما نبأ به كلام الله العزيز"اهـ.

الرد على حجج[71] القرآنيين

الرد على الحجة الأولى: هم يقولون أن القرآن يقيني الثبوت والسنة ظنية الثبوت، وبجرة قلم يلغون السنة، كأن علماء الحديث لا يعرفون ما يقولون وكأنهم كلهم مجمعون على ذلك، ونقول وبالله التوفيق: أولا: السنة قسمان متواترة وأحاد، والسنة المتواترة في الثبوت مثل القرآن ولا مبرر للتفريق بينهما إلا الهوى، بل إن تواتر الصلاة مثلا أكبر من تواتر القرآن، فلقد نقل القرآن جماعات من كل قرن، أما الصلاة فكان ينقلها القرن كاملا، فلم قبلوا القرآن على أنه يقيني وتركوا الصلاة؟! ثانيا: هل أحاديث الأحاد كلها تفيد الظن فقط؟

للعلماء والأصولين في حجية حديث الأحاد أقوال عدة فمنهم من رأى أن حديث الأحاد يفيد القطع! –وهذا مستحيل بداهة–، ومنهم من يرى أنه يفيد الظن الراجح ومنهم من يرى أنه يفيد الظن فقط، ونحن نرى أنه يفيد الظن فقط، إذا فالمسألة خلافية. ولنا أن نسأل هنا: هل اتباع أحاديث الأحاد يعد من باب اتباع الظن المنهي

(71) نلاحظ أن القرآن يستعمل مع المحاورين كلمة "الحجة" ولم يستعمل كلمة "الشبهة" أبدا، فعلى سبيل المثال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾] سورة الجاثية, ٢٥[، لذا نستعمل المفردة التي استعملها القرآن.

عنه والمذموم؟ نقول أولا السنة تفيد الظن، ولكنها لا تستقل بذاتها بل هي تابعة للقرآن، فباندراجها تحت القرآن وتطابقها معه، اكتسبت درجة أعلى في القبول، أما أن تخصصه أو تعممه فهذا ما لا يُقبل، إذا كيف يخصص الظني القطعي أو يعممه بله أن ينسخه، فبطل ما يقولون به، إذا فالاستدلال بالسنة التابعة للقرآن لا ذم فيه وليس من باب اتباع الهوى أو الظن.

الرد على الحجة الثانية: هل القرآن هو الحديث الوحيد الذي يجب الإيمان به؟ ويمكن طرح السؤال بشكل آخر: هل هناك وحي غير القرآن؟ بطبيعة الحال القرآنيون ينكرون هذا تماما، ولكن لنا أن نسألهم كيف يفهمون هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [سورة التحريم ,٣]، فقد نبأه الله وحيا ولم يكن هذا قرآنا. وأيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ [سورة الأحزاب ,٣٧]، فالله أمر النبي بأن يأمر زيد بطلاق زينب ولم يكن هذا الوحي قرآنا، فماذا يقولون في هذه الآية أيضا؟

إذا فهاتان الآيتان دليل كالشمس على أنه كان هناك وحي للنبي بخلاف القرآن، وسواء كان هذا الوحي رؤيا أو بخلافه من أشكال الوحي فهو وحي بخلاف القرآن ولا يمكن أن تأول هاتين الآيتين بأي شكل من الأشكال بخلاف ما قلنا. إذا هناك وحي بخلاف القرآن، تابع له مؤول له ولا يمكن رد ذلك، ولكن نحن لسنا مطالبين إلا باتباع القرآن وما جاء مؤولا له من السنة، فهذا ملزم لكل مسلم وما لم يندرج تحت القرآن من الأحاديث فهو سنة، لا يأثم المسلم بتركها أو هي مخالفة للقرآن فهي واجبة الرد.

إذن فنحن نتبع القرآن ولا نتبع شيئا آخر.

الرد على الحجة الثالثة: نحن نتفق معهم أن الكتاب ما فرط في شيء وفيه من العلوم ما اكتشفنا وما لم نكتشف حتى الآن، ولكن لا تعارض بين الآية وبين وجود السنة المؤولة للقرآن لأن السنة كما قلنا مطبقة للقرآن،لا تزيد ولا تنقص. وكما قلنا أن القرآن مبني على العموم فلا يمكن أن تأتي فيه تفاصيل الصلاة والزكاة وحتى لا تنصرف الأذهان إلى هذين الصنفين المحددين كلما ذكرت الصلاة والزكاة، وكله محتاج إلى تأويل ولذا كان لا بد من وجود صيغة تأويل ثابتة للعبادات من صلاة وزكاة وحج وما شابه ولا يجوز الحركة خارج نطاق هذا التأويل، أما ما بخلاف ذلك فلا بد من ظهور تأويلات جديدة في كل عصر.

وهنا لا بد لنا من وقفة مع القرآنين في مسألة الصلاة بالذات فهم معها في أمر عجيب فمنهم من يقول أن هذه الصلاة هي صلاة إبراهيم، والعرب كانت تعرفها فالرسول لم يأت فيها بجديد! ولا نحتاج إلى الرد على هذا القول المتهافت ولكن على الأقل هذه الفرقة تصلي نفس الصلاة التي نصليها، ومنهم من يقول أن الصلاة التي نصليها ليست الصلاة المذكورة في القرآن ويصلون صلاة عجيبة قرأت طريقتها في رسالة أرسلها أحدهم إلى مفكر إسلامي، ولابد أن نذكر هؤلاء أن الصلاة منقولة بتواتر أكثر من القرآن فالقرآن حمله ونقله جماعات من كل جيل، ولكن الصلوات حملتها الأجيال كلها فعلى أي أساس قبلوا القرآن ورفضوا الصلاة؟! الله أعلم وله في خلقه شؤون.

الرد على الحجة الرابعة: يقولون أن القرآن هو صراط الله المستقيم -وهو كذلك- وأن من اتبع سواه فهو يتبع السبل الأخرى التي نهى القرآن عن اتباعها، وهذا قول عجيب غريب ومن قال أننا نتبع في السنة شيئا أخر غير الطريق الذي رسمه الله في كتابه؟ فالسنة مؤولة للقرآن فقط لا تخصصه ولا تعممه، وإنما تطبقه فقط فأعطتنا القدوة الحسنة في تطبيق القرآن.

وبذلك نكون قد وضحنا أن ما يقول به القرآنيون ويحتجون به لا أساس له من الصحة أو المنطق وأن ما يحتجون به ضعيف واه.

إذا وكما رأينا فإن حججهم واهية وقولهم ضعيف، ويجب علينا الأخذ بالسنة كتأويل للقرآن خاضعة له، ونعود الآن إلى مناقشة التقسيم العجيب لأنواع الحديث الذي قال به أهل السنة.

مناقشة التقسيم

ولننظر في الأدلة التي استدلوا بها على ما يقولون في هذا التقسيم العجيب: ونجدهم قد استدلوا على الصنفين الأول والثاني بأدلة مشتركة، لنتأملها ولنر هل هي أدلة دقيقة أم أنها أدلة تنقصها الدقة: يقول الله تعالى: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [سورة الحشر, ٧]، ويقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [سورة آل عمران, ١٣٢]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [سورة آل عمران, ٣١]. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [سورة النحل, ٤٤] ويستدلون كذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾ [سورة الإسراء, ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾ [سورة الأحزاب, ٣٤].

ويستدلون على حجية السنة من السنة نفسها، فمن ذلك: ما رواه مالك عن النبي ص: "1395– تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي"

وما رواه أبو داود "3988– حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ نَجْدَةَ حَدَّثَنَا أبو عَمْرِوبْنُ كَثِيرِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَوْفٍ عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ:

"عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السَّبُعِ وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ"

ويقولون أيضا أن الواقع يؤيد ما ذهبوا إليه من القسم الثاني من أن السنة تزيد عما جاء في القرآن من ميراث الجدة وتحريم الحمر الأهلية ورجم الزاني المحصن والشفعة وحل ميتة البحر وتحريم الذهب والفضة على الرجال.

ولنبدأ في مناقشة الأدلة التي استدلوا بها: أول ما نلحظه أن الأفكار الرئيسة، التي استندت إليها كل فرقة كان منبعها روايات صحت عندهم وعلى أساس هذه الروايات تحركوا في فهم القرآن، فمن قبل روايات أهل السنة فهو سني، ومن قبل روايات الشيعة فهو شيعي ومن قبل روايات الزيدية فهو زيدي ومن قبل روايات الأباضية فهو أباضي، ولو أن الوضع لم ينقلب عند المسلمين لهذه الدرجة وأصبح الوضع كما ينبغي أن يكون دوما، من تعامل للسنة على أساس النصوص القرآنية لاختلف الوضع كثيرا، كما نلاحظ أن أهل السنة لم يتحرجوا من القول بأن السنة تكمل القرآن، مع أن هذا يعني بداهة أن القرآن ناقص وأنه فرط في أشياء ونعود إلى موضوعنا ولننظر هل ما استدلوا به يوافقهم فيما قالوا به أم أن الدقة تنقصهم:

1- أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فهو استدلال مقلوب[72]، حيث أن الآية تقول "الرسول" ونحن نقر بوجوب طاعة الرسول، ولنا أن نسألهم: هل كل ما فعله

[72] لن نقول مثلما يقول القرآنيون في الرد على هذه الآية أن الحديث هنا عن المال الذي يوزع، وأن على المسلمين أن يقبلوا التقسيم الذي قسمه الرسول ويرضوا به، بل نقول إن الآية عامة وإن كان يمكن حملها على هذا المحمل من خلال السياق.

محمد(ص) فعله بصفته رسولا؟ أو هل ولد محمد(ص) رسولا أم اكتسب الرسالة فيما بعد؟

بداهة لا يمكن أن يكون كل ما فعله محمد(ص) كان بصفته رسولا أو أنه وُلد رسولا، فالرسالة بدأت مع سن الأربعين، ولنسألهم بما صار محمد بن عبدالله رسولا؟ الإجابة الواضحة هي: بالقرآن وليس بكونه محمد بن عبدالله. إذن فالذي نوقن تمام اليقين أنه من باب الوحي التشريعي هو القرآن وما اندرج تحته مباشرة من الوحي التطبيقي المسمى سنة، أما ما لم يظهر اندراجه مباشرة فلعله اجتهاد كان مناسبا لذلك العصر أو أن النبي فعله بصفته قائدا للمسلمين وليس بصفته رسولا نبيا، ومع تغير الزمان والمكان يمكن مخالفة هذا التصرف. ومن يقول أن كل ما فعله النبي(ص) كان من باب الوحي التشريعي، فليظهر لنا الدليل. فالقرآن مسلّم به من جميع المسلمين، أما الأحاديث الزائدة عن القرآن فمختلف فيها فما يقبله الشيعة يرفضه أهل السنة وبالعكس، وإذا تطرق الشك إلى الدليل سقط الاستدلال به كما يقول علماء الأصول.

كما نجد أن النبي عيب عليه فعل أشياء، ولا بد أنه فعلها من باب الاجتهاد وإلا لن يكون هناك معنى لأن يؤمر بفعل الشيء ثم يلام عليه: ومن ذلك قوله تعالى عتابا للنبي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ [سورة التحريم ,١] ونحن نعلم الواقعة الشهيرة التي كانت سببا لنزول هذه الآية، وهي على خلاف في قولين وهما: أن النبي العظيم حرم مارية مملوكته القبطية، على نفسه بيمين أنه لا يقربها طلبًا بذلك رضا حفصة بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارت لأن الرسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم خلا بها في يومها وفي حجرتها.

وقيل أنه كان بسبب تحريمه شرب عسل المعافير. والخلاصة أن النبي حرم على نفسه شيئا ابتغاء مرضاة أزواجه، فليم على ذلك، فهل يمكن أن يكون فعل النبي لهذا التحريم من باب الرسالة، أم أنه فعله من تلقاء نفسه؟ ومن ذلك عتاب الله عز وجل للنبي في أخذ أسرى في بدر بدلا من الإثخان في الأرض عندما قال له: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ

أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾] سورة الأنفال ,٦٧[ومن ذلك في السنة واقعة تأبير النخل الشهيرة، بالحديث الذي رواه الإمام مسلم عن النبي(ص) "**4358**-...أنتم أعلم بأمور دنياكم"[73]، فهل كان هذا من باب الوحي أم من باب الاجتهاد؟ والوقائع الدالة على تصرف النبي كبشر كثيرة، ونحن نقر بوجود وحي بخلاف القرآن، ولكن أنّى لنا أن نميز بين الوحي وما ليس بوحي خارج القرآن؟ الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هو عرض الروايات على القرآن -يرفض أهل السنة هذا المبدأ لأن الحديث الوارد في مسألة العرض على القرآن غير صحيح، ولأن منظورهم في التوفيق بين السنة والقرآن غير ما قلنا به ولأن الشيعة يقولون به-، فما اندرج تحت القرآن كان من باب الوحي الواجب الاتباع حتما، وما لم يندرج تحت القرآن مباشرة عرفنا أنه واحد من أمرين:

أ- من باب السنن التي يستحب لنا فعلها، وإما أنه من باب السياسة الشرعية التي فعلها النبي(ص) بصفته قائد المسلمين في هذا الوقت، فإذا كانت الظروف هي نفس ظروف المسلمين فنفعلها أما إذا تغيرت الظروف والأحوال والأمكنة فيجب علينا أن نجتهد لاستخراج ما يناسبنا.

ب- موضوع مختلق لمخالفته القرآن ويجب علينا رده. ولنسأل هؤلاء السادة العلماء أيهما أفضل للنبي(ص)؛ أن يكون كل ما يفعله من باب الوحي ويكون هو مجرد آلة، لا دور لها سوى التنفيذ أم أن يكون يأتيه الوحي بالأمر، ويجتهد هو في تطبيقه؟ ونقول لهم إذا رفضوا هذا التقسيم وهذا العرض: كيف تفرقون بين ما فعله بصفته رسولا وبين ما فعله بصفته قائدا للمسلمين وبين ما فعله بصفته إنسانا؟ سيقول بعضهم: نحن نقلد النبي(ص) في كل أحواله. نقول: أنتم مخيرون في تقليد النبي(ص) في كل ما يفعله، ولكن أن يكون هذا من باب السنة فقط[74]، أما أن ندخل فعل النبي(ص) في باب التحريم والإيجاب، فهذه ما لا يُقبل بأي حال، إذ أن هذا يؤدي إلى القول بنقصان

[73] ينكر الشيعة هذا الحديث وهناك من يطعن في سنده ومتنه من أهل السنة.

[74] لنا تعريف آخر للسنة خلاف المألوف، فنقول هي: ما صدر من النبي من قول أو عمل مطبقا للقرآن ومتأولا له.

القرآن ولا يُقبل القول بأن السنة تكمل القرآن من باب أن كليهما وحي، إذ أن القول بأن كليهما وحي لا ينفي بأن أحدهما –السنة– يكمل الآخر الناقص –القرآن–، وهذا ما لا يجوز لأي مسلم بأي حال من الأحوال قبوله، أما إذا قلنا بأن السنة تطبق القرآن فقط، فليس لهذا علاقة بالزيادة والنقصان، بل هو فقط من باب التأويل، وإذ لم يُقبل هذا الشرط، فنطلب إليهم أن يقدموا وسيلة أخرى للتفرقة بين فعل النبي(ص) كبشر وفعله كرسول واجب الاتباع؟[75]

إذا فنحن نأخذ الأحاديث المطابقة للقرآن التابعة له نزولا على أمر القرآن: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ... ﴿٩٢﴾﴾ [سورة المائدة, ٩٢]، وما لم يثبت يقينا أنه من باب الوحي أخذناه على أنه من باب السياسة الشرعية لذلك العصر، أو مختلق رددناه لمخالفته القرآن أو لتغير المكان والزمان.

2– أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النحل, ٤٤] وأن الذكر هنا هو السنة وأنها تبين القرآن، فاستدلال غير مقبول، فالواضح من السياق أن الذكر هنا هو القرآن ذاته، وذلك يشبه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الزمر, ٤١]، فالكتاب أنزل على الرسول للناس وكذلك أنزل إليه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم لا ليكتمه أو يمنعه عنهم أو يخص أحدا به، ولا يعني أنه يحتاج إلى توضيح وبيان، أما الذكر فقد ورد في القرآن في ستة عشر موضعا، بجوار هذا الموضع هي:

(75) شاء المعارضون للعرض على القرآن أم أبوا فسيظل العرض على القرآن هو الفيصل، وليسألوا أنفسهم كيف يردون على عقائد الشيعة؟ فالشيعة أيضا لهم رواياتهم التي صحت عندهم وروايات السنة مثل روايات الشيعة منسوبة إلى النبي(ص)؟، فالرد يكون بأن هذه الأحاديث واجبة الرد لمخالفة للقرآن وإن صحت عند الشيعة، وهذا عين ما يفعله الشيعة عند الرد على روايات أهل السنة التي تزيد على القرآن، فلم رَفض المبدأ إذن من أهل السنة والتمسك باستقلالية السنة بالتحليل والتحريم، ما داموا يطبقونه؟

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [سورة آل عمران, ٥٨]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [سورة الحجر, ٦]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر, ٩]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [سورة النحل, ٤٣]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [سورة الأنبياء, ١٠٥]. ﴿... وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨﴾ [سورة الفرقان, ١٨]، ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [سورة الفرقان, ٢٩]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [سورة يس, ١١]، ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [سورة ص, ١]، ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [سورة ص, ٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١﴾ [سورة فصّلت, ٤١]، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [سورة الزخرف, ٥]، ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾ [سورة القمر, ٢٥]، ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ [سورة القلم, ٥١].

ونعتذر لذكر الآيات التي ذُكر فيها "الذكر" ولكن ليسأل القارىء نفسه، هل هناك آية من هذه الآيات يمكن فهمها على أنها "السنة"؟ يجد القارىء أن كل مدلولات "الذكر" هي إما القرآن ذاته أو الوحي عامة مع الأنبياء السابقين، أو كما جاء في الزخرف بالمعنى المألوف بلا إضافات: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ... ۝٥﴾ [سورة الزخرف, ٥]. فالمعاني لا يمكن حملها على أي حال على "السنة" وأنها مبينة للقرآن، بمعنى أنه مشكل أو مجمل يحتاج إلى بيان، ولكن الآية والله أعلم بمعنى أن القرآن أنزل للرسول ليبينه للناس ولا يكتمه.

والدليل من القرآن على أن المراد من "البيان" هو عدم الكتمان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة البقرة, ١٥٩] حيث جعل الله عز وجل البيان في مقابل الكتمان وليس البيان في مقابل الغموض، وأن القرآن يحتاج إلى تبيان، فالقرآن قمة في البيان وواضح لكل إنسان، ولكن من يقرأ ويتدبر؟

ونزولا على عادة القوم في افتراض صحة هذا الفهم، هل يعني هذا أن السنة تخصص القرآن أو تزيد عليه أو تنسخه؟ لا تقول الآية هذا القول بأي حال، فكل ما تقوله هو أنه السنة تبين مجمل القرآن، والبيان لا يأتي بأمور لا أصل لها في المبين ولا يمكن أن يلغيه أيضا، ولا أعرف من أين وكيف فهموا أن المبيِّن يمكن أن يأتي بأمور لا أصل لها في المبين أو يلغيه، خاصة إذا كان المبين أقل درجة في الثبوت من المبيَن –بفتح الياء–.

3– وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٤]، بأن المراد من آيات الله القرآن والحكمة هي السنة، وهذا فهم غير صحيح على الإطلاق وهو راجع إلى الإمام الشافعي، الذي أخذه عن غيره، ولم يبين هذا الغير! ونحن نقول أن الحكمة لا يمكن أن تكون السنة بحال وذلك لأن الحكمة وردت في القرآن ثمان عشرة مرة، نذكر هذه المرة أرقام الآيات فقط ولينظرها القارىء بنفسه، وهي: البقرة 129، البقرة 151، البقرة 231، البقرة 251، البقرة 269، آل عمران 48، آل عمران 164، النساء 54، النساء 113، المائدة 110، النحل 125، الإسراء 39، لقمان 12، الأحزاب 34، ص 20، الزخرف 63، الجمعة 2.

ونرجو من القارىء أن ينظر في هذه الآيات ليتدبر وليرى ما معنى الحكمة في هذه الآيات؟

ونلاحظ أن السادة المفسرين يقولون أن "الحكمة" هي السنة، كما فهم الإمام الشافعي من الآية، مع الملاحظة أن الحكمة لا علاقة لها بالسنة بل الحكمة معرَّفة في القرآن، فإذا نحن نظرنا في سورة الإسراء ألفينا الله عز وجل يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الإسراء, ٢٣-٣٩] إذا فالحكمة هي مجموعة من التعاليم، منها ما ورد في سورة الإسراء من قوله تعالى: "وقضى ربك... إلى قوله تعالى: "عند ربك مكروها"، وهذه التعاليم يمكن أن تُعطى للأنبياء وغيرهم لذا نجد أن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة لقمان, ١٢].

إذا فنحن نجد أيضا بعض التعاليم من الحكمة في سورة لقمان وهي تبدأ ب "أن اشكر لله" وهذا رأس الحكمة، وتنتهي في هذه السورة بنهاية مواعظ لقمان عليه السلام لابنه، ولقد أُعطيت لسيدنا موسى وعيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤٨].

وأعطيت أيضا للنبي داخل القرآن وليس خارجه، لذا نجد الله عز وجل يقول مخاطبا أزواج النبي(ص): ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٤] والذي كان يُتلى في أبيات النبي(ص) منه ومن أزواجه هو آيات القرآن فقط، فأزواجه كن يسمعن حديثه منه وإذا لم يسمعنه منه

يحكي من سمع منهن لمن لم يسمع وهذا يكون على سبيل الحكاية لا على سبيل التلاوة.

إذن فالحكمة مجموعة من التعاليم التي إذا طبقها الإنسان صار حكيما وهي واردة في القرآن وليست السنة، وهذا لا يعني أننا نقول أن السنة ليس بها حكمة! لا، ففيها الكثير من الحكم، ولكنا ننفي أن تكون هي الحكمة المعرفة المذكورة في القرآن. وحتى على فرض أن الحكمة هي السنة، ما الدليل في ذلك أنها تزيد على القرآن أو تلغي أحكامه –تنسخه–؟ لا دليل على ذلك وأقصى ما هنالك أن يقال أن السنة تؤول القرآن وهذا ما نقول به.

ونحن نتفق معهم في قبول الحديث الذي رواه الإمام مالك في التمسك بكتاب الله وسنة النبي(ص)، ولكن لا دليل فيه على أن السنة تزيد على القرآن أو تنسخه.

أما الحديث الذي رواه الإمام أبو داود فهو لا أصل له في القرآن، علاوة على أنه ضعيف سندا، حيث أن عبد الرحمن مجهول كما قال ابن القطان ولم يرو عنه غير أحمد والدارمي وأبي داود ولم يوثقه غير العجلي وابن حبان وأبي داود، إذن فالحديث ضعيف لا يُحتج به سندا أو متنا.

أما مسألة أن الواقع يؤيد ذلك، فلا بد لها من وقفة طويله حتى نظهر أن الواقع لا يؤيدهم بأي حال من الأحوال، حيث أنهم يستدلون بعدة أحاديث على ما ذهبوا إليه. وعلى الرغم من أن هذا سيأخذ جزءا كبيرا من الكتاب، ولكن لا بد من التوضيح في هذه النقطة حتى يرتفع اللبس عند الكثير، ولا يظل هناك أي إشكال في هذا المنهج: لما نظرنا في الأحاديث التي قالوا بأنها تؤصل حكما خارج القرآن، وجدناها ثلاثة أنواع:

1- نوع مندرج تحت القرآن، فهذا نأخذ به حتما ووجوبا.

2- نوع يزيد على ما في القرآن -هو في الواقع مندرج في القرآن ولكن الدلالة ليست مباشرة فقلنا أنه زائد- فهذا سنة.

3- نوع مخالف للقرآن وهذا مردود.

نماذج لفهم الأحاديث بالقرآن

وسنمثل لكل نوع ونرد على استدلالتهم:

النوع الأول: أما النوع الذي رأوا أنه ليس في القرآن وهو فيه، فمنه:

1- ميراث الجدة حيث قالوا أن النبي(ص) قضى بميراث السدس للجدة، وهذا ليس في القرآن!! بطبيعة الحال هذا موجود في القرآن صراحة حيث أن الجدة أم -وليتذكر القارىء حديثنا عن الفارق بين الأب والوالد- ولكنها لا ترث مع وجود الأم، وعند غياب الأم ترث الجدة. إذا فهذا قصور فهم منهم، والحكم موجود في القرآن.

2- الشفعة حيث قالوا أن الشفعة لم ترد في القرآن، نقول كيف ذلك وقد الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [سورة النساء, ٣٦] فالله أمر بالإحسان إلى الجار، ومن أكبر الإساءات إليه أن أتصرف في العقار الذي أملكه بدون إذنه، فكيف أحسن إليه في الأمور الصغيرة وأتجاهله في هذا الأمر العظيم؟

3- مسألة تحريم الميراث عند اختلاف الملة. وهذه النقطة بها تفصيل، حيث أننا نرى -تبعا للمنهج- أن الميراث يكون ممنوعا في حالة واحدة فقط؛ وهي حالة الحرابة وليست مجرد اختلاف الدين، ومستندنا في ذلك هو قوله تعالى: ﴿لَّا

يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ [سورة الممتحنة ,٨-٩]، فالآية صريحة في أننا لا يجوز لنا تولي الكفار المقاتلين لنا والذين يضطهدوننا في ديننا، ولا يجوز بداهة التبرء منهم ثم نقوم بتوريثهم ونرث منهم!

أما إذا كان الأمر فقط مجرد خلاف ملة فلا مانع من التوارث بين الاثنين، إذ لا يُقبل بداهة البر والقسط ثم يُمنع التوارث، وعلى هذا إذا فهمنا الأحاديث التي تمنع الميراث مثل ما رواه البخاري "6267-... لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ"، أن المراد من الكافر هو الحربي، كان الحديث منطبقا مع النص القرآني تابعا له مستخرجا منه، أما إذا قلنا أن المراد من الكافر هنا كل من هو ليس بمسلم فيكون الحديث مخالفا لما جاء في القرآن.

أما الأحاديث التي تمنع التوارث عند اختلاف الدين عامة فهي ضعيفة مثل: ما رواه الترمذي "2034- حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ حَدَّثَنَا حُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ"

ومثل ما رواه أبو داود:2523- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ حَبِيبٍ الْمُعَلِّمِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى" والحديث مداره على عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهذه السلسلة يضعفها معظم العلماء.

وهناك بعض الأحاديث الأخرى مثل ما رواه أبو داود: "2524- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي حَكِيمٍ الْوَاسِطِيِّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ أَنَّ أَخَوَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ يهوديٌّ وَمُسْلِمٌ فَوَرَّثَ الْمُسْلِمَ مِنْهُمَا وَقَالَ حَدَّثَنِي أبو الْأَسْوَدِ أَنَّ رَجُلًا حَدَّثَهُ أَنَّ مُعَاذًا حَدَّثَهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ الْإِسْلَامُ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فَوَرَّثَ الْمُسْلِمَ" وهذا الحديث يعارض الأخرين، من أنه يورث المسلم ممن هو على غير ملته، وهو حديث منقطع.

وهناك بعض الروايات عن الصحابة، التي تقول بهذا القول، ولكن قول الصحابي ليس بحجة! فلقد وُجد من الصحابة والتابعين من يقول بجواز ميراث المسلم للكافر مثل معاوية بن أبي سفيان ومحمد بن الحنفية وأبو جعفر الباقر وسعيد بن المسيب ومسروق بن الأجدع وعبد الله بن مغفل ويحي بن يعمر وإسحاق بن راهويه.

فإذا كان هناك خلاف بين المنع بتاتا وتجويز ذلك للمسلمين، وفهمنا أن هذا كان راجعا لأن الرسول ورّث المسلمين من غيرهم، لأن اختلاف الدين لا يمنع بل إن الأمر كله كما فهمنا مرتبط بالحرابة أي العداوة والبراء من المسلمين فلا حرج.

إذا هذه نماذج لأحاديث رأوا أنها أصلت أحكاما لا أصل لها في القرآن، وها نحن قد رأينا أنها كلها نابعة من القرآن.

النوع الثاني: ونأتي إلى النوع الثاني ونضرب له بعض أمثلة:

1- ونبدأ مثلا باللحية، فهي وإن لم يرد لها أمر في القرآن ولكننا نجد لها إشارة في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾ [سورة طه, ٩٤] فها هو ذا سيدنا هارون كان ذا لحية ونبينا كذلك، ونرى أن كل الأنبياء كانوا كذلك، فنخرج من هذه الإشارة أن اللحية سنة وإن لم يرد بذلك أمر لأنه لو ورد لصارت واجبة.

2- ومن ذلك أيضا التيمن أي فعل الأشياء باليمين، فإنه وإن لم يرد بذلك أمر في القرآن، ولكنا نلاحظ أن أهل اليمين هم الناجون –وحتى في اللغات الأوربية نجد أن كلمة اليمين ذو شبه كبير بكلمة الصواب–، فلذا نتشبه بأهل اليمين ونمارس أعمالنا باليمين.

وإذا نظر المرء في كل السنن الواردة عن النبي(ص)، وجد لها إشارات أو أصل قرآني، وإن لم يكن هذا الأصل القرآني على سبيل الأمر وعلى سبيل المباشرة، بل على سبيل الإشارة والاستنباط والسير في الإطار العام.

النوع الثالث: ونأتي الآن إلى النوع الثالث الذي سيثير الكثير من الاعتراضات، لذا نرجو من القارىء أن يوازن الأدلة بميزان العقل لا بميزان العاطفة والتعود، حيث أنه سيرى نهجا غير مألوف في التوفيق بين القرآن والسنة، وإن كان منطقيا جدا لا تعسف فيه:

الأحاديث التي تخالف القرآن:

نبدأ هنا بحديث غير مشهور وهو ماروواه أبو داود: "2445- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ فَارِسٍ حَدَّثَنِي إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَاهويْهِ حَدَّثَنَا عَتَّابُ بْنُ بَشِيرٍ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زِيَادٍ الْقَدَّاحُ الْمَكِّيُّ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَكَاةُ الْجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ".

فنحن نرد هذا الحديث، لأن هذه الرواية باطلة لمخالفتها قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ... ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة ,٣] ثم إن الحديث فيه عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي وهو ليس بالقوي، إذا فلا يجوز أكل الجنين الذي مات في بطن أمه بحجة أننا ذكينا أمه.

ونأتي إلى حديث آخر وهو ما رواه أحمد "5465- حَدَّثَنَا سُرَيْجٌ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ"

ويستدلون أيضا بما رواه أبو داود "76- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلَمَةَ مِنْ آلِ ابْنِ الْأَزْرَقِ أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ أَبِي بُرْدَةَ وَهو

مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنْ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الطَّهورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ"

فهم يرون أن هذا الحديث خصص النص القرآني: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ ... ۝٣﴾ [سورة المائدة ,٣] فخصص من هذا العموم الحوت أي السمك والجراد ودمّان هما الكبد والطحال. فنقول: على الرغم من أن سند الحديثين لا يخلو من مقال شديد فهما ضعيفان ولا جدال في ذلك، ولكنا نقول: لنا فيهما فهم آخر، بما أن الشرع لا يعتبر بالمسمى ويعتبر المضمون، فالكبد والطحال لا يعدان حقيقة من الدماء بل هما نوع مخصوص من اللحوم، فلا يدخلان في التحريم، وحتى لو كانا دمين فهما ليسا مسفوحين والدم المحرم هو الدم المسفوح، وأما السمك فلا ذكاة له، بمعنى أننا إذا اصطدناه من البحر مات مباشرة فهذا حقيقة لا يعتبر ميتا بل صيدا وصيده هو ذكاته، أما ما قذفه البحر فلا يجوز أكله لأنه لم يُذك بل هو من باب الميتة المحرمة، وأما الجراد فهو من الحشرات وبطبيعة الحال إذا أكل الإنسان الجراد فلن يأت به ويذبحه بل سيضربه أو يفعل أي شيء ليقتله ولن يذكيه، أما ما وجد ميتا فلا يجوز أكله. وعلى هذا يكون الحديث جريا على العرف وليس من باب الحقيقة الواقعة وهو لم يخصص القرآن.

يستدلون بأن النبي(ص) حرم الذهب والفضة على ذكور المسلمين، ومن ذلك ما رواه أبو داود: "3535- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي أَفْلَحَ الْهَمْدَانِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زُرَيْرٍ يَعْنِي الْغَافِقِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي"

نقول: أولا هذا الحديث في سنده مقال، وهو لا يرقى لدرجة الصحة، وهناك روايات أخرى وردت بهذا المعنى منها ما رواه أحمد والنسائي والترمذي عن أبي موسى: أن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم قال: "أحل الذهب والحرير للإناث من أمتي وحرم على ذكورها"، وهو أيضا حديث معلول لا يصح.

ونقول: وردت العديد من الروايات في هذا الشأن لا يخلو أيها من مطعن، ولكن يمكن القول أن هذا النهي يدخل تحت النهي عن الإسراف، لذا فلنا أن نسأل: هل يعد هذا النهي من باب التحريم؟ أكثر العلماء على أن النهي هنا على التحريم ولكن هناك من يرى[76] أنه يجوز للرجل لبس الحرير والذهب ولا يحرم ذلك –حيث أنه وردت أحاديث أخرى تعارض التحريم، وفي نفس الوقت قد يكون الرجل غنيا جدا ولا يعد هذا من باب الترف، بل إن في زماننا هذا ما هو أغلى من الذهب والحرير، فهل يجوز مثلا أن يكون الذهب والحرير على الرجال من باب المحرمات، واللؤلؤ والماس والبذات الفاخرة، التي تجاوزت أسعارها الحرير بمراحل، ليست من باب المحرمات؟– ويرى المجيزون أن النهي الوارد في هذا المجال كان من باب التورع ومناسبة الحال، الذي كان موجودا في المدينة في هذا الوقت حيث أن الناس كانوا في ضيق وقلة مال، فهل كان يمكن ألا يُعد لبس الذهب والحرير إسرافا؟

ويستدلون على قولهم بالجواز بالأحاديث العامة التي وردت في النهي، فلم تفرق بين رجل وامرأة، مثل ما رواه أبو داود: "3235– حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ كَانَ حُذَيْفَةُ بِالْمَدَائِنِ فَاسْتَسْقَى فَأَتَاهُ دِهْقَانٌ بِإِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ فَرَمَاهُ بِهِ وَقَالَ إِنِّي لَمْ أَرْمِهِ بِهِ إِلَّا أَنِّي قَدْ نَهَيْتُهُ فَلَمْ يَنْتَهِ وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الْحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ وَعَنْ الشُّرْبِ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَقَالَ هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ"

[76] الخلاف مبسوط في كتاب نيل الأوطار فمن أراد المقارنة بين أدلة الفريقين فليرجع إلى الكتاب وليقارن.

وما جاء في البخاري "5383-... الذهب والفضة والحرير والديباج هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة" فهذا النهي العام كان في أول الهجرة عندما نهى الرسول الرجال والنساء عن الذهب والحرير، ثم جوزه للنساء، فهذا دليل على أن الأمر كان مداره على اليسر والحالة الاجتماعية، وهناك روايات أخرى تصب في هذا الشأن مثل ما رواه أبو داود: "3602- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الْحِمْصِيُّ حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ عَنْ بَحِيرٍ عَنْ خَالِدٍ قَالَ:وَفَدَ الْمِقْدَامُ بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَعَمْرُو بْنُ الْأَسْوَدِ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مِنْ أَهْلِ قِنَّسْرِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِلْمِقْدَامِ أَعَلِمْتَ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ تُوُفِّيَ فَرَجَّعَ الْمِقْدَامُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَتَرَاهَا مُصِيبَةً قَالَ لَهُ وَلِمَ لَا أَرَاهَا مُصِيبَةً وَقَدْ وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حِجْرِهِ فَقَالَ هَذَا مِنِّي وَحُسَيْنٌ مِنْ عَلِيٍّ فَقَالَ الْأَسَدِيُّ جَمْرَةٌ أَطْفَأَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَقَالَ الْمِقْدَامُ أَمَّا أَنَا فَلَا أَبْرَحُ الْيَوْمَ حَتَّى أُغَيِّظَكَ وَأُسْمِعَكَ مَا تَكْرَهُ ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ أَنَا صَدَقْتُ فَصَدِّقْنِي وَإِنْ أَنَا كَذَبْتُ فَكَذِّبْنِي قَالَ أَفْعَلُ قَالَ فَأَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُبْسِ الذَّهَبِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَأَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَأَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُبْسِ جُلُودِ السِّبَاعِ وَالرُّكُوبِ عَلَيْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا كُلَّهُ فِي بَيْتِكَ يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْكَ يَا مِقْدَامُ قَالَ خَالِدٌ فَأَمَرَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بِمَا لَمْ يَأْمُرْ لِصَاحِبَيْهِ وَفَرَضَ لِابْنِهِ فِي الْمِائَتَيْنِ فَفَرَّقَهَا الْمِقْدَامُ فِي أَصْحَابِهِ قَالَ وَلَمْ يُعْطِ الْأَسَدِيُّ أَحَدًا شَيْئًا مِمَّا أَخَذَ فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ أَمَّا الْمِقْدَامُ فَرَجُلٌ كَرِيمٌ بَسَطَ يَدَهُ وَأَمَّا الْأَسَدِيُّ فَرَجُلٌ حَسَنُ الْإِمْسَاكِ لِشَيْئِهِ"

فهذه الرواية توضح أيضا أن النبي(ص) نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها، فهل هي حرام أيضا؟

فنخرج من الرأيين أنهما يتفقان على أن الترف والإسراف حرام، ولكن أحدهما يرى أن الذهب والحرير حرام لأنهما من باب التخنث والترف، ويرى الطرف الآخر أن الأمر مرتبط بالحالة، فإذا كان في الأمر ترف فهو حرام لقوله تعالى: "ولا تسرفوا"، وإن كان

الثراء فاحشا والذهب والحرير ليس بسرف فالعبرة بالترف والكبر، وعلينا أن نحرم الملابس والحلى الباهظة التكاليف دخولا تحت النهي عن الترف والإسراف.

إذن على كلا التأويلين للأحاديث فهما مندرجان تحت النص القرآني ولم يأتيا بجديد.

ونأتى إلى حديث شهير ولكنه مخالف للنص القرآني مخالفة بينة وهو ماورواه الترمذي "1065- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنْ الرَّضَاعِ مَا حَرَّمَ مِنْ النَّسَبِ" قَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأُمِّ حَبِيبَةَ.

نقول: أولا وردت روايات أخرى توضح أن هذا القول لم يكن من النبي(ص)، بل كان من عائشة رضي الله عنها حيث جاء في البخاري: "4422- حَدَّثَنَا أبو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي الْقُعَيْسِ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَقُلْتُ لَا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ أَخَاهُ أَبَا الْقُعَيْسِ لَيْسَ هو أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقُعَيْسِ فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْذَنِي عَمُّكِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هو أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقُعَيْسِ فَقَالَ ائْذَنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ قَالَ عُرْوَةُ فَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ حَرِّمُوا مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنْ النَّسَبِ".

وهناك أحاديث أخرى في هذا الباب ولكن لن نعلق عليها سندا لأن متنها تبعا لفهم هؤلاء العلماء يخالف الآية مخالفة صريحة، حيث أن الله عز وجل يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم

بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾] سورة النساء, ٢٣]

فنحن نجد أن الله عدد المحرمات من النسب، وذكر في وسطهن الأمهات اللاتي أرضعن وأخوات الرضاعة ثم أكمل المحرمات من النسب، فما فائدة التخصيص إذا كان مراد الله أن يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب؟ ألم يكن الله يستطيع بعد ختم المحرمات من النسب أن يقول: "ومن الرضاع مثلهن" وبهذا ينتهي الأمر؟

ولكن أن يحدد القرآن أمرا ثم يوسعه الرسول فلا أجد له معنى مقبولا، بل هو واجب الرد. وأما القول بأن هذا الأمر يجوز قياسا فهذا ما لا يصح عندي بأي حال من الأحوال، فحتى لو قبلنا بالقياس فلا يكون القياس في أمر حدده الله بأفراد معينة، أما فيما لم يحصر فقد يُقبل القياس.

إذن فهذا الحديث تبعا لفهمهم لا يصح، ولكن لا بد من القول أن هذا الرد والقول بوضع الحديث هو بسبب فهم هؤلاء العلماء الذين جعلوه معارضا لكتاب الله، إلا أنه ظهر لي في فهم هذا الحديث فهم لا أعتقد أني سُبقت إليه ويتفق مع مفهوم الآية فلا نعطل الآية ولا الحديث، وهذا الفهم هو أن الرسول(ص) عندما قال: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" لم يكن يقصد الأفراد من أم وأخت وعمة وخالة ولكن كان يقصد التحريم ذاته، وهو تحريم النكاح، أي كما حرم الله عز وجل النكاح بسبب النسب في أنواع معينة فكذلك حرم النكاح بسبب الرضاع في النوعين الذين ذكرهما، وليس تحريما عاما. فهذا الفهم المحتمل جدا والموفق بين الآيتين أُهمل تماما، لأن الأوائل لم يقولوا به، ولأنهم يرون أن هذا يُفهم بداهة من الآية، ويقولون: لم قاله النبي(ص)؟

نقول: الله أعلم لم قال النبي(ص) هذا الحديث، فالحديث كما نعرف كلنا له أسباب قيل فيها، وبدلا من أن يجتهد العلماء فيخرجوا لنا علم "أسباب ورود الحديث"، الذي هو ضروري في فهم الحديث والأحكام المستخرجة منه، أخرجوا لنا "علم أسباب

النزول" للقرآن، ومن الممكن أن يكون النبي الكريم قاله ردا على من يستغرب أو يستثقل أن يحرم النكاح بسبب الرضاع، فقال: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، أي أن كليهما يحرمان النكاح!

ويقولون من الأشياء التي استقلت السنة فيها بالتشريع: تحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، ويستدلون بما رواه البخاري: "4717– حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَخْبَرَنَا عَاصِمٌ عَنْ الشَّعْبِيِّ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَو خَالَتِهَا"

والذي نراه هو أن هذا النهي ليس على سبيل التحريم، فليس كل نهي من النبي(ص) على سبيل التحريم، فهو على سبيل التنزه، فإذا فعله الإنسان لا يأثم.

ونلاحظ أن العلة في ذلك النهي، –كما ورد في روايات أخرى– "إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامهم"، ونلاحظ أن هذه العلة موجودة في نكاح الإنسان لأي قريبتين، لذا من الأفضل ألا يفعل، ولكن إذا بحث عن الحل والحرمة، فالحرام ما ذُكر في كتاب الله فقط.

هذا كله إذا قلنا أن هذا النهي كان بعد نزول آية النساء وليس قبلها، فإذا كان النهي قبل آية النساء وكان من اجتهاد النبي(ص) –وهو اجتهاد له وجاهته– ثم نزل القرآن بتحديد أنواع خاصة بخلاف ما ذكره النبي(ص)، فلا يكون الحديث ناسخا، بل يكون هو الذي ألغي حكمه –ولا يُسمى هذا نسخا، لأنه لم يثبت دليل على أن الأمر في هذا الشأن كان بوحي، فربما كان من اجتهاد النبي(ص).

وثمة أحاديث أخرى يستدلون بها مثل نهي النبي(ص) عن عسب الفحل، ولكننا نرى أنه ليس كذلك فهو مندرج تحت قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة النساء, ٢٩]

وثمت أحاديث أخرى يستدلون بها على تأصيل السنة للأحكام المخالفة للقرآن! وسنعرض لها عند الحديث عن النسخ.

إذن ظهر لنا إخواني أن الأحاديث التي يستدلون بها في تأصيل الأحكام بخلاف القرآن إما مخالفة للقرآن فهي واجبة الرد، وإما تابعة للقرآن ولكن نظرا لأنهم كانوا يُجملون القرآن لا يفسرونه فقالوا هذا ليس في القرآن بل في السنة!، وأما النوع الثالث وهو الذي يقولون أنه يقوم بنسخ القرآن، فهذا ما سنعرض له عند الحديث عن النسخ.

الرأي قديم

ولكن هل نحن أول من قال بهذا الرأي، أم أن هناك من علماء أهل السنة، من قال به؟ هذا الرأي ليس جديدا أو بدعا من القول، ونذكر هنا فتوى رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، في سؤال وجه إليه في هذه المسألة، حيث ورد ما نصه: "السيد الأستاذ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فهل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافرا أم لا؟ نرجو الإفادة بالرأى مع الاستدلال. وشكرا.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد: تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام:

1- الواجب: وهو ما يثبت طلبه من المكلف، بنص صريح قطعي الثبوت وقطعي الدلالة. "بمعنى أن له معنى واحدا فلا يختلف فى معناه المجتهدون" من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.

2- المحرم: هو ما طلب الشارع من المكلف تركه، بدليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.

3- المندوب: ما طلب الشارع فعله طلبا غير حتم ولا جازم، يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه!.

4- المكروه: ما طلب الشارع تركه طلبا غير حتم، ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله.

5- المباح: ما خير المكلف بين فعله وتركه، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم. (...)

يرى الجمهور أن من أنكر استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر، أقول: أغلب السنن العملية متواترة. والسنة الآحادية: هى ما رواه عدد دون التواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد اختلف العلماء فى استقلال السنة الآحادية بإثبات واجب أو محرم. فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك فى الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر ومن أنكر ذلك فى الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات، وأخبار الآخرة والغيبيات، فهو غير كافر، لأن الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعى من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة. وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الآحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم، سواء كان الواجب علميا أو عمليا، وعليه فلا يكفر منكرها، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية، فقال البزدوى: "دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة، لأن خبر الآحاد محتمل لا محالة، ولا يقين مع الاحتمال، ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه وأضل عقله. وبهذا أخذ الإمام محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمود أبو دقيقة وغيرهم. يقول المرحوم الإمام محمد عبده: "القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته، أما ماعداه مما ورد في الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أم ضعف، فليس مما يوجب القطع.

كما ذكر الشيخ شلتوت فى كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" قوله: "إن الظن يلحق السنة من جهة الورود "السند"، ومن جهة الدلالة "المعنى" كالشبهة فى اتصاله والاحتمال فى دلالته. ويرى الإمام الشاطبي فى كتابه الموافقات أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم، لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن، وتقييد مطلقه، وتفسير مجمله، ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواترة لا الآحادية"اهـ[77]

إذا فهناك من العلماء قبلنا من رأى أن السنة لا تؤصل حكما بالحل أو الحرمة بل هي تابعة فيهما للقرآن، وهذا ما نقول به تماما، مع الفارق أنهم يقولون بتخصيص السنة للقرآن ونحن نقول أنها لا تخصصه، وكلانا يقول أن السنة تستقل بالقول بالسنية والكراهة.

إذا فهذا الرأي ليس بدعا من القول، والله أعلم.

[77] تراثنا الفكري في ميزان الشرع، محمد الغزالي.

الفصل الرابع: النسـخ

بادئ ذي بدء أقر أن النهج الذي أسير عليه لن يعجب الكثيرين، وسيقولون ها هو عضو جديد في مدرسة التفسير اللغوي للقرآن، يريد أن يخضع كل شيء للنص القرآني حتى الحديث النبوي!.

وقبل الخوض في هذا الموضوع أذكر للأخوة القراء كلمة، قيلت لي في هذا الشأن في نقاش لي مع أحد الأخوة الظاهرية –كنت أعتقد أنهم قد فنوا من على وجه هذه البسيطة– فقال لي باللفظ "... ومنكر النسخ مكابر للعيان مكذب للقرآن والسنة وكذلك مكذب للصحابة رضي الله عنهم وطاعن في دينهم حين يسمعون بالنسخ ورفع الآيات ثم لا يتكلمون" فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله وأنهيت النقاش.

بطبيعة الحال لا يعرف بعض القراء ما هو النسخ[78] ولم هذا الجدال حوله، ولم قال لي هذا الأخ هذه الكلمة، لذا لزاما علينا أن نعرفهم بالنسخ، ما هو ولم هذا الجدال حوله، ونعرض الأدلة للطرفين قدر الإمكان، ونترك للقارىء الحرية في اختيار أي الفريقين أقوى دليلا وأرجح برهانا.

تعريف النسخ

أشهر تعريفات النسخ هو: رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخ عنه. ويعني ذلك أن آمرك بأمر ولا يظهر في الأمر أي علامة على التحديد الزمني، بل يبدو أنه مطلق، ثم آمرك بعد فترة بأمر يخالف هذا الأمر بأن ألغي هذا الأمر. كأن أقول لك: "لا يجوز لك أكل اللحم" ثم أقول لك بعد فترة "يجوز لك أكل اللحم". فهذان

[78] النسخ الذي نتكلم عنه هو بالمختصر المفيد أن تنزل آيات وترفع سواء رفعت الآيات نفسها فلا نجد لفظها أو يرفع الحكم فقط فنقرأ الآيات ونحن غير مطالبين بالعمل بأحكامها!!، أو تُرفع الآيات ونكون مطالبين بتنفيذ أحكامها!

الحكمان متعارضان تمام التعارض. قد يقول قائل: قد لا يكون النهي في ذهن الناهي مؤبدا، فلعله كان يقصد النهي إلى فترة معينة ثم يرفع الحكم. نقول: قد يكون ذلك محتملا فعلا، ولكنا نقول لذلك الناهي: ينقصك الدقة فأنت لم توضح في كلامك ما يظهر أنه مؤقت بل تركته عاما. وبدون الاطلاع على نية الناهي يكون الكلام متعارضا!

والعلماء الذين يقولون بالنسخ في كتاب الله لا يقرون بالتعارض، وإنما يقولون أن هذا تدرج في التشريع ولا يعتبر تعارضا، فلقد وضح الله حكم الخمر على مراحل، فقال أنها إثم كبير ومنافع ثم نهى عن قرب الصلاة والإنسان سكران ثم حرم الخمر، فهذا النسخ ليس من باب التعارض ولكنه من باب التدرج في التشريع. فنقول: إذا أراد الإنسان أن يضع قانونا مؤقتا، فلا بد أن يُظهر أنه مؤقت، حتى لا يؤدي ذلك للفهم الخاطىء للقانون ولربما تعارض بسبب ذلك مع قوانين أخرى، فإذا لم يفعل ذلك عيب عليه عدم الدقة في الوضع. ونحن نقول معاذ الله أن يشوب كتاب الله شائبة عدم دقة أو شائبة تعارض، فإذا قلتَ أن هذا التعارض الظاهري! من باب التدرج في التشريع، سيقول لك غير المسلم: بل هو من باب التناقض، فهذا القرآن من عند محمد، وهو لم يستطع أن يأتي بكتاب خال من التناقض، فاخترعتم أنتم هذه المصطلحات لتبرروا التناقض في كتاب محمد!

وفي الواقع لا تعارض ولا تناقض بل كتاب الله يصدق بعضه بعضا. ونبدأ الآن بالكلام عن النسخ على عادة الفقهاء، ونبدأ بتعريفه: إذا نحن نظرنا في المعاجم وجدنا أن النسخ كما ورد في المقاييس هو: يقول ابن فارس: "النون والسين والخاء أصلٌ واحد، إلاّ أنّه مختلفٌ في قياسِه. قال قوم: قياسُه رفْعُ شيءٍ وإثباتُ غيرِهِ مكانَه. وقال آخرون: قياسُه تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ. قالوا: النَّسْخ: نَسْخ الكِتاب. والنَّسْخ: أمرٌ كان يُعمَل به من قبلُ ثم يُنسَخ بحادثٍ غيرِه، كالآية ينزل فيها أمرٌ ثم تُنسَخ بآيةٍ أخرى. وكلُّ شيءٍ خلَفَ شيئاً فقد انتَسخَه. وانتسخت الشَّمسُ الظِّلّ، والشّيبُ الشبابَ. وتناسُخُ الورَثةِ: أن يموتَ ورثةٌ بعد ورثةٍ وأصلُ الإرث قائم لم يُقَسَّم. ومنه تناسُخُ الأزمنة والقُرون. قال

السجستانيّ النَّسْخ: أن تحوّل ما في الخليَّة من العَسَل والنَّحْل في أُخرى. قال: ومنه نَسْخُ الكتاب."اهـ

إذا فمعنى النسخ في اللغة يدور على أصلين اثنين الإزالة أو شبه النقل. والإزالة نوعان: الأول: إزالة إلى بدل، كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ... ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٦]، وكقولهم: نسخت الشمس الظل.،الثاني: إزالة إلى غير بدل، كقولهم: نسخت الريح الأثر. وأما شبه النقل، فمثل قوله تعالى: ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الجاثية, ٢٩]، وقولهم: نسخت الكتاب أي نقلته. وقلنا: (شبه نقل) ولم نقل (نقلا)، لأن نسخ الكتاب ليس نقلاً كاملاً، إذ لم تذهب الحروف من الكتاب، بل هي باقية، والذي نقل صورتها أو ما يماثلها، وهذا حقيقة ليس نقلاً وإنما هو شبهه. أما النسخ اصطلاحاً فله عدة تعريفات حسب فهم كل عالم: فيعرفه الخوئي: "هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه" (السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي. البيان في تفسير القرآن). ويعرفه الطباطبائي: "انتهاء زمن اعتبار الحكم المنسوخ" (السيد محمد حسين الطباطبائي. القرآن في الإسلام) ويعرفه السبزواري: "بيان انتهاء أمد الحكم الثابت سابقاً" (السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن). ويعرفه ناصر مكارم: "تغيير حكم شرعي وإحلال حكم آخر محله" (ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل)

ونذكر هنا التعريف الذي استقر وتعورف عليه: رفع حكم شرعي ثابت بخطاب متقدم، بخطاب متراخ عنه.

إذا فالنسخ بالمعنى الاصطلاحي غير متفق عليه، ولكن المختار أنه رفع حكم شرعي بحكم شرعي آخر، أي أنه أخذ أصلا واحدا من المعنى اللغوي وترك الأصل الآخر.

"نسخ" في القرآن

لننظر كيف استعمل القرآن هذه الكلمة، طالما أن هناك خلاف حولها، هل استعملها بالأصل الأول الرفع أم الثاني شبه النقل: الناظر في القرآن يجد أن "نسخ" ومشتقاتها وردت في القرآن في أربعة مواضع هي: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٦] و﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٥٤] و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحج, ٥٢] و﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الجاثية, ٢٩]

هذه هي الآيات التي ذكر فيها "نسخ" أو مشتقاتها في القرآن، ويستدل المثبتون للنسخ على دعواهم بالآية الأولى وبآية واردة في سورة النحل؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة النحل, ١٠١]، وبقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد, ٣٩] فيقولون: هذه الآيات بجوار الروايات الواردة في هذا المعنى تثبت أن القرآن به ناسخ ومنسوخ.

وهم يرون أن علم الناسخ والمنسوخ من أهم العلوم في التعامل مع القرآن، فقد أقرأ آية واعتقد أنها ملزمة بينما في الواقع نحن غير ملزمين بها، أي أن الآية لا مدلول لها! وبطبيعة الحال فالروايات المؤيدة لذلك موجودة وكثيرة، فقد رووا عن علي ابن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين: أنه دخل يوما مسجد الجامع بالكوفة، فرأى فيه رجلاً يُعْرَف بعبد الرحمن بن داب، وكان صاحباً لأبي موسى الأشعري، وقد تحلق عليه الناس [أي اجتمعوا حوله في حلقات] يسألونه، وهو يخلط الأمر بالنهي والإباحة

بالحظر، فقال له علي رضي الله عنه: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. قال له: هلكت وأهلكت ... وأخذ أذنه وفتلها [أي فرك أذنه] وقال له: لا تقضي في مسجدنا بعد."

وهذه الرواية على فرض صحتها يمكن فهمها فهما مغاير لما فهموه تماما.

أنواع النسخ عند مثبتيه

وإذا كان هناك ناسخ ومنسوخ في القرآن، فما أنواعه؟ يقسم المثبتون للناسخ والمنسوخ النسخ في القرآن إلى ثلاثة أصناف:

1- ما نسخ حرفه وبقى حكمه.

2- ما نسخ حكمه وبقى حرفه.

3- ما نُسخ حكمه ونسخ حرفه.

والمقصود بتعبير ما نُسخ: أي ما تغير من القرآن، أو مُحي أو أُبطل.

والمقصود بحرفه: أي كتابته بالحرف في القرآن.

والمقصود بتلاوته: أي قراءته، فهو غير موجود في المصحف.

والمقصود بِبَقِيَ حُكمُه: أي بقي العمل به، بمعنى أن حكم الآية التي نسخته -رفعت- لازال معمولا به، رغم أنها غير موجودة في القرآن الحالي. فيكون معنى ما نسخ حرفه أو تلاوته وبقي حكمه هو: أن الآيات التي تغيرت أو محيت من المصحف، لا زال يُعمل بها في الواقع، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن عائشة رضي الله

عنها أنها قالت: "2634-... كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن فسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله(ص) وهن مما يقرأ من القرآن[79]."

والمقصود بما نسخ حكمه وبقى حرفه أن الآية بقيت كما هي في القرآن ولكن الحكم الموجود في الآية رفع فلم نعد مطالبين به، أي أننا عندما نقرأ قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة البقرة , ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [سورة البقرة , ٢٤٠]

فيجب أن نفهم أننا ما كُتب علينا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف أو المتاع للمتوفى عنها زوجها، فهذه الآيات لا تعني شيئا على الإطلاق، فمعناها مفرغ[80] تُقرأ بدون أي دلالات في الذهن!!، لذا يجب معرفة علم الناسخ والمنسوخ فقد يكون الله لا يريد من هذه الآية شيئا وقد يكون أنزلها امتحانا للناس!

فإذا وردت الرواية الصحيحة يجب علينا ترك العمل بالآية، أو إذا ورد الفهم الصحيح عن الصحابة بالنسخ وجب القول بالنسخ وترك العمل بالآية![81]. والمقصود بما نُسخ حكمه ونسخ حرفه هو: أن الله عز وجل ينزل قرآنا فيعمل به ثم يرفع من القلوب ومن نسخ المصاحف، فلم أنزل إذا؟ الله أعلم.

---

[79] هذا الكلام غير موجود في القرآن، وعلى الرغم من ذلك قبل العلماء الرواية وخرجوها تخريجات عجيبة، لأنها وردت في صحيح مسلم، والشيعة يسخرون من هذه الرواية ومن قبول أهل السنة لها، ومعهم حق فيما يقولون.

[80] الحق يقال أن هناك من قال أن الآية بعد نسخها تنتقل من الوجوب مثلا إلى الندب فيجوز –لا يجب– التعبد بتنفيذها، وقالوا هذا من أجل التهرب من بقاء آيات بلا مدلول في القرآن، وإذا كان كذلك فلم نسخت إذن؟!

[81] هناك من لا يرى حرجا في هذا الرأي، ويرى أن فهم الصحابة – الذي أسأوا هم فهمه– حجة واجبة الاتباع!

ويرون على ذلك الروايات، ومن ذلك عن الزهري قوله: "أخبرني أبو إمامة.. أن رهطا[82] من أصحاب النبي قد أخبروه أن رجلا منهم قام في جوف الليل، يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها، فلم يقدر على شيء منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فأتى إلى النبي في الصباح، ليسأل النبي عن ذلك، وجاء آخرون لنفس الغرض، ثم أذن النبي فسألوه عن السورة، فسكت ساعة لا يرجع إليهم شيئا، ثم قال: نسخت البارحة"

إذا الخلاصة على حد قولهم أنزلت آيات ورفعت ونحن غير مطالبين بها، وأنزلت آيات ورفعت ونحن مطالبين بالعمل بها وأنزلت آيات ولم ترفع ونحن غير مطالبين بالعمل بها. إذا فهذا العلم العظيم المسمى الناسخ والمنسوخ يدور في نطاق: لا يمكن أخذ القرآن مباشرة بل لا بد من معرفة إذا ما كان الحكم على أصله أم غير مطالبين به.

كتب مؤلفة في الناسخ والمنسوخ

وأُلف فيه العديد من الكتب مثل:

1- (الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه) لمكي بن أبي طالب.

2- (الناسخ والمنسوخ في القرآن) للنحاس.

3- (الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم) لابن العربي.

4- (عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ) لابن الجوزي.

5- (الناسخ والمنسوخ) لابن حزم.

---

[82] تصور عزيزي القارىء أن رهط بأكمله يخبر بهذه القصة بدون أن يعرف اسم أي واحد من هذا الرهط، وقُبلت الرواية بدون تحديد الراوي لأن الصحابة كلهم عدول!!.

6- (النسخ في القرآن الكريم) للدكتور مصطفى زيد.

7- (إستحالة وجود النسخ في القرآن) لإيهاب حسن عبده.

8- (لا نسخ في القرآن...لماذا؟) للدكتور عبد المتعال الجبري.

9- (الرأي الصواب في منسوخ الكتاب) لجواد مصطفى عفانة.

10- (لا نسخ في القرآن) للدكتور أحمد حجازي السقا.

وغير ذلك من الكتب الكثير.

مناقشة الأدلة التي يستدلون بها على وقوع النسخ

الدليل الأول: يستدلون بقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [سورة البقرة, ١٠٦]، فهم يستدلون بهذه الآية على وقوع النسخ في القرآن ولننظر كيف فسروا هذه الآية؟

نورد هنا من تفسير ابن كثير، حيث قال ما نصه: "قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ ما نبدل من آية. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ أي: ما نمح من آية. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ قال: نثبت خطها ونبدل حكمها. حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، نحو ذلك. وقال الضحاك: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ ما نُنْسِكَ. وقال عطاء: أما ﴿مَا نَنسَخۡ﴾ فما نترك من القرآن. وقال ابن أبي حاتم: يعني: تُرِكَ فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وقال السدي: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ نسخها: قبضها. وقال ابن أبي حاتم: يعني: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: "لوكان لابن آدم

واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا". وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ ما ينقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوَّل الحلالُ حرامًا والحرام حلالا والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا.!! ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره،إنما هو تحويله ونقل عبَادَة إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أوخطها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة. وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولخَّص بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط في فَنِّ أصول الفقه. وقال الطبراني: حدثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها مما نسخ وأنسي، فالهوا عنها". فكان الزهري يقرؤها: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ بضم النون خفيفة. سليمان بن أرقم ضعيف. (أي أن الرواية ضعيفة –المؤلف–) وقد روى أبو بكر بن الأنباري، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس وعبيد وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعًا، ذكره القرطبي. وقوله تعالى: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ فقرئ على وجهين: "ننسأها ونُنْسها". فأما من قرأها: "نَنسأها" –بفتح النون والهمزة بعد السين– فمعناه: نؤخرها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ يقول: ما نبدل من آية، أونتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: {أَو نُنسِئَهَا} نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء: {أَو نُنسِئَهَا} نؤخرها

ونرجئها. وقال عطية العوفي: {أَو نُنسِئَهَا} نؤخرها فلا ننسخها. وقال السدي مثله أيضا، وكذا [قال] الربيع بن أنس. وقال الضحاك: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ يعني: الناسخ من المنسوخ (...) وقوله: ﴿... أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾] سورة البقرة ,١٠٦-١٠٧[يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ... فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زُجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم –لعنهم الله– في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما

يشاء من إقراره وأمره ونهيه. [وأمر إبراهيم، عليه السلام، بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل. قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلُّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباح لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته، عليه والسلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخًا كقوله: ﴿... ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ ... ١٨٧﴾] سورة البقرة ,١٨٧[، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدا بالله تبارك وتعالى." اهـ

ونعتذر من القارىء للإطالة في النقل ولكن كان هذا النقل ضروريا لإعطاء صورة مقربة للقارىء عن موقف مثبتي النسخ منه، ونلاحظ هنا في كلام الإمام ابن كثير التالي: يرى أن "الآية" في هذه الآية بمعنى الآية من القرآن. الإمام ابن كثير يوافق الإمام ابن جرير في تحويل الحرام حلالا وتحويل الحلال حراما والمحظور مباحا والمباح محظورا. الإمام ابن كثير يرى أن الخطاب وإن كان للنبي(ص) ولكنه تكذيب لليهود. الإمام ابن كثير لا يفرق بين النسخ بين الشرائع والنسخ في الشريعة ذاتها. الإمام ابن كثير ينقل من التوراة أشياءا على أنها مسلمات ويطالبنا بالتصديق بها. وموقف الإمام ابن كثير في هذه النقاط يكاد يتفق مع كل القائلين بالنسخ، لذا سنناقش هذه الأدلة التي يستدل

بها والمواقف التي اتخذها لننظر، هل هذا الموقف سليم وهل هذا الرأي الذي خرج به هو من الصواب، أم أنه جانبه الصواب؟

إذا نظر المرء في القرآن وجد أن كلمة "آية" وردت في تسع وسبعين موضعا، لا يمكن أن تفهم في أي موضع من هذه المواضع على أنها الآية من القرآن، بخلاف كلمة "آياتنا" التي وردت في إحدى وتسعين موضعا يفهم من بعضها أنها آيات القرآن ويفهم منها كذلك أنها آيات الله في كونه أو أنها ما يُسمى باطلا ب المعجزات، أما كلمة "آية" فلم تأت إلا بمعنى معجزة أو آية كونية أو علامة بينة، ويحتمل أن تُفهم في هذين الموضعين الذين يستدلون بهما فهما آخر وهو الآية من القرآن، فعلى أي الوجهين أولى أن تُحمل: أن تُحمل على الوجه الذي ورد في كل المواضع أم تخالف المواضع الأخرى؟

وليست العبرة بالموافقة والمخالفة، فقد يحتم السياق معنى معين للكلمة، ولكن موافقة أكثر المواضع في القرآن مرجح لا يستهان به، ولننظر ما المعنى الذي يحتمه السياق في هاتين الآيتين؟

إذا نظرنا في سورة البقرة وجدنا أن الحديث من آية أربعين إلى آية ثلاثة وعشرين ومائة يدور الحديث فيها عن اليهود، وإذا ألقينا نظرة إلى الآية التي تسبقها وجدناها تقول ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٥] فالآية تقول بكل وضوح أن الذين كفروا من أهل الكتاب ما يودون أن ينزل علينا أي خير، وخير الخير الوحي، فهم يودون أن لا ينزل علينا أي خير والله يختص برحمته من يشاء، فأنزل علينا القرآن والله ذو الفضل العظيم، ولقد فهم الإمام ابن كثير من الآية أن المراد من الخير هو الوحي والشريعة حيث قال: "وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٠٥] يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل

الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبِّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يقول تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [سورة البقرة, ١٠٥]"اهـ

فإذا فهمنا أن أحد مدلولات "الخير" وأفضلها هو الوحي، كان فهمنا للآية التالية بأن المراد من الآية هو التوراة، فهما منطقيا حيث أن الله يقول "ما يود هؤلاء أن ينزل عليكم أي خير والله يختص من يشاء فالله ذو الفضل العظيم فالله لا يغير آية مكان آية مكان آية إلا إذا أتى بخير منها أو مثلها فعندما غير التوراة أتى بالقرآن ولم يرفعها إلى غير شيء"

فبهذا الفهم يظهر أن معنى "آية" منسجم مع معناها في القرآن الكريم كاملا وهو المعجزة أو العلامة، فها هو السياق يحتم أن تكون "آية" هنا بمعنى معجزة.

ولو قلنا أن المراد من آية هنا الآية من القرآن لما وجدنا ترابطا جيدا بين الآيات[83]، ولكن إذا فهمنا أن المدلول الأكبر لهذا اللفظ في هذا السياق هو الوحي، استقام المعنى. ثم إن الأخوة الذين يقولون بالنسخ فاتهم أن الآية تقول "أو ننسها" فما فائدة هذه الكلمة إذا؟ أليس من مدلولات النسخ عندكم أن ترفع الآية لفظا وحكما؟ أليس هذا "إنساء"، فلم كررت الكلمة، ألا تعد إذا من باب الحشو الذي يجب أن ننزه القرآن عنه؟ قد يقول قائل: أنت تتحدث عن فهم المفردات القرآنية فهما موسعا، فلم لم تطبق هذا هنا؟ نقول: نحن تكلمنا عن مدلول واحد فقط ولكن يمكن الحديث عن مداليل أخرى، فيمكن فهم الآية هنا بمعنى أن النسخ هنا هو "شبه النقل"

أول شيء نلاحظه أن الله استعمل في هذه الآية صيغة المضارع، فقال: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [سورة

[83] هناك من يفهم "آية" هنا على أنها الآية الكونية ولكنا نرى أن المراد الراجح هنا من السياق هو الوحي، وبطبيعة الحال هناك وجوه يمكن حملها على هذا المعنى ولكننا سنقصر الحديث هنا عن هذا المدلول من دلالات الكلمة.

البقرة, ١٠٦] وهذا يوضح أن هذا الفعل عام ومستمر ولا يصح أن نفهمه على أنه لسبب معين أو لقوم معينين، فالله يرد على اليهود الذين اعترضوا على نسخ التوراة فقال لهم أن التشريع يقوم على هذا المبدأ وأن هذا هو سنته مع خلقه في التشريع ألا وهو "النسخ والانساء"، فهو سبحانه وتعالى لا ينسخ –المعنيين أي بالتغيير والنقل– شريعة أو ينسها –بالمعنيين الانساء والتأجيل– إلا ويأت بخير منها أو مثلها:

ولننظر في سير التشريع نجد أن الله بدأ التشريع بشريعة نوح – ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ... ١٦٣﴾ [سورة النساء, ١٦٣]– وكان هذا هو المناسب لهذا العصر فكانت خيرا من شريعة موسى ونسأت شريعة موسى لأنها لم تكن مناسبة لهذا العصر، ثم جاءت التوراة فنسخت شريعة نوح –أي أنها أخذت منها وأضافت وحذفت– فكان في النسخ حذف وشبه نقل، فكانت خيرا منها –لهؤلاء القوم ولهذا الزمان– أو مثلها في المناسبة، وأنسأ القرآن لأن آوانه لم يكن قد حان، ثم جاء القرآن الصالح لكل زمان ومكان فنسخ التوراة –اشترك معها في أحكام وهذا ما يشبه النقل– وألغى بعض أحكامها وأضاف إليها، وبطبيعة الحال مع كل مجيء لكتاب جديد يحصل تنسية للكتاب القديم.

وبهذا الفهم الذي فتح الله به علينا يمكن أن نفهم "النسخ والنسي" فهما موسعا لا يلغي أيا من مدلولاتهما، بل يسيرهما جنبا إلى جنب، والله أعلم.

والآية الثانية التي يستدلون بها على وقوع النسخ، هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [سورة النحل, ١٠١] فيقولون أن المراد من الآية هنا الآية من القرآن، والمراد هو تبديل آية مكان آية. فنقول: إن السياق لا يعطي هذا المعنى بأي حال من الأحوال، فإذا فهمنا الآيات كما يقولون، أن الله إذا بدل آية من القرآن مكان آية قال الكفار إنما أنت مفتر، فكيف نربط هذه الآية بالآية التي تليها فالآية التالية تقول: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [سورة

النحل ,١٠٢[، فكيف يكون نزول القرآن بالحق ليثبت الذين ءامنوا مرتبطا بتبديل الآيات التي تثير شكوك أي إنسان؟

فإذا كان القرآن من عند الله العليم الحكيم، فلم أنزل آية إذا كان سيرفعها، أما كان يستطيع أن ينزل آيات تكون تشريعا نهائيا وخاصة أن القرآن هو الشريعة الخاتمة؟ ومسألة التدرج في التشريع لن تقنع المخالف، فسيقول هذا من باب التضاد والتعارض فالقرآن من عند محمد وهو مليء بالتناقضات!.

ولقد أعجبني رد الشيخ الغزالي رحمه الله على من يستدلون بهذه الآية على وقوع النسخ، حيث قال، أن هذه السورة مكية ولم تكن الشرائع المفصلة قد نزلت بعد، فماذا نُسخ؛ الأخبار أم العقائد؟! ومعلوم أن هذه الأنواع تُعد من باب الخبر الذي لا يمكن نسخه[84]، فما الذي نُسخ بالضبط؟ أما إذا فهمنا "الآية" نفس الفهم السابق، وأن المراد من الآية هو الشريعة، استقام معنى الجملة وارتباطها بما يليها، فالله يقول وإذا بدلنا شريعة مكان شريعة قال الناس للنبي –عامة، كائنا من كان– إنما أنت مفتر، فالناس مع كل الرسل لم ينكروا وجود الله ولكنهم أنكروا أن يكون الله قد أوحى إليه، وقالوا أنت مفتر على الله فالله لم يوح إليك شيء، وهذا ما قاله المشركون واليهود للنبي(ص)، فأُمر بالرد عليهم والقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴿١٠٢﴾﴾] سورة النحل ,١٠٢[، فالقرآن نزل بالحق وأنا لست بمفتر، والدليل على ذلك القرآن نفسه النازل بالحق، فاقرأوه وستعلمون أنه الحق. والآية الثالثة التي يستدلون بها، وهي قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾] سورة الرّعد ,٣٩[ولننظر كيف فسر الإمام ابن كثير هذه الآية، حيث قال ما نصه: ﴿... لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾] سورة الرّعد ,٣٨[أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ

[84] هذا على رأي الجمهور، فهناك من العلماء!! من أجاز نسخ الأخبار أيضا!، ولست أدري ماذا يكون الكذب إذا، وماذا يبقى صحيحا في القرآن؟!

وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾] سورة الحج ,٧٠[، وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿... لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾] سورة الرّعد ,٣٨[أي: لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحوما يشاء منها ويثبت، يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه[85]. وقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾]سورة الرّعد ,٣٩[اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري ووَكِيع وهُشَيْم عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس: يدبر أمر السنة فيمحوما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وفي رواية: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾] سورة الرّعد ,٣٩[قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾]سورة الرّعد ,٣٩[إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهدا فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾] سورة الدخان ,٣-٤[قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يُغير. وقال الأعمش، عن أبي وائل شَقِيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحوما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير. وقال ابن جرير أيضا: حدثنا عمرو بن علي حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن أبي حكيمة عصمة عن أبي عثمان النَّهْدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أوذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة

[85] كلام الضحاك لا وزن له ولا يقبل، لأنه قلب الآية بلا دليل فقدم وأخر!! .

ومغفرة. وقال حماد عن خالد الحذَّاء عن أبي قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا. ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عُكَيْم عن ابن مسعود بمثله. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج حدثنا خصاف عن أبي حمزة عن إبراهيم أن كعبا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩]. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْد، عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القَدَر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر". ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، به. وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر وفي الحديث الآخر: "إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض". وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دَفَّتَان من ياقوت –والدفتان: لوحان– لله، عز وجل [كل يوم ثلاثمائة] وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. (ما مستند هذا الكلام؟!! –المؤلف–) وقال الليث بن سعد، عن زياد بن محمد، عن محمد بن كعب القُرظي، عن فُضَالة بن عُبَيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "[إن الله] يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحوما يشاء ويثبت". وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير. وقال الكلبي: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩] قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم

الخميس، طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب. وقال عِكْرِمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩] يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو- والذي يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله، وهو الذي يثبت. وروي عن سعيد بن جُبَير: أنها بمعنى: ﴿... فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩] يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩] كقوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ... ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة البقرة ,١٠٦] وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ... ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٩] قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٨] ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فُرغ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفا، ووعيدًا لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فنمحو ونثبت ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم. وقال الحسن البصري: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ قال: من جاء أجله، فَذَهَب، ويثبت الذي هو حيّ يجري إلى أجله. وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله. وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: الحلال والحرام. وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين. وقال سُنَيد بن داود، حدثني معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعبًا عن "أم الكتاب"، فقال: عَلِم الله ما هو خالق وما خَلْقُه عاملون، ثم قال لعلمه: "كن كتابا". فكان كتابا. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: الذكر، [والله أعلم]اهـ.

ونعتذر للإطالة في النقل ولكن تدبر معي عزيزي القارىء في تفسير ابن كثير لهذه الآية وانظر إلى الكم الذي رواه في تفسيرها فكل الأقوال تتجه إلى أنها لا علاقة لها بالقرآن إلا قول واحد مروي عن قتادة، فهذا يوضح أن الآية لا علاقة لها بموضوع الناسخ والمنسوخ الذي يتحدثون عنه. والسياق يُحتم هذا، فالآية السابقة تقول: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣٨]، فالآيات تتحدث عن إرسال الرسل وأنهم بشر عاديون يتزوجون وينجبون وليس لأحدهم أن يأتي بآية (معجزة)، من عنده بل هي من عند الله، لكل أجل كتاب، فالله يمحوما يشاء ويثبت، فالآية فهمها يتفق جزئيا مع ما ذكره الإمام ابن كثير من أقوال الأئمة، أما القول أن المحو والإثبات في القرآن فالسياق يرفضه.

إذا فهذه هي الآيات التي يستدلون بها على وقوع النسخ في القرآن، وعند النظر فيها يظهر أن المراد منها لا علاقة له بالنسخ الاصطلاحي، وأن المراد من "الآية" ليس الآية القرآنية وهذا هو المفترض، فالآية في الأصل "العلامة والدليل" أما أن نخصصها ب "آية القرآن" فلا بد من وجود دليل على التخصيص مثل أن يقال "وإذا تتلى" أو أي دليل يوضح أن هذه آية متلوة أو مقروءة وليست آية كونية أو إعجازية، والله أعلم.

ونأتي إلى النقطة الثانية وهي حكاية الإمام ابن كثير عن الإمام الطبري في النسخ أنه "تحويل الحرام حلالا والحلال حراما والمحظور مباحا والمباح محظورا" فنقول: هذا الكلام لا يصح بأي حال من الأحوال، ولولا أنه صدر من أئمة كبار لأغلظنا القول في الرد، إذ كيف يحول الحرام حلالا –على الأقل–، نعم نحن نقر بوجود نسخ بين

الشرائع ووجود بعض التغيرات في الأحكام، ولكن نظرا لأننا لا نملك النسخ الأصلية لهذه الشرائع فنحن لا نستطيع أن نضرب أمثلة على سير عملية التشريع، ولكن كل ما نعرفه أن عملية النسخ لم تكن عملية اجتثاث للشرائع السابقة أو تغيير كبير، بل يمكن القول أن الشرائع والأحكام تكاد تتفق مع بعضها، وانظر في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الشورى, ١٣]، وانظر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٥٧]

فكيف يُقلب الحلال حراما في النسخ، طالما أنه من الطيبات، وإذا كان من الخبائث وسكت عنه الشرع فترة ثم حرمه لم يعود فيحلله؟ هذا لا يقبل بأي حال من الأحوال، والذي أفهمه وأتقبله في موضوع النسخ هذا أن يكون النسخ للشرائع المؤقتة المرتبطة ببيئة معينة أو زمان معين، مثل ما حرم على اليهود بسبب ظلمهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٤٦]، فلما جاء النبي وضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وعند تغيرهما لا بد من تغير التشريع، أما القول بأن نكاح الأخوات مثلا كان حلالا في زمن سيدنا آدم ثم نسخ فهذا ما لا يصح وللأسف هذا مأخوذ من التوراة،– سبب الوقوع في هذا المأزق القول أن آدم عليه السلام كان وحيدا، وهذا القول يخالف القرآن وسنوضح هذا عند الحديث عن خلق الإنسان– ولن أستطيع أن أعطي أمثلة على النسخ كما أسلفت الذكر لعدم المراجع الموثقة.

أما أن يرى الإمام ابن كثير أن الخطاب للنبي ولكن المراد اليهود فهذا من الفهم المقلوب، بل الخطاب أولا لليهود كسابق الآيات ولاحقتها، وخاطب جملة النبي(ص). ونود التوضيح في نهاية المطاف أن النسخ في الشرائع السماوية كان بين الشرائع وبعضها وليس في داخل الشريعة نفسها.[86]

تقسيم آخر للنسخ عند مثبتيه

ونتابع مع السادة العلماء، كيف قسموا النسخ في القرآن: قالوا: يُقسم النسخ باعتبار البديل إلى: الأول: النسخ ببدل، أي نسخ الحكم الثابت بحكم آخر بديلاً عنه، أي أن الآية تنسخ بآية أخرى أو حديث أي ثمة ناسخ للمنسوخ. الثاني: النسخ بلا بدل، أي نسخ الحكم الثابت دون أن يحل محله حكم بديل آخر، أي أن يرفع الحكم فقط ولا يعوض بأي شيء وكلا القسمين جائز الوقوع عقلاً وشرعاً. (كما يزعمون) وعلى الرغم من أن الآية العمدة في استدلالهم على وقوع النسخ هي قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾]سورة البقرة, ١٠٦[، فهي على فهمهم للنسخ توجب النسخ إلى بدل ولكنهم قالوا لا يشترط هذا، فهذا من قبيل الغالب!!، والدليل على ذلك وقوع النسخ فعلا إلى غير بدل مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾] سورة المجادلة, ١٢[فقد نُسخت –على قولهم– إلى غير بدل فقد قال الله بعدها: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾] سورة

[86] سمعت عن كتاب "نظرية النسخ بين الشرائع السماوية" فسررت به كثيرا، وأخذت في البحث عنه حتى تيسر لي الحصول على نسخة منه، ثم اتضح لي أنه كتاب يتكلم عن النسخ بطريقة تقليدية في الشريعة الإسلامية المحمدية وليس بين الشرائع وبعضها!

المجادلة ,١٣]، فكان النسخ هنا مجرد رفع حكم إلى غير بدل، فهذا دليل على أن القول هنا على سبيل الغالب. وهذا القول قمة في التناقض، وسنبين هذا عند الحديث على الآيات التي قالوا فيها بالنسخ، وكيف أنها محكمة كلها. ومن العلماء من قال أن السنة تنسخ القرآن، وأكثرهم رفضوا هذا القول استنادا إلى قوله تعالى: ﴿... نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ... ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة البقرة ,١٠٦] والسنة ليست مثل القرآن بله أن تكون خيرا منه.

ويقسمون النسخ باعتبار شدة الحكم إلى:[87]

الأول: نسخ الحكم الثابت بحكم أخف منه على نفس المكلف.

الثاني: نسخ الحكم الثابت بحكم أشد وأثقل منه على نفس المكلف.

الثالث: نسخ الحكم الثابت بحكم مساوله على نفس المكلف.

يعنى هذا أنهم يرون أن الله يمكن أن ينسخ الحكم الشرعي إلى حكم أخف منه أو أثقل أو مساوله، ونسألهم ما الحكمة في ذلك؟ يقولون: المراد من ذلك التدرج في التشريع، وتعويد النفس على الطاعة والتربية وما إلى خلافه.

ويقسمون النسخ باعتبار السورة إلى:

الأول: السورة التي فيها ناسخ وليس فيها منسوخ.

الثاني: السورة التي فيها منسوخ وليس فيها ناسخ.

الثالث: السورة التي فيها ناسخ ومنسوخ.

الرابع: السورة التي ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

[87] التشريع القرآني يأتي دوما مطابقا لحال البشر، فالله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٨٦]، فإذا كان مبتدأ التكليف ب "الوسع" فكيف يرتفع إلى ما هو أعلى فيسبب العنت والمشقة، أو ينزل إلى ما هو أقل منه فيصير سهلا جدا فلا يصير تكليفا.

السور التي فيها ناسخ وليس فيها منسوخ على قولهم ست سور، هي: الفتح . الحشر . المنافقون . التغابن . الطلاق . الأعلى.

والسور التي فيها ناسخ ومنسوخ خمس وعشرون سورة، هي: البقرة . آل عمران . النساء . المائدة . الأنفال . التوبة . إبراهيم . الكهف . مريم . الأنبياء . الحج . النور . الفرقان . الشعراء . الأحزاب . سبأ . غافر . الشورى . الذاريات . الطور . الواقعة . المجادلة . المزمل . الكوثر . العصر.

أما السور التي فيها منسوخ وليس فيها ناسخ فأربعون سورة، هي: الأنعام . الأعراف . يونس . هود . الرعد . الحِجْر . النحل . الإسراء . الكهف . طه . المؤمنون . النمل . القصص . العنكبوت . الروم . لقمان . السجدة . الملائكة . الصافات . ص . الزمر. الزخرف . الدخان . الجاثية . الأحقاف . محمد . ق . النجم . القمر . الممتحنة . القلم . المعارج . المدثر . القيامة . الإنسان . عبس . الطارق . الغاشية . التين . الكافرون.

السور الباقية التي ليس فيها ناسخ ولا منسوخ (43 سورة) من مجمل سور القرآن 114 سورة.

هل اتُفق على المنسوخ؟

ولنا أن نسأل: هل اتفق العلماء على عدد الآيات المنسوخة؟ نقول: لا، فقد اختلفوا فيها اختلافا شنيعا، فمن قائل[88] أن المنسوخ في القرآن أكثر من مائتي آية –تصور أخي في الله آيات الأحكام عند الفقهاء حوالي خمسمائة آية جعل أحد العلماء قرابة نصفهن ملغي، أما عندنا فآيات الأحكام قرابة الخمسة آلاف– ومنهم من جعلها فوق المائة مثل النحاس الذي جعلها مائة وأربعة وعشرين قضية منسوخة، ومنهم من جعلها

[88] هو أبو عبد الله محمد بن حزم حيث جعل الآيات المنسوخة في القرآن مائتي وأربع عشرة آية!!، وهو ليس ابن حزم الظاهري، وجعلها ابن الجوزي247، وابن سلامة 213، وابن بركات 210، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عشرينا وهو السيوطي، ومنهم من جعلها أربعة، ومن العلماء من لم ير أي ناسخ ومنسوخ ومنهم من رأى استحالة النسخ في القرآن.

انظر، بين المثبتين أنفسهم الفارق أكبر من مائتي آية، وإذا سألت أيا منهم: ما رأيك في ما قاله فلان في عدد الآيات المنسوخة؟ لقال بكل ثقة: سامحه الله لقد غالى فيها كثيرا، فلا يمكن أن يكون العدد المنسوخ بهذا الشكل، وصاحب المائة المنسوخة يرى أن المئتين كارثة، ورب العشرين يرى أن المائة طامة، وذو الأربعة يرى أن العشرين قصر نظر، والذي لا يقول بالنسخ يرى أن هذا كله مرجعه إلى التقليد!

إذا فالمسألة مسألة إمعان نظر في القرآن ليس أكثر، والحمد لله لم يأتنا حديث صحيح عن النبي(ص) يقول أن هذه الآية منسوخة أو خلافه، إذ لو كان هناك نسخ لكان حتما ولزاما أن يوضحه القرآن والرسول، لا أن يتركه لعلماء الأمة فيوضحوه لنا، كي لا نضل باتباعنا القرآن!!

ولننظر كم هي الآيات التي اتفق القائلون بالنسخ على نسخها: لم يتفق القائلون بالنسخ إلا في آيتين، وأما باقي الآيات فما من آية، قال أحدهم لقصر نظره أو تقليده أنها منسوخة إلا وهناك من قال من المثبتين أنفسهم أنها محكمة، والآيتان اللتان اتفقوا على القول بالنسخ فيهما هما: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [سورة المجادلة, ١٢]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣﴾ [سورة المزّمّل, ١-٣]

وسنبين بإذن الله عند الحديث عن الآيات التي قالوا فيها بالنسخ أنهما محكمتان ولا نسخ فيهما.

اختلاف المدلول

وقبل الحديث عن النسخ لا بد من الحديث عن موقف الصحابة من النسخ، فالقائلون بالنسخ يستندون إلى الروايات الكثيرة الواردة عن الصحابة في هذا الشأن. نقول على الرغم من كثرة الروايات الواردة عن الصحابة في هذا الشأن فنحن واثقون أن هذا المعنى لم يكن مقصودا حتما في كلامهم لعدة أسباب، أهمها:

1- لم ينقل عن النبي(ص) أي رواية صحيحة أو ضعيفة تقول أن معنى أو مضمون هذه الآية مرفوع بآية أخرى، والسلف الصالح رضوان الله عليهم يستحيل أن يأتوا في دين الله بما لم ينزل، فإما أن يكونوا يقصدون بالنسخ ما أردنا أو يكونوا يقصدون شيئا لم يسمعوه من رسول الله وأضافوه من عند أنفسهم، وهذا ما ننزهم عنه أو يكونوا سمعوا الرسول(ص) يتكلم عن النسخ، ولم ينقل أي منهم ذلك عنه، وهذا مستحيل أيضا على مجموعهم فوجب الأخذ بما رأيناه.

2- ما ورد في مناقب الشافعي رضي الله عنه من أنه أول من تكلم في النسخ، وأول من أدراهم به وما كانوا يعرفونه قبل ذلك، ففي هذا إشارة واضحة لكل ذي عينين أن الشافعي هو أول من أظهر النسخ بمعناه الأصولي المتأخر، وأنه كان يستعمل قبل ذلك بمعنى مختلف وإلا يكون الكلام والإشادة لا فائدة منها.

والذي نراه مرادا عندهم من هذا الأمر هو تقييد المطلق والاستثناء أو تخصيص العام أما أن يكون المعنى المراد عندهم هو رفع الدلالة كاملة فهذا ما لايقبل، ونضرب أمثلة على ذلك بما قاله الإمام الشاطبي عنهم في الموافقات، حيث قال: "وذلك الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخا وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخا وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخا لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف وإنما المراد ما جئ

به آخرا فالأول غير معمول به والثاني هو المعمول به وهذا المعنى جار في تقييد المطلق فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده فلا إعمال له في إطلاقه بل المعمل هو المقيد فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئا فصار مثل الناسخ والمنسوخ وكذلك العام مع الخاص إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار فأشبه الناسخ المنسوخ إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص وبقى السائر على الحكم الأول والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد ولا بد من أمثلة تبين المراد فقد روى عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ... ١٨﴾] سورة الإسراء ,١٨[إنه ناسخ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ... ٢٠﴾] سورة الشورى ,٢٠[وعلى هذا التحقيق تقييد لمطلق إذا كان قوله نؤته منها مطلقا ومعناه مقيد بالمشيئة وهو قوله في الأخرى لمن نريد وإلا فهو إخبار والأخبار لا يدخلها النسخ وقال في قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ ... وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾] سورة الشعراء ,٢٢٤-٢٢٦[هو منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ... ٢٢٧﴾] سورة الشعراء ,٢٢٧[الآية قال مكي وقد ذكر عن ابن عباس في أشياء كثيرة في القرآن فيها حرف الإستثناء أنه قال منسوخ قال وهو مجاز لا حقيقة لأن المستثنى مرتبط بالمستثنى منه بينه حرف الاستثناء أنه في بعض الأعيان الذين عمهم اللفظ الأول والناسخ منفصل عن المنسوخ رافع لحكمه وهو بغير على أهلها إنه منسوخ بقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ ... ٢٩﴾] سورة النّور ,٢٩[الآية وليس من الناسخ والمنسوخ في شيء غير أن قوله ليس عليكم جناح يثبت أن البيوت في الآية الأخرى إنما يراد بها المسكونة وقال في قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا... ٤١﴾] سورة التوبة ,٤١[إنه منسوخ بقوله:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ... ﴿١٢٢﴾] سورة التوبة ,١٢٢[والآيتان في معنيين ولكنه نبه على أن الحكم بعد غزوة تبوك أن لا يجب النفير على الجميع، وقال في قوله تعالى: ﴿... قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ﴿١﴾] سورة الأنفال ,١[منسوخ بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ... ﴿٤١﴾] سورة الأنفال ,٤١[وإنما ذلك بيان لمبهم في قوله: ﴿... لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... ﴿١﴾] سورة الأنفال ,١[، وقال في قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ... ﴿٦٩﴾] سورة الأنعام ,٦٩[إنه منسوخ بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ... ﴿١٤٠﴾] سورة النساء ,١٤٠[الآية وآية الأنعام خبر من الأخبار والأخبار لا تنسخ ولا تنسخ، وقال في قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ... ﴿٨﴾] سورة النساء ,٨[الآية، إنه منسوخ بآية المواريث وقال مثله الضحاك والسدى وعكرمة وقال الحسن منسوخ بالزكاة وقال ابن المسيب نسخه الميراث والوصية والجمع بين الآيتين ممكن لاحتمال حمل الآية على الندب والمراد بأولى القربى من لا يرث بدليل قوله وإذا حضر كما ترى الرزق بالحضور فإن المراد غير الوارثين وبين الحسن أن المراد الندب أيضا بدليل آية الوصية والميراث فهو من بيان المجمل والمبهم، وقال هو وابن مسعود في قوله: ﴿... وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ... ﴿٢٨٤﴾] سورة البقرة ,٢٨٤[إنه منسوخ بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾] سورة البقرة ,٢٨٦[بدليل أن ابن عباس فسر الآية بكتمان الشهادة إذ تقدم قوله يحاسبكم به الله الآية فحصل أن ذلك من باب تخصيص العموم أو بيان المجمل وقال في قوله: ﴿... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ... ﴿٣١﴾] سورة النّور ,٣١[إنه منسوخ بقوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ... ﴿٦٠﴾] سورة النّور ,٦٠[الآية وليس بنسخ إنما هو تخصيص لما تقدم من العموم وعن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت في قوله تعالى: ﴿... وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ... ﴿٥﴾] سورة المائدة ,٥[أنه ناسخ لقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ

ٱللَّهِ عَلَيۡهِ ... ﴿١٢١﴾] سورة الأنعام ,١٢١[فإن كان المراد أن طعام أهل الكتاب حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه فهو تخصيص للعموم وإن كان المراد أن طعامهم حلال بشرط التسمية فهو أيضا من باب التخصيص لكن آية الأنعام هي آية العموم المخصوص في الوجه الأول وفي الثاني بالعكس وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ ... ﴿١٦﴾] سورة الأنفال ,١٦[إنه منسوخ بقوله: ﴿... إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ... ﴿٦٥﴾] سورة الأنفال ,٦٥[إلى آخر الآيتين وإنما هو تخصيص وبيان لقوله ومن يولهم فكأنه على معنى ومن يولهم وكانوا مثلى عدد المؤمنين فلا تعارض ولا نسخ بالإطلاق الأخير، وقال في قوله: ﴿... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ ... ﴿٢٤﴾] سورة النساء ,٢٤[إنه منسوخ بالنهي عن نكاح المرأة على عمتها أو خالتها وهذا من باب تخصيص العموم، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿... وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ... ﴿٥﴾] سورة الشورى ,٥[نسختها الآية التي في غافر: ﴿... وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ... ﴿٧﴾] سورة غافر ,٧[وهذا معناه أن آية غافر مبينة لآية الشورى إذ هو خبر محض والأخبار لا نسخ فيها وقال ابن النحاس هذا لا يقع فيها ناسخ ولا منسوخ لأنه خبر من الله ولكن يجوز أن يكون وهب ابن منبه أراد أن هذه الآية على نسخة تلك الآية لا فرق بينهما يعني أنهما بمعنى واحد وإحداهما تبين الأخرى قال وكذا يجب أن يتأول للعلماء ولا يتأولوا عليهم الخطأ العظيم إذا كان لما قالوه وجه قال والدليل على ما قلناه ما حدثناه أحمد بن محمد ثم أسند عن قتادة فى قوله: ﴿... وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ... ﴿٥﴾] سورة الشورى ,٥[قال للمؤمنين منهم، وعن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب أن قوله: ﴿... وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ... ﴿٣٤﴾] سورة التوبة ,٣٤[الآية منسوخ بقوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ... ﴿١٠٣﴾] سورة التوبة ,١٠٣[وإنما هو بيان لما يسمى كنزا، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ... ﴿١٦﴾] سورة الـتغابن ,١٦[وقاله الربيع ابن أنس والسدى وابن زيد وهذا من الطراز المذكور لأن الآيتين مدنيتان ولم تنزلا إلا بعد تقرير أن الدين لا

حرج فيه وأن التكليف بما لا يستطاع مرفوع فصار معنى قوله: اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم وهو معنى قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ... ١٦﴾] سورة التغابن ,١٦[، فإنما أرادوا بالنسخ أن إطلاق سورة آل عمران مقيد بسورة التغابن وقال قتادة أيضا في قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ... ٢٢٨﴾] سورة البقرة ,٢٢٨[إنه نسخ من ذلك التي لم يدخل بها بقوله: ﴿... فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا ... ٤٩﴾] سورة الأحزاب ,٤٩[والتي يئست من المحيض والتي لم تحض بعد والحامل بقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ... ٤﴾] سورة الطلاق ,٤[، وقال عبد الملك بن حبيب في قوله: ﴿... ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ... ٤٠﴾] سورة فصّلت ,٤٠[وقوله: ﴿... فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ... ٢٩﴾] سورة الكهف ,٢٩[وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾] سورة التكوير ,٢٨[إن ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾] سورة التكوير ,٢٩[وهذه الآية إنما جاءت في معرض التهديد والوعيد وهو معنى لا يصح نسخه فالمراد أن إسناد المشيئة للعباد ليس على ظاهره بل هي مقيدة بمشيئة الله سبحانه، وقال في قوله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ... ٩٧﴾] سورة التوبة ,٩٧[وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا ... ٩٨﴾] سورة التوبة ,٩٨[إنه منسوخ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ... ٩٩﴾] سورة التوبة ,٩٩[الآية وهذا من الأخبار التي لا يصح نسخها والمقصود أن عموم الأعراب مخصوص بمن كفر دون من آمن، وقال أبو عبيد وغيره إن قوله: ﴿... وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾]سورة النّور ,٤[منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ... ٥﴾] سورة النّور ,٥[الآية وقد تقدم لابن عباس مثله، وقيل في قوله: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ... ٥٣﴾] سورة الزمر ,٥٣[منسوخ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ...

﴿١١٦﴾] سورة النساء ,١١٦[الآية وهذا من باب تخصيص العموم لا من باب النسخ، وفي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... ﴿٩٨﴾] سورة الأنبياء ,٩٨[إنه منسوخ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾] سورة الأنبياء ,١٠١[وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ... ﴿٧١﴾] سورة مريم ,٧١[منسوخ بها أيضا وهو إطلاق النسخ في الأخبار وهو غير جائز قال مكي وأيضا فإن هذا لو نسخ لوجب زوال حكم دخول المعبودين من دون الله كلهم النار لأن النسخ إزالة الحكم الأول وحلول الثاني محله ولا يجوز زوال الحكم الأول في هذا بكليته إنما زال بعضه فهو تخصيص وبيان، وفي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... ﴿٢٥﴾] سورة النساء ,٢٥[الآية إنه منسوخ بقوله: ﴿... ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ... ﴿٢٥﴾] سورة النساء ,٢٥[وإنما هو بيان لشرط نكاح الإماء المؤمنات، والأمثلة هنا كثيرة توضح لك أن مقصود المتقدمين بإطلاق لفظ النسخ بيان ما في تلقي الأحكام من مجرد ظاهره أشكال وإيهام لمعنى غير مقصود للشارع فهو أعم من إطلاق الأصوليين فليفهم هذا وبالله التوفيق" اهـ.

وعلى الرغم من أننا لا نتفق مع الإمام الشاطبي في بعض التوفيقات بين الآيات، إلا أننا نغض الطرف عن هذا ونلتفت إلى نقطة أخرى، وهي أن كل هذه الأمثلة التي ذكرها من قولهم –الصحابة– بالنسخ لا يعد من باب النسخ بل هو من تقييد المطلق والتخصيص والاستثناء وما شابه، ولقد تعمدت نقل كل هذا الكم، لكي يظهر أن مراد النسخ عندهم غير مراد النسخ عند الأصوليين.

هذا ولا بد من ملاحظة أن كثير من الأقوال المنسوبة للصحابة لا تصح، وهي واهية السند والمتن، ولكن العلماء رحمهم الله تساهلوا في الرواية عنهم ثم أخذوا في الاستدلال بأقوالهم وجعلها حجة شرعية! وعلى الرغم من ذلك نقول: هذا كم كبير من الأقوال، التي يعلم الله صحة نسبتها إليهم، وأي منها لا يمكن حمله على النسخ

بالمعنى الأصولي، ونكرر: كثير منها لا يصح سندا، فكيف يمكن الادعاء أن الصحابة مجمعون على النسخ بالمعنى الاصطلاحي للفقهاء، فمن أين أتى هذا الاجماع المزعوم؟

لا منطقية وجود النسخ في القرآن

يقبل كثير من الأخوة دارسي العلم وجود النسخ في القرآن، ولا يرون في ذلك حرجا، لأنهم لُقنوا الحجج والمبررات لذلك، وسواء كانت قوية أم لا، فطالما أنه لا يظهر للإنسان إشكالية في المسألة، فسيقبل الحجج المطروحة، ولكن من يتفكر في الأمر قد يظهر له الكثير والكثير من نقاط العوار، ونوضح للقارئ الكريم أسباب قولنا بلامنطقية وجود النسخ في القرآن:

أولا: على الرغم من احترامنا لوجهة النظر القائلة بالتدرج في التشريع، ولكن القول بالنسخ يعني وجود الاختلاف، والله عز وجل يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ [سورة النساء ,٨٢]، وكيف أقنع أي إنسان غير مسلم أن هذا من باب التدرج في التشريع وليس من باب التناقض؟، فالاختلاف موجود –على قولهم– ولكنا قبلناه من باب أن هذا تدرج تشريعي، إذا لا يصح أن نلوم على غيرنا الاختلافات في كتبهم لأن لهم أن يحتجوا بأي حجة مشابهة، ولكن المنطقي أن يكون كتاب الله محكم كله، يؤيد بعضه بعضا، مع وجود التدرج في التشريع.

ثانيا: يؤدي هذا إلى تعطيل النصوص الشرعية، ونحن نرى أن أقوال العلماء والفقهاء كانت من باب الاجتهاد، والذي يقول على الله أنه ألغى هذا الحكم بدون دليل قاطع يتقول على الله، وبغض النظر عن ذلك، أيهما أولى بالاتباع، القول الذي يعطل النص

أم القول الذي يُعمله؟ وما أشد فرحة أعداء الإسلام بتعطيل نصوصه، إذا كانوا قد دسوا لنا بعض الروايات وقبلناها، وتركنا العمل بكتاب الله من أجل هذه الروايات.

ثالثا: القول بالنسخ أدى ويؤدي إلى ترك التدبر في كتاب الله، فإذا استعصى على عالم التوفيق بين آيتين من كتاب الله، قال أن هذا من باب الناسخ والمنسوخ.

رابعا: فتح باب التقول على الله، فالقول أن الله رفع حكم هذه الآية قول عظيم، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يونس, ٥٩]، فهل قول الصحابة أو التابعين كاف لنقول أن الله ألغى حكم هذه الآية؟ والله لا يكفي قول العالم أجمع.

خامسا: القول بأن ثمة خطر في فهم القرآن بذاته، وأن فهمه كما هو ضلال كبير ولا بد من معرفة أقوال العلماء في الملغي والمقرر، يشبه قول المسيحين تماما في أخذهم أقوال الرجال، فماذا تركنا للمسيحين إذن، ولم نعيب عليهم أخذهم أقوال القساوسة وترك ما هو مكتوب في الأناجيل؟

سادسا: كثرة الخلافات الفقهية، فهذا يرى أنه منسوخ وذلك يرى أنه محكم.

سابعا: القول بالنسخ يظهر الله في مظهر العاجز عن الإتيان بكتاب محكم، لا يناقض بعضه بعضا.

ثامنا: القول بالنسخ يؤدي إلى تشكيك المسلم في دينه، ويؤدي إلى طعن بعض المشككين في الدين للمسلم عن طريق هذه النقطة، والسخرية من ديننا أمام أتباع دينهم والقول بأن المسلمين يتبعون دينا متناقضا وهم يعلمون.

تاسعا: انصراف المسلمين إلى دراسة الروايات التي توضح! المحكم من الملغي من كتاب الله، بدلا من النظر في كتاب الله ذاته.

هذه بعض الآثار السلبية للقول بالنسخ، التي جعلتنا نرفض النسخ جملة وتفصيلا. ويرى الأخوة الأفاضل المثبتون للنسخ فيه بعض الحِكم!!، ونسألهم: ما هي الحكمة في النسخ؟ قالوا أن الحكمة من نسخ الحكم وبقاء التلاوة هي التلاوة والثواب!، فكما أنزل القرآن ليعرف ويعمل به أنزل ليتُلى. نقول معنى ذلك أن الكلام فاقد الدلالة، وهذا لا يصدر إلا من ... معاذ الله.

وقالوا أن النسخ غالبا يكون إلى التخفيف، فلذا بقيت الآيات تذكيرا بالنعمة في رفع المشقة على المكلفين. ونقول ولكنكم تقولون بوجود نسخ إلى أصعب، فلم هذا إذن؟ ومن المعروف بداهة أن القرآن به الآلاف من الآيات المحكمات التي تتلى ويثاب عليها الإنسان، فما المزية في هذه الخمس أو عشر آيات؟ وبداهة أن تكون الآيات محكمات أفضل من أن تكون منسوخة. قالوا أن الحكمة من نسخ التلاوة وبقاء الحكم هي الاختبار والامتحان، فكما تعبد الله الأمة بالقطعي تعبدهم بالظني، لينظر هل سيمتثلون أم!!!

وبطبيعة الحال حاولوا أن يجدوا حكمة في نسخ الآيات مثل "والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة"، فقال السيوطي تعليقا على ذلك:"الحكمة من نسخ هذه الآية التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها في المصحف، وإن كان حكمها باقيا لأنها أثقل الأحكام وأشدها وأغلظ الحدود، وفيه الإشارة إلى ندب الستر"اهـ.

وبطبيعة الحال هذا كلام إنشائي، فلو كان الحذف من أجل الشدة والاستقباح فلم ذكر فعل قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ [سورة الشعراء, ١٦٥] ولم ذكر ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾ [سورة آل عمران, ١٨١] ولم ذكر قول اليهود "عزير ابن الله"، فكلها أفعال وأقوال مستقبحة، وأما إذا كان يتكلم عن الشدة، فلا اعتقد أن هذه الآية أشد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ

خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾]سورة المائدة ,٣٣[فهذه الآية غاية في الشدة وعلى الرغم من ذلك تُركت في القرآن. وأود الإشارة هنا أن القول أن الله أنزل كلاما ورفعه مثل "والشيخة والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة" أو أحاديث الرضاع مثل "خمس رضعات مشبعات يحرمن" استنادا فقط على أحاديث آحاد يعد من باب التقول على الله عز وجل، فأحاديث الآحاد لا تثبت عقيدة.

إثبات إحكام أشهر الآيات، التي قيل بنسخها

ونصل الآن إلى أهم نقطة في إبطال ما يقولون، وهي النظر في الآيات التي قالوا أنها منسوخة، فهذا هو الدليل الفعلي الذي يبطل كل ما قالوه، فمهما قلنا وأصلنا سيظل فهم هذه الآيات هو العنصر الفصل، فإذا أظهرنا بطلان قولهم، رُفع الخلاف، والآيات التي قيل أنها منسوخة كثيرة جدا، لذا سنتكلم عن أشهرها فقط، ونوضح لكل ذي عينين أنها محكمة ولا نسخ فيها بإذن الله.

1- الزانية والزاني فاجلدوا

أول ما نبدأ به في هذا المبحث هو آية النور التي تتحدث عن حد الزنا، والتي تقول: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾
]سورة النّور ,٢[

لما لهذه الآية من ذكرى معي، حيث أنها أول آية تعرضت لها في موضوع النسخ وكان ذلك عندما كنت في الصف الثاني الجامعي، حيث كانت هذه الآية تؤرقني كثيرا، لأن الفقهاء على بكرة أبيهم تقريبا متفقون على أن هذه الآية منسوخة أو ناسخة لآيتي النساء: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [سورة النساء, ١٥-١٦] ويرون أن هذه الآية خاصة في حكم الزاني غير المحصن –الذي لم يتزوج–، أما الزاني المحصن فله حكم آخر وارد في السنة وهو الرجم.

وأنا كنت أرى أن الآية عامة تشمل المحصن وغير المحصن ولا فرق في العقوبة بين الاثنين، وحقيقة لا أذكر في ذلك الوقت إلى أي أصل فقهي استندت في رد هذا الحكم، هل أن السنة لا تؤسس حكما خارجا عن القرآن وهي فقط مؤولة للقرآن، أم أنني رأيت هناك تعارضا بين حكم الرجم وآية النساء: ﴿... فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ... ٢٥﴾ [سورة النساء, ٢٥]، الشاهد أني رأيت تعارضا بينهما، فبحثت هذا الموضوع وقلبته مرات عديدة حتى فتح الله علي بتوفيق مقبول لهذه الآيات، ثم اكتشفت فيما بعد أن هذا أيضا رأي بعض المفكرين والفقهاء، وكنت في هذا الوقت لا زلت آخذا بالتقسيم الفقهي المألوف بأن "المحصن" هو المتزوج أو الذي تزوج، وأن غير المحصن هو الذي لم يتزوج، وكنت لا أرى في الآيات تقسيما وأعدها عامة، ولكن عندما نظرت في الآيات مرة أخرى وجدت فعلا أن الآيات تفرق فعلا بين المحصن وغير المحصن، ولكن من هو المحصن؟ هل هو المتزوج كما يرى السادة الفقهاء؟

قول جديد في الإحصان

أرى أن هذا التقسيم غير صحيح ولكن المراد من الإحصان هو "التحرر" والمحصن أو المحصنة هو "الحر أو العفيف أو الحرة العفيفة" فقط، متزوجا أو غير متزوج، وغير المحصن هو العبد أو الأمة. والمحصن أي الحر عليه عقوبة وهي الجلد مائة جلدة، أما الأمة فلا عقوبة عليها حتى تتزوج من حر فإذا أحصنت أي تزوجت وحررت وزنت فعليها نصف ما على الحرائر وهو الجلد خمسين جلدة.

والذي دفعني إلى القول بهذا الرأي هو تتبع الآيات الوارد فيها كلمة "المحصنات" والجمع والتوفيق بين بعضها بعضا بدون إهمال أي منها أو تخصيص أي منها بدون داع، أو القول على إحداها أنها لا مفهوم لها كما قال بعض المفسرين الأجلاء، وأبدأ بتوضيح لم قلت بهذا الرأي، ولم أن هناك تعارض بين الآيات والرجم: أولا: يرى العلماء أن العبرة في التعامل مع النص القرآني هو عموم اللفظ لا خصوص السبب، ولكن على الرغم من ذلك فإن سبب نزول الآية دليل لنا فيما نقول، حيث أن مناسبة نزول الآية والآيات التالية كما نعرف هو حادثة الإفك، عندما خاض الناس في أم المؤمنين عائشة وهي امرأة متزوجة، فما وجه المناسبة أن تنزل آية تتكلم عن حكم الزاني غير المحصن –على تقسيمهم– وتقول: الزاني غير المحصن إذا فعل الفاحشة فعاقبوه بكذا، والواقعة كلها تدور عن امرأة متزوجة؟ لا وجه للمناسبة أما إذا قلنا أن الآية عامة وتشمل المحصن وغير المحصن –على تقسيمهم– فيكون المعنى مقبولا. ثانيا: لنتتبع مفردات الآيات كلمة كلمة، لنر ماذا تقول وهل تسير على منوال واحد أم أنها تتحرك في نطاقين مختلفين[89]. بدأت الآيات بقوله تعالى: "الزانية والزاني" وهما لفظان عامان ولا مبرر لتخصيصهما فيحملان على المحصن وغير المحصن –سنتعرض لأحاديث الرجم فيما بعد–. ﴿... فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ... ۝٢﴾ [سورة النّور, ٢] ثم تأمر بعدم الرأفة بهما، والجلد

(89) كل هذا من أجل القول المنتشر في فهمها وتفسيرها وإلا فهي أوضح ما تكون ولا حاجة لنا فيها إلى التتبع أو خلافه.

عقوبة لا تقارن بالرجم، وعلى الرغم من ذلك تراها الآية عقوبة قد تؤدي إلى تساهل الناس ولين قلوبهم، فتأمرهم في هذا الموقف بعدم الرأفة بهما. ثم قالت: ﴿... وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [سورة النّور ,٢] فالآية عندما تحدثت عن الجلد مائة جلدة وصفته بأنه "عذاب" ثم عندما تحدثت عن اللعان قالت: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ ... ۝﴾ [سورة النّور ,٨]، وكلمة العذاب معرفة بالألف واللام، وهما هنا للعهد، أي ويدرؤا عنها العذاب المذكور أي الجلد مائة جلدة أن تشهد ... إلخ الآية، فهنا عندما تحدثت الآية عن عقاب المرأة المحصنة ذكرت "العذاب" وهو ما استعملته مع الجلد.

ولقد أورد الإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب رأي الخوارج في الرجم وأنهم أنكروه، وحاول الرد عليهم، فقال: "المسألة الأولى: الخوارج أنكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿... فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ ... ۝﴾]سورة النساء ,٢٥[فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف لها وثانيها: أن الله سبحانه ذكر في القرآن أنواع المعاصي من الكفر والقتل والسرقة، ولم يستقص في أحكامها كما استقصى في بيان أحكام الزنا، ألا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ... ۝﴾ [سورة الإسراء ,٣٢] ثم توعد عليه ثانياً بالنار كما في كل المعاصي، ثم ذكر الجلد ثالثاً ثم خص الجلد بوجوب إحضار المؤمنين رابعاً، ثم خصه بالنهي عن الرأفة عليه بقوله: ﴿... تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ... ۝﴾ [سورة النّور ,٢] خامساً، ثم أوجب على من رمى مسلماً بالزنا ثمانين جلدة، وسادساً، لم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه، ثم قال سابعاً: ﴿... وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ... ۝﴾ [سورة النّور ,٤] ثم ذكر ثامناً من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعاً أن ﴿... وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ... ۝﴾ [سورة النّور ,٣]، ثم ذكر عاشراً أن ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الأربعة فمع المبالغة في استقصاء أحكام الزنا قليلاً

وكثيراً لا يجوز إهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها، ومعلوم أن الرجم لو كان مشروعاً لكان أعظم الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه دل على أنه غير واجب وثالثها: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ ... ②﴾] سورة النّور ,٢[يقتضي وجوب الجلد على كل الزناة، وإيجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد، وهو غير جائز. لأن الكتاب قاطع في متنه، وخبر الواحد غير قاطع في متنه، والمقطوع راجح على المظنون، واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك، قال أبو بكر الرازي روى الرجم أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وزيد بن خالد في آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لأثبته في المصحف. والجواب: عما احتجوا به أولاً أنه مخصوص بالجلد. فإن قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا أن الرجم منقول بالتواتر، وأيضاً فقد بينا في أصول الفقه أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز والجواب: عن الثاني أنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التي تقضي وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات والجواب: عن الثالث أنه نقل عن علي عليه السلام أنه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد وإسحق وداود " اهـ

ورحم الله الخوارج فما جانبهم الصواب دوما وليست كل أقوالهم خاطئة، فإذا تأملنا أدلة الخوارج ورد الإمام الرازي عليهم لوجدنا أن رده عليهم واه، لا يتناسب مع الأدلة الناصعة الكثيرة المأخوذة من النص، فما رد عليهم إلا في مسألة واحدة فقط وهي مسألة تخصيص القرآن بخبر الواحد أو الخبر المتواتر، ونحن نرى أن هذا الخبر غير متواتر بداهة لأنه لو كان متواترا لعرفه الخوارج فهم كانوا قريبي العهد من موت النبي(ص)، ولا يوجد ما ينفي أنه كان منهم نفر من الصحابة، وحتى إذا لم يكن منهم فلو كان الخبر مشتهرا لاستُدل به عليهم. فدل هذا على أن الخبر خبر أحاد وليس

متواترا، والآحاد لا يخصص القرآن ولا ينسخه، أما قوله أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز في أصول الفقه، فهذا رأيه الذي لا يلزمنا، وينفيه القرآن. ولم يرد الإمام الرازي رحمه الله على باقي المسائل والأدلة التي ذكروها، وغض الطرف عنها، فلم يوضح، لم لم يذكر الله هنا عقوبة المحصن إذا كانت الآية خاصة وقد فصل في الآيات التاليات كل الأحكام المتعلقة بالزنا من ملاعنة وقذف إلخ. والأهم من ذلك أنه لم يقل كيف يقسم العذاب "الرجم" على الأمة المحصنة "المتزوجة" في قوله تعالى: ﴿... فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النساء, ٢٥] هل سترجم نصف رجمة؟!

ونلاحظ أيضا أن القرآن تكلم عن المرأة المطلقة التي تزني، ولم يذكر أنها تُقتل، فقد تكون الزانية زوجة مطلقة لا تزال فى فترة العدة، ومن حق المطلقة فى فترة العدة أن تظل فى بيت الزوجية، ولكن تفقد هذا الحق إذا وقعت فى الزنا، وحينئذ يكون من حق زوجها أن يطردها، ولكن بشرط أن تكون جريمة الزنا مثبتة حتى لا يتاح لزوجها أن يتجنى عليها بالباطل، يقول تعالى عن تلك الزوجة المطلقة: ﴿... لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ... ﴿١﴾﴾ [سورة الـطلاق, ١].

والقرآن يصف الفاحشة بأنها "فاحشة مبينة" أي مثبتة ضماناً لعدم الافتراء بلا دليل.. وعقوبة الطرد هنا تضاف إلى العقوبة الأخرى وهى مائة جلدة، فاكتفى القرآن بالقول أنها تُخرج، فكيف التوفيق مع من يقول أن عقوبتها الرجم، الذي يؤدي إلى الموت؟! وهناك عقوبة أخرى لتلك الزوجة المطلقة إذا وقعت فى الزنا بعد الطلاق، وهي أنه من حق الزوج أن يمنعها عن الزواج إلى أن تدفع له بعض ما أعطاه لها فى الصداق أو المؤخر. والشرط أن تكون جريمة الزنا فى حقها مثبتة بالدليل، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ... ﴿١٩﴾﴾ [سورة النساء, ١٩]، والعضل هو منع

المرأة من الزواج، والقرآن يحرم العضل إلا فى حالة المطلقة الزانية .. فيجعل من حق الزوج أن يمنعها الزواج، إلى أن تعيد له بعض ما دفعه إليها فى المهر. وفي حالة نساء النبى يقول التشريع القرآني: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ ... ٣٠﴾ [سورة الأحزاب ,٣٠]. فوصف عقوبة الجلد بأنه "عذاب" أي مائتا جلدة.. والقائلون بأن عقوبة المتزوجة هى الرجم كيف يحكمون بمضاعفة الرجم لنفس الشخص؟ وهل يموت الشخص مرتين؟

التدليل عليه

نوضح لم قلنا أن الإحصان هو التحرر والتعفف، والمحصن أو المحصنة هو الحر العفيف أو الحرة العفيفة فقط، ولا دخل للزواج أو عدمه بالإحصان: لنتتبع الأيات التي ذكر فيها الإحصان في القرآن ولنرى ما يكون مضمونها: أولا: نبدأ بآية النور الذي اختلف فيها المفسرون كثيرا في تأويلها حيث يظهر ذلك المعنى فيها جليا وذلك في قوله تعالى: ﴿... وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [سورة النّور ,٣٣] وقد كانت هذه الآية تسبب اضطرابا عظيما لي في الفهم على التفسير السابق، من أن المراد من التحصن "التعفف" لأني أرى –وكل مؤمن يرى– أنه لا توجد كلمة زائدة في القرآن، لا فائدة منها، فلم ذكر هنا "إن أردن تحصنا" والمعنى واضح من قوله "ولا تكرهوا"، فالإكراه يستلزم الرفض، فيلزم إذن كما قال مفسر جليل أن جملة "إن أردن تحصنا" "لا مفهوم لها"! أو أنها نُزلت منزل الغالب، وهذا ما لا يوجد في القرآن أيضا. ولكن على أي تفسير بهذا المعنى فالجملة يمكن حذفها، ولا علاقة لها بالسابق لها في الآية.

ولكن إذا فهمنا "التحصن" بمعنى "التحرر" فسيكون المعنى لا زيادة فيه ويتفق مع السياق، ولنوضح كيف هذا: الآية تقول: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ ... ﴿٣٣﴾﴾]سورة النّور ,٣٣[إلخ الآية.

الآية تتحدث عن أحكام النكاح من أن الذي لا يجد ما يستطيع به النكاح فليتعفف، ومن أراد مكاتبة سيده ليتحرر –ذكرا كان أو أنثى– فليكاتبه وليؤته سيده من مال الله الذي ءاتاه، ثم تتكلم عن الفتيات التي يردن التحرر أيضا، فلا يجدن فتأمر الأسياد بألا يستغلوا هذا الموقف ويكرهوهن على البغاء، لكي يستطعن دفع مبلغ المكاتبة ويتحررن، لكي يكسبوا من وراءهن شيئا فانيا وهو عرض الحيوة الدنيا، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم. فالأَمَة كما قلنا لا عقوبة دنيوية عليها ولكن هذا مما يجب التنزه والبعد عنه، فإذا حصل فهو ذنب صغير لها وسيغفر الله. ثانيا: وردت المحصنات بنفس المعنى من العفة والحرية في سورة المائدة حيث جاء في قوله تعالى: ﴿... وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ... ﴿٥﴾﴾]سورة المائدة ,٥[، فهنا أيضا وردت كلمة: "المحصنات" بمعنى الحرائر العفيفات مثل ما ذكرنا ولا عبرة بالزواج، وما يقال في: ﴿... مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ... ﴿٢٥﴾﴾]سورة النساء ,٢٥[يقال في: ﴿... مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ... ﴿٥﴾﴾]سورة المائدة ,٥[عند التعرض لآية النساء.

وننتقل إلى آيات سورة النور، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾]سورة النّور ,٤[وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾]سورة النّور ,٢٣[ولا يوجد

إنسان يستطيع القول أن المراد من المحصنة هنا المرأة المتزوجة، وإلا يكون معنى الآيات أن حد القذف مخصوص بمن رمى النساء المتزوجات، أما إذا قذف امرأة غير متزوجة فلا شيء فيه، وهذا تعسف لا دليل عليه. والآيات دليل على أن المؤمنة بشكل عام محصنة، ولكنا فهمنا أن المراد من ذلك هو الحرة فقط ولا يدخل فيها الأمة من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... ﴿٢٥﴾﴾]سورة النساء, ٢٥[فهنا المعنى المراد بداهة هو المرأة الحرة بدليل مقابلته بالأمة، ودل التخصيص "بالمؤمنات" على أن غير المسلمة قد تكون محصنة أي عفيفة، إذا يفهم من الآيات السابقات أن المحصنة هي العفيفة الحرة وحتى الآن لا دخل للزواج بالموضوع. والعمدة في تفسيرهم "المحصنة" بالمتزوجة هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾] سورة النساء, ٢٤[، فقالوا أن معنى الآية أن المحصنات من النساء أي المتزوجات محرمات علينا كما حرم علينا الأصناف الواردة في الآية السابقة من الأمهات والبنات إلخ الأصناف إلا ما ملكت أيماننا، فهذا الصنف يحل لنا وطئه.

ولنا تعليق على هذا التفسير:

لو كان المقصود كما يقولون وهو المرأة المتزوجة لكانت الأمة التي في ملك رجل حل لأن يطأها غير مالكها مع هذا المالك، وهذا غير مقبول في أي دين.

روي عن ابن عباس أنه لم يعلم معناها، وقال مجاهد: "لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل". فلو كان المعنى هو العطف على المحرمات السابقات ما تحير فيها ابن عباس ومجاهد، ولكان فهمها هينا على أي أحد. كذلك لا بد مراعاة الفواصل بين الآيات، فقد جاء هذا الصنف في آية مستقلة، فلم فصل طالما أنه تبع للأصناف السابقة؟ ومعنى الكلمة هنا أيضا هو الحرة العفيفة، والمراد من الآية والله أعلم: والحرائر العفيفات كُتب عليكم الزواج منهن ولا يجوز الزواج من غيرهن، إلا ما

ملكت أيمانكم. وتوضح الآية التالية متى يجوز الزواج منهن، وهو عدم استطاعة نكاح الحرائر المؤمنات ففي هذه الحالة يستطيع الإنسان أن ينكح الأمة، ثم تكمل الآية الحديث عن باقي أنواع النكاح، وهو النكاح المؤقت المسمى نكاح المتعة. وبهذا يكون المعنى متناسبا مع السياق والأحكام الشرعية.

وورد أيضا في قوله تعالى: ﴿... وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ... ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النساء, ٢٥] ومعنى الآية واضح، وهو: وأعطوهن مهورهن التي تتناسب معهن تبعا للعرف، ولكن إذا أردتم أن تتزوجوا منهن فلا بد أن يكن عفيفات مسلمات ولا تمارسن الفاحشة علانية وتتخذنه حرفة ولا تمارسنه سرا من اتخاذ الخليل. ﴿... فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النساء, ٢٥] وكلمة "أحصن" هنا هي مثار الجدل، حيث يرون أن الإحصان هنا المراد منه الزواج وأنا أرى أن المراد منه هو "التحرير". سيقول قائل: ولكن الأصل "ح ص ن" في اللغة يأتي بمعنى "المنع والحبس". أقول: هذا صحيح تماما، ولكن إذا تتبعنا الكلمة في أصح أصل لغوي وهو القرآن وجدنا أنه يستعملها بمعنى معاكس تماما وهو التحرير، فظهر لي أن هذا الفعل من أفعال الأضداد، التي تأتي بالمعنى وضده، مثل "ظن" والتي تأتي بمعنى الشك واليقين، "أخفى" تأتي بمعنى خبأ واظهر، "تل" تأتي بمعنى ارتفع وانخفض، وكثير من الكلمات تستعمل هذا الاستعمال. ثم أنها إذا استُعملت بهذا المعنى فهي أيضا تشتمل على المعنى المراد من الحبس والمنع، فالإنسان الحر له حقوق كاملة التي تمنعه وتحصنه من استغلال الآخرين، بخلاف العبد الذي يسقط الكثير من حقوقه، ويُستغل استغلالا كبيرا فهو غير ممنوع من الاستغلال المادي والمعنوي من الناس وغير محصن منهم.

ونحن نعلم أن الإحصان هنا في هذه الآية مرتبط بالزواج، والمشكلة هي من اللبس بين الزواج والتحرير، فهي نعم تزوجت ولكن ليس هذا هو الإحصان بل هو "التحرير"، فعند زواجها من حر تُعتق –بخلاف الزواج من عبد فلا تعتق– وهذا من ضمن طرق

الإسلام في تحرير العبيد فالمؤمن الحر إذا تزوج أمة ودفع أجرها أي مهرها بالمعروف تنتقل من ملك اليمين إلى امرأة حرة –فالزواج يحرر الأمة ولا سلطان لسيدها عليها–، وتصير محصنة إذا زنت فعليها نصف ما على الحرائر بداية من العذاب وهو الجلد خمسين جلدة. ويكون معنى الآية أن الأمة عندما تتزوج –وتُحرر– يكون عقوبتها نصف عقوبة المحصنة العادية –وفي هذا إشارة واضحة أن الأمة لا عقوبة عليها إذا زنت ولم تكن متزوجة[90]. قد يقول قائل: ما دامت قد تحررت، فلم عليها نصف عقوبة الحرة، وهي الآن حرة مثلها؟ نقول: الحرية هنا حرية منقوصة، لا كاملة فهي إذا طلقها زوجها تعود لملك سيدها مرة أخرى ولا تصير امرأة حرة مثل المحصنات الأخريات، فهي حرية معلقة لا دائمة.

إذا يظهر من هذه الآيات كلها أن المراد من المحصنة هي الحرة العفيفة فقط، ولا دخل للزواج في هذا الشأن، وغير المحصنة لا عقوبة عليها والمحصنة عليها مائة جلدة.

التوفيق بين الآيات وآيات النساء

ونأتي إلى التوفيق بين الآيات الواردة في سورة النور والواردة في سورة النساء فنقول:

آيات النساء تقول: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾ [سورة النساء, ١٥-١٦]

---

[90] أنا أعلم أن هذا القول يستثقله الناس من أن الأمة العزبة لا شيء عليها إذا زنت ولكن هذا راجع إلى وجهة النظر إلى فلسفة الإسلام في العلاقة بين الرجل والمرأة من زواج وعلاقة إلخ وهذا ليس رأي لي فقط، فقد قال به ابن عباس وطاووس وسعيد ابن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود الظاهري، الذين رأوا أنها تضرب تأديبا فقط ولكن لا عقوبة محددة عليها.

وألفاظ الآيات لا تحتم النسخ ولا ترجحه، ولكن وردت الروايات التي توضح أن هذا الحكم كان في صدر الاسلام وكان في الزنا ثم نسخ، حيث روى أصحاب الحديث روايات مثل ما رواه الترمذي "1354- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذُوا عَنِّي فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ الرَّجْمُ وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ"، فجعلت الرواية آية النور ناسخة لآية النساء.

واختلف المفسرون في القول بالنسخ في هذه الآيات اختلافا شديدا؛ فمنهم من قال: كان الأمر باديء ذي بدء بالإمساك ثم نسخ بالإيذاء ثم نسخ بالجلد والرجم، ولكن اختلفوا هل كان ذلك في المحصنين وغير المحصنين؟ أم كان في المحصنين فقط أم كان في الفتيان قبل أن يتزوجوا؟ ومنهم من قال بالعكس أي أن العقوبة كانت أولا الإيذاء ثم صارت الحبس، وهذا كله على تفسير الآيتين على أنهما واردتين في الزنا.

ونحن نرى أن الآية محكمة ولا وجه للتعارض أو اللبس فيها، ونقول أن الآية الأولى التي فيها: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ... ١٥﴾ [سورة النساء, ١٥] هي خاصة بالنساء ومتعلقة بحكم السحاق، والآية الثانية ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ ... ١٦﴾ [سورة النساء , ١٦] خاصة بالرجال ومتعلقة بحكم اللواط، وهذا هو اختيار النحاس عن ابن عباس وقول مجاهد، لمن يريد أن يعرف هل قال به أحد من السلف.

والدليل الواضح على صحة هذا الرأي هو اللغة، ف "اللاتي" جمع "التي" وهي اسم موصول للمؤنث، فيكون المقصود من الآية هو عقوبة السحاق، وهي الحبس حتى الموت أو يجعل الله لهن سبيلا، أي بالشفاء من هذا المرض أو بالزواج أو بالتوبة، والآية الثانية قال فيها: "واللذان" وهو مثنى "الذي" وهو اسم موصول للمذكر، فتكون هذه الآية في حكم اللواطي، وهو الإيذاء ومن الممكن أن يكون الشتم أو التعيير أو غيره، ويختلف الإيذاء بحسب المجتمع فقد تركه القرآن مفتوحا تبعا لحالة المجتمع.

والدليل على أن "الفاحشة"[91] لا تستخدم حصرا في الزنا هو استعمال القرآن لها مع قوم لوط، حيث قال في حقهم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [سورة النمل ,٥٤] وهذا دليل على جواز استعمالها في السحاق أيضا، وهذا التأويل أولى من غيره حتى لا يؤدي ذلك إلى مخالفة اللغة، والتكرار والقول بالتعارض والنسخ. وهذا ما يرفضه الجميع حيث نُسخت الآيات أكثر من مرة. أما حديث "خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر والثيب بالثيب البكر تجلد وتنفى والثيب تجلد وترجم" فيمكن رده على أساس مخالفته للقرآن، ومن ناحية أخرى فهو حديث مضطرب فقد روي بدون "قد جعل الله لهن سبيلا"، وعلى فرض صحة الحديث كيف ينسخ الحكم بالإمساك وقد نسخته الآية التالية له وصار الحكم الإيذاء؟ فيجب القول أن هذا الحديث مفبرك، لتعارضه حتى مع باقي الروايات التي جاءت في هذا السياق.

التوفيق بين الآيات والأحاديث

ونصل إلى التوفيق بين الآيات والأحاديث الواردة في موضوع الرجم، فنقول: لا بد من الاعتراف بأن الروايات في الباب كثيرة، ولا يمكن الإدعاء بأنها كلها ليس لها أصل، ولكن لا يمكن للسنة في نفس الوقت أن تنسخ القرآن أو تزيد عليه فلا بد من التوفيق بينهما، لأن النسخ يفيد التعارض، فنقول: نقر أن الرجم حدث فعلا، ولكن هل هناك دليل على أنه كان بعد آية النور؟

لا يوجد دليل على أن الرجم كان بعد آية النور، والدليل على ذلك حدوث الشك عند بعض التابعين في حكم الرجم هذا، فيروي لنا البخاري " 6315– ... عن خالد عن الشيباني قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى "هل رجم رسول الله(ص)؟ قال نعم. قال

[91] هناك من يرى أن المراد من الفاحشة هنا هو الزنا العادي بين الرجل والمرأة ولكن ذلك الذي لا أولم يمكن إثباته بأن تدخل البيوت على الرجال أوشوهدت في البيوت ولكنها لم تضبط في وضع الزنا، فهذه لا يقام عليها الحد –الجلد– ولكنها تعاقب على ذلك بالحبس في البيوت حتى يتوفاها الموت أوتتوب وتقلع عن هذه العادة الشنيعة.

قلت: قبل سورة النور أم بعد؟ قال: لا أدري". فهذه الرواية تظهر أن الحادثة من الممكن أن تكون قبل آية النور وتكون اجتهادا من الرسول(ص) أو موافقة منه لأهل الكتاب، ثم نزل الوحي بآية النور وهذا لا يسمى نسخا، لأن النسخ لا يكون إلا فيما كان بوحي مسبق وهنا لا دليل على وحي فالأولى والأسلم الحمل على هذا التأويل حتى لا يؤدي إلى القول بوقوع النسخ أو التعارض[92].

ووردت بعض الروايات التي تقول أن عليا رضي الله عنه جلد ورجم[93]، وهذه الروايات كانت مصدر قلق عظيم لي جدا فكيف يُلغى الحكم ويطبقه علي رضوان الله عليه، إلى أن ظهر لي وأنا أقرأ في كتاب "شرح مشكل الآثار" للإمام الطحاوي، أن هذه الروايات دليل لنا لا علينا، فأولا: هذه الروايات وردت عن الشعبي وهو مشكوك في رؤيته للإمام علي، فعلى هذا يكون الحديث معتلا، ولكنا لن نأخذ بهذا القول وسنقول أنه رأه وأن هذه الروايات سليمة صحيحة، فماذا تقول هذه الروايات؟ تقول كما روى الإمام أحمد: "1248- ... فَقِيلَ لَهُ لِمَ جَلَدْتَهَا ثُمَّ رَجَمْتَهَا قَالَ جَلَدْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" فهذا القول ينسف الإدعاء أنه كانت هناك آية تتكلم عن الرجم ثم نسخت، فلوكان ذلك لقال "جلدتها ورجمتها بكتاب الله" ومعلوم أن الآيات المنسوخة -هذا إن وُجدت- لا تعتبر سنة بل هي من عند الله!، ويصحح هذا ما ذهبنا إليه من أنه كان اجتهادا من الرسول الأعظم، ثم جاءت آية النور، والإمام علي لم ير أن الحكم نُسخ، بل اعتقد أنه مازال ساريا من باب السنة التي يمكن العمل بها بجانب القرآن.

[92] قد يعترض البعض قائلا: بعض هذه الروايات وردت عن ابن عباس، وهو قد وصل المدينة متأخرا فيدل ذلك على أنه كان بعد آية النور. فنرد قائلين: وهل كل ما رواه ابن عباس عن الرسول سمعه منه؟ لا، بطبيعة الحال، فقد جاء ابن عباس إلى المدينة قبل وفاة النبي(ص) بثلاث سنوات وكان صبيا صغيرا، وروى عنه أحاديث كثيرة، ومعلوم أن أكثرها مأخوذ من الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي(ص)، فلا دليل في ذلك.

[93] الشيعة ينكرون هذه الواقعة، فهم ينكرون مسألة الرجم من الأساس وكذلك الزيدية والإباضية لأنهم يرون أن السنة لا تزيد على ما في القرآن.

أما الحديث الذي ورد عن عمر والذي رواه الأئمة والنص هنا لأحمد "333-... وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ وَلَوْلَا أَنْ يَقُولُوا أَثْبَتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَيْسَ فِيهِ لَأَثْبَتُّهَا كَمَا أُنْزِلَتْ" وهذا الحديث رواه البخاري أيضا ولكنه من معلقاته وهو معلول، ونحن نرد هذا الحديث ونُجل الفاروق عن أن يصدر منه هذا الكلام من أنه يخشى كلام الناس!، ومن يقرأ الخطبة التي فيها هذا الكلام من الفاروق، يشعر أنه مدرج عليها، فالكلام قبله لا علاقة له به.

إذن فالروايات الواردة كلها لا تنفي ما ذهبنا إليه والحمل على ما ذهبنا إليه أولى، وبهذا التوفيق نكون قد أثبتنا أن السنة لم تنسخ القرآن في هذه المسألة، وأن الآيات الواردة في الشأن كلها متفقة ولا تعارض.

2- الوصية الواجبة

ونأتي إلى الحكم الثاني من الأحكام الكثيرة المعطلة في كتاب الله وهو "الوصية الواجبة"، ولا نقصد طبعا المعنى الفقهي المتعارف عليه، ولكن نقصد بذلك الحكم الوارد في آية البقرة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة البقرة , ١٨٠] والذي أُهمل تماما. قيل في تفسير هذه الآية أنها كانت أمرا واجبا ثم نُسخت، واختُلف في ناسخها؛ هل هو قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء , ١١] إلخ الآية أم أن الناسخ من الحديث الشريف وهو ما رواه الإمام أحمد أن النبي(ص) قال: "-... إن الله أعطى كل ذي حق حقه ولا وصية لوارث".

وقبل التعليق على الآية أو الحديث نود لفت الانتباه إلى نقطة واحدة وهي أن الآية بدأت بقوله تعالى "كتب عليكم" وهو نفس اللفظ المستعمل مع الصيام والصلاة، وهو أعلى ألفاظ التكليف، وعلى الرغم من ذلك يقولون بنسخ الآية!!

التوفيق بين الآية والحديث:

أولا: حديث "إن الله أعطى كل ذي حق حقه ولا وصية لوارث"، حديث ضعيف ورد من طرق كثيرة جدا ولكنها كلها ضعيفة، لا يُصحح بمثلها حديث فلا ينسخ الآية، والحديث يُضرب كمثال للأحاديث الضعيفة، التي عُمل بها لقبول الأمة لها على الرغم من ضعفها! تصور يعطل كتاب الله بحديث ضعيف بحجة عمل الأمة به!! ولقد هاج الإمام أبو بكر بن العربي وماج عند التعليق على دعوى نسخ الآية بهذا الحديث فهو واضح الضعف، وذكر الإمام أبو بكر بن العربي الأقوال في هذه الآية فقال أن بعض العلماء قال أنها محكمة، فيُقبل القول بأن الوصية واجبة.

إذا فالرأي موجود منذ زمن وليس بدعا، ولكن للأسف لم يجد من يسانده وينشره. وهذه آفة الكثير من الآراء والأحكام الفقهية الجيدة التي لا تجد من يساندها، فتضيع مع الزمن مع حاجة الناس إليها.[94] ونحن لا نحتاج إلى قول أحد فالآية واضحة ولكن كنت أود الإشارة فقط أن الرأي له وجود منذ قديم الزمان. وعلى فرض صحة الحديث فلا مبرر للقول بالنسخ إذ أن التوفيق بينهما يسير، إذ يمكن القول أن النهي في الحديث للندب حيث أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى وقوع العدواة والبغضاء بين الوارثين، أما الوصية للوالدين فلن تثير أحدا، لعظم قدرهما عند الجميع.

[94] كنت أتحدث مع صديق أزهري عن هذه المسألة وأن الفقهاء يحرمون الوصية للأقارب، فقال لي: كيف ذلك فلربما كان هناك ابن لم يتعلم وكان مع أبيه في رعاية الزراعة أو التجارة، أفلا يجوز أو يجب أن يوصي له بشيء؟ فلما قلت له: أنت بفطرتك ترفض هذه المسألة، والحديث الذي يستدلون به ضعيف، وما أن ذكرت له أن في المسألة حديث حتى تراجع وحاول أن ينفي قوله السابق، لظنه أنه عارض الحديث –الذي لم يكن يعلم به– بعقله، فقلت له: اطمئن، لقد قال القرآن بمثل ما قلت بفطرتك بدون أن تعرف.

ولكن إذا أمن ذلك فلا مانع من التوصية بأن يكون الموصى إليه ذا حاجة أو يستحق أن يزاد له قليلا في نصيبه لضعف أو مرض أو لمساعدته أبيه طيلة عمره في تجارته فيحق له أن يزيد في نصيبه.

أما القول بأن آية النساء نسخت هذه الآية فقول متهافت، إذ أن هذه الآية في الوصية وآية النساء في الميراث، فلكل منهما حكم منفصل، وآيات النساء تذكر بعد تقسيم الميراث دوما "من بعد وصية" أي أن هذا التقسيم على الورثة يكون من بعد وصية أو دين، فكيف تكون نسختها؟ ولولا هذه الروايات الضعيفة ما فكر أحد في وجود تعارض بينهما، فلا مانع عقلا من أن يوصي الإنسان بجانب التوزيع الطبيعي للتركة.

ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن اهتم بالوصية مثل الميراث، وفصّل أحكامها في آيات كثيرة وذكر حكمها حتى في السفر، ونجد ذلك في سورة المائدة، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [سورة المائدة, ١٠٦]
فهاهنا يوضح القرآن لنا كيف نوصي في حالة السفر، فالوصية من المكتوبات مثلها مثل الصلاة والصوم، ولقد وضح القرآن لنا حكمها في الحضر، ولما كانت من المكتوبات وضح حكمها في السفر أيضا. ومعلوم أن المائدة من آخر ما نزل من القرآن، فكيف تكون منسوخة والقرآن يوضح حكما متعلقا بها في آخر ما نزل من القرآن؟!

إذن نخرج من ذلك إلى أن الوصية واجبة في الحالات المذكورة ءانفا من قرب الموت ومباحة في غير ذلك، بشرط أن تكون بالمعروف.

3- وإذا حضر القسمة أولوا القربى

ونأتي إلى آية هي من أروع الآيات التشريعية في القرآن وهي متعلقة بالتركة، والتي توضح اهتمام الإسلام باليتامى والمساكين والأقارب، وللأسف قيل أنها منسوخة مثل كثير غيرها وهذه الآية هي: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [سورة النساء ,٨] حيث قالوا أنها نُسخت بآية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء ,١١]! وهذا القول بالنسخ من عجيب الأقوال، فربما كان يبدو في الآيات السابقة تعارضا بين الآيات وبعضها أو بينها وبين الأحاديث، فما المبرر للقول بالنسخ هنا؟ فالآية تتحدث عن حضور بعض الأقارب أو اليتامى والمساكين الذين لا نصيب لهم في التركة، فتوجب –أو تندب على رأي الآخرين– أن يُعطوا شيئا منها وأن يقال لهم قولا حسنا تطيبا لقلوبهم[95]! ولست أدري ما المبرر للقول بالنسخ في هذه الآية؟

ولقد قال بإحكام الآية علماء كثيرون منهم أبو بكر بن العربي، وجاء ذلك عن عروة وسعيد بن مجاهد وجبير وابن عباس وعطاء، وروي لما قسم محمد بن أبي بكر التركة بحضور عائشة أم المؤمنين أعطى كل من حاضرا شيئا وتلا هذه الآية.

ولقد روى البخاري "2553–... عن بن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون الناس بها"

ففي هذا وما مضى دليل واضح على أنها محكمة ومهملة!

---

[95] وهذه الآية كما أسلفت الذكر من أفضل الآيات التي تبرز الجانب الإنساني –الإلهي– في التشريع الإسلامي التي توضح اهتمام الإسلام باليتامى والمساكين والأقارب الذين لا يرثون فأوجب إعطائهم شيئا من التركة وهذا ما سمعنا به أو وجدنا مماثلا أو مقاربا له في أي تشريع أرضي.

4- يسألونك عن الخمر والميسر

وعلى الرغم من أننا كنا نود الكلام في هذا المرور السريع على الآيات التي يترتب عليها عمل فقط ولا نخوض في الآيات التي لا يترتب عليها عمل، ولكن لما كان هذا النموذج من أشهر النماذج التي يستدلون بها على موضوع النسخ، وكان في نفس الوقت أفضل نموذج يوضح الفارق في التعامل مع النصوص بيننا وبينهم، نتكلم عنه:

وهذا النموذج هو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة المائدة, ٩٠] حيث رأوا أن هذه الآية نسخت آيتين أخرتين هما: قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النساء, ٤٣]. حيث قالوا: كانت الخمر مباحة في صدر الإسلام، فسأل الناس عن حكم الخمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، فلم يقلع الناس وظلوا يشربون الخمر، حتى حدث أن دخل الإمام علي يصلي بالناس وهو سكران[96]، فقرأ "قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون"، فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ... ﴿٤٣﴾﴾ [سورة

---

[96] بطبيعة الحال ينكر الشيعة هذه الرواية ويشنعون عليها أشد التشنيع.

النساء, ٤٣]، فكان الناس يشربون الخمر حتى إذا قرب وقت الصلاة تركوها ويشربونها بعد العشاء، فقال عمر بن الخطاب: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة المائدة, ٩٠] فقال عمر: "انتهينا يا رب".

هذه هي وجهة نظرهم في فهم الآية وهذه طريقتهم في التعامل مع الآيات، وعلى الرغم من أنهم يقولون أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إلا أنهم عند التفسير يعتمدون خصوص السبب لا عموم اللفظ، وهذا هو سبب كل قول بالنسخ، ولنبدأ الآن بمناقشة هذا التفسير والتوفيق الرائع بين الآيات:

أولا: لا تعارض على فهمهم بين الآيات، فآية البقرة تقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، وعلى افتراض أن هذه الآية لا تحرم الخمر، هل تغير حكمها بعد نزول آية المائدة "فاجتنبوه"؟ لا بطبيعة الحال لم يتغير الحكم، فالخمر فيها إثم كبير، حيث أن تاجرها أو شاربها أو ساقيها له من الإثم الكبير وهذا ما قالته الآية، وفيها منافع للناس، حيث أن تاجرها وساقيها ومعتصرها وعاصرها ينتفعون من ورائها، ولكن أيهما أكبر النفع أم الإثم؟

بداهة الإثم أكبر، وهذا ما قالته الآية، حيث قالت ﴿... وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، ولا يزال هذا الحكم مستمرا حتى الآن بعد نزول آية المائدة، فلست أدري ما الحكم الذي رُفع!

ثانيا: أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ... ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النساء, ٤٣] فالتحريم في سورة المائدة يشملها، ولكنهم نظروا إلى دليل الخطاب، فقالوا: بما أنه قال: ﴿... لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ...

﴿٤٣﴾] سورة النساء, ٤٣[فهذا يعني أننا يجوز لنا السكر في غير وقت الخطاب. ونقول: أولا: جئتم هنا بنوع جديد من أنواع النسخ وهو نسخ جزء من الآية وإحكام الجزء الآخر، فالجميع متفق على أن الجزء الباقي من الآية وهو قوله تعالى: ﴿... وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾] سورة النساء, ٤٣[محكم، فنسختم جزءا من الآية وأحكمتم جزءا آخر، وهذا لربي في العلوم بديع!! ثانيا: فهمتم أن المراد من السكر هو النابع من الخمر فخصصتم الآية ثم نسختموها، ولكن السكر في اللغة عام، فهناك سكر النوم، وهناك من المفسرين من رأى أن السكر المقصود هنا هو سكر النوم، أي لا يأتي الإنسان للصلاة وهو في حالة نعس بل عليه أن يكون متيقظا حتى يعلم ما يقول. وهناك السكر من الفزع: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾] سورة الحج, ٢[، وهناك السكر من الموت: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾] سورة ق, ١٩[، فهناك أنواع كثيرة من السكر ولا يجوز أن نحملها على نوع واحد منها.

ثالثا: الاعتماد في الأساس لا بد من أن يكون على المنطوق، ودليل الخطاب ملزم ولكن عندما لا يؤدي إلى التعارض مع القرآن أو الواقع، أما المنطوق فملزم في كل حين، وهنا المنطوق لا تعارض بينه وبين قول الله تعالى "فاجتنبوه"، ونضرب على ذلك مثلا: إذا قلت للعامل: أنت ممنوع من الكلام من الساعة الثانية إلى الرابعة، ثم قلت له بعد فترة: أنت ممنوع من الكلام طيلة فترة العمل. فهل ألغى الأمر الثاني الأمر الأول؟ لا، لم يلغه بل أضاف إليه، وهذا ما فعلته آية المائدة، حيث أضافت إلى آية النساء تكليفا إضافيا بجوار الأول، فأين النسخ؟

إذن حتى على القول بفهمهم وتطبيقا لقواعدهم مع الآيات لا نسخ في الأمر بتاتا، بل هو تدرج حكيم يشمل آخره أوله ولا يرفعه، بل يسير في نفس مساره بتوافق وانسجام، بعكس فهمهم المعاكس لقواعدهم التي أصلوها، ثم ببساطة تركوها!

ونصل إلى فهمنا نحن للآيات، فنقول: نحن نرى أن آية البقرة ﴿... قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ... ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، هي التي حرمت الخمر وليس آية المائدة، إذ كيف يقول الله عن شيء أنه إثم كبير ولا يتركه الصحابة، وقد سمعوا في مكة قول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٣٣]، فكيف يكون الإثم فقط محرما ولا يكون الإثم الكبير حرام كذلك؟

فلو لم توجد آية الأعراف لفهم الإنسان بداهة أنها حرام من قوله تعالى "إثم كبير" والعجيب أن "إثم كبير" عندهم لا تعني التحريم و"اجتنبوه" تعنيه، فمن تأول "إثم كبير" سيتأول "اجتنبوه" كذلك. ونحن نفهم آية النساء فهما عاما، فنقول أن "سكارى" تشمل كل أنواع السكر أي ذهاب العقل من نعاس وخوف وفزع شديدين وما بخلافه، فلا يقرب الإنسان الصلاة في أي حالة من هذه الحالات، أما آية المائدة بالاجتناب فهي آية توضح الحكم توضيحا تاما، فقد لا يشرب الإنسان الخمر ولكن يتاجر فيها أو يصنعها أو يجلس مع من يشرب الخمر أو يلعب الميسر، فأمرتنا الآية باجتناب كل هذا لأن الإنسان إذا قارب الشيء فالغالب عليه ولو بعد مائة مرة الوقوع فيه، وهذا ما لا يريده القرآن، لذا قال الله عز وجل "فاجتنبوه"، وحتى نطمئن الأخوة السلفيين فهذا الفهم أي أن آية البقرة هي التي حرمت الخمر ورد عن ابن عباس والحسن بن الربيع وغيرهما من الصحابة، فالقول له ما يسانده من ذوي الحجة عندكم!.

فهذا النموذج السابق الذي ذكرناه يعد النموذج الأمثل في كيفية تعاملهم مع النصوص، يربطونها بسببها ثم ينسخونها، ويقولون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب!، فأين

التنفيذ؟ ومن تتبع أقوالهم في النسخ في باقي الآيات مثل قولهم وقوع النسخ في تشريع الصيام، وأنه كان على الاختيار ثم أصبح فرضا، وقولهم بالنسخ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [سورة البقرة, ٢٨٤] بأنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [سورة البقرة, ٢٨٦]، يجد أنه راجع إلى تركهم لفظ الآية، ثم فهمهم إياها من خلال الروايات الواردة في سبب نزولها، ولو نظروا فيها كنص ما وجدوا فيها أي تعارض، ولكن لن نعرض لهذه الآيات لأنها لا ينبني عليها أي عمل، ولا يظهر فيها أي وجه للتعارض.

5- عدة أم متاع؟

ونأتي إلى حكم جديد ألغي بجرة قلم من هؤلاء العلماء الأفاضل وهو الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ [سورة البقرة, ٢٤٠] حيث رأى القائلون بالنسخ أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [سورة البقرة, ٢٣٤]

وأدعوا أيضا أنها نسخت بآية الميراث، وقالوا: لم يكن للمرأة شيء من الميراث إلا النفقة والسكنى سنة وكان الحول عزيمة من التزوج ولكنها كانت مخيرة في أن تعتد بعد الأربعة أشهر والعشرة أيام في بيت الزوج ولكن متى خرجت سقطت النفقة ثم نسخت بالاعتداد أربعة أشهر وعشرا وبحديث "لا وصية لوارث". ومشكلة السادة المفسرين أنهم يُقعِّدون أصولا تفسيرية عظيمة، ولكن عند التفسير يغضون الطرف عن ذلك ولا يرون أمامهم إلا الروايات الواجبة الاتباع، وحتى لو خالف ذلك ما أصلوه وأدى إلى نسخ القرآن، ولكن هذه الآية بالذات فيها مشكلة أكبر وهي أن المنسوخ ورد بعد الناسخ تلاوة[97]، والأولى إن وجد النسخ أن يكون الناسخ بعد المنسوخ لا العكس ولكن لما أخذوا بالروايات جوزوا ذلك وجعلوا المنسوخ بعد الناسخ فكل شيء جائز عندهم عقلا!!

والتوفيق بين الآيتين يسير فالآيتين في مجالين مختلفين فهذه في المتعة وتلك في العدة، فالآية 240 تتحدث عن حق الأرملة في السكنى في بيت زوجها والنفقة من ماله سنة كاملة بعد موته هذا بخلاف النصيب التي تأخذه بشكل طبيعي من الميراث وبإمكانها أن تتخلى عن هذا الحق، والآية 234 تتحدث عن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها وتوضح أنها أربعة أشهر وعشرة أيام فلا مجال للقول بالنسخ أو التعارض، وهذا القول وارد أيضا عن مجاهد لمن يريد الاستماع إلى أقوال السلف في المسألة.

6- مناجاة الرسول

ونصل إلى حكم ما يعتقد أحد أنه مطالب بتنفيذه هذه الأيام سواء فهم أن الآيات محكمة أو منسوخة وهو الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ

(97) لا حرج عندهم في ذلك، فإذا كانوا قد قالوا بوجود ناسخ للناسخ، أي أن الآية التي نسخت آية نزلت آية أخرى فنسختها، فلا حرج عندهم من حدوث أي شيء.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المجادلة ,١٢] حيث قال المثبتون للنسخ أن الرسول هنا هو محمد(ص)، وأن هذا الحكم كان للوجوب ثم نسخ بالآية التالية؛ وهي: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المجادلة ,١٣]

وهذه الآية من أبرز الآيات التي يستدل بها مدعوا النسخ على دعواهم، وهو استدلال في غير محله، حيث يقولون أن الأمر هنا للوجوب، لأن المسلمين كانوا يحبون الإكثار من الحديث مع النبي(ص)، ويرون في ذلك أنسا وشرفا عظيما فنزلت هذه الآية التي تأمرهم بتقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول، ولكن لم يقدم أحد من المسلمين شيئا إلا الإمام علي رضي الله عنه، ومن ثم نزلت الآية التالية التي تنسخ الحكم.

وهذا القول متهافت جدا، فما الحكمة من النسخ إذا في هذا الحكم؟ مدعوا النسخ يقولون أن النسخ له حكمة وهو التدرج في التشريع وتربية المسلمين والتعويد والتأديب! وهنا نزلت آية فلم يطبقها المسلمون فنسخها الله من أجلهم في اليوم التالي وفي بعض الروايات في أقل من يوم، إن هذا لشيء عجاب.

ولقد أورد الإمام الفخر الرازي المنكر للنسخ واقعا ومجوّزه تأصيلا، تأويلا لم يعجبني في تأويله لهذه الآية لما فيه من التعسف. والتوفيق بين الآيتين جد سهل، ولقد توقفت أمام هذه الآية كثيرا إلى أن ظهر لي بفضل الله فيها توفيقان:

الأول: أن الأمر هنا على سبيل التخيير، فالإنسان المسلم يجب عليه أن يقدم الصدقة عند الرغبة في مناجاة الرسول، فإذا أشفق من هذا فعليه تقديم صدقة ولكنها ليست مالية وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.

الثاني: نزولا على تقسيم الفقهاء الأمر في القرآن إلى واجب ومندوب، فيمكن القول أن الأمر في الآية الأولى ليس للوجوب بل هو للطلب أي هو مندوب بلغة الفقهاء،

فإذا قلنا هذا القول فالتوفيق بين الآيتين جد سهل ونوضح وجهة نظر من قال أن الأمر هنا للندب فالأصل فيه أن يكون للوجوب، وهو كالتالي: ندب الله عز وجل للمسلمين أن يقدموا عند مناجاتهم للرسول صدقة أي صدقة كانت فلم يحدد المقدار ولا النوع ولما شق الأمر على المسلمين حيث حسبوا أن الأمر للوجوب أنزل الله عز وجل الآية التالية التي توضح أن الأمر هنا للندب وهو غير ملزم لهم وأن هذا هو شأن الله عز وجل في التعامل مع الأمة الإسلامية من التخفيف والتيسير وأبرز وبين أهمية الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله –هذا كله على القول بأن الآيات نزلت منفصلة–. والدليل على أن الأمر في الآية ليس للوجوب بل هو للندب –كما يفعل الفقهاء دوما– هو: أنه تعالى قال: ﴿... ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ... ⑫﴾ [سورة المجادلة ,١٢] وهذا أنما يستعمل في الندب لا الوجوب. أنه لو كان واجبا ما أزيل وجوبه بكلام متصل وهو: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ... ⑬﴾ [سورة المجادلة ,١٣] قوله تعالى: ﴿... فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ... ⑬﴾ [سورة المجادلة ,١٣]، حيث وضحت هذه الآية أن معاملة الله عز وجل مبنية على الرحمة والتخفيف بخلاف الأمم السابقة وهذا كله مشعر بأن الأمر للندب وليس للوجوب.

ونحن طبعا نقول أن الأمر للوجوب ولكنه من باب التخيير بين واجبين إما أن تفعل هذا أو ذاك وكل ما قيل لا يكفي لينزل الأمر من الوجوب إلى الندب –في رأينا–.

ونعود الآن إلى القول الذي ذكرته في أول الموضوع وهو أن هذا الحكم ممتد إلى يوم القيامة وغير خاص بالصحابة في زمن الرسول(ص)، ونقول: المراد من الرسول هو القرآن لأن هذا هو رسول ورسالة الله الحقيقية إلى البشر. المراد من الصدقة هو الصدقة بوجه عام وليس المال فقط فالصيام صدقة وتبسمك في وجه أخيك صدقة وكل ما تفعله تطوعا هو من باب الصدقة.

ونحن لا ننفي بهذا القول أن الأمر كان مقصودا به ذات الرسول عند نزول الآيات ولكن ما نريد الإشارة إليه، هو أن الالفاظ الواردة في القرآن يجب أن تُفهم بشكل عام ولا تخصص بأي شكل من الأشكال ولكن طبعا من خلال سياق الجُمل.

وإذا قلنا أن المراد من "الرسول" هو محمد(ص) فقط وأخذنا بالمعنى الخاص للكلمة لأدى ذلك إلى تفريغ الآية من مضمونها وتصبح بالنسبة لنا نص تاريخي لا تعامل لنا معه وقد لا تظهر هذه الإشكالية بشكل واضح في هذه الآية، ولكن إذا استمر استعمال هذا المنهج في التعامل مع القرآن فسيؤدي ذلك إلى تفريغ الآيات من مضمونها ويصبح جزءا كبيرا من القرآن "نص تاريخي" نتحرك نحن في عصرنا هذا بخلافه فهو نص لا مدلول له الآن.

7- قم الليل إلا قليلا

ونختم الحديث عن الآيات التي قالوا فيها بالنسخ بالحديث عن قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [سورة المزّمّل, ٢-٣] حيث قالوا أن قيام الليل كان واجبا على المسلمين، ثم نسخ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝٢٠﴾ [سورة المزّمّل, ٢٠]، فصار مندوبا.

والمرء يتعجب من تعامل هؤلاء العلماء مع القرآن، فأنا وكل إنسان يفهم بداهة أن الأمر في الآية الأولى موجه إلى النبي(ص)، والأمر في القرآن كله إما على الوجوب أو

الفرضية أو الكتابة، والأمر هنا على الأقل كان على سبيل الوجوب على النبي(ص)، واستمر بعد ذلك كذلك، ولست أدري كيف قالوا أن الأمر كان واجبا على المسلمين؟!

نعم قد يُفهم ويتقبل أن المسلمين قلدوا النبي(ص) في هذا الأمر، فصلوا القيام تطوعا منهم، ولكن الأمر من الأساس لم يكن موجها إليهم. ونحن نقول أنه يجب التوسع في فهم الألفاظ القرآنية ما لم يؤد ذلك إلى تعارضها مع الواقع أو بالأحرى مع آيات قرآنية أخرى، وبداهة أدى توسعهم إلى تعارضها مع آيات أخرى.

بطبيعة الحال هناك من قال على سبيل التوفيق بين الآيتين أن الأمر كان للندب للرسول وللمؤمنين، من باب أن الله لم يحدد لهم الكم الذي يقومونه من نصف أو ثلث.

ونحن نقول أن عدم التحديد لا يعني نزول الأمر إلى الندب بل يعني التخيير، أي عليك أن تفعل هذا أو ذاك، فأنت حر في اختيار أحدهما، ثم أن اللفظ كما قلنا لا يظهر أن الأمر كان عاما بل يظهر خلاف ذلك، ونجد ذلك أيضا في نفس الآية التي قالوا أنها نسخت "قم الليل" وهي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٠﴾ [سورة المزّمّل, ٢٠] حيث قالت الآية "وطائفة من الذين معك"، وهذا يوضح أن الأمر لم يكن موجها إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان كذلك لما قال "وطائفة من الذين معك"، ولقال "والذين معك".

إذا يظهر في نهاية المطاف أن الآية محكمة وأن الأمر الذي كان فيها وهو وجوب القيام على النبي(ص) استمر كما هو ولم ترفعه آية "إن ربك يعلم"، ويعجبني في هذا الشأن توفيق الشيخ محمد الغزالي رحمه الله حيث قال: "فإذا كان النص مقصورا على النبي(ص) والأصحاب إنما قاموا بقيام الليل اقتداءا به والتخفيف مقصورا عليهم للأسباب المذكورة في الآية لم يكن النص الأول منسوخا، بل باق حكمه بالنسبه إلى رسول الله(ص)" اهـ

وبهذا التوفيق البسيط المأخوذ من الآيات نفسها ومع السير المنطقي في فهم الآيات بلا زيادة أو حذف من عند أنفسنا، يظهر لنا أن الآيات غير منسوخة بل هي محكمة، ولكل منها مكانه التي تعمل فيه. بطبيعة الحال هذا الموضوع موضوع كبير وألفت فيه الكتب الكاملة، ما بين مؤيد ومنكر وكل يعرض أدلته، ويناقش الأمر نقطة نقطة، ولكن الذي أردنا أن نبرزه هنا، هو أن القرآن يمكن أخذه كما هو، ولن يضل المرء إذا عمل بكتاب الله، وأن النسخ لا يقبل بأي حال من الأحوال مع كتاب الله، وكل من قالوا بالنسخ إنما استندوا إلى روايات فهموها فهما يلزمهم، ووفقوا بينها وبين كتاب الله على أنها هي الأساس المتبع وكتاب الله تابع لها، فلذا لم يتحرجوا في نسخ كتاب الله، أما نحن فعكسنا طريقة التعامل –كما يجب أن تكون– وجعلنا كتاب الله هو المقدم المتبع والروايت تابعة له، وفهمنا الروايات على هذا الأساس وما لم يمكن التوفيق بينه وبين كتاب الله رددناه، وأعتقد أن هذا أهو ن من تعطيل آيات الله.[98]

[98] للأسف الشديد نجد أن الحديث مقدم عند كثير من الأخوة السلفيين، ولا بأس من تعطيل الآيات لقول السلف ولأقوال منسوبة إلى الرسول(ص)! أما أن يأتي بعض العلمانيين فيعطلوا أو يطالبوا بتوقيف العمل ببعض الآيات فما لا يقبل، لأنهم يطالبون بإلغاء آيات في كتاب الله، ولعمري إن الفريقين في هذا الشأن سيان، أما نحن فنرفض تعطيل آيات الله لأي سبب كان.

أشهر من أنكر النسخ

أنكر النسخ طوائف من السلمين منذ قديم الزمان النسخ، وخاصة نسخ التلاوة –أي أن ينزل قرآن ثم يرفع لأن القرآن لا يثبت بخبر الآحاد– وللأسف لم نسمع عنهم أي تفصيل سوى أن يذكروا هكذا في جملة واحدة "وأنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه"، لأنهم كانوا يمثلون التيار المعاكس للفكر السائد في هذا الوقت، لكن أبرز من أنكر النسخ واشتهر بذلك هو أبو مسلم الأصفهاني واختلفت الروايات عنه، فقيل أنه أنكر النسخ بين الشرائع وقيل أنكر النسخ في الشريعة الإسلامية فقط –وهذا ما نرجحه–، ثم الإمام الفخر الرازي الذي انتصر للآراء الأصفهاني ورجحها في تفسيره، وفي العصر الحديث انتشر هذا الرأي وهو الذي عليه عامة المفكرين، فقال بإنكار النسخ: عبد المتعال محمد الجبري، الشيخ محمد الغزالي، شيخ الأزهر السابق حسن الباقوري، عبد الرزاق نوفل، أحمد حجازي السقا، محمد شحرور، ووزير الأوقاف السابق الدكتور محمد البهي، وغيرهم كثير.

حالة النسخ الوحيدة في الإسلام وحكمتها

وفي نهاية المطاف وإظهارا للحق نقول: نحن نرى أن النسخ حصل في هذه الأمة مرة واحدة فقط، وكان ذلك على سبيل الامتحان والاختبار، ولم يكن الأمر المنسوخ في القرآن ولكن جاء الناسخ فيه، وهذه الحادثة الشهيرة هي حادثة تحويل القبلة، ولقد تكلم القرآن عن هذه الحادثة مبررا التحويل، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [سورة البقرة, ١٤٣]

فهذه هي الحادثة الوحيدة التي حدث فيها تغيير في الحكم، وانظر أخي كيف عرض القرآن هذا الأمر: لقد قال أن التحويل اختبار ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وبطبيعة الحال لم تكن هناك أي صعوبة في التحول إلى بيت الله الحرام فأي عربي كان يتمنى أن يصلي إلى بيت الله الحرام لا إلى بيت المقدس وإذا أمر بذلك كان سيتحول مباشرة، ولكن المشكلة هي في تغيير الأمر الإلهي.

ورأى القرآن أنها كبيرة: ﴿... وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ... ﴿١٤٣﴾﴾]سورة البقرة, ١٤٣[، ولأن صدور الأمر ثم تغيره يثير الشكوك في صدر أي إنسان، فالتغير من صفات الإنسان وليس من صفات الرحمن، لذا قال الله عز وجل تعليقا على هذا: ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾] سورة البقرة, ١٤٣[

وبداهة فإن "إيمانكم" تعني "إيمانكم"، وليس صلاتكم، كما رووا أن سبب نزول ذلك أن الصحابة سألوا عن الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس، هل ضاعت أم سيثابون عليها؟ فقال القرآن: وما كان الله ليضيع إيمانكم. فمن المعلوم أن الإيمان هو الإيمان ولا يمكن أن يعني الصلاة، ونحن لا ننكر الواقعة، ولكن كما ذكرنا من قبل في الحديث عن أسباب النزول أنها ظنية، وأن الصحابي كان يحكي ما يرى أنه سبب النزول.

وختاما نود أن نوجه كلمة إلى الأخوة القائلين بالنسخ سواء في القرآن أو في السنة: أنزل القرآن على مدار ثلاثة وعشرين عاما ونقل القرآن عن طريق الصحابة، فمنهم من كان يعيه كاملا ومنهم من كان يعي منه نصفه، ومنهم من كان يعي ربعه وهكذا، وكان الصحابة أناسا عاديين يعملون ويتاجرون، فما كانوا ملازمين للنبي(ص) ملازمة دائمة، ونُذكِّر في ذلك بقصة عمر بن الخطاب وصاحبه في التناوب إلى النزول إلى النبي(ص) يوما بعد يوم، فينزل أحدهما ويخبر الآخر بما حدث في هذا اليوم واليوم التالي العكس وهلم جرا.

قصة افتراضية عن النسخ

ونذكر قصة افتراضية، تقع أحداثها في حال وجود النسخ، كما يدعي الأخوة المثبتون، وتصوروا معي حال المسلمين مع القرآن: "عمر يقول لصاحبه: أنزل اليوم آيات جدد وهي كذا وكذا. بعد أسبوع أو شهر أو عام يقول له صاحبه: الآيات التي نزلت في يوم كذا وكذا رُفعت، فلم تعد قرآنا ولسنا مطالبين بها. وبعد فترة صاحب عمر يقول له: أنزل اليوم آيات جدد وهي كذا وكذا. وبعد فترة صاحب عمر يقول له: الآيات الفلانية رفع حكمها الآية الفلانية أوالحديث الفلاني، فلم نعد مطالبين بالعمل بها ولكن لفظها موجود. وبعد فترة عمر يقول لصاحبه: أنزل اليوم آيات جدد. وبعد فترة يقول لصاحبه: رفعت الآيات لفظا فلم تعد قرآنا وبقي حكمها فنحن مطالبون بالعمل بها وأن ننساها. عمر يعمل بحكم معين، فيقول له صاحبه: لقد نسخت هذه الآية. فيقول له عمر: لا يا أخي لقد أخطأت، فهذه الآية نسخت الآية الفلانية. فيقول له صاحبه: لا يا أخي أنت لم تعرف، فقد أنزلت آية نسخت الآية الناسخة، فدع العمل بها.!!!" انتهى!

تصوروا مجتمع صغير بدائي الإمكانيات، مطالب بحفظ كتاب الله ونقله وتعليمه لمن سيأتي بعده، كيف يكون حاله: آيات أنزلت ورفعت، آيات أنزلت ولم ترفع ولكن لا يُعمل بها، آيات أنزلت ورُفعت ومطالبون بالعمل بها، آيات تُكتب وتُمحى، انظروا إلى حجم التشتت الفظيع الذي سيعيشونه.

والمشكلة أن كثير من الأخوة يُصورون الصحابة وكأنهم لا عقول لهم، فتنزل الآيات وتُرفع ولا يفكرون ولا يشكون ولا يشككهم حتى المجاورون لهم من اليهود! ألن يطعن اليهود في القرآن وفي محمد، لأنه يأتي بالشيء ويلغيه، ويلغي الآية ويثبت حكمها، وعدم وجود هذه الروايات تدفع المرء للشك في حدوث هذه الأشياء، ويرجح أن مسألة نزول قرآن ورفعه لم تحدث، وأن النسخ عند الصحابة لم يكن بأي حال بنفس المفهوم عند الفقهاء والأصوليين. وعلى خلاف المألوف نذكر في ختام هذا المبحث الصغير بعض آيات، تظهر استحالة القول بالنسخ بالمعنى الأصولي في

كتاب الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر ,٩]، ولما كانت هذه الآية من أكبر الأدلة على عدم وجود النسخ نجد أن الإمام ابن حزم يجادل فيها حتى لا تكون حجة في نفي القول بالنسخ، ولكن أنى له ذلك فالدليل فيها واضح فالحفظ مخالف للنسخ تماما.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [سورة الكهف ,٢٧]، فكلمات الله لا مبدل لها فكيف نسخت؟ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [سورة فصّلت ,٤٢]، ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾]سورة هود ,١]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [سورة النساء ,٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [سورة البقرة ,٢]، ولو كان فيه ناسخ ومنسوخ لأصبح فيه ريب كبير، فهل الآية عاملة أم ملغاة والخلاف في عدد الناسخ والمنسوخ، فهل هناك ريب أكثر من هذا؟

فهذه بعض آيات من كثيرات ناطقة صراحة بما نقول، ولولا ترك الناس للمعقول والظاهر من كتاب الله، واتباعهم أفهامهم في ما ورد عن الصحابة، وبعض الموضوعات المختلقة من الروايات لما قال أحد بالنسخ، والله المستعان.

الفصل الخامس: الاعتباطية والتخبط

مشكلة السادة العلماء أنهم تعاملوا مع القرآن بمنهجين خاطئين تماما، ألا وهما:

1- التفسير مكان التأويل، ولقد وضحنا للقارىء بنماذج كثيرة أن القرآن ليس بحاجة إلى التفسير، وأنه في حاجة فقط إلى التأويل، وتأويل القرآن تأويل مرحلي منه ما تم ومنه ما نقوم به الآن، ومنه ما سنراه في المستقبل.

2- المنهج الاعتباطي. وسنطيل النفس هنا قليلا في الحديث عن المنهج الاعتباطي هذا، فمعظم القراء لا يعرفونه، ولم يسبق لهم أن سمعوا به، فنوضح ما هو المنهج الاعتباطي، ولم كان طامة في التعامل مع القرآن.

كنت أتحدث ذات مرة مع صديق عزيز لي عن فيلسوف إغريقي، وأنه تناول مسألة العلاقة بين الدال والمدلول، وأنه تسأءل لم سمي الذكر البالغ من البشر "رجلا"، ولم سمي البناء المعد لسكن البشر "بيتا"،... إلخ؟ فالفيلسوف كان يتساءل عن العلاقة التي تجعلنا نسمي البيت بيتا ولا نسميه حمارا مثلا؟، وفي نهاية المطاف لم يخرج الفيلسوف بشيء. فقال لي صديقي هذا: وما الفارق بيني وبين الفيلسوف إذا، فلقد كنت أتساءل وأنا صغير في المرحلة الابتدائية عن نفس هذه المشكلة، لم سمينا هذا الشيء بهذا الاسم بالذات، لمَ لمْ نسمه اسما آخر؟ ولقد سألت مدرسي وأنا في المرحلة الابتدائية: لم سُمي الحرامي حرامي؟ فقال لي: لأنه يفعل الحرام، فقلت في نفسي لعله لم يفهم. فقلت له: ولم سمي اللص لصا؟ فقال لي: لأنه يتلصص على الناس. وأنا لم أكن أريد أن أعرف الأصل الذي اشتقت منه الكلمة، ولكن كنت أريد أن أعرف ما سبب تسمية هذا الحدث "تتبع العورات سرا" بهذا الاسم "التلصص"، ولم يكن المدرس يستطيع أن يعطيني إجابة لا شافية ولا كافية."

ونعتذر من القارىء في ذكر هذا الحوار، ولكنه تمهيد ضروري للولوج في مسألتنا هذا، فنقول: هل سألت نفسك مرة: لم سُمي الحمار حمارا؟ أو لم سُمي الخرطوم خرطوما؟

ولم سمي الكلب كلبا؟ قد يكون هذا السؤال قد مر على بال بعض القراء ولكنه سرعان ما نساه، ولم يخطر ببال آخرين، وفي كلا الحالتين قد طمر السؤال.

وحقيقة فإن هذا الإجابة على هذا السؤال من الصعوبة بمكان، فلقد احتار فيه اللغويون من قديم الزمان وحتى الآن، فهل هناك حقا علاقة بين الدال "اللفظ" والمدلول "الشيء"، وهل الحروف منفردة مثل حرف "الحاء" أو "الميم" لها معنى؟ أم أنها اعتباطية، وردت هكذا بالصدفة ولا علاقة لها بالطبيعة المحيطة بها، ولا تحمل أي معنى في ذاتها؟

ولما عجزوا عن إيجاد علاقة بين الاثنين، قالوا أنه لا علاقة فاللغة اعتباطية، أي أنه لا يوجد قواعد توضع عليها اللغة أو أسس تقوم عليها، أي أنه كان من الممكن جدا أن يُسمى الحمار حصانا أو يسمى البيت رجلا أو يسمى الذراع ساقا! ولكنه لمّا حصل التواضع من البشر على ذلك استقرت الاسماء على مسمياتها.

وهذه الإجابة قد تبدو مريحة بعض الشيء للقارىء العادي أو المتخصص، وكذلك للعلماء، ولكن هل الواقع فعلا، أنه لا علاقة بين الدال والمدلول؟ بعبارة أخرى: هل اللغة اعتباطية فعلا أم أنها قصدية؟

نشأة اللغة

وهذا الخلاف ليس حديثا فلقد اختلف حوله علماء اللغة العربية منذ زمن طويل ولكنهم اختاروا المنهج الاعتباطي، فنقل لنا الإمام السيوطي في كتابه المزهر هذا الخلاف، حاكيا: "باب القول على أصل اللغة، إلهام هي أم اصطلاح؟

هذا موضع مُحْوِج إلى فَضْل تأمُّل، غير أن أكثَر أهلِ النظر على أن أصلَ اللغةِ إنما هو تواضعٌ واصطلاح، لا وَحْيٌ ولا توقيفٌ، إلاّ أن أبا علي رحمه اللّه قال لي يوماً: هي من

عند اللّه؛ واحتج بقوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها"؛ وهذا لا يتناول موضعَ الخلاف؛ وذلك أنه قد يجوز أن يكونَ تأويلُه: أَقدَرَ آدَمَ على أَنْ واضَعَ عليها، وهذا المعنى من عند اللّه سبحانه لا مَحالة؛ فإذا كان ذلك مُحْتَمَلاً غير مُسْتَنْكَر سقط الاسْتِدلال به، إلاّ أنني سألتُ يوماً بعضَ أهله فقلت: ما تنكر أن تصحّ المواضعة من اللّه– سبحانه؟ وإن لم يكن ذا جارحة، بأن يُحدث في جسم من الأجسام –خشبةٍ أو غيرها– إقبالاً على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوه، ويُسْمع –في حال تحرك الخشبة نحو ذلك الشخص– صَوْتاً يضَعُه اسماً له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعاتٍ، مع أنه –عزَّ اسمُه– قادرٌ على أن يُقْنِعَ، في تعريفه ذلك، بالمرَّة الواحدة، فتقومُ الخشبة في هذا الإيماء وهذه الإشارة، مقامَ جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة؛ وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوزُ إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبةٍ نحو المرادِ المتواضَعِ عليه، فيقيمها في ذلك مقامَ يده، لوأراد الإيماء بها نحوه. فلم يُجب عن هذا بأكثرَ من الاعترافِ بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه، وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازمٌ لمن قال بامتناع كون مواضعة القديم تعالى لغةً مُرْتجلة غير ناقلة لساناً إلى لسان، فاعرف ذلك. وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات؛ كدَويِّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشَحِيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونَزيب الظبْي، ونحو ذلك، ثم وُلِّدت اللغاتُ عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجهٌ صالح، ومذهب مُتَقَبَّل. واعلم فيما بعد أنني على تَقَادم الوقت دائمُ التَّنْقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدَّواعي والخوالج قويَة التَّجاذب لي، مختلفةَ جهاتِ التَّغَول على فكري؛ وذلك أنني إذا تأملتُ حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة، والدِّقَّة، والإرهاف، والرِّقَّة، ما يملك عليَّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمحُ به أمامَ غَلْوَةِ السِّحْرِ؛ فمن ذلك ما نَبَّه عليه أصحابنا رحمهم اللّه، ومنه ما حَذَوْتُه على أمثلتهم، فعرفت بتَتَابُعه وانْقِياده وبُعْدِ مَرَاميه وآماده، صحةَ ما وُفِّقُوا لتقديمه منه ولُطْفِ ما (...) الألفاظُ إما أن تدل على المعاني بذواتها أو بوَضْع اللّه إياها، أو بوَضْع الناس أو بكَون البعْض بوَضْع اللّه والباقي بوضع الناس؛ والأول مذهب عباد بن سليمان، والثاني مذهب الشيخ أبي

الحسن الأشعري وابن فُورَك، والثالث مذهب أبي هاشم، وأما الرابع فإما أن يكونَ الابتداءُ من الناس والتَّتِمَّة من اللّه، وهو مذهب قوم، أو الابتداءُ من اللّه والتتمة من الناس، وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني. والمحققون متوقفون في الكل إلاّ في مذهب عباد، ودليل فسادِه أن اللفظَ لو دلَّ بالذات لفَهِم كلُّ واحد منهم كلَّ اللغات؛ لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازمُ باطلٌ فالملزوم كذلك. واحتجَّ عبّاد بأنه لولا الدّلالةُ الذاتيَّةُ لكان وضعُ لفظٍ من بين الألفاظ بإزاء معنًى من بين المعاني ترجيحاً بلا مُرَجِّح، وهو محال."اهـ

وأطلنا النقل هنا لأنه من الضرورة بمكان أن يأخذ القارىء فكرة، عن كيفية نشأة اللسان، وكيف أن اللغويين العرب المسلمين القدامى كانوا أسبق إلى غيرهم في وضع نظريات حول نشأته، قبل علماء اللسانيات الغربيين، وما نود التركيز عليه في هذا الاقتباس هو قول ابن جني: "والمحققون متوقفون في الكل، إلاّ في مذهب عباد، ودليل فسادِه أن اللفظَ لو دلَّ بالذات لفَهِم كلُّ واحد منهم كلَّ اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازمُ باطلٌ، فالملزوم كذلك"

فنلاحظ أن العلماء توقفوا في جميع الآراء إلا الرأي الذي قال به عباد بن سليمان، فاتفقوا على هذا المبدأ في الماضي، ولكنهم لم يسموه هذا الاسم. وأمّا في الغرب فقد أُسس مبدأ الاعتباطية على يد اللغوي الشهير دي سوسير، فسمّاه لأول مرةٍ بـ (المبدأ الاعتباطي)، وقرر أن هذا الأمر، وإن كان متناقضاً على نحو ما مع علم اللغة، إلاّ أنه بالفعل مبدأٌ لامنطقيٌّ، وعليه فيمكن تأسيس علمٍ للغة على هذا المبدأ!

وهذه هي حجة الاعتباطية الكبرى في نفي العلاقة بين الدال والمدلول، إذ أنه لو كان هناك علاقة واقعة بين الدال والمدلول لما اختلفت اللغات ولصارت اللغات كلها لغة واحدة، لأن الناس في جميع الأقطار سيتفقون على تسمية واحدة للمسمى لوجود العلاقة القائمة بينهما، فيسمون الحصان حصانا والحجر حجرا، لأن العلاقة قائمة بينهما.

ولست أدري إذا أردنا إغلاق ملف العلاقة بين الدّال والمدلول إلى الأبد، فماذا يبقى في علم اللغة إذا؟ لم ولن يبقى شيء يستحقّ الدراسة في هذه الحالة، لأن اللفظ إذا ارتبط بالمعنى اعتباطاً لم يبق من اللغة سوى البناء الشكلي للجملة، والذي تفي بتحديده وتنظيمه علوم النحو والقواعد، والغريب أنهم يصرون على تسمية هذا المنهج "النظام الاعتباطي"!، ولست أدري كيف يجتمع النظام مع الفوضى!!

اللغة أم الفكرة؟

والمنهج القصدي للغة له رأي آخر في هذه المسألة، فهو يرى أن ثمة علاقة بين الدال والمدلول، وجهل من جهل ليس بحجة على من علم، فاللفظ نفسه دال ومدلول في نفس الوقت، وهذه العلاقة علاقة حتمية. ونسأل أصحاب المنهج الاعتباطي كيف نشأت اللغة؟ والإجابة لن تكون أكثر مما ذكره الإمام السيوطي، ناقلا عن الإمام ابن جني، من الاحتمالات المختلفة، ونسأل السؤال بعبارة أخرى: هل نشأت اللغة أولا، أم كانت الفكرة سابقة لها؟ فإذا قيل أن الفكرة كانت أولا. فنقول: هذا جواب خاطىء تماما، لأنه لا يمكن للإنسان أن يفكر بدون لغة، لأن اللغة هي حامل التفكير، وحاول أن تفكر عزيزي القارىء بدون مفردات، لن تستطيع، أما المشاعر، من حب وكره وخوف، فلا تحتاج إلى مفردات، لأنها لا توصف!

وإذا قيل أن اللغة نشأت أولا. فنقول: هذا جواب خاطىء كذلك، ونسأل: على أي أساس نشأت اللغة، إذ أنه من غير الممكن أن تنشأ اللغة بنفسها بدون فكرة، فإلاما تُوجه أو تقصد، إذا لم يكن هناك فكرة؟ إذا لا بد أن تنشأ اللغة والأفكار في نفس الوقت، ولا يمكن أن ينشأ الاثنان في نفس الوقت إلا إذا كان هناك طرف ثالث أوجدهما معا، وبداهة فإن الله هو الذي غرس العلاقة بين الدال والمدلول في الإنسان، وعلى هذا الأساس استطاع الإنسان التفكير.

إذا فهناك علاقة مغروسة بين الدال والمدلول، وهذه العلاقة علاقة طبيعية، –وهذا يعيدنا إلى ما ذكرناه من كلام الإمام ابن جني عن كيفية نشوء اللغة، الذي حكاه عن بعضهم، الذين رأوا أن اللغة نشأت بتقليد أصوات الطبيعة، من حيوانات أو طيور أو أشجار ورعد ومطر. فنخرج بأن اللغة منسجمة مع الطبيعة عاكسة ومختزنة لها، فهي بمثابة تصوير للطبيعة، وما كان أي إنسان يستطيع أن يعطي هذه الصورة إلا إذا كانت مغروسة فيه أصلا، وعلى أساس هذه العلاقة المغروسة استطاع الإنسان تصوير الطبيعة "لفظا"، وعلى أساس هذه العلاقة المغروزة في كل إنسان منا نشأت اللغة، ونمت وكبرت وتطورت،[99] –ونحن نجزم أن اللغة العربية، لأسباب مختلفة، هي أصل اللغات، التي منها نشأت باقي اللغات وتفرعت وتشعبت[100]– ونخرج من هذه النقطة بوجوب وجود علاقة بين الدال والمدلول، وإلا لما نشأت اللغة.

إذا فالمنهج القصدي يرى أنه ثمة علاقة بين الدال والمدلول، وأن الحروف تحمل في ذاتها معانيها، فحرف "الحاء" له معنى، وإذا اشترك مع "السين" أخرجا باشتراكهما معنى جديد، وهكذا دواليك، فالحروف دال ومدلول في نفس الوقت.

اختلاف اللغات مع وجود العلاقة

ومسألة اختلاف اللغات ليست نافية للعلاقة، فنقول: على الرغم من أن الأصوات تحمل دلالتها في نفسها، وهذه الدلالات واحدة عند جميع البشر، وأنه ثمت علاقة بين الدال والمدلول، إلا أنه تظل دوما كيفية نظر المجتمع إلى هذا المدلول كنقطة فيصل في عملية الإسقاط، بمعنى أن العلاقة واحدة والوصف واحد، ولكني أنظر إلى صفة معينة بارزة متعلقة بهذا المدلول فأسقط عليها الدال، ونذكر مثالين للتوضيح: إذا

---

[99] ولا ننفي بذلك تلقي آدم لمفردات مباشرة، ولكن هذه المفردات كانت قليلة وبسيطة، وعلى أساس العلاقة بين الدال والمدلول المغروزة في البشر استطاعوا بناء المفردات الجديدة التي احتاجوا إليها فيما بعد.

[100] هذا الكلام ليس اعتباطيا ولكنه مبني على تطابق نظام اللغة العربية المتوافق مع نظام الطبيعة، وهذا ما سنعرضه فيما بعد.

أخذنا كلمة "ب ن د" العربية، والتي يصر السادة اللغويون على أنها ذات أصل فارسي! فنجد أنّ الحركة في هذا التسلسل (بند) وفقاً لمعاني الحروف (الباء والنون والدال – المؤلف) تعني (فصلُ جزءٍ من الحركة الكلّية بفاصلٍ ما بحيث أنّها تبدو مستقلّةً تماماً). ولكن سرعان ما أُطلق هذا اللفظ على نفس الفاصل من غير تمييزٍ بصوتٍ إضافيٍّ أو مقطعٍ أو تغييرٍ فيه. فهو في الإنكليزية (قيد) أو (رباط)، ثمّ أُطلق على ما يحدث للمجموعة المنفصلة فصار يعني (توحيد) أو (جماعة مستقلّة). وإذا رجعت إلى العرب وجدتهم يشيرون للمجموعة القبلية الواحدة في الجيش بهذا اللفظ، حيث كان النظام السائد في الجيوش هو كراديس، وكلّ كردوسٍ يمثّل أفراد قبيلةٍ ما. ولمّا كان الفاصل بين كلّ مجموعةٍ وأخرى في الجيش هو عبارةٌ عن (علم كبيرٍ) يُوضع أمام المجموعة (وهناك أعلامٌ أخرى صغيرة يحملها الأفراد داخل المجموعة)، فقد أُطلقت اللفظة (بند) على نفس العلم الكبير. ونُسيَّ الاستعمال المرافق له وهو (حبّةٌ كبيرةٌ) التي توضعُ كفاصلٍ لكلّ عددٍ معيّنٍ من الحبّات الصغار في (السبحة) وإذا ذهبتَ إلى الروس وجدتهم يطلقون اللفظ (Band) على (العصابة) أو(الزمرة المستقلّة) بإضافة حرفٍ آخرٍ لتصبح اللفظة هكذا (Band a) وهو بنفس الفكرة. ولكنهم استعملوه كالإنكليز بمعنى (لفافة) وكذلك (حزام). ولوعدتَ إلى إنكلترا فستجدهم قد ذهبوا باللفظ مذهباً آخراً. فقد تحوّل راجعاً ليشير إلى المجموعة المنفصلة بحاجزٍ ماديٍّ أوغيره، فأُطلق على (الاتّحاد)، وأطلق على (حاجز المحكمة)، ولمّا كان (المحامي) هو عبارةٌ عن حاجزٍ بين القضاء والمتّهم فقد أُطلق هذا اللفظ عليه! ولكن في روسيا انتقل اللفظ من (حزام) و(رباط) و(مجموعة مستقلّة) ليشير إلى (المجموعة التي ترتدي أحزمةً) أي (عصابة مسلّحة) أو (جماعة لصوص)، وتحتاج المفردة إلى مقطع صفة الفرد (ET) لتطلق على اللصّ المسلّح المنفرد وعلى قاطع الطريق المسلّح (BANDET). وفي الإنكليزية فإنّ (BANDIT) يطلق على قاطع الطريق المسلّح. في حين أنّه في بلاد فارس كانت للفظ استعمالاتٌ عقليّةٌ، فهو يُطلق على الرجل المحتال وذو المكائد. وهذا المختصر لحياة (تسلسلٍ صوتيٍّ) واحدٍ هو نموذجٌ لأيّ تسلسلٍ آخر. ومن نتائج هذه الاستعمالات مثلاً: إنّ رجل القانون (المحامي) يساوي (قاطع

طريقٍ مسلّحٍ). وهذا صحيحٌ على نحو ما، إذ أنّ المحامي هو قاطع طريقٍ فعلاً لأنّه يقطع الطريق بين المحكمة والقاضي من جهةٍ وبين الأفراد المتّهمين من جهةٍ أخرى، وهو مسلّحٌ فعلاً لأجل هذا القطع بسلاح (القانون) الذي يمكنّه من الوقوف هناك.

وإذا أخذنا كلمة "door" الإنجليزية كمثال ثاني والتي تعرب بكلمة "باب" وجدنا أنها تنطوي على تلك الحركة الكامنة، فإطلاقها على الباب هو من جهة كونها تتحرّك باتجاهٍ محدّدٍ وإلى حدٍّ معينٍ دوماً، وهذه الحركة الكامنة فيها تكرارٌ بحرف الراء. وهذا اللفظ يقابله لفظ (الدَّور) في العربية، والذي يستعمل لما يدور حيث حافظ على صورة هذه الحركة العامة. وكذلك لفظي (الدار) و(الدير) مع الأخذ بنظر الاعتبار معاني العلامات وأحرف العلّة التي سنوضحها في موضعها من هذا البحث. أما لماذا أُستعمل في اللغة العربية لفظ (باب) وفي الفرنسية لفظ (porte) وفي الروسية لفظ (dvaer) ... الخ كأسماءٍ لنفس الشيء؟. فإنّ ذلك هو بسبب اختلاف النظرة إلى الباب وعملها عند كلّ قوم. ففي العربية لفظ (باب) يعني موضع انبثاق الحركة. وفي الفرنسية يعني لفظ (بورت porte) موضع انبثاق الحركة وتكررها وتجمّع الحركات فيها (وهذا من حاصل معاني حروف اللفظ). وفي الروسية فإن (dvaer) يعني المنطقة التي يتمّ فيها اندفاع الحركات المجتمعة والمتفرقة في آنٍ واحدٍ. فإذا حاولنا تحليل نظرة كلّ قوم إلى هذا الشيء الذي هو (الباب) وجدنا أن الباب في العربية يحمل معنىً فلسفياً، لذلك أطلق على كلّ ما له علاقة بانبثاق الحركة العامة مثل: باب الفرج، باب السعادة، باب العلم ... الخ. بينما يكون المعنى مضحكاً إذا أطلقت لفظ (door) الإنجليزي أو (porte) الفرنسي مضافاً إلى هذه الألفاظ. في لفظ (door) الإنكليزي يكمن تعريفُ لطبيعة الباب من الناحية العملية فقط. وفي الفرنسية هو منطقة تجمّعٍ وتفرّقٍ، فيصحّ إطلاقه على الميناء مثلاً أو مدرج الطائرات أو مرسى السفن. وفي الروسية يصلح اللفظ لبوابات المدينة الكبيرة وكذلك لكلّ بوابةٍ ضخمةٍ مثل بوابات السدود. فلو سألت عربياً ما: ما تفعل بالباب؟ فسيقول: تفتح وتغلق. وإذا سألته: كيف

تفعل ذلك؟ فسيقول: لأنّها (تدور)، فهنا تضطّره ليتفوّه بالتسلسل الإنجليزي نفسه في (door).

ونكتفي بهذا القدر في هذه المسألة، فكل ما نود أن نوصله له أن الألفاظ في ذاتها دال ومدلول في نفس الوقت، وأن العلاقة دوما موجودة بينها وبين الواقع متفقة عند كل الناس، ولكنها تختلف بحسب وجهة النظر. ولن نطيل في الجدل في مسألة هل هناك علاقة بين الدال والمدلول تقعيدا، فهذا الخلاف التقعيدي كما لاحظت من خلال مناقشاتي الطويلة أنه لا يؤدي إلى نتيجة ناجعة، والكل يجادل وينفي أو يثبت، وأفضل شيء هو ضرب الأمثلة، لذا سنضرب للقارىء العديد من الأمثلة، التي تظهر هذه العلاقة، والتي تظهر حتمية أن تكون اللغة العربية هي أصل اللغات. وبما أننا تكلمنا عن وجود علاقة بين الدال والمدلول، فلا بد أن تكون هذه العلاقة طبيعية، أي أنها متفقة مع الطبيعة سائرة على قوانينها.

بعض خواص اللسان العربي

ولن نستدل على أمية –أمومة– اللغة العربية للغات، بأنها أقدم اللغات أو أنها أوسعها وأثراها من حيث الجذور اللغوية[101] وإنما نقول للقارىء: تأمل حال اللغة وانظر كيف تتفق مع الطبيعة، فالطبيعة بأكملها قائمة على نظام التولد، فالبنت تخرج من الأم وهي نابعة منها، والشجرة تخرج من البذرة، وهكذا، فهناك أصل يُتفرع منه والفرع يشبه الأصل. فإذا نظرنا في اللغة العربية وجدناها تسير على هذا النظم، أصول يُشتق منها ويخرج منها الفروع فتدور على هذا الأصل، وفي هذا يقول ابن فارس في فقه اللغة: "باب القول على لغة العرب، هل لها قياس وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟ أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من

(101) للغة العربية قرابة ستة عشر ألف جذر، وللاتينية قرابة سبعمائة جذر لغوي فقط، وبالسكسونية قرابة ألفا جذر فقط!

بعض، واسم الجن مشتق من الاجتنان وأن الجيم والنون تدلان أبدا على الستر، تقول العرب للدرع جنة وأجنه الليل، وهذا جنين أي هو في بطن أمه، وأن الأنس من الظهور يقولون آنست الشيء أي أبصرته، وعلى هذا سائر كلام العرب علم بذلك من علم وجهله من جهل" اهـ

فاللغة تتحرك بنظام المشتقات، وترتبط الفروع بالأصول لوجود العلاقة بينهما، كما في الطبيعة تماما، فإذا نحن نظرنا إلى كلمة "كتب" في اللغة العربية ومثيلتها في اللغة الإنجليزية أو الألمانية، سنجد أن اللغة العربية تأتي بكل متعلقات هذه الكلمة نابعة منها، فنجد "كاتب" و"مكتب" و"مكتوب" و"كتاب" إلخ المشتقات، فإذا أخذنا نظيرتها الإنجليزية، وجدنا أن كتب تكون "write"، أما مكتب فهي "disk"، وأما كتاب فهي "book"، ولا علاقة بين هذه الألفاظ وأصلها، وإذا أتينا إلى نظيرتها الألمانية، وجدنا أن: "كتب" "schreiben"، ومكتب "Schreibtisch"[102]، وأما كتاب فهي "Buch"، فالعلاقة بين الأصل والفرع مختفية بعض الشيء.

اللغة العربية تقوم على نظام الأصل الثلاثي، فنجد أن أكثر اللغة يدور على هذا الأصل وما جاء على خلاف ذلك فقليل، ولا يعني ذلك أنه لا يوجد نظام لها، فالأصل في اللغة الثنائي، لأن هذا أقل التركيب، فإن احتاج إلى توجيه حُدد بالثالث، وهذا أكثر اللغة والواقع، وإن كان من قبل مجيء هذا الحرف له معنى قائم في ذاته، وإن لم يحتج بقي كما هو، وأما الرباعي فمركب كله من ثنائيين دمجا في كلمة واحدة، فكلمة "دحرج" مثلا أصلها "دح" و"رج" والكلمتان معروفتان، أما ما جاء من المضعف فواضح التكرير فيه مثل "قلقل" و"زعزع" و"قرقر" و"صرصر".

اللغة العربية تطبق قانون التطابق الكمي بين الدال والمدلول، ومن ذلك أننا نسمع دوما قول علماء اللغة: "زيادة المبنى تساوي زيادة المعنى"، فما جاء على ثلاثة حروف مثلا فهو الحدث في شكله الطبيعي فإذا زادت الحروف فهناك زيادة في الحدث

(102) اللغة الألمانية لغة فقيرة، تعتمد على التركيب وليس الاشتقاق والتولد كما هو في الطبيعة واللغة العربية، فعلى سبيل المثال فإن التعريب الحرفي لهذه الكلمة هو "طاولة الكتابة"، وقارن بين هذه الكلمة وبين قولنا في العربية "مكتب"!

نفسه، فالفعل "استسقى" أزيد في الدلالة من الفعل "سقى"، لزيادة الهمزة والسين والتاء.

والفروق البسيطة بين الأفعال والأفعال المشابهة لها يقابلها فروق في البناء اللغوي للدال نفسه، ولقد لاحظ اللغويون منذ قديم الزمان هذه العلاقة، والتناسب بين الدال والمدلول في اللغة العربية، وهذه العلاقة أوضح ما تكون لبقاء اللغة العربية على أصولها، التي وُضعت لها ولعدم دخول التحوير إليها مثل باقي اللغات، وذلك بفضل رعاية الله لها وبفضل القرآن، لذا نجد أن السيوطي يورد في المزهر ما يلي: "وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يُطْبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني؛ لكن الفرقَ بين مذهبهم ومذهب عبّاد أن عبَّاداً يراها ذاتية موجبة، بخلافهم، وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصْلح في أفعالِ اللّه تعالى وُجوباً ، وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصْلَح، لكن فضلاً منه ومَنّاً لا وجوباً، ولو شاءَ لم يفعله. وقد عقد ابنُ جنِّي في الخصائص باباً لمناسبة الألفاظ للمعاني وقال: اعلم أن هذا مَوْضع شريف نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وَتَلَقَّتْه الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته؛ قال الخليل: كأنهم تَوَهَّموا في صوت الجُنْدُب استطالةً ومَدّاً؛ فقالوا: صَرّ، في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلاَن: إنها تأتي للاضطراب والحرَكة؛ نحو النَّقَزَان والغَليان والغَثَيان فقابلوا بِتَوَالي حركاتِ الأمثالِ تواليَ حركات الأفعال. قال ابنُ جني: وقد وجدتُ أشياء كثيرة من هذا النَّمَط؛ من ذلك المصادرُ الرُّباعية المضعّفة تأتي للتكرير نحو الزَّعْزَعَة والقَلقلة والصَّلصلة والقَعْقَعَة والجَرْجَرة والقَرْقَرة، والفَعلى إنما تأتي للسرعة نحو البَشَكى والجَمَزى والوَلقى. ومن ذلك باب اسْتفعل، جعلوه للطَّلب لما فيه من تَقَدُّم حروفٍ زائدة على الأصول، كما يتقدَّم الطلبُ الفعل؛ وجعلوا الأفعالَ الواقعة عن غير طلب إنما تفجأُ حروفها الأصول أوما ضارِع الأصول؛ فالأصولُ نحو قولهم: طعِم ووهَب، ودخل وخرج، وصعِد ونزل؛ فهذا إخبار بأصولٍ فاجأت عن أفعال وَقعت، ولم يكن معها دلالة تدلّ على طلبٍ لها ولا إعمال فيها؛ وكذلك ما تقدَّمت الزيادةُ فيه على سَمْت الأصل؛ نحو

أحسن، وأكرم، وأعطى، وأولى؛ فهذا من طريق الصّيغة بوزن الأصل في نحو دَحْرج وسَرْهف فأما مقابلةُ الألفاظ بما يُشاكل أصواتها من الأحداث فبابٌ عظيم واسع، ونَهْج مُتْلَئِبّ عند عَارِفيه مَأمُوم؛ وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمت الأحداث المعبّر بها عنها فَيَعدِلونها بها، ويَحتذُونها عليها، وذلك أكثرُ مما نقدّره، وأضعافُ ما نستشعره؛ من ذلك قولهم: خَضَم وقضِم فالخَضْم لأكل الرَّطْب كالبِطّيخ والقِثَّاء وما كان من نحو ها من المأكول الرطب، والقضْمُ لأكل اليابس (لاحظ الفرق بين الصوتين عند الأكل –المؤلف–)؛ نحو قَضَمَت الدَّابة شعيرها، ونحو ذلك. وفي الخبر: قد يُدْرَكُ الخَضْم بالقَضْم أي قد يُدرك الرخاء بالشدة، واللّين بالشَّظَف، وعليه قول أبي الدَّرْداء: يَخْضَمون ونقضَم والموعد اللّه؛ فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حَذْواً لمسموع الأصوات على مَحْسوس الأحْداث؛ ومن ذلك قولهم النَّضْح للماء ونحوه، والنَّضْخ أقوى منه قال اللّهُ سُبْحَانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾] سورة الرحمن ,٦٦[؛ فجعلوا الحاء لرقتها للماءِ الخفيف، والخاءَ لِغَلظها لما هو أقوى منه؛ ومن ذلك القدّ طولاً، والقطّ عرضاً؛ لأن الطاءَ أخفض للصوت، وأسرعُ قطعاً له من الدَّال؛ فجعلوا لِقَطْع العَرض، لِقُرْبِه وسرعته، والدّال المَاطلة لمَا طال من الأثَر، وهو قَطْعُهُ طولاً. قال: وهذا الباب واسعٌ جداً لا يمكنُ اسْتِقْصَاؤُه. قُلت: ومِنْ أَمْثِلة ذلك ما في الجمهرة: الخَنَنَ في الكلام أشدُّ من الغَنَن، والخُنّة أشدّ من الغُنَّة؛ والأَنِيتُ أشدّ من الأنِين، والرَّنين أشدّ من الحِنين. وفي الإبدال لابن السكّيت يقال: القَبْصة أصغرُ من القَبْضة، قال في الجمهرة: القَبْصُ: الأخذُ بأطراف الأنامل، والقَبْضُ: الأخذ بالكفِّ كلّها. وفي الغريب المصنّف عن أبي عَمْرو: هذا صَوْغُ هذا، إذا كان على قَدْره، وهذا سَوْغُ هذا، إذا وُلِدَ بعد ذاك على أَثَره؛ ويقال: نَقَبَ على قومه ينقُب نِقابةً من النَّقيب وهو العَرِيف، ونكَب عليهم ينكُب نِكابةً، وهو المَنْكِب، وهو عَون العَرِيف. وقال الكسائيّ: القَضْمُ للفرس، والخَضْمُ للإنسان. وقال غيرُه: القَضْم بأطراف الأسنان، والخَضْم بأقْصى الأَضراس. وقال أبو عمرو: النَّضْح بالضاد المعجمة: الشّرب دون الرّيّ، والنَّصْح بالصاد المهملة: الشُّرْب حتى يَرْوَى، والنَّشْح بالشين المعجمة دون النَّضْح بالضاد المعجمة. وقال الأَصْمعيّ

من أصوات الخيل: الشّخِيرُ والنَّخِيرُ، والكَرِيرُ؛ فالأوَّل من الفم، والثاني من المَنْخَرين، والثالث من الصَّدر. وقال الأصمعي: الهَتْل من المطر أصغرُ من الهَطْل. وفي الجمهرة: العَطْعَطَةُ بإهمال العين: تتابعُ الأصوات في الحرب وغيرها، والغَطْغَطة بالإعجام: صوتُ غَلَيَان القِدْر وما أشبهه (لاحظ صوت الغليان –المؤلف–)، والجَمْجَمَة بالجيم: أن يُخْفِي الرجلُ في صدره شيئاً ولا يُبْدِيه. والحَمْحَمَةُ بالحاء: أن يردِّد الفرسُ صوتَه ولا يَصْهَل. والدَّحْدَاح بالدال: الرجل القصير، والرَّحْرَاح بالراء: الإناء القصير الواسع. والجَفْجَفَةُ بالجيم: هَزِيز المَوْكِب وحَفِيفُه في السير. والحَفْحَفَةُ بالحاء: حفيفُ جَنَاحي الطائر. ورجل دَحْدَح بفتح الدالين وإهمال الحاءين: قصير. ورجل دُخْدُخ بضم الدَّالين وإعجام الخاءين: قصيرٌ ضخْم. والجَرْجَرَة بالجيم: صوتُ جَرْعِ الماء في جَوف الشَّارب. والخَرْخَرة بالخاء: صوتُ تردُّد النَّفَس في الصدْر، وصوت جَرْي الماء في مضيق. والدَّرْدَرَة: صوت الماء في بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فَسَمِعْتَ له صوتاً. والغَرْغَرَة: صوتُ ترديد الماء في الحَلْق من غير مَجّ ولا إسَاغة. والقَرْقَرَة: صوتُ الشّراب في الحلق. والهَرْهَرَةُ: صوت تَرْدِيد الأسد زئيرَه. والكَهْكَهَة: صوتُ ترديد البعير هَدِيره. والقَهْقَهَةُ: حكاية استِغْرَاب الضحك. والوَعْوَعَةُ: صوت نُبَاح الكلب إذا رَدَّده. والوَقْوَقَةُ: اختلاطُ الطير. والوَكْوَكَةُ: هديرُ الحمام. والزَّعْزَعَةُ بالزاي: اضطرابُ الأشياء بالريح. وفيه: الضَّرْب بالرَّاحة على مُقَدَّم الرأس: صَقْعٌ، وعلى القَفَا صَفْعٌ، وعلى الخَدِّ بِبَسْطِ الكَفِّ لَطْمٌ، وبقَبْضِ الكَفِّ لَكْمٌ وبِكلْتَا اليَدَيْنِ لَدْمٌ، وعلى الجَنْبِ بالإصْبَعِ وَخْزٌ، وعلى الصدْر والجَنْبِ وَكْزٌ ولَكْزٌ، وعلى الحَنَكِ والذَّقَنِ وَهْزٌ ولهْزٌ. وفيه يُقَالُ: خَذَفَه بالحَصى، وحَذَفَه بالعصا، وقَذَفَه بالحجر." اهـ

فتأمل هذه المفردات التي ذكرها الإمام ابن جني، وتأمل الفروق البسيطة بينها في ذاتها وبين دوالها في الواقع، وتفكر هل هذه الفروق الدقيقة بين المدلولات ومقابلاتها في الدوال حدثت كلها اعتباطيا بدون أي نظام؟ أم أن لها قواعد نشأت على أسسها، ولكن الناس عموا عنها؟

ومما يُظهر وجود العلاقة بين الدال والمدلول، استقراء مدلولات الكلمات المشتملة على حرف معين فتجد أنها تشترك في صفة معينة، وذلك لاشتمالها على ذلك الحرف، فإذا نظرنا إلى مدلولات كلمات تبدأ بحرف "الحاء" مثلا، نراها ترمز للحدة والسخونة مثل "حمى وحرارة وحر وحب وحريق وحقد وحميم وحنظل وحريف وحرام وحنان وحكة وحاد وحق.

وإذا أخذنا كلمات حرف "الخاء" نجدها ترمز إلى كل ما هو منفر وكريه وغير ثابت، مثل: خوف وخزي وخجل وخيانة وخلاعة وخنوثة وخذلان وخنزير وخنفس وخرقة وخراء وخلط وخبط وخرف وخسة وخم وخلع وخواء.

فهل هذا التوافق صدفة أيضا؟

اللغة العربية هي اللغة الجدلية الوحيدة في العالم[103]، فإذا نحن نظرنا في الكلمات العربية وجدنا أنها تحتوي نقيضها في ذاتها، فإذا عكسنا أي كلمة في اللغة العربية سنحصل على ضدها، وهذه الجدلية تحل إشكالية تعريف الألفاظ أو فهم الألفاظ. حيث أن تعريف الألفاظ يعد معضلة كبيرة، وفي هذا يقول جون لوك: "إنني لن أتعب نفسي في البرهنة على أن جميع العبارات أو الألفاظ يمكن تعريفها، إذ يجب أن تكون هناك ألفاظ غير قابلة للتعريف، حتى تصبح بمثابة المبادىء التي تقوم عليها بقية العبارات أو الحدود الأخرى، وتعتمد عليها حين تعريفها، لأنه لو كانت جميع الألفاظ مما يمكن تعريفه لكانت عملياتنا العقلية غير متناهية، ولا تقف عند حد معين ذلك لأننا كي نعرف لفظا سنعتمد على ألفاظ وعبارات غيره، وهذه ستعتمد في تعريفها على أخرى، وهكذا لا نعرف أين ننتهي من هذه الحلقة، إذ لا بد من وجود ألفاظ وعبارات غير قابلة للتعريف، تعتبر واضحة لدرجة أنه يمكن الاعتماد عليها في تعريف الأفكار الأخرى —وهذه هي الأفكار البسيطة وأسمائها" اهـ

(103) الجدلية هي أن يحتوي الشيء نقيضه في ذاته.

فإذا أردنا أن نعرف ونتأكد من مدلول الكلمة كل ما علينا أن نقلبها وسنصل إلى مدلولها الأصلي وتوجهها، فإذا عرفنا أصل الكلمة وطريقة توجهها استطعنا فهمها وفهم كيفية نشأة اللغة وتطورها، فمن المعلوم أن اللغة نشأت بسيطة وأن كل لفظ كان يحتوي القليل من المدلولات ومع تطور الحياة اكتسب اللفظ مدلولات كثيرة، فبذلك نعرف توجه الكلمة وكيفية اكتسابها مدلولات جديدة. قد يقول قائل: ولكن هذا غير مطرد في اللغة العربية، فليس كل كلمة تقلب نحصل على ضدها. نقول: المشكلة أن الناظر الآن لا يرى إلا مدلولا واحدا، تعرف عليه وتعامل معه، ومن ثم يظن أن هذا هو اللفظ ولا شيء آخر، هذا بخلاف الكثير من الكلمات التي لا يتصورون أنها لو قلبت ستكون كلمة في اللغة العربية أو يكون لها مدلول من الأساس. والواقع يجانب هذا تماما، فمن ينظر في المعاجم العربية الكبيرة أمثال تاج العروس أو اللسان، يجد أن المعجم يورد معان كثيرة للفظة الواحدة، ويعجب المرء كيف يمكن إيجاد علاقة بين كل هذه الألفاظ وكيف انتظمت تحت هذا الأصل، وملاحظة الأصول والروابط أمر جد صعب، لذا لا نجد في اللغة العربية إلا معجما واحدا يقوم على مبدأ الاشتقاق الكبير، الذي يُرجع المعاني المختلفة للكلمة إلى أصل واحد أو أصلين وهو معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس، ولكن يمكننا أن نضرب هنا بعض النماذج للكلمات التي يظهر في التضاد واضحا:

كلمة "كتب"، إذا عكسناها تكون "بتك"، الأصل في الكتابة هو الجمع بين الأشياء، ومن ذلك الكتيبة، وبتك هو القطع أو التفريق.

كلمة "عشق" إذا عكسناها تكون "قشع" والعشق ارتباط وتعلق بشيء، والقشع أن تنقلع عنه وتبتعد عنه.

"رفع" و"عفر" والرفع معروف والعفر كذلك.

"مرض" و"ضرم" فالمرض خمود وضعف والضرم قوة واشتعال، فالنار تمرض حين تخبو وتخمد وتقوى حين تضرم وتتقد.

"فاض" إذا عكسناها تصبح "ضاف".

"علق" إذا عكسناها تصبح "قلع".

"كور" ضد "وكر"، فالوكر شيء مجوف والكور شيء محدب[104].

"قلى" عكس "لقى".

"رضع" عكس "ضرع" فالارتضاع أخذ والضرع عطاء.

"داس" عكسها مبنى ومعنى "ساد".

"وسد" –ومنها الوسادة– عكسها مبنى ومعنى "سود".

"فرش" عكسها مبنى ومعنى "شرف"

"مزح" عكسها مبنى ومعنى "حزم"

"رد" عكسها مبنى ومعنى "در"

"صخر" عكسها مبنى ومعنى "رخص"، فالصخر للصلابة ويقال فتاة رخصة للناعمة الطرية.

"قشر" عكسها "رشق".

هذه بعض الكلمات التي قد تكون مألوفة للقارىء، وهناك بعض الكلمات الأخرى التي قد تكون لم تمر على القارىء مسبقا مثل "ثفن" وعكسها "نفث" يقال ثفنت يده أي أكنبت "غلظت من العمل، ومجنت انتفخت وكان بين الجلد واللحم ماء كما يقال

(104) لعل القارىء لاحظ أننا قمنا بقلب الحرفين الأولين فقط من الكلمة، وبقى الحرف الثالث كما هو، لأنه يقوم بتحديد وجهة الأصل الثنائي.

دم نفيث وهو الذي نفثه العرق أي رمى به، وواضح أن المرحلتين متعاقبتان؛ تثفن اليد فتنفط ثم تنفث الماء الذي فيها، فلو لم يكن هناك ثفن لما كان هناك نفث.[105]

وهذا غيض من فيض، ولو نظرنا في اللغة كلها لوجدناها على هذا الأساس، اقلب الكلمة تحصل على معكوسها، ولكن لا تنظر إلى المعنى الضيق الذي تستعمله وتحسب أن هذا هو الأصل اللغوي الذي خرجت منه كل المعاني.

فهذه بعض خصائص اللسان العربي المتوافقة مع نظام الطبيعة، ونسألك عزيزي القارىء: هل يمكن أن تكون كل هذه الخصائص موجودة بالصدفة؟!

أهمية المنهج القصدي في التعامل مع القرآن

قد يقول قائل: لا، ليس صدفة، ولكن ما أهمية المنهج القصدي؟

1- نقول: الاعتباطية لم تقدم أي قواعد للغة، وتركت كل إشكاليات اللغة كما هي، فلم تُعرفنا معاني الحروف، وهذه المسألة مهمة جدا في فهم فواتح السور مثل "حم" و"عسق" و"كهيعص". ومن الغريب أن هذه المسألة من الوضوح بمكان على أن الحروف لها معان ومدلولات، وهذا ما قاله القرآن منذ أربعة عشر قرنا، ولكن الاعتباطية تقول أن الحروف لا مدلول لها ثم تناقض نفسها، وتحاول أن تفسر هذه الحروف!

2- لم توضح لنا الاعتباطية الأسس التي تُبنى عليها اللغة، فلم تقل لنا: لماذا يبدأ المضارع للمذكر بالياء ولماذا يبدأ المؤنّث بالتاء؟ ما الفرق بين الصور المختلفة للمثلث مثل (حسِبَ، حسُبَ، حسَبَ) وما تفسيرها؟، ما هي القاعدة الحركية

---

[105] من أراد الاستزادة في هذه المسألة فعليه بكتاب "جدلية الحرف العربي" للمرحوم محمد عنبر، فقد أجاد وأبدع في هذا الكتاب، والكتاب أكثر من رائع ويستحق الاقتناء.

والعلاماتية للازم والمتعدّي؟ ولماذا أخذ كلٌّ منهما علامةً خاصةً به؟ لماذا ظهرت الأبواب الستة وما هو تفسيرها؟ لماذا تنتهي صيغة الأمر بالسكون؟ وغير ذلك من أنواع المباني اللغوية.

ومن يقرأ في "الخصائص" لابن جني، وهو من هو في اللغة، يجده حائرا متحيرا لا يعطيك جوابا شافيا في هذه المسائل، فلا يجزم لم رُفع الفاعل أو نُصب المفعول ولم سار الفعل هنا تبعا للقاعدة ولم خالفها في أفعال أخر، ولم قلب هذا ولم ترك ذاك بدون قلب، ولم أُهمل ما أهمل، وليس في القياس ما يدعو إلى إهماله.

أما مع المنهج القصدي فيمكن الإجابة عن كل هذه الأسئلة[106] وحل جميع إشكاليات اللغة. ولهذا دور كبير في التعامل مع القرآن، فعندما يتعامل إنسان مع لغة لا يفهم بنيتها ولا يوجد لها أي نظام –عنده–، فكيف يميز الصحيح من السقيم؟ وإذا وُجدت الأقوال المتعارضة عند العرب، فماذا يأخذ وماذا يرد؟ وبعبارة أخرى: هل كل ما قالته العرب صحيح؟

لا يمكن أن يكون كل ما قاله فلان أو علان من العرب من باب الصحيح، فهناك الصحيح وهناك السقيم، وهناك المختلق على يد النحويين العظام، من أجل تأصيل قاعدة نحوية ما!!، فكيف نميز صحيح كلام العرب من سقيمه من مختلقه، إذا لم يكن هناك قواعد أو منهج يُسار على أساسه؟

وكان العلماء والنحويون في غنى عن المقياس لوجود القرآن، فكان حتما ولزاما عليهم أن يقيسوا اللغة عليه، ولكن للأسف الشديد تعاملوا معه على أنه نص مثل أي نص بشري، فقاسوه هو على اللغة! وكانت هذه هي الطامة الكبرى، ومن هنا نشأ الخلاف في فهم القرآن، فهذا يوجه فهم الآية تبعا لقول فلان، وذاك يرى أن قول علان أولى

---

(106) من أراد الاستزادة في مسألة المنهج القصدي للغة فعليه بكتب العلامة العراقي المرحوم "عالم سبيط النيلي" وكتبه متوفرة كلها على الشبكة المعلوماتية، ونحن وإن كنا نخالفه في بعض المسائل في المنهج القصدي، ولكن المنهج أكثر من صارم، ويستحق الدراسة من أهل اللغة.

من قول فلان المذكور، وذاك يرى أن كليهما خاطىء، وفوضى شديدة أوقعنا فيها أننا ساوينا كلام رب العالمين بكلام المخلوقين.

لذا فنحن نرى أن عملية الاستقراء اللغوية للقرآن كانت عملية بتراء عوجاء، لعدم الميزان الذي يوزن به ويقاس عليه، ويجب على من يقوم بهذه العملية أن يؤديها كما ينبغي، فلا يصح أن نسمع أبدا كالذي قال: "كان من المفترض أن يكون كذا، ولكن الله عدل عنها من أجل كذا"، فهذا استقراء خاطىء،

وأنت أيها النحوي العظيم لم تستطع أن تستخرج القاعدة من القرآن، فمن يرد أن يستخرج أي قاعدة نحوية أو بلاغية سليمة من القرآن لا بد أن تكون متفقة مع كل ما أتى به القرآن، ولا تخالفه في موضع واحد، ولذا لا يصح أن نسمع أبدا أن هذه الآية أو الكلمة وردت على لغة كذا أو كذا من العرب فهي جائزة، فهذا كلام عقيم، إذ أن معنى هذا القول أنه كان من المفترض أن تأتي على المشهور، ولكن لما كانت هذه لغة من لغات العرب قُبل النص! وهذا عقم فكري، فإذا أتى النص بلغة قبيلة كذا، كما يدعون، فهذا معناه أن هذه اللغة هي الصحيحة وأن باقي اللغات –اللهجات، بالتعبير الدارج– غير صحيحة، ويجب أن تُقوم بالميزان القرآني.

والأمثلة على الخطأ في الاستقراء القرآني كثيرة ونذكر هنا نموذجا لذلك: وهذا النموذج هو الاستقراء الخاطيء لجمع القلة وجمع الكثرة، فهم يرون أن جمع القلة يكون لما أقل من العشرة وجمع الكثرة يكون أكثر من العشرة، وجمع القلة يكون له صيغة معينة، وهي جمع المؤنث السالم وجمع الكثرة يكون جمع التكسير، وبعد هذا الاستقراء العبقري أخذوا يخرجون القرآن على أهوائهم، ونضرب هنا عدة أمثلة على نتيجة هذا الاستقراء العبقري:

﴿... وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة سبإ, ٣٧] قالوا: وغرف الجنة أكثر من عشرة! مع أن جمع المؤنث السالم (غرفة غرفات) وهو غير محدد بعدد كالعشرة إنما التحديد في أصل اللفظ: (الغُرف . استعمال لحال بناءها المستمر والذي هو غير

محدد بعدد) و(غرفات لما هو موجود فعلاً ولو كان ألف غرفة). فلما أراد وصف حالهم في الغرفات كونهم (آمنون) جاء بالجمع الذي يفيد (الموجود الفعلي) لأن النظام القرآني يكشف أن الجنة نفسها في توسع دائم. وإذا رأيت بناءاً يُبنى ولا تعلم عدد الغرف فيه، فيجوز لك بل يتوجب أن تقول: (ما هذه الغرف؟) حتى لو كانت ثلاثة، لأن البناء مستمر وقد يضاف عليه غرف أخرى. ولكن لا تقول: (أنتم تسكنون هذه الغرف) بل (الغرفات). فلما وجدوا العرب تقول للموجود الفعلي (غرفات) ولما لا يعلم عدده (غرف) فظنوا أن الأول قِلّة لما دون العشرة والآخر لما هو أكثر!!.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ... ﴿١٨٤﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٤] فقالوا: جعله لما دون العشرة للإيحاء بسهولة الصيام!. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، يظنون أن الله يخالف الحقيقة، لأسبابهم الإعتباطية. ولو قال (معدودة) على جمع التكسير لما كانت محدودة. ولما قال معدودات فكما في (غرفات) . موجودة فعلاً في شهر معلوم لا يزيد على ثلاثين يوماً.

لذا نقول لك عزيزي القارىء: إذا قرأت أن هذه الاستعمال جائز في لغة العرب، فاعلم أن هذا من نتاج السادة العلماء الذين استدلوا على القرآن بلغة العرب وجعلوه تابعا بدلا من أن يكون متبوعا. واعلم أن ما في القرآن فهو الصواب، الذي يجب أن نقيس عليه لغتنا، فإذا خالفت معظم لهجات العرب لغة القرآن! فاعلم أن الخطأ في هذا الاستعمال وأن الصواب فيما جاء به القرآن.

3– مع وجود الاعتباطية يظهر القول بوجود محذوف وحذف موجود. ولقد ضربنا لك عزيزي القارىء نماذج على الصنفين، ونشير هنا إلى أن السبب في وجود هذين الصنفين هو اقتناعهم بعدم وجود دلالات للألفاظ نفسها كألفاظ، إذ لو امتلكت الألفاظ دلالات لما أمكن القول بالحذف أو بالتقدير، أما عندما يكون اللفظ معدوم الدلالة فمن الممكن القول أنه محذوف أو مكرر أو ناقص، ويحتاج إلى محذوف ليستقيم المعنى! فعلى سبيل المثال لفظة "لا" لا تعني عندهم شيئا بذاتها، فهي عندهم

لا تعني "النفي" بذاتها، إذ أنه كان من الممكن أن يكون مكانها "سن" مثلا وتفيد النفي أيضا، فإذا كانت فاقدة الدلالة فمن الممكن القول بأنها زائدة أو لا معنى لها، وعلى ذلك فقس.

4- مع وجود الاعتباطية لا يمكن تحديد المدلول المراد بدقة. فمن المعلوم أن الكلمة تشتمل العديد من المعاني، وكل مفسر يحاول أن يسقط معنى محدد لهذه الكلمة، ويرى أنه هو المناسب في هذا السياق، وكل مفسر يحاول أن يرجح اختياره بجميع الطرق، ولكن لما كانت الألفاظ لا تحمل معنى لذاتها فالترجيح معتمد على وجهة نظر أفراد.

أما إذا قلنا بالنهج القصدي للغة وأن الحروف تحمل دلالاتها في ذاتها، فسيكون لهذه الدلالة الموجودة في الحروف، الدور الكبير في تمييز المدلولات الصحيحة في استعمال العرب من المدلولات السقيمة، ثم يتم بعد ذلك اختيار المعنى المناسب لهذا السياق.

نماذج لتحديد المعنى بالمنهج

ونذكر لك عزيزي القارىء هنا نماذج عدة على تحديد المنهج القصدي للمعنى بدقة:[107]

"ر . د: مدلول الراء التكرار أولاً، مدلول الدالّ الاندفاع إلى مركز الحركة. ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة القصص ,١٣] الردّ إذن ليس إرجاع لأنّ الإرجاع مرةٌ واحدةٌ والرد إعادةٌ في كلّ مرة.

[107] نحن لم نذكر للقارىء معاني الحروف تفصيليا، ولا الأسس التي تم على أساسها معرفة هذه المعاني للحروف، فهذا موضوع جد كبير، وليس مكانه في هذا الكتاب، ويُطلب في مظانه، ونكتفي بذكر النماذج على ذلك.

م . د . ح: "الميم" تفيد اكتمال الحركة، واندفاعها باتجاهٍ مقصودٍ ب "الدّال" وتعاظمها إلى أقصى حدٍّ ب "الحاء". يفيد التسلسل أي حركةٍ عامةٍ للتوسّع الأقصى في الفعل ولكن باتّجاهٍ محدّد لغايةٍ محددةٍ. المعجم: مدحه مدحاً: أثنى عليه. وهذا خطأ [والصحيح: توسّع في الثناء عليه بما ليس فيه]، يقال: امتدح المكان: اتّسع، وامتدحت خاصرة الماشية: امتلأت واتّسعت شبعاً. لقد ظهر لك الآن الاختلاف بين (ح . م . د) و(م . د . ح) وما ذلك إلاّ لانقلاب الترتيب في نظام الحروف.

ح . م . د: تعاظم الحركة واكتمالها ثمّ اندفاعها إلى هدفٍ مقصودٍ. الناتج من التسلسل أي شيءٍ صحيحٍ في ذاته مكتمل الشروط وله هدف معلوم. المعجم: حَمَدَ فلاناً: رضي فعله ومذهبه. وحمد فلاناً أثنى عليه مرةً بعد مرةٍ.

د . ر . ك: الدال: اندفاع إلى هدفٍ مقصودٍ، الراء: تكرار منظم، الكّاف: تكتل للمتآلفات. هذه الحركة عقلانية جداً ومنظّمة وتوصل حتماً إلى نتائج. المعجم: أدرك المعنى بعقله: فهمه، أدرك الشيء ببصره: رآه. أدرك الثمر: نَضُجَ، أدرك الصبي: بلغ الحلم، أدرك فلان: بلغ علمهُ أقصى الشيء. دارَكَه: اتبعَ بعضه بعضاً. تدارك الشيء بالشيء: اتبع الشيء بالشيء، الدَرَك: التَبِعة. قالوا: الدرك: الأسفل من كلّ شيء له عمق. أقول: الأصل: الموضع من المنزلة، فأينما يكون موضعه من المنزلة فذلك هو (دَرَكَهُ). وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة النساء, ١٤٥]، أي ذلك ما يدركون من المنزلة، و﴿... لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة طه, ٧٧]، أي لا تخاف أن يدركوك (عملاً مدركاً منهم). ولو كان (الدرك) أسفل كلّ شيء لاكتفى بالقول (في الدرك من النار) من غير (الأسفل). ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٠٣] لا يمكن للعقول أن تميّز بين صفاته أي لا يمكن أن يكون موضوعاً (للإدراك). والأبصار هنا ليست آلة النظر.

ب . ر . ح: الباء انبثاق الحركة والراء تكرار وإعادة والحاء تعاظم. تفيد الحركة العامة الوصول إلى نوعٍ من الاستقرار والسكون، لأنّ الحركة المجتمعة متعاظمةٌ ومتكاثرةٌ. لكنّ المعجم ذكر العكس حيث قال: بَرَحَ فلان بروحاً وبَرَحاً: زال. ويبدو أن العرب استعملوه هكذا لبيان شدّة الحركة أو هناك وهم في الأمر، فقولهم: (لا أبرح حتى أفعل كذا: لا أزول من مكاني حتى أفعل) لعلّه بالمقلوب وقد توهّموا فيه أي المعنى: لا أستقر في مكاني حتى أفعل كذا، لأنّ العبارة الأولى (التفسيرية) خاطئة، إذ أن المرء إذا أصرّ على فعل شيء توجّب عليه الحركة لا الثبات في مكانه. ويدل على ذلك: المعجم: البَرَح: الشدّة، ويقال: أبرَحتَ لؤماً أوكرماً للتعجب من إفراطه في اللؤم أو الكرم. بَرَحَ الخفاء: انكشف ووضُحَ الأمر. أقول: إن الحركة النهائية متعاظمةٌ وكبيرةٌ. وكذلك قوله تعالى: ﴿... لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠﴾ [سورة الكهف, ٦٠]، فلو كان المعنى: (لا أزول من مكاني حتى أبلغ مجمع البحرين) لحصل تناقض في داخل العبارة، إذ أن بلوغ المجمع يحتّم عليه مغادرة المكان. لكنّ لو قلت: (لا أستقر ولا أثبت حتى أبلغ المجمع) صحّت العبارة. والسبب هو القياس على (ما زال) حيث قالوا: (ما بَرَحَ: أي ما زال) وهو وهم لأن معنى ذلك أن: بَرَحَ = زال. وهذا القياس خاطئ إذ أن أحدهما عكس الآخر في الاتجاه.

يَ . تَ . م: في هذا التسلسل حركةٌ تامةٌ بـ (تمّ) وقد ظهرت من مجموع الممكنات في الطبيعة عن طريق الياء المنفتح عليها. هذه الحركة رائعة جداً ومتميّزة إلى أبعد حدٍ. وهي تعني التفرّد في الموجودات أو المخلوق الواحد الذي تمَّ من مجموع الممكنات. لكنّهم استعملوه لفاقد الأب قبل البلوغ تحديداً. كأنما هو اعتمد في وجوده على الممكنات لصغر سنه وفقده أبيه. واستعمل اللفظ أيضاً كفعلٍ مطابقٍ للحركة: يتمَ: انفرد. واستعمل بمجازٍ بعيدٍ بمعنى: أعيا وأبطأ. فالإعياء بسبب انفراده. والإبطاء اقرب إلى الحركة لأن التفرّد بطيء الظهور دوماً. وله استعمالات أخرى بعيدة. قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [سورة الضحى ,٦] أي وجدك منفرداً في الموجودات وحيداً لا أحد يشبهك، فآوى: أي جعل البعض يأوي إليك وتأوى إليهم ليتحقق التفرّد

بصورته الظاهرة. وفي هذا ثناء غريب من نوعه حيث يفهم منه أن بعثه بالنبوة والرسالة لشخصه هو أصلاً، ولأنه هو كذلك فقد تقرّرَ أن يجمع حوله من لهم نصيبٌ من هذه الفردية. لذلك لم يأخذ الفعل مفعوله فلم يقل (آواك) كما زعم الاعتباط في تقديره فما أدراه أن لا يكون التقدير هو فآواهم المفعول (هم) إليك؟" اهـ[108]

حول المنهج

وفي ختام هذا المبحث الصغير، الذي تعمدنا فيه أن نظهر للقارىء محاسن اللغة العربية ومنطقيتها وموافقتها للنظام الطبيعي، وجريانها على سنن الله في كونه من خلال عرض الكثير من الأمثلة، نقول للقارىء: للغة عامة وللغتنا خاصة نظامها الذي تسير عليه، وشاء علمائنا أم أبوا فسيظهر هذا النظام والمنهج وينتشر، ولا يعني عدم معرفتهم به إنكارهم له، فلقد كان العناد والرغبة في الاستمرار على المألوف واتباع سنن الأولين سببا في تأخر البشرية كثيرا، ونحن نحاول أن نتعجل ظهور هذا المنهج في التعامل مع النصوص اللغوية عامة ومع القرآن خاصة، حيث أن هذا المنهج سيؤدي إلى استخراج المزيد والمزيد من كنوز القرآن، وسيؤدي أيضا إلى إظهار عور النصوص المقدسة الأخرى، فأهلها سيكونون من أشد المدافعين عن بقاء النظام اللغوي الاعتباطي، حتى تستمر نصوصهم المتهاوية سارية المفعول، حتى يمكن القول أن "هذا" لا يعني "هذا" و"ذاك" ليس "ذاك" بل هو، و"هو" يعني "أنت"، وهلم جرا.

فلنتقدم أخواني المسلمين إلى هذا المنهج ولا نخش شيئا، فما النظام إلا القرآن، ومع النظام نسير إلى الأمام. وإذا قال القائل: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فهل كان المنهج السالف في التعامل مع القرآن خاطئا تماما، وكان علينا اتباع المنهج القصدي؟ نقول: بداهة لا لم يكن المنهج خاطئا تماما، فمعرفة معان الحروف علم ليس باليسير،

(108) النماذج مأخوذة من كتاب "اللغة الموحدة" لعالم سبيط النيلي.

وإذا قلنا أننا يجب أن نتعامل مع القرآن بهذا المنهج فقط، فهذا يعني أنه ما كان على المسلمين أن يقربوه، ولكن نحن نقول أن هذا مستوى أعلى في فهم النص القرآني حتى نستطيع أن نحدد المعنى المقصود بدرجة أعلى، وكان يكفي المفسرين في المراحل الماضية أن يأخذوا القرآن كما هو، ولا يساووا بينه وبين باقي النصوص اللغوية ويصححوا لغتهم عليه، ولكنهم قلبوا الآية.

وفي الختام نقول: أمامك عزيزي القارىء ثلاثة مناهج في التعامل مع القرآن:

- منهج اعتباطي: وهو ما يأخذ به السادة المفسرون، فيساوون بين القرآن وبين باقي النصوص البشرية، فيقدر محذوفا ويحذف موجودا، ويجعل الأمر لغير الوجوب والنهي لا يفيد تحريما في كثير من الأحايين.

- ومنهج يتبع القرآن، فلا يقدر محذوفا ولا يحذف موجودا، ويقدم النص القرآني على كل النصوص فيقيسها على قواعده ويصحح ويُخطّأ على منواله، ويجعل الأمر دوما للوجوب.

- ومنهج يتخذ نفس المنهج السابق، ويزيد على ذلك أنه يفهم النص من خلال حروفه وليس من خلال كلماته. فانظر أيها أولى في التعامل والاتباع مع كتاب الله.

لقد ظلم العلماء لغتنا العربية وظلموا أنفسهم وظلمونا معهم، باتباعهم هذه المناهج الغريبة في التعامل مع القرآن، فكان أولى بهم أن يتبعوه ويقيسوا عليه، ولكنهم للأسف فعلوا العكس، فهل علينا أن نتبعهم، أم أنه من اللازم أن نخالفهم ونتبع القرآن ونضعه أمام أعيننا؟ وأنا أقر أن ما أطالب به جد صعب، فهذا يعني أنه يجب علينا أن نقوم بعملية استقراء واستنطاق ثانية للقرآن، حتى نقوم باستخراج قواعد جديدة للنحو وللصرف وللبلاغة. ولكن ليطمئن القارىء فلن تتغير القواعد كلها، فهناك قدر كبير، متفق مع ما قال به الأقدمون وهناك حتما قدر مخالف وهو أقل، ولكن هذا أفضل مائة ألف مرة من أن نظل ندرس لأبنائنا قواعد تساعد على فهم القرآن فهما ملبسا، أو تؤدي إلى عدم فهمه ابتداءا. وعلى أسس هذه القواعد المستخرجة من القرآن والقرآن

فقط، سنستطيع أن نفهم القرآن فهما أدق وأحكم، وبذلك نخرج منه بكنوز عظيمة وبعلوم عزيزة تنفعنا في دنيانا، فتصلح حالنا وترفع شأننا.

أما أن نصر على النظر إلى القرآن بمنظار مقلوب، ثم نتساءل: لم لا يؤدي القرآن دوره المفترض؟!، فهذا ما لا يقبل بأي حال، وعلى الله الاتكال.

الباب الثاني

إسقاطات

الفصل الأول: التأويل الفقهي

بعد أن تكلمنا عن القرآن وكيفية التعامل معه وذكرنا علاقة القرآن بالسنة وكيف تُأول السنة القرآن، نأتي إلى ذكر نماذج، توضح أن هذه القاعدة تسهل على المرء التعامل مع دينه، وتوضح أن الفقه –بمعناه الاصطلاحي– سهل يسير، ويمكن لأي إنسان أن يستخرج كثيرا من الأحكام الفقهية من القرآن مباشرة، بدون حاجة إلى قول فلان أو علان من العلماء! وتظهر بساطة الدين الإسلامي وبعده عن التعقيد بخلاف باقي الأديان، التي يكون في المعتنق لهذا الدين تابعا لسلطة رجال الدين يحركونه ويحرجونه كما يحلولهم، ونجد هذا بشكل كبير عند الشيعة في اتباعهم المراجع والآيات!

وبالقول بهذه القاعدة يقرب الناس من دينهم، فالناس أعداء ما يجهلون، فإذا شعر الإنسان أن الأحكام كثيرة والواجبات عديدة، وشعر أيضا بالتخبط في استخراج الأحكام بدون معيار محدد يسير عليه الفقهاء، ابتعد عن هذا الجانب بأسره وتركه للفقهاء، ثم يتبع ذلك في الغالب ترك للواجبات الشرعية. ونذكر هنا قاعدة واحدة في التعامل مع آيات الأحكام في القرآن، يستعملها كميزان لاستخراج الأحكام ولوزن أقوال الفقهاء.

القاعدة الكبرى

هذه القاعدة هي: خذ القرآن كما هو، فالأمر إذا كان خطابا للمكلف فهو أمر –أي على سبيل الوجوب– والفريضة فرض والكتاب مكتوب، ولا تخلط بينهم، والنهي نهي والحرام حرام. أي أن كل أمر ورد في القرآن هو على سبيل الوجوب. سيقول قائل: ولكن القاعدة الأصولية تقول: الأصل في الأمر الوجوب ما لم يصرفه صارف، فينزل إلى الندب أو الإباحة. نقول: هذه القاعدة صحيحة ولكن في غير القرآن، فيمكن أن

نطبقها في كل مجالات الحياة أو حتى مع السنة، لأن السنة ليست مطلقة كما قلنا ولها أسباب ورود كما أنها لم تُنقل كاملة، بخلاف القرآن، أما مع القرآن فلا بد أن يكون الصارف في النص ذاته.

ونورد هنا نموذجا واضحا على ذلك وهو ما رواه البخاري: "838- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَو عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ"

فالنبي(ص) لا يريد أن يأمرنا بالسواك خشية المشقة علينا، فيفهم بداهة أن أمره ليس على سبيل الوجوب. وقد يرى البعض أن الحديث على خلاف ما أريد الاستدلال عليه، ولكنا نقول: لو كان أمر النبي(ص) على سبيل الوجوب دوما، كما في القرآن، وقال هذا الحديث، لكان معنى هذا أنه يحلل ويحرم من عند نفسه، فهو خشية المشقة رفع عنا الحكم، فهل يمكن لأي مسلم أن يدعي أن للرسول التحليل والتحريم من نفسه؟!

بداهة لا يمكن لأن كل هذا من عند الله فقط، فعلمنا من هذا الحديث أن أمر النبي(ص) ليس كله على سبيل الوجوب كما في القرآن، بل فيه ما هو على سبيل الندب والاستحباب.

نماذج وتفريعات

ونبدأ بذكر بعض النماذج، التي قالوا أنها لا تفيد الوجوب، موضحين كيف أن الأمر لا بد أن يكون دوما للوجوب، إلا إذا كان هناك صارف في النص، وليس صارفا عقليا أو ذوقيا!، فنقول: الأمر إما أن يأتي على سبيل الإلزام بفعل معين: وذلك مثل قوله تعالى:
﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾] سورة الأعراف, ٣١[فالأمر هنا على سبيل الوجوب لفعل محدد، ولست أدري لم قال السادة الفقهاء هنا أن الأمر على سبيل الإباحة؟! فالإنسان مأمور بالأكل والشرب وهو أمر عام ولم يُحدَد بأي شكل، والغاية عدم الاسراف، فإذا تركت الأكل والشرب فترة لا إثم علي، لأني سأنفذ الأمر لاحقا، أما إذا تركته حتى مت فأنا آثم لمخالفتي الأمر، وكذلك نحن مأمورون بوجوب أخذ الزينة عند دور العبادة أو عند أداء العبادة، وكذلك الأمر هنا على سبيل الإلزام وهو أمر عام، فلم يوضح ما هي الزينة التي يجب أخذها، فيمكن أن يُفهم أن الثياب الطاهرة –وثيابك فطهر– الساترة للعورة هي زينة، وبداهة كل ما زاد عن ذلك من تصفيف شعر وتطيب مطلوب ومستحب.

إذا فالأمر هنا على الوجوب ولا يمكن أن ننزله إلى باب الاستحباب أو الندب. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾] سورة البقرة, ٢٢٢[فنجد كذلك هنا أن الأمر على سبيل الوجوب، وأنا أعرف أن القاعدة في أصول الفقه، أن الأمر إذا جاء بعد النهي يكون لرفع النهي والحرج وليس على سبيل الوجوب للأمر ذاته، أي أن المراد هنا هو رفع الحظر عن الوطء بعد التطهر.

ولكنا نرى أن الأمر هنا على سبيل الإلزام، لأن هذه القاعدة استنتاج عقلي وليست مستخرجة من القرآن، والظاهر أن الله تعالى يأمر فيجب علينا الطاعة! فيجب على المرء أن يطء زوجه مرة على الأقل مباشرة بعد أن تطهر. وبهذا يمكن القول أن الإسلام لم يترك المرأة هملا، فيأتيها زوجها متى يحلو له ويتركها كما يحلو له، فأوجب لها مرة على الأقل في الشهر وتكون بعد التطهر، فإذا أراد الزوج الوطء أكثر من ذلك فهو بالخيار، ولكن لا يتركها شهرا كاملا بلا وطء، والله أعلم.

وقلنا أن الأمر هنا على سبيل الوجوب وليس على الإباحة، أي رفع الحظر، لأننا نجد أن القرآن إذا أراد أن يوضح أن الحكم هو الإباحة وليس الوجوب، فإنه يقول ذلك صراحة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [سورة البقرة, ١٨٧] فهنا بينت الآية أن الحكم هو الحل، والحلال حكمه الإباحة، فإذا شئت فعلت أو تركت، والحكم هنا رفع الحظر في ليلة الصيام، فقالت "أحل" ولم تقل "أأتوا النساء" فالحكم الواضح هنا هو التخيير وليس الأمر، فالآية لم تأت بصيغة الأمر، لذا نقول أن صيغة التخيير واضحة فتكون من باب التخيير، ولا تأتي بصيغة الأمر. قد يقول قائل: أتفق معك فيما تقول في مسألة التخيير بصيغة التخيير، ولا تأتي بصيغة الأمر، ولكن ألا ترى أن الآية أمرت بالمباشرة والأكل والشرب، فهل هذا أيضا من باب الوجوب؟ نقول: نعم، فالأمر هنا من باب الوجوب فلا بد من الأكل أو الشرب في ليالي رمضان، ولا يمكن لإنسان أن يترك الأكل والشرب طيلة ليالي رمضان بل لا بد له من ذلك، وكذلك لا بد له من أن يأتي زوجه مرة على الأقل في رمضان، وهذا ما قلناه من قبل.

وكذلك يكون الأمر على سبيل الإلزام، ولكن مع التخيير في التطبيق: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٨٩﴾ [سورة المائدة, ٨٩] فخيّر بين الإطعام أو الكسوة أو تحرير رقبة، وفي حالة عدم الوجد يكون الصوم ثلاثة أيام، ومعلوم أن هذا كله على سبيل الإلزام.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [سورة المجادلة, ١٢-١٣]. فأوجب تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول –محمد أو القرآن– ويمكن أن يكون كذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله بدلا عن ذلك، إذا الأمر على سبيل التخيير بين أمرين: إما الصدقة وإما الصلاة والزكاة والطاعة، ولا يمكن تركها بحجة أن الأمر للندب. إذا فأي أمر في القرآن هو على سبيل الوجوب إلزاما أو تخييرا بين أمرين أو أكثر.

والفرض فريضة: تعني أن ما قال القرآن عنه أنه من باب الفريضة فهو فرض فقط، ولا اختلاف في وجوب الفرض! ولكن المشكلة أن الناس يخلطون بين الفرض والمكتوب، فإذا نحن نظرنا في القرآن وجدنا أن الفرائض الموجهة لنا في القرآن هي: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [سورة البقرة, ١٩٧]، ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [سورة النّور, ١] فما ورد في سورة النور من الأحكام هو من باب الفرائض، وذلك مثل جلد الزاني وجلد القاذف واللعان وباقي الأحكام المنثورة في السورة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ

عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾] سورة الأحزاب, ٥٠[فما فرض علينا في الأزواج بخلاف ما فرض على النبي، فلقد كان للنبي أحكام مخصوصة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾] سورة التحريم, ٢[، ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾] سورة النساء, ١١[، ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾] سورة النساء, ٢٤[، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾] سورة التوبة, ٦٠[

والكتاب مكتوب: أي أن الأوامر التي جاءت بقوله تعالى "كُتب" أو"كتاب" فهذه مكتوبات ولا يجوز أن نسميها فرائض، لذا قلت "ولا تخلط بينها"، فللأسف نجد أن الكثير يقولون أن الصلاة فريضة أو يقولون المفروضات الخمس، ولكن هذا لا يصح فالصلاة مكتوبة وليست مفروضة، ونحن نجد أن المكتوبات هي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾] سورة البقرة, ١٧٨[فالقصاص مكتوب وليس فرض أو واجب.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [سورة البقرة, ١٨٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [سورة البقرة, ١٨٣]

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة, ٢١٦]،

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ... ٢٤﴾ [سورة النساء, ٢٤]

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [سورة النساء, ١٠٣]

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [سورة النساء, ١٢٧]

هذه هي المكتوبات التي وردت في كتاب الله عز وجل. ولسائل أن يسأل: وما الفارق بينها؟ نقول: نحن نرى أن المكتوبات هي أعلى درجات الوجوب، ويترتب على تركها إثم جد عظيم، ولكن لا يعني هذا أن ترك الواجب والفرض لا يترتب عليه إثم، فترك أي صنف منها عليه إثم، ولكن الله عز وجل لم يفرق بينها عبثا، فإذا قال أن كذا "فرض" وكذا "كتاب" فلا بد أن نسميها كما سماها الله عز وجل: ﴿... ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ

ٱللَّهُ ... ﴿١٤٠﴾] سورة البقرة ,١٤٠[، وإذا لم يظهر لي فرق حاسم بينها، فقد يظهر لغيري، والله أعلم.

والنهي نهي: نقصد بهذا أن الله عز وجل نهى عن فعل بعض الأشياء في كتاب الله بصيغة النهي مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ... ﴿٤٣﴾] سورة النساء ,٤٣[فهنا لا بد من القول أن الحكم هنا النهي، ونقول أن الله عز وجل نهى عن قرب الصلاة في حالة السكر، ولا نقول أن الله حرم قرب الصلاة في حالة السكر.

ومن ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَ لَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾] سورة الحجرات ,١٢[فهذا أيضا من باب النهي ولا يصح أن نقول أن الله حرم هذا. قد يقول قائل: ألا يأثم المرء في حالة تلبسه بهذا الفعل؟ نقول: نعم، ولكن لا بد من الملاحظة أن الله عز وجل عندما تكلم على المحرمات حصرها في أنواع محددة، والآيات الجامعة للحرام هي: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾] سورة الأنعام ,١٥١-١٥٢[، وقال أيضا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾] سورة الأعراف ,٣٣[

فنحن نجد أن المحرمات في القرآن محدودة مثل القتل والفواحش من زنا وسحاق ولواط والشرك وعقوق الوالدين وقتل الولد وأكل مال اليتيم والغش في المعاملات التجارية وشهادة الزور ومخالفة عهد الله، فلا يمكن أن تُعمم لتشمل النواهي عن أفعال كثيرة، فالحرام هو ما حرمه الله صراحة وقال أنه حرام، أما ما نهى عنه فنقول أنه منهي عنه فقط، ولا نقول أنه حرام حتى لا نقع في دائرة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يونس, ٥٩]، أو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل, ١١٦]

والله قال بشأن بعض الأمور صراحة أنها حرام، فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾]سورة الأنعام, ١٤٥[وقال: ﴿... وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٧٥] فهذه بعض آيات ظهر فيها التحريم جليا، فنقول فيها بالتحريم ونحن مطمئنون، وما لم يصرح فيه بالتحريم قلنا أن الله نهى عنه ولا نقول أنه حرام والله أعلم.

وأنا أقول أن كل ما ورد في القرآن بصيغة "حرم" فهو من الكبائر، وليس ما جاء في كتاب الإمام الذهبي[109] بخلاف ما جاء بصيغة النهي فقط فهو أقل درجة أو درجات في الإثم.

[109] بالغ الإمام الذهبي في كتابه "الكبائر" كثيرا، ولعله لم يخطر بباله أنه بتأليفه هذا الكتاب قد أتى بابا من الكبائر!

وتظهر فائدة ذلك جليا في مثل الآية التي ذكرناها سابقا وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ... ١٢﴾ [سورة الحجرات, ١٢] فنقول: نهى الله عز وجل هنا عن التجسس وعن الغيبة، ولا نقول أن الله حرمهما، لم؟ لأن هذين الفعلين في كثير من الأحيان يكونا ضرورين إذا كانا بشروطهما، ومن ذلك أن يسألني إنسان عن حال فلان، الذي تقدم لخطبة ابنته، فهنا لا بد أن اغتابه بالحق وأقول له سماته، وهذه الحالة ليست حالة ضرورة يوجب فيها الغيبة، ولكن إذا لم أغتبه بالحق أكون قد خدعت السائل، وكذلك إذا أردت تحديد إنسان بسمت يكرهه فهذا يعد أيضا من باب الغيبة بالحق، وقس على ذلك الأحوال الست التي يجوز فيهن الغيبة.

ونلاحظ أنها كلها ليست بالضرورة، كما أن التجسس يكون في بعض الأحيان ضروريا، ومن ذلك التجسس على الدول المعادية أو التجسس على المجرمين لمعرفة أخبارهم –بإذن القاضي بداهة–، فهذه الأنواع كلها لا تدخل في باب الضرورة، التي تجعل المرء يضطر إلى فعل الحرام. إذن يُفهم من هذا أن المنهي عنه مرتبط بظروفه، فإذا توفرت هذه الشروط امتنعنا عنه، أما إذا لم تتوفر يمكن أن نقوم به ولا حرج، لذا نجد أن الله عز وجل قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... ٣٣﴾ [سورة الأعراف, ٣٣] فالفواحش على كل حال حرام، أما الإثم والبغي فهما حرام بشرط أن يكونا بغير الحق، إذن فهناك إثم وبغي بالحق وعندما يكونا بالحق فهما غير محرمين، والله أعلم.

إذا فكل نواهي القرآن واجبة الترك، والفارق الوحيد أن بعضها ذكرت بضيغة التحريم فهذه نقول فيها بلا حرج أنها حرام وهي من الكبائر، وبعضها وردت بصيغة النهي، فنتركها أيضا ولكن لا نقول أن الله حرمها تورعا، والله أعلم. نقول: هذا ما يحتاجه الإنسان العامي في التعامل مع القرآن، وبها بإذن الله سيقوم بتطبيق وتنفيذ ما أمر الله به، وبهذه البساطة سيتمكن من التعامل مع كتاب الله، ولكن كل هذا بشرط أن يفهم

القرآن ذاته، لا ما قالته الروايات الضعيفة أو ما قاله العالم الكبير أو الفقيه العظيم، بل لا بد من أخذ ما قاله القرآن فقط، وفهم القرآن فهما منطقيا يتفق مع المألوف والمتعارف عليه في اللغة، لا ما قاله الشاعر فلان ذات مرة أو ما اختلقه فلان على لسان الشاعر علان، لجعله دليلا على صحة فهمه، والمعنى المألوف المتعارف عليه للفظة يدركه أي إنسان بالفطرة وبالقراءة الكثيرة للكتب.

وأنا أعلم أن كثيرا من طلاب العلم لا يرون اللغة كافية لفهم القرآن، لما لُقنُوه من شيوخهم في الفقه وأصوله وفي التفسير، ولقد وقع في يدي كتاب "أثر اللغة في اختلاف المجتهدين" لعبد الوهاب عبد السلام طويلة، فقلت لننظر ماذا يقول هذا الكتاب، وكيف تُسبب اللغة اختلاف المجتهدين؟ فوجدت الكتاب مبوبا ومقسما تقسيما أكثر من رائع ولكنه يدور في فلك ما قاله الأقدمون، فهناك في القرآن عام ليس بالعام!! وخاص ليس بالخاص!! وعام مخصص بأشياء عديدة منها الأحاديث والإجماع والعقل وأشياء أخرى كثيرة!! ونجد نماذج عجيبة في اختلاف الفقهاء: فهل دلالة العام في القرآن تفيد القطع؟ فنجد وللعجب الشديد أن بعض المدارس الفقهية تقول أن دلالة العام في القرآن تفيد الظن!! أي أن ما ورد في القرآن على سبيل العموم قد لا يفيد العموم، إذا فإفادته للعموم ظنية! ووجدت في الكتاب أعاجيب من أعاجيب الفقهاء والأصوليين، فتساءلت: أين أثر اللغة في اختلاف المجتهدين؟

فما اختلف هؤلاء المجتهدون إلا لتركهم المنصوص، وتحكيمهم أشياء أخرى غير اللغة والنص، فأدى ذلك إلى قولهم أن الدلالة ظنية، ورب الكعبة لو حكّم هؤلاء النص في فهمهم للقرآن لقل اختلافهم كثيرا، ولكن ما دام هناك محذوف ومزيد فسيظل الخلاف، أما مع التعامل مع المنصوص فقط فسيقل الخلاف كثيرا.

نماذج من آيات الأحكام

ونبدأ الآن في عرض نماذج من تأويل للآيات، ونذكر القارىء أن تأويل آيات الأحكام يكون بتطبيقها وتنفيذها، فيكون تأويل الأمر بالإتيان به وتأويل النهي بتركه، فبهذا نتأول الآيات، أما كل ما نفعله في هذا الفصل فهو أننا نوضح للقارىء كيف أن فهم آيات الأحكام في القرآن سهل يسير، ويمكنه أن يستخرجه بنفسه من القرآن، ونطلب إلى القارىء أن يحاول أن يفهم الآيات –النص فقط– ولينظر هل سيستطيع فهمها بسهولة أم لا، وهل سيتفق معنا فيما نقول به أم لا. ونبدأ النماذج بنموذج يعتبر هاما وحيويا بالنسبة للكثير من الناس، وهذا النموذج هو:

المحرمات من الأطعمة

إذا نظرنا في القرآن وجدنا أن الآيات الواردة في هذه المسألة هي:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة البقرة, ١٧٣]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٤٥]

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾] سورة المائدة ,٣[

وسيخرج القارىء من هذه الآيات بحكم واحد لا خلاف فيه ولا لبس، فالأمر في غاية الوضوح، فالقرآن يقولها ويكررها أن المحرم من الطعام هو أربعة أصناف هي: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. والناظر يجد أن الآيات وردت بصيغ عديدة بين "إنما" التي تفيد الحصر، وبين النفي والاستثناء: "لا أجد فيما أوحي إلى... إلا" التي تفيد الخبرية والحصر أيضا، وبين صيغة التحريم العادية "حُرمت".

وانظر عزيزي القارىء في كتب الفقه في هذا الأمر وستجد فيها الصفحات الطوال، مع أن الأمر لا يحتاج إلى عبقرية لمعرفة هذا الحكم الذي لا يأخذ أكثر من سطر واحد، وتصور معي عزيزي القارىء باب المأكل في كتب الفقه يأخذ سطرا واحدا، كم سيكون الفقه سهلا على كل المسلمين.

ومما يأسف له المرء أنه إذا نظر أي مسلم في كتب الفقه في هذا الشأن، الذي يجب على كل مسلم أن يعرفه منذ الصغر كمعرفة أبناءه، يجد أن فيه تصريفات وتفريعات عديدة، فنجد أن أكثر الفقهاء على تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ونجد أن هناك خلاف كبير في حكم الحمر الأهلية –بين محلل ومحرم ومكره–، وهل الضفدعة حلال أم حرام، وحكم الأرنب!! وأصناف كثيرة يشعر معها المسلم بالحيرة في تفصيل مطعمه، والسبب في ذلك هو ورود روايات لأسباب معينة، عمّومها وجعلوها مطلقة، ثم جعلوها ناسخة للقرآن أو مخصصة له، مثل: ما رواه مسلم: "3574– عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا أَنَّ {رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ، وكل ذي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ}. ومن ذلك ما رواه البخاري: "2922– حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ أَصَابَتْنَا مَجَاعَةٌ لَيَالِيَ خَيْبَرَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ وَقَعْنَا فِي الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَانْتَحَرْنَاهَا فَلَمَّا غَلَتِ الْقُدُورُ نَادَى مُنَادِي

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْفِئُوا الْقُدُورَ فَلَا تَطْعَمُوا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ شَيْئًا" قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْنَا إِنَّمَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهَا لَمْ تُخَمَّسْ قَالَ وَقَالَ آخَرُونَ حَرَّمَهَا أَلْبَتَّةَ وَسَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ فَقَالَ حَرَّمَهَا أَلْبَتَّةَ"

وفي البخاري كذلك: "3893– حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ أَبِي أُسَامَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ وَسَالِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ أَكْلِ الثُّومِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ نَهَى عَنْ أَكْلِ الثُّومِ هو عَنْ نَافِعٍ وَحْدَهُ وَلُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ عَنْ سَالِمٍ"

وفي البخاري أيضا: "3898– حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَدَّثَنَا عَبَّادٌ عَنْ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَصَابَتْنَا مَجَاعَةٌ يَوْمَ خَيْبَرَ فَإِنَّ الْقُدُورَ لَتَغْلِي قَالَ وَبَعْضُهَا نَضِجَتْ فَجَاءَ مُنَادِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَأْكُلُوا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ شَيْئًا وَأَهْرِقُوهَا قَالَ ابْنُ أَبِي أَوْفَى فَتَحَدَّثْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْهَا لِأَنَّهَا لَمْ تُخَمَّسْ وَقَالَ بَعْضُهُمْ نَهَى عَنْهَا الْبَتَّةَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ"

وفي البخاري أيضا: "3902– حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ عَاصِمٍ عَنْ عَامِرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَا أَدْرِي أَنَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ حَمُولَةَ النَّاسِ فَكَرِهَ أَنْ تَذْهَبَ حَمُولَتُهُمْ أَو حَرَّمَهُ فِي يَوْمِ خَيْبَرَ لَحْمَ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ "

فهذه بعض الأحاديث التي يستدلون بها على تحريم أصناف من الطعام لم يحرمها الله عز وجل، ونجد كذلك أنه كان هناك خلاف بين الصحابة في سبب النهي هل لعدم التخميس أم لأكل العذرة أم لأنها حمولة الناس، فأخذ الفقهاء بالروايات على عمومها وتركوا أسبابها على عادتهم، في إطلاق السنة وتقييد القرآن!

ونحن عندنا كتاب الله القول الفصل، القسطاس المستقيم، الذي نقيس عليه كل شيء في حياتنا حتى السنة، فإذا رجعنا إلى القرآن وجدنا أنه حرم الأصناف الأربعة فقط، بل أنه ذكر ذلك في إحدى الآيات على سبيل الخبر، الذي لا يجوز على رأيهم نسخه،

لأنه يصير كذبا! ولكن السادة الفقهاء لا يُغلبون كما يقال، فقالوا فيها أقوالا عدة حتى يُعملوا الروايات، ولو أدى ذلك إلى نسخ الآيات.

ولقد رد الإمام الرازي في تفسيره على هذه التمحكات الفارغة وبيّن تهافتها فليراجع هناك من أراد ذلك. ونحن نقول أن النهي في هذه الروايات كان له أسبابه وأن النهي خاص لظروفه من حاجة للحموله أو لعدم التخميس أو لأكل العذرة فالله أعلم، فقدمنا كتاب الله وحرّمنا حرامه ووقفنا عنده، والحمد لله نجد أن من الأحناف والمالكية من لا يقول بتحريم هذه الأصناف بل يقول فيها بالكراهة. وهذا أكثر من كاف لمن يريد أن يسمع أقوال الفقهاء في هذه المسألة، فليس على تحريمها إجماع –هذا إذا قلنا أن الإجماع حجة–، فيكون الحكم الشرعي بكل سهولة هو أن المحرم فقط أربعة، ومن أراد معرفة المكروه فعليه بكتب الفقه، ومن أراد الحلال والحرام فعليه بكتاب الله. قد يقول قائل: أنت تقول أن القرآن حرم أربعة أصناف فقط، ولكنا نجد أن آية المائدة ذكرت أصنافا أخرى، فكيف يستقيم كلامك؟ نقول: الأصناف أربعة والكلام في المائدة من باب التفصيل، فإذا أنت نظرت وجدت أن القرآن تكلم عن حكم الميتة إجمالا والميتة المعروف أنها هي الميتة، ولكن ما حكم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع؟ فوضحت الآية أن ما أدركناه من هذه الأصناف فذكيناه فهو حلال، وأما إذا لم ندركه فهو حرام لا يحل لنا أكله، فالكلام في آية المائدة من باب التفصيل وليس الزيادة، والله أعلم.

الزكاة

وإلى نموذج آخر من نماذج التأويل وهو متعلق بالزكاة، ونبدأ بآية جامعة مانعة في هذا الشأن وهذه الآية هي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ... ﴿٢٦٧﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٦٧]

فالآية وضحت هنا أن الزكاة واجبة في كل ما كسبه الإنسان ومما أخرجت الأرض، وعلى الرغم من أن هذا مما كسبه الإنسان فقد يظن أن الزرع ليس من باب الكسب لأن الكسب مرتبط عند الناس بالتجارة والصناعة، فصل الله عز وجل في الآية حتى لا يكون هناك حجة أو عذر لأحد. إذا فالآية واضحة في أن الزكاة واجبة على كل ما كسبه الإنسان من زراعة أو صناعة أو تجارة أو راتب، وهذا فهم لا غبار عليه.

ولكنا نجد أن السادة الفقهاء حددوا أنواعا محددة يخرج منها الزكاة، وأنواعا أخرى لا يُخرج منها، كأن هذه الأنواع التي لا يخرج منها لا تحتاج إلى زكاة، وكأن الإسلام يلزم زُراع القمح والذرة والشعير والتمر بإخراج الزكاة، أما زراع المانجو وفواكه التصدير فلا زكاة عليهم! وهذا شيء لا منطق له، ولكن لأنهم قدموا الروايات على الآيات فكان حتما أن يخصصوا الآيات أو ينسخوها.

ونحن لا ننكر أن السنة لها دور في الأحكام ولكنها تلعب الدور التأويلي أي التطبيقي، فعندما يأمرنا الله عز وجل بالزكاة وفيها تفريعات عدة لا يصح أن تذكر في القرآن، تأتي السنة فتطبق لنا هذه الأوامر، فنعرف ما هو تأويلها. قد يقول قائل: ولكن الذي ورد من الأحاديث في هذا الشأن ذكر أصنافا ولم يذكر أصنافا أخر؟ فنقول: عدم الدليل ليس بدليل، كما يقال في أصول الفقه، فلا يعني عدم وجود روايات توضح أن الرسول أخذ الزكاة من جميع الأصناف، أن لا يؤخذ منها استنادا إلى الدليل القرآني!، ورحم الله أبا حنيفة فلقد أخذ بعموم الآيات مثل الآية المذكورة، ومثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٤١]

وقال بوجوب الزكاة في كل ما تخرجه الأرض، وليس في أصناف عدة. فهذه آية واضحة على أن الفاكهة –التي يستثنيها الفقهاء من الزكاة– والزرع عامة فيه زكاة،

ولست أدري صراحة كيف رفض الفقهاء هذه الآيات الصريحات في إيجاب الزكاة. إذن فالآيات على عمومها وتفهم كما هي وتأويل مقاديرها في السنة فليرجع إليها[110].

الإمام

ونذكر نموذجا آخر، وهو المتعلق بالإمام أو الحاكم في الدولة الإسلامية.

وإذا نحن دخلنا هذا الموضوع الشائك، الذي أدى إلى تعميق هوة الخلاف بين المسلمين وإنقسامهم إلى فرق مختلفة متنافرة، نجد أن كل الفرق استندت في هذا الأمر إلى روايات اختلقتها ولا يوجد لأي منهم مستند صريح في القرآن، والذي نجده في كتاب الله هو النظام العام للحكم وهو نظام الشورى، فالله عز وجل يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الشورى, ٣٨] ويقول آمرا النبي(ص) –والأمر في القرآن كله للوجوب كما وضحنا– ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٥٩] ويقول أيضا: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحُجُرات, ١٣]

ولكن إذا نظرنا إلى حال المسلمين في هذه النقطة وجدنا بينهم خلافا عظيما، وذلك كله لتخصيص كلام الله بروايات ظنية وجعلهما على مرتبة واحدة، فنجد أن الكثير من أهل السنة يرون أن حاكم المسلمين لا بد أن يكون من قريش، والدليل على ذلك ما رواه البخاري: "3239– حَدَّثَنَا أبو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَ مُعَاوِيَةَ وَهو عِنْدَهُ فِي وَفْدٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ

[110] للدكتور يوسف القرضاوي كتاب قيم اسمه "فقه الزكاة"، فند فيه الكثير والكثير من الأقاويل الفقهية المرتبطة بالزكاة، والكتاب على الرغم من كبر حجمه إلا أنه أكثر بكثير من رائع ويستحق أن يُقتنى.

عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلِكٌ مِنْ قَحْطَانَ فَغَضِبَ مُعَاوِيَةُ فَقَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هو أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يَتَحَدَّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا تُؤْثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُولَئِكَ جُهَّالُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَالْأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ"

وأيضا في البخاري "**3240**- حَدَّثَنَا أبو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ" اهـ.

وهناك من أهل السنة من يرى أن هذا الحديث -إن صح- هو من باب السياسة الشرعية، والدليل على ذلك ما رواه البخاري أيضا: "**6609**- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ" اهـ.

فقالوا ذكر النبي(ص) الطاعة ولو كان الإمام عبد حبشي، فعلم أن الأحاديث السابقة من باب السياسة الشرعية لمناسبة ذلك لهذا العصر.

ونجد أن الشيعة الإمامية يقولون أن النبي(ص) حدد الخلافة في الإمام علي رضي الله عنه وفي اثني عشر إماما من بعده، وأن المسلمين على بكرة أبيهم ما عدا أفراد قلائل خالفوا الأمر بعده وجعلوا الأمر شورى –تصور!!-، ويستدلون على ذلك بروايات أيضا، فالروايات جاهزة في جميع المجالات –وهذه الروايات موجودة أيضا في كتب أحاديث أهل السنة-، فيستدلون بالحديث الشهير وهو حديث غدير خم، وهو ما رواه الإمام أحمد وغيره –والنص للإمام أحمد-: "**915**- حَدَّثَنَا عَبْد اللَّهِ حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ أَرْقَمَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الرَّحَبَةِ يَنْشُدُ النَّاسَ أَنْشُدُ

اللَّهَ مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ لَمَّا قَامَ فَشَهِدَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَامَ اثْنَا عَشَرَ بَدْرِيًّا كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَحَدِهِمْ فَقَالُوا نَشْهَدُ أَنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجِي أُمَّهَاتُهُمْ فَقُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ" اهـ.

فيستدلون بهذا الحديث على وجوب البيعة والموالاة لسيدنا علي رضي الله عنه، والحديث على الرغم من ضعف سنده لا دليل فيه على ما يقولون. ونقول: هذا الحديث –إن صح– يمكن أن يعد من باب السياسة الشرعية، أي أن النبي(ص) فعل ذلك بصفته قائد المسلمين فيكون مخالفة الأمر مخالفة مدنية وليست شرعية.

ونحن نجد أن الزيدية، وهم فرقة من الشيعة أيضا، وإن كانوا أقرب فرق الشيعة في المبادىء إلى أهل السنة، لهم رأيهم الخاص في خليفة النبي(ص) وأنه أيضا معين فلا يصح أن يكون من عامة المسلمين.

أما الأباضية –الذين يصفهم الكثيرون بأنهم أتباع الخوارج وليسوا كذلك– فيرون أن الخليفة يمكن أن يكون أي إنسان مسلم كائنا من كان قرشيا أو علويا أو أمويا أو حبشيا، فكل إنسان تتوفر فيه شروط الخلافة يصح أن يتولاها، وكان هذا الرأي هو رأي الخوارج أيضا.

والذي نراه ونؤيده هو الحكم الخارج من القرآن وهو الإباحة، فالقرآن لم يشترط لذلك شيئا، فنتحرك فيه تبعا للظروف المحيطة، فإذا كان الفلاح في تولي قريشي ولينّاه، وإن كان الخير في تولية شيعي علوي ولينّاه، وإن كان الفلاح في تولية زيدي أو حبشي كان الأمر تبعا للصواب، أما الروايات الواردة مع كل فريق فهي إما موضوعة، أو لها ظروفها الخاصة التي لا يمكن أن نجعلها حكما شرعيا عاما، والله أعلم.

وبما أننا تكلمنا عن الخليفة في الإسلام لا بد لنا من التوقف مع المسألة التي تثار دوما، وهي أن الإسلام منع المرأة من تولي منصب الإمام أو الحاكم. وأنا وإن كنت من

أنصار عدم تولي المرأة للمناصب القيادية عامة، ولكن ما أراه شيء وما أباحه الله عز وجل أو حرمه شيء آخر، فإذا نحن تتبعنا هذه النقطة في القرآن وجدنا أنها متروكة فلم يعرض لها القرآن بتاتا، وإذا سكت عنها علمنا أن حكمها الإباحة، بل إننا نجد في القرآن ما يشير أنه لا يوجد ما يمنع من تولي المرأة لمنصب الإمام، وذلك عندما عرض لقصة ملكة سبأ، فنجد أنه يقول في حقها ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النمل ,٣٢-٣٤] فحمد القرآن فعلها وذكره في موضع الثناء، من السماع للشورى وليس كما يفعل حكامنا، فهذه إشارة إلى إباحة هذا الأمر، وإذا لم يكن فيه إشارة للفلاح فلا يوجد فيها ما يمنع من تولي الأمر، وإذا كان الأمر كذلك فالأصل فيه أن يبقى مباحا.

صلاة الجمعة

النموذج المذكور هذه المرة هو من طوام التعامل مع كتاب الله، حيث وجدنا فيها تعاملا غريبا جدا ما رأينا مثله في أي لغة من لغات العالم، ولست أدري كيف قُبل بهذا الفهم؟!

هذا النموذج هو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الجمعة ,٩] فهذه الآية غاية في الوضوح ولا يحتاج المرء لعبقرية ليخرج منها بأن الجمعة مكتوبة على كل المسلمين ﴿... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة النساء ,١٠٣]، ولكن لننظر كيف تعامل الفقهاء مع هذه الآية، وننقل من باب الجمعة في كتاب نيل الأوطار للشوكاني، حيث قال بعد سرد بعض الأحاديث في

الجمعة: "وقد استدل بأحاديث الباب على أن الجمعة من فروض الأعيان وقد حكى ابن المنذر الإجماع على أنها فرض عين. وقال ابن العربي: الجمعة فرض بإجماع الأمة. وقال ابن قدامة في المغني: أجمع المسلمون على وجوب الجمعة وقد حكى الخطابي الخلاف في أنها من فروض الأعيان أو من فروض الكفايات[111] وقال: قال أكثر الفقهاء هي من فروض الكفايات وذكر ما يدل على أن ذلك قول للشافعي وقد حكاه المرعشي عن قوله القديم. قال الدارمي: وغلطوا حاكيه. وقال أبو إسحاق المروزي: لا يجوز حكاية هذا عن الشافعي وكذلك حكاه الروياني عن حكاية بعضهم وغلطه. قال العراقي: نعم هو وجه لبعض الأصحاب قال: وأما ما ادعاه الخطابي من أكثر الفقهاء قالوا أن الجمعة فرض على الكفاية ففيه نظر فإن مذاهب الأئمة الأربعة متفقة على أنها فرض عين لكن بشروط يشترطها أهل كل مذهب. قال ابن العربي: وحكى ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة ثم قال: قلنا له تأويلان أحدهما أن مالكًا يطلق السنة على الفرض. الثاني أنه أراد سنة على صفتها لا يشاركها فيه سائر الصلوات حسب ما شرعه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم وفعله المسلمون. وقد روى ابن وهب عن مالك عزيمة الجمعة على كل من سمع النداء انتهى. ومن جملة الأدلة الدالة على أن الجمعة من فرائض الأعيان قول اللَّه تعالى: "إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا"، ومنها حديث طارق بن شهاب الآتي في الباب الذي بعد هذا. ومنها حديث حفصة الآتي أيضًا. ومنها ما أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة: (أنه سمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض اللَّه تعالى عليهم واختلفوا فيه فهدانا اللَّه تعالى له فالناس لنا تبع فيه) الحديث. وقد استنبط منه البخاري فرضية صلاة الجمعة وبوب عليه باب فرض الجمعة وصرح النووي والحافظ بأنه يدل على الفرضية قالا: لقوله فرض اللَّه تعالى عليهم فهدانا له فإن التقدير فرض عليهم وعلينا فضلوا وهدينا وقد وقع في مسلم في رواية سفيان عن أبي الزناد بلفظ: (كتب علينا) وقد أجاب عن هذه الأدلة

[111] فرض الكفاية هو الذي إذا قام به البعض سقط عن الباقين، أما فرض العين فهو الذي يجب على كل مسلم أن يقوم به بنفسه.

من لم يقل بأنها فرض عين بأجوبة: أما عن حديث أبي هريرة الذي ذكره المصنف فيما تقدم في الجماعة. وأما عن سائر الأحاديث المشتملة على الوعيد فبصرفها إلى من ترك الجمعة تهاونًا حملًا للمطلق على المقيد ولا نزاع في أن التارك لها تهاونًا مستحق للوعيد المذكور وإنما النزاع فيمن تركها غير متهاون. وأما عن الآية فبما يقضي به آخرها أعني قوله "ذلكم خير لكم" من عدم فرضية العين. وأما عن حديث طارق فبما قيل فيه من الإرسال وسيأتي. وأما عن حديث أبي هريرة الآخر فبمنع استلزام افتراض يوم الجمعة على من قبلنا افتراضه علينا وأيضًا ليس فيه افتراض صلاة الجمعة عليهم ولا علينا. وقد ردت هذه الأجوبة بردود. –والحق– أن الجمعة من فرائض الأعيان على سامع النداء ولولم يكن في الباب إلا حديث طارق وأم سلمة الآتيين لكانا مما تقوم به الحجة على الخصم." اهـ.

ولست أدري ماذا أقول بعد هذا الخلاف غير المقبول في حكم صلاة الجمعة! فهل يقبل أحد أن يقال عن الآية "ومن جملة الأدلة الدالة على أن الجمعة من فرائض الأعيان"، فساوى بهذا القول بين القرآن والسنة وجعلهما على درجة واحدة، بل إن السنة عنده مقدمة، فالدلالة في الآية ظنية وفي الحديث قطعية، ونجد أن الإمام البخاري استنبط من الحديث فرضية صلاة الجمعة!، ياللعجب، الآية واضحة أمامهم تمام الوضوح والأمر صريح، ولكن لأنه تعالى قال "ذلكم خير لكم" فيصرفه هذا عندهم من الوجوب إلى الندب، إذا يمكن أن أفهم أن النهي عن الزنا للكراهة وليس للتحريم لأن الله تعالى قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ٣٠﴾ [سورة النّور ,٣٠]. الأمر صريح على الوجوب وقلنا بالكتابة لورود الآية الأخرى التي تقول أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، والجمعة من الصلوات إذا فهي من المكتوبات، أما الخلاف هل أنها فرض عين أم فرض كفاية فخلاف عجيب، فالآية قالت "يا أيها الذين ءامنوا" والذي يرى أن هذا النداء لا يشمله فلا يأتي الصلاة، إذا فلا مبرر للخلاف في نوع الفرضية هل هي عين أم كفاية!! ونتابع العجب مع الفقهاء فياليتهم اكتفوا بهذا، ونكمل من نيل

الأوطار: "وعن طارق بن شهاب رضي اللّه عنه: (عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض). رواه أبو داود وقال: طارق بن شهاب قد رأى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم يسمع منه شيئًا.(...) ويؤيده أيضًا ما أخرجه الدارقطني والبيهقي من حديث جابر بلفظ: (من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا امرأة أو مسافرًا أو عبدًا أو مريضًا) وفي إسناده ابن لهيعة ومعاذ بن محمد الأنصاري وهما ضعيفان (...) وعن أم عطية بلفظ: (نهينا عن إتباع الجنائز ولا جمعة علينا) أخرجه ابن خزيمة (...) قوله: (أو امرأة) فيه عدم وجوب الجمعة على النساء أما غير العجائز فلا خلاف في ذلك وأما العجائز فقال الشافعي: يستحب لهن حضورها." اهـ

والسادة الفقهاء مجمعون على جواز حضور المرأة لصلاة الجمعة !! أما نحن فنرى أن الجمعة مكتوبة عليهن كما هي على الرجال، ونسأل السادة الفقهاء أن يأتونا بمثال واحد في اللغة يكون فيه الخطاب بالأمر واحدا لطائفتين، ثم يصير لأحدهما على سبيل الوجوب والآخر على سبيل الجواز. ولو قالوا أن الأمر في هذا النداء للرجال فقط، وأن المراد من "الذين ءامنوا" في هذا النداء هم الرجال فقط، لقلنا أن هذا يمكن التجاوز عنه على سبيل أن النداء هنا على سبيل التغليب —ونحن نرفض وجود شيء هكذا في القرآن— وأن المراد الرجال فقط وأن النساء غير مطالبات بهذا الأمر وعليهن الظهر فقط، ولكن الفقهاء مجمعون على أنها جائزة للنساء، لم؟

لأنهم رأوا أن النساء منذ عصر النبي(ص) إلى عصورهم يحضرن الجمع في المساجد، والروايات التي تشير إلى وجود النساء في خطبة الجمعة كثيرة، فقالوا أن النساء يجوز لهن الجمعة ولا تجب عليهن، لورود الروايات الضعيفة سندا والمردودة متنا التي تقول أن الجمعة غير واجبة على النساء، فلو قام الوضاعون بوضع الروايات التي تقول أنه لا يصح منهن الجمعة، لاكتشف ذلك مباشرة من الروايات ومن الواقع الذي يكذب ذلك، فاكتفوا بإسقاط الوجوب وجعلوها من باب الجواز، ومع مر السنين ومع اعتقاد الناس المأخوذ من كتب الفقه بجواز الجمعة على النساء، بدأ تراجع النساء عن

الصلاة في المساجد حتى أنه نادرا ما يصلي الجمعة من النساء أحد في عصرنا أو العصور الماضية.

وإذا سألنا السادة الفقهاء: هل صلاة المرأة في المسجد أفضل أم صلاتها في بيتها؟ سيقول الحذاق منهم: صلاتها في المسجد أفضل، لأن الأحاديث الواردة في فضل صلاة المرأة في المسجد كثيرة وصحيحة وصريحة، ومن ذلك الروايات الكثيرة جدا الواردة في صلاة النساء الفجر والعشاء في المسجد، ولوكان صلاتها في بيتها أفضل لأمرهن النبي(ص) بالصلاة في بيوتهن هذه الفروض على الأقل، أما أحاديث المنع فليست من الرسول، والتي تتحدث عن فضل صلاة المرأة في بيتها فضعيفة وموضوعة وبها مناكير لا تصح. فنقول: على فرض القول بالجواز وأن صلاة المرأة في المسجد أفضل، لم لا نر أحدا من النساء يصلي الجمعة في المسجد، فصلاة الجمعة للنساء في المسجد هي الفعل الجائز –على قولهم– المستحب الوحيد الذي لا يكاد يقوم به أحد من المطالبين به، فكل السنن والحمد لله يقوم بها الكثيرون ومن يفرط في هذه يتمسك بتلك، أما هذه السنة –على قولهم– التي كانت تفعلها النساء في عصر النبوة فهُجرت ولم نسمع من يطالب بإحيائها مرة أخرى من الأخوة السلفيين، أليست هذه سنة أيضا؟!

والملاحظ لكل ذي عينين أن ترك الجمعة للنساء أثر عليهن كثيرا، فمن المعروف أن معظم النساء جاهلات دينيا جهلا شبه مطبق، وتنتشر بينهن الخرافات، وهذا أمر بدهي منطقي، فإذا لم يتعلمن ذلك في المدرسة ولم يذهبن إلى مسجد لصلاة عادية ناهيك عن الجمعة، فمن أين يتحصلن على العلم الشرعي الواجب؟ قد يقول قائل: دروس العلم متوفرة. نقول: إذا ستخرج في نهاية المطاف لتذهب إلى دروس العلم في المسجد لتسمع ذلك الشيخ الفلاني، فلم منعناها من الذهاب إلى الجمعة من الأساس ما دامت ستعود إليه؟

أحكام الميراث

ونأتي إلى نموذج آخر من نماذج التأويل الفقهي، وهذا النموذج متعلق بآيات من الآيات التي قالوا أنها قطعية الدلالة، ويرون أن هذه الآيات لا يجوز الخلاف فيها، فهي واضحة الدلالة وتعطي معنى واحدا لا يمكن الاختلاف فيه، فنظرنا في هذه الآيات القاطعة الدلالة لنر هل فهموها كما ينبغي أم كعادتهم تصرفوا معها بمنطق مقلوب؟

وهذه الآيات هي آيات المواريث الواردة في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [سورة النساء, ١١-١٢]

والآية الواردة في آخر السورة وهي قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ

فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾]سورة النساء, ١٧٦[.

هذه هي الآيات الواردة في المواريث في القرآن، وهي من الآيات التي تثير الحساسيات عند كثير من العلماء إذا تعرض لها أحد، فهي من المناطق المحرمة التي لا ينبغي الاقتراب منها، على الرغم من أن المنقول فيها أكثره عن الصحابة، والواضح من النقل عنهم أنه كان من باب الاجتهاد، ولكن ظهرت هذه الأقوال في تفسير الآيات وأُلزم الناس بقبولها، ولما ظهر لي أن الآيات تقول شيئا وما يقولونه شيئا آخر فكرت مرارا وتكرارا في النظر في هذه الآيات ولكن كنت أتكاسل، إلى أن قرأت طريقة جديدة للتوريث تجعل التركة لا تعول وتوزع على عدد واحد صحيح[112]، ولكنها طريقة عجيبة جدا تستلزم لكي يصل الإنسان إلى توزيع التركة على أساسها إتقان أنواع حديثة من الرياضيات، وبدون هذه الأنواع الحديثة من الرياضيات يستحيل على المسلم أن يقسم على أساسها، ولما كنت مقتنعا تمام الاقتناع أن دين الله سهل يسير، نظرنا في الآيات لنتدبر، فخرجنا منها بفهم مخالف لما يقولونه تماما، ونعرض على القارىء فهمنا وأفهامهم في هذه الآيات وليوازن، من منا قال بما قاله القرآن، ونعتذر من القارىء أننا لن نعرض له تقسيمة ذلك المفكر المعقدة في توزيع حظوظ التركة لأنها معقدة، وتحتاج في توضيحها إلى مساحة كبيرة، ونكتفي بعرض فهمنا نحن، ونقتبس في هذا المبحث من تفسير "مفاتيح الغيب" للرازي لما فيه من التوسع وعرض ومناقشة للآيات قدر الإمكان، فنذكر التفسير ثم نعلق عليه: يقول الرازي في تفسير: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ... ﴿١١﴾﴾] سورة النساء, ١١[، **ما نصه: "واعلم أن للأولاد حال انفراد، وحال اجتماع مع الوالدين: أما حال الانفراد فثلاثة، وذلك لأن الميت إما أن يخلف الذكور والاناث معا، وإما أن يخلف الاناث فقط، أو الذكور فقط. القسم الأول: ما اذا خلف الذكران والاناث معا، وقد بين الله**

(112) من المعلوم أن توزيع التركة على طريقة أهل السنة يؤدي إلى القول بالعول، وهو زيادة الفروض عن الواحد الصحيح فتكون الحظوظ مثلا واحد وربع أو واحد وثلث!!

الحكم فيه بقوله: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[. واعلم أن هذا يفيد أحكاما: أحدهما: اذا خلف الميت ذكراً واحدا وأنثى واحدة فللذكر سهمان وللأنثى سهم، وثانيها: إذا كان الوارث جماعة من الذكور وجماعة من الاناث كان لكل ذكر سهمان، ولك أنثى سهم. وثالثها: إذا حصل مع الأولاد جمع آخرون من الوارثين كالأبوين والزوجين فهم يأخذون سهامهم، وكان الباقي بعد تلك السهام بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين فثبت أن قوله: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ⑪﴾]سورة النساء ,١١[يفيد هذه الأحكام الكثيرة. القسم الثاني: ما إذا مات وخلف الاناث فقط: بين تعالى أنهن إن كن فوق اثنتين، فلهن الثلثان، وإن كانت واحدة فلها النصف، إلا أنه تعالى لم يبين حكم البنتين بالقول الصريح. واختلفوا فيه، فعن ابن عباس أنه قال: الثلثان فرض الثلاث من البنات فصاعدا، وأما فرض البنتين فهو النصف، واحتج عليه بأنه تعالى قال: ﴿... فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[وكلمة «إن» في اللغة للاشتراط، وذلك يدل على أن أخذ الثلثين مشروط بكونهن ثلاثا فصاعداً، وذلك ينفي حصول الثلثين للبنتين. والجواب من وجوه: الأول: أن هذا الكلام لازم على ابن عباس، لأنه تعالى قال: ﴿... وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[فجعل حصول النصف مشروطاً بكونها واحدة، وذلك ينفي حصول النصف نصيباً للبنتين، فثبت أن هذا الكلام إن صح فهو يبطل قوله. الثاني: أنا لا نسلم أن كلمة «إن» تدل على انتفاء الحكم عند انتفاء الوصف؛ ويدل عليه أنه لوكان الأمر كذلك لزم التناقض بين هاتين الآيتين، لأن الاجماع دل على أن نصيب الثنتين إما النصف، وإما الثلثان، وبتقدير أن يكون كلمة «إن» للاشتراط وجب القول بفسادهما، فثبت أن القول بكلمة الاشتراط يفضي إلى الباطل فكان باطلا، ولأنه تعالى قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ... ﴿٢٨٣﴾﴾] سورة البقرة ,٢٨٣[وقال: ﴿... فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ ... ﴿١٠١﴾﴾] سورة النساء ,١٠١[، ولا يمكن أن يفيد معنى الاشتراط في هذه الآيات. الوجه الثالث: في الجواب: هو أن في الآية تقديما وتأخيرا،

والتقدير: فان كن نساء اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان، فهذا هو الجواب عن حجة ابن عباس، وأما سائر الأمة فقد أجمعوا على أن فرض البنتين الثلثان، قالوا: وإنما عرفنا ذلك بوجوه: الأول: قال أبو مسلم الاصفهاني: عرفناه من قوله تعالى: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴾] سورة النساء ,١١[وذلك لأن من مات وخلف ابنا وبنتا فههنا يجب أن يكون نصيب الابن الثلثين لقوله تعالى: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴾] سورة النساء ,١١[فاذا كان نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين، ونصيب الذكر ههنا هو الثلثان، وجب لا محالة أن يكون نصيب الابنتين الثلثين، الثاني: قال أبو بكر الرازي: اذا مات وخلف ابنا وبنتا فههنا نصيب البنت الثلث بدليل قوله تعالى: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴾] سورة النساء ,١١[فاذا كان نصيب البنت مع الولد الذكر هو الثلث، فبأن يكون نصيبهما مع ولد آخر أنثى هو الثلث كان أولى، لأن الذكر أقوى من الأنثى. الثالث: أن قوله تعالى: ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴾] سورة النساء ,١١[يفيد أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى الواحدة، وإلا لزم أن يكون حظ الذكر مثل حظ الأنثى الواحدة وذلك على خلاف النص، واذا ثبت أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الواحدة فنقول وجب أن يكون ذلك هو الثلثان، لأنه لا قائل بالفرق، والرابع: أنا ذكرنا في سبب نزول هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام أعطى بنتي سعد بن الربيع الثلثين، وذلك يدل على ما قلناه. الخامس: أنه تعالى ذكر في هذه الآية حكم الواحدة من البنات وحكم الثلاث فما فوقهن، ولم يذكر حكم الثنتين، وقال في شرح ميراث الأخوات: ﴿... إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... ﴾] سورة النساء ,١٧٦[﴿... فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ... ﴾] سورة النساء ,١٧٦[فههنا ذكر ميراث الأخت الواحدة والأختين ولم يذكر ميراث الأخوات الكثيرة، فصار كل واحدة من هاتين الآيتين مجملا من وجه ومبينا من وجه، فنقول: لما كان نصيب الأختين الثلثين كانت البنتان أولى بذلك، لأنهما أقرب إلى الميت من الأختين، ولما كان نصيب البنات

الكثيرة لا يزداد على الثلثين وجب أن لا يزداد نصيب الأخوات الكثيرة على ذلك، لأن البنت لما كانت أشد اتصالا بالميت امتنع جعل الأضعف زائدا على الأقوى، فهذا مجموع الوجوه المذكورة في هذا الباب، فالوجوه الثلاثة الأول مستنبطة من الآية، والرابع مأخوذ من السنة، والخامس من القياس الجلي. أما القسم الثالث: وهو إذا مات وخلف الأولاد الذكور فقط فنقول: أما الابن الواحد فإنه إذا انفرد أخذ كل المال، وبيانه من وجوه: الأول من دلالة قوله تعالى: ﴿... فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴿١٧٦﴾﴾] سورة النساء ,١٧٦[فان هذا يدل على أن نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين. ثم قال تعالى في البنات: ﴿... وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ... ﴿١١﴾﴾] سورة النساء ,١١[فلزم من مجموع هاتين الآيتين أن نصيب الابن المفرد جميع المال. الثاني: أنا نستفيد ذلك من السنة وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أبقت السهام فلا ولى عصبة ذكر» ولا نزاع أن الابن عصبة ذكر، ولما كان الابن آخذاً لكل ما بقي بعد السهام وجب فيما إذا لم يكن سهام أن يأخذ الكل. الثالث: أن أقرب العصبات إلى الميت هو الابن، وليس له بالإجماع قدر معين من الميراث، فاذا لم يكن معه صاحب فرض لم يكن له أن يأخذ قدرا أولى منه بأن يأخذ الزائد، فوجب أن يأخذ الكل." اهـ.

ونتوقف لمناقشة تفسير هذا الجزء من الآية للفخر الرازي: فنقول نحن نتفق مع الإمام في المسألة الأولى وهي أن للذكر مثل حظ الأنثيين، فإذا مات المرء وترك طفلا رضيعا وامرأتين في الخمسين من العمر، يرث هذا الرضيع مثلهما تماما، فالحكم هنا واضح تماما وهو أن الذكر بغض النظر عن عمره له مثل حظ الأنثيين.

أما النقطة الثانية فنحن نخالفه فيها تمام المخالفة وهي نقطة أن البنتين فصاعدا لهما الثلثان، وللأسف نجد هذا التقسيم عند السنة والشيعة أيضا، مع أن الآية تقول شيئا آخر تماما وهو "نساءا فوق اثنتين"، وبدهي أن فوق اثنتين ليس اثنتين فيما فوق.

ولنا هنا وقفة للتأمل هل كان ما قاله الرازي في الرد على ابن عباس صحيحا، أم أنه كان من باب السفسطة الفقهية؟ لنتتبع الآية كلمة كلمة ولنرى: يقول تعالى: ﴿... فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء, ١١] فسرها الرازي قائلا "القسم الثاني: ما إذا مات وخلف الاناث فقط: بين تعالى أنهم إن كن فوق اثنتين، فلهن الثلثان، وإن كانت واحدة فلها النصف، إلا أنه تعالى لم يبين حكم البنتين بالقول الصريح" ونسأل: هل الآية تتكلم هنا عن ما إذا مات وخلف (الإناث) فقط كما يدعي الرازي؟ نجد أن الآية تتحدث عن (نساء) وليس (إناث)، ويسأل سائل وما الفرق؟ نقول الفارق كبير فكل امرأة –مفرد نساء– أنثى، ولكن ليست كل أنثى امرأة، بمعنى "البنت" مثلا أنثى ولكنها ليست امرأة، وأيضا كل رجل ذكر وليس كل ذكر رجلا، فقد يكون ذكرا رضيعا أو غلاما فلا يصح أن نسميه رجلا، فلا تدخل "الفتيات" في هذه الآية سواء كن اثنتين أو ثلاثة أو حتى عشرين. إذا فالآية هنا تذكر حالة واحدة وهي إذا مات أي شخص وترك ثلاث إناث بالغات (نساء) فصاعدا فلهن ثلثا ما ترك.

ولست أدري كيف جعل ابن عباس النصف نصيب الاثنتين!!، ونتفق مع الإمام الرازي في أن ابن عباس رضي الله عنه أخطأ في هذه المسألة، ولكنا نرى أن الرازي والسادة الفقهاء تركوا الآية الواضحة من أجل تمحكات مثل التي ذكرها الرازي، ولنعرض لهذه التمحكات: فيقول الفخر الرازي "أنا لا نسلم أن كلمة «إن» تدل على انتفاء الحكم عند انتفاء الوصف"، إذا فهذا العالم الجليل لا يسلم بمعنى "إن" من أجل الإجماع! فهذا وربي من عجائب الدهر، نلغي معنى الكلمة في اللغة من أجل إجماع العلماء!!، لأننا لو فهمنا الكلمة كما هي في اللغة سيؤدي هذا إلى فساد الإجماع، إذا لنلغي معنى الكلمة!

ونود أن نذكر القارىء هنا بفائدة التأويل والتفويض، فما عرف أول وما لا نصل فيه إلى ما يطابق النص تركناه، ولكن السيد الفقيه المفسر المتكلم لما سلّم بأفهام معينة في الآيات، لم يستطع التوفيق بينها وبين الآيات فألغى عمل الكلمة، وقال: "إنا لا نسلم

أن كلمة "إن" تدل على انتفاء الحكم عند انتفاء الوصف"، ماذا تكون السفسطة إذا إذا لم تكن هذه سفسطة؟

ويستدلون على إبطالهم لمعنى الكلمة بفهم فاسد أيضا لهم وليس بنص شرعي فصارت الأفهام تساند بعضها في مقابل النصوص، فاستدلوا بفهمهم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [سورة النساء, ١٠١] وبفهمهم لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ... ﴿٢٨٣﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٨٣]، والآيتان لا دليل فيهما على ما يقولون، إلا أنهما يرون أنه لا يجوز أن تكون "إن" في هاتين الآيتين تفيدان الاشتراط، ولكن نحن نقول لهما بل هي تفيد فيهما الاشتراط وفهمكم أنتم هو الفاسد، ولكن ليس هذا مكان عرض التأويل لهاتين الآيتين[113]، فهذا القول الذي قاله الإمام الرازي تمحك وسفسطة لا جدال فيها، وإلا ماذا يكون الوصف لمن يسقط مدلول كلام الله لأنه لم يستطع فهمه.

---

[113] نعرض هنا تأويل آية منهما حتى نوضح لهم أن فهمهم سقيم وأن "إن" تفيد انتفاء الحكم عند انتفاء الوصف دوما: نقول سبب اللبس في هذه الآية هو الفهم القاصر للآيات أو الفهم على المعنى الاصطلاحي الفقهي للكلمة فليس هذا هو المراد بل الحمل دوما في القرآن على المعنى العام، وهنا مثال لما قد يفهمه البعض فهما قاصرا، فقد يفهمها البعض تبعا للفهم الفقهي وهي قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين فيشترط الخوف لقصر الصلاة نزولا على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [سورة النساء ,١٠١] مع أن الحديث هنا في هذا السياق هو عن صلاة الخوف، وأن الثابت من فعل النبي(ص)المنقول إلينا بالتواتر أنه كان يقصر في كل سفر ولقد نظرت في هذه الآية كثيرة إلى أن ظهر لي فيها تأويل جيد ثم وجدته في كتاب نيل الأوطار للشوكاني فننقله منه لمن يقدس أقوال القدماء، حيث يقول ما نصه "وقد يقال إن الآية اقتضت قصرًا يتناول قصر الأركان بالتخفيف وقصر العدد بنقصان ركعتين وقيد ذلك بأمرين: الضرب في الأرض والخوف. فإذا وجد الأمران أبيح القصران فيصلون صلاة خوف مقصورًا عددها وأركانها وإن انتفى الأمران وكانوا آمنين مقيمان انتفى القصران فيصلون صلاة تامة كاملة وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده فإن وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفى العدد وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق في الآية وإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفيت الأركان وصليت صلاة أمن وهذا أيضًا نوع قصر وليس بالقصر المطلق وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة باعتبار نقصان العدد وقد تسمى تامة باعتبار تمام أركانها وإن لم تدخل في الآية "اهـ.

أما المحاولة الثانية لتخريج الآية على أقوال العلماء فهو القول بالتقديم والتأخير، وهذه حيلة الكثير من الفقهاء والمفسرين للخروج من مأزق التوفيق بين آيتين أو آية وبعض الروايات، ونحن نقول أن القول بالتقديم والتأخير بلا دليل على ذلك هو من باب التقول على الله عز وجل، فما الدليل هنا على هذا التقديم والتأخير؟

لا دليل ويا ليت الأمر اقتصر على التقديم والتأخير بل تقديم وتأخير وإضافة كلمات لتتوافق مع فهم السادة العلماء! أما نحن فنأخذ الآية كما هي ولا نقول بتقديم أو تأخير أو بوجود محذوف –لست أدري لم حذفه الله–.!

وإذا نظرنا في باقي أقوال الفخر الرازي واستدلاله بها على أن الثلثين من نصيب البنتين فصاعدا وجدنا أنها استنتاجات وأفهام، تحاول تبرير مخالفة النص ولكنها لا تقوى على مكاتفة النص، فالنص يخص النسوة فوق الاثنتين بالثلثين، فلا بد أن ما بخلاف ذلك ليس كذلك.

إذا فالآية هنا تذكر حالة واحدة وهي إذا مات أي شخص وترك ثلاث إناث بالغات (نساء) فصاعدا فلهن ثلثا ما ترك، وسكتت الآية عن ثلاث حالات أخر ألا وهي:

1–إذا مات وترك (امرأتين).

2– إذا مات وترك (عددا من البنات) سواءا كن اثنتين أو ثلاثة أو مائة.

3– إذا مات وترك (بنات ونسوة).

قد يسأل سائل: وعلى هذا التقسيم الجديد كيف يورث هؤلاء؟ نقول: لم نجد تفصيلا لهذه الحالات في كتب التفسير أو الفقه بل وجدنا جمعا للنساء مع البنات وتصنيفهن كلهن على أنهن إناث، مع أن الآية عندما أرادت التركيز على الجنس قالت "ذكر وأنثى" ثم قالت "نساء"، فعُلم أن المراد التركيز عليه هنا هو السن وليس الجنس، أما تقسيم الإرث على هذا الرأي يكون كالتالي: نقول: مع وجود الذكر يكون له مثل حظ الانثيين، وفي حالة الإنفراد تأخذ البنت النصف، وفي حالة وجود ثلاث نساء فصاعدا

فلهن الثلثان، أما باقي الحالات التي لم يفرق بينها الفقهاء فهي كالتالي: في حالة وجود امرأتين أو بنات بأي عدد كن يأخذن الباقي من التركة بعد أصحاب الفروض، وإذا انفردن أخذن التركة كاملة.

في حالة وجود بنات ونساء يأخذن الباقي من التركة بعد أصحاب الفروض بالتساوي، فلا نفرق بين المرأة والبنت لأن الآية لم تذكر أي فرق بينهما، فيبقى الحال بالنسبة لهن كما هو. قد يقول البعض: ولكن على تقسيمك هذا قد تأخذ الفتاتان أكثر من ثلاث نساء، ألا يعد هذا التقسيم غير منطقي؟ نقول: لا يمكن أن تأخذ البنتان بأي حال من الأحوال أكثر من نصيب النساء فوق اثنتين، بل سيأخذن مثلهن تماما ولا يمكن أن تتجاوزهن بأي حال.

قد يتسائل القارىء: لم كل هذا الإصرار من الفقهاء على أن "فوق اثنتين" تعني اثنين فما فوق، لم لا تكون تعني ثلاثة فصاعدا؟ نقول: كل هذا التحوير وكل محاولات الالتفاف من الإمام الفخر الرازي –الذي نشهد له بالقدرة على التملص واختلاق مبررات وافتراضيات يمكن التفلت بها من أي مسألة، فالرجل كان من كبار علماء الكلام–، ومن غيره من العلماء جاء بسبب حديث رواه الإمام أحمد والبيهقي والترمذي، والنص هنا للترمذي: "2018– حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنِي زَكَرِيَّاءُ بْنُ عَدِيٍّ أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِابْنَتَيْهَا مِنْ سَعْدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ قُتِلَ أبو هُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا وَلَا تُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ قَالَ يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَمِّهِمَا فَقَالَ أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِيَ فَهو لَكَ "اهـ.

فلما صح الحديث عندهم سندا، أخذوا يلوون في كلمات القرآن حتى توافق هذه الروايات، وأنا أعجب من حديث يصح وهو مخالف هذه المخالفة الصريحة لكتاب

الله، والرد على هذه الحجة جاهز: هذا كلام رسول الله وهو أعلم بالقرآن منك ومنا. ونحن نقول: معاذ الله أن يأتي رسول بما يمكن أن يخالف كتاب ربه قدر أنملة، وهذا الحديث بغض النظر عن سنده وعن متنه المخالف للقرآن، نجد أنه مردود متنا من وجوه أخرى، ولنتأمل قليلا في تصرف الرسول في هذا الموقف: نجد أن رسول الله سكت عن استيلاء الأخ على أموال أخيه المتوفى وهو يقول لأرملته (يقضي الله في ذلك)، وحاشا لرسول الله أن يسكت عن أمر مثل هذا.

ولنفهم هذه النقطة بشكل واضح صحيح، نرجع إلى مسألة التوارث في دار الهجرة: قلنا إن القوم في الجاهلية كانت لهم قواعدهم وقوانينهم في الميراث، وتتلخص في أمرين اثنين: النسب والعهد. ولما بعث الرسول الأعظم تركهم في أول الأمر على ما كانوا عليه، لا بل إن العلماء يقول إن الله أقرهم على ذلك فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... ﴿٣٣﴾﴾] سورة النساء ,٣٣[، والمراد التوارث بالنسب، وقال بعدها: ﴿... وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾] سورة النساء ,٣٣[والمراد التوارث بالعهد. ثم جاء الأمر بالهجرة، ووصلت جموع المهاجرين إلى يثرب، وقام الرسول الكريم يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، فصارت قوانين التوارث تقوم على أمرين هما: الهجرة والمؤاخاة. يروى عن الزبير بن العوام أنه قال: "لما قدمنا معشر قريش المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فأورثونا وأورثناهم، فآخى أبو بكر (خارجة بن زيد) وآخيت كعب بن مالك، فوالله لو قد مات عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله ﴿... وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾] سورة الأنفال ,٧٥[. في كتاب الله فرجعنا إلى مواريثنا" اهـ.[114]

ونحن مع خبر سعد بن الربيع، أمام أنصاري توفي قبل نزول آيات الميراث، بحدود السنة الثانية للهجرة، وكان يجدر بالرسول الأعظم أن يقول لهذا الأخ المستولي على

(114) محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي.

التركة: "يرثه أخوه المهاجر وإن لم يكن من أقاربه، ولا ترثه أنت وإن كنت من الأقربين "أي أنه كان عليه أن يحكم بالعرف في حال عدم وجود نص عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف, ١٩٩]

ولكن هل كان لسعد بن الربيع أخ من المهاجرين؟ ويجيبنا ابن سعد في طبقاته ج3 ص523 وابن كثير في البداية والنهاية ج3 ص228. نعم!! إنه عبد الرحمن بن عوف. يقول ابن سعد: لما آخى الرسول بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف انطلق به سعد إلى منزله فدعا بطعام فأكلا وقال له: لي امرأتان وأنت أخي في الله لا امرأة لك، أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها. فقال عبد الرحمن: لا والله. قال سعد بن الربيع فهلم إلى حديقتي أشاطركها. فقال عبد الرحمن: لا.. بارك الله لك في أهلك ومالك. ثم نزلت آيات المواريث، فقال تعالى: ﴿... فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ... ١١﴾ [سورة النساء, ١١] وقال: ﴿... فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ... ١٢﴾ [سورة النساء, ١٢] فبما أن الآية قبل نزول أية المواريث، لم لم يطبق نظام التوارث المألوف ويأمره الرسول بتوريث عبد الرحمن بن عوف؟ اللهم إذا قلنا أن هذا الأخ كان مشركا، وفي هذه الحالة لا ولاية له على تركة أخيه المسلم وكان الرسول سينتزعها منه.

إذا في جميع الاحوال لا مبرر لهذا التصرف المزعوم من الرسول(ص)، لأنه من باب الرحمة العامة سيأمره بالبر والاحسان إلى اليتامى، ومن باب العرف يأمره بتوريث ابن عوف، وفي حالة الكفر لا ولاية للكافر على تركة المسلم فتنزع منه.

لذا نرد هذا الحديث ونحن مرتاحي البال متيقنين أنه تقول على الرسول الأعظم(ص).

إذا وكما رأينا فهذا الحديث غير مقبول متنا من وجوه عدة ويكفي معارضته للقرآن ولكن ذكرنا هذا الوجه للأخوة الذين لا يقنعهم إلا الأحاديث، وبما أن الحديث سقط يجب علينا أن نفهم الآية كما هي، وهو أن الثلثين نصيب النساء فوق اثنتين.

ونواصل متابعة تفسير الرازي لهذه الآيات: "قوله تعالى: ﴿... وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[... المسألة الثانية: اعلم أن للأبوين ثلاثة أحوال: الحالة الأولى: أن يحصل معهما ولد وهو المراد من هذه الآية، واعلم أنه لا نزاع أن اسم الولد يقع على الذكر والأنثى، فهذه الحالة يمكن وقوعها على ثلاثة أوجه: أحدها: أن يحصل مع الأبوين ولد ذكر واحد، أو أكثر من واحد، فههنا الأبو ان لكل واحد منهما السدس. وثانيها: أن يحصل مع الأبوين بنتان أو أكثر، وههنا الحكم ما ذكرناه أيضا. وثالثها: أن يحصل مع الأبوين بنت واحدة فههنا للبنت النصف، وللام السدس وللأب السدس بحكم هذه الآية. والسدس الباقي أيضا للأب بحكم التعصيب" اهـ

ويحق لنا هنا أن نتسائل: الآية قالت أن للأب السدس فقط في حالة الولد مثل الأم، فمن أين جاءوا بهذا (التعصيب)؟ فنحن لا نجد في القرآن شيئا اسمه (التعصيب)[115] لا لفظا ولا معنى ولقد قال الفقهاء بهذه النظرية في التعصيب ليقسموا ما بقي من التركة بعد حظوظ الورثة استنادا إلى أحاديث سنبين بطلانها فيما بعد.

لنتابع التفسير مع الإمام الرازي: "قوله تعالى: ﴿... فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[. وفي الآية مسألتان: المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الحالة الثانية من أحوال الأبوين، وهو أن لا يحصل معهما أحد من الأولاد، ولا يكون هناك وارث سواهما، وهو المراد من قوله: ﴿... وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[فههنا للأم الثلث، وذلك فرض لها، والباقي للأب، وذلك لأن قوله: ﴿... وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ... ⑪﴾] سورة النساء ,١١[ظاهره مشعر بأنه لا وارث له سواهما، واذا كان كذلك كان مجموع المال لهما، فاذا كان نصيب الأم هو الثلث وجب أن يكون الباقي وهو الثلثان للأب، فههنا يكون المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين كما في حق الأولاد، هذا كله اذا لم يكن للميت وارث سوى الأبوين، أما إذا ورثه أبواه مع

(115) ينكر الشيعة أيضا وجود ما يسمى بالتعصيب.

أحد الزوجين فذهب أكثر الصحابة إلى أن الزوج يأخذ نصيبه ثم يدفع ثلث ما بقي إلى الأم، ويدفع الباقي الى الأب، وقال ابن عباس: يدفع إلى الزوج نصيبه، وإلى الأم الثلث، ويدفع الباقي إلى الأب، وقال: لا أجد في كتاب الله ثلث ما بقي"اهـ.

ونتفق مع ابن عباس تمام الاتفاق في هذه النقطة لظهور حجته من النص، أما الرأي الآخر فهو من باب القياس ومعلوم أن القياس لا يقوى على مكاتفة النص.

ونأتي إلى قوله تعالى: ﴿... فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ... ⑪﴾ [سورة النساء, ١١] وهذا الجزء واضح جدا ولقد ذكر الإمام الرازي الخلاف فيه في الإثنين هل يعدان جمعا أم أن أقل الجمع ثلاثة؟ ولا نريد أن نثقل على القارىء بما لا حاجة لنا به.

ونتقل إلى ميراث الأزواجِ، فنجد أن الإمام الرازي دخل في تفريعات كثيرة متعلقة بمعنى الزوج وثبوته بعد الموت وأهمل الآية ربما لأنها أوضح من اللازم، ثم انتقل إلى الحديث عن الكلالة، وهي مرتبطة تمام الارتباط بالأخوة، فقال الإمام ما نصه: "قوله تعالى: ﴿... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ⑫﴾ [سورة النساء, ١٢]. اعلم أن هذه الآية في شرح توريث القسم الثالث من أقسام الورثة وهم الكلالة وهم الذين ينسبون إلى الميت بواسطة. وفي الآية مسائل: المسألة الأولى: كثر أقوال الصحابة في تفسير الكلالة، واختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنها عبارة عمن سوى الوالدين والولد، وهذا هو المختار والقول الصحيح، وأما عمر رضي الله عنه فإنه كان يقول: الكلالة من سوى الولد، وروي أنه لما طُعن قال: كنت أرى أن الكلالة من لا ولد له، وأنا أستحيي أن أخالف أبا بكر، الكلالة من عدا الوالد والولد، وعن عمر فيه رواية أخرى: وهي التوقف، وكان يقول: ثلاثة، لأن يكون بينها الرسول صلى الله عليه وسلم لنا أحب إلي من الدنيا وما فيها: الكلالة، والخلافة، والربا"اهـ.

ونحن نتفق مع الصديق رضي الله عنه في فهم الكلالة وهذا الفهم نابع من مجموع آيات النساء، ولكن ليست المشكلة عندنا في تعريف الكلالة، المشكلة هي كيفية التوفيق بين هذه الآية في ميراث الأخوة وبين آية أخر سورة النساء، فهنا ذكرت الآية ﴿... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء, ١٢]

أما آية أخر النساء فتقول: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة النساء, ١٧٦]

أن نصيب الأخ أو الأخت هو السدس بدون تفرقة بين ذكر وأنثى، وفي حالة كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء بالتساوي أيضا في الثلث، أما في آخر سورة النساء فكان التقسيم على منوال آخر فجعلت للأخت النصف والميراث الكامل للأخ والثلثين والميراث بمبدأ للذكر مثل حظ الأنثيين، فالآيتين ظاهرهما التعارض، فكيف وفق الفقهاء بينهما؟

لننظر كيف وفق الفقهاء بينهما، يقول الإمام الرازي في تفسيره: "المسألة الثانية: أجمع المفسرون ههنا على أن المراد من الأخ والأخت: الأخ والأخت من الأم، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ: وله أخ أو أخت من أم، وإنما حكموا بذلك لأنه تعالى قال في آخر السورة: ﴿... قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ... ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة النساء, ١٧٦] فأثبت للأختين الثلثين، وللأخوة كل المال، وههنا أثبت للأخوة والأخوات الثلث، فوجب أن يكون المراد من الأخوة والأخوات ههنا غير الأخوة والأخوات في تلك الآية، فالمراد ههنا الأخوة والأخوات من الأم فقط، وهناك الأخوة والأخوات من الأب والأم، أومن الأب " اهـ

إذا فالحل عند الأخوة الفقهاء والمفسرين هو افتراض محذوف والاعتماد على قراءة، الله أعلم بصحتها، وكما قلنا مرارا وتكرارا، نرى أنه ليس لأحد أن يفترض محذوفا في كتاب الله، وإذا افترض محذوفا من له المقدرة أن يقدره؟ هل يعرف مراد الله من الآية؟

لا يستطيع أحد أن يدعي ذلك، إذا لا بد لنا من فهم الآيات كما هي، والتوفيق بين الآيات إذا كان ظاهرها التعارض مشكلة كبيرة، وهذا ما يدفع بالمفسرين أو الفقهاء إلى الأخذ بأقوال قد لا تتفق مع النص ذاته، وهذا ما نراه في تأويل هذه الآيات، فقد أخذوا بهذه القراءة وخصصوا القرآن وأجمعوا على ذلك على الرغم من تهاوي الحجة، لأنهم رأوا أن هذا هو التوفيق الوحيد المقبول لهذه الآيات ولكن لنا مخالفتهم، لمخالفتهم هم المخالفة الصريحة للنص، فلقد ذكر الله في الآيتين الأخوة ولم يخصصهم بأم أو بأب، ولكن لما أعطاهم في الآيتين أحكاما مختلفة، بحثوا عن اختلافا بين الأخوة في الآيتين بدلا من أن يبحثوا عن الإختلاف بين أحوال الأخوة في الآيتين، فجعلوا أخوة الآية الأولى (أخوة لأم) وأخوة آية آخر السورة (أخوة أشقاء أو لأب)! وهذا التفسير كان يؤرقني كثيرا فكيف يخصص القرآن بخبر الواحد؟ إلى أن ظهر لي فيها فهم مناسب يتماشى مع النص، فنوفق بين الآيتين بالشكل التالي: الله عز وجل ذكر (أخوة) في آيتين منفصلتين بحكمين مختلفين بدون أن يحددهما أو يخصصهما، لذا لا بد من النظر في وجه الاختلاف بين حال الأخوة في الآيتين وليس بين نوعي الأخوة فنجد أن: الله عز وجل ذكر ميراث الأخوة مع ميراث الأزواج في آية واحدة بينما أفردهم في آية أخر النساء، وهذا بإذن الله هو الاختلاف بين الحالتين: فإذا كان الرجل أو المرأة يورث كلالة وترك زوجا مع أخوة، فيكون للأخوة السدس لكل منهما أو الشراكة في الثلث. أما إذا مات أو ماتت وورث الأخوة فقط انطبقت عليهم حالة الأخوة المذكورة في آية آخر سورة النساء أي للذكر مثل حظ الأنثيين، الأخت تأخذ النصف إذا انفردت ويرد عليها الباقي، إلى آخر الأحوال.

وبهذا الربط البسيط بين الآيات وأجزائها نحل مشكلة كبرى في فهم الآيات بدون تخصيص أو تأويل بل بظواهر الآيات، مع عدم إهمال سياق الآيات والنظر إليها على أنها وحدة واحدة ولا نجزئها ونجعلها عضينا.

وعند وصولنا إلى هذه الآية لابد من الإشارة إلى خطأ وقع فيه جميع المفسرين تقريبا، ولم ينتبه إليه أحد وذلك أيضا بسبب رواية بنات سعد بن الربيع، هذا الخطأ هو أن البنات لا تحجب الأعمام، وهذا خطأ جم، فمن خلال النظر في آيات المواريث يلاحظ اطراد القاعدة التالية "الأقرب يحجب الأبعد" وهي قاعدة فقهية معروفة ولكن الأهم من ذلك والذي لا بد من ملاحظته هو أن الله عز وجل جعل هذه القاعدة أيضا مع البنات، فلم يذكر ميراثا للأخوة –أي أخوة الأب– إلا في حالة عدم الأبناء ذكورا كانوا أو إناثا، ولنتتبع الآيات لنرى مدى صحة تلك القاعدة:

﴿... فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء, ١١]

﴿... وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء, ١٢]

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة النساء, ١٧٦]

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة النساء, ١٢]

إذا يحق لنا أن نقول أن الأخوة لا يرثون في حالة وجود الأبناء ذكورا كانوا أو إناثا، ونجد أن السادة الفقهاء والمفسرون يتفقون معنا في أن الأخوة لا يرثون في حالة

وجود الأبناء، ولكن الذكور فقط منهم، لأنهم فهموا أن (الولد) في آية أخر النساء هو الذكر مع أن الله عز وجل قال في أول السورة: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ... ﴾ [سورة النساء, ١١] فإذا كان (الولد) في أول السورة يشتمل الذكر والأنثى، فما الذي حدث حتى صار الولد في آخر السورة هو الذكر[116]؟!

ولنر كيف تغير موقف الإمام الرازي في آخر السورة عن موقفه في أولها، فيقول: "واعلم أن ظاهر هذه الآية فيه تقييدات ثلاث: الأول: أن ظاهر الآية يقتضي أن الأخت تأخذ النصف عند عدم الولد، فأما عند وجود الولد فإنها لا تأخذ النصف، وليس الأمر كذلك، بل شرط كون الأخت تأخذ النصف أن لا يكون للميت ولد ابن، (يقصد ذكر –المؤلف–) فإن كان له بنت فإن الأخت تأخذ النصف" ما المبرر لصرف الآية عن ظاهرها المستعمل في القرآن بأكمله بنفس المدلول؟! ويقول أيضا":... أن قوله "وله أخت" المراد منه الأخت من الأب والأم، أو من الأب، لأن الأخت من الأم والأخ من الأم قد بين الله حكمه في أول السورة"اهـ.

وأود أن أذكر هنا مرة أخرى، أن الله عز وجل لم يذكر أو حتى يشر إلى اختلاف النوعين ولكنها اجتهادات أثرية للتمييز بين الآيات، فسبحان مغير الأحوال فبعد أن كان يقول في أول السورة ما نصه "والولد من ذلك الزوج ومن غيره سواء في الرد من النصف إلى الربع أو من الربع إلى الثمن، واعلم أنه لا فرق في الولد بين الذكر والانثى ولا فرق بين الابن وبين ابن الابن ولا بين البنت وبين بنت الابن والله أعلم."

تغير مع باقي المفسرين والفقهاء إلى ما نرى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لذا نقول في نهاية هذه النقطة أن الذكر والأنثى في الحجب سواء، فالابنة كما رأينا تتردد بين كونها صاحبة فرض –نصف أو ثلثين– أو عصبة تأخذ الباقي، وفي كلتا

[116] من تتبع كلمة "ولد" في القرآن كله وجد أنها تأتي بمعنى الولد بشكل عام، ولا يراد بها أبدا الذكر فقط، وأنا أتحدى أن يخرج أي شخص من القرآن استعمال ل "الولد" ويراد بها الذكر فقط، فإذا كان الأمر في القرآن كله كذلك، فلم يختلف في هذه الآية فقط؟

الحالتين يصدق عليها وصف "الولد" فتحجب الأخوة، فإذا مات المرء وترك ابنة وأخا، تأخذ البنت النصف فرضا، ولا يأخذ الأخ شيئا لوجود الولد فيحجب ويرد الباقي على الابنة فتنفرد بالتركة مثل الذكر تماما، والله أعلم.

واستكمالا لتطبيق قاعدة "الأقرب يحجب الأبعد" نقول: انصرف الفقهاء عن تطبيق هذه القاعدة السليمة انصرافا كبيرا، وورثوا أصنافا لم يجر لها ذكر في الآيات مطلقا، متأثرين في توزيعهم للتركات بحديثين، نتوقف معهما: الحديث الأول: ما رواه البخاري "6235- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ حَدَّثَنَا ابْنُ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهو لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ"[117]

ويقصد بأهل الفرائض هم الورثة الذين حددت الشريعة ميراثهم بسهام مقدرة من التركة مثل النصف والربع والسدس، ومعنى الحديث إعطاء هؤلاء الورثة فروضهم أولاً، وإعطاء ما بقي منها إلى أقرب رجل إلى الميت من جهة الأب، وهم العصبات الذكور الذين كانوا يرثون لوحدهم في الجاهلية، وحرمان من هم في درجتهم من نساء وذوي الأرحام من الميراث معهم.

وقد ألغى هذا الحديث جملة من الآيات والقواعد العامة التي أقام عليها تشريع القرآن، وحل محلها أحكاماً مضطربة ومعقدة لا تقوم على مبدأ اجتماعي ثابت، نلخصها بما يلي:

أولاً: لقد ألغى حديث ابن عباس آيتين من القرآن هما:

- الآية الأولى: ﴿... وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء, ١١].

(117) يرفض الشيعة هذا الحديث أيضا لمخالفته القرآن، ونحن كذلك .

– الآية الثانية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ١٧٦﴾ [سورة النساء, ١٧٦].

ثانياً: إن حديث (ألحقوا الفرائض بأهلها..) قد أخل بالقواعد الاجتماعية التي قام عليها تشريع القرآن من عدة أوجه منها:

1– نظام الإرث في القرآن يقوم على قاعدة (الأقرب يحجب الأبعد)، أو كما عبر الحديث بهذا النظام، وصار يجوز للبعيد أن يرث، وأن يحرم القريب، أو يرث أكثر منه.

2– يقضي نظام الإرث في القرآن بتوريث المرأة مع الرجل الذي هو في درجتها، إما على أساس ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ ... ١١﴾ [سورة النساء, ١١] كبنت مع ابن، وأخ مع أخت. وإما على أساس المساواة بين الذكر والأنثى، كأبوين مع الأولاد، أو تأخذ المرأة ضعف الرجل كما في حالة الأب والأم في حالة عدم الولد. وقد أخل حديث ابن عباس بهذين المبدأين، عندما قضى بتوريث الرجال فقط بعد الدرجة الثالثة وحرمان النساء من الميراث معهم، على نحو ما كانت عليه حالتهن في الجاهلية.

3– يقضي تشريع القرآن بتوريث الأقارب من جهة الأم مع الأقارب من جهة الأب عندما يكونون بدرجة واحدة من القرابة إلى الميت، كما نصت عليه الآيتان (12، 176) من سورة النساء، وقد أخل حديث ابن عباس بهذا المبدأ عندما حصره بأولاد الأم، هذا طبقا للتفسير المألوف للأخوة في آية ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ... ١٢﴾ [سورة النساء, ١٢] بأنهم الأخوة لأم" وحرم باقي ذوي الأرحام من الميراث مع العصبات، وإبقائهم كما كان عليه حالهم في الجاهلية.

الحديث الثاني: الذي ألغى أحكام القرآن هو الحديث المروي عن النبي(ص) أنه قال (اجعلوا الأخوات مع البنات عصبة). هذا الحديث يجعل الأخت إذا اجتمعت مع البنت، ولم يكن معها أخ كالأخ العصبي في الميراث. ترث مثله ما بقي من فرض البنات، وتحجب عن الميراث مثلما يحجب الأخ من يليه من العصبات الذكور. وهذا الحديث يتعارض أيضاً مع آية الكلالة 176 من سورة النساء، لأن الأخت لاترث بمقتضاها شيئاً مع البنت. كما أن هذا الحديث يناقض حديث (ألحقوا الفرائض بأهلها) لأن الأخت ليست بصاحبة فرض مع البنت وليست برجل ذكر، إذ لو كانت صاحبة فرض لوجب أن تأخذ سهماً مقدراً من التركة، لا أن تأخذ ما بقي من فرض البنات.

إذن كان لهذين الحديثين الأثر الكبير في صرف الفقهاء عن المنهج القرآني في توزيع التركات، ووُزعت بروح عصبية ذكورية لا تتفق مع روح الإسلام، فإذا غضضنا الطرف عن هذين الحديثين وجدنا أنه طبقا لقاعدة "الأقرب يحجب الأبعد" وأن البنات من ولد الميت وليس الذكور فقط، يحق لنا أن نقول بأن من لم يذكر في الآيات ليس له ميراث إلا في حالة غياب المذكورين في الآية ذكورا كانوا أو إناثا، أصحاب فروض محددة أو غير محددة، إذ أنهم يأخذون حظوظهم من التركة وما بقي فيرد عليهم كل تبعا لحظه من الميراث.

وللقارىء أن يسأل: ما حكم ابن الابن وما حكم الجد والجدة؟ نقول لنر أولا ما قاله الفقهاء في هذه المسألة ثم ندلي بدلونا في الموضوع: قال الإمام الرازي ما نصه "المسألة السادسة: لا شك أن اسم الولد واقع على ولد الصلب على سبيل الحقيقة، ولا شك أنه مستعمل في ولد الابن قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ ... ﴿١٧٢﴾﴾]سورة الأعراف ,١٧٢[وقال للذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ﴿٤٠﴾﴾] سورة البقرة ,٤٠[إلا أن البحث في أن لفظ الولد يقع على ولد الابن مجازا أو حقيقة. فان قلنا: إنه مجاز فنقول: ثبت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز أن يستعمل دفعة واحدة في حقيقته وفي مجازه معا، فحينئذ يمتنع أن

يريد الله بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ... ﴾] سورة النساء ,١١[ولد الصلب وولد الابن معا. واعلم أن الطريق في دفع هذا الاشكال أن يقال: انا لا نستفيد حكم ولد الابن من هذه الآية بل من السنة ومن القياس، وأما ان أردنا أن نستفيده من هذه الآية فنقول: الولد وولد الابن ما صارا مرادين من هذه الآية معا، وذلك لأن أولاد الابن لا يستحقون الميراث إلا في إحدى حالتين، إما عند عدم ولد الصلب رأسا، وإما عند ما لا يأخذ ولد الصلب كل الميراث، فحينئذ يقتسمون الباقي، وأما أن يستحق ولد الابن مع ولد الصلب على وجه الشركة بينهم كما يستحقه أولاد الصلب بعضهم مع بعض فليس الأمر كذلك، وعلى هذا لا يلزم من دلالة هذه الآية على الولد وعلى ولد الابن أن يكون قد أريد باللفظ الواحد حقيقته ومجازه معا، لأنه حين أريد به ولد الصلب ما أريد به ولد الابن، وحين أريد به ولد الابن ما أريد به ولد الصلب، فالحاصل أن هذه الآية تارة تكون خطابا مع ولد الصلب وأخرى مع ولد الابن، وفي كل واحدة من هاتين الحالتين يكون المراد به شيئا واحدا، أما إذا قلنا: ان وقوع اسم الولد على ولد الصلب وعلى ولد الابن يكون حقيقة، فان جعلنا اللفظ مشتركا بينهما عاد الاشكال، لأنه ثبت أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك لافادة معنييه معا، بل الواجب أن يجعله متواطئا فيهما كالحيوان بالنسبة إلى الانسان والفرس. والذي يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿... وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ... ﴾]سورة النساء ,٢٣[وأجمعوا أنه يدخل فيه ابن الصلب وأولاد الابن، فعلمنا أن لفظ الابن متواطىء بالنسبة إلى ولد الصلب وولد الابن، وعلى هذا التقدير يزول الاشكال." اهـ

وكما قلنا مرارا وتكرارا لا يوجد ما يسمى حقيقة ومجاز في القرآن، فكل ما فيه حقيقة، وكما رأينا، فأفضل الطرق لفهم القرآن هي التوسع في فهم مدلولاته ما لم يخصصها النص، والنص لم يضيق أو يخصص، ونحن نتفق مع الرازي في عموم اللفظ ولكن المشكلة العظمى هي محاولة تخصيص معنى كلمة تحمل المعاني الكثيرة وحملها على معنى واحد دون غيره من المعاني، والتصرف على أساس هذا المعنى فكما جعلوا

"الولد" في آخر سورة النساء هو الذكر فقط، يعودون هنا لجعل "الابن" هو الابن الصلبي وليس ابن الابن بدون دليل للتخصيص، مع أن لفظ الابن يستعمل حقيقة فيهما معا، وانظر في القرآن وابحث هل فرق القرآن بينهما؟

ونحن نتفق معهم في أن ابن الابن لا يرث مع وجود أبيه لأن الأقرب يحجب الأبعد- ولكن لما قسموا الابناء الصلبيين إلى أصحاب فروض وعصبات، وجدوا أن هناك فائضا مع البنات فيذهب لابناء الابن أما مع الذكور فلا باقي وهم فقط الابناء فلا يبقى شيء لابناء الابن.

وهذا كما قلنا تعسف في استخدام اللفظ لا دليل عليه وقد حاول بعض الفقهاء حل هذا الإشكال فابتكروا قانون الوصية الواجبة الذي لا يزال يعترض عليه الأخوة السلفيون لمعارضته حديث "لا وصية لوارث"!! -الذي لا يصح من جميع طرقه-، الذي يوجب على الجد الوصية لأبناء ابنه في حدود الثلث.

ولا فارق بين الابن والبنت، فإذا كان ابن الابن لا يرث مع وجود الابن، فلن يرث مع وجود البنت أيضا لأنها أقرب منه ويفترض أن تحجبه أيضا، ونقول: لسنا بحاجة لقانون الوصية الواجبة أوغيره، فإذا مات الإنسان في حياة أبيه وكان له ثلاثة أبناء مثلا ورثوا جدهم مباشرة كأنهم ابناء صلبيين له لأن الحاجب لهم وهو أبو هم قد اختفى فزال مانع الأرث وهذا من تكريم الله عز وجل لليتيم، وفي هذه الحالة قد يرث أبناء الابن مثل أو أكثر من الابناء الصلبيين حسبا لنوعهم وعددهم لأنهم يدخلون حقيقة أو حتى مجازا في معنى ومدلول (الابن) فيرثون مثلهم مثل أعمامهم ولا فرق وبهذا يضمن الله عز وجل لليتيم حقه المالي، وكفى بفاجعة اليتم طامة.

قد يسأل البعض: ما الدليل على أن (الابن) دال عام، يدخل فيه ابن الابن أيضا وليس المراد منه فقط (الابن الصلبي)؟ نقول: الدليل على ذلك موجود أيضا في سورة النساء أيضا فالله عز وجل يقول: ﴿... وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ... ٢٣﴾ [سورة النساء ,٢٣] فالله عز وجل عندما أراد تخصيص صنفا معينا من الأبناء وهم الأبناء

الصلبيين قال: ﴿... ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ... ﴾ [سورة النساء ,٢٣]، فلو لم يكن اسم الابن يصدق على الابن وابن الابن بمعنى أنه عام، لكان التخصيص عبثا ويمكن الاستغناء عنه. فيُستدل بهذه الآية على أن اسم (الابن) اسم عام بدليل تخصيصه، إذ أن الخاص لا يخصص ويصدق أيضا على ابن الابن، والله أعلم.

قد يقول قائل: ولكن بهذه الطريقة قد يموت رجل وقد ترك ابن وخمسة أبناء ابن، ففي هذه الحالة سيأخذ ابنه سدس التركة فقط، ويأخذ أبناء الابن خمسة أسداس التركة، ألا يعد هذا إجحافا بحق الابن الصلبي؟ نقول: هنا يأتي دور الوصية، فيحق للأب – الجد– أن يوصي لابنه الصلبي بجزء من التركة بجوار نصيبه من الميراث، حتى لا يؤدي ذلك لضياع حقه.

ومن لا يسلم بهذا التقسيم فعليه أن يتذكر أن الوصية مفتوحة النصيب للورثة، فيمكن أن يوصي الجد بنصف التركة لأبناء ابنه، وبذلك يكونوا قد أخذوا نصيب أبيهم لو كان حيا بالتمام والكمال ولا يأسون لضياع والدهم.

أما حكم الجد والجدة، فالسادة الفقهاء يرون أن توريث الجدة السدس هو مما تفردت به السنة وليس في القرآن، وإن المرء ليعجب كيف يقولون ذلك وهم القائلون بالمجاز، فالرسول الأعظم أخذ هذا الحكم من القرآن، فحُكم الأب يصدق على الجد، فالجد أب والجدة أم، ولكن الجد ليس بوالد والجدة ليست بوالدة، ونلاحظ الفرق في الاستعمال بينهما في القرآن. وهنا استعمل القرآن "الأبوين"، فيدخل في اللفظ بداهة "الجدان"، وما قلناه عن الأبناء (الفروع) نقوله في الأصول فإذا مات الإنسان ورثه والده، أما إذا كان والده ميتا فيرثه جده ماشرة ويأخذ حظ الأب تماما وإذا اجتمع مع أخوة الميت يعامل مثل الأب تماما، وما يصدق على الأم يصدق على الجدة فإذا لم تكن الوالدة موجودة ورثت الجدة حظها بجميع أحوالها لأنه يصدق عليها أيضا لفظ الأم، وهنا غابت الوالدة فترث مثلها لانطباق اللفظ عليها، والله أعلم.

وبعد هذا العرض المبسط نبدأ الآن في ذكر نماذج توضح كيف أن هذا الفهم النابع من القرآن في توزيع الحظوظ يؤدي في النهاية إلى أن توزع التركة على عدد واحد صحيح، بدون أن تعول المسألة:

وقبل البدء في عرض النماذج نذكر قول ابن عباس في هذه المسألة، حيث قال: "الْفَرَائِضَ لاَ تَعُولُ" وقال أيضا "أَتَرَوْنَ الَّذِي أَحْصَى رَمْلَ عَالِجٍ عَدَدًا جَعَلَ فِي مَالٍ نِصْفًا وَنِصْفًا وَثُلُثًا، إِنَّمَا هو نِصْفَانِ، وَثَلاَثَةُ أَثْلاَثٍ، وَأَرْبَعَةُ أَرْبَاعٍ." وروي عنه أيضا "عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَرَجْت أَنَا، وَزُفَرُ بْنُ أَوْسٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَتَحَدَّثْنَا عِنْدَهُ حَتَّى عَرَضَ ذِكْرُ فَرَائِضِ الْمَوَارِيثِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ أَتَرَوْنَ الَّذِي أَحْصَى رَمْلَ عَالِجٍ عَدَدًا جَعَلَ فِي مَالٍ نِصْفًا وَنِصْفًا وَثُلُثًا: النِّصْفَانِ قَدْ ذَهَبَا بِالْمَالِ، أَيْنَ مَوْضِعُ الثُّلُثِ فَقَالَ لَهُ زُفَرُ: يَا ابْنَ الْعَبَّاسِ مَنْ أَوَّلُ مَنْ أَعَالَ الْفَرَائِضَ فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، لَمَّا الْتَقَتْ عِنْدَهُ الْفَرَائِضُ، وَدَافَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَكَانَ امْرَأً وَرِعًا، فَقَالَ: وَاَللَّهِ مَا أَدْرِي أَيُّكُمْ قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلاَ أَيُّكُمْ أَخَّرَ، فَمَا أَجِدُ شَيْئًا هو أَوْسَعُ مِنْ أَنْ أَقْسِمَ بَيْنَكُمْ هَذَا الْمَالَ بِالْحِصَصِ، فَأَدْخَلَ عَلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ الْعَوْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَيْمُ اللَّهِ لَو قَدَّمَ مَنْ قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا عَالَتْ فَرِيضَةٌ فَقَالَ لَهُ زُفَرُ: وَأَيُّهَا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: كُلُّ فَرِيضَةٍ لَمْ يُهْبِطْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ فَرِيضَةٍ إِلاَّ إِلَى فَرِيضَةٍ، فَهَذَا مَا قَدَّمَ، وَأَمَّا مَا أَخَّرَ فَكُلُّ فَرِيضَةٍ إِذَا زَالَتْ عَنْ فَرْضِهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا إِلاَّ مَا بَقِيَ، فَذَلِكَ الَّذِي أَخَّرَ. فأما الَّذِي قَدَّمَ، فَالزَّوْجُ لَهُ النِّصْفُ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْهِ مَا يُزِيلُهُ رَجَعَ إِلَى الرُّبُعِ لاَ يُزَايِلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ. وَالزَّوْجَةُ لَهَا الرُّبُعُ، فَإِنْ زَالَتْ عَنْهُ صَارَتْ إِلَى الثُّمُنِ لاَ يُزَايِلُهَا عَنْهُ شَيْءٌ. وَالْأُمُّ لَهَا الثُّلُثُ فَإِنْ زَالَتْ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ الْفَرَائِضِ وَدَخَلَ عَلَيْهَا صَارَتْ إِلَى السُّدُسِ لاَ يُزَايِلُهَا عَنْهُ شَيْءٌ، فَهَذِهِ الْفَرَائِضُ الَّتِي قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَالَّتِي أَخَّرَ: فَرِيضَةُ الأَخَوَاتِ وَالْبَنَاتِ لَهُنَّ النِّصْفُ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَالثُّلُثَانِ، فَإِذَا أَزَالَتْهُنَّ الْفَرَائِضُ عَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ إِلاَّ مَا يَبْقَى. فَإِذَا اجْتَمَعَ مَا قَدَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا أَخَّرَ: بُدِئَ بِمَنْ قَدَّمَ وَأُعْطِيَ حَقَّهُ كَمَلاً، فَإِنْ بَقِيَ شَيْءٌ كَانَ لِمَنْ أَخَّرَ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فَلاَ شَيْءَ لَهُ فَقَالَ لَهُ زُفَرُ: فَمَا مَنَعَك يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَنْ

تُشِيرَ عَلَيْهِ بِهَذَا الرَّأْيِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِبْتُهُ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَاَللَّهِ لَوْلاَ أَنَّهُ تَقَدَّمَهُ إمَامٌ عَادِلٌ لَكَانَ أَمْرُهُ عَلَى الْوَرَعِ فَأَمْضَى أَمْرًا مَضَى مَا اخْتَلَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ اثْنَانِ فِيمَا قَالَ. وَبِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا يَقُولُ عَطَاءٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَأبو سُلَيْمَانَ، وَجَمِيعُ أَصْحَابِنَا، وَغَيْرُهُمْ."

ويشنع الشيعة على عمر بن الخطاب في هذا الفعل مع أنه اجتهد وأخطأ، وللمجتهد الخاطىء أجر، فأنظر أخي في الله إلى فقه ابن عباس، فهو يدرك بداهة أن الفرائض لا بد أن تكون في آخر المطاف واحدا صحيحا ويجب أن لا تعول، وبهذا الرأي قالت الشيعة وقال به ابن حزم ويجب أن يقول به كل مسلم، فيجب أن ننزه الله عن تركة تزيد عن الواحد الصحيح، ولا ينبغي أن يحمل التعصب للمذهب ترك الصواب من أجل أن الشيعة يقولون به، فلقد خفي هذا الأمر عن عمر رضي الله عنه وأدركه ابن عباس وليس قول عمر ابن الخطاب حجة، بل الحجة للنص، وأرجو أن ينتبه القارىء أننا نتفق مع ابن عباس رضي الله عنه في المبدأ وفي بعض النقاط ونخالفه هو والشيعة في نقاط أخر في توزيع الأنصبة. قد يقول قائل: إذا فأنتم تحطون حظوظ أفراد وتتركون آخرين، فما الحجة في ذلك وليس بعضهم أولى ببعض في الحط من الحظ؟ نقول: لو تأملت لوجدت أن الله ذكر لأصناف معينة –الزوج أو الزوجة مثلا– حظين، ولغيرهما حظا واحدا، فتصرفنا في ذي الحظين كما أمر الله عز وجل ولم نحط من حظه لأننا لو حططنا من حظه لأصبح هناك عدم مطابقة في جميع الحالات، والله عز وجل غير في طريقة التوريث من حظ إلى حظ أقل، فعرفنا أنه لا يمكن أن توجد حالة ثالثة له لأنه إما أن يرث بهذه الحالة أو تلك فقط ولا ثالث لهما، فأعطيناه حظه في كل مسألة كما أمر الله، أما صاحب الحظ الواحد المؤخر فيؤخر[118].

---

(118) نذكر كلمة رائعة للإمام ابن حزم في هذا الشأن حيث قال: "وَلاَ يَشُكُّ ذُو مُسْكَةِ عَقْلٍ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ قَطُّ إعْطَاءَ فَرَائِضَ لاَ يَسَعُهَا الْمَالُ، وَوَجَدْنَا ثَلاَثَ حُجَجٍ قَاطِعَةٍ مُوجِبَةٍ صِحَّةَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ. إحْدَاهَا الَّتِي ذَكَرَ مِنْ تَقْدِيمِ مَنْ لَمْ يَحُطَّهُ اللَّهُ تَعَالَى قَطُّ عَنْ فَرْضٍ مُسَمًّى، عَلَى مَنْ حَطَّهُ عَنْ الْفَرْضِ الْمُسَمَّى إلَى أَنْ لاَ يَكُونَ لَهُ إلاَّ مَا بَقِيَ. وَالثَّانِيَةُ أَنَّهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ عَرَفْنَا أَنَّ تَقْدِيمَ مَنْ أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى مِيرَاثَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَمَنْ لاَ يَمْنَعُهُ مِنْ الْمِيرَاثِ مَانِعٌ أَصْلاً، إذَا كَانَ هو وَالْمَيِّتُ حُرَّيْنِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، عَلَى مَنْ قَدْ يَرِثُ وَقَدْ لاَ يَرِثُ، لأَنَّ مَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ اللَّهُ تَعَالَى قَطُّ مِنْ الْمِيرَاثِ لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ مِمَّا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَكُلُّ مَنْ

إذا باتفاقنا مع ابن عباس رضي الله عنه في هذا المبدأ ومخالفته في توزيع الحظوظ نكون قد صيّرنا الميراث يوزع على واحد صحيح بدون تعسف أو أن تؤخذ علينا مسألة واحدة، فلقد عيب عليهم في تقسيم الحظوظ على الرغم من وجود المبدأ في مسائل، واستطاعوا الخروج منها بحركة فنية كما يقال، ونذكر المسألتين اللتين انتقدا عليهما على الرغم من وجود المبدأ والأنصبة:

زَوْجٌ، وَأُمٌّ، وَأُخْتَانِ لأَبٍ، وَأُخْتَانِ لأَمٍّ: للزوج النصف، للأم السدس، لكل الأخوات الثلث. زَوْجٌ، وَأُمٌّ، وَأُخْتَانِ لأُمٍ: للزوج النصف، للأم السدس، للأخوة لأم لكل واحدة منهما السدس.

وتبعا لتقسيمنا النابع من النص في المسألة الأولى، يأخذ الزوج النصف لعدم الفرع الوارث، وتأخذ الأم السدس لوجود الأخوة، وتأخذ الأختان لأب والأختان لأم الثلث الباقي مقسما عليهما بالتساوي، وذلك كما قال الله عز وجل: "فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث" وفي المسألة الثانية: يأخذ الزوج النصف لعدم الفرع الوارث، وتأخذ الأم السدس لوجود الأخوة، وتأخذ كل واحدة من الأختين السدس لكونهما أخوة مع الزوج وليس لكونهما أخوات لأم.

قَدْ يَرِثُ وَقَدْ لاَ يَرِثُ، فَبِالضَّرُورَةِ نَدْرِي أَنَّهُ لاَ يَرِثُ إِلاَّ بَعْدَ مَنْ يَرِثُ، وَلاَ بُدَّ. وَوَجَدْنَا الزَّوْجَيْنِ وَالأبويْنِ يَرِثُونَ أَبَدًا عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَوَجَدْنَا الأَخَوَاتِ قَدْ يَرِثْنَ وَقَدْ لاَ يَرِثْنَ. وَوَجَدْنَا الْبَنَاتِ لاَ يَرِثْنَ إِلاَّ بَعْدَ مِيرَاثِ مَنْ يَرِثُ مَعَهُنَّ. وَالثَّالِثَةُ أَنْ نَنْظُرَ فِيمَنْ ذَكَرْنَا فَإِنْ وَجَدْنَا الْمَالَ يَتَّسِعُ لِفَرَائِضِهِنَّ أَيْقَنَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَهُمْ فِي تِلْكَ الْفَرِيضَةِ نَفْسِهَا بِمَا سُمِّيَ لَهُمْ فِيهَا فِي الْقُرْآنِ، وَإِنْ وَجَدْنَا الْمَالَ لاَ يَتَّسِعُ لِفَرَائِضِهِمْ نَظَرْنَا فِيهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَمَنْ وَجَدْنَا مِمَّنْ ذَكَرْنَا قَدْ اتَّفَقَ جَمِيعُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ اتِّفَاقًا مَقْطُوعًا بِهِ مَعْلُومًا بِالضَّرُورَةِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي تِلْكَ الْفَرِيضَةِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ أَيْقَنَّا قَطْعًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْهُ قَطُّ فِيمَا نَصَّ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ نُعْطِهِ إِلاَّ مَا اُتُّفِقَ لَهُ عَلَيْهِ فَإِنْ لَمْ يُتَّفَقْ لَهُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ نُعْطِهِ شَيْئًا، لأَنَّهُ قَدْ صَحَّ أَنْ لاَ مِيرَاثَ لَهُ فِي النُّصُوصِ فِي الْقُرْآنِ. وَمَنْ وَجَدْنَا مِمَّنْ ذَكَرْنَا قَدْ اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَهُ مَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْقُرْآنِ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَيْسَ لَهُ إِلاَّ بَعْضُ الْمُسَمَّى فِي الْقُرْآنِ، وَجَبَ، وَلاَ بُدَّ يَقِينًا أَنْ يُقْضَى لَهُ بِالْمَنْصُوصِ فِي الْقُرْآنِ، وَأَنْ لاَ يُلْتَفَتَ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ بِخِلاَفِ النَّصِّ، إِذْ لَمْ يَأْتِ فِي تَصْحِيحِ دَعْوَاهُ بِنَصٍّ آخَرَ. وَهَذَا غَايَةُ الْبَيَانِ، وَلاَ سَبِيلَ إِلَى شُذُوذِ شَيْءٍ عَنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، لأَنَّ الأبويْنِ، وَالزَّوْجَيْنِ فِي مَسَائِلِ الْعَوْلِ كُلِّهَا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ لِلْعَوْلِ: إنَّ الْوَاجِبَ لَهُمْ مَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَقَالَ الْقَائِلُونَ بِالْعَوْلِ: لَيْسَ لَهُمْ إِلاَّ بَعْضُهُ، فَوَجَبَ الأَخْذُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ لاَ بِقَوْلِ مَنْ خَالَفَهُ." اهـ.

ونحن نعرض المبدأ[119] على السادة العلماء الفقهاء، وإذا كنا قد أخطأنا في استنطاق القرآن فليرونا خطأنا ونعود عنه بإذن الله، إما إذا كان الصواب فيما قلنا فليأصلوا على هذا التأصيل الأوَلي طرق توزيع التركات في الإسلام، حتى لا يأتي من يدعي أن نظام الميراث في الإسلام غير منطقي لأنه لا يمكن أن يقسم على الواحد الصحيح، والله أعلم.

(119) نعرض بعض مسائل عامة على طريقتنا في توزيع الأنصبة، حتى نظهر للقارىء أنه ستُوزع التركة في النهاية بالواحد الصحيح بدون عول: مات وترك: ابنة وأخ وزوجة. للزوجة الثمن لوجود الفرع الوارث، للابنة النصف ويُحجب الأخ لوجود الولد المتمثل في الابنة والباقي يرد على الابنة ولا يرد على الزوجة شيء. ماتت وتركت: زوج وأب وأم وبنت. للزوج الربع لوجود الفرع الوارث، وللأب السدس لوجود الفرع الوارث، وكذلك الأم لها السدس وتأخذ البنت الباقي. مات وترك: أخوة أشقاء وأخ لأب وأخ لأم. توزع التركة بينهم بمبدأ للذكر مثل حظ الانثيين، وإن لم يكن هناك إناث في التركة وزعت عليهم التركة بالتساوي، لأنه وكما رأينا لا فارق بين أصناف الأخوة بل الفارق في حالة الأخوة هو الانفراد أو الاجتماع مع الزوج أو الزوجة. مات وترك: ابن وابن ابن آخر –أبوه ميت–. توزع التركة بينهما بالتساوي لثبوت اسم الابن عليهما وزوال الحاجب وهو أبو "ابن الابن". مات وترك: زوجة وأب وأم وأولاد ذكور وإناث. للزوجة الثمن لوجود الفرع الوارث، وللأب السدس لوجود الفرع الوارث كذلك، وللأم السدس لوجود الفرع الوارث، والباقي يوزع بين الأولاد بمبدأ للذكر مثل حظ الأنثيين. مات وترك: جد وبنت. للبنت النصف وللجد السدس لأنه أب، والباقي يرد عليهما كل على حسب حظه. مات وترك بنتين أو امرأتين وأخوة أشقاء. للبنتين أو للمرأتين جميع المال ولا شيء للأخوة لأنهم محجوبون بوجود الولد. مات وترك: ابنة وأب وأم. للابنة النصف، وللأم السدس لوجود الفرع الوارث، وللأب السدس لوجود الفرع الوارث والسدس الباقي يقسم بينهم كل على حسب نصيبه، وأرجو أن ينسى القارىء ما يسمى بالعصبة. ماتت وتركت: زوجا وأبا. للزوج النصف لعدم وجود الفرع الوارث وللأب السدس والباقي ولا يرد على الزوج شيء لأنه من أصحاب الحالتين. ماتت وتركت: زوجا فقط. يأخذ الزوج النصف ويرد عليه الباقي، ونود بهذا المثال أن نوضح أن أصحاب الحالتين لا يرد عليهم إلا في حالة الانفراد أما في حالة وجود أصحاب الفرائض أو أصحاب الحالة الواحدة فلا يرد عليهم أبدا. مات وترك: ابنة وابن ابن. توزع التركة بينهما بمبدأ للذكر مثل حظ الأنثيين. مات وترك: عما وعمة. لا يرث العم أو العمة مع وجود من هو أقرب منهما ولكن عند الانفراد كما في هذه المسألة توزع التركة بينهما بمبدأ للذكر مثل حظ الأنثيين. وما قيل في العم والعمة يقال في الخال والخالة.

ملخص النقاط

1- لا يرث إلا من له ذكر في الآيات، فمن لم يذكر لا يرث إلا في حالة غيابهم جميعا.

2- الابنة الأنثى مثل الذكر في الحجب حيث ينطبق عليهما لفظ "الولد"، فتحجب الأنثى عمها مثل أخيها الذي يحجبه، ولكن طبعا عند اجتماعهما يورثا بقاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين.

3- ذكر الله في آية النساء حالة واحدة للنساء وهي وجود ثلاث نسوة (إناث بالغات) وسكت عن ثلاث حالات، وهي: امرأتان، بنتان أو ثلاثة أو عشرة أو أي عدد، خليط من النساء والبنات. وفي الحالات الثلاثة يرثن الباقي وليس لهن حظ معين في التركة.

4- الأخوة لا يرثون إلا في غياب الأبناء ذكورا كانوا أو إناثا، فالبنت الواحدة تحجب كل الأخوة بأنواعهم.

5- لا فرق بين الأخوة في آيتي النساء فكلهم سيان سواء كانوا أخوة أشقاء أو لأب أو لأم ولكن تختلف الحالة، ففي الآية الأولى أخذوا الثلث سواسية لوجود الزوج أو الزوجة، أما في الآية الثانية أخذوا التركة كاملة بالنظام الآخر ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة النساء , ١١] لانفرادهم وعدم الزوج.

6- مفردة "الابن" تصدق على ابن الابن، فيرث جده إذا مات أبوه قبله ويأخذ حظه مثل الابن الصلبي، وكذلك الجد والجدة يرثان في حالة غياب الأب والأم، نفس الحظ والتقسيم.

7- نرد حديثي "ألحقوا الفرائض بأهلها..."، وحديث "اجعلوا الأخوات مع البنات عصبة" لمخالفتهما الصريحة لنص القرآن وللقواعد المستنبطة منه.

8- ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ... ﴾ [سورة النساء, ١١] ليست قاعدة مطردة فمتى ذكرت طبقت، وما بخلاف ذلك فلا، ولا نسقطها على باقي الحالات، لذا نجد أن الأب يأخذ السدس في حالة وجود الزوج والأم، وتأخذ الأم الثلث والزوج النصف، ونتفق مع ابن عباس في أنه لا يوجد في القرآن ثلث الباقي.

9- نرد ما يُسمى ب "التعصيب"، وكل يأخذ حظه من التركة كما في القرآن، وما بقي يرد عليه حسب نسبة حظه، ومن لم يذكر له حظ معين من الوارثين المذكورين يحوز التركة عند انفراده أو ما بقى منها بعد أصحاب الفروض.

10- يظهر لي والله أعلم أن من لم يذكروا في آيات المواريث مثل العم والعمة أو الخال والخالة إذا وجدوا مع غياب جميع المذكورين في الآيات يورثون بطريقة الكلالة الثانية، أي إذا وجدت عمة فقط مثلا تأخذ النصف ويرد عليها الباقي وإذا وجد مثلا خال وعمة للذكر مثل حظ الأنثيين وإذا انفرد مثلا ابن العم أخذ التركة كلها مباشرة وهلم جرا كما في حالة الكلالة الثانية.

وبهذا التقسيم نكون قد تحركنا في فهم آيات، اعتقد الكثيرون أنه لا يمكن أن يظهر فيها قول جديد، وأبرزنا أن السادة لم يفسروا الآيات بظاهرها كما ادعوا، بل خالفوا الظاهر كثيرا، فكان لزاما علينا النصح، والله أعلم.

السرقة

ونتقل إلى نموذج آخر، وهذا النموذج هو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة, ٣٨]

والآية كما نرى واضحة ولا تحتاج إلى بذل أي مجهود في فمها، ولكن نظرا لوجود الروايات الواردة عن الرسول في هذا الشأن أصبحت هذه الآية مخصصة، وتحتاج إلى

شروط معينة، وأهل السنة يضربون بهذه الآية المثل لتخصيص السنة للقرآن، ويقولون: ليس كل ما ورد عاما في القرآن فهو عام والدليل على ذلك آية السرقة، فهي ليست على عمومها، فمن المعروف أنها مخصصة فليس كل سارق تقطع يده، فمن لم يسرق من حرز –على قولهم– لم تقطع يده، ومن سرق من بيت مال المسلمين لم تقطع يده، حيث أن في هذا المال شبهه، فيسقط القطع.

أما نحن فنقول: الآية على عمومها وكل سارق تقطع يده[120]، سرق من حرز أو من غير حرز، وحتى لو كان من بيت المال فهذا أولى في الزجر، حتى لا يتجرأ أحد على سرقة مال المسلمين وهو مطمئن أنه لن تقطع يده، ولقد كان بعض العلمانيين يعيب على هذه النقطة قائلا: أتريدون أن تقطعوا يد من سرق جنيهات قلائل وتحبسون من سرق ملايين الجنيهات لأنها من مال المسلمين وبها شبهه. والمنطق الذي يتكلم به سليم وكانت هذه النقطة تضايقني كثيرا، ولكن بداهة هذا الاعتراض هو على تفسيرهم للآية، فالآية نفسها لم تقل هذا، بل قال به السادة الفقهاء، أما الآية فعامة ويجب أن تظل عامة، ولله در ابن حزم فقد ناقش هذه الأقوال وفندها، حتى أتى عليها.

ومن يقرأ في كتب الفقه يظن أن على هذه المسألة إجماعا، ولكن الواقع غير ذلك، فمن يتتبع الأقوال في هذه المسألة يرى فيها خلافا عظيما، ومن يرد التفصيل فليرجع لتفصيل الإمام ابن حزم في كتابه المحلى حول هذه المسألة، حيث سفه أقوال المخصصين لهذه الآية وأظهر بطلانها، وبيّن أن أدلتهم لا تعدو إلا أن تكون حديثا ضعيفا أو قول لصحابي خالفه فيه صحابة آخرون –هذا إذا كان قول الصحابي حجة أساسا–، فسقط الاستدلال بما يقولون ووجب بقاء الآية على عمومها[121]، وتفهم وتأول كما هي، والله أعلم.

---

[120] تقطع يديه فقط ولا يتعدى الحد إلى رجله كما قال بعض الفقهاء عند تكرار السرقة.

[121] نذكر كلمة عظيمة للإمام ابن حزم في هذه المسألة للذين يخصصون كتاب الله بالظنون، حيث قال "وَجَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى يَقُولَ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴿٣٨﴾﴾] سورة المائدة ,٣٨[فَوَجَبَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ أَنَّ كُلَّ مَنْ سَرَقَ فَالْقَطْعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ مَنْ اكْتَسَبَ سَرِقَةً فَقَدْ اسْتَحَقَّ بِنَصِّ كَلاَمِ اللَّهِ تَعَالَى جَزَاءً لِكَسْبِهِ ذَلِكَ قَطْعَ يَدِهِ نَكَالاً. وَبِالضَّرُورَةِ الْحِسِّيَّةِ، وَبِاللُّغَةِ يَدْرِي كُلُّ أَحَدٍ يَدْرِي اللُّغَةَ أَنَّ مَنْ سَرَقَ مِنْ حِرْزٍ أَو مِنْ غَيْرِ حِرْزٍ فَإِنَّهُ "سَارِقٌ" وَأَنَّهُ قَدْ اكْتَسَبَ سَرِقَةً، لاَ خِلاَفَ

الطلاق

ونتقل للحديث عن مسألة أخرى وهي الطلاق، لنبين كيف أنه محدد ومقيد في الإسلام، ومسائل الطلاق موجودة ومنتشرة في كتب الفقه، ونعرض للقارىء هنا نموذجا مبسطا في فهم آيات الطلاق، حتى يتضح له كيف حافظ الإسلام على أركان البيت وكيف ضيق في هدم أركان هذا البيت: قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٧]، ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾﴾ [سورة الطلاق ,١-٢]

كثيرا ما يطلق الإنسان في حالة غضب أو حالة انفعال أو لأسباب عدة، وهناك من يطلق عدة طلقات في مرة واحدة وهناك من يطلق طلاق بدعي، وهناك من يحلف بالطلاق، هذه هي أهم الأسئلة التي يسألها الناس دوما، فهل تقع هذه الطلقات؟ نقول: هناك خلاف في هذه المسائل، ولكن كما وضحنا مرارا أن هذا الخلاف بسبب

فِي ذَلِكَ، فَإِذْ هو سَارِقٌ مُكْتَسِبٌ سَرِقَةً، فَقَطْعُ يَدِهِ وَاجِبٌ، بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَلاَ يَحِلُّ أَنْ يُخَصَّ الْقُرْآنُ بِالظَّنِّ الْكَاذِبِ، وَلاَ بِالدَّعْوَى الْعَارِيَّةِ مِنْ الْبُرْهَانِ. فَإِنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ اللَّهَ تَعَالَى إنَّمَا أَرَادَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مَنْ سَرَقَ مِنْ حِرْزٍ، فَإِنَّهُ مُخْبِرٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُخْبِرُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا لَمْ يُخْبِرْ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَلاَ أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ قَالَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الْكَذِبَ، وَقَالَ مَا لاَ يَعْلَمْ، وَقَفَا مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ وَهَذَا عَظِيمٌ جِدًّا."اهـ.

التأصيل الخاطىء لأصول استخراج الأحكام من القرآن، ولو طبقت بطريقة مباشرة سليمة لقلّ هذا الخلاف كثيرا، فلنتتبع الآيات ولنر ما هي الأحكام المستفادة من هذه الأحكام: يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ ... ١﴾ [سورة الطلاق ,١]، وكما قلنا مرارا وتكرارا أن الأمر دوما للوجوب، فيلزمنا أن نوقع الطلاق لهذه العدة، وهذه العدة أولها النبي(ص) بقوله في الحديث الذي رواه البخاري: "4850 – حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ" اهـ

وكل الفقهاء على أن الطلاق في طهر واقعها فيه أو في حالة الحيض أو النفاس هو طلاق بدعي، ولكن الخلاف في وقوع الطلاق، هل يقع أم لا يقع؟ وبعيدا عن الأخذ والرد الكثيرين المنثورين في كتب الفقه نأخذ الآية من القرآن وتأويلها من السنة ونقول: من أراد أن يطلق امرأته فعليه أن يطلقها: في طهر لم يجامعها فيه، بمعنى: إذا كانت المرأة طاهرة وكان زوجها قد جامعها بعد أن طهرت من الحيض فلا يقع الطلاق ويكون لاغيا، وإذا أراد أن يطلقها فعليه أن ينتظر حتى تحيض ثم تطهر، فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها، ولا تحسب هذه الطلقة البدعية.

فإذا كانت المرأة في حالة حيض أو نفاس وطلقها، فلا يقع الطلاق بل عليه أن ينتظر حتى تطهر ثم تحيض مرة أخرى ثم تطهر مرة أخرى، فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها. إذن فالحالة الوحيدة التي يقع فيها الطلاق محصورة في أيام قلائل، فالمرأة تحيض في المتوسط خمسة أيام فهذه فترة محظور فيها الطلاق، ويغلب أن يجامعها

زوجها بعد انتهاء الحيض[122]، بفترة بسيطة كيومين أو ثلاثة أو حتى خمسة أخر، فيدخل مرة أخرى في فترة الحظر، فيعلم أن فترة وقوع الطلاق فترة محدودة جدا، وهي هذه الأيام، والأيام التي تكون فيها المرأة حاملا.

أما مسألة الطلاق في حالة الغضب الشديد، فنجد أن الله عز وجل يقول "وإن عزموا الطلاق"، فلا بد من وقوع الطلاق أن يكون له عزم وتصميم على وقوع الطلاق، أما في حالة الغضب الشديد والانفعال فلا يقع، ويصدق كتأويل لهذه الآية ما رواه ابن ماجة أن النبي(ص) قال: "2036–... لا طلاق ولا عتاق في إغلاق"، إذا حتى لو حصل الطلاق في أيام الإباحة القلائل ولكنه كان في حالة غضب شديد لا يقع، بل هو لغو، وكذلك لا يقع طلاق السكران ولا المكره ولا المجنون، وكل هذا خارج من قوله تعالى "وإن عزموا".

أما مسألة الطلاق أكثر من مرة في مجلس واحد كأن يقول لزوجه "أنت طالق ثلاثة"، فهذا الطلاق لا يقع، فهناك من قال أن هذا لغو فلا يقع منها أي طلقة، ومنهم من قال أن هذا يقع كله أي تقع الطلقات كلها، ومنهم من قال أنها تقع طلقة واحدة. والذي نراه أنه يقع مرة واحدة ولا يقع أكثر من ذلك، ودليلنا من القرآن قوله تعالى "الطلاق مرتان"، فلو وقعت الطلقات الثلاثة في مرة واحدة لخالف هذه الآية، فعلم أن وقوع أكثر من طلقة في مرة واحدة لا يصح بل تقع طلقة واحدة فقط.

أما مسألة تعليق الطلاق، مثل أن يقول: إن دخلت الدار فأنت طالق، فهناك من يرى أنه يقع، وهناك من يرى أنه لا يقع أبدا، وهذا هو رأي الشيعة فهم لا يوقعون الطلاق المعلق أبدا بل لا بد من أن يقول لزوجته أنت طالق، أما التعليق فلغو –ونحن نوافقهم لموافقتهم النص القرآني–، وما ينطبق على التعليق ينطبق على الحلف بالطلاق، ونحن نجد أن الرأي المنتشر في مجتمعنا هذه الأيام والذي يفتي به أكثر المشائخ هو أن

[122] لو تذكر القارىء قول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢]، وكما قلنا أنه يجب على الزوج وطء زوجه بعيد التطهر لعلم أن الأيام التي يباح فيها الطلاق قليلة جدا.

الحلف بالطلاق فيه كفارة يمين، وهذا رأي فقهي موجود فعلا، ولكن الذي نراه أن الحلف بالطلاق يعد لغوا فلا هو يقع كطلاق، ولا يقع كيمين لأنه ليس من ألفاظ اليمين فلا شيء فيه على الإطلاق.

ونختم بحكم مجهول في الطلاق، وهو مسألة الإشهاد على الطلاق، فكل المسلمين السنة يعرفون أنه يجب الإشهاد على الزواج ولكن أكثرهم لا يعرف أن هناك شيئا اسمه إشهاد على الطلاق، وهذا للأسف من اتباع الناس للمذاهب بدون النظر في القرآن، فالله عز وجل بعدما تكلم عن الطلاق قال: ﴿... وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ... ۝﴾ [سورة الطلاق ,٢]

فهذه الجملة صريحة في وجوب الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة، وكالعادة اختلف السادة الفقهاء هل الأمر هنا للوجوب أم للاستحباب؟! وهل هو في الطلاق والرجعة أم في الطلاق فقط أم في الرجعة فقط؟ ثم أخذ كل منهم يدلل على قوله بأدلة ويناقش أدلة الآخر. والذي نفهمه من النص هو وجوب الإشهاد في الطلاق والرجعة وهذا ما يقول به الظاهرية، وأما الشيعة فيقولون بوجوب الإشهاد عند الطلاق فقط.

إذا نزولا على أمر الآية لا بد من الإشهاد عند الطلاق بوجود شاهدين عدلين، فإذا طلق الرجل زوجه بلا شهود فلا يقع هذا الطلاق ولا يحسب[123].

فانظر عزيزي القارىء كم ضيّق الإسلام موارد الطلاق، حتى أنه ليكاد يلغيها فلا يقع الطلاق إلا لمن عزم عليه وصمم إيقاع الطلاق، فانتظر حتى يحين الميعاد المسموح فيه بالطلاق وأحضر لذلك الشهود، فمثل هذا هو الذي يقع منه الطلاق. وبعد هذه

---

(123) ملخص الأحكام المتعلقة بالطلاق هو:

1- الطلاق لا يقع إلا في طهر لم يجامعها فيه، فإن كانت في حالة حيض أو نفاس أو في طهر جامعها فيه لا يقع الطلاق.

2- الطلاق لا يقع في حالة الغضب الشديد أو السكر أو الجنون أو الإكراه.

3- لا حقيقة لما يُسمى ب:تعليق الطلاق أو الحلف بالطلاق، وكل هذا يُعد من لغو الكلام الذي لا يعتد به.

4- الطلاق لا يقع إلا مفرقا، فلو طلق زوجته في مجلس واحد أكثر من طلقة لا تقع إلا طلقة واحدة.

5- وجوب الإشهاد على الطلاق أو الرجعة، فمن طلق زوجته ولم يشهد هذا الطلاق أحد أو شهده شاهد واحد، فلا يقع هذا الطلاق ولا تحسب هذه الطلقة.

الشروط التي وضعها القرآن فليسأل من طلق قبل ذلك مرة أو اثنين أو ثلاثة نفسه: هل طلق طلاقا سنيا أو بدعيا، وبعبارة أخرى: هل طلقاته التي طلقها واقعة أم لاغية؟ فانظر أخي في الله كيف يضيق التقليد على خلق الله الكثير من المواطن التي وسع الله فيها وكم يضيع من محاسن الإسلام، والله أعلى وأعلم.

الوضوء والتيمم

وتأتي الأحكام المتعلقة بهما في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [سورة المائدة, ٦]

مما آسفني جدا ذكر هذه الآية دوما في مواطن الخلاف بين السنة والشيعة، فما وجدت أحدا من السنة يتكلم عن الشيعة إلا ويذكر هذه النقطة، أن الشيعة يمسحون أرجلهم في الوضوء ولا يغسلونها مثل أهل السنة، وهم يقولون بالمسح لأنهم أخذوا بقراءة الخفض في "أرجلكم"، أي أن أرجلكم تقرأ بكسر اللام لا فتحها، وعندهم أحاديث موجودة في كتبهم وكتبنا، يستدلون بها على وجوب المسح في الوضوء، وعندما قرأت توجيههم للمسح في هذه القراءة، وجدت أنهم يقولون أنه يجب المسح وأن الغسل لا يجوز حتى على قراءة "أرجلكم" بالفتح، وعندما قرأت توجيه فقهاء أهل السنة وجدتهم يوجهون القراءتين على وجوب الغسل وأن المسح لا يجوز، ولكل وجه في اللغة وظواهر روايات يستدل بها، فالذي أراه أن هذه النقطة لا يجب أن تكون مثار خلاف بين الفريقين تثار حوله المشاكل ويكون من العلامات البارزة بين السنة

والشيعة، فمن رأى المسح فليمسح فهو رأي محترم مأخوذ من الكتاب والسنة واللغة وله مناسباته التي يكون فيها المسح مطلوبا، ومن رأى الغسل فليغسل فهو رأي محترم مأخوذ من الكتاب والسنة واللغة.

المسألة الثانية المترتبة على هذه الآية هي مسألة المسح على الخفين: فنجد أن الشيعة يقولون أنه لا يجوز المسح على الخفين لأن الآية أمرتنا بالمسح على الرجلين، ومن المعلوم أن الخفين غير الرجلين، وهم يردون الروايات الواردة في هذا الموضوع، إما على سبيل القول أنها موضوعة أو أنها كانت قبل نزول آية الوضوء، ويرون أن ما يقولون به هو الأحوط وهذا ما أراه أيضا. أما أهل السنة فيقولون: لا مانع أن تزيد السنة على ما في القرآن أو تخصصه!، لذا فهم يقبلون هذه الروايات ويوجهون هذه الآية توجيها معينا حتى يجوز العمل بهذه الأحاديث، بجوار الآية.

والمسألة الثالثة هي مسألة التيمم: فمن المعلوم أنه يجوز التيمم في حالة السفر والمرض أو عند ملامسة النساء أو عند مجيء الغائط وعدم الماء، ولكن النقطة التي نود الإشارة إليها هي مسألة: هل يجوز التيمم في السفر مع وجود الماء؟ الرأي الموجود تقريبا في كل جميع كتب الفقه أنه يجوز للمريض التيمم مع وجود الماء لأنه معدوم حكما في حقه، أما المسافر فلا يجوزون له التيمم إلا في حالة عدم الماء حقيقة أو حكما بأن لا يستطيع الوصول إليه أو الحصول عليه. ولكن نحن نرى أنه يجب على المسافر التيمم في حالة السفر حتى ولو وجد الماء، ولقد قال بهذا الرأي كما اعتقد الشيخ محمد الغزالي والشيخ محمد رشيد رضا ولكنهما قالا بالجواز ونحن نقول بالوجوب، أي أن المسافر يجب عليه التيمم في حالة السفر، وجد الماء أو عُدمَ، وأنا أرى أن في هذا الحكم الكثير من التخفيف على الناس الذين يجدون مشقة في الوضوء في السفر على الرغم من توفر الماء، وغالبا ما يؤدي ذلك إلى ضياع الصلاة، فهم يرون أنه لا يجوز التيمم لأن الماء موجود، ولكنهم يتحرجون من الوضوء لأسباب عدة، فلا يتوضأون وتضيع الصلاة، ولكن القول بالتيمم في السفر حتى مع وجود الماء رخصة عظيمة وتسهيل كبير، ولا يحق لأحد الاعتراض على هذه الرخصة

فالله يخفف عنا في السفر الكثير من قصر في الصلاة إلى إفطار في الصيام إلى تيمم، فهل يوجد تخفيف أكثر من هذا، ولكن المشكلة أن الناس يرفضون ويشددون على أنفسهم.

المسألة الرابعة: حكم الوضوء. قد يبدو العنوان غريبا بعض الشيء، ولكن ألم يتوقف أحدنا ليسأل نفسه مرة هذا السؤال: ما حكم الوضوء؟ أي هل الوضوء واجب لكل صلاة، أم أنه يجوز صلاة أكثر من صلاة بوضوء واحد؟ الذي أراه واضحا من النص هو أنه يجب الوضوء لكل صلاة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿... إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ ... ٦﴾ [سورة المائدة ,٦]، فهذا شرط وجوابه، إذا فيجب على الإنسان أن يتوضأ لكل صلاة، وهذا هو ما روي عن النبي(ص) من أنه كان يتوضأ لكل صلاة، ولكنهم قالوا أن هذا كان من خصوصيات النبي(ص)، ومن المعلوم أنه لا يمكن القول بالخصوصية بلا دليل، ولا دليل على ما يقولون، وهذا أيضا رأي بعض الصحابة في هذه المسألة مثل سيدنا علي رضي الله عنه، وقبل هذا كله هذا ما تقوله الآية[124].

لذا فيجب على الإنسان المسلم أن يحتاط لنفسه ويتوضأ لكل صلاة حتى على سبيل السنة، أليس هذا هو المأثور عن النبي الكريم خير من طبق القرآن حتى صار قرآنا يمشي على الأرض؟

---

[124] هذا ما أقوم به فأنا أتوضأ لكل صلاة، ولكن هناك حالتين يمكن فيهما صلاة أكثر من مكتوبة بوضوء واحد وهما:

1- حالة الجمع، أو صلاة السنن قبل أو بعد المكتوبة فهذه يمكن فيها صلاة أكثر من صلاة بوضوء واحد.

2- إذا لم يجد الإنسان الماء ولم يكن قد أحدث أو لامس النساء ففي هذه الحالة يمكنه أن يصلي بنفس الوضوء الماضي، أما إذا أحدث أو لامس النساء ولم يجد الماء ففي هذه الحالة عليه التيمم.

الحج

وننتقل إلى حكم جديد، وهو المتعلق بالحج، والذي ورد في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [سورة آل عمران, ٩٧] فهذه آية واضحة وصريحة والحكم الذي يستخرج منها أن حج البيت فرض ﴿... فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ ... ١٩٧﴾ [سورة البقرة, ١٩٧] على من استطاع إليه سبيلا، والاستطاعة كما قال الفقهاء إستطاعة مادية أي القدرة على تكاليف السفر، وقدرة جسدية أي القدرة على آداء مناسك الحج، وهذا الذي قلناه متفق عليه.

ولكن عند التطبيق وجدنا أن السادة الفقهاء يقولون شيئا آخر تماما، وهو أنه يجوز للإنسان أن يحج عن غيره، ويستدلون على ذلك بما رواه البخاري:"1720– حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا أبو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَو كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ "اه

ونحن نقول هذا الحديث واجب الرد، فالله قال: ﴿... مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ... ٩٧﴾]سورة آل عمران, ٩٧[، فإذا كانت هذه الأم ماتت قبل أن تستطيع الحج فلا شيء عليها وهي ليست مدينة بشيء بل هي مبرأة تماما، أما إذا كانت تستطيع الحج، ولم تحج حتى ماتت فهي آثمة. سيقول المثبتون للحديث: هذه المرأة من النوع الثاني، فهي مدينة وابنتها تحاول أن تقضي الدين عن أمها. نقول: هذا معارض لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [سورة الـنجـم, ٣٩]، فهذه المرأة ماتت عاصية فعليها ذنب، وإذا فتح هذا الباب لاستطاع الأغنياء أن يسقطوا عنهم كل ذنوبهم فيوصون أو يدفعون لمن يصلي أو يصوم أو يحج عنهم بعد مماتهم، وهذا مرفوض

بداهة، ولقد روى عن الإمام مالك في موطأه "حَدَّثَنِي عَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يُسْأَلُ هَلْ يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ أَو يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ فَيَقُولُ لَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ وَلَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ".

والرسول نفسه حدد ما يمكن أن يصل الإنسان بعد وفاته فقال في الحديث الذي رواه الترمذي: "1297– حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُولَهُ"

فهذه الأعمال كلها داخلة تحت ما يعمله الإنسان في حياته، ودعاء الولد الصالح كان بسبب تربيته له، واقتصر على الدعاء فقط فقد يقبل هذا الدعاء أو يرفض فلا يزيد حسناته، أما الحج أو الصوم أو الصلاة عن الغير، فهذا ما لا يصح ولا يجوز، والله أعلم.

القراءة

وإلى حكم جديد، ورد في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [سورة الـعلق ,١]. سيتعجب القارىء من إيراد هذه الآية في نماذج آيات الأحكام، فالكل يربط بين هذه السورة وبين واقعة بدء الوحي، ولكن كما ذكرنا من قبل العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب، وأن أي أمر في القرآن فهو على سبيل الوجوب، والآية كانت لخطاب النبي(ص)، ولكنها بعده لخطاب الأمة، ولا يوجد في النص ما يشير إلى أن الأمر موجه إلى النبي(ص) فقط.

إذا نخرج من هذه الآية بحكم فقهي وهو وجوب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، وطلب العلم يكون بطريقين، إما عن طريق القراءة من الكتب أو عن طريق القراءة على

الأساتذة، ولا ينصرف ذهن القارىء إلى أن المراد من القراءة في الآية هي القراءة بالمعنى المتعارف عليه في هذه الآيام فقط، فهذا جزء من المعنى، أما القراءة بالمعنى الموسع فتكون بمعنى القراءة من الكتب والقراءة على الشيوخ وطلب العلم بأي شكل، ولقد ورد في هذا الشأن حديث يؤيد هذا المعنى، والحديث وإن كان به ضعف في السند، ولكنه متفق مع النص القرآني فيؤخذ به، وهذا الحديث هو قوله(ص) "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"

وبما أن الأمر كان موجها إلى النبي(ص) قبل أي شخص آخر، فلا بد أنه طبق الأمر أفضل تطبيق، فتعلم القراءة والكتابة[125]. وطبق الصحابة هذا الأمر أيضا أفضل تطبيق، فتعلموا على يد النبي(ص)، ونقلوا هذا العلم لمن بعدهم، ولو لم ينفذ الصحابة هذا الأمر لما وصل إلينا هذا الدين كما هو، ثم حدث بعد ذلك التكاسل وأهمل هذا الأمر بشكل كبير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

[125] قد يعجب القارىء من هذا الأمر ولكنا نجزم أن النبي(ص) تعلم القراءة والكتابة بعد البعثة، ويوجد بعض الروايات التي تشير إلى أن النبي(ص) كان كاتبا، ولكنا سنبدأ بدليلنا من القرآن ثم نذكر بعد ذلك الروايات، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة العنكبوت ,٤٨] فلو لم يكن النبي(ص) تعلم القراءة والكتابة بعد البعثة لكان التخصيص بقوله "كنت" و"من قبله" عبثا، ولصار لا معنى له.

أما الأدلة من السنة فكثيرة نذكر منها ما رواه البخاري: "2501–... اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا لَا نُقِرُّ بِهَا فَلَو نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ امْحُ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ سِلَاحٌ إِلَّا فِي الْقِرَابِ وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَأَنْ لَا يَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا..."، فهذا دليل على أن النبي(ص) تعلم القراءة والكتابة نزولا لأمر الله، وهذا ما يجب أن يفعله كل مسلم.

الشورى

ورد هذا الحكم في قوله تعالى: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٥٩].

اتفق السادة المفسرون أن الخطاب في الآية خاص بالنبي(ص)، ولكنه يتعداه إلى الأمة، ثم عادوا فاختلفوا بعدها في حكم الشورى!، فمنهم من قال أنها كانت ملزمة للنبي(ص) وغير ملزمة لمن بعده! ومنهم من قال أنها ملزمة للنبي(ص) ولمن بعده، ومنهم من رأى أنها غير ملزمة لا للنبي ولا لمن بعده!!

وإن المرء ليعجب من هذا التخبط والتقسيم الذي لا أساس له، فالأمر في الآية صريح ولا يحتاج إلى أي عبقرية ليدركه المرء، بل إن الله تعالى مدح من كانت الشورى ديدنهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الشورى, ٣٨]. فوضع الشورى بين أهم أمرين في المجتمع الإسلامي والعلامتين المميزتين له الصلاة والزكاة ﴿... فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ... ﴿٥﴾﴾ [سورة التوبة, ٥]، ووصف بها المجتمع المسلم لازم مكرر في القرآن، فكيف لا تكون ملزمة؟.

ونحن نريح أنفسنا من كل هذا العناء فنقول أن كل أمر في القرآن فهو واجب، فنخرج من هذا أن الشورى واجبة وملزمة، أي أن الناس إذا تواضعوا على رأي فليس للحاكم أن يخالفهم، أما أن يتفق الأكثرية على رأي ثم لا يأخذ الحاكم بقولهم بحجة أن الشورى غير ملزمة، فهذا عبث ننزه أنفسنا والقرآن عنه.

ونخرج منه أيضا أن الشورى سلوك عام للمسلمين وليس فقط بين الحاكم والمحكومين، فالله تعالى أثنى على المسلمين بأن أمرهم شورى بينهم، فيكون النزول

على الشورى واجب على كل مسلم، فلو كان هذا حال المسلمين حكاما وعامة لانصلح حال المسلمين كثيرا.

والمشكلة أن السادة الفقهاء صرفوا الأمر في الآية عن الوجوب، بسبب فهمهم الخاطىء لأحداث التاريخ الإسلامي، وأصبح القرآن يؤول حتى من أجل التوفيق بينه وبين فعل فلان أو علان!

الإفساد في الأرض

ونأتي إلى آية مهملة، لا يعتقد كثير من المسلمين أنهم مطالبون بالعمل بها، كأنها ليست موجهة إليهم، وكأن مخالفتها لا توجب إثما، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾]سورة الأعراف, ٥٦[

فهذا نهي عن الإفساد في الأرض، والله عز وجل عاب علينا وذمنا بالإفساد في الأرض فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾] سورة الروم, ٤١[والفساد في هذه الآية يصدق على الفساد المادي قبل الخلقي، لقوله تعالى: ﴿... فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ... ٤١﴾] سورة الروم, ٤١[، وكان هذا النهي موجودا دوما عند الأنبياء، فيروي القرآن على لسان سيدنا شعيب ﴿... وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾] سورة الأعراف, ٨٥[.

إذا فالإفساد في الأرض منهي عنه في مختلف مراحل الإسلام، والإفساد يصدق على أشياء كثيرة منها الطوام والكوارث والمصائب ومنها الصغائر وكل إفساد إثمه على قدره، فالصد عن سبيل الله مثلا إفساد مادي ومعنوي كبير، وتوعد الله عليه كثير فقال:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ٨٨﴾ [سورة النحل ,٨٨].

وهناك أصناف أخرى للفساد منثورة في القرآن ولكن ما نريد التركيز عليه هو الفساد البسيط الذي يخرج من الناس العادية ولا ينتبهون إليه، وبتراكمه يصبح سلوكا عاما ويؤدي إلى مصائب في نهاية الأمر، ولكن المشكلة هي أن الناس لما كانوا يأخذون دينهم من الفقهاء وشيوخ المساجد لا من القرآن، فلم يجدوا من يقول لهم أن كثيرا مما يفعلونه يدخل تحت باب الفساد في الأرض المنهي عنه، فكثير من المسلمين يعدون ترك الصلاة حرام وكبيرة، وتركها إثم كبير لا مراء فيه، ولكنهم لا يجدون حرجا أو إثما في أن يلوثوا الأنهار مثلا بإلقاء مخلفاتهم أو الجيف أو المواد الكيماوية الضارة، أو أن يرموا القاذورات في طرق المسلمين، فهذا لا شيء فيه ما دام بعيدا عن منازلهم! ولا يتحرجون من تخريب المنشآت العامة، فهذا لا شيء فيه، فهي لا تخصهم!!

وكثير من هذه النماذج السيئة التي نراها كلنا في حياتنا اليومية، وكل هذا لأننا أهملنا قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ... ٨٥﴾ [سورة الأعراف ,٨٥]، فلو وجد الناس من يقول لهم ذلك، ومن يعرفهم أن سلوكهم خاطىء ويترتب عليه إثم شرعي لارتدع الكثيرون ولأقلعوا عن هذه الأفعال المشينة، التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين قبل أن تسيء إلى البيئة المحيطة بنا، والله المستعان.

البحث العلمي

ونختم نماذج آيات الأحكام بآيات أُهملت مثل كثيرٍ غيرها من الآيات، بحجة أن الأمر في القرآن لا يأتي دوما على سبيل الوجوب، وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾] سورة العنكبوت, ٢٠[ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ۝٤٢﴾] سورة الروم, ٤٢[ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾] سورة الأنعام, ١١[

ونلاحظ أن الأمر ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ... ۝٢٠﴾] سورة العنكبوت, ٢٠[ورد في القرآن إثنتي عشر مرة، وعلى الرغم من ذلك لم ينتقل إلى درجة الوجوب عند الفقهاء، ولست أدري ماذا يحتاجون حتى يجعلوه للوجوب؟! هل يريدون أن يأتي مائة مرة أم أن يقول لهم "أنا واجب"؟!

فالآية ومثيلاتها توجب علينا السير في الأرض لننظر كيف بدأ الخلق، ولكن لما كان الأمر في القرآن قد لا يعني الوجوب، تبعا لمرجحات عدة غير النص نفسه!!، أُهملت هذه الآية لأن الأمر تبعا لأدمغة السادة العلماء هنا على سبيل الاستحباب، فمن شاء فليفعل ومن شاء فليترك، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قد يقول القارىء: وما الفارق الذي قدمته الآن، لقد حاولت أن تنفي التفسير في التعامل مع كتاب الله، ثم ها أنت تقوم بتفسير كتاب الله فتفند آراء وتقبل أخرى، فحاولت أن تفلت من التفسير فوقعت فيه؟! نقول: قد يبدو ما أقوم به تفسيرا مثل ما قام به السادة المفسرون، ولكن ليس ما أقوم به هو النموذج الذي سيكون العمل به عند التعامل مع القرآن، فهذا الكتاب هو للرد على المفسرين والفقهاء، ولكي نرد عليهم لا بد أن نستعمل أدواتهم، فنوضح للقارىء بأدوات المفسرين وبطرقهم أن ما قاموا به لا يعد سليما أو صحيحا بأي حال.

يضاف إلى ذلك أن القراء غير المتخصصين والمتخصصين أيضا يميلون إلى تقديس أقوال العلماء، فلو أتيت أنا وأخرجت للقراء بعض الآيات الواضحات الدلالات مثلهن مثل باقي آيات القرآن وقلت أنهن يفدن كذا ونخرج منهن بالحكم الفلاني بدون تفنيد لأقوال العلماء، ثم قرأ القارىء للفقيه الفلاني أن الآية لا تفيد ظاهرها هذا بل هنا كذا

وكذا ولورود الحديث الفلاني، فيستخرج منها الحكم الفلاني، فسينسى القارىء ما قلناه ويتبع ما قاله الفقيه الأعظم لأنه أدرى وأعلم!

ونحن لا نقصد أن نطعن في القراء، فلقد سقطت أنا نفسي في هذا الفخ، فلقد كنت أقرأ ذات مرة في سورة المجادلة، فوقفت عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣﴾ [سورة المجادلة ,٣]، فانتبهت أن الآية تقول أن كفارة الظهار تجب بعد المرة الثانية، أما المرة الأولى فمعفو عنها، وأنا أعلم أن السادة الفقهاء يقولون أن الكفارة تجب من المرة الأولى[126]، ولكن ظهر لي أن قولهم هذا خاطىء لمخالفته الآية، ومرت شهور ثم سمعت شيخا يتكلم في هذه المسألة فعرضها عرضا جميلا جعلني أعتقد أني أخطأت في فهم الآيات، فتراجعت فعلا عن هذا الفهم، ثم ظهر لي فيما بعد أن ما فهمته من الآية سليم تماما، وأن ما قام به هذا الشيخ عن غير عمد هو من باب التلاعب اللفظي، الذي أدى إلى هذا اللبس عندي.

وقصدنا أيضا من هذا العرض المطول للتعامل مع النص القرآني أن نظهر للقارىء أن ما قاله الفقهاء لا يستحق هذه القدسية بل القدسية فقط للنص القرآني، فما من فقيه أوّل كلمة في القرآن لسبب ما، إلا وهناك من رد عليه أو يمكن الرد عليه بكل سهولة.

فهذه نماذج لما أوّله الفقهاء من آيات الذكر الحكيم، وضحنا أنه يجب إمضائها على ظاهرها ولا حرج في ذلك، وأنها ما أُولت إلا للبس حاصل عند الفقيه في تأصيله لقواعد استخراج الأحكام!

[126] ليس كلهم فمن الظاهرية من قال بقولنا.

الفصل الثاني: التأويل الإيماني

معرفة الله، عبادة الله، طاعة الله هي الهدف الأسمى للحياة، الهدف الذي خلق الله عز وجل من أجله البشر، فما تركهم هملا، بل أرسل إليهم رسلا، اصطفاهم واختارهم على العالمين، ليعلموهم ويهدوهم ويزكوهم، فأدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ونصحوا لأقوامهم، ثم تركوا أقوامهم وذهبوا إلى الرفيق الأعلى، فاختلفت أقوامهم من بعدهم وغيروا شرع ربهم بين محو وإثبات، وترك وإهمال، وبين تحريف للكلم عن مواضعه، فمنّ الله عليهم وأرسل لهم رسوله الخاتم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٦٤]، فأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وتكفل الله بحفظ رسالته حتى لا يدخلها التحريف كما حدث مع الرسالات الماضية فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجر, ٩]، فالذكر لا بد أن يحفظ، فالدين قد كمل والنعمة قد تمت، فها هي الرسالة الخاتمة بين يدي الناس.

ولحق الرسول بالرفيق الأعلى وبقى القرآن مع المسلمين، فيه كلمة الله الخاتمة، واختلف الناس في فهم كتاب الله، والخلاف وارد، ولا يستدعي التقسم والتحزب والتشيع، ولكن هذا ما حدث، فلو اقتصر الخلاف على المسائل الفقهية ما حدث تحزب، ولكن لما دخل الخلاف في مسائل العقيدة طفت الخلافات على السطح، وبدأ تمزق المسلمين وتشيعهم، وتمسك كل فريق بما لديه من مرويات صحيحة أو مختلقة، وحاول حمل الناس عليها، ظانا أن في قوله الفلاح والنجاح وأن قوله هو الفصل وفيه النجاة، فهو الناجي والباقون هالكون، وتمسكت كل فرقة بفرعيات في أمور العقيدة، ودافعت عنها اعتقادا أن ما معها هو الحق، ولو فعل كل فريق هذا لقبلناه فلا بأس من الحوار والدعوة، ولكن لأسباب عدة لا نود أن نعرض لها ظهر التعصب، وبدأ الخلاف والرمي بالتضليل والزندقة، فهذا يرمي الآخر بأنه مجسم مشبه، وذاك يرى أن الآخر زنديق، وهذا ينعت ذاك بأنه رافضي وذاك يرى أن هذا

ناصبي، وهذا يرمي ذاك بأنه معطل وهذا يرمي ذاك بأنه جبري أو قدري، وبدأ تراشق التهم والألقاب بين المسلمين، وكل فريق يعتز بالتسمية التي تسماها ويفتخر بها، فبسبب تمسكه بالحق –كما يعتقد– نعته الجهلة الآخرون بهذا النعت، فما أجمله من نعت!

وبدأت مرحلة التضليل والتفسيق، فهذا يضلل هذا أو يفسقه وهذا يزندق ذاك، وهذا يرى أن من يقول بكذا فهو كافر، ومن يعتقد بكذا فهو مرتد، ويتأمل المرء في حالهم ويضرب كفا بكف، ألهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب والقرآن؟!

لا ورب الكعبة، فما جاء هؤلاء إلا ليرفعوا الخلاف ويزيلوا الشقاق وينشأوا المودة ويرسخوا السلام، ولكن لما رأى كل فريق أن آراءه أصول في كتاب الله لا يجوز الاختلاف فيها بدء هذا التوجه وبدأ الخلاف والشقاق، ولأسباب عدة ظهرت طوائف كثيرة جدا، وكل طائفة تفهم آيات القرآن فهما محددا وترفعه شعارا، ولا نريد أن نطعن في أحد فنقول أنهم فعلوا كذا وكذا طعنا في الدين، فما اطلعنا على سريرة أحد، والله وحده هو العالم بالعقول كيف يسيرها.

وتفرقت الأمة إلى فرق أكثر من ثلاثة وسبعين فرقة[127]، وكل فريق يرى أنه على الصواب وأنه الفرقة الناجية وباقي الفرق في ضلال، ولا يهمنا معرفة هذه الفرق أو مبادئها فلقد كان لها أسباب في الظهور ومعتقدات غريبة، كثيرٌ منها ساذج وعجيب جدا، ولكن ما يهمنا هو ما بقي من هذه الفرق، فلقد اندثرت هذه الفرق الكثيرة جدا ولم يبق منها على حد علمي إلا: أهل السنة والجماعة: وهم أكبر الفرق عددا.

الشيعة: ثاني أكبر الفرق عددا، وهم ينقسمون إلى إمامية وزيدية وإسماعيلية، والزيدية قريبة من أهل السنة، ولكنهم قلة والإمامية الأكثرية، والإسماعيلية أقل الفرق الشيعة حاليا كما أعتقد، ولم أفلح في العصور على أي معلومات عنهم في وقتنا هذا.

(127) إشارة إلى الحديث المكذوب الذي رواه أبو داود "**3981**– عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهُ قَامَ فِينَا فَقَالَ أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ فِينَا فَقَالَ أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ"

إباضية: وكثيرٌ يرون أن الأباضية من بواقي الخوارِج، ولكن من يقرأ كتاباتهم يرى أنهم يتبرأون من هذه التهمة.

الظاهرية: يمكن أن نسمي هذه الفرقة من باب التجوز في الجماعات الإسلامية، فهم وإن كانوا يعدون من ضمن أهل السنة والجماعة، إلا إن لهم بعض المسائل التي يخالفون فيها، ولقد فوجئت أيضا بوجود بقايا لهم وكنت أعتقد أنهم قد درسوا أيضا.

هذه هي الفرق التي استمرت حتى الآن، ولكل فريق آراءه وأفكاره التي يدافع عنها، وعندما ينظر المرء إلى مواطن الخلاف بينهم، يرى أن أكثرها ما كان يستدعي الخلاف ناهيك عن التضليل، ولكنها آفة التمسك بكل فرِع وعده من الأصول ومحاولة حمل الناس عليه.

لذا نأخذك في رحلة سريعة مع العقيدة الإسلامية لكي نعرض عليك ونوضح لك كم هذه العقيدة سهلة وبسيطة، ولا تحتاج إلى كل هذا التعقيد، ونعرض لك كيف ألحقوا بالعقيدة أمورا ليست منها، وعدوها من عقيدة[128] المؤمن.

(128) قبل الحديث عن أسس العقيدة في الإسلام لا بد من الإشارة إلى أن هذه الكلمة لم ترد في القرآن ولا أعتقد أنها وردت في السنة بهذا المعنى أو المدلول، وإذا نحن بحثنا في القرآن وجدنا أنه استعمل أصل هذه الكلمة وهو "عقد" في معناه اللغوي المألوف، وهو نقيض الحل والعزم والشدة، فاستعمله مع النكاح والأيمان والبيع والعقود العادية، وهذه هي المواضع التي استعمله القرآن فيها: ﴿... وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ... ﴿٢٣٥﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣٥]، ﴿... أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ... ﴿٢٣٧﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٣٧]، ﴿... وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ... ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النساء ,٣٣]، ﴿... وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ... ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المائدة ,٨٩]، ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ [سورة طه ,٢٧]، ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الفلق ,٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ... ﴿١﴾﴾ [سورة المائدة ,١]. فلا نجد أي علاقة بين هذه الكلمة وبين استعمالها الحالي، ولو وجد فهو بعيد جدا، إذا فأول القصيدة...، أقصد الكلمة غير دقيقة لغويا وغير مستعملة في القرآن أو السنة بهذا المعنى، ألا تُعتبر هذا بدعة؟!

عقيدة المؤمن

ما الذي أمر الله عز وجل عباده بالإيمان به؟ الذي أمرنا الله عز وجل بالإيمان به مذكور في القرآن بنعت الإيمان، ومنعوت مخالفه بالكفر، وذكر هذا بصيغة الأمر وبصيغة التسمية، حتى لا يكون هناك أي لبس، أي أن الأمر في القرآن جد واضح، وكيف لا يفصل في أمور الإيمان التي يدخل بها الإنسان إلى الإيمان ويخرج بتركها إلى الكفر؟! ونقول: لكي يصير الإنسان مؤمنا لا بد أن يؤمن بالقرآن إجمالا فيؤمن بكل ما ورد فيه، وطُلب إلينا الإيمان بأسس خمسة تفصيلا، ونجد هذا في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾]سورة البقرة ,٢٨٥[

فجمعت هذه الآية نوعي الإيمان الإجمالي والتفصيلي، فنحن نؤمن بكل ما أنزله الله إجمالا، وتفصيلا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ولا يوجد في الإيمانيات الإسلامية عقائد تستنبط، أو ترد كإشارات بل هي واضحة وضوح الشمس أو هي أوضح.

هل هذه هي النقاط التي يجب علينا أن نؤمن بها تفصيلا؟ نقول: لا، فلقد فصّل القرآن في مواطن أخرى أكثر، فقال: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾] سورة البقرة ,١٧٧[، فهذه هي النقاط الخمسة التي يجب على كل إنسان أن يؤمن بها حتى يصير مؤمنا، فلو أنكر مثلا وجود الملائكة فهو كافر، وإذا أنكر الكتب المذكورة في القرآن فهو

كافر، ومن أنكر اليوم الآخر فهو كافر، والدليل على ذلك في القرآن نفسه، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾]سورة النساء, ١٥٠[فهذا دليل جلي على أن من آمن ببعض الرسل وكفر بآخرين فهو كافر، والآيات التي تنص على كفر الذين اتخذوا آلهة مع الله لا تحصى في القرآن، والآيات التي ترد على منكري اليوم الآخر لا تحصى أيضا.

أما الدليل على كفر منكر الملائكة من القرآن فهو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾] سورة البقرة, ٩٨[

والآية التي تجمع كل هذا كله في بوتقة واحدة هي قوله تعالى: ﴿... وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾] سورة النساء, ١٣٦[فجمع الله الإيمان به مع الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، فهذا أكبر دليل على أن منكر أي واحد من هؤلاء كافر. قد يقول قائل: ولكن الرسول أضاف إلى ذلك القدر(129).

نقول: لا أحد ينكر القدر فالكل مقر به، ولكن كيف هو؟ لا أحد يستطيع أن يجزم أنه حل هذه المعضلة حتى الآن، فكلنا مقرون بكمال الله وكمال علمه وأسمائه، ولكن ما

(129) وردت روايات أخرى بدون ذكر القدر، فلو كان القدر واحدا من أسس الإسلام فهذا يعني أن الرسول لم يُعلم الأسس فما بالنا بالفروع؟! ونجد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري "4404- حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ عَنْ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي حَيَّانَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ... ٣٤﴾] سورة لقمان, ٣٤[ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ رُدُّوا عَلَيَّ فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دينهم " اهـ.

فهل نسى الرسول أصلا من الأصول، فما حال الفروع إذن؟!

هي طريقة عمله؟ الله وحده أعلم، لذا لا يُعد القدر من الأمور التي يكفر المخالف فيها، لأن كل فرقة ترى أن فهمها له هو الصحيح، -بخلاف الأركان الخمسة التي أُجمع عليها- فهل نُكفر باختلاف الأفهام؟!

إذا عزيزي القارىء هذه هي أسس الإيمان الخمس التي يكفر منكر أيا منها، وذكرنا لك الدليل من القرآن على كفر منكرها، ولنسأل السادة العلماء الأفاضل الذين يُكفرون منكر رؤية الله أو من لا يقر بالإمامة أو منكر نزول المسيح أو منكر عصمة الأئمة أو منكر الدجال أو منكر عذاب القبر أو القائل بخلق القرآن، أو كثيرا من النقاط الخلافية: أين الدليل من القرآن على ما تقولون؟

سيخرج كل منهم آيات يستنبط منها ويستخرج منها أحكاما وأقوالا ودلائل، وطالما أن المسألة مسألة استنباط واستدلال، فالكل يمكن أن يستنبط ويستخرج، أما ما ذكرناه فله دليل مباشر من القرآن على كفر منكره.

إذا فأسس الإيمان الخمس: الله، الملائكة، الكتب، الرسل، اليوم الآخر.

فنؤمن بالله، ونقر له بالكمال في كل شيء في الأسماء والأفعال. ونؤمن بالملائكة وأنهم من خلق الله. ونؤمن بأن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأن هناك يوم آخر يحاسب فيه الناس.

فانظر كم هي العقيدة الإسلامية سهلة سلسة ميسرة، وقارن بين هذه النقاط الخمس المحددة وبين المسائل الخلافية العديدة، التي حُشرت في كتب العقيدة وأصبحت من عقيدة المؤمن، مع أنها لا علاقة لها بالعقيدة، بل إن منها ما لم ينزل الله به من سلطان!

وهذا فقط ما يجب الإيمان به تفصيلا، أما باقي ما ورد في القرآن فيُقبل فيه الخلاف -على الرغم من وضوحه في القرآن، ولولا تقديم الروايات والعقول على القرآن لما وقع الخلاف تقريبا في القرآن-، فلو أنكر أحدهم وجود الجن تماما وقال إن الجن

من البشر ولا يوجد مخلوق من النار اسمه الجن لا يكفر، ومن قال يوجد فقط ملائكة وشياطين وبشر لا يكفر، ومن قال أنه لا يمكن أن نرى الله في الآخرة لا يكفر، ومن قال أن القرآن مخلوق لا يكفر، ومن قال بعدم عدالة الصحابة لا يكفر، ومن أنكر أصل الإمامة لا يكفر، ومن قال بخلود مرتكبي الكبائر بدون توبة من المسلمين في النار لا يكفر، ومن أنكر عذاب القبر لا يكفر، ومن فهم الشفاعة فهما مخالفا للسائد أو حتى أنكرها لا يكفر.

ولا يعني هذا أن نتفق مع أصحاب هذه الآراء فيما يقولون، ولكن لا نكفرهم أو نضللهم، من الممكن أن نراهم خاطئين، أما أن نرمي أحدا بالضلال والكفر بدون دليل صريح وبدون أن أعرف ما هو تأوله لهذا الدليل فهذا ما لا يجوز، فمن المؤكد أن له مستند فيما يقول به.

إذا كما رأينا بالدليل المباشر من القرآن أسس وأصول الإيمان خمسة، وهي لا تحتاج إلى عبقرية أو كتب لكي يستوعبها الإنسان[130]. سنسمع النغمة المكررة: ولكن هذا قد يؤدي إلى التجسيم والانحراف. فنقول: القرآن لا يحتاج فيلسوفا أو عبقريا ليفهمه، فالقرآن ليس مزلة أقدام أو مصدر ضلال، بل هو مصدر الهداية، ونسألهم: هل المسائل التي بسطوها في كتب العقائد يلزم الإنسان معرفتها؟ بداهة لا يلزم، فقد مات الرسول وخير القرون ولم يتطرقوا إليها.

فهذه الكتب التي أُلفت ترف ذهني ينفعنا عند محاورة غير المسلمين، أما أن نطالب العوام بأخذ عقيدتهم من كتب العقيدة فلا يُقبل، اتركوا الناس مع القرآن ولا تخوفوهم منه، فالعقيدة بسيطة ولن يقع الناس في شرك التجسيم، وإذا أردتم أن تعلموهم

---

[130] أنا أرى أن كتب العقائد الموجودة تعد كتب حشو، وكتب الفقه أفضل منها، فالعقيدة لا تحتاج إلى توضيح وشرح، فقد تحتاج المسائل الفقهية توضيحات وشروحات، أما أن تحتاج العقيدة إلى شروحات، فهذا هو عين الفساد والسفسطة، فالإنسان يجب أن يفهم ويعرف عقيدته بنفسه لا أن يشرحها له أحد، فالعقيدة هي أم الأمور التي لا يجوز التقليد فيها، بل يجب أن يأخذها الإنسان بنفسه من القرآن –ويجب كذلك في الأحكام ولكن من الممكن أن يعتمد الإنسان على غيره في القليل من أحكام الحياة المعيشية الفقهية–، أما في الأسس العقدية الإيمانية، فهذا ما لا يصح بأي حال من الأحوال.

فنبهوهم إلى عدم الوقوع في التجسيم فقط، ولن يصبح هناك أي خطر في أخذ العوام لعقائدهم من القرآن.[131]

وإذا أردنا الحديث عن العقائد في الإسلام –وأنا أعني الخمس فقط–، فسنجد أن النقطة الوحيدة التي يمكن أن يثار حولها الكلام هي مسألة الله وأسمائه، أما باقي النقاط الأربعة فلا خلاف عليها تقريبا.

والإنسان العامي البسيط يعرف عقيدته بكل سهولة وبساطة ويعرف ما يجب لله، فإذا سألته عن الله، لقال لك: ﴿... لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [سورة الشورى, ١١]، فهو بفطرته يعرف أن هذه هي الآية الحاسمة في مسألة صفات الله، وأن كل ما خطر ببالك فالله يعلو ذلك، ونسمع العوام يقولون دوما: الكمال لله وحده.

فبالله عليكم: ماذا يريد الله عز وجل منا بعد ذلك، هل يريد منا أن نقر أن الصفات هي عين الذات أم غير الذات وهل هي زائدة عن الذات، وكيف يكون التوحيد مع وجود الصفات[132] هل نجعلها عدما أم نؤولها أم نعطلها؟.

لا يريد الله منا أكثر من إيمان هؤلاء العوام، فلو حاولنا أن نزيد عنه فسندخل في متاهات لن تقدم أو تؤخر، ولن تزيد في إيمان المرء قدر أنملة، فأنا استشعر القرب من الله والأنس به من خلال تلاوتي للقرآن، من القرآن فقط ومن الفهم المألوف المباشر

---

[131] إذا كان من الممكن وقوع العوام في التجسيم، فاللوم ليس بكبير، ولكن المشكلة في السادة العلماء الذين يزلون زلات وهم عنها غافلين، على الرغم من كونهم علماء، ونضرب نموذجا على هذا، بآية أساؤا إلى الله بقولهم وهم لا يشعرون، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [سورة غافر, ٣١]، فالله تعالى يقول "وما الله يريد" وهم يقولون "وما يريد الله". قد يبدو للقارىء أن الاختلاف ليس كبيرا أو لا يوجد إختلاف من الأساس، ولكن في الواقع هناك إختلاف كبير، فمعنى "وما الله يريد ظلما" أن غير الله يريد ظلما للعباد، فهنا نفي للجملة الإسمية التي تفيد الدوام، وهنا نفينا ظلم العباد عن الله بصفة دائمة لأن الظالم غيره، أما الجملة التي قالها المفسرون أثبتت لله ظلما غير هذا الظلم، فإذا قلت: "ما يريد الله ظلما للعباد"، يتبادر إلى الذهن مباشرة سؤال: وما الظلم الذي يريده الله إذا؟، وهذا مستحيل على الله تعالى وننزهه عن صدور الظلم منه على أي حال ولأي مخلوق، لذا نقول "وما الله يريد" غير "وما يريد الله" ولينتبه العلماء إلى ما يقولون، وليبدأوا بأنفسهم.

[132] لاحظ عزيزي القارىء أن الله ورسوله لم يستعملوا مع الذات الإلهية كلمة *الصفات*، بل استعملوا كلمة "اسم" أو "الأسماء" فقط.

له، وما شعرت قط أن قراءة كتاب في العقيدة تقدم أو تؤخر، ولينظر أي منا إلى حال علماء الكلام الذين اقتحموا هذا الباب، هل وصل أي منهم إلى شيء أكثر مما قاله القرآن ويعرفه العوام؟ لا ورب الكعبة فلقد عاد كل منهم حسيرا تائها حائرا، فهذا حال العلماء فما بال العوام.

لقد أتت العقيدة ثمارها عندما كانت العقيدة تؤخذ من القرآن ومن الرسول، ولم تكن تُلقن أو تعلم كمادة أو علم فهذا لا يقبل، وعلى الرغم من الخلاف الكبير بين الصحابة والتابعين في المسائل الفقهية، لم ينقل عنهم أنهم اختلفوا أبدا في مسألة من مسائل علم التوحيد أو الكلام الذي ظهر فيما بعد، لأنهم كما أرى كانوا أفهم لطبيعة اللغة من عباقرة البلاغة الذين أتوا فيما بعد، فلقد فهموا بالسليقة أن المعنى يُحدد من خلال السياق، وأنه لا يوجد شيء اسمه "الحقيقة المجسمة" و"المجاز المعنوي"، فالحقيقة يمكن أن تكون مادية أو معنوية، ففهموا بكل سهولة العقيدة الإسلامية وآتت ثمارها معهم.

فلم يختلفوا مثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [سورة الفتح, ١٠]، ولم يقولوا: ليس المراد من اليد هنا الجارحة، فالله لا يمكن أن يكون له يد لأنه غير مكون من أجزاء، إذا فاليد تعني القدرة! أو أن اليد هنا مجاز مراده كذا وكذا، لقد فعلوا الصواب ففهموا المراد من الآية وفوضوا فيها إلى الله عز وجل، فالله أحد –وليس واحد– فلا يمكن أن يكون له أجزاء، والله ليس كمثله شيء، فلا بد أن تكون اليد بخلاف كل ما خطر ببالك، ولا يمكن أن تكون اليد هنا بأي حال بمعنى القدرة، فالسياق لا يتحدث عن القدرة بأي حال، فالآية تدور حول المبايعة وتقول: ﴿... ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ۝١٠﴾ [سورة الفتح, ١٠]، ففي الآية صورة بلاغية حقيقية رائعة، حيث تصور أن المؤمنين يبايعون محمد يبايعون الله، وهذا حقيقة وليس مجازا، ولكن لما كانوا وكنا لا ولن نستطيع أن نعرف ما مدلول "يد الله"، مهما حاولنا أن نتصور ونتخيل، وجب علينا أن نفهم الصورة البلاغية في الآية ولا

نتعب أنفسنا بالبحث عن مدلول الكلمة، فهذا بحث لا طائل من وراءه إلا تعب وتيه، وفي النهاية تعود كليلا حسيرا، فلا تقحم نفسك في ما لن تصل إليه مهما حاولت، واتبع الطريقة السليمة في فهم النصوص، فاليد ليست حقيقة في الجارحة مجاز في غيرها، ف "اليد" لها مدلولات كثيرة كلها على وجه الحقيقة ويظهر المعنى من السياق، ولا تعتقد أنه بسبب كثرة استعمالنا لمعنى محدد أنه هو الحقيقة والباقي مجاز، فهذا هراء، ولا تنس كلامنا عن الاعتباطية.[133]

إذا فالآيات التي تنجيك من التجسيم مجموعة في قوله تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى ,١١] و﴿"قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الإخلاص ,١]، وعقيدة الأسماء الحسنى الواجبة لله التي يسمونها الصفات الواجبة لله مجموعة في قول العوام "الكمال لله وحده"، أما تقسيم الصفات إلى صفات ذاتية (القدم والوحدانية والمخالفة للحوادث والبقاء والقيام بالنفس) وصفات معنوية (الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر) وصفات خبرية، فهذا كما قلنا نافع لطلبة الفلسفة، أما لمن يريد الإيمان فهي لا تقدم ولا تؤخر. ونحن نقول هنا كما قلنا عند الحديث عن التأصيل الفقهي، أن السنة لا تؤصل عقيدة غير موجودة صراحة في القرآن، فإذا كانت لا تستقل بالتشريع، فهل تستقل بأمور العقيدة؟!

ونحن نعرف أن هذا القول سيثير علينا الاعتراضات أكثر من غيره، فمن الممكن أن يقبل العلماء الخلاف في المسائل الفقهية، أما المسائل العقيدية ففيها الكثير من الحساسيات، فكل فرقة ترى أن ما عندها من الأحاديث والروايات هو الصواب،

[133] للنظرية القصدية فهم آخر في هذه الآية: (يد الله) هي نسبةٌ كقولك: (رسول الله). وقد حدث التباسٌ في الآية عند الاعتباطية. فاليد هنا خارجةٌ بالدال من ذاته تعالى وليس منشأها ذاته لأن ذاته تعالى غير متعدّدة و(حرف) الياء هو من طبيعة الموجودات. ولمّا نسبت اليد إلى الله أصبحت يداً مطلقةً في التصرّف بالموجودات فهي تأخذ قوّتها من الممكنات جميعاً وتندفع ب(حرف) الدال فهي يدٌ مخلوقةٌ وخلقٌ من خلق الله. ولكي تحدث المقارنة التامّة مع (أيديهم) فهي يدٌ بشريةٌ آدمية ونسبتها إلى الله هي مثل النسبة في قوله تعالى: (أرض الله واسعة)، (ناقة الله) وقوله تعالى: (رسول الله). فهل عجزت الاعتباطية عن إيجاد مخرجٌ لهذه النسبة كهذا المخرج حتى استمرت تتناقش طويلاً في مجازية هذه النسبة؟ كلا.. فالاعتباطية فرحةٌ بما تكتشف من مجازات، إن لم تكن فرحةً بتجسيم الإله الأحد الفرد الصمد سبحانه وتعالى عمّا يصفون." اهـ

والعقيدة القويمة التي فيها النجاة، وأنهم هم الفرقة الناجية ومن خالفهم قدر أنملة، فهو في...!

نماذج لبعض مسائل العقائد الخلافية

لذا سنقوم في هذا الباب بمناقشة بعض المسائل التي ألحقت بالعقيدة، فكما رأينا أن مسائل العقيدة الأساسية في القرآن لا تحتاج إلى كثير حديث، فيكفي فيها أقل القليل، فهي مطابقة لما في قرار الإنسان: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٢]

وإذا احتاجت العقيدة إلى توضيح وشرح مثل عقائد الديانات الأخرى، فاعلم إما أنها غير ذات صواب، أو أنها ألحق بها ما ليس منها. لذا سنمر مرور الكرام على بعض هذه المسائل لنرى هل كانت تستحق أن تدرج في مسائل العقيدة؟

وسناقش بعض المسائل الموجودة عند السنة وعند الشيعة والملحقة بالعقيدة، فهما أكبر فرقتين موجودتين الآن على الساحة الإسلامية، وسنحاول في اختيارنا للموضوعات التي نناقشها أن تكون ذات علاقة وتأثير في واقعنا، لا أن تكون من المسائل التي لا تقدم أو تؤخر في حياة المسلمين، لذا سيكون حديثنا في هذا الباب عن:

عن مسألة الإمامة عند الشيعة.

وعن وعيد الله للعصاة، هل هو لازم أم يجوز تخلفه؟

وعن عودة المسيح ومجيء الدجال.

وقد يرى البعض أن الحديث عن بعض هذه المسائل غير ذي بال، ولكنه سيجد أن لها دورا كبيرا في فهم الإنسان لواقعه، وكيفية السير في هذه الحياة.

الإمامة عند الشيعة

من المعلوم أن الخلاف الرئيس بين السنة والشيعة هو أصل الإمامة، فأهل السنة ينكرون أن تكون هناك وصية إلهية لأي شخص بعد النبي(ص)، ولكن الشيعة يصرون على وجود هذه الوصية، وأن النبي(ص) أوصى لعلي رضي الله عنه بالاسم وللأئمة الاثني عشر بعده ولكن الصحابة خالفوا ذلك عمدا واختاروا أبا بكر! والعمدة في مذهب الشيعة هو الروايات التي صحت عندهم في نصب علي إماما، فحملوا الكثير والكثير من آيات القرآن على هذا المعنى، فيه وفي أهل البيت.

وكما قلنا ونقول مرارا وتكرارا يتحتم أن تكون العقيدة صريحة في القرآن، ولا يمكن أن تكون إشارة أو تلميحا، فيأخذ الناس عقيدتهم من القرآن وتؤيد السنة هذه العقيدة. إذا فعقيدة الشيعة في الإمامة باطلة بداهة، ولكن المشكلة أن الشيعة رتبوا على هذه الروايات أصلا من أصول الدين وهو الإمامة، وجعلوها من الأهمية بمكان في العقيدة، ويقولون في حقها: "وأصول العقيدة أو أصول الدين عند الإمامية أربعة: ثلاثة منها يعتدونها أصول دين وهى: التوحيد والنبوة والمعاد، وواحد أصل مذهب، وهو: الإمامة بمعناها الخاص الذى يعنى الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر، ويرتبون على هذا:

1- أن من يؤمن بأصول الدين الثلاثه (التوحيد والنبوه والمعاد) يُحكم عليه بأنه مسلم، وأنه مؤمن ولكن بالمعنى العام للإيمان الذي هو مرادف لمعنى الاسلام، وأن له ما للمسلمين من حرمه دمه وماله وعرضه وطهارته وحلية ذبيحته وصحة نكاحه وطلاقه والخ، وأن عليه ما على المسلمين.

2- أن من لا يعتقد بأصول الدين الثلاثه كلها أو بعضها يحكم عليه بالكفر.

3- أن من يؤمن بالإمامة الخاصة (وهى إمامة الأئمة الاثنى عشر) يُحكم عليه بالإسلام والإيمان بمعناه الخاص الذى يعنى أنه إمامى اثنى عشرى.

4- أن من لا يعتقد بالإمامة الخاصة يحكم عليه بالإسلام إلا أنه لا يحكم عليه بأنه مؤمن بالمعنى الخاص للإيمان"اهـ[134]

ويرون أن الإمام لا بد أن يكون منصوصا عليه، وهم اثنا عشر إماما عند الشيعة مذكورين بالنص، وهم:

1- على بن أبى طالب ت 40هـ.

2- الحسن بن على ت 50هـ.

3- الحسين بن على ت 61هـ.

4- على بن الحسين زين العابدين ت 94هـ.

5- محمد بن على الباقر ت 114هـ.

6- جعفر بن محمد الصادق ت 148هـ.

7- موسى بن جعفر الكاظم ت 183هـ.

8- على بن موسى الرضا ت 203هـ.

9- محمد بن على الجواد ت 220هـ.

10- على بن محمد الهادي ت 254هـ.

11- الحسن بن على العسكري ت 260هـ.

12- محمد بن الحسن المهدي ت 255هـ، ولا يزال حيا فى فتره غيبته الكبرى!

---

(134) الدكتور عبد الهادي الفضلي، مذهب الإمامية.

واستدل الإمامية على إمامة هؤلاء الأئمة الاثنى عشر بنصوص وردت في كتب الحديث، تضمن بعضها النص على الاثنى عشر، وبعضها النص على كل فرد بخصوصه. كما يستدلون على إمامة علي رضي الله عنه بنصوص قرآنية منها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [سورة المائدة, ٥٥]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [سورة المائدة, ٦٧]، و﴿... قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾ [سورة الشورى, ٢٣]، و﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ [سورة آل عمران, ٦١]، و﴿... قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [سورة البقرة, ١٢٤]، و﴿... إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ [سورة الرّعد, ٧]، و﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [سورة التحريم, ٤]، و﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [سورة الأحزاب, ٣٣]

هذه هي أهم الآيات التي يستدلون بها على إمامة علي رضي الله عنه، والناظر فيها يجد أنها لا تشير من قريب أو بعيد لعلي رضي الله عنه، ولولا أسباب النزول –التي أوضحنا غنى القرآن عنها–، ما قال أحد في هذه الآيات هذا القول. والعمدة في فهم الآيات كما قلنا السياق وليس أسباب النزول، والسياق في هذه الآيات يجعل أنه يكاد يكون من المستحيل أن يكون المقصود بالآيات ما يستدلون به، ولن أعلق على الآيات وسأترك القارىء يقرأ الآيات ويتدبر، ليرى هل المراد منها ما يقولون أم أنها آيات عامة مدلولها الأول بعيد عما يقولون. ويستدلون على ما يرونه بروايات من السنة يصححونها، ويضعفها أهل السنة أو يحملونها على غير ما يذهبون إليه، ولن ندخل

نقاش هذا الروايات متنا أو سندا، بل نقول بكل سهولة: على فرض صحة هذه الروايات فمن الممكن حملها –على المعنى الذي يقول به الشيعة– على أنها كانت من باب السياسة الشرعية وليست من الأوامر الإلهية، فما دام ليس لها أصل صريح في القرآن فلا نعول عليها كأمر إلهي، ولا ننسى أن القرآن ذكر "أبا لهب وزيدا" بالاسم في القرآن، فلم لم يذكر عليا كذلك؟ كان هذا سيحل مشاكل كثيرة جدا، اللهم إلا إذا قال الأخوة الشيعة أن هذه الآيات مُحيت، وأنا أعتقد أن هذه المقولة[135] قد انتهت تماما في تاريخ الشيعة ولم يعد هناك من يقول بها هذه الأيام إلا بعض المشايخ في بعض القرى!!

وبالرغم مما يذكره الإماميون من نصوص حول تعيين النبي(ص) للإمام علي بن أبي طالب خليفةً من بعده، إلا أن تراثهم يحفل بنصوص أخرى تؤكد التزام الرسول الأعظم وأهل البيت بمبدء الشورى وحق الأمة في انتخاب أئمتها، وبالرغم من وضوح موقف أهل البيت من دعوى العصمة، وتأكيدهم على الطبيعة البشرية العادية، واستغفارهم لله فإن الشيعة حاولوا الالتفاف على ذلك وقاموا بتأويل الروايات الثابتة والنافية للعصمة، بأنها صادرة عن الائمة في مقام التعليم لعامة الناس، أو أنها صادرة تقية، وقاموا إلى جانب ذلك برواية مجموعة من الروايات التي تدعي العصمة بصراحة وتشترطها في الإمام أو الأئمة من أهل البيت، وهي روايات ضعيفة وغامضة وغير ذات دلالة. والمتتبع لعقيدة الشيعة في هذه المسألة يرى فيها تخبطا عجيبا حتى يستطيعوا الاستمرار عليها، وترتب على القول بالإمامة الإلهية وحصرها في الاثني عشر إماما بالقول بأشياء عجيبة منها الإمام الذي لا يزال حيا منذ أكثر من ألف عام!!، وينتظرون عودته!

---

(135) لا بد من الإشارة أن عقائد الشيعة قد مرت بمراحل متعددة وانتقلت من طور إلى آخر، وكل هذا حسب الظروف السياسية المحيطة، فلما كانت الأمة الإسلامية في عهد الرسول الأعظم(ص) وبعد وفاته وخلال العقود الأولى من تاريخها تؤمن بنظام الشورى وحق الأمة في اختيار ولاتها، كان أهل البيت في طليعة المدافعين عن هذا الإيمان، والعاملين به، وعندما أصيبت الأمة بتسلط الحكام الأمويين بالقوة، وتداولهم للسلطة بالوراثة، وإلغائهم لنظام الشورى، تأثر بعض الشيعة الموالين لأهل البيت بما حدث فقالوا رداً على ذلك بأحقية أهل البيت بالخلافة من الأمويين، وضرورة تداولها في أعقابهم، ولكن هذه النظرية لم تكن نظرية أهل البيت أنفسهم ولا نظرية الشيعة في القرن الأول الهجري.

والعبرة في العقائد بمناسبتها للعقل، ولما كانت هذه العقيدة عجبا لا يترتب عليها كفر وإيمان، ولكن يترتب عليها عمل، فتعتبر بمناسبتها للواقع، والواقع يشهد أن نظرية الإمامة الإلهية لا تصلح للواقع، والذي يصلح وينادي به كل العالم الآن هو الذي جاء في القرآن منذ قديم الزمان، وهو المبدأ القويم السليم العظيم، ألا وهو الشورى.

إذا وكما رأينا فإن العقائد التي لا أصل لها في القرآن لا يكتب لها الاستمرار إلا بال...، وها هي نظرية الإمامة الإلهية كنموذج متخبط غير منطقي، وها هي الجمهورية الإيرانية تأخذ بالشورى –المبدأ القرآني–، وتركت النظام القديم ولو كان الفكر السياسي الشيعي القديم (الإمامي) يقبل بنظرية (الشورى) من قبل أو يؤمن بنظرية (ولاية الفقيه) لما كان بحاجة إلى افتراض وجود (الإمام المعصوم: محمد بن الحسن العسكري) بالرغم من عدم وجود أدلة تاريخية تثبت ذلك، ولما كان بحاجة بعد ذلك إلى القول بنظرية (التقية والانتظار) ثم افتراض (النيابة الواقعية) أو (النيابة العامة) لحل إشكالية تعطيل الحدود والجوانب الاقتصادية والسياسية وتحريم إقامة الدولة في (عصر الغيبة). أما وقد آمن الفكر السياسي الشيعي المعاصر بنظرية (ولاية الفقيه) فهو مطالب بإقامتها على أساس (الشورى) وحق الأمة في السيادة على نفسها وإدارة شؤونها بنفسها. إذ أن إقامة نظرية (ولاية الفقيه) على أساس (النيابة العامة للإمام المهدي) يتناقض مع أساس نظرية (الغيبة) وفلسفة وجود (الإمام المعصوم)، فضلا عن ضعف نظرية (النيابة العامة) وعدم اعتمادها على أدلة كافية.[136]

فانظر عزيزي القارىء كيف أن التمسك بالعقائد، التي لا أصل صريح لها في القرآن يؤدي إلى التخبط والحيرة، وأن الإصرار عليها وتصحيحها يؤدي إلى طوام أكبر، فبسبب اعتقاد الشيعة بالإمامة الإلهية أدى ذلك إلى عزلتهم عن باقي المسلمين، ومن أجل الدفاع عنها وعن فكرة الأئمة المعصومين، ظهر عندهم أقوال في منتهى العجب؛ من قول برجعة الأئمة ومن قول بغيبة كبرى يعود فيها الإمام بعد آلاف السنين، والله

---

[136] الكلام عن تطور الفكر الشيعي منقول بتصرف شديد من كتاب "تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه" للأستاذ: أحمد الكاتب.

أعلم متى يعود! إلى قول بالبداء، ومن تعطيل للحدود والشرائع حتى عودة الإمام، إلى ولاية الفقيه، وكل هذا بسبب عقيدة واحدة حاولوا تأصيلها، فأضافوا وحذفوا وعطلوا جملة من الأمور الأخرى الصحيحة المطلوبة.[137]

عودة المسيح

تعتبر الملحمة التي ستحدث قبل الساعة، من المسلمات التي يقول بها كثير من المسلمين، وهذه الملحمة تتلخص في خروج شخص أعور، ذو قدرات هائلة خارقة فيفسد في الأرض ويدعي الألوهية فيتبعه اليهود، فيخرج له المهدي المنتظر لقتاله، ثم ينزل له المسيح فيقتله، ويقاتل المسلمون اليهود فيقتلونهم، وتعيش الأرض بعد ذلك في سلام، وتخرج الأرض بركتها، حتى أن الجماعة من الرجال ليأكلون الرمانة وترعى الشاة مع الذئب!

هذا هو المختصر المفيد لهذه الملحمة الأسطورية لآخر الزمان، وهذه الملحمة ينتظرها أهل الكتاب أيضا، مع فارق بسيط وهو أن المسيح عليه السلام عندما ينزل سيكون في صفهم وليس في صفنا، فينزل في فلسطين ويؤسس الألفية الجديدة السعيدة، وهذه الملحمة اشتهرت في الأيام الماضية، وظهر اسمها وأصبح معظم المسلمين يعرف "هرمجدون"، وما كان يسمع عنها ويعرف بها قبل ذلك إلا المتخصصون، وذلك كله بسبب كتاب ظهر في مصر، تكلم بكل تدجيل عن هذه

[137] لا بد من الإقرار أن أهل السنة أخطأوا أيضا في حق أهل البيت كثيرا، فنحن لا نعرف عنهم شيئا تقريبا إلا أسمائهم، هذا إذا كنا نعرفها! فلا نعرف تاريخهم ولا إسهاماتهم في التاريخ الإسلامي. وأنا أرى أن هذا التعتيم كان بسبب مواقفهم من الحكام في زمانهم، ولكن ما الضرر في تعريف السنة بتاريخ أهل البيت وفضائلهم، فلقد كانوا علماء فاقوا وسبقوا غيرهم مثل الإمام جعفر الصادق، الذي نُسب له المذهب الجعفري، وكانوا كذلك عبادا زهادا، فلم هذا العماء والتخفية على تاريخهم. فنرجوا من علماء السنة الأفاضل الاهتمام بشكل أكبر بتاريخ أهل البيت وتعريف الناس بأحفاد نبيهم، فالحق يقال لقد أهملناهم أشد إهمال، ولعل هذه الخطوة تكون خطوة تقارب مع الأخوة الشيعة.

المسألة، فتصدى العلماء له. ولكن ما يهمنا في هذه النقطة هو: هل يعد نزول المسيح وظهور المهدي وقتال الدجال من عقيدة المسلم؟!

يرى علمائنا الأفاضل أن نزول المسيح والدجال والمهدي المنتظر من أشراط الساعة المنقولة بالتواتر!، والتي يجب على كل مسلم أن يسلم بها، فنجد على سبيل المثال في كتاب اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، ما نصه: "قال القاضي عياض: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حُجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى: من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ثم يعجزه الله تبارك وتعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره؛ فيبطل أمره ويقتله عيسى صلى الله عليه وسلم، ويثبِّت الله الذين آمنوا. هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافا لمن أنكر وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة".اهـ

ولنا أن نسأل: إذا كان ذلك من عقيدة المسلم، فلم لم يذكر أي شيء منها في القرآن؟ ثم ألا يتعارض هذا مع مجيء الساعة بغتة؟ فإذا ظهرت هذه العلامات، فينفي هذا مجيء الساعة بغتة؟! وهذا يجرنا إلى الحديث عن أشراط الساعة، وهل لها علامات كبرى كما يدعي علمائنا الأفاضل؟ إذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه لم يعرض لأي أشراط للساعة، بل يتكلم عن إنقضاء أشراط الساعة الكبرى، فيقول: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾ [سورة محمّد, ١٨]

فالشرط الأعظم للساعة جاء مع بعثة النبي الأكرم(ص)، فهذا أكبر دليل على مجيء الساعة وهو بعثة النبي(ص)، أما الأحاديث الواردة عن المسيح المنتظر وعن خروج المهدي المنتظر والدجال فروايات مأخوذة كلها عن أهل الكتاب. وأصل هذه الروايات

والنبؤات كانت في النبي(ص)، فمن المعروف أن التوراة والإنجيل بشرا بالنبي الخاتم، وأعطياه أسماءا عديدة من بينها المخلص والنبي والمهدي والمسيح والمسيا، ومع مجيء الإسلام، وظهوره على غيره من الأديان، كما وعد الله في كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾]سورة التوبة ,٣٣[، دخل اليهود والنصارى في دين الله أفواجا، فمنهم من آمن بقلبه ومنهم من أظهر الإيمان وأخفى الكفر، ومع فتح باب قبول الروايات كمؤصل منفرد للعقائد، أخذ هؤلاء في دس عقائدهم، وخاصة لما رأوا أن القرآن يقول بما يشبه عقيدتهم، فقالوا بمجيء المسيح في آخر الزمان، ولما كانوا لا يستطيعون أن يظهروا عقيدتهم، قالوا أن المسيح سيأتي ناصرا للإسلام، وقالوا بخروج الدجال وظهور المهدي المنتظر، وكل هذه نبؤات موجودة في كتبهم وتحققت ببعثة النبي(ص)، فقد جاء نبي آخر الزمان المسيا محمد المهدي المخلص، وحارب الشرك والمشركين، وظهر دينه على الدين كله، وحدثت الواقعة الشهيرة هرمجدون في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذه الواقعة هي قتال الروم في واقعة اليرموك، وانتصر فيها المسلمون على الكفار من النصارى، وبذلك تحققت النبؤة الواردة في التوراة كاملة.

ولكن لما كان اليهود والنصارى الذين دخلوا في الدين لم يقتنعوا به، فلبسوا على المسلمين دينهم، وأوهموهم أن المسيح سيأتي وأن المعركة الكبرى ضد الكافرين لم تحدث بعد، وهم يأملون ذلك، أن يعود المسيح فيحررهم. لقائل أن يقول: هذا كلام إنشائي جميل، فأين الدليل؟ نقول: الدليل على ما نقول واضح في القرآن، ولكي نفند هذه العقيدة لا بد من إثبات أن المسيح عيسى عليه السلام قد مات ولم يرفع حيا كما يعتقد العلماء الأفاضل، فإذا أثبتنا ذلك انهار هذا الذي يقولون به[138].

(138) لا بد من التذكير أن نظرية المخلص المنتظر أو الرجعة ليست نظرية جديدة بل هي موجودة منذ قديم الأزل، فنجد أن المصريين قالوا بالرجعة مع إيزيس وأوزوريس، وفي بلاد الرافدين قيل بذلك مع تموز وأدونيس، والفرس قالوا بذلك مع ساوثيان، والرومان مع المخلص السوتري واليهود مع الملك المسيح والنصارى قالوا بذلك مع الرجعة الثانية للمسيح لقيام مملكة الرب،

الأدلة على موت المسيح

إذا نظرنا في القرآن وجدنا أن "عيسى" عليه الصلاة والسلام ذُكر في القرآن خمس وعشرون مرة، ولم يحدث في أي منها إشارة إلى أنه مختلف عن باقي الأنبياء، باستثناء ميلاده الخارق، والقول الفصل في شأن المسيح هو وفاته، فهل قال القرآن بوفاة المسيح؟ نجد أن القرآن قال ذلك بكل صراحة وفي أكثر من موضع، ولكن العلماء كعادتهم أولوا القرآن الظني الدلالة من أجل الروايات قطعية الدلالة!، والآيات هي: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٥]، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المائدة, ١١٧]، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة مريم, ٣٣]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ[139] ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٣٤]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٤٤]

فهذه آيات واضحة الدلالة على أن المسيح ابن مريم توفاه الله، ولكن لما كانت الروايات تقول شيئا آخر، أولوا معنى الوفاة، فقالوا: ليس المراد من التوفي هنا الموت! ولكن المراد من التوفي هنا الإستيفاء أي أن الله أخذ المسيح كاملا، وقالوا في قوله تعالى: ﴿... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ... ﴿٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٥]، هنا تقديم

وعند الإنجليز الملك آرثر وعند الأسبان روذريق وعند البرتغال دون سيبستيان، وكان مهدينا هو النبي(ص)، ثم بدأ بعد ذلك إختلاق المهادي مثلما ادعت الكَيْسانية والمُخْتارية في محمد بن الحنفية العلوي، والإسماعيلي السُّبْعي، والموسوي الإحدى عشري، والعبّاسي، والحسني النفس الزّكية والسفياني الصَّخْري! والقحطاني اليَمَني..والحمُّودي الإدريسي..الخ

[139] الخلد معناه المكث الطويل، ولا يراد به التأبيد، والدليل على ذلك هو قوله تعالى "خالدين فيها أبدا"، فلو كان الخلود يفيد التأبيد لما كان هناك حاجة لقوله "أبدا".

وتأخير والمراد[140] "رافعك إلي ثم متوفيك"، وقالوا أن عيسى لم يخلد بل ظل ما يزيد عن ألفي عام فقط! ولست أدري إذا لم يكن هذا خلودا فماذا يكنه؟! وقالوا أنه نزع منه مقام النبوة ومنهم من قال أنها باقية.

والرد على السادة العلماء هو بالقول أن الآيات تقول شيئا غير الذي يقولونه، فالتوفي في هذا السياق يستحيل أن يكون له معنى آخر غير الموت أي توفي الأنفس. وأنا أتحدى أن يأتي علمائنا الأفاضل بدليل من اللغة أو من السنة أو من القرآن على أن "التوفي" إذا كان من الله وبغير تخصيص بنوم أو ليل والمتوفى بشر، ويكون بمعنى غير الموت؟ لا يوجد دليل على ما يقولونه في اللغة، ولا في العقل ولا في المنطق، فاللغة والعقل والسياق يُحتمون أن يكون المعنى هنا هو الموت وليس ما يقولون.

وأما قولهم بالتقديم والتأخير فتقول على الله بغير دليل، فلم أخر الله ما كان ينبغي أن يقدمه؟ فهذا الدليل يخالف ما يقولون به، وهم لا يرون أن الخلد معناه المكث الطويل فقط بل معناه التأبيد، أما هناك عند الحديث عند خلود أصحاب الكبائر في النار فيجعلونها بمعنى المكث الطويل، ولست أدري بأي قوليهم نأخذ؟! ووقعوا بسبب ذلك في مأزق، بقولهم بوجود نبي بعد النبي(ص)، وهذا القول يخالف قوله تعالى: ﴿... قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ... ﴿٧٥﴾﴾ [سورة المائدة, ٧٥، فكيف ذلك وعيسى لا يزال حيا؟ إذا فهذا القول بعيد كل البعد عن القرآن ولكنهم كالعادة يؤولون، فالقرآن تحدث عن وفاة المسيح وفاة طبيعية، ولم يذكر شيئا غير ذلك. قد يقول قائل: ولكن الله تعالى قال: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء, ١٥٨]، فهذا دليل على حدوث الرفع. نقول: ومن قال أننا ننكر الرفع، فلقد قال الله قبل ذلك: ﴿... إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ... ﴿٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٥]، فتحمل هذه على ذلك، فيكون الرفع بعد الوفاة وليس قبله، ولكن فهم هذه الآية مرتبط بالآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة

[140] أنظر إلى سعة علم علمائنا، فهم يعرفون أن الله لم يرد ما قال، بل أراد شيئا آخر.

النساء ,١٥٧]، وفُهمت هذه الآية فهما مقلوبا لتتبع الروايات، فنجد في تفسيرها العجب العجاب، حيث ورد فيها العديد من الروايات المتعارضة نورد منها ما ورد عند الامام الطبري في الجامع، حيث قال ما نصه: "حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب القميّ عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه، قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت وأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صوّرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزنّ لنا عيسى أو لنقتلَنّكم جميعا فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا. فخرج إليهم فقال: أنا عيسى وقد صوّره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثمّ شُبّه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك" اهـ

ولا بد لنا من وقفة مع هذه الآية بالذات حيث أن هذه الآية سبب للغط من الكثير من النصارى الذين يسخرون من أن يكون هناك إلقاء لشبه شخص على آخر ويقولون أن هذا لا يمكن أن يحدث بأي شكل من الأشكال، فهذا يخالف المنطق وفيه إبطال لكل حقائق الدنيا، ويقولون محمد لم يشاهد ما حدث، فكيف يدعي حدوث شيء خالفه في ذلك الكثير والكثير من الشهود؟!

بادئ ذي بدأ لا بد من التنبيه على أن القرآن لم يقل بنظرية إلقاء الشبه هذه، بل كانت موجودة قبل بعثة النبي(ص)، ولما جاء القرآن وقال "شبه لهم"، ظن الناس أن القرآن يؤيد هذا القول، والواقع أن القرآن ما قصد هذه النظرية، فهو لم يقل "شبه به"، بل قال "شبه لهم"، وهناك فارق كبير بين الإثنين يغير المعنى تماما، نوضحه بمثال: عندما نقول: محمد كالأسد، فهذه الجملة تعني أن محمد أصبح يشبه الأسد في الشجاعة والإقدام، إذا محمد مشبه والأسد مشبه به، فيمكنني أن أقول "شبه محمد بالأسد".

ونظر في النص القرآني لنعرف هل قال بهذا: يقول الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة النساء ,١٥٧]: الحديث هنا عن

اليهود الذين يفتخرون بقتلهم عيسى ويسخرون منه، "وما قتلوه" الضمير هنا يعود على عيسى بداهة، "وما صلبوه" الضمير أيضا يعود هنا على عيسى. ثم يقول تعالى "شبه لهم"، وعلى افتراض محذوف –طبعا نحن لا نفترض أي محذوفات في التعامل مع النص القرآني–، فيكون معنى الآية شبه لهم المسيح بشخص آخر.

إذا فالنص القرآني –على هذا الفهم– يقلب الرواية تماما فهو يفترض أن المسيح هو الذي أصبح يشبه شخص آخر، لا أن شبه المسيح ألقي على آخر، وعلى حد علمي لم يقل أحد قديما أو حديثا بهذا الرأي. أما إذا فهمنا النص القرآني كما هو، فيكون معنى "ولكن شبه لهم" واحد من اثنين: إما بمعنى التبس الأمر عليهم، أو يقال شبه لهم القتل والصلب فظنوا أنهم قتلوه وصلبوه بينما هو في الواقع لم يمت على الصليب، وهو نوع من الاشتباه أيضا.[141]

إذن فكل ما قاله النص أن اليهود الذين كانوا في شك من الموجود على الصليب، أوفي شك من موته على الصليب، والنصارى لا يمكن أن ينكروا صدور هذا الشك من اليهود، فقد ذهبوا إلى بيلاطس ليعين حرسا على المقبرة، التي دفنوا فيها المسيح لشكهم في موت المسيح على الصليب.

إذا فالنص القرآني لم يقل بها ولا يقول بها أي إنسان عنده منطق أو عقل، وللأسف ورّد الأجداد لنا النظرية في الماضي، ثم ينتقدنا الأحفاد بسببها في الحاضر. والسبب الرئيس في وجود اللبس في قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ... ١٥٨﴾ [سورة النساء, ١٥٨] هو وجود الرواية الإسرائيلية التي جعلت الرفع بعد الصلب أو النجاة

(141) هناك نظريتان في مسألة نجاة المسيح من على الصليب، أحدهما تقول: أنه وُضع على الصليب ونزل حيا، فهكذا لا يسمى مقتولا أو مصلوبا بل يسمى "مخلوبا"، ويقولون أن هذا مثل من يظل تحت الماء فترة طويلة ثم يطفو على السطح، فهذا لا يمكن أن يسمى غريقا، وكذلك من يعلق على حبل المشنقة لا يمكن أن يسمى مشنوقا حتى يموت، أما إذا تعلق برقبته في الحبل ولم يمت فهذا لا يسمى مشنوقا. والنظرية الأخرى: تقول أن الجنود الرومان عندما ذهبوا لأخذ عيسى لم يكونوا يعرفونه، فأخذوا واحدا من حواريه، وبعد الضرب والتعذيب الشديدين وضع على الصليب، وكان وجهه مغرورقا بالدماء فلم تكن ملامحه واضحة، لذا كان الشك من اليهود في الشخصية الموجودة على الصليب هل هو عيسى أم آخر، وهناك من يرى من أنصار هذه النظرية أن بيلاطس هو الذي هرّب عيسى لأنه لم يكن يريد أن يؤذي هذا الطاهر، وافتداه أحد حواريه، وصُلب مكانه بنفس السيناريو السابق.

من الصلب، ولكن لا يوجد في النص القرآني ما يشير إلى زمن الرفع، والذي نراه والله أعلم سببا في ذكر هذه الآية عقب السابقة هو الرد على اليهود، الذين يقصدون بهذا، التكذيب بأن عيسى رسول، فكما جاء عندهم في التوراة أن النبي الكاذب يقتل، وأن الذي يصلب ملعون، فأرادوا بذلك القول أن عيسى كاذب وملعون وليس برسول بدليل صلبه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ... ١٥٨﴾ [سورة النساء, ١٥٨] فهو من المكرمين المقربين وليس من الملعونين –أي المطرودين من رحمة الله– المفترين.

إذا فلا دليل في الآية على حياة المسيح بل هي تشير فقط إلى رفعته. ولا بد من التعريف أن الإمام ابن حزم رد هذه الروايات المتهافتة المأخوذة عن أهل الكتاب، وقال بوفاة عيسى بن مريم،[142] ولكنه لا ينكر عودته مرة أخرى ويقول إن هذا سيكون بإحيائه مرة أخرى!! والأدلة القرآنية على موت المسيح كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا ٣١﴾]سورة مريم, ٣١[، فهل كان المسيح يزكي في السماء، فمن كان يعطي الزكاة؟ الملائكة!! لا أعتقد هذا!!

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾] سورة النحل, ٢٠-٢١[، ومن أكثر من عُبد من دون الله؟ إنه المسيح فأتباعه –الذين لم يأمرهم باتباعه– أكثر من مليار، فلا بد أن يكون عيسى ميتا وإلا يكون الخبر غير مطابق للواقع.

---

(142) هناك الكثير من العلماء الذين يقولون بموت عيسى عليه السلام منهم الإمام مالك وابن عباس في رواية عنه، ومن المحدثين الشيخ محمد الغزالي، والدكتور أحمد شلبي، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد عبده ومحمود شلتوت، شيخ الأزهر السابق، والأستاذ سيد قطب والدكتور أحمد حجازي السقا، وكثير غيرهم.

تعارض العودة مع أصول الدين

وكما رأينا فالقرآن يقول بموت عيسى ميتة عادية، فلم يبق إلا الاحتمال الذي ذكره الإمام ابن حزم، وأن ذلك يكون بإحيائه مرة أخرى، ويكون النزول بمعنى الحلول لا النزول من السماء، كما في قولنا "نزلت عليك ضيفا"، فهذا لا يعني أني نزلت من السماء، بل كل ما هنالك أني حللت عندك ضيفا. وحتى بهذه المحاولة فالقول مردود، ونبين كيف أن هذا القول –استنادا إلى الأصول القرآنية– متهافت أيضا:

1– لو قلنا أن الله سيبعث عيسى مرة أخرى ليؤيد هذا الدين، فما الفائدة؟ سيقول المؤيدون: حتى يظهر للنصارى أنهم كانوا على باطل. فنقول لهم: ولكن النصارى لن يقتنعوا أن هذا عيسى، وسيقولون: إن هذا دجال من المسلمين يدعي أنه عيسى، فكيف نقيم الحجة عليهم؟ ثم كيف نعرف أن هذا الشخص هو عيسى بن مريم؟ فقد يدعي أي شخص أنه عيسى ويرتدي الثياب الموصوفة في الحديث، وينزل فوق المنارة البيضاء شرقي دمشق، فما الدليل على أنه عيسى؟ هل سيقوم بعمل الآيات حتى نصدق أنه عيسى؟ إذن تكون البشرية قد ارتدت وانتكست على أدبارها، فلقد رفض الله أن يعطي جماعة من البدو آيات حسية منذ قرابة ألف وخمسمائة عام وطالبهم بالإيمان بالعقل، فهل نعود هذه الأيام للإيمان عن طريق الآيات الحسية؟!

2– الشرائع القرآنية شرائع ثابتة ومستمرة، والله أعطى الناس الحرية ليؤمنوا فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الكهف, ٢٩]، وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون, ٦] والحساب يوم الحساب، فما الذي طرأ حتى ينزل المسيح فيصادر حرية الناس في العبادة ويحملهم على دين معين ويحطم مقدساتهم؟ وما ذنب الخنزير حتى يُقتل؟ فليس معنى أن لحم الخنزير محرم أنه يقتل!

3- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [سورة محمّد, ٧] فالله ينصر من ينصره ويخذل من خذل دينه، فما المبرر لنصرة الأمة في هذه الضائقة بالذات، فلقد مرت بالأمة المصائب والكوارث نتيجة لإعراضها عن شرع ربها؟ وهي في هذه الحالة تستحق ما حل بها لأنها تركت أقوى أسلحتها، وبحثت لنفسها عن أسلحة أخرى، والروايات كما رأينا تصور الأمة في حالة بالغة من السوء، ثم ينزل المخلص من السماء فينصر الأمة، فلم تُنصر الأمة ما دامت تركت طريق ربها؟ فالأولى أن تترك حتى تفيء إلى طريق ربها.

4- القول بنزول المسيح أو وجود مهدي منتظر يعني أن شرائع الإسلام غير صالحة أو كافية، فلو كانت كافية لتسيير الأمة في كل وقت، فلم الحاجة إلى منقذ خارجي، ألا يكفي كل المسلمين؟ أو أن يهيأ الله لهم من ينقذهم ويهديهم من الأمة، لم الحاجة إلى منقذ "سوبر" من خارج الأمة؟

5- كيف سينزل المسيح عليه السلام؟ هل سينزل نبيا أم سينزل منزوع اللقب، أي أنه سينزل وهو ليس بنبي؟ إذا قال السادة العلماء أنه سينزل نبي فهذا يناقض قوله تعالى: ﴿... وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... ٤٠﴾ [سورة الأحزاب, ٤٠]، وإذا كان غير نبي، فما سمعنا أن نبي يُنزع منه اللقب! سيقول المؤيدون للنزول: سينزل نبيا تابعا، فلن يأتي بشرع جديد بل سيطبق الشريعة المحمدية، فهذا لا تعارض بينه وبين قوله تعالى "وخاتم النبيين". فنقول لهم: إذا قلتم بذلك، فلم كفرتم الجماعة الأحمدية "القاديانية"؟ فالفارق الرئيس بيننا وبينهم هو هذه الآية، فنحن نقول أن خاتم بمعنى الزينة والأخير، وهم يقولون أن "خاتم" إذا جاءت مضافة فهي تعني الزينة فقط، وعلى قولهم فالرسول هو زينة الأنبياء وأفضلهم، ولكن لا مانع من مجيء نبي آخر تابع للنبي(ص)، بمعنى أنه لا يأتي بشرع جديد بل يأتي بتوضيح ما أبهم وأشكل في القرآن

والسنة ويكون قوله هو القول الفصل.[143] فالسادة العلماء الأفاضل يكفرون هذه الجماعة لأنها فهمت هذه الآية نفس فهمهم أي وجود نبي تابع للشريعة الإسلامية، والفارق بينهم أن علمائنا قالوا أن هذا النبي هو عيسى نفسه، والأحمدية قالوا إنه شخص يشبه عيسى. إذا فالنقطة الرئيسة موجودة عند الفريقين؛ وهي الاعتقاد بوجود نبي تابع بعد النبي(ص)، لا يغير من شرعه شيئا بل يحكم بما أنزل الله، فلم صار علمائنا ملتزمون بالسنة وصار الأحمديون كفارا خارجين عن الملة؟!

6- هذا التصور لنزول المسيح وهزيمة الدجال مخالف لسنن الله في كونه، فلم ولن تكون هناك جنة على الأرض، فطالما أن هناك غل في القلوب سيكون هناك خير وشر في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الحجر, ٤٧]، أما أن نعتقد أن البشرية سيتدهور حالها ثم ينزل المسيح ويقابل المهدي المنتظر، فيغيران حال البشرية في أيام معدودات، فهذا ما لا يقبله عقل وما لا يكون إلا في الأفلام الأمريكية!! فالرسول الأعظم ظل سنوات طوال لكي يغير الناس، والله يقول: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة الرّعد, ١١]، فكيف سيغير المسيح حال هؤلاء الناس في أيام معدودات، فيصبح حالهم بهذه المثالية؟!

7- الحديث عن الأحداث التي ستقع مع نزول المسيح وظهور المهدي تدور بطريقة بدائية، فالقتال يكون بالخيول والسيوف، ويبرر المصدقون بهذه الأحاديث بقولهم: قد تحدث كارثة تؤدي إلى تخلف الأرض مرة أخرى، ويعود الناس للقتال بالسيوف والرماح. وهذا القول مردود بالقرآن، فإذا نظرنا فيه وجدناه يقول أن حال الأرض في آخر الزمان الذي يسبق الساعة والتي يفترض أن ينزل فيها المسيح والمهدي سيكون

[143] نلاحظ التشابه بين قول الشيعة بالأئمة المعصومين الذين يكون لهم القول الفصل وبين قول الأحمدية، أن المسيح والمهدي القادياني وظيفته هي الفصل فقط في الأقوال، -الأحمدية لا يقولون بالنسخ-، فهل وصل العقل المسلم إلى هذه الدرجة التي يحتاج فيها دوما إلى وصي؟ أم أن القرآن نفسه بهذا الغموض، غير مبين يحتاج إلى توضيح؟

قد بلغ تطورا عظيما، لا أن الأرض ستنتكس وتعود إلى التخلف، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس ,٢٤]. فالآية تقول بكل صراحة أن الساعة ستقوم عندما يظن الناس أنهم أصبحوا أرباب الأرض، والمسيطرين عليها والمتحكمين فيها، وهنا فقط يأتي أمر ربك، فكيف يجتمع التخلف كما في الروايات والتقدم الهائل كما في النص القرآني؟!

8- الاعتقاد بوجود علامات كبرى غير طبيعية للساعة ينافي المجيء المباغت للساعة، فالله تعالى يقول ﴿... لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ... ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٨٧]، ولو سألت أي مسلم من المؤمنين بعودة المسيح: هل يمكن أن تقوم الساعة غدا؟ سيقول لك: لا يمكن، لأن المسيح لم ينزل بعد، فهو في طمأنينة من قيام الساعة، على الرغم من أن الله يقول أنها ستأتي بغتة، ولكنه مطمأن أنها لن تأتي إلا بعد أشراط معينة، فما الدليل على أنه ليس من المخاطبين ب ﴿... لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ... ﴿١٨٧﴾﴾]سورة الأعراف ,١٨٧[؟!

إذا وكما رأينا فإن القول بعودة المسيح مرة أخرى يناقض أصول الدين والآيات القرآنية، وإذا ثبت أنه لن يعود فتصبح الروايات الواردة في حق المسيح الدجال والمهدي مردودة أيضا، لأن هذا التصور بناء مرتبط الأركان، إذا إنهار أحدها إنهار باقي البناء، ولكن حتى النظر في روايات الدجال بغض النظر عن سندها يوضح أنها مردودة ومتناقضة، ولها أكثر من طريق عن كعب الأحبار موقوفا عليه فيه نفس المضمون، وهذا يرجح أن الحديث نفسه مأخوذ عن أهل الكتاب. كما نجد في بعض الروايات أن الرسول يقول أنه من الممكن أن يخرج الدجال والرسول في الصحابة، وروايات أخرى تقول أنه سيكون في آخر الزمان، وسيكون هناك عيسى عليه السلام

ومهدي من نسل النبي(ص)، يوافق اسمه اسم النبي(ص)، فكيف يمكن التوفيق بين الروايتين؟ هل سيجتمع نبيان ومهدي في زمان واحد، فما أسعد هذا الزمان الذي اجتمع فيه هؤلاء، ثم كيف يجتمع هؤلاء، والأحداث كلها ستحدث في آخر الزمان وبعد ظهور الفتن؟!

إن السادة علماء الحديث يقولون أن النبي أخبر بالوقائع التي حدثت بعده، فحدد مدة الخلافة الراشدة وبداية الملك وتحدث عن الفتن التي ستحدث، فلم الخلاف هذه المرة فلا يعرف متى سيخرج هذا الدجال؟! هذا لربي دليل واضح على التدليس والتخبط في هذه الروايات، فكلٌ كان يضع روايات ولا يضع في الحسبان أن هناك من يساعده، فينكشف التدليس والتزوير بسبب المساعدة غير المقصودة. وبغض النظر عن التعارض بين وصف عيسى في أحاديث الإسراء ووصفه في أحاديث الدجال، نسأل: هل سنرى الملائكة التي سينزل عليها عيسى؟! طبعا لن نراها، فالقرآن واضح في هذا تماما، حيث قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [سورة الأنعام ,٩]، فما الغرض من هذا التحديد ما دمنا لن نراهما[144]؟!

هذه كلها أقوال تتعارض مع أصول الدين، وتظهر أن الحديث من أقوال أهل الكتاب، ومما يثير الحنق في الحديث، أن الحديث يقول أن الدجال أعور وربكم ليس بأعور، كأن هذا هو الفرق بين الله والبشر، بدلا من أن يقول: إن الله لا يتجسم مثلا أو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

نخرج من هذا كله أن الروايات الواردة كلها في الدجال والمسيح والمهدي روايات موضوعة متعارضة، مأخوذة عن أهل الكتاب ولا أساس لها في القرآن، ولا يمكن أن

[144] لنا أن نسأل: لم يحدث هذا الإبتلاء من الله للبشر في أي عصر من العصور، فلم يبتليهم هذا الابتلاء فيمنع عنهم الزاد ثم يأتي الدجال، فيخيرهم بين الإيمان والكفر، أو بين الحياة والموت؟ وإذا كان الناس قد ءامنوا في الماضي بالأنبياء لأنهم أتوا بالآيات، فما الفارق بينهم وبين الدجال؟ فهو أيضا سيأتي بما هو أكبر من أي معجزة أتى بها نبي سابق؟ فها هو يحي الموتى ويأمر السماء فتمطر والأرض فتخرج الزرع، فأي فتنة هي أكبر من ذلك؟! ولو قالت الروايات أن الله سيبتلي الناس بالدجال ليمتحن إيمانهم ثم يهزموه لكان من الممكن أن نتقبل الأمر، أما أن يبتلي الله الناس بالدجال، ثم يأتي بشخص من خارج الكوكب الأرضي لينقذهم، فلم خرج هذا ولم نزل ذاك؟ وما ذنب الناس؟!

تكون من عقيدة المسلم بأي حال، ويجب عليه أن يتبرأ منها، فهي معارضة للقرآن تماما وللثابت من أصول الدين، وليعلم أن في تعاليم دينه ما هو أكثر من كاف لنصرة هذه الأمة، أما أن نتكل على مجيء المسيح والمهدي فهذا ما لن يؤدي إلا إلى ترك العمل، وانتظار المنقذ الخارجي، فمعه فقط النصر! ونحن ندعو إخواننا أن يتركوا هذا الدجل، ويعملوا ويلتزموا شرع ربهم، فلن يصلح حال هذه الأمة إلا التزامها كتاب ربها، والله أعلم.

الوعد والوعيد

قد يكون هذا العنوان مفهوما بعض الشيء عند القارئ غير المتخصص، فالوعيد لا يكون إلا في شر أو توعد على عقاب، وهذا هو المعنى المراد فعلا. فما حكم الوعيد؟ هل يجوز تخلفه؟ يُعد جواز تخلف الوعيد من الأصول المسلم بها عند أهل السنة. فهم يرون أن الله إذا وعد لا يخلف وعده: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [سورة الروم ,٦]، والوعد عندهم يكون في الأشياء الحسنة، أي في الثواب والإخبار عما يكون في المستقبل من الزمان، ولا يجوز إخلافه لأنه يعد كذبا!، وهذا ما لا يكون من الله بأي حال.

أما الوعيد فلا يكون إلا في التهديد والعقاب، ولأن الله كريم فهم يرون أنه يجوز أن يخلف وعيده، فيجوز أن يغفر لمرتكب الكبيرة التي مات ولم يتب عنها، وهذا يتفرع عليه أصل آخر هو أن المسلم مهما عصى فلن يخلد في النار، بل يكفي أن يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويفعل ما يحلو له من المنكرات ويموت على ذلك بغير توبة، ثم يدخل النار يوم القيامة فترة من الزمان طالت أو قصرت، وفي نهاية المطاف سيخلد أبدا في الجنة.

ويستدل أهل السنة على جواز تخلف الوعيد بأقوال العرب!! وأنه من باب الكرم، والله أكرم الكرماء، فيروون من أقوال العرب:

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي   ولا أختبي مـن خشية المتهـــدد

وإني إذا أوعــــدته أو وعـــدتــه   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

أما الزيدية والمعتزلة والإباضية فيرون أن الوعيد لا يتخلف مثله مثل الوعد، فكما أن الله منجز وعده، فهو منجز وعيده، فهم يرون أن مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب عنها فهو مخلد في النار. إذا فالخلاف بين أهل السنة وهؤلاء الفرق في هذه المسألة يكمن في هل يجوز الخلف أم أنه لا يجوز، ولم نسمع أحدا قال: أنه يجب خلف الوعيد على الله. والفرق التي تقول بوجوب تحقق الوعيد تستند إلى كثير من آيات القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ق, ٢٩]، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة النساء, ١٢٣]، و﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٥٨]، و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة البقرة, ٨٢]،، فلم يذكر الإيمان مجردا في القرآن بل يكون دوما مقترنا بعمل الصالحات.

ويستندون إلى كثير من الأحاديث الصحيحة، مثل ما رواه البخاري: "5525-... أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ إِنَّ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ"، و"5596- ... عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ هَمَّامٍ قَالَ كُنَّا مَعَ حُذَيْفَةَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ رَجُلًا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ"

وكثير من الأحاديث التي تنفي دخول الجنة لأصناف من عصاة المسلمين.

وأهل السنة يؤولون هذه الأحاديث والآيات فيجعلونها في المكث الطويل الذي لا يراد منه التأبيد في النار، ويرون أن الإيمان وحده كاف لدخول الجنة في أخر المطاف، فلا يخلد أحد من عصاة المسلمين في النار، ويرون أن وعيد الله يجوز تخلفه[145]. فيقولون: "وأَهل السُنَة والجماعة: يعتقدون أَنَّ وعد الله للمؤمنين بالجنة ووعيده بتعذيب العصاة الموحدين، وتعذيب الكفار والمنافقين في النار حق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [سورة النساء, ١٢٢]، ولكن الله سبحانه يعفو عن عصاة الموحدين بفضله وكرمه، وقد وعدَ الله تعالى بالعفو عن الموحدين، ونفاه عن غيرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... ٤٨﴾ [سورة النساء, ٤٨]".[146]

---

[145] يرى أهل السنة أن مذهبهم في هذه المسألة هو الصواب الذي لا يرقى إليه أي شبهة خطأ، حتى أنهم يرون الروايات على إفحامهم الخصوم في الجدال حول هذه المسألة، ونورد هنا رواية يستدل بها أهل السنة دوما على تخلف الوعيد ولكنهم يذكرونها مبتورة، فننقلها كاملة من أجل الدقة والأمانة: "قال سوار بن عبد الله العنبري عن الأصمعي جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلا فقال: يا أبا عمرو يخلف الله وعدَه؟! قال: لا –القائل هو أبو عمرو بن العلا قال: (عمرو بن عبيد): إنْ وعِدَ على عملٍ عقاباً يُخلف وعده؟! قال له أبو عمرو بن العلا من العُجمة أتيت يا أبا عثمان! إن الوعد غير الوعيد، وإن العرب لا تُعد خُلفاً ولا عاراً أن تعِدَ شراً ثم لا تفعله، بل ترى أن ذلك كرمٌ وفضل، إنما الخُلف أن تعد خيراً ثم لا تفعله. قال أي عمرو بن عبيد: فأوجدني ذلك في كلام العرب قال أي أبو عمرو بن العلاء أما سمعت؟!

ولا يرهب أبن العم ما عشت صولتي ولا أختبي من خشية المتهددِ
وإني إذا أوعـدتـه أو وعـدتـه لمخلفُ إيعادي ومنجز وعدي

وينقل أهل السنة هذه الرواية إلى هذا الجزء، ولكن للحديث بقية كما جاء في كتب المعتزلة: أنَّ عمرو بن عبيد أجابه بعد أن أورد بيت الشعر المتعلق بمدح من لا ينجز الوعيد بقوله قال: عمرو بن عبيد إن الشاعر قد يكذب ويصدق، ولكن حدثني عن قول الله عزّ وجل: ﴿... لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ [سورة هود, ١١٩] إنْ ملأها تقول صدق؟! قال نعم قال فان لم يملأها فتقول صدق؟!" فسكت عمرو بن العلاء. ويقال أن عمرو بن عبيد قال لأبي عمرو بن العلاء شغلك الأعراب عن معرفة الصواب إن الله يتعالى عن الخلف والشاعر يقول الشيء وخلافه، فهلا قلت في إنجاز الوعيد ما قاله الشاعر: أن أبا ثابت لمجتمع الرأي شريف الآباء والبيت

لا يخلف الوعد والوعيد ولا يبيت من ثأره على فوت" اهـ

[146] الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة".

ولن نرجح في هذه المسألة رأيا من الرأيين،[147] ولكن نترك للقارىء المجال للترجيح والحرية في الأخذ بأي من الرأيين، وها هما الرأيان أمامه يختار منهما:

1- يجوز على الله أن يخلف وعيده، لذا مهما فعلت من المعاصي ولم تتب وكنت موحدا لله فستدخل الجنة بعد دخولك النار فترة للتطهير، هذا إذا دخلت النار!.

2- لا يجوز على الله أن يخلف وعيده لأن هذا يعد نكثا، لذا إذا كنت من مرتكبي الكبائر ومت بلا توبة فستخلد في النار، ولن ينفع الإنسان إلا إيمانه وعمله معا، وليس أيا منهما منفردا يجدي أو ينفع.

وقفة مع اليوم الآخر

وبعد أن تحدثنا عن بعض أركان العقيدة عند بعض المسلمين، والتي لا تعد من أركان العقيدة عند آخرين، ننتقل إلى الحديث عن ركن حقيقي من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، حيث أننا نرى أن العرض الذي يتم له هو عرض مشوه أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، يجعل الكثيرين من غير المسلمين يعتقدون أن الإسلام يأتي بغير المعقول وبالخرافات مثل الأديان الأخرى، لذا نحاول أن نعرض هذا الركن عرضا مختلفا بعض الشيء، فنقول: كما قلنا فلقد فصل القرآن كل شيء، وما علينا إلا النظر فيه وسنستخرج منه العجب العجاب، ولم يترك لنا القرآن تفاصيل يوم القيامة ألغازا، بل وضح لنا كيف ستجري الأحداث، ولكن المشكلة أن المسلمين لم يحاولوا أن يربطوا بالقدر الكافي بين الآيات وبعضها، فإذا سألت أحد المسلمين: كيف سيُبعث الناس في يوم القيامة؟

---

[147] أفردنا الجزء الأكبر في ذكر أدلة المعتزلة والزيدية والأباضية لأن القارىء لم يسمع بهذه الآراء، أما أقوال أهل السنة فهي منثورة في كثير من الكتب، ويسمعها المسلم في الدروس وفي الخطب وخلافه.

تردد في الجواب واحتار، وقال لك: بقدرة الله. وكلنا نقول ذلك، ولكن ما هي الطريقة؟ الطريقة واضحة ومذكورة في القرآن، فالله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة ق, ٤٤] فهذه الآية وضحت أن الناس سيخرجون من الأرض سراعا، وسنعرض لهذه الآية عند الاستدلال بها عند حديثنا عن عملية خلق الإنسان الأول. ولكن ما الذي يجعلهم يخرجون؟

السبب في خروجهم مذكور أيضا في القرآن، فالله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الروم, ٢٥]، فالله تعالى سيدعونا يوم القيامة فنجيب.

إذا يمكننا، أن نقدم تأويلا علميا مقبولا لعملية البعث نخاطب به الغرب، وهو أن الناس سيخرجون يوم القيامة من الأرض بنفس الطريقة التي خُلقوا بها. وكيف سيخرج من لم يدفن أساسا؟ نقول: العملية لا تحتاج إلى تعقيد، فالناس بعد أن يفنون يظل تركيبهم عند الله محفوظا، وفي يوم القيامة يتم إعادة بناء هذا التركيب مرة أخرى، بنفس الذاكرة وبنفس عدد الخلايا وبنفس التركيب، فيكون الأمر أبسط مما يعتقده الناس، فالله لا يحتاج إلى تراب بقدر البشر لكي يكونهم منه مرة أخرى، بل كل ما يتطلبه الأمر خلية تغرس في الأرض ليس أكثر ومنها يتم إعادة بناء الإنسان مرة أخرى، وأعتقد أن بالأرض من ذرات التراب، ما يكفي لإعادة البشر منذ آدم إلى قيام الساعة.

ولا يعني هذا الحديث العلمي عن اليوم الآخر وما يحدث فيه أننا نلغي الإيمان التسليمي، بل إن كل ما نحاول القيام به هو تقريب المسائل للعقول وتشبيهها بالمألوف، حتى يحدث إيجاد تصور ما للمسألة عند العقول، فكل ما سيحدث يوم القيامة يفوق العقول، فقد يتفق مع ما في الدنيا في أمور ويخالفها في أُخر ولكنه واقع، ونضرب مثالا على ما نقول بنار جهنم: من يتأمل في وصف نار جهنم في القرآن سيجد أن لها وصفا عجيبا، فهي نار تحرق كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾] سورة النساء ,٥٦[فهي نار محرقة حتى أنها تنضج جلود الكفار، فتبدل الجلود حتى يستطيعوا أن يذوقوا العذاب –وانتبه إلى أن الآية تشير إلى كون الجلد هو عضو الإحساس، وأنه يتغير حتى تستمر عملية العذاب–، ولكنا نجد في مواضع أخرى أن الله تعالى يقول في وصف شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾] سورة الصّافّات ,٦٤[فها هي النار العميقة القعر التي تحرق من يسقط فيها يخرج في أصلها شجرة، فما هو حال هذه الشجرة وما شكلها وما تتكون؟ نسلم بكل حال بوجود هذه الشجرة، ونرى أنه سيأتينا تأويلها يوم القيامة، فندعو الله أن يعلمنا حالها ونحن في الجنة.

وكذلك نجد في وصف أصحاب النار أنهم يخاطبون أهل الجنة وتجري بينهم الحوارات والمحادثات، كما جاء في العديد من آيات القرآن منها: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾] سورة الأعراف ,٥٠[

ويخاطبهم أهل الجنة كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾] سورة الأعراف ,٤٤[

فما هذه النار التي يستطيع الإنسان المحترق فيها، أن يتحدث ويحاور؟ فالمحروق بنار الدنيا –وهي لا تقارن بنار الآخرة– لا يستطيع أن يقوم بأي شيء سوى الصراخ، فكيف يتحاور أصحاب النار مع أصحاب الجنة؟ بل إننا نجد أن المشركين والكفار لهم طعام في النار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾] سورة الحاقّة ,٣٦[

فأهل النار يأكلون الطعام ويتحاورون ويتعذبون ويحرقون، فهذا يقودنا إلى التسليم بأن هذه النار نار ولكنها ليست كنارنا، ويدفعنا إلى التساؤل أيضا: هل نستطيع التحكم في

النار؟ قد يبدو هذا السؤال غريبا، ولكن الله أبرز هذه النقطة في كتابه الكريم، ووضح لنا هذا من خلال قصة الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [سورة الأنبياء, ٦٩]، ومن خلال الحديث عن الآخرة رأينا أن بعض خواص النار عُطلت، فهل يمكن أن يأتي يوم تستطيع البشرية فيه أن تتحكم في بعض خواص النار، فتكون نار لا تحرق؟! قد يبدو هذا السؤال عجيبا ومستغربا بالنسبة لمستوانا العلمي حاليا، ولكن من يدري ماذا سيحدث بعد ألف عام؟

إذا نسلم أن النار الوحيدة التي يمكن أن يحدث فيها هذا هي نار الآخرة بقدرة الله، وهي نار عجيبة، موافقة ومخالفة لنارنا فنسلم بها، والله أعلم بحالها، ولقد ذكر لنا بعض الإشارات عن حالها وطبيعتها، فهل من متدبر؟

إذا فمدلولات مسميات الآخرة غير مدلولات مسميات الدنيا، ولكن لا يعني هذا أن كل ما في الدنيا سيتغير تماما في الآخرة، بل هناك بعض الأشياء التي ستستمر كما هي، مثل أن الجلد سيظل عضو الإحساس، ومن ثم يُغير من أجل استمرار العذاب. فهناك ما سيُغير وهناك ما سيبقى على حاله، التي كان عليها في الدنيا، والله تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [سورة إبراهيم, ٤٨]

أصحاب الأعراف

كلنا نعرف أن الآخرة هي دار القرار، وهي إما جنة وإما نار، ولا ثالث لهاتين الحالتين، ولكن للغرابة الشديدة نجد أن السادة المفسرين اخترعوا صنفا جديدا ألا وهو أصحاب الأعراف! وهذا الصنف فيه من الخلاف الكثير بين المفسرين، ولكن العجيب أن الرأي الذي اشتهر هو رأي ساذج جدا، لا دليل عليه سوى روايتين ضعيفتين عن النبي(ص)، وهذا الرأي مخالف لنص القرآن، ونعرض للقارىء هنا أقوال

المفسرين في "أصحاب الأعراف"، ثم نوضح كيف أن هذا الرأي لا يصح بأي حال:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ٤٤-٤٦]

المشهور أن "الأعراف" هي السور المضروب بين الجنة والنار، وأن "رجال الأعراف" هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تبلغهم هذه الجنة، ولم تبلغهم تلك النار. فيوقفون على "الأعراف" بعدما يُمضى بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، حتى ينظر الله في أمرهم فيقضي فيهم!. وانتشر هذا الرأي بخلاف غيره من الآراء لورود روايتين ضعيفتين في هذا الشأن، أما باقي الآراء فلا سند لها سوى اجتهاد أصحابها فضاعت!

وانتشر هذا الرأي وصار هو التفسير المعتمد. ونورد الأقوال الواردة في الأعراف وأصحابها، ولنر كم اختلفوا فيها، ونورد ما ذكره الإمام القرطبي في أصحاب الأعراف، حيث قال ما نصه: "وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال: فقال عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبي والضحاك وابن جبير: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. قال ابن عطية: وفي مسند خيثمة بن سليمان (في آخر الجزء الخامس عشر) حديث عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار]. قيل: يا وسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: (أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون). وقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء. وقيل: هم الشهداء؛ ذكره المهدوي. وقال القشيري: وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم، وتفرغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا رأوا أصحاب

النار تعوذوا بالله أن يردوا إلى النار، فإن في قدرة الله كل شيء، وخلاف المعلوم مقدور. فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد يرجون لهم دخولها. وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم. وذكر الطبري في ذلك حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم. وذكر الثعلبي بإسناده عن ابن عباس في قول عز وجل: ﴿... وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ... ﴿٤٦﴾﴾] سورة الأعراف ,٤٦[قال: الأعراف موضع عال على الصراط، عليه العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين رضي الله عنهم، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه. وحكى الزهراوي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة. واختار هذا القول النحاس، وقال: وهو من أحسن ما قيل فيه؛ فهم على السور بين الجنة والنار. وقال الزجاج: هم قوم أنبياء. وقيل: هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم. وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون. وقيل: هم أولاد الزنى؛ ذكره القشيري عن ابن عباس. وقيل: هم ملائكة موكلون !! بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار؛ ذكره أبو مجلز. فقيل له: لا يقال للملائكة رجال؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم؛ كما أوقع على الجن في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ... ﴿٦﴾﴾] سورة الجن ,٦[. فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم؛ فيبشرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعد فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهل النار دعوا لأنفسهم بالسلامة من العذاب. قال ابن عطية: واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين. و﴿... يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ... ﴿٤٦﴾﴾] سورة الأعراف ,٤٦[أي بعلاماتهم، وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حيز هؤلاء وحيز هؤلاء." اهـ

ولقد توقف الإمام القرطبي في الترجيح في هذه المسألة لاضطراب الأثر ولا مرجح، ونحن نرفض التفسير الشهير بأنهم قوم تساوت حسناتهم مع سيئاتهم فهم على سور بين الجنة والنار للتالي:

أولا: ما عليه المؤمنون جميعا بسلفهم وخلفهم، –لما جاء واضحا في القرآن والسنة– أن الآخرة منزلان وحسب، فإما إلى جنة وإما إلى نار ﴿... فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [سورة الشورى ,٧]. وأن أهل الآخرة أزواج ثلاثة لا رابع لهم، أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون المقربون، فمن أين أتى من أتى بالزوج الرابع فابتدع له منزلة، وأوقفهم عليها؟

ثانيا: من المعلوم عند جميع المسلمين أن الموازين يوم الحشر على اثنتين، إما أن تثقل وإما أن تخف، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [سورة القارعة ,٦-٩]، ولم يرد في القرآن أي حديث عن منزلة ثالثة، من مثل الذي يقول به أهل التأويل الأول، بأن ثَمّة منزلة وسط يوقف عليها من تساوت حسناته وسيئاته. وهذا القول مرفوض عقلا، ألا يغفر الله لإنسان يحتاج إلى حسنة واحدة حتى يدخل الجنة فاين رحمة الله وأين شفاعة الرسول؟ إن لم يشفع في هؤلاء ففيمن سيشفع؟!!

وبعد أن بينا تهافت هذا القول، نسأل: ما هي الأعراف إذا، ومن هم أصحابها؟ نقول: العرف في اللسان: "المكان المشرف العالي"، وهذا علامة على الشرف والرفعة، فهم في مكان مرتفع، ثم إنهم يخاطبون أهل النار وأهل الجنة، ويعرفون كلا بسيماهم، فهل هذا حال من زحزح عن النار ولم يدخل الجنة؟ وهل يكون هذا من تساوت حسناته وسيئاته؟!

إذا الواضح من السياق ومن اللسان، أن أصحاب الأعراف قوم لهم منزلة علية، حتى أن الله ميزهم بهذه المكانة وخصهم بها، فيمكن أن يكون هؤلاء هم النبيون والشهداء حيث ميزهم الله، فهم في هذه المنزلة وهم يعرفون كلا الفريقين بسيماهم، فيمكن أن

يكونوا هم الأشهاد، الذين قال الله في حقهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [سورة هود, ١٨]، فإذا لم يشهد النبيون والشهداء والعلية من أمة محمد، الذين جعلهم الله شهداء فمن يكون الشهيد ومن يحظى بهذه المرتبة؟

ونختم بالقول: لا بد أن نأخذ صورة الجنة والنار من القرآن نفسه، وليس من الروايات أو قول فلان أو علان، لأن هذه الأقوال أدت إلى وجود الكثير من التصورات الخرافية، التي شوهت الجزاء، الذي أعده الله لعباده في الآخرة، فليست الجنة والنار تغييبا للوعي، وإنما هما أكبر محفز عقلي للإنسان.

فإذا نحن نظرنا إلى حال المتقين في الجنة، وجدنا صورة مختلفة تماما عما في أذهان كثير من المسلمين، فالقرآن لم يعرض الجنة على أنها أكل وشرب ووطء للأبكار على ضفاف الأنهار! ولا أننا سنكون "تنابلة الرحمن"[148]، فعلي سبيل المثال لم تُذكر الحور العين[149] إلا في أربعة مواضع في القرآن كله، هي: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٥٤﴾ [سورة الدخان, ٥٤]، ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾ [سورة الطور, ٢٠]، ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ٧٢﴾ [سورة الرحمن, ٧٢]، ﴿وَحُورٌ عِينٌ ٢٢﴾ [سورة الواقعة, ٢٢].[150]

ولم يذكر لنا القرآن أن همنا سيكون فقط وطء الآلاف من حور العين، والأكل والشرب، نعم سيكون كل هذا متوفرا في الجنة، ولكن اللذة الحقيقية في الجنة هي

---

[148] سمعتها بأذني من أحد الدعاة السلفيين المشهورين!!

[149] نلاحظ أن القرآن قال "حور عين" والمشتهر بين عوام المسلمين أنها "حور العين" وشتان ما بين الإثنين.

[150] من الأمور الشائعة عند المسلمين أن الرجل في الجنة سيكون له الآلاف من حور العين، أما المرأة المسكينة فليس لها إلا زوجها لتي تزوجته في الدنيا، وإذا لم تتزوج ف!!!، ولست أدري من أين أتوا بهذا الوصف، فتأمل عزيزي القارىء في هذه الآيات وفي السياق التي وردت فيه، هل هناك ما يدل على أن هذه الآيات مخصصة للذكور فقط؟ فمن المعروف أن الحديث في هذه الآيات عن المتقين الذين في الجنة، والمتقون بهم ذكور وإناث، فمن عنده دليل على أن هذه الآيات مخصصة للذكور فقط، فليبرزه لنا.

بالقرب من الله، ورضوان الله علينا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة التوبة, ٧٢] فرضوان الله أكبر من أي شيء من أي متعة أو نعيم موجودين في الجنة.

المتاع الروحي

ثم إن من يقول أن القرآن يركز على المتاع المادي ولم يتكلم عن المتاع الروحي، ينسى وصف الجنة الأساسي في القرآن وهو: ﴿... جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد, ١٢]، فلقد ورد هذا الوصف في القرآن سبع وعشرون مرة، وهذه المتعة هي متعة روحية قبل أي شيء، فتفكر في منظر الجنان تجري من تحتها الأنهار، فهذا منظر يتمتع به الإنسان روحيا بالدرجة الأولى، أما الآيات التي تحدث فيها القرآن عن الطعام والشراب في الجنة فلا تصل إلى هذا العدد، ولم توصف بها الجنة قط، فلم نجد آية تقول: "جنة الطعام أو النساء"، بل توصف بما تستحقه من أنها "جنة النعيم"، "جنة الخلد".

فهذه هي الأوصاف التي تستحقها الجنة، ومن يقول أن المتاع مادي بالدرجة الأولى ينسى آيات تحدثت عن الترقي، الذي يصل إليه أهل الجنة بسبب المتاع الروحي الذي يصبحون فيه، فالله تعالى يقول:

﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد, ١٢] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

]سورة الحـديد ,١٩[، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾] سورة الـتحريم ,٨[

فأهل الجنة لهم نور في الآخرة، فهل سأل أحدنا نفسه مرة: لم هذا النور؟ ليس هذا النور بداهة من أجل الإضاءة، ولما كانت الهداية نورا معنويا للإنسان، فإن ترقيه في مدارج الوصول يوم القيامة يؤدي إلى أنه سينير فعلا، فسيكون لكل منا –إن شاء الله– نورا يوم القيامة قبل وفي الجنة، وتأمل في آية الحديد "لهم أجرهم ونورهم"، فالأجر كما أرى هو المتعة العادية، أما النور فهو الترقي في مدارج الوصول إلى الله عز وجل، فللمؤمن شوق إلى الله تعالى، وفي الجنة سيترقى الناس في القرب إلى الله[151]، فهذا القرب هو اللذة الحقيقية للمؤمن لذا ندعو الله أن يجعلنا من أهل النور ولا يجعلنا مع أهل النار.

فنرجو من إخواننا أن يغيروا صورتهم عن الجنة بعض الشيء ويعرفوا أن المتعة الحقيقية في القرب من الله وفي مغفرة الله وفي رضوانه أكبر من أي شيء آخر.

كان هذا عزيزي القارىء مرورا سريعا على بعض الآيات المتعلقة باليوم الآخر، نوضح له فيها أن العرض القرآني لليوم الآخر عرض علمي عقلاني، يخلو من المبالغات أو التهويل، وما لحق به ما هو إلا من الروايات التي ضخمت وهولت، لذا لنتفكر إخواني في الله في هذه الآيات مرة أخرى ولننظر إليها بمنظور جديد، علّ الله يفتح علينا فيها بفهم جديد، والله المستعان ومنه الغفران.

[151] يكفي في التدليل على اللذات الروحية في الآخرة التعبير القرآني "الرجوع إلى الرب"، ونرجو منك عزيزي القارىء أن تبحث بنفسك عن هذه المواضع، وهي كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾] سورة السجدة ,١١[فالتعبير بالرجوع إلى الله يشعر بالانفصال عنه والرجوع إليه، ونحن لا نقول بالتجسيم أو ندعو إليه ولكن هذا فقط إشارة من ضمن إشارات الكلمة، فكأن الناس خرجوا من الله ثم يعودون إليه، فهل هناك متاع روحي أكبر من ذلك، والله المستعان.

الفصل الثالث: التأويل العلمي

بعد أن عرضنا لنماذج فقهية وعقيدية، ووزنها بميزان القرآن، ننتقل إلى محور آخر من محاور القرآن، وهو الجانب العلمي، ونقدم في هذا الفصل تصورا فريدا مأخوذا من القرآن حول كيفية خلق الإنسان الأول، ونرد بهذا الفهم على من يرفضون التفسير العلمي للقرآن، بحجة أننا لا نستخرج منه شيئا إلا بعد اكتشافه في الواقع، ولو كان في القرآن لوجب أن يُستخرج من القرآن أولا. ونحن نقدم لهم هذه النظرية المستقاة من القرآن، استنادا إلى خلفيتنا اللسانية والعلمية.

تأويل آيات الخلق

بعد أن أوغلنا في الحديث عن نهاية البشرية واليوم الآخر، ننتقل للحديث عن بداية البشرية، وكيف نشأت من الأرض، فنعود للحديث عن الخلق وبدايته. ويأتي محور الخلق في مرتبة متقدمة من المحاور التي ركز عليها القرآن، وسواء كان الخلق متعلقا بخلق الإنسان أو خلق الكون، فإن هذا يعد من الأسئلة الخالدة التي بحث عنها الإنسان منذ قديم الزمان وأثارت فضوله: كيف ظهر هذا الكون؟ وكيف ظهر الإنسان على وجه الأرض؟

واختلفت الأجوبة المطروحة لهذه الأسئلة، وكل يدلي بدلوه في المسألة والكل يخمن ويخرص، إلى أن قفزت البشرية قفزات هائلة في مجال العلوم التطبيقية، وللأسف صَاحَبَ هذه القفزات نظريات مسمومة حاول بها البعض تأييد بعض الأفكار الخبيثة، فسمعنا عن نظريات عجب في خلق الإنسان مثل الداروينية وما شابهها من النظريات، التي تنكر وجود الخالق، ووجدنا الناس من هذه النظرية في معسكرين:

فريق أعجب بها وأيدها، وكان من هذا الفريق بعض المسلمين الذين رأوا أن هذه النظرية موجودة في القرآن!!، ومنهم من رمى القرآن وراء ظهره واتبع الغرب، وقال هذه نقرة وتلك أخرى والقرآن ليس كتاب علوم. وفريق رفضها لمعارضتها الصريحة للأديان، وظل على اعتقاده، الذي يرى أنه نابع من الدين المنزل من عند الله.

ولما كان القرآن تبيانا لكل شيء، وجب أن ننظر لنستخرج كيف بدأ الخلق، فإذا كان القرآن لم يجب على هذه الأسئلة الخالدة، فعلاما أجاب إذا؟

ولما كان القرآن شفاءا لما في الصدور، كان لزاما أن يجيب على هذه الأسئلة الخالدة، فنثر معطيات هذه القصة في ثناياه، فوضح لنا كيف خُلق الكون وكيف تم خلق الإنسان، ولقد ذُكر ذلك في القرآن بطريقة مباشرة مفصلة، ولكن لما كان القرآن في القرون الماضية –ولا يزال– يُجر إلى أقوال العلماء وأفهام الفقهاء وروايات البلغاء، فقد عميت هذه الحقيقة الزهراء، وساد في تفسير هذه الآيات الروايات المأخوذة عن أهل الكتاب، وأصبحت عند كثير من المسلمين من المسلمات التي لا يُجادل فيها، مع أن هذه الروايات تدور في واد والقرآن يقول شيئا آخر تماما[152].

وسنعرض للقارىء هذا الفهم، ولكن بعد عرض بعد النماذج المنثورة في القرآن لمسألة بدأ الخلق عامة.

[152] الحق يقال، أني كنت من أشد المقتنعين بالتفسير التوراتي والمدافعين عنه ضد بدع أتباع الغرب، إلى أن قرأت كتابا يعرض في مواضيعه عملية خلق الإنسان في القرآن، فنبهني إلى مواضع العور في التفسير الإسرائيلي، ثم حاول المؤلف أن يتبنى الداروينية كتأويل للآيات ولكن طبعا مع القول أن الخلق موجه من الله تعالى ولم يتم بالصدفة، ولكن كان من الواضح أن التفسير الإسرائيلي تام العور، وأن ما يقول به فيه لي لأعناق الآيات مثل التفسير الإسرائيلي، فهو يأخذ بظواهر بعض الآيات ويؤول أخرى ليصل إلى إسقاط الآيات على النظرية، فظللت لردح من الزمن متأرجح بين قبول النظرية ورفضها، إلى أن ظهر لي من خلال النظر في الكتاب الكريم فهم آخر تماما في مسألة خلق الإنسان، لا يؤول أي آية ويأخذها جميعها على ظاهرها.

عرض موجز لخلق الكون في القرآن

من المسلم به أن القرآن عرض لمسألة بدأ الخلق وكيفية نشوء الكون، ولكن ما أراه أن علومنا الحالية المعاصرة لا تزال قاصرة في مجال الفلك، وكل ما تقول به من النظريات هو من باب التخمين، الذي لا يمكن الحمل عليه أو التوثق منه، مثل ما يتم على الأرض، ولما كانت العلوم ضرورية للوصول إلى فهم الآيات وتأويلها تأويلا سليما، ثم ننطلق بعد ذلك من القرآن إلى مستويات أعلى، فأنا أرى أن مستوى العلوم المتوفر عندنا حاليا غير كاف لفهم هذه الآيات، فنتوقف فيها إلى أن تتطور البشرية أكثر فنستطيع أن نؤول هذه الآيات، ولا يعني هذا أن العرض القرآني لهذه المسألة عرض ملغز أو معقد، فحتى بدون أن نحوز أي مستوى معرفي علمي نستطيع أن نستخرج الإطار العام للتوصيف القرآني لعملية خلق الكون، ونعرض للقارىء هنا نموذجا مصغرا لهذا التوصيف، فنقول:

في البدء كان الله ولم يكن شيء معه، وكان عرشه على الماء ثم خلق الله الخلق، ووضح لنا القرآن أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وفصلت الآيات في مراحل الخلق[153]، فنجد أن القرآن يخاطب الكافرين في هذه الآية مذكرا إياهم بأصل الكون، قائلا: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾] سورة الأنبياء ,٣٠[

(153) هل خلق الله الكون بطريقة خارقة أم خلقه بطريقة طبيعية، ومع تطور العلوم وباستخدام الإشارات الواردة في القرآن نستطيع أن نحدد كيف خلق الكون؟ كنت أسمع كثيرا من المتكلمين عن خلق الكون من علماء الدين الأفاضل فأجدهم فريقين مختلفين، فريق يقول بأن الكون خلق بطريقة طبيعية، أي يمكن بالعلم معرفة خطوات خلق الكون في المستقبل عند زيادة وتطور أدوات العلم والمعرفة. وفريق أخر يقول: لا، الله خلق الكون بالقدرة وقال له كن فكان، وهذا البحث عن خلق الكون مجرد عبث لن يوصل لشيء فهو مخلوق بطريقة خارقة، وكنت أتساءل: أي الفريقين أحق وأصوب؟ إلى أن قرأت ذات يوم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾] سورة المؤمنون ,١٧[، فانتبهت إلى أن الله عز وجل يقول ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ فقلت لو كان الخلق تم بطريقة خارقة لاستحال أن ينعت الله نفسه بهذه الجملة، ولكن بما أن الله أجراه بالطريقة الطبيعية، نبه على هذا الشيء حتى لا تختلط الأمور على الناس وليشير لتمام قدرته وشمول إحاطته.

ففي البدء كان الله ولم يكن شيئا معه وكان في عماء وكان عرشه على الماء، وبداهة لا يمكن أن نقول أنه كان هناك شيء قبل خلق الكون، فلم يكن هناك فراغ أو مكان أو زمان، فلا بد لوجود الفراغ من وجود المكان، ولا بد لوجود الزمان من حركة المكان، ولا بد لحركة المكان من دافع يخرجها من السكون، والمقصد أن الله خلق الكون من العدم، بهذه الطريقة التي قال بها، من وجوده متجمعا ثم حدوث الفتق[154].

وبعد أن انتقل الكون من مرحلة الرتق إلى مرحلة الفتق، أُنزل الماء ليتم تشكيل الطبيعة وظهور الكائنات الحية بالشكل الذي يريده الله عز وجل، ونجد هذا مذكورا في آية الأنبياء فقال بعد أن تكلم عن الفتق: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... ٣٠﴾]سورة الأنبياء, ٣٠[، ولكن الارتباط قد لا يبدو واضحا تمام الوضوح في هذه الآية لذا نذهب إلى آية تحمل الكثير والكثير من الحقائق العلمية ولكن سأركز هنا على جزء منها فقط وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٩٩﴾] سورة الأنعام, ٩٩[

حيث أن هذا الجزء يظهر فيه الترابط بين إنزال الماء وبدء ظهور الكائنات الحية، وهو الجزء الذي تفكرت فيه وخرجت منه برأي شخصي لي يتفق مع الجانب العلمي، ولننظر في الآية ولنر أولا كيف فُسرت هذه الآية:

ذكر الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: "وهو الذي أنزل من السماء ماء" أي المطر. "فأخرجنا به نبات كل شيء" أي كل صنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان.

[154] يأول السادة العلماء هذه الآية بنظرية الانفجار العظيم التي مفادها أن الكون كان في بدء الخلق عبارة عن ذرة بالغة الصغر عالية الكثافة، ثم انفجرت هذه الذرة بسبب الضغط العالي عليها، ومن هذه الذرة خرج الكون كلها، وهذه النظرية قد تبدو مقبولة، ولكني أتوقف في تأويل الآية بها، حتى تنتقل النظرية من مرحلة النظرية إلى مرحلة الحقيقة العلمية، ولربما اكتشف المسلمون في المستقبل في القرآن ما لم نره نحن لقصر أنظارنا وعلومنا.

"فأخرجنا منه خضرا" قال الأخفش: أي أخضر[155]؛ كما تقول العرب: أرينها نمرة أركها مطرة. والخضر رطب البقول. وقال ابن عباس: يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز وسائر الحبوب. "نخرج منه حبا متراكبا" أي يركب بعضه على بعض كالسنبلة" اهـ

ولا بد لنا من وقفة: هل معنى نبات كل شيء كل صنف من النبات؟ لا بطبيعة الحال، نبات كل شيء معناها هو نشأ وأصل كل شيء حي، وكل شيء ينبت أي ينقسم ويزيد، والله عز وجل قال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ [سورة نوح, ١٧] فنحن أيضا نشأنا من الأرض، وقال في حق مريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ... ۝٣٧﴾ [سورة آل عمران, ٣٧]، فمريم أنبتت نباتا حسنا أي أنشئت نشأة طيبة، إذن فمعنى نبات كل شيء أصل كل شيء. قد يسأل سائل: من أين أتيت بفهم أن نبات كل شيء المراد به نبات كل شيء حي وكل ما ينقسم ويتكاثر؟ أقول: الله قالها صراحة في آية أخرى وهي قوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠﴾ [سورة الأنبياء, ٣٠]، حيث نلاحظ ربط الله عز وجل الماء ببداية الخلق، فبعد فتق السماء والأرض جعل من الماء كل شيء حي، فالسماء والأرض كانتا موجودتين وفتقتا، ثم أنزل الله الماء فتفاعل مع التربة وتغيرت التربة إلى الشكل الذي أراده الله عز وجل، إلى أن كون الله الخلايا النباتية ثم تكونت بعد ذلك الخلايا الحيوانية، ولنا مع هذا الموضوع وقفة في مسألة خلق الانسان.

إذا فهذه مرحلة جديدة من مراحل خلق الكون، وهي مرحلة إنزال الماء وبدأ نشأة الحياة على الأرض بالتصميم الإلهي المسبق، وبعد ذلك تفاعلت العناصر مع بعضها

---

(155) بداهة "خضرا" لا تعني أخضر، ونترك للقارىء المجال للتفكر في المعنى المحتمل من هذه الكلمة، وهو قريب جدا من استعمالنا المعاصر لكلمة مشابهة.

حتى ظهرت الكائنات المعقدة التركيب(156). ولكن ما الذي يجعل الكون مستمرا في الوجود؟ فمن المعلوم أن الكون مكون من مادة والمادة ما هي إلا تكاثف طاقة، فما الذي يبقي الكون على حاله؟

نجد أن الله يجيب على هذا السؤال أيضا، وذلك في آية هي غاية في الإبداع وقمة في دقة الوصف العلمي لحال الكون وهي :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾ [سورة فاطر, ٤١]

فهذه الكلمة وضحت حالة الكون وأنه لا يمكن أن يقوم بنفسه وأنه مفتقد لمن يقوم به، فالمخلوقات في الكون وإن وضع الله قوانين وسنن تسير عليها، تبدو لمن لا يتدبر أنها تتحرك بطريقة طبيعية بدون مسير، ولكن الكون ذاته يمسكه الله عز وجل أن يزول.

ولكن ما معنى الزوال؟ نعرض أولا ما قاله الإمام الطبري في هذا الموضوع، حيث قال ما نصه: "يقول تعالى ذكره: إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضَ لئلا تزولا من أماكنهما وَلَئِنْ زَالَتا يقول: ولو زالتا إنْ أمْسَكَهُما مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ يقول: ما أمسكهما أحد سواه. ووضعت «لئن» في قوله وَلَئِنْ زَالَتا في موضع «لو» لأنهما يجابان بجواب واحد، فيتشابهان في المعنى (لا تصدق هذا الكلام الفارغ، فلا يوجد شيء يوضع مكان شيء في القرآن –المؤلف–) ونظير ذلك قوله: وَلَئِنْ أرْسَلْنا رِيحا فَرَأَوْهُ مُصْفَرّا لَظَلّوا مِنْ بَعْدِهِ يكْفُرُونَ بمعنى: ولو أرسلنا ريحا، وكما قال: ولئن أتَيْتَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بمعنى: لو أتيت. وقد بيّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:22202.

(156) نحن نرى أن هذا التفاعل تم عن طريق الملائكة التي كانت تأخذ الخلايا الحيوانية وتضعها في الأرحام الأرضية حتى يتم اكتمال النمو وخروج الحيوان من الأرض.

حدثَنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَوَات والأرْضَ أنْ تَزُولا من مكانهما" اهـ

ولمثل هذا ذهب الإمام ابن كثير والقرطبي، فهم يرجحون أن الزوال بمعنى الحركة والاضطراب، ولكن ما معنى الزوال في اللغة؟

الزوال كما جاء في اللسان هو "الذهاب والاستحالة والاضمحلال"، وهذه المعاني جميعا متمثلة في هذه الكلمة، فلولا الله ما قامت للكون قائمة وهذا الكلام ليس كلاما إنشائيا بل هو كلام علمي تماما، فالله عز وجل يقول أنه خلق الكون من العدم وهذا ما رجحه العلم الحديث حتى الآن، يعني من لا شيء ظهر كل هذا الكون فما الذي يمنعه أن يتلاشى مرة أخرى ويعود إلى العدم؟

الله الذي يمنعه من التلاشي والعود إلى العدم، وهو أيضا الذي يمنعه من أن يضطرب نظامه فهو الذي سن له هذه القوانين التي يسير عليها ويتفاعل بها، ولولا الله ما انتظم لهذا الكون عقد ولا نشأ من الأساس. وبهذا جمعت الكلمة الواحدة المعاني الكاملة لسلطان الله على الكون فهو يمنعه من الاضطراب والفوضى ويمنعه من التلاشي والعودة إلى العدم، وسبحان الواحد العلام.

خلق الإنسان

وبعد أن مررنا مرورا سريعا على الآيات التي تتحدث عن خلق الكون في القرآن، وحاولنا أن نستخرج منها تصورا عاما، نبدأ الآن بعرض فهمنا لآيات خلق الإنسان في القرآن: ننظر أولا ماذا تقول روايات الأقدمين في تفسير آيات الخق: جاءت الروايات الإسرائيلية تقول أن الخلق بدأ بآدم عليه السلام، وأن الله عندما أراد أن يخلقه أرسل الملائكة ليجمعوا طينه من الأرض، فاستعاذت الأرض منهم فرجعوا، إلى أن جاء عزرائيل فقبض هذه القبضة منها، فوكل من أجل ذلك بقبض أرواح بني آدم، ثم شكل

الله هذه القبضة من الطين على شكل تمثال وتركه سنين عديدة، وجاء الشيطان فدخل فيه وخرج، وكانت الملائكة تتعجب من هذا الخلق إلى أن نفخ الله فيه الروح، فتحول بقدرة قادر مرة واحدة إلى إنسان كامل، وبعد ذلك خلق الله من ضلع آدم عليه السلام حواء، ومنهما جاء الناس كلهم. وجعلوا أحداث القصة التي ذكرها القرآن بين آدم وإبليس، عندما خدعه وجعله يأكل من الشجرة المحرمة، في جنة الخلد، ثم طُرد آدم من الجنة وأنزل إلى الأرض ومن هذه المرحلة بدأت الحياة البشرية على كوكب الأرض.

هذا ملخص موجز لما ورد في هذا الشأن من الروايات، وهذه الروايات بها جزء من الحقيقة وكثير من الباطل، ونبدأ بعرض تأويلنا إجمالا، ثم نفصل في توضيح لم قلنا بهذا التصور.

ملخص التصور

عندما بدأ الله خلق البشر، بدأ الخلق من الطين، وبعد مروره بعمليات تحول كثيرة، صار خلية حيوانية، أو ما يسمى حاليا ب: "الجنين"، وهو الناتج عن اندماج الحيوان المنوي بالبويضة، –وليس بالمفهوم المتعارف عليه بين العوام أنه طفل صغير– وأودع الله –بواسطة الملائكة– هذه الخلية في "أرحام أو حضانات أرضية"، أنشأها الله بشكل طبيعي أيضا، وجعل لها دورة تغذية ذاتية من الأرض، كما نجد في النباتات كلها، وجعلها مستقرا للخلية، وانقسمت هذه الخلية بأمر الله وتفرعت إلى أن صارت هذا الكائن المسمى بشرا، وخرج هذا الكائن من الأرض، حقا لا مجازا، ناضجا لا طفلا، فتشققت الأرض عن البشر وخرجوا من الطين. وعندما خرج هذا الكائن لم يكن فردا واحدا بل كان أفرادا كثيرة، وتتابع خروج هؤلاء الأفراد، ومن بين هؤلاء الأفراد كان آدم عليه السلام –ولم يكن في الجيل الأول من الذين خرجوا من الأرض– وكان هذا الكائن لا يستطيع الكلام، ونرى أن هؤلاء الأفراد الذين خرجوا من

الأرض كانوا محنيي الظهور قليلا، ثم استقامت ظهورهم فيما بعد، وكانوا يتصرفون ويتعاملون بغرائزهم كالحيوانات من قتل وسفك للدماء، ولكن كان لهم بناء دماغي متطور وجهاز صوتي متطور عن الحيوانات أيضا، وفيما بعد أُنسن هؤلاء الأفراد عن طريق نفخة الروح، وتم تعليمهم اللغة التي علمها الله آدم وعلمها هو لهم، وبطبيعة الحال كانت لغتهم جد بدائية مثل حياتهم، ثم تطورت الحياة وأدواتها وتشعبت، وتفرق الناس وأنشأوا حضارتهم الخاصة بهم، التي استمرت وتطورت إلى أن وصلت إلى شكلها الحالي في عصرنا الحديث"[157]

هذا ملخص ما خرجت به من خلال نظري في آيات الخلق في القرآن، وأبدأ بعرض الآيات التي استندت إليها في تكوين هذه القول:

يؤمن جميع المسلمين أنه لا تعارض بين آيات خلق الإنسان، وأن الله عندما ذكر الخلق من تراب أو من ماء أو من طين، ومرة يكون هذا الطين لازب ومرة كالحمأ المسنون ومرة من صلصال كالفخار، فكل هذه مراحل لخلق الإنسان انتقل من مرحلة إلى أخرى.

وهذا أول ما نستدل به على فهمنا، فلو تم الخلق بالطريقة التي ذكرتها الروايات؛ من أن الله خلق آدم كتمثال من طين ثم نفخ فيه الروح، فصار بشرا حيا من لحم ودم وعظم، لكان الله مطلق القدرة في غنى عن أن يقوم بخلق آدم في هذه المراحل، وكان يمكن أن يأتي بقطعة من الطين ثم ينفخ فيها الروح فتتحول إلى بشر.

ولكن الله لم يذكر ذلك في القرآن، بل ذكر أن الإنسان خلق في مراحل عديدة بشكل طبيعي لا طفرة فيه، فإذا فهمنا من ذلك أن هذه المراحل كانت مراحل ضرورية لخلق الإنسان بأمر الله بشكل طبيعي فلا حرج علينا.

---

(157) ظهر لي هذا الفهم في أواخر الصف الدراسي الثالث الجامعي، وكنت مترددا فيه في باديء الأمر ثم ثبت عليه فيما بعد، في أوائل الصف الدراسي الرابع.

إذا فأول مرحلة في خلق الإنسان هي التنقل في مراحل "جمادية" متعددة، من ماء وتراب إلى طين، ثم انتقل خلق الإنسان بعد ذلك إلى المرحلة الحاسمة وهي المرحلة "الحياتية"، حيث حولت هذه التركيبة من الطين إلى خلية حيوانية –ويمكن القول بأنها مرت بمرحلة نباتية قبل هذه المرحلة، ثم تحولت الخلية النباتية إلى خلية حيوانية–، فالله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [سورة نوح, ١٧]، –وللآية تأويل آخر سأذكره فيما بعد– ثم انقسمت هذه الخلية إلى عدة خلايا، وغُرس هذا النشأ في باطن الأرض بواسطة الملائكة في "الأرحام الأرضية"، ومرت بنفس المراحل التي يمر بها الجنين في بطن أمه، إلى أن خرج الإنسان من باطن الأرض كما يخرج الفرخ من البيضة.

وللقارىء أن يسأل: أين الدليل على هذا في القرآن؟ نقول: لنذهب معا إلى سورة المؤمنون ولننظر في الآيات التي تدور عن هذا الموضوع: يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ ... ١٤﴾ [سورة المؤمنون, ١٢-١٤]

ونذهب أيضا إلى سورة الأنعام، فنجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [سورة الأنعام, ٩٨]

فهذه الآيات تتحدث صراحة عن بدأ خلق الإنسان والمراحل التي تمت في هذا الخلق، حيث بدأ الخلق بنفس واحدة، و"النفس" هي: أي كائن به حياة، بدءا من الخلية وانتهاءا بالإنسان، وذكر الله أن الخلق بدأ بنفس واحدة ثم ذكر في مكان آخر أن الخلق بعد المرحلة الجمادية بدأ ب"سلالة" أي خلية بالمصطلح العلمي

المعاصر،[158] أصلها من طين ثم تحولت هذه الخلية إلى "نطفة"، والنطفة أصل لغوي وهو كل ما فيه رطوبة، أو يقصد منه القليل من الماء أو قطرة الماء، أي تحولت الخلية إلى ما يشبه الماء، وهذه النطفة هي التي أودعت في "الأرحام الأرضية"، ثم استمرت مراحل الخلق بعد ذلك كما ذكر في الآية، من تحول إلى علقة وهي في اللسان "الشيء المتعلق بغيره أو الدم المتخثر"، وكما قلنا مسبقا، فينبغي في الفهم أن يكون موسعا، فنأخذ هنا بالمعنيين المذكورين من أنه تحول إلى نسيج نشأت به الأوعية الدموية وعلق بجدار الرحم الأرضي، ثم تحولت العلقة إلى مضغة، والمضغة هي ما مضغ، والممضوغ: شيء مختلط لا تمايز فيها، وهذا ما نراه في الجنين حيث أنه يكون كقطعة لحم مختلطة لا تمييز لأي عضو فيها، ثم يبدأ التميز بعد ذلك وتظهر الأعضاء، وهذا ما ذكره القرآن في آية أخرى عندما قال: ﴿... مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... ۝٥﴾ [سورة الحج, ٥]، ثم يأتي بعد ذلك طور خلق العظام، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ... ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون, ١٤] وبعد ذلك يأتي طور خلق العضلات، وهو ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿... فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ... ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون, ١٤]، ثم تتم عملية الخلق والنمو الكامل والنشأة للإنسان، ويستوي ويصير مخلوقا كاملا ويحين وقت خروجه من الأرض. سيقول قائل: ولكن الآيات التي تستدل بها هي في خلق الإنسان في الرحم. أقول: نعم هناك في القرآن آيات جمعت الحديث عن مرحلتي الخلق فتحدثت عن الخلق من التراب، ثم ثنت بعد ذلك مباشرة بالحديث عن الخلق في رحم الأم[159]، مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

[158] أنا أرى أن استعمال كلمة "خلية" لهذا المدلول استعمال خاطىء، والأولى استعمال كلمة "سلالة" فهي التي وردت في القرآن، ويتطابق وصفها مع حال "الخلية"، ونلاحظ أنها بالإنجليزية **cell**، وبالألمانية **Zelle** ، ويلاحظ التشابه الشديد بين بناء الكلمات وبين "سل" العربية.

[159] يمكننا أن نفهم هذه الآيات أيضا على أنها في مرحلة واحدة وهي مرحلة الخلق العادية هذه الأيام وليس مرحلة خلق الإنسان الأول من الأرض مباشرة، فالتراب هو أصل المواد الغذائية التي يأكلها الإنسان، ومن هذه المواد يتكون المني أو البييضات، والذي ينشأ منهما الجنين بعد ذلك.

لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ... ﴿٦٧﴾] سورة غافر, ٦٧[، أو ما جاء في قوله تعالى: ﴿... أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾] سورة الكهف, ٣٧[.

ولكن هنا في هذه الآيات لا يوجد مبرر للانتقال إلى المرحلة الثانية من الخلق، فهي تتحدث عن المرحلة الأولى وهي الخلق المباشر من الأرض فيجب أن تفهم في هذا النطاق ولا تنقل إلى نطاق آخر، ولقد اضطر المفسرون القدامى إلى القول بالانتقال إلى المرحلة الثانية وهي الخلق في بطن الأم في هذه الآية، لأن هذه الآية كانت تعارض ما تعارفوا عليه في خلق آدم عليه السلام فقالوا لا بد أن هذه الآية مثل سابقيها من الآيات فأولوها على هذا الأساس.

ولست أدري صراحة لم تبعهم المفسرون في العصر الحديث، فيمكننا أن نفهم الآيات كما هي على أنها في المرحلة الأولى فقط وأن هذا الخلق تم كما قلت في ما يسمى "الأرحام أو الحضانات الأرضية"، ولقد جاء هذا التصور إلى ذهني عندما تأملت في هذه الآية وفي آية الأنعام وتساءلت لم لا يكون الحديث هنا لا يزال في المرحلة الأولى من الخلق؟ ما مبرر الانتقال؟

فنظرت في الآيات فلم أجد ما يبرر الانتقال، بل إني وجدت الآيات الأخرى تؤيد التصور الذي ذهبت إليه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾] سورة نوح, ١٧[، حيث تأكد في ذهني أنه قد يكون في هذه الآية إشارة إلى أن الناس خرجوا من الأرض كما يخرج النبات فقفز في ذهني التصور السابق بقوة أكبر.

وذات يوم كنت أقرأ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾] سورة ق, ٤٤[فانتبهت إلى أن الأرض ستنشق عن الناس يوم القيامة ويخرجون مسرعين إلى أرض المحشر فلم لا يكون هذا ما كان فعلا في بداية الخلق؟، والله عز وجل يقول ﴿... كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ ... ﴿١٠٤﴾] سورة الأنبياء, ١٠٤[.

فثبت عندي هذا الفهم وخاصة أنه لا يأول أي آية من الآيات المتعلقة بالخلق بل يأخذها جميعا كما هي، ووجدت أيضا أن آية الأنعام تقول بعد الحديث عن الخلق من النفس الواحدة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ ... ﴾ [سورة الأنعام, ٩٨]، فأين يمكن أن تكون استقرت هذه النفس مباشرة –لاحظ استعمال الفاء– بعد خلقها، وأين استودعها الله يا ترى؟ فكان هذا الفهم في رأيي فهما مقبولا معقولا، متفقا مع القرآن والعلم الحديث الذي لا يزال يرى في الظهور المباشر للمخلوقات بدون تطور القول الأصح في مسألة الخلق، وإن كان هذا يسبب مشكلة بالنسبة له –لأنه يرفض نظرية الخلق المباشر من إله– ولو أنه قبل بالخلق المباشر من إله لرأى فيما قلنا نظرية مقبولة للخلق.

وإذا نظرنا في باقي الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، وجدنا أنها تؤيد ما ذهبنا إليه، فمن ينظر في هذه الآيات يجد أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [سورة الإنسان, ٢]، ولقد قال المفسرون أن المراد من الإنسان هنا كل بني آدم ما عدا آدم!!، أي أن آدم غير داخل في هذه الجملة، وهذا الفهم ليس من الآية بل من أذهانهم، لأنهم يعتقدون أنه خلق كتمثال[160] لذا لا بد من تأويل الآية وجعل آدم غير داخل فيها مع أنه إنسان أيضا، فإذا كان آدم عليه السلام خُلق بالصورة التي يقولون بها أي كتمثال، لكان غير داخلا في هذه الآية فتكون غير صحيحة، أما إذا قلنا بطريقة الخلق التي أقول بها فتكون الآية صحيحة ومطابقة للواقع.

(160) المتدبر في القرآن يجد أنه أيضا ينفي مسألة أن آدم خلق كتمثال ثم نفخ فيه الروح، فمن ينظر في القرآن يجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ [سورة الحجر, ٢٨]، فالله تعالى قال للملائكة: ﴿... إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴾ [سورة ص, ٧١]، ومن البدهي أن البشر كائن حي، فإذا كان الله سيخلق تمثالا ثم ينفخ فيه الروح لقال "إني خالق كهيئة البشر"، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿... أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ... ﴾ [سورة آل عمران, ٤٩]، فعيسى عليه السلام كان يشكل تماثيل على هيئة الطير، أما الله فخلق بشرا وليس كهيئة البشر، وتأمل الفرق.

ونورد هنا دليلا أخر على ما نقول به، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٩]
وفي هذه الآية برهان عظيم ودليل سليم لما نقول به، فعيسى عند الله مثل آدم، خلق من تراب ثم قيل للتراب بأمر القدرة كن فتحول التراب إلى أن صار إنسانا، ولا بد من الملاحظة أن النظرية التي قلت بها هي الوحيدة التي تطابق مراحل خلق آدم عليه السلام بمراحل خلق عيسى بخلاف كل النظريات الأخرى، فعلى الرواية الإسرائيلية تحول آدم من الطين إلى بشر وعيسى لم يكن كذلك، وعلى الأخذ بأقوال الداروينيين فآدم تطور وعيسى لم يتطور بل خلق في رحم.

فآدم أخذ من التراب ومر بمراحل مختلفة ثم أودع في رحم أرضية سواءا كانت نباتية كما نرجح أو حتى ذات أصل حيواني ولكنه أودع في رحم وخرج منه إنسانا كاملا كما خرج عيسى عليه السلام، وإذا قلنا أن هذا ما حدث مع عيسى عليه السلام من أخذ خلية "جنين" ذات أصل ترابي ووضع في رحم السيدة مريم ثم نما حتى صار إنسانا كاملا فهو قول محتمل، لا ترده اللغة أو العقول وهو تأويل معقول للآية والله أعلى وأعلم.[161]

أدلة على أن الخلق بدأ بجماعات

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى، وهي الدليل على أن الله عندما بدأ خلق الإنسان لم يبدأ الخلق بإنسان واحد بل ببشر كثيرين: والأدلة على ذلك كثيرة ومتناثرة في القرآن، ولكن المشكلة في الإسرائيليات التي تصد عن الفهم المباشر للآيات، فالله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الأعراف, ١١] فالآية تذكر الخلق بصيغة

[161] نحن لا ننفي أن يكون خلق المسيح عليه السلام تم بشكل آخر خارق، ولكنا نذكر هنا احتمالية للفهم.

الجمع ولا مبرر لصرف الآية عن ظاهرها، والقول بأن المراد منها هو المفرد بعيد، فهذا يعد تعسفا في التأويل، ثم إنها تذكر الخلق وتستعمل "ثم" في الحديث عن السجود لآدم، وهذا يفيد أن السجود لآدم كان بعد فترة طويلة من الخلق عندما تعلم الأسماء. وهناك آيات أخرى تذكر المخلوقين بصيغة الجمع وسنذكرها في سياقها.

أما الدليل على أنهم كانوا يتصرفون كالحيوانات ولا يعقلون، فمنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾]سورة البقرة ,٣٠[(162). ففي هذه الآية دليل واضح على أن البشر كانوا جمعا وليس فردا، وكانوا يقتلون بعضهم بعضا لأنهم لم يكونوا يعقلون، فتعجبت الملائكة عندما علمت أن الله سيجعل هؤلاء المتخلفين خلفاؤه في الأرض.

ووردت الإسرائيليات التي تمنع الفهم الصحيح للآية وتصرفه عن ظاهره المراد، فقال العلماء توفيقا بين الروايات والآية: ليس المقصود من ﴿... مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... ٣٠﴾] سورة البقرة ,٣٠[أن البشر كانوا يفعلون ذلك فعلا، بل ربما علمت الملائكة بذلك أو أنهم اعتقدوا أنهم سيتصرفون مثل الجن الذين كانوا قبلهم على الأرض فيفسدون في الأرض.

---

(162) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ١﴾] سورة الإنسان ,١[والعجيب أن السادة المفسرين فسروها تفسيرا عجيبا، فقالوا كما أورد الإمام الرازي: "اتفقوا على أن {هَلْ} ههنا وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾] سورة الغاشيـة ,١[بمعنى قد!!، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل وعظتك هل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، وقد تجيء بمعنى الجحد، تقول: وهل يقدر أحد على مثل هذا، وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام فظاهر، والدليل على أنها ههنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان الأول: ما روي أن الصديق رضي الله عنه لما سمع هذه الآية قال: يا ليتها كانت تمت فلا نبتلي، ولو كان ذلك استفهاماً لما قال: ليتها تمت، لأن الاستفهام إنما يجاب بلا أو بنعم، فإذا كان المراد هو الخبر، فحينئذ يحسن ذلك الجواب الثاني: أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر"اهـ

إذاً فهم السادة العلماء أن *هل* بمعنى "قد"!!، وبدلا من أن يقولوا أن الله يعلم هذا الأمر فهو يعرضه علينا من باب السؤال، لنسأله نحن لأنفسنا فنتحرك لنجيبه، فنبحث في عملية خلق الإنسان، قالوا إن هذا محال على الله، إذا فالاستفهام خبر، فاقرأ وتعجب!!

وهذه أفهام وأوهام لا تقدر على مكاتفة النص، ويجب علينا أن نغض الطرف عنها ونأخذ بما جاء في القرآن الكريم، فالملائكة لم تكن تعترض أو تتعجب بل كانت تقول ما ترى، والقرآن نفسه يقول أن الملائكة لم يكونوا يعلمون شيئا عن صفات هؤلاء، ومن يرى في النص غير ما قلنا فليقل به.[163]

إذا فالنص القرآني يتكلم عن خلق الإنسان إما بصيغة المفرد، الذي يراد ويحتمل منه الجنس مثل "بشر، إنسان، خليفة" وكلها ألفاظ تحتمل ما قلنا بشدة، فإذا جاءت الآيات التي تذكر ذلك بصيغة الجمع وجب حمل ذلك على الجماعة.

إذا فالجماعة البشرية كانت جماعة همجية، ولأسباب يعلمها الله اختار الله آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾]سورة آل عمران ,٣٣[فاختار الله آدم وعلمه ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ... ٣١﴾]سورة البقرة ,٣١[ومعنى الاسم الصفة المميزة، والموسوم هو الموصوف، فعلم الله سمات الأشياء المميزة لها، لكي تكون علامة مميزة لها، ونحن نتوقف في تأويل هذه الأسماء[164]، فالله عز وجل عممها وقال "كلها"، وأنا لم يظهر لي معنى مرجح أحمل الآية عليه، فمن العلماء من قال إن المراد من الأسماء أسماء الله، ومنهم من قال أسماء أي السمات المميزة للبشر وكيف يتصرفون، ومنهم من رأى أنها الأسماء الموجودة في اللغة، وفي كل قول جانب راجح وجانب مرجوح، لذا نتوقف في تأويل هذه الكلمة، حتى يأتي من يفتح الله عليه ويعطي فيها تأويلا جازما جامعا مانعا.

ثم قال الله بعد ذلك: ﴿... ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ... ٣١﴾] سورة البقرة ,٣١[، فما عود الضمير في "عرضهم"؟ اختلف المفسرون في عود الضمير في هذه الكلمة، لأن الضمير "هم" لجمع المذكر لا يعود إلا على العاقل، فأولوا الضمير كالعادة، واختلفوا

[163] درسنا هذه الآية في دروس العقيدة في الثانوية الأزهرية، ولقنونا التبرير المذكور وقبلناه كرأي مقبول وبدون أي اعتراض، فقد كنا لا نزال شبابا أغرارا نصدق كل ما يقال لنا.

[164] يمكننا القول أن الأسماء التي علمها آدم هي سمات الأشياء المرتبطة بها، وهذه السمات هي العلاقة بين الدال والمدلول، والتي على أساسها نشأت اللغة، ولكن كما قلنا نتوقف إلى أن يظهر الله لنا أو لغيرنا فيها فهما شافيا.

في عود الضمير اختلافا شنيعا، ولكن إذا عدنا بالضمير على العاقل، كما تقول اللغة، وهو "من" في قوله "من يفسد فيها"، فمن اسم موصول عام للمفرد والجمع، فلما قال الله "هم" علم أن هذا الاسم الموصول للجمع. فيكون مفهوم الآية "ثم عرض الله هؤلاء الناس على الملائكة"، وكان هذا العود للضمير مرفوضا من المفسرين لأنهم كانوا يرفضون وجود أناسا آخرين مع آدم عليه السلام.

وبعد أن عرض الله البشر على الملائكة قال لهم: ﴿... أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [سورة البقرة ,٣١] فأمرهم أن يخبروه بسمات البشر فقط، لا سمات الأشياء الموجودة في الطبيعة، ولم تكن الملائكة تعرف ما هي سمات وطبيعة هؤلاء البشر، فردوا على الله بكل تقديس وقالوا: ﴿... سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [سورة البقرة ,٣٢].

وهنا يأمر الله آدم أن يعلمهم –البشر وليس الملائكة – فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ[165] أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [سورة البقرة ,٣٣] إذ أنه ليس من المنطقي أن يسأل الملائكة عن أسماء البشر فلا يعرفون، فيأمر آدم أن يخبر الملائكة بأسمائهم، فيخبرهم بسماتهم وماذا يعملون وكيف يتصرفون في هذه الدنيا، فالملائكة أدرى بحالهم ولكنهم لا يعرفون أحوال البشر.

وعندما أنهى آدم عليه السلام وعلمهم وبلغهم أمر الرب حدث شيئان متتاليان: خاطب الله الملائكة قائلا: ﴿... قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [سورة البقرة ,٣٣]، تمت مكافئة آدم عليه السلام

(165) لا يجوز أن نفهم من هذه الآيات أن الله كان يخاطب آدم كما نخاطب بعضنا بعضا، وإنما خطابه سبحانه بهيئة هو أعلم بها: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [سورة الشورى ,٥١]. فالله خاطب آدم بطريقة غير الخطاب بين البشر ويجب أن لا نعتقد أن الإنباء كان في دقيقتين أو شيء من هذا القبيل بل أخذ فترة لا يعلمها إلا الله.

بأن أُمرت الملائكة بأن تسجد له –ويجب أن لا يفهم السجود وضع الجبهة على الأرض فالملائكة لهم خلقة غير خلقتنا فيجب أن يكون السجود مناسبا لخلقتهم لا خلقتنا– وأُدخل ومن معه جنة أرضية أي حديقة غناء كثيفة الأشجار، تستر من فيها.

ونورد هنا دليلين آخرين على أن البشر كانوا في البدء جماعات همجية، ثم اصطفى الله آدم ليعلم البشر:

- الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [سورة السجدة, ٧-٩].

فهذه الآيات دليل أكبر من واضح على ما نقول به، ولكن قُلبت عند التعامل معها من قبل المفسرين، ولننظر أولا كيف فسروا هذه الآيات ثم ندلي بدلونا، ونعرض هنا ما ذكره الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات، حيث قال ما نصه: "ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿... وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [سورة السجدة, ٧] يعني: خلق أبا البشر آدم من طين!!. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [سورة السجدة, ٨] أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ ... ٩﴾ [سورة السجدة, ٩] يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما، ﴿... وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ... ٩﴾ [سورة السجدة, ٩]، يعني: العقول، ﴿... قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [سورة السجدة, ٩] أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل" اهـ

إذن فالمفسر الجليل ابن كثير يرى أن "الإنسان" المذكور في الآية هو آدم عليه السلام، ولا حرج في هذا الفهم بالنسبة للأرضية المعرفية في ذلك العصر، ثم علق على الجزء التالي تعليقا مقبولا، ولكن أن يعود فيجعل الضمير في قوله "سواه" عائدا على آدم عليه السلام فهذا ما لا يقبل بأي حال من الأحوال، فالآيات ذكرت "ثم"

مرتين، فقالت أن مراحل الخلق مرت كالتالي: بدء خلق الإنسان من طين، ثم جعل النسل من ماء مهين: أي عن طريق التزواج، وليس عن طريق الخروج أو الخلق من الأرض، ثم تسوية هذا الكائن ونفخ الروح. ولكن لما كان هذا الترتيب يجعل نفخ الروح بعد بدء الحياة وليس سببا فيها[166]، فكان لا بد أن يخالف هذا الترتيب ويترك، ويصبح الحرف "ثم" بلا مدلول، فهي دوما تفيد الترتيب والتراخي، ولكنها هنا لم تفد أي شيء، بل ربما أنها أفادت هنا معنى "قبل".

والإمام ابن كثير لم يلق بالا لما يقول كأن إلغاء معنى "ثم" وقلبها وجعلها بمعنى "قبل" أو بدون أي معنى لا يعني شيئا! ولكنا نجد في الكتاب الذي قالوا عنه أنه فيه كل شيء إلا التفسير توقفا مع هذه النقطة، ونعني تفسير الفخر الرازي، الذي انتبه إلى أن هذا الترتيب يقول بعكس ما يقولون به تماما، فعلق عليه ثم التف حوله بمهارة وبراعة، فنجده يقول: "وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ... ﴿٩﴾﴾]سورة السجدة ,٩[عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ ... ﴿٥٧﴾﴾] سورة غافر ,٥٧[ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ... ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ... ﴿٩﴾﴾] سورة السجدة , ٨-٩[أي كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً، وقوله تعالى: ﴿... وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ... ﴿٩﴾﴾] سورة السجدة ,٩[إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف"اهـ

فهذه الآيات تخبرنا الترتيب الذي حدث عند الخلق، بدأ الخلق من طين وخروج الناس من الأرض، ثم انتقال الناس إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التزاوج، وانتقال النسل إلى مرحلة التكون من المني، ثم تسوية الإنسان ونفخ الروح فيه. ولو كان ما

---

[166] كما قلنا سابقا فالقرآن لم يذكر الروح أبدا على أنها سبب للحياة أو أنها تخرج عند الموت، بل يذكر دوما "النفس" أو "الأنفس"، وتتبع هذا في السنة، فنجد دوما أن الرسول المعصوم كان يقول دوما "والذي نفس محمد بيده"، فلم يرو عنه مرة أنه قال "والذي روح محمد بيده"، والناس هم الذين خلطوا بين الروح والنفس وجعلوهما واحدا.

يقولون به صحيحا، لما وجد هذا التريب بتاتا في القرآن لأنه عكس ما هو موجود في أدمغة السادة العلماء، ولكن ها هو الدليل واضحا على أن الإنسان وجد وتناسل قبل نفخ الروح.

إذا وكما رأينا عزيزي القارىء، فإن آيات السجدة دليل جد واضح وصريح على ما ذهبنا إليه، ولا يؤول هذه الآيات إلا متعسف، متبع لما وجد عليه الآباء، والله المستعان.

- والدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [سورة الأنعام ,١٣٣]

فالله تعالى يتوعد البشر بأنه من الممكن أن يذهبهم ويستخلف –كما استخلفنا من قبل– "ما يشاء"، فهذا دليل على أن الجنس المستخلف سيكون غير عاقل، بدليل قوله تعالى "ما"، ولقد انتبه بعض المفسرين إلى هذه النقطة، ولكنهم لم يستخرجوا منها ما نقول به، ونورد ما قاله الإمام الرازي في تفسير هذه الآية، حيث قال ما نصه: ﴿... وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم ... ١٣٣﴾ [سورة الأنعام ,١٣٣] يعني من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت. وأما قوله: ﴿مَا يَشَاء﴾ فالمراد منه خلق ثالث ورابع، واختلفوا فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، وقال أبو مسلم: بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس قال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة، فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي النواب، فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم. ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال: ﴿... كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [سورة الأنعام ,١٣٣] لأن المرء العاقل إذا تفكر علم أنه تعالى خلق

الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها." اهـ

فالإمام الرازي لاحظ وجود "ما" ولم يأولها هذه المرة ويجعلها في العاقل، ولكن الإمام الرازي عاد ففقد الإنطلاق من النص، فبدلا من أن يربط بين ﴿... كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾ [سورة الأنعام, ١٣٣] ويخبرنا من هم هؤلاء "القوم الآخرين" قال كلاما إنشائيا جميلا لا علاقة له بالنص، والآية كما ترى عزيزي القارىء دليل واضح فيما نقول، فالله يتوعد أنه من الممكن أن يذهبنا ويستخلف من بعدنا أي جنس آخر –وسيكون هذا بنفخ الروح فقط، فهذا هو الفارق الوحيد بيننا وبين الحيوانات؛ نفخة الروح الإلهية–، كما أنشأنا من ذرية قوم آخرين ألا وهم الهمج، فهم كانوا حيوانات لا عقل فيها، ثم نُفخ فيها الروح فصار منها الإنسان، وهذا ما سيحدث إن لم نرتدع، يؤخذ جنس آخر، وينفخ فيه الروح فيصير عاقلا، ويُستخلف في الأرض.

وهذا دليل أكثر من واضح على أننا لسنا مثل أصلنا، بل خرجنا من ذرية قوم آخرين؛ هم الهمج، والله أعلم.

الروح

قد يسأل سائل: ولكن ما هو الروح، إذا كان الإنسان قد خُلق وعاش وتناسل قبل أن يُنفخ فيه الروح؟[167] الذي نراه –والله أعلم– أن المراد من الروح هنا القدرة على التفكير، فالإنسان كان موجودا ولكنه يتصرف كحيوان، فأعطاه الله القدرة على التفكير والمشاعر المتطورة، ومع المقدرة على التفكير نشأت اللغة، ومع نشأة اللغة ظهرت

[167] أكثر المسلمين يتصور الروح شيئا أقرب إلى الشبح، موجود بداخلنا، ويخرج هذا الشبح عند الموت من الإنسان ويحلق في الفضاء إلى أن يصعد إلى السماء، وترسخ هذا التصور بسبب أقوال العلماء وأفلام السينما!!

الحضارة وتميز الإنسان عن الحيوان، ولذا يرسل الله الملك كما جاء في الحديث لينفخ الروح في كل جنين، وبسبب اختلاف نفخة الروح هذه في كل إنسان يختلف الناس في ذكائهم ومشاعرهم.[168] وقد يكون المقصود من الروح شيئا آخر لم نصل إليه، ولكنه لن يكون أبدا شيئا من الله، فالله لا يتجزأ، ولكنه شيء منسوب إلى الله، كما يقال بيت الله.

الدليل على أن جنة آدم كانت أرضية

قد يقول قائل: ولكن كلامك هذا كله مبني على أساس أن جنة آدم جنة أرضية، ولا بد أن القرآن وضح هذا أيضا أيما توضيح، فهلا عرضت الدليل من القرآن على أن هذه الجنة كانت أرضية. نقول: الحديث في النص القرآني واضح وصريح بأن آدم كان في جنة أرضية، ولذا نجد أن الخلاف على كون جنة آدم أرضية أو سماوية حادث من أيام السلف، ولولا الروايات الإسرائيلية لما ظهر القول بأنها كانت جنة سماوية. ولأن منطلقنا كالعادة هو القرآن، فنستخرج منه الدليل على أن جنة آدم كانت جنة أرضية:

عندما تكلم الله عن خلق البشر قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة طه ,٥٥]، فالبشر خلقوا من الأرض، ولم يبدأ الخلق بفرد، فما المبرر لرفع آدم إلى السماء ثم إهباطه مرة أخرى؟ هذا طبعا على فرض أن آدم خلق منفردا ثم خرجت منه حواء.

قال الله عز وجل: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأعراف ,٢٥] ومن المعلوم أن تقديم الضمير يفيد الحصر، والله تعالى قدم هنا

---

[168] نحن لا ننفي أن للبيئة وللتربية دور كبير في نسبة الذكاء وفي تشكيل المشاعر، ولكن هذا يتوقف بدرجة أساسية على القابلية الداخلية النابعة من الروح. ونود أن ننوه أن الإنسان يجب عليه ألا يعتقد أن روح الله شيء مادي، فحتى التصور الشبحي للروح هو مادي، ويستحيل أن يكون نفخ جزء من الله في البشر، فالله كما قلنا ليس واحدا، بل هو أحد لا يتركب من أجزاء، لذا يستحيل أن يكون التصور المألوف مطابقا للواقع.

"فيها"، فالله يخاطب البشر قائلا تحيون في الأرض فقط وتموتون فيها فقط ومنها تخرجون، فكيف يتم الحصر وآدم عليه السلام عاش في الجنة؟

لو كان آدم في جنة الخلد ما استطاع إبليس أن يدخل إليه، ولا يمكن أن نتقبل الرواية الإسرائيلية من أن إبليس دخل الجنة في بطن الحية، فأين كانت الملائكة حينئذ؟! أهم إثبات على أنها كانت جنة أرضية هو وصف جنة الخلد في القرآن ووصف جنة آدم، فبينهما فارق شاسع، وانظر في وصف الجنة في القرآن وقارن بينه وبين وصف جنة آدم القادم، وتأمل الفارق: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [سورة طه ,١١٨-١١٩]

فهل هذا وصف جنة الخلد؟ هل خلاصة الأمر في الجنة أن لا أجوع فيها وألا أتعرى وألا أعطش فيها وألا أتعرض فيها للشمس؟! ثم ما الفائدة من المن على آدم عليه السلام بشيء لم يره؟ وكيف يمن عليه بعدم التعرض للشمس وهو لم يرها في الجنة، أم أنه رأها في الجنة؟! فلا بد لكي أمن على شخص ما، من أقارن له بين ما أعطيته وبين ما كان عليه، فأين رأى آدم الشمس وحرها في جنة الخلد؟!

عندما دخل إبليس ليغوي آدم، ماذا قال له؟ قال الله تعالى: –حاكيا ما قاله إبليس– ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾]سورة طه ,١٢٠[فإبليس يمني آدم عليه السلام بأنه إذا أكل من هذه الشجرة فإنه سيعيش إلى الأبد، أي سيكون له الخلد، وهذا يحتم أن يكون آدم عليه السلام رأى الموت وعرفه، وعرف أن مآل الأحياء كلها، بما فيهم البشر، إلى الموت، ومن هذا المدخل دخل إليه إبليس ومنّاه بالخلد، أما إذا كان في جنة الخلد أصلا، فكيف يمنيه إبليس بشيء يفترض أن آدم لم يره –فكل ما في الجنة لا يفنى–، فلم ينبغي أن يُستثنى من هذه القاعدة آدم، ويكون هو الوحيد الذي سيموت، وكيف يعرف آدم هذا؟!

والدليل الأكثر وضوحا هو قوله: "وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ"، فلو كان آدم في الجنة وليس معه أحد فعلى من يكون ملكا؟! هل يكون ملكا على الله والملائكة؟!! تعالى الله عن ذلك، أما إذا قلنا أنه كان على الأرض وكان معه بشرا آخرين، ورآهم آدم يموتون، فمنّاه إبليس بألا يموت ويصير خالدا –مثل الملائكة التي كان يعرف أنها لا تموت–، وأنه سيصبح ملك لهؤلاء البشر، إذا أكل من هذه الشجرة، فيكون هذا متفقا مع الآيات.

وننوه أن شبيه هذا المعنى ورد أيضا في آية سورة الأعراف عندما قال له: ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾]سورة الأعراف ,٢٠[التي أسيء فهمها وتفسيرها.(169)

قال الله عز وجل مخاطبا الهابطين من الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة البقرة ,٣٨[

(169) من ينظر في تفسير هذه الآية يجد أن السادة العلماء قلبوها تماما، فبدلا من أن يفهموا الآية كما هي، قالوا إن معنى الآية "ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة لئلا تكون ملكين وتكونا من الخالدين" أي أن الشيطان أقنع آدم أن الله عز وجل ما منعه عن هذا الشجرة إلا لكي لا يكون آدم ملكا أو من الخالدين. وهذا الفهم خاطىء تماما، فالآية لم تقل هذا المعنى بتاتا، وعند السادة العلماء الدليل من كلام العرب!!، ولكن نحن عندنا الدليل من القرآن، ولن نفترض وجود محذوف فيه، فنفهم الآية كما هي، أي أن الشيطان قال لهما "أنا لا أعتقد أن الله نهاكما أنتما عن هذا الشجرة، فالنهي ليس موجها إليكما إلا في حالة كونكما من الملائكة أو كونكما من الخالدين"، –ونحن نتوقف هنا في نوع الخالدين المخالف للملائكة– وبما أنكما لستما من الملائكة أو من الخالدين، فيمكنكما أن تقربا هذه الشجرة. والأمثلة على ذلك كثيرة في اللغة، ومن أمثلته الموجودة في القرآن قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة الأنعام ,١٤٥[، فماذا يفهم القارىء من هذه الآية؟ سيفهم أن الله يحكي على لسان النبي(ص) أنه لا يوجد صنف محرم من الطعام في هذه الشريعة إلا أن يكون واحدا من هذه الأصناف الأربعة، إذا فشرط التحريم اندراج الطعام في هذه الأصناف، وإن لم يكن منها فليس بمحرم. فكذلك الآية السابقة تقول أن إبليس خدع آدم وأوهمه أنه لا يدخل في الأصناف المواجهة بالخطاب لأنه ليس من الملائكة أو الخالدين. والملاحظ أن الله عز وجل عندما خاطب آدم وزوجه قال لهما ﴿... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾] سورة الأعراف ,٢٢[، فلو كان المعنى الذي يقول به المفسرون صحيحا، لكان من باب أولى أن يعاتب الله عز وجل آدم وزوجه قائلا "لم سمعتما للشيطان وشككتما في كلامي؟" والسادة المفسرون لا يتحرجون أن يقولوا أن آدم عليه السلام شك في كلام ربه، وشك أن الله لم يخلص له النصح، فهل يمكن أن يقبل هذه من إنسان عادي، فما بالنا بإنسان مختار ومصطفى؟!

فخاطب الله الهابطين مستعملا صيغة الجمع، فلو كان آدم وحواء في جنة الخلد واهُبطا منها، فلم يستعمل الله معهما صيغة الجمع ولم يقل "اهبطا"، بل ويؤكد ذلك بقوله تعالى "جميعا"؟! فالتأكيد بالجمع لا يعطي أي إمكانية إلا أن يكون الهابطون جماعة، أي اهبطوا جميعا ولن يستثنى منكم أحد، فإذا استعمل الله صيغة الجمع وكان الهابطين في جنة أرضية وهم جماعة، وقلنا بهذا القول فلا لوم علينا، ولا يمكن القول أن إبليس من ضمن المخاطبين كما قال بعض الأخوة، لأن معنى ذلك أن الله وعده أنه سيرسل إليه رسلا وهدى، وهذا ما لا يقول به أحد، ومن لديه قول آخر فليسمعنا إياه!!.

قد يقول قائل: لقد قال الله تعالى "اهبطوا"، ألا تجد أن هذا يرجح أنهم كانوا في الجنة التي في السماء؟ نقول: بالعكس، هذه الكلمة تؤكد كلامنا أكثر من كثير من الاستنباطات، فلو كان آدم في جنة الخلد كما يقال وطُرد منها، فكيف يهبط منها بدون مركبة فضاء؟! فلا يمكن أن يوجه الخطاب إلى آدم، بل ينبغي أن يوجه الخطاب لمن سيُنزله، ثم إننا لم نجد في أي آية من آيات القرآن التي تتحدث عن الخلق أي إشارة إلى أن آدم رفع، فلم لم يذكر هذا؟ أما إذا قلنا أن هذه الجنة كانت مرتفعة فعلا؛ فكانت على قمة جبل أو ما شابه، في مكان بعيد عن الهمج، فخوطبوا بالهبوط وقيل لهم "اهبطوا"[(170)] فلا حرج.

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة على أنهم كانوا جماعة وليس فردا واحدا، خرج منها وزوجه، وأنهم كانوا على الأرض، وبسبب نسيان آدم عليه السلام أُخرجوا من الجنة الأرضية، وبدأت رحلة الشقاء على الأرض.

[(170)] من الممكن أن يُفهم الهبوط على أنه قريب من معنى النزول، كما قال سيدنا موسى: ﴿... ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ... ﴿٦١﴾﴾ [سورة البقرة ,٦١]، فهنا الهبوط والله أعلم لا يستلزم أن يكون من علو، ولكنه قريب من معنى النزول، كما يقال نزلت الفندق، ونزلت عليه ضيفا. وهناك من يفهم أن الهبوط في هذه الحالة كان هبوط درجة ومنزلة.

بعض المسائل المتعلقة بعملية الخلق

قد يسأل سائل: وما الدليل إذا على أن هؤلاء الناس كانوا محنيي الظهور بعض الشيء، كما تقول؟ نقول: أما الدليل على أنهم ربما كانوا محنيين بعض الشيء ثم استقامت ظهورهم فيما بعد، هو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [سورة الانفطار, ٦-٧]، فالآية تحث الإنسان على ألا يتهاون بالله العلى العظيم، الذي خلقه فأحسن خلقه وأتمه فعدله[171].

ونورد ما ذكره الإمام الرازي في تفسير هذه الآية، حيث قال ما نصه: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي جعلك سوياً سالم الأعضاء تسمع وتبصر، ونظيره قوله: ﴿... أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [سورة الكهف, ٣٧]... وثالثها: قوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وفيه بحثان: البحث الأول: قال مقاتل: يريد عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، وهو كقوله: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [سورة القيامة, ٤] وتقريره ما عرف في علم التشريح أنه سبحانه ركب جانبي هذه الجثة على التسوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم، وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية، وقال أبو علي الفارسي: عدل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة والفكر، وصيرك بسبب ذلك مستولياً على جميع

[171] "عدل" كما جاء في اللسان: "(عدل) العَدْل ما قام في النفوس أنه مُسْتقيم وهو ضِدُّ الجَوْر عَدَل الحاكِمُ في الحكم يَعْدِلُ عَدْلاً وهو عادِلٌ من قوم عُدُولٍ ... وفي أَسماء الله سبحانه العَدْل هو الذي لا يَميلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم ... وقد قال غير الفراء في قراءة من قرأَ فَعَدَلك بالتخفيف إنه بمعنى فَسَوّاك وقَوَّمك من قولك عَدَلْت الشيء فاعْتَدل أَي سَوّيْته فاسْتَوَى ... ويقال لكل من لم يكن مستقيماً حَدَل وضِدُّه عَدَل يقال هذا قضاءٌ حَدْلٌ غير عَدْلٍ ..." اهـ

الحيوان والنبات، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم." اهـ

فقد ذكر الإمام الفخر الرازي عدة احتمالات، ولكنا نرى أن المراد منها قول ابن عباس، لأن الآية تحكي مرحلة الخلق مرحلة من بعد مرحلة، فتحكي مرحلة الخلق فالتسوية فالعدل، ولو كان المراد منها ما رواه مقاتل فلا جديد عند إضافة هذه الكلمة، إذ أن ما قاله مقاتل يدخل في قوله تعالى "سواك"، ولا يدخل في قوله "عدلك"، وبداهة، لا يمكن أن يكون اللفظان مترادفين، إذ العدل غير التسوية، لذا نرى أن رأي ابن عباس هو الأرجح.

فما المانع من أن يكون الإنسان منحنيا، ثم عدله الله أي جعله مستقيما؟ وأنا أعلم أن هذه الرأي لن يعجب الكثيرين، لأن فيه تشابها مع نظرية التطور، ولكن يجب أن لا نرفض شيئا من باب التعصب، ولنسأل أنفسنا: ألا يخرج الإنسان من بطن أمه لا يستطيع الجلوس؟ ثم يستطيع بعد ذلك الجلوس ثم الوقوف ثم المشي، والله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [سورة الروم , ٥٤].

والآيات القرآنية كما قلنا تتحرك على أكثر من مستوى، فهذه تصدق في المرحلة الحالية وفي مرحلة خلق الإنسان الأول، فلا مانع من أن يكون الإنسان الأول خرج من الأرض محني الظهر –مرحلة ضعف– ثم استقام ظهره، وبذلك يكون سرى عليه سنة الله؛ من البدء بضعف ثم الانتقال إلى حال آخر، وانظر ذلك واضحا في جميع مخلوقات الله!

أما لماذا حملنا هذه الآية على الإنسان الأول وليس على المولودين الذين يخرجون من بطون أمهاتهم، فنقول: نحن لم نقصرها على الإنسان الأول بل أردنا التركيز فقط على هذا المدلول من مدلولات الآية، وإلا فإن الآية تصدق على الواقع المعاصر أيضا، والله أعلم.

إذا كما رأينا واضحا من خلال استقراء آيات القرآن المتعلقة بهذه المسألة، تصب كلها في اتجاه ما نقول به، بدون أن نؤول حرفا واحدا. فنخرج من هذا كله أن آدم خُلق بطريقة طبيعية وليس كتمثال، وخُلق وسط جماعة من الهمج[172] ثم اصطفاه الله وعلمه ثم أدى آدم رسالته على أكمل وجه، ولا تزال عملية التطور والتقدم مستمرة منذ أن نفخ الله الروح في البشر[173].

اعتراضات وردود

قد يرى البعض أن عرض القصة في القرآن يوحي بخلاف ما نقول به. نقول: النظرة السطحية بدون أخذ أي دلالات في الذهن لما يُقرأ قد تؤدي إلى ذلك، ولكن من يقرأ النص فقط وليس أي شيء آخر سيجد ما نقول به واضحا، فعلى سبيل المثال اعترض علي أحد الزملاء ذات مرة في مسألة كون آدم عاريا، فقال لي: كيف تقول ذلك والله تعالى يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف ,٢٧]، وعلى الرغم من أن هذا كان بعد نفخ الروح وليس قبله ولا علاقة له بالمسألة فقلت له: "اقرأ الآية، إن الآية تقول: إن الجنة كانت هي لباسهما، فجملة "ينزع عنهما لباسهما" بدل من "أخرج" فالإخراج هو نزع اللباس، فعندما خرجا من الجنة نزعا عنهما لباسهما"

واللباس لفظ عام ومعناه الستر والإحاطة، وليس ما يرتديه الناس فقط، أما اللفظ المستعمل في القرآن لما نرتديه فهو "الثياب".

---

[172] قد يتحرج البعض من القول أن آدم عليه السلام كان همجيا أو عاريا، ولكن لا حرج في ذلك فكلنا نولد عراة ولا نفقه شيئا ونتصرف كالحيوانات تماما، ثم نبدأ في اكتساب كل المعارف تدريجيا وهذه هي سنة الحياة.

[173] تبعا لفهمنا فالقرآن لم يعرض لمسألة خلق الحيوان، ولكنا نرى أنه جرى بنفس الطريقة التي تم بها خلق الإنسان، أي الأرحام الأرضية لأن كلا الخلقين ينتميان إلى الطائفة الحيوانية، ولذا لم يعرض لها، طبعا مع الفارق أن الإنسان هو الوحيد الذي نفخ فيه الروح.

أما ما يحسبه البعض موافقا للنص التوراتي، من أن العورة كانت مخفية عنهما ثم لما أكلا من الشجرة ظهرت لهما، فليس له أساس في القرآن، فالله تعالى يقول: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ [سورة الأعراف, ٢٢]. فالآية لم تقل بدت لهما "سوءتهما" بل قالت "سوءاتهما"، فلو كان الحديث عن العورة لقيل "سوءتهما"، وليس المراد من السوءة العورة بأي حال، فالله تعالى قال على لسان ابن آدم لما قتل أخيه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [سورة المائدة, ٣١] فهل كان ابن آدم نادما لأنه عاجز عن أن يغطي مؤخرة أخيه مثلا، أم أنه كان نادما لعجزة عن مدارة سوء عمله؟ فالمراد من السوءة هو الفعل السيء، ونلاحظ أن آدم وحواء عندما ظهر لهما سوءة عملهما بمخالفة الأمر الإلهي طفقا يخصفان[174] "عليهما" وليس عليها، فلو قال الله:"عليها" لكان كل كلامنا عبثا، والفارق بين الاثنين: أنه طبقا لما في الآية: "عليهما"، أنهما أخذا يغطيان أنفسهما من ورق الجنة، فهما يريدان أن يتواريا، وهو شعور طبيعي عند كل من يفعل فعلا سيئا ويراه من عصاه، فهو يحاول أن يتوارى عنه بأي شكل، حتى ولو اكتفى بإغلاق عينيه حتي لا يواجهه!

أما "عليها" فهي تعني أنهما طفقا يغطيان عورتيهما فقط أي هذا الجزء من جسمهما. بل إن الدليل الأكبر على أن المراد من "سوءاتهما" هنا ليس عوراتهما أو الأعضاء

---

(174) الخصف كما جاء في المقاييس هو: الخاء والصاد والفاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اجتماعِ شيءٍ إلى شيء. وهو مطّرِدٌ مستقيم. فالخَصْف خَصْفُ النَّعْل، وهو أن يُطبَّق عليها مثلُها. والمِخْصَف: الإشْفَى والمِخْرزُ. قال الهذلي:

حَتَّى انتهَيْتُ إلى فِراشِ عَزِيزةٍ   سَوداءَ رَوْثَةُ أَنفِها كالمِخْصَفِ

يعني بِفراشِ العَزيزة عُشَّ العُقَاب. ومن الباب الاختصاف، وهو أن يأخذ العُرْيانُ على عَوْرته ورقاً عريضاً أو شيئاً نحْو ذلك يَسْتَتِرُ به. والخَصِيفة: اللَّبنُ الرائبُ يُصَبُّ عليه الحليب. ومن الباب، وإن كانا يخْتلفانِ في أنّ الأوّل جَمْعُ شيءٍ إلى شيء مطابقةً، والثاني جَمْعه إليه من غير مطابقة، قولُهم حَبْلٌ خَصِيفٌ: فيه سوادٌ وبياض. قال بعضُ أهلِ اللُّغة: كل ذي لونينِ مجتمعين فهو خَصِيفٌ. قال: وأكثر ذلك السَّوادُ والبياضُ. وفرس أَخْصَفُ، إذا ارتفَعَ البلَق من بطنه إلى جنْبَيه. اهـ

ونلاحظ أن ابن فارس ذكر هذا المعنى تأثرا بالفهم التوراتي للآية.

التناسلية هو قوله تعالى: ﴿... كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ... ٢٧﴾ [سورة الأعراف, ٢٧] فهل أخذ إبليس آدم وحواء وأخرجهما من الجنة ليريهما أعضائهما التناسلية، أما كانا يستطيعان رؤيتها في الجنة؟ ولا أعتقد أن أحدا يقول أن الجنة كانت مظلمة، إذا فلا بد من فهم السوءات أنها سيء العمل والعاقبة وليس العورات الجسدية.

ونخرج من هذا كله أن القرآن عرض القضية عرضا دقيقا، ولكن الآفة هي عدم التدقيق فيما يقوله النص، وعدم محاولة ربط الآيات بعضها ببعض، والاعتماد على الإسرائيليات في التفسير، والله أعلم.

لم يقول الله "يا بني آدم"، ما دام أن هناك بشر ليسوا من نسل آدم؟ نقول: أما خطاب الناس في القرآن بقوله تعالى "يا بني آدم" فهذا ليس من باب الغالب، بل الحقيقة، فالله لم يقل يا أولاد آدم، بل قال "يا بني آدم"، وذلك لأن آدم أب لجميع الناس أبوة معنوية فهو "أبو الإنسانية" من حيث أنه هو الذي علمهم وفهّمهم فيكون أبا لهم، ولا يعد هذا من باب المجاز فاللغة تتوسع في معنى "الأب" و"الابن"، وهذا ما ذكرناه من قبل.

والذي أرجحه بجوار ذلك أن أكثر الموجودين على الأرض الآن من ذرية آدم عليه السلام، فالخلق بدأ بعدد يعلمه الله، وتناسل هذا العدد وأنجب، ثم أرسل الله الرسل، وكان من لا يؤمن من البشر يهلك، وكان هذا الإهلاك من الله للعصاة حتى يحافظ على الجماعة المسلمة من الضياع والاندثار، وأعتقد أن أكثر الهالكين لم يكن من ذرية آدم، وإنما كان من ذرية الآخرين، أما ذرية آدم عليها السلام فكان معظمها حسنا خيرا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [سورة آل عمران, ٣٣-٣٤] فهؤلاء الأنبياء كانوا من ذرية آدم، فهم نسل مبارك، إذا ومع إهلاك الله

للجماعات الكافرة قل عدد البشر ذوي الأصول الخبيثة، وزاد عدد الأناس الأخيار ذوي الأصل الصالح المطهر.

وأما الدليل على أن هناك أناسا ليسوا من ذرية آدم عليه السلام، فهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [سورة مريم ,٥٨] فلو لم يكن هناك أناسي آخرين ليسوا من ذرية آدم لما كان للتخصيص معنى، ولكان اللفظ زائدا لا معنى له، وهذا ما لا يمكن، فيرجح القول بأن هناك بشر موجودين الآن ليسوا من ذرية آدم.

وهناك ما يشير في الروايات الشيعية إلى وجود هذا الصنف، حيث أنهم يروون في هذا الشأن "ذهب الناس وبقي النسناس" وطبعا ليس المقصود الحيوان الذي نراه في الغابة وحديقة الحيوان!

والقول بوجود بشر مع آدم عليه السلام يحل إشكاليتين كبيرتين، ألا وهما:

1- إشكالية الزواج: فكما جاء في الروايات أن حواء كانت تلد في البطن ذكر وأنثى، وكان ذكر البطن يتزوج أنثى البطن الأخرى، ولكن هذا لا ينفي أنهم لا يزالون أخوة، وهذا الذي استطاع مؤلفو الروايات أن يجدوه لحل هذه الإشكالية. أما نحن فنقول بكل سهولة أنه كان يوجد مع آدم عليه السلام بشر آخرون، وكان الأولاد يتزواجون بطريقة طبيعية بدون الحاجة إلى الزواج من الأخوة، وتوجد العديد من الروايات الشيعية التي تنفي أن يكون أولاد آدم قد تزوجوا من أخواتهم، وروي ذلك أيضا عن أبي مسلم الأصفهاني الذي قال أن الله أنزل لهم حوريات من الجنة للزواج.[175]

(175) وردت رواية عن الإمام جعفر الصادق، تنفي هذه الخرافة وخرافة أخرى هي خلق حواء من ضلع آدم الأيسر حيث تقول الرواية "سأل رجل جعفر الصادق: كيف بدأ النسل من ذرية آدم فإن عندنا أناسا يقولون: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يزوج بناته بنيه، وأن هذا الخلق كله أصلهم من الأخوة والأخوات، فقال الإمام جعفر الصادق: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول ذلك أن الله عز وجل جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمسلمين والمسلمات من الحرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الطهر والحلال والطيب؟ قال زراره ثم سئل عليه

2- إشكالية تنوع البشر: فنحن نجد من البشر الأبيض والأسمر والأصفر والأحمر والزنجي، فكيف تنوع هؤلاء إلى هذا الحد طالما أن أصلهم من واحد؟ أما القول بوجود بشر مع آدم عليه السلام، فإن هذا يحل المشكلة.

وبعد أن عرضنا لقضية الخلق، نعرض لحدث لاحق مرتبط به، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [سورة الأعراف, ١٧٢]

والناظر يجد أن كل أهل الأثر تقريبا يقولون أن المراد من "بني آدم" هو آدم عليه السلام!! ونحن نقول إن المراد هو ذرية آدم المباشرة، وليس آدم نفسه كما تقول الروايات، فمن العجب العجاب أن الله تعالى يقول "بني آدم"، ونجد الرواية تقول هو آدم ذاته! وتُقبل الرواية ويُتمحك في تأويل القرآن حتى لا تُرد الرواية، فإذا لم يكن هذا هو التنطع فماذا يكون، ومتى نرد الروايات التي تخالف القرآن إذا لم تُرد هذه الروايات؟

ونعرض للقارىء هنا نموذجا من الروايات التي أوردوها في تفسير هذه الآية: "روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال: «إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون» فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل

السلام عن خلق حواء، وقيل له إن أناسا عندنا يقولون: إن الله عز وجل خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى، قال سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول هذا، أن الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجا من غير ضلعه، وجعل لأهل التشنيع سبيلا إلى الكلام، يقول إن آدم كان ينكح بعضه، إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء، حكم الله بيننا وبينهم." اهـ

النار فيدخله الله النار» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة من ذريته إلى يوم القيامة» وقال مقاتل: «إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه الذر سوداء كهيئة الذر فقال يآدم هؤلاء ذريتك. ثم قال لهم: ﴿... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ... ١٧٢﴾ [سورة الأعراف, ١٧٢] فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين، وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي[176] وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم»، فأهل القبول محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال، وأرحام النساء. وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ... ١٠٢﴾] سورة الأعراف, ١٠٢[وهذا القول قد ذهب إليه كثير من قدماء المفسرين كسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعكرة، والكلبي" اهـ

ولقد ضعف الشيخ الألباني هذا الحديث بسبب سنده!!!، ولو كان السند صحيحا لقبلوه على الرغم من المخلافة الصريحة للنص القرآني، وبطبيعة الحال أخذ أهل الأثر بهذه الرواية قاطبة، ولكن المعتزلة لم يقبلوا هذه الرواية فردوها لمخالفتها الصريحة للقرآن، ونحن نردها كذلك لأن: الآية تقول: ﴿... مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ... ١٧٢﴾]سورة الأعراف, ١٧٢[ولا شك أن قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ﴾ فيكون المعنى: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم فقط. وعلى هذا التقدير: فلم يذكر الله تعالى أنه أخذ من ظهر آدم شيئاً، وطبعا التقديم هنا ليفيد الحصر فلا يدخل آدم مثلا في هذه العملية وحتى لا يُظَنَّ أن هذه العملية تحدث مع جميع أبناء آدم، بل هي حصلت مع أبنائه الصلبيين فقط. وكذلك: أنه لو كان المراد أنه تعالى أخرج من ظهر آدم شيئاً من الذرية، لما قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بل كان يجب أن يقول: من

[176] في الحديث ترسيخ واضح لعقيدة الجبر.

ظهره، لأن آدم ليس له إلا ظهر واحد، وكذلك قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لو كان آدم لقال ذريته. الحجة الثالثة: أنه تعالى حكى عن أولئك الذرية أنهم قالوا: ﴿... إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ... ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٧٣] وهذا الكلام يليق بأولاد آدم، ولا يليق أن يكون محكيا عنه عليه السلام لأنه عليه السلام ما كان مشركاً. أما كيف تمت عملية الأخذ فهذا ما لا نعلمه ونفوض فيه إلى الله، ولكن الغرض من العملية هو واضح وهو الإشهاد.

أما لماذا حدثت مع بني آدم ولم تحدث مع أبيهم، فالذي نراه أن آدم اصطفاه الله دونا عن باقي البشر، فكانت فيه مزية معينة بهذا الاصطفاء، ومع مجيء ذريته استجد عليهم أمر يستحق هذا الأخذ، فهم إما فقدوا شيئا من أبيهم وإما اكتسبوا شيئا ما كان ينبغي لهم أن يكتسبوه، فحدثت لهم عملية الأخذ هذه، ولا نقول أن عملية الأخذ هذه كانت عملية تعديل جيني أو ما شابه كما رأى بعض الأخوة، فالله أعلم بما حدث وكيف حدث، ولكن كل ما نود قوله أنه أجريت عملية معينة لأولاد آدم وليس لآدم نفسه، وبسبب هذه العملية أُقيمت الحجة على الناس إلى يوم القيامة، فلا يولد إنسان إلا والحجة مقامة عليه بعدم الشرك أو الكفر بالله.

إذن نخرج من هذا المبحث أن آدم عليه السلام لم يكن وحيدا، وأنه خلق من الأرض بطريقة طبيعية وليس بطريقة خارقة، وذلك عن طريق الخلق في الأرحام الأرضية، وبعد ذلك اصطفاه الله واختاره ليُعلِّم البشر، وأن ما يقوله السادة العلماء في تأويلهم للآيات لا يتفق مع القرآن، وهذا راجع إلى قصور خلفيتهم المعرفية، ومحاولتهم تأويل ما لم يحيطوا به علما، ولما يأتهم تأويله.[177]

---

[177] كنت أتحدث أنا وأخي ذات مرة فقال إن هؤلاء الذين يقولون إن الإعجاز العلمي للقرآن ما هو إلا تلاعب في الألفاظ واهمون، فالإنسان يمكن أن يكتشف بنفسه آيات الإعجاز العلمي في القرآن بدون أن يقرأها في أي كتاب من كتب العلماء، فأنا على سبيل المثال لاحظت أن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الرّعد ,٨] يعد وصفا دقيقا للعمليات الحيوية التي تحدث في الرحم، فالرحم نفسه يمتلأ بالدماء فينتفخ ثم يغيض الدم الذي فيه عند حدوث الدورة ونزول الدم، والغيض نقصان كما في قوله تعالى "وغيض الماء"، والسادة المفسرون كالعادة

الفصل الرابع: القصص القرآني

"القصص القرآني" كلمة صدر تحتها في عصرنا وفي العصور الغابرة الكثير من الكتب، كانت تدور كلها في نطاق الحكايا وتكميل الصورة الناقصة في القرآن بروايات وأساطير أهل الكتاب!!

وفي عصرنا هذا فقط تغيرت النظرة إلى القصص القرآني بعض الشيء، وإن كانت لا تزال مكبلة بقيود وأغلال الماضي. ومن ينظر في القرآن يجد أن الله عز وجل سمى القصص القرآني بأنه أحسن القصص، فلن تجد قصصا أحسن منه في أي مكان أو زمان في العالم، ويحتل القصص جزءا كبيرا من النص القرآني، فهل سأل المسلمون أنفسهم سبب ورورد هذا الكم من القصص في القرآن؟ فهذه القصص كلها لم تأت من أجل التسلية.

والإجابة جاهزة مسبقا، فروى لنا السادة العلماء الروايات التي تعرفنا السبب في ورود القصص القرآني، فكما جاء في الطبري: "حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا أبي، عن المسعودي، عن عون بن عبد الله، قال: ملّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا ! فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ... ﴿٢٣﴾﴾] سورة الزمر ,٢٣[. ثم ملوا ملّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن! يعنون القصَص، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾] سورة يوسف ,١-٣[،

فسروا الكلمة بأنها "يغيض ما في الأرحام" أي أنهم جعلوا الآية حديثا عن الولد الموجود في الرحم وليس الرحم نفسه!!، ثم اختلفوا فيما يغيضه ما في الرحم ويزداده على وجوه.

الأول: عدد الولد فإن الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة.

الثاني: الولد قد يكون مخدجاً، وقد يكون تاماً.

الثالث: مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها.

فقلت له: هذا هو دوما حال المفسرين يفسرون ما لا يعلمون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأرادوا الحديث فدَّلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصصَ فدلهم على أحسن القصص"اهـ

هذا الكلام مردود بداهة، فبغض النظر عن الإساءة للصحابة بقول الرواية أنهم ملوا من القرآن!! فالقصص القرآني لم ينزل من أجل التسلية أو رفعا للملل، فله أهداف أسمى وغايات أرقى، فأخذ القصص القرآني على أنه قصص هو أقل مستوى للتعامل معه، والذي لا يجوز استعماله إلا مع الأطفال أو جهلة العوام، أما المسلم الفطن فيجب أن ينظر إلى القصص القرآني نظرة أخرى، وليست النظرة السطحية المألوفة.

وكل مسلم يسلم أن هذا القصص هو أحسن القصص، فقد انفرد القصص القرآني بالمدلول الواقعي[178] التاريخي، ذي الصياغة الفنية الهائلة، فهو ليس مجرد نص أدبي يهتم بالصياغة دون المدلول أو المقابلة مع الواقع، لا، فهو نص لا مُدان له. فتنوعت أشكال القصة القرآنية، ما بين رواية كاملة، وبين قصة قصيرة، وبين قصة متناثرة الأجزاء في مختلف ثنايا القرآن، وبين قصة تعرض من زوايا مختلفة في سور القرآن المتعددة، إلى قصة قصيرة جدا تذكر في آية واحدة يستخرج منها الكثير والكثير. والعرض وإن كان من ظاهره السطحي يبدو مكررا، ولكن عند مجرد النظر فيه نظرة شبهه متأنية يظهر أنه لا تكرار ولا إعادة، بل هذا غير ذاك، والهدف هنا غير هدف السورة الأخرى تماما.

وبداهة فإن صياغة القصص القرآني صياغة لا تدانيها أي صياغة أخرى، فهي صياغة عالية الكثافة إن جاز التعبير، فهي تتحرك ككل آيات القرآن على عدة مستويات، من مستوى بلاغي إلى مستوى لغوي تصحيحي إلى مستوى أدبي إلى مستوى عقيدي إلى مستوى فقهي إلى مستوى تاريخي إلى مستوى سنني، وكل هذا في صياغة حقيقية لا دخل للمبالغة ولا الخيال فيها.

(178) ردا على أمثال محمد أحمد خلف الله، الذين يرون أن القرآن ذكر القصة من باب ضرب الأمثال والعبر، وأنه لا يشترط الصدق في القصة، بل يكتفى بالصياغة الأدبية العالية، والعبر والأمثال المستخرجة منها!

ونسأل: هل رأى السادة المفسرون في القصص القرآني ما رأيناه؟ أم أنهم رأوا في القصص القرآني مجموعة من الحكايات، التي تُحكى من أجل التسلية وضرب الأمثال فقط؟ للأسف رأى السادة المفسرون في القصص القرآني الصنف الثاني فقط، ويا ليتهم رأوا ذلك وتعاملوا معها على أنها قصص قرآنية غايتها القص وضرب الأمثال، فللأسف نجد أنهم تعاملوا مع القصص القرآني على أنه قصص عادي، مثل الذي نسمعه من القصاصين أو تحكيه لنا الجدات في الصغر قبل النوم، فرأينا كعادتهم في تفسير القصص القرآني العجب العجاب من روايات أهل الكتاب، التي تتقول على النص أيما تقول، وتكمل ما تركه النص!! وإن هذا مما يعجب له المرء من تعامل المفسرين مع القصص القرآني –والقرآن عامة–، من الاعتقاد بوجود محذوفات أو من إكمال للصورة التي رسمها القرآن، فالكتاب العزيز لم يأت ليخبرنا أن فلان فعل كذا في يوم كذا، أو ليعطينا تصورا دراميا معينا لتاريخ فلان أو علان، ولكنه يعطي ما نستفيد به من القصة، من كل حرف فيها، أما أن يذكر القرآن أجزاءا من حادثة ما ويسكت عن الباقي، فنكمل نحن أجزاء هذه الحادثة ونعد هذا تفسيرا، فهذا من سوء الظن والأدب مع الله، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [سورة يوسف, ٣]، فما ذُكر في القرآن هو أحسن القصص، ولا يوجد ما هو أحسن منه، وبالله عليكم هل سمع أحدكم عن قصة جيدة تحتاج إلى تفسير أو إكمال؟! القصة الحسنة لا بد أن تكون واضحة بذاتها، وفيها الكثير من العبر للاستخراج، أما أن نكمل أجزاء القصة فهذا ما لا يُقبل ولا يكون، فحلاوة وملاحة وجمال وعبرة وعظة القصة القرآنية فيها بهذا الحال، أما أن نضيف ظنا من عند أنفسنا من هو ذي القرنين[179]، وكم كان عدد أصحاب الكهف، وماذا كان اسم قوم نوح؟ ونعرض الأقوال المختلفة في ذلك في كتب التفسير، فهذا حمق وذهاب عقل، فما الذي سيعنيني إذا

[179] يجب علينا أن نبحث تاريخيا وجولوجيا، حتى نكتشف أين كان ذي القرنين هذا ومن هو، فهذا من باب التأويل، وحتى نكتشف ذلك لا نخوض في هذه المسألة بل ننتظر.

كان كلب أصحاب الكهف أبيضا أو أسودا، وإذا كان قوم نوح اسمهم كذا أو كذا، وما الذي يهمنا من أسماء أخوة يوسف؟

الذي نحتاجه للتعامل مع القصص القرآني كمستوى أول هو القصة ذاتها، فنقرأ القصة ونفهمها كما هي، ونستخرج منها الهدف والدروس المستفادة كعظة، أما إذا أردنا أن ننتقل إلى مستوى أعلى في التعامل فعلينا أن نتبع أسلوبا أعلى في التعامل مع النص القرآني، من خلال تحليله تحليلا دقيقا، ومن خلال ربط الأحداث الواردة في القرآن بعضها ببعض، واستخراج العوامل المشتركة في الأحداث المتشابهة، ولكن لا يمكننا بداهة أن ننتقل في التعامل مع القصص القرآني من مستوى قصص من أجل العظة والاعتبار إلى مستوى مؤصل تاريخي، يعرض تاريخا موجزا لأحداث العالم من خلال التعرض للخطوط العريضة والأحداث الفاصلة لهذا التاريخ أو إلى مستوى استخراج الأحكام الفقهية أو الزوايا العقيدية، أو السنن الكونية من القصص، إذا كنا سنفهم القصص القرآني فهما توراتيا، نابع من قصص وحكايات أهل الكتاب! فحتى الآن لا نزال نتعامل مع القصص القرآني بنفس الأسلوب الذي يجب علينا أن نتعامل به مع قصص الأطفال، وهذا الأسلوب فاشل ولا يؤدي إلى استخراج الدرر الكامنة في القصص القرآني.

نماذج للتعامل مع القصص القرآني على المستوى الأول

لذا سنقوم أولا بعرض بعض نماذج من القصص القرآني، نتعامل معها على أساس المستوى الأول، أي أنها مجرد قصص تحكي أحداثا معينة، ونوضح بها كيف أن السادة المفسرين، بسبب قبولهم القصص التوراتي، قضوا على غاية القصص القرآني تماما، فنعرض التفسير الذي ذكروه عند العروض لهذه الآيات، ثم نذكر الفهم النابع من النص بدون أي زيادة أو نقصان، ونوضح لم كان ما قالوا به خاطئ لا محالة، علّنا بذلك ننفض الكثير من الخرافات التي عششت على عقول المسلمين، بسبب فهمهم

النص القرآني فهما توراتيا، ونوضح أن ما قاله القرآن شيء وما قالته التوراة شيء آخر تماما، على الرغم من وجود بعض الشبه بينهما.

ولقد كان للقصص التوراتي دور كبير في القضاء على العقلية العلمية عند المسلمين؛ من خلال نشر الخرافة والوهم وفض العلاقة بين السبب والمسبب، عن طريق حكايات المعجزات، التي تُعطى لكل من هب ودب.

وعلى الرغم من أن الكثير ينظر إلى القصص القرآني على أنه مجرد قصص، ولكنهم شاؤا أم أبوا ينسون أنه مؤصل تاريخي رئيس، والدليل الجلي على ذلك الصبغة اليهودية لتاريخ البشرية عند المسلمين، فبسبب عرض القرآن لتاريخ البشرية وأخذهم التاريخ من القصص التوراتي وليس من القصص القرآني، صُبغ التاريخ صبغة يهودية مزيفة غير منطقية، بدلا من أن يصبغ صبغة إسلامية علمية واقعية منطقية.

ونرجو أن نُبرأ بهذا العرض البسيط هؤلاء الأنبياء العظام من الإهانات، التي لحقت بهم جراء هذه الروايات الإسرائيلية، والتي شوهت صورهم.[180]

وبعد أن نذكر هذه النماذج، سننتقل لذكر نماذج أخرى في كيفية التعامل مع القصص القرآني على مستويات أعلى من المستوى الأول، فنذكر عدة نماذج في كيفية استخدام القصص القرآني كأصل تاريخي وكيف يمكن أن نستخدمه كمؤصل لاستخراج السنن الكونية، ولنبدأ بعرض نماذج في التعامل مع القصص القرآني على المستوى الأول:

---

(180) كان لزاما على اليهود أن يشوهوا صورة الأنبياء في الدين الإسلامي، فكما ظهروا عندهم بمظهر الزناة العصاة السكيرين، فلا بد من أن ينالهم من هذا التشويه جوانب في هذا الدين الجديد، وبالفعل نجحوا بنسبة كبيرة في تشويه صورهم.

خرافة نسب بني إسرائيل

أول ما نبدأ به في هذا المبحث هو الخرافة الكبيرة، التي نشرها وروجها بنو إسرائيل عن أنفسهم؛ وهي أنهم من نسل يعقوب عليه السلام، وادعوا أن "يعقوب" كان اسمه فعلا، ثم صار بعد ذلك "إسرائيل".

كل هذا من أجل أن يشرفوا نسبهم ويعلو قدرهم بالانتساب إلى خليل الله إبراهيم عليه السلام، وبذلك يكونون من نسل شريف كريم يفتخرون به على باقي خلق الله، ويدعون أنهم شعب الله المختار.

ولكن ولله الحمد كشف القرآن هذا التدليس والتزوير، وكشف زيفهم في بدايات السورة المسماة باسمهم، حيث قال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [سورة الإسراء ,٢-٣] فهذه الآية وضحت بشكل لا لبس فيه إلى من ينتسب هؤلاء القوم، فهم ينتسبون إلى "من حمل مع نوح" وليس إلى نوح نفسه ولا إلى واحد من أولاده، وهذا ينهي خرافة "شعب الله المختار"، ذي الأصل السامي –نسبة إلى سام بن نوح–، فهم بنص القرآن لا ينتمون إليه ولكن إلى من حمل معه.

قد يسأل سائل: وهل هذا مبرر لأن نقول أنهم لا ينتمون إلى يعقوب عليه السلام، أو أنه ليس إسرائيل كما جاء في كتبهم، فهذه الآية دليل على عدم انتمائهم إلى سام بن نوح فقط؟ نقول أولا: لم يذكر القرآن في آية واحدة أن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل بل تحدث عنه بصفة منفصلة. ثانيا: بالتأمل في الآية نجد أن الآية تحدد من ينتمي إليه بنو إسرائيل، وهو "من حمل مع نوح"، ونسأل إلى من يُنسب بنو إسرائيل؟ الإجابة: قطعا هو إسرائيل، فيكون إسرائيل هو واحد ممن حمل مع نوح، وهو العبد الذي وصفه الله بأنه كان عبدا شكورا. ثالثا: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾] سورة آل عمران ,٣٣-٣٤[فهذه الآية تقول أن إبراهيم ونسله من ذرية نوح، وبنو إسرائيل من ذرية من حملنا مع نوح، فلا يمكن أن يكونوا من ذرية يعقوب، فيعقوب من ذرية نوح، أما هم فمن ذرية "من حمل مع نوح"، فكيف ينتسب الإثنان إلى أصل واحد، وهما من أصلين مختلفين؟

ولكن لم يقتنع بنو إسرائيل كالعادة بأن يكونوا من نسل رجل صالح شكور، فزوروا التاريخ وجعلوا أنفسهم من نسل سام –هذا إذا وُجد شخص بهذا الاسم–، ولما كانوا مشتهرين ببني إسرائيل ولا يمكن أن ينكروا ذلك، جعلوا يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، وبذلك يغطوا تزويرهم ويزدادوا شرفا على شرف، والله أعلم.

إذا الغاية من هذه القصة كشف خديعة بني إسرائيل الكبرى، وكشف تزييفهم حقيقة نسبهم.

طوفان نوح

وبما أننا تكلمنا عن من كان مع نوح، فلا يصح أن نغفل الكلام عن نوح نفسه، فلقد ارتبطت قصته بالإسرائيليات أيضا، ولكن أهم إسرائيلية ارتبطت به هي مسألة الطوفان، فالواضح الجلي من القرآن أن طوفان نوح عليه السلام كان طوفانا محليا صغيرا، ولكن لما قالت التوراة أن الطوفان عمّ الأرض كاملة، أخذ السادة المفسرون بما قالت به التوراة المحرفة، وأُولت الآيات لتوافق الروايات، وننظر في قصة نوح في القرآن لنخبر إن كانت فعلا كما يقولون، أم أنها مما يقولون به براء:

إذا نظرنا في القرآن وجدنا أن القرآن ينفي مسألة عالمية رسالة نوح تماما، فالله قالها في خمس مواضع أنه أرسل نوح إلى قومه، ولم يقل إلى الناس أو إلى العالمين، فلو لم يكن مرسل إلى قوم خاصة، وكان قومه هم كل الناس الموجودين على الأرض، لكان الكلام عبثا.

وإذا قيل أنه أرسل إلى قومه ثم دعا عليهم فأغرق الله العالم كله، فما ذنب هؤلاء الأبرياء الذين لم تصلهم الدعوة؟ ولم تهلك الأرض كلها بذنب قوم كفرة؟!

إذا فنوح أرسل إلى قومه فقط، وليس هذا استنتاج، فهو موجود صراحة في النص القرآني، فالله تعالى يقول: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة هود, ٤٨] فالآية صريحة في وجود أمم مع نوح، ولننظر كيف فسر المفسرون هذه الآية، المخالفة لما تقوله التوراة، يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: "﴿... وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة هود, ٤٨] واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال: منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات!!، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم، فلهذا السبب جعلهم أمماً، ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً!!!، قالوا: ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى: ﴿... وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة هود, ٤٠] ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك!!، والمختار هو القول الثاني ومن في قوله: "مِّمَّن مَّعَكَ" لابتداء الغاية، والمعنى: وعلى أمم ناشئة من الذين معك! واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين: أحدهما: الذين عطفهم على نوح في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان. والثاني: أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن وإلى كافر. قال المفسرون: دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة" اهـ

فانظر كيف أولوا الآية لمجرد أنهم استندوا في معلوماتهم إلى التوراة، ولست أدري أين قال القرآن أنه لم يكن في الأرض غيرهم، فهذه الآية التي بين أيديهم تنفي هذا القول، ولكن لما كان للروايات سلطان لا يقاوم، أولت الآيات من أجل الروايات.

إذا فالقرآن قال أن طوفان نوح كان طوفانا محليا، وقال بوجود أقوام معه غير قومه، وهذا ينفي الأسطورة التوراتية، وينفي القول بأنه أخذ زوجا من كل الحيوانات ووضعه في السفينة، فأي سفينة هذه التي تحمل كل هذا العدد من الحيوانات؟! سيقول قائل: ولكن الله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [سورة هود, ٤٠] فهذا دليل على ما يقولون به. لن نقول كما قال البعض: "نحن نجد أن حفص هو الوحيد الذي قرأ "من كل" بتنوين اللام، أما باقي القراءات فقالت "من كل زوجين" بدون تنوين، ونحن نأخذ في هذه المسألة بالقراءات وليس بقراءة حفص، فهي أكثر دقة وتتفق مع العقل، إذ كيف يمكن أن يحمل من كل أصناف الكائنات اثنين، وكيف يأتون من جميع أنحاء العالم، فمن المعروف أن هناك حيوانات غير موجودة إلا في المناطق الباردة وغيرها لا توجد إلا في المناطق الحارة وهلم جرا، فكيف أتت هذه الكائنات من مناطقها إلى نوح وكيف استوعبتها السفينة؟"

وإنما نقول: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها والأمر على قدر الاستطاعة، فإذا أمره أن يأخذ من كل زوجين اثنين فهو يأمره أن يأخذ من كل ما يجده، ومن كل ما هو حوله زوجين اثنين، فالكل هنا المقصود به الكل الموجود والمتوفر وليس الكل المطلق، لأن هذا مما لا يطيقه ولا يقدر عليه سواء سيدنا نوح أو غيره.

إذا فالآية لم تقل أكثر من أن الله أمر نوح أن يحمل من كل زوجين، والله أعلم بهذه الأزواج، اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول ويحمل من آمن وما آمن معه إلا قليل.

إذا فالقرآن نفى مسألة عالمية الطوفان تماما، وقال بوجود أناس غير نوح ومن معه وظلوا أحياء، لم يصبهم الطوفان.[181]

إذا الغرض من سرد هذه القصة عرض عاقبة الخسران، والرد على من يسخرون من هذا الطوفان الذي أغرق الأرض، ولا يوجد له أثار في الحفريات وعلى من يسخرون من السفينة التي حملت كل حيوانات الأرض.

فلاح الخليل

الناظر في قصصهم حول الخليل إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، يجد أنه جاء في سيرته المأخوذة من أهل الكتاب العجب العجاب: حيث جاء في وصف سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه كان ابن نجار، وأنه أخفق في دعوته ولم يؤمن به أحد باستثناء أهل بيته. فهل هذا القول موافق للقرآن أم مخالف له؟

لنتأمل ولنرى قصة أبي الأنبياء في آيات القرآن: نجد أن القرآن يحكي محاورة أبي الأنبياء للملك[182]، والأنبياء الذين ذكر لهم حوار مع الملوك هم إبراهيم ويوسف وموسى ونحن نعرف العلاقة بين موسى وبين فرعون الملك، وبين يوسف وبين الملك، ولم يجر ذكر لأي حوار لنبي آخر مع الملك. أما مع أبي الأنبياء فنجد أن الملك هو

---

[181] لا يريد اليهود التسليم بهذا، لأن هذا سيؤدي إلى تهاوي أركان النظرية السامية التي يقولون بها.

[182] هذا كله على الفهم السائد المألوف، ولكنا نفهم الآية فهما مغايرا تماما، ف نفهم أن إبراهيم عليه السلام كان هو الملك، وانظر في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ... ﴿٢٥٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥٨] فالضمير يعود – وكما قالوا في كتب النحو والبلاغة– إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هنا هو إبراهيم عليه السلام، والله تعالى قال في غير هذا الموضع" ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النساء, ٥٤] فهذه الآية دليل على أن إبراهيم عليه السلام كان ملكا، وليس العكس كما جاء في الرواية الإسرائيلية، ولا يشترط أنه ولد ملكا، فقد يكون أوتي الملك بعد ذلك. ولو كان الله هو من آتي النيروز الملك، فلم وكيف يجادله إبراهيم، إن هذا الملك حاكم بأمر الله! قد يبدو هذا التصور غريبا جدا عند القارىء، وقد يرفضه، فهو لا يتصور قصة سيدنا إبراهيم إلا مع وجود النيروز–الذي حكم العالم كله!!– الملك الجبار، ولكن هذا التصور لم يأت به القرآن، فيجب علينا أن نلغي أي تصورات مسبقة في التعامل مع النص القرآني، ونفهم منه ما يقوله فقط، لا ما قاله فلان عن علان الإسرائيلي.

من حاج إبراهيم في ربه، ولم يقتله بعد ذلك، ففي هذا إشارة واضحة إلى أن إبراهيم عليه السلام كان من أشراف البلدة، بل لا يبعد أن يكون من أقارب الملك، والأنبياء كما نعرف يكونون من أشراف القوم، وإن لم يكونوا أغنياء فهم دوما ذوي مكانة في المجتمع.

أما القول بأن إبراهيم لم يؤمن به أحد إلا زوجاته ولوط وأبناؤه، فهو أيضا مأخوذ من التوراة ومخالف لما ورد في القرآن، وتأمل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة آل عمران, ٦٨] فهذه الآية دليل على وجود أتباع لأبي الأنبياء غير أقرباؤه. قد يقول قائل: وما المانع أن يكون الذين اتبعوه هم أقرباؤه؟ نقول الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [سورة الممتحنة, ٤]

فهذه الآية في سورة الممتحنة ذات دلالة واضحة على أن سيدنا إبراهيم كان له أتباع غير زوجاته وأبناؤه فالآية تقول صراحة "لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه من الناس العاديين الذين تبرؤا من قومهم من أجل الدين"، والقدوة للناس العاديين تكون بالنبي وأتباعه، الذين هم مثلهم، لا بمجموعة أنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. قد يقول قائل: هذا ليس دليلا كافيا على أن أتباعه كانوا من الناس العاديين. فنقول: وضحت آية التوبة هذا، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾]سورة التوبة, ١١٤]

إن استغفار إبراهيم لأبيه كان إلى موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وكان هذا في أول البعثة، فإذا كان الذين معه هم أولاده وليس أتباعه فهذا يعني أن

المدة التي استمر إبراهيم يدعو فيها لأبيه قاربت خمسين عاما –فسيدنا إبراهيم أنجب على كبر وإسحاق ولد بعد أسماعيل بفترة من الزمان– واحسب الأعوام حتى كبروا ونضجوا ثم يتبرأون من أقوامهم مباشرة ولا يزال الخليل يدعو لأبيه فهذا ما لا يصح، أما إذا قلنا أن هذا الدعاء كان قبل ولادتهم وفي مقتبل حياة الخليل وبعد ذلك بفترة قليلة عند انتهاء الموعدة وعندما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فهذا ما ينسجم مع السياق، وبهذا يلزم أن يكون "والذين معه" هم أتباعه ممن ءامنوا به وليسوا أولاده، والله أعلم.

إذا الغرض من سرد هذه القصة إظهار المكانة الحقيقية لأبي الأنبياء، عليهم جميعا الصلاة والسلام، ونفي القول بأنه أخفق في دعوته.

الخليل والطيور

وبما أننا نتحدث عن خليل الرحمن، نتوقف مع آية أخرى متعلقة به، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٦٠] حيث فُسرت هذه الآية تفسيرا عجيبا مردودا، شوه صورة خليل الرحمن تشويها كبيرا، فرووا في تفسيرها الكثير من الروايات، نذكر منها ما رواه الطبري: "حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، قال: قال ابن جريج: بلغني أن إبراهيم بينا هو يسير على الطريق، إذا هو بجيفة حمار عليها السباع والطير قد تمزَّعت لحمها، وبقي عظامها. فلما ذهبت السِّباع، وطارت الطير على الجبال والآكام، فوقف وتعجب، ثم قال: ربّ قد علمتُ لتجمعنَّها من بطون هذه السباع والطير! ربّ أرني كيف تحيي الموتى! قال: أولم تؤمن، قال: بلى! ولكن ليس الخبر كالمعاينة." اهـ

بل إنه وردت روايات تقول إن إبراهيم عليه السلام وقع له الشك!، فإذا كان هذا من خليل الرحمن، فما بالنا بعوام الناس، ولن نعرض هذه الروايات، والعجيب أن الإمام ابن جرير الطبري رجح هذا الرأي!!.

ثم قال الطبري بعد ذلك في وصف هذه الطيور: "حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج: (قال فخذ أربعة من الطير) قال ابن جريج: زعموا أنه ديك، وغراب، وطاووس، وحمامة. ثم قال في تأويل "صرهن": "فمعنى قوله: (فصُرْهن إليك) اضممهن إليك ووجِّههن نحوك، كما يقال: "صُرْ وجهك إليّ"، أي أقبل به إليّ. ومن وَجَّه قوله: (فصرهن إليك) إلى هذا التأويل، كان في الكلام عنده متروك قد ترك ذكرُه استغناءً بدلالة الظاهر عليه. ويكون معناه حينئذ عنده: قال: (فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك)، ثم قطعهن، (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا). وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرئ كذلك بضم "الصاد": قطِّعهن، وقد يحتمل أن يكون معنى ذلك إذا قرئ كذلك بضم "الصاد": قطِّعهن، كما قال توبة بن الحميِّر:

فَلَمَّا جَذَبْتُ الحَبْلَ أَطَّتْ نُسُوعُهُ بِأَطْرَافِ عِيدَانٍ شَدِيدٍ أُسُورُهَا
فَأَدْنَتْ لِيَ الأَسْبَابَ حَتَّى بَلَغْتُهَا بِنَهْضِي وَقَدْ كَادَ ارْتِقَائِي يَصُورُهَا

يعني: يقطعها. وإذا كان ذلك تأويل قوله: (فصرهن)، كان في الكلام تقديم وتأخير، ويكون معناه: فخذ أربعة من الطير إليك فصِرهن = ويكون "إليك" من صلة "خذ".!!! (...)، وزعم بعض نحويي الكوفة أنه لا يعرف لقوله: (فصُرهن) ولا لقراءة من قرأ: "فصرهن" بضم "الصاد" وكسرها، وجهًا في التقطيع،. إلا أن يكون "فصِرْهن إليك"! في قراءة من قرأه بكسر "الصاد" من المقلوب، وذلك أن تكون "لام" فعله جعلت مكان عينه، وعينه مكان لامه، فيكون من "صَرَى يصري صَرْيًا"، فإن العرب تقول: "بات يَصْرِي في حوضه": إذا استقى...،" اهـ

إذا فالإمام الكبير الطبري يريدنا أن نعتقد أن خليل الرحمن حدث شك بقلبه، فطلب إلى الرحمن أن يريه كيف يحي الموتى ليطمئن قلبه، فأمره الله بأخذ طيور وتقطيعهن

ووضعهن على عدة جبال ثم دعوتها فتأتيه سعيا، فيكون قد رأى بعينه وليس الخبر كالمشاهدة!! ولست أدري ما الفارق بينه وبين أي إنسان عادي، يطلب آية حسية ليؤمن، فإذا كانت الآيات لا تُعطى للناس، لكي يؤمنوا بعقولهم وقلوبهم، فما لنا رضينا للخليل ما لا نقبله على أنفسنا؟!!

وقدم الإمام الطبري وأخر، وغير بنية الكلمة فقلب حروف الكلمة، وكل هذا حتى يتم القبول بالقول أن صرهن إليك تعني "قطعهن"، ولكن الآية لم تقل هذا بتاتا، ولقد انتبه الإمام الرازي إلى ضرورة وجود محذوف فقال: "كأنه قيل: أملهن إليك وقطعهن، ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ، فحذف الجملة التي هي قطعهن لدلالة الكلام عليه"اهـ

وطبعا فهم الكلام بدون وجود محذوف أولى من تقدير محذوف نختلف فيه، ونذكر للسادة العلماء قولا رائعا في هذه الآية بدون افتراض أي محذوف أو تقديم أو تأخير، وهذا الرأي لأبي مسلم الأصفهاني الذي قالوا فيه...!، حيث يقول: "إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالا قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الإجابة[183]، أي فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك، فاجعل على كل جبل واحداً حال حياته، ثم ادعهن يأتينك سعياً، والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة"

وأنكر الإمام القول بأن المراد منه: فقطعهن. واحتج عليه بوجوه الأول: أن المشهور في اللغة في قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أملهن وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقاً لزيادة بالآية لم يدل الدليل عليها وأنه لا يجوز. والثاني: أنه لو كان المراد بصرهن قطعهن لم يقل إليك، فإن ذلك لا يتعدى بإلي وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة.

[183] والدليل على هذا الاستعمال من اللغة قولهم "عصفور صوار".

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن. قلنا: التزام التقديم والتأخير من غير دليل ملجيء إلى التزامه خلاف الظاهر. والثالث: أن الضمير في قوله: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ﴾ عائد إليها لا إلى أجزائها، وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائداً إلى تلك الأجزاء لا إليها، وهو خلاف الظاهر، وأيضاً الضمير في قوله: ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا﴾ عائداً إليها لا إلى إجزائها، وعلى قولكم إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض كان الضمير في ﴿يَأۡتِينَكَ﴾ عائداً إلى أجزائها لا إليها. واحتج القائلون بالقول المشهور بوجوه:

الأول: أن كل المفسرين الذين كانوا قبل أبي مسلم أجمعوا على أنه حصل ذبح تلك الطيور وتقطيع أجزائها، فيكون إنكار ذلك إنكاراً للإجماع.

الثاني: أن ما ذكره غير مختص بإبراهيم صلى الله عليه وسلم، فلا يكون له فيه مزية على الغير.

الثالث: أن إبراهيم أراد أن يريه الله كيف يحيي الموتى، وظاهر الآية يدل على أنه أجيب إلى ذلك، وعلى قول أبي مسلم لا تحصل الإجابة في الحقيقة.

والرابع: أن قوله: ﴿... ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ... ٢٦٠﴾] سورة البقرة, ٢٦٠[يدل على أن تلك الطيور جعلت جزأ جزأ، قال أبو مسلم في الجواب عن هذا الوجه: أنه أضاف الجزء إلى الأربعة فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة، والجواب: أن ما ذكرته وإن كان محتملاً إلا أن حمل الجزء على ما ذكرناه أظهر، والتقدير: فاجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزأً أو بعضاً."

وأما الإجماع المخالف للغة والمأخوذ من أهل الكتاب فلا حجة فيه، وأما القول بأن هذا ليس فيه مزية لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقول من يريد أن يقول إن خليل الرحمن يريد مثالا حيا ليوقن بمقدرة الله! أما نحن فنقول أن إبراهيم عليه السلام لم

يحدث له شك، ولكن حصل له اضطراب في هذه المسألة، فطلب إلى الله أن يريه كيفية إحياء الموتى، وطبعا لم يكن يريد أن يتأكد، بل يريد الكيفية.

فأمره الله عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير ولا يهمنا النوع، وأن يعودها عليه بأن يأمرها فتجيب، وهذا ما نراه كلنا في تربية الصقور مثلا، فمربي الصقور يدعو الصقر فيجيبه، وأن يجعل على كل جبل منهن جزءا، فتكون الجبال إما أربعة جبال أو ثلاثة أو إثنتين، ثم يدعو الطيور فتأتيه سعيا.

والغرض من هذا الأمر واضح وهو ضرب المثل لإبراهيم عليه السلام، فإذا كان إبراهيم العبد المخلوق عوّد طيرا فإذا دعاها أجابته، فما بالنا بالرحمن، فسيدعونا يوم القيامة فنجيب: ﴿... ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الروم, ٢٥] فيعلم أن إحياء الموتى يكون بالدعوة، فالله يدعو فنجيب، والقول بضرب المثل لسيدنا إبراهيم أولى من القول بأنه أراه عيانا جهارا لأنه شك. فهذا التفسير الذي يقولون به يعد سبة في حق خليل الرحمن، ولكن إذا كانوا قد قالوا أنه كذب ثلاث كذبات[184]، فما لهم لا يرمونه بالشك[185]، فقولهم هذا يجب على كل مسلم أن ينزه خليل الرحمن عنه.

إذن الغرض من هذه القصة نفي حدوث الشك عن الخليل، وتنزيهه عن المطالبة بما لا يقول به العوام، وضرب الأمثال للناس وتقريب عملية البعث إلى الأذهان.

[184] لا يجوز أن يكذب الرواة ولكن من الجائز أن يكذب أبو الأنبياء(ص)، فالسادة الذين قبلوا حديث كذب إبراهيم لا يشكون في الرواة أبدا، فهم فوق مستوى الشبهات، ولا مانع من جعل الكذب لا يعني الكذب ولكن لا يمكن أن يرد الحديث!!

[185] الغريب أن هناك رواية مدسوسة على الرسول(ص) تقول "نحن أحق بالشك من إبراهيم.."!!، ولقد درسنا هذه الرواية والعجيب أنهم قالوا لنا إن معنى الرواية: بما أن إبراهيم لم يشك، فنحن لم ولن نشك أيضا!!، إذا فالرواية تفيد نفي الشك!! وبالله عليكم هل إذا قال الرسول هذا، يُفهم منه ما يدعون؟ ولمَ يقول الرسول(ص) هذا الكلام الفلسفي الذي سيساء فهمه حتما، ولمَ هذه اللفة الطويلة، لم لا يقول كلامهم الذي ذكروه في التفسير مباشرة؟ ولكن لما صح السند ألغي العقل وقبل المتن.

لوط وعرض بناته

وبعد أن تكلمنا عن خليل الرحمن ننتقل إلى الحديث عن نبي الله لوط عليه السلام، ونتناول نقطة واحدة، وهي عرضه بناته على قومه حين جاءوا يراودونه عن ضيفه. حيث جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [سورة الحجر, ٧١]، أنه عرض عليهم نساء القرية وقال عليهم بناته، على اعتبار أن النبي لوط أبٌ لهم. وهذا التفسير يعد تفسيرا سخيفا، فكيف يكون النبي أبا لهم وهم ينكرون نبوته وأبوته؟! ووجد تفسير يقول أنه عرض عليهم بناته الصلبيات، على سبيل الزواج لا عن طريق الزنا، وإن كان السياق لم يشر إلى موضوع الزواج بل ذكر العرض بدون إشارة إلى الزواج، ولكن هذا أفضل من القول الأول. فالآية لم تذكر هذا، ولا يحق لنا أن نقدر محذوفا، فهذا مدخل الخلاف دوما.

ولحل هذه الإشكالية يمكن القول بأنه عرض بناته على القوم عرضا "سابريا"، لا يقصد به الجد ولكنه عرض بنتيه اعتمادا على أنهم يستحون منه، أو لا يستطيبون هذا النوع، كما تقول لرجل يضرب آخر وأنت تحجزه عنه "دعه واضربني أنا" وأنت تقول هذا لأنك واثق أنه لا يضربك، ولو علمت أنه يضربك ما قلت هذا ولا تعرضت لشفاعة.

يوسف والهم

وبعد أن تكلمنا عن عرض بنات سيدنا لوط، ننتقل إلى موقف مشابه، وهو هم سيدنا يوسف بامرأة العزيز، حيث نجد أن الإسرائيلية الشهيرة الواردة في حقه قالت في حق الأنبياء ما لا يقال، ووردت في تفسيرهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [سورة يوسف, ٢٤]

فجاءت العديد من الروايات، التي تصلح لفيلم خرافي أو حكايات الإثارة الجنسية أو حكايا الجدات! ونورد هنا ملخصها حيث أنها روايات مختلفة: وهو أنه هم بها ليواقعها وقعد منها مقعد الرجل من زوجه فرأى كفا أو سمع صوتا أو رأى وجه أبيه – تبعا لما رأت الرواية في تفسير "برهان ربه"– فامتنع عن ذلك!

وهذا القول قول باطل لا يتفق مع قدر الأنبياء وحتى مع الصالحين المتقين، وما الفارق إذا بين النبي والفسقة من الناس؟! فالإنسان العادي إذا رأى وهو يرتكب أي جرم شيئا غير عادي فسيقلع عن فعله ويتركه، فما المزية ليوسف عليه السلام إذن في هذا الموقف؟

وللخروج من هذا المأزق قال بعض العلماء: هم بها الهم الطبيعي وهذا أمر لا اختيار فيه، وهذا الرأي أخف من سابقه ولكنه لا يتفق مع الآيات. وقال بعض العلماء: هم بها ليضربها أو ليدفعها. ولا دليل في النص على هذا القول، بل إن السياق يخالفه، فلو كان الهم ليضربها، فما دخل برهان ربه إذا؟

والآية لا تحتاج إلى شرح أو تفسير أو توضيح، بل تؤخذ كما هي، كل ما هنالك أننا سنقف على "به"، أي أننا سنقرأ "ولقد همت به"، ونقف ثم نبدأ ﴿... وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ... ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يوسف, ٢٤] أي أن يوسف عليه السلام لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، فالهم لم يحدث لوجود البرهان، وكما نعرف فإن "لولا" حرف امتناع لوجود، فمع وجود البرهان امتنع "الهم" قد يقول قائل: جواب "لولا" لا يقدم عليها، فهذا الفهم غير مقبول. فنقول: لا، هذا من تحكمات السادة النحاة، فهم يقولون أن جواب لولا لا يُقدم عليها، ثم يعودون ويقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة القصص, ١٠] هنا قدم دليل جواب الشرط، وجواب الشرط نفسه محذوف!!، وهذا من عجائب السادة النحاة، فهم يأصلون قواعد ومن أجلها نرى العجب في التأويل، فيقولون مثلا: إن الفاعل لا يتقدم على الفعل، لذا يقولون في

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [سورة التوبة ,٦[التقدير: وإن استجارك أحد من المشركين إستجارك...!!

فهذا الاستقراء أو التخريج للقاعدة النحوية من الواجب رده، والاعتقاد بخطأهم، فيجب أن نفهم اللغة بلا محذوفات أو مقدرات، وعلى أي حال فليس كل ما يقوله السادة النحاة يكون صحيحا، ومعيار الصحة والخطأ هو القرآن وليس كلام فلان أو علان.

فهنا قُدم جواب الشرط على "لولا"، كيدا في النحاة، وهذا لنكتة بلاغية وهي المشاكلة، فلقد قال الله تعالى "ولقد همت به" فمن أجل المشاكلة –والله أعلم– قيل: "وهم بها لولا" قد يقول قائل: ولكنك تعيب دوما على من يقول بالتقديم والتأخير. نقول: نحن لا ننفي وجود التقديم والتأخير في اللغة، فهذا موجود ولا يستطيع أن ينكره أحد، ولكن نحن ننفي القول بتقديم أو تأخير من أجل تغيير المعنى، ولكن هنا في هذه الآية لا تغيير في المعنى، فمعنى: "هم بها لولا أن رأى برهان ربه" = "لولا أن رأى برهان ربه لهم بها"، وهو امتناع الهم لوجود البرهان، أم أن القارىء يجد اختلافا بينهما؟

ولكن طبعا هناك فروق بلاغية وإشارية بين الترتيبين، ولكن المعنى الأساسي واحد. أما القول بالتقديم والتأخير مثلا في قوله تعالى "متوفيك ورافعك" يغير المعنى، فعلى الترتيب الوارد في القرآن كان التوفي أولا ثم الرفع، أما لو قلنا بالتقديم والتأخير فسيكون الرفع أولا ثم التوفي، وهذا ما يغير معنى الآية.

إذا الهدف من سرد هذه القصة عرض الاستخدام الأمثل للجنس النظيف في القصة، وتبرئة سيدنا يوسف عليه السلام من السبة التي ألصقت به في التوراة.

موسى والبئر والشيخ

وبعد أن تحدثنا عن سيدنا يوسف، ننتقل إلى أهم شخصية حكيت حولها الروايات ورويت حولها الخرافات، وهذه الشخصية هي سيدنا موسى بداهة، فلقد ورد في حقه الكثير من الروايات، بفضل الداخلين في الإسلام من اليهود! ثم جُعلت تفسيرا لكتاب الله! على الرغم من أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النمل, ٧٦]، إلا أن الآية قُلبت، فأصبحنا نفهم كتابنا على ضوء الإسرائيليات، بدلا من أن نصحح لهم وللعالم كله!

ونحاول هنا أن نذكر أهم الروايات الإسرائيلية، المتعلقة بهذا النبي العظيم: جاء في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة القصص, ٢٣-٢٤]، العديد من الروايات، مفادها أنه: أن موسى عندما ورد ماء مدين وجد الناس يسقون ووجد الامرأتين، فلما أن أتم القوم السقيا غطوا البئر بصخرة عظيمة لا يستطيع حملها وزحزحتها إلا جماعة من الناس فنزعها موسى وسقى لهما.

وإذا تأملنا في هذا التفسير وجدنا فيه غفلة عن السياق، ومصادمة للمنطق والعقل، فالآية تقول أن: موسى لما ورد الماء ووجد عليه جماعة تسقي وامرأتين لا تسقيان، فسألهما فعلم أن العلة هي أن أبوهما شيخ كبير لا يقدر على السقيا، وهما ضعيفتان فلا تستطيعان المزاحمة، فاستعملت الآية "الفاء" وهي تفيد التوالي والمتابعة ولم تستعمل "ثم"، إذا فالأولى أن يقال بأن موسى القوي البدن ما أن سمع ذلك حتى زاحم القوم وسقى للامرأتين، وهذا هو المنتظر من أخلاق الأنبياء من نصرة المستضعفين في كل زمان ومكان، أما ما روي فهو مخالف للعقل والمنطق، فلماذا يغطي الناس البئر بعد أن يسقوا وهناك من لم يسق بعد ويسكت هؤلاء ولا يتكلمون؟

وإذا سكتن لضعفهن لم لم يتكلم موسى القوي، الذي استطاع رفع الحجر بمفرده بزعمهم وسكت حتى انصرفوا؟! الله أعلم.

إذا يمكن أن يكون الغرض من هذه القصة نزع الحساسية الشديدة في التعامل بين الرجل والمرأة، بعكس الكثير من الأخوة الذين يفخمون هذه المسألة، فالنبي موسى عليه السلام ما أن رأى امرأتين تحتاجان المساعدة حتى عرض عليهما مساعدته.

جاء في تفسير قوله تعالى "وأبونا شيخ كبير"، ما يفيد أن هذا الشيخ الكبير هو "شعيب" عليه السلام، وعلى الرغم من أنه من غير الأهمية بمكان كون هذا الشيخ هو شعيب أو غيره، فإنا نوضح، حرصا على عدم التقول على الأنبياء والخوض في القرآن بغير علم، وعدم الأخذ به ككل، وكنموذج لتجزئته وجعله عضينا، خطأ هذا الرأي: سبب وجود هذا الرأي هو بعض الروايات[186]، التي تعاملت مع القرآن كأنه نص درامي، فمن أجل إثارة المستمعين يكون الشخص الذي يقابله موسى نبيا آخر، ويا للمصادفة!!

إذا نظرنا في الروايات وجدنا أنها معارضة للقرآن، فالله عز وجل يقول في القرآن على لسان شعيب عليه السلام مخاطبا ومخوفا قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [سورة هود, ٨٩]

فالنبي شعيب كان قريبا زمنيا من قوم لوط، فيبعد جدا أن يكون عاش حتى زمن موسى عليه السلام وقد كان بينهما قرابة أربعمائة عام أو يزيد –تبعا لما جاء في التوراة!–، ونلاحظ أن الترتيب في الآية ترتيبا زمنيا للأنبياء، فبدأ بنوح ثم هود ثم صالح ثم لوط حتى لا يدعي أحد أن البعد بين شعيب ولوط كان بعدا مكانيا. ثم إنه لو كان النبي

---

(186) هذه الروايات ضعيفة السند وكما علق عليها الإمام ابن كثير قائلا: "مدار هذه الأحاديث على ابن لهيعة وأخشى أن يكون أخطأ في رفعها". وعلق عليها الإمام ابن جرير أيضا قائلا: "الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك"، فها هو أيضا شيخ المفسرين الطبري الذي قبل طوام عنده في كتاب تفسيره يضعف الأحاديث، فمن يريد أن يدعي أنه شعيب عليه السلام فما حجته؟

شعيب لكان هؤلاء من نجوا معه من الصيحة، فيستحيل أن يتعاملوا مع نبيهم وبناته بهذا الشكل.

والفهم البسيط المقبول للآية أن موسى عليه السلام فر إلى مدين، فقابل شيخا صالحا مؤمنا بالله فتوسم فيه خيرا فزوجه إحدى بناته، ولكن لما كانت مدين بلد النبي شعيب عليه السلام وجد القصاصون من بني إسرائيل فرصة رائعة لحبكة درامية لهذه القصة، فمن ينبغي أن يكون هذا الشيخ المؤمن في مدين سوى نبي الله شعيب؟! وللأسف تبعهم كثير من المفسرين بدون تحقيق أو تثبت.

الغرض من هذه القصة: وجود رجال صالحين في كل مكان، وأن الله يساعد وينصر من يخرج مهاجرا إليه، واستحباب الخطبة للبنت إذا وجد الرجل الصالح، والله أعلم.

موسى وعقدة اللسان

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [سورة طه ,٢٧] العديد من الروايات، مثل هذه التي ذكرها الإمام الطبري: "حدثنا موسى، قال: ثنا عمرو قال: ثنا أسباط عن السديّ، قال: لما تحرّك الغلام، يعني موسى، أورته أمه آسية صبيا، فبينما هي ترقصه وتلعب به، إذ ناولته فرعون، وقالت: خذه، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، قالت آسية: ﴿... لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ... ٩﴾ [سورة القصص ,٩] إنما هو صبيّ لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر أحلى منى أنا أضع له حليا من الياقوت، وأضع له جمرا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنه هو صبيّ، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طستا من جمر، فجاء جبرائيل صلى الله عليه وسلم، فطرح في يده جمرة، فطرحها موسى في فيه، فأحرقت لسانه، فهو الذي

يقول الله عز وجل: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾] سورة طه ,٢٧-٢٨]، فزالت عن موسى من أجل ذلك."اهـ

وهذا التفسير مستغرب جدا، إذ كيف يستمر موسى ممسكا بالجمرة بعد أن شعر بحرارتها ولا يرميها، بل ويضعها في فيه بعد ذلك فتحرقه؟! والأَوْلى حمل هذه العقدة على ثقل اللسان، وذلك أن موسى ترك مصر عشر سنوات كاملة، كان يتكلم فيها لغة أخرى، فأثر ذلك على كلامه لعدم من يلاغيه ويكلمه بهذه اللغة، أو القول بأن موسى عليه السلام لم يكن متكلما فصيحا من الأساس، فطلب حل عقدة لسانه، والأولى حمل العقدة على ترك الحديث باللغة لفترة طويلة، والله أعلم.

إذا الغرض من هذه القصة توضيح سبب الاستعانة بهارون عليه السلام.

موسى وعجل السامري

ونصل إلى أهم الإسرائيليات المتعلقة بموسى عليه السلام وهي "السامري والعجل"، والآية المحورية في هذه الروايات هي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦﴾] سورة طه ,٩٥-٩٦]، حيث ورد في شأن هذه القصة روايات عجيبة غريبة، تتلخص في أن موسى عليه السلام لما ذهب للقاء ربه واستبطأه قومه، أخذ السامري القبضة من التراب التي كان قد أخذها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام –الذي كان قد رآه وعرفه وحده فقط دون باقي القوم، وقد عرف جبريل لأنه كان قد رباه في صغره!– عند عبوره البحر لكي يعبره بني إسرائيل خلفه ولا يخافوا من انطباق البحر عليهم، فأخذها وألقاها على الحلي التي كانت مع بني إسرائيل فتحولت إلى عجل من ذهب له خوار، بطريقة فنية بسيطة، وهي أن الهواء إذا دخل من دبره وخرج

من فيه فيحدث هذا الصوت، ثم لما عاد موسى إلى قومه وجدهم يعبدون العجل فثار وغضب وألقى الألواح ... إلخ القصة المعروفة.

وتلقى الكثير من العلماء هذه القصة كغيرها من الإسرائيليات بدون تمحيص كاف، وجعلوها التفسير المعتمد للآيات، ورُفض أي فهم آخر لها لوجود تفسير أثري للآية، ولكن لم يقبلها كل العلماء، ولنا مع هذه القصة وقفة نوضح لم كانت هذه القصة باطلة(187):

في هذه الروايات الكثير من المخالف للمعقول، لذا حاول المفسرون التوفيق بينها وبين العقل والآيات، ولكن جابهتهم الكثير من الصعاب، فبطبيعة الحال يفترض أن قوم موسى كلهم رأوا هذا الفارس يعبر الطريق بين الماء ليقتدوا به في العبور، فكيف عرف السامري أن هذا الفارس هو جبريل؟ هل لجبريل علامة مميزة؟ سيقال أن جبريل رباه وهو صغير، فنقول هذه الرواية أيضا مأخوذة عن أهل الكتاب، وحتى لو صحت فكيف عرفه؟ هل لجبريل علامة مميزة كصوت أو ما شابه؟ لا، ليس له علامة مميزة فقد كان يأتي النبي(ص) ولا يعرفه الصحابة، وتذكر حديث "هذا أخوكم جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم". وإذا قلنا أنه عرف جبريل بشكل ما، كيف عرف أن ترابه ينفذ له ما يريد؟ فهل كل ما يخطو عليه الملائكة يصير ذا مفعول سحري؟

ولا بد أن نلاحظ أن صاحب الأثر هو الفرس وليس جبريل عليه السلام، فهل كان الفرس هو أيضا ملاكا وذا مفعول سحري أيضا؟! هذا ما لا يكون، ولكنها الخرافات والعقليات البدائية التي ألفت مثل هذه الأساطير.

---

(187) إذا نظرنا في هذه الروايات من ناحية السند، وجدنا أن كل هذه الروايات لم ترفع إلى النبي(ص)، بل هي موقوفة على الصحابة، ولقد علق الإمام ابن كثير على أشهر هذه الروايات، وهو حديث الفتون عن ابن عباس، الذي يكاد يكون جامعا لقصة موسى من قبل مولده وتقتيل فرعون للمولودين الذكور إلى أن دخلوا التيه، قائلا: "وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه *وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الاسرائيليات عن كعب الأحبار وغيره* وسمعت شيخنا الحافظ المزي يقول ذلك أيضا"، وهذه الروايات بعضها عن "السدي" وهو من هو في الوضع والتأليف، وبعضها عن محمد بن إسحاق صاحب السيرة الشهير، ولكنه عنعن فيها وابن إسحاق مدلس شهير عند أهل الحديث، وهو لم يصرح بالتحديث هنا!! وباقي الروايات هي عن مجاهد وقتادة وهما ليسا صحابيين ولم يسندا ذلك إلى الصحابة أو يرفعاه إلى النبي، بل حدثا بها.

ثم إذا كان الرسول هو جبريل عليه السلام فلم لم يوضح الرسول(ص) ذلك للصحابة؟ فجبريل عليه السلام غير مشهور بالرسول، حتى إذا ذكر الرسول عرف أنه بداهة أو أنه احتمال كبير في ذلك، فيكون تفسير الرسول بجبريل من باب التكليف بالغيب، وهو لم يذكر من أول السورة، فعلام يعود التعريف في قوله "ال رسول" وكما نعرف فإن "ال" لا بد أن تعود على شيء ما، مذكور أو مشار إليه، فهي إما للعهد أو للجنس، فما عودها هنا على قولهم؟

ثم إن هذا التفسير يستلزم تقديرا إضافيا وهو "من أثر حافر فرس الرسول"، وهذا كله من باب التكلف وتحميل النص ما لا يحتمل، ومن باب التقول، فمن أين أتى هذا المفسر العبقري بهذا المحذوف في كتاب الله؟

والآية نفسها في غاية البساطة لو أننا فهمنا النص ذاته، لا ما يذكره ويضيفه بعض الأشخاص ثم نقع في حيرة التوفيق بين العقل والنص وبين النص والتفسير، ولكي نأول الآية لا بد أن نفهم مدلولاتها: فنبدأ بالسؤال: من الرسول الذي ذكر في السورة ويمكن أن يعود الذكر أو العهد عليه بداهة؟ طبعا هو وبكل ببساطة سيدنا موسى عليه السلام أو هارون عليهما السلام، ولكن موسى هو الذي كان يخاطبه، فلو كان المراد موسى لقال "فقبضت قبضة من أثرك"، لذا فيمكننا أن نفهم أن المراد من الرسول هو هارون عليه السلام،[188] ويكون المراد أن موسى لما ذهب للقاء ربه، ألقى بنو إسرائيل الذهب الذي كانوا قد أخذوه من المصريين، وأخذ السامري هذا الذهب وأخرج لهم به عجلا جسدا عاديا، له خوار.

قد يقول قائل: ولكن هناك آية تحدد أن العجل كان من الذهب وهي: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ... ١٤٨﴾] سورة الأعراف ,١٤٨[، فهذا دليل على أن القول بالبدلية ليس سليما. نقول: تستعمل الحروف عامة بمعنى

(188) ويمكن القول أن هارون كان موجودا معهم، فيرجح أن يكون المراد هنا من الرسول هو موسى عليه السلام وهو من وضع الغائب موضع المخاطب فقد قال هذه الجملة السامري لموسى عليه السلام حكاية عما فعله عندما كان موسى غائبا فجعل المخاطب موضع الغائب كما كان الحال ساعة الفعل، ولكن هذا بعيد بعض الشيء.

واحد، ولكن لا بد من النظر في السياق حتى نستطيع أن نحدد المعنى المراد تحديدا دقيقا، ففي هذه الآية على سبيل المثال يقول الله: "واتخذ قوم موسى" ولم يقل وصنع أو وعمل أو وجعل، بل قال "اتخذ"، وانظر قوله تعالى: ﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الكهف ,٥٠]، فما معنى "من" في هذه الآية؟ نقول: لا يشترط أن يكون اتخذ من الشيء شيئا أن يكون بمعنى حول أو جعل، وإنما قد يكون الشيء وسيلة إلى الشيء الآخر، وبذلك قد أكون اتخذت منه شيئا آخرا، وبما أنه ثبت بطلان القصة الخرافية لجبريل وفرسه، نجد أنه من الأولى حمل العجل ذا الخوار على عجل عادي. وليس هذا فقط هو المبرر للقول باستعمال هذا المدلول ل "من"، ولكن الدافع لذلك أيضا هو تتبع القصة إلى آخرها، حيث نجد أن موسى عليه السلام يقول للسامري: ﴿... وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة طه ,٩٧] فهذا القول يوضح أن العجل كان عجلا عاديا وليس عجلا ذهبيا، لأنه حرق ثم نسف أي طير في الهواء وذري، والذهب لا يحرق ولا ينسف!

ووجد المفسرون مخرجا من هذا المأزق، فقالوا استنادا إلى رواية عن قتادة: "استحال العجل إلى لحم ودم"، وكثير من اللف والدوران حتى يتم التوفيق بين الروايات والآيات، ولكن يمكننا الاستعاضة عن كل هذا التعقيد بالقول أن "من" هنا بمعنى "الوسيلة الموصلة"، وبذلك نفض هذا الإشكال، بدون خوض في أمور مخالفة للعقل، ويكون العجل عجلا عاديا، فكلمة العجل أصل في الحيوان المعروف، ومن يريد أن يخرجها عن هذا المعنى إلى معنى "تمثال عجل" فليأتنا بالدليل القاطع، والله أعلم.

قد يسأل سائل: ما معنى ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ ... ﴿٩٦﴾﴾ [سورة طه ,٩٦] إذن، تبعا لهذا الفهم؟ نقول: البصر إما أن يكون عيني أو قلبي عقلي، فهو رأى شيئا بقلبه أو بعينه لم يره بنو إسرائيل، ولعله رأى عجلا مما كان يعبده المصريون فخطرت

في ذهنه الفكرة، أو رأى رأيا لم يره أحد منهم، كما أن القبض[189] ليس مرتبطا فقط بقبضة الإنسان، الموجودة في يده! ويكون تأويل الآيات هو: لما رجع موسى إلى قومه وعلم ما حدث، سأل السامري لم فعل ما فعل؟ فقال: بصرت بما لم يبصروا به أي عرفت ما لم يعرفوه أو رأيت ما لم يره أحد،–ولا بد من وجود أي فهم أو فكر مع النظر حتى يسمى بصرا ﴿... وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [سورة الأعراف, ١٩٨]، فقبضت قبضة من أثر الرسول.

وهنا مثار الإشكال اللغوي، حيث يرى البعض أن المعنى اللازم لهذه الكلمة هو ما قالوه؛ من أنه أخذ مقدار قبضة من أثر حافر فرس الرسول، ونحن نرى أن المراد من القبض هنا هو المعنى اللغوي المألوف؛ أي أنه جمع أشياء من أثر الرسول فنبذها أي هجرها وطرحها، فهو أخذ شيئا من أثر موسى فهجره وتركه.[190]

ولم يحدد لنا القرآن ما هو الشيء الذي نبذه السامري من أثر الرسول –ولكن هو كما نعتقد شيئا من تعاليم الدين مثل كون الله لا يرى أولا شبيه له أو لا يتجسم– فنبذها وهجرها وكذلك سولت له نفسه.

وهذا التأويل قد يبدو بعيدا بعض الشيء، لألفة الناس استعمال مدلول واحد للكلمة، مع أن الكلمة يكون لها أكثر من معنى ومدلول ويختلف مدلولها تبعا للتركيبة اللغوية

---

(189) القبض كما ورد في المقاييس: "(قبض) القاف والباء والضاد أصلٌ واحد صحيحٌ يدلُّ على شيء مأخوذٍ، وتجمُّع في شيء. تقول: قَبَضْتُ الشَّيءَ من المال وغيرِهِ قَبْضاً. ومَقْبِض السَّيف ومَقْبَضُه: حيث تَقبِضُ عليه. والقَبَض، بفتح الباء: ما جُمِعَ من الغنائم وحُصِّل. يقال: اطرَحْ هذا في القَبَض، أي في سائر ما قُبِض من المغْنَم. وأمَّا القَبْض الذي هو الإسراع، فمن هذا أيضاً، لأنَّه إذا أسرَع جَمَع نَفْسَهُ وأطرافَه. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ ... ۝١٩﴾ [سورة الـملك, ١٩] قالوا: يُسْرِعْن في الطَّيَران. وهذه اللّفظَةُ من قولهم: راعٍ قُبَضةٌ، إذا كان لا يتفسَّح في مَرعى غَنَمه. يقال: هو قُبَضَةٌ رُفَضَةٌ، أي يَقبِضُها حَتَّى إذا بَلَغَ المكانَ يؤُمُّه رَفَضها. ويقولون للسَّائق العنيف: قَبَّاضةٌ وقابض. قال رؤبة: قبّاضَةٌ بينَ العنيفِ واللَّبِقْ، ومن الباب: انقبَضَ عن الأمر وتقبّض، إذا اشمأزّ" اهـ

(190) هناك من يرى أن هذه تركيبة لغوية ذات دلالة محددة، تعطي معنى من الجملة كلها، فيكون المراد من القول "فلان يقبض أثر فلان" فإن المراد هو أنه يمتثل رسمه ويقتفي أثره–، فهم يأخذون المعنى على أنها تركيبة لغوية كاملة تأتي بمعنى محدد، فيكون المعنى قد كنت أتبعك وأقتدي بك فأخذت شيئا من سنتك ... إلخ الآية.

التي تقع فيها وتبعا لسياقها. وهذا التأويل فهم مباشر للآية بعيد عن التعقيدات والافتراضات، وهو تأويل لغوي معتمد على النص لم يزد فيه حرفا واحدا، والله أعلم.

أما الخوض فيما لا طائل من وراءه، مثل السؤال من هو السامري؟ ومثل القول بأن جبريل عليه السلام هو الذي ربي السامري وهو صغير في مغارة، فهذه أقوال لا دليل لها في القرآن، وفي نفس الوقت لا علاقة لها بالآية أو الحدث المعروض في الآية، أو الهدف الذي ذُكر من أجله الحدث، فهذا ما لا علاقة له بالتفسير أو التأويل، بل هو من حكاوي القصاصين، الذين كانوا يريدون أن يستحوذوا على قلوب العوام، والله أعلم.

إذا الغاية من هذه القصة كاملة هو معرفة حال بني إسرائيل بعد ترك موسى لهم، وكيف خدعهم السامري هذا، ومآله وما صار إليه وتنزيه هارون عليه السلام عن الشرك والاشتراك في صنع العجل.

داود والخصم

وبعد أن أنهينا الحديث عن سيدنا موسى عليه السلام، ننتقل إلى سيدنا داوود، ونتعرض للإسرائيلية الشهيرة المتعلقة به، وهي التي وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢﴾ [سورة ص, ٢١-٢٢] إلخ الآيات...

حيث وردت العديد من الروايات، المأخوذة من التوراة، والتي مفادها أن سيدنا داود عليه السلام كان متزوجا بتسع وتسعين امرأة –تصور!– ثم رأى امرأة وهي تستحم!! فأعجب بها فزنى بها، وفي بعض الروايات أنه لم يزن بها وإنما سأل عن زوجها، فعلم

أنه في الجيش فوضعه في مقدمة الجيش، وكان يغلب على من يكون في المقدمة أن يُقتل، أو أمر الجيش بأن يتأخر عنه ويترك وسط الأعداء ليقتل، وفعل هذا لكي يتزوجها، فجاءه هذان الملاكان في صورة هذين الشخصين، ليمتحناه وليبينا له قبح فعله.

وللأسف الشديد نجد أن هذه الرواية منتشرة انتشارا كبيرا بين عوام المسلمين، على الرغم مما فيها من التشويه الكبير لسيرة الأنبياء عامة وللنبي داود خاصة فيها، وعلى الرغم من أن القصة تعارض عصمة الأنبياء معارضة شديدة فقد قبلها بعض المفسرين، ونشرها الوعاظ بين الناس، ويبدو أن هذه القصة التفسيرية ذات الأصل التوراتي كانت منتشرة في أيام سيدنا علي رضي الله عنه، لذلك روي عنه أنه قال "من حدث بحديث داود كما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة".

وهذه الروايات وأمثالها من أكبر الأدلة على أن السادة المفسرين الأفاضل ما كانوا يفسرون النص مع وجود الرواية، بل يغضون الطرف تماما عما يقوله النص ما دامت هناك رواية في تفسير النص، حتى ولو كانت هذه الرواية حديث خرافة، ولننظر نظرة سطحية للنص، ولنرى بوضوح تهافت هذا التفسير الأسطوري، وتعارضه الجلي مع الآيات: الآية في بدأها تسأل النبي(ص) وكل المؤمنين: هل وصل إلى علمك نبأ "الخصم"؟ وكلمة "الخصم" أصل في وجود خصومة، ولست أدري كيف تُلغى ويجعل الخصمان ملاكيين، لم يكونا خصميين، إذا فهذا أول اختلاف مع النص.

ونلاحظ أن النص يتكلم عن خصومة بين جماعتين وليس فردين، حيث قال "وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب"، وقال "خصمان بغى بعضنا على بعض"، فلو كان الخصمان شخصين، فكيف يبغي بعضهم على بعض، هل بغى ذراع أحدهما على رجل الآخر؟! فالنص يقول "خصم" والتفسير يقول: لا ليسا خصمين، بل ملائكة يدعون الخصومة، وكالعادة قُدم التفسير الغريب المشوق وأهمل النص!!

بعد ذلك يوضح النص بما لا يدع مجالا للشك أنهما كانا خصمين بشريين عاديين، بقوله: "إذ تسوروا المحراب"، فعندما جاء الخصم إلى محراب سيدنا داود وجدوه مغلقا، فتسوروا: أي صعدوا على السور، لكي يدخلوا إلى سيدنا داود ويعرضوا مسألتهم عليه، فلو كان الخصم اثنين من الملائكة، فلِما تسوروا المحراب، وكان يمكنهما أن يظهرا أمامه مباشرة؟!

ولا حاجة لنا إلى هذه الترهات التي وردت في كتب التفسير، ويمكننا فهم الآيات من النص نفسه بلا صعوبة، وسنجد أن الفهم لا يتعارض مع عصمة الأنبياء، فنقول: هل أتاك نبأ الخصم الذين جاءوا إلى داود في المحراب فوجوده مغلقا فلم يرغبوا في العودة، فتسوروا المحراب –ولا يهمنا لم كان المحراب مغلقا، فمن الممكن أن داود كان يرتاح في هذا الوقت فأغلق المحراب، أو أنه كما روي قسم أيامه فكان هناك يوما للعبادة لا يقضي فيه لأحد وفي هذا اليوم جاء الخصم، ما يهمنا أنه كان مغلقا–، فلمّا رأهم داود عليه السلام فزع منهم، وما أن استمع لمقولة الأول حتى حكم في المظلمة.

أما الغرض من هذه القصة، فيمكن أن يكون أمور عدة، منها: لفت الحاكم إلى عدم التسرع في الحكم، فلقد حكم داود عليه السلام دون أن يسمع من الاخر، لذا يجب على الحاكم أن يسمع من الطرفين المتخاصمين قبل أن يصدر الحكم.

ومنها لفت الحاكم إلى عدم الاحتجاب عن المحكومين، فها هو سيدنا داود يلام على كونه احتجب عن الرعية مما اضطرهم إلى التسور، فهذا ما لا يقبل من الخليفة حتى ولو كان بحجة العبادة كما روي، بل يجب أن يكون مع الرعية دوما، فالفصل في مصالح الناس وقضاء حوائجهم أفضل من العبادة لأن نفعها للعابد فقط، والله أعلم.

سليمان والنملة

وبعد أن تعرضنا للنبي داود عليه السلام، نتوقف مع ابنه النبي سليمان عليه السلام، حيث أن سيرته ارتبطت بالكثير من الخرافات والتهويل، وكان هذا أمرا طبيعيا، فإذا كانت قصص الأنبياء العاديين –إذا جاز التعبير– أضيف إليها الكثير من الأساطير والخرافات، وأجريت لها عمليات درامية تهويلية متعددة، فما بالنا بقصة تقول أن النبي سُخر له الريح والشياطين وعُلم منطق الطير وكان يعقد مجالسه في حضور الجن! فكيف لا تُحاك الروايات الخرافية حول هذا الملك العظيم، لذا جاءت بعض الروايات التي تفيد بأن سليمان عليه السلام من الملوك الذين حكموا الأرض كلها!

وهذه الروايات من الأقوال الواضحة البهتان والبطلان، بدليل أنه لم يعرف بأحوال مملكة سبأ وأخبره بها هدهد من جنوده، والصحيح ما ورد في القرآن، وهو يتفق تماما مع التاريخ، من أن الله وهب سليمان ملكا عظيما، ولكن في حدود فلسطين والشام وسخر له الجن والطير والريح، والله أعلم.

والحق يقال أن هذه الروايات من تأليف قصاصي المسلمين وليس لها أساس توراتي، فلم تذكر التوراة أن سيدنا سليمان عليه السلام كان له هذا الملك الهائل، بل كل ما ذكرته التوراة أن سليمان كان ملكا عاديا على مملكة صغيرة الحجم نوعا ما.

وبما أن الروايات الواردة في تفسير قصة سيدنا سليمان غير إسرائيلية الأصل، ويمكن القول أنها تشبه النص القرآني ولا تخرج كثيرا عنه، سيُتعامل مع قصة سيدنا سليمان بمنهج مختلف، لذا سنحاول أن نبين للقارىء بعض النقاط التي قد تخفى عنه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [سورة النمل, ١٨]

والقارىء المسلم، الذي يقرأ هذه الآية والتي تليها، يفهم مباشرة أن سيدنا سليمان عندما مر على وادي النمل سمع هذه النملة فتبسم ضاحكا من قولها، ولكن لا بد لنا

من وقفة مع هذه الآية: فنحن نجد أن النصارى والملحدين يطعنون في القرآن بسبب هذه الآية، ويقولون: كيف سمع سليمان النملة تتحدث، مع أن النملة ليس لها جهاز صوتي أساسا، فلو قلنا أنه كان يفهم لغة الطير، فالطير لها صوت نسمعه ولا نفهمه، أما النمل فلا جهاز صوتي له، وهو يتعامل بقرون الاستشعار، فكيف سمع سليمان قول النملة الذي لم تقله أساسا؟! نقول: نحن نتوقف في فهم هذه الآية، وطبعا ليس بسبب قول النصارى، ولكن بسبب البناء اللغوي للآية، فالآية تقول على لسان نملة: ﴿... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ... ﴿١٨﴾﴾ [سورة النمل ,١٨]، فاستعملت الآية ضمير جمع المذكر السالم، وهذه الضمائر لا تستعمل إلا مع العاقل، فلو كانت هذه الكائنات من الحشرات أو من غير العاقل لقالت الآية "يا نمل ادخلن بيوتكن"، فغير العاقل لا يتخذ مسكنا ولكنه يتخذ بيتا: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النحل ,٦٨].

ولقد قرأت تفسيرا لهذه الآية يقول أن النملة هذه كانت زعيمة قبيلة موجودة بالقرب من اليمن، وهذه القبيلة موجودة في مكان يسمى وادي النمل. ونحن نسلم بوجود مكان يسمى وادي النمل، إلا إنه من البعيد جدا أن يكون المكان اسمه وادي النمل، والقبيلة تسمى النمل، والزعيمة أو المراقبة اسمها نملة، ولكن في نفس الوقت فإن هذه الضمائر ووصف السكن لا يكون إلا مع البشر العاقل، بالإضافة إلى أن القرآن لم يقل أن سيدنا سليمان علم منطق كل الكائنات، وإنما قال أنه علم منطق الطير فقط، فنتوقف في تحديد المراد من هذه الآية، علّ الله يفتح على غيرنا في تحديد المدلول القاطع لها هل هو النمل أم البشر؟

أما الرد على النصارى فيكون بالقول الثاني، فإذا قلت له أن سليمان كان يستطيع التقاط إشارات قرون استشعار النمل، فسيسخر منك ويقول إن الآية تتحدث عن منطق وقول وليس عن قرون استشعار أو إشارات، أما إذا قلت له أن الكلام هنا عن قبيلة والحديث من بشر لوجود الضمائر التي لا تستعمل إلا مع العاقل فلا إشكال، وللقارىء الحرية في الحكم على هذا الرأي، فلا نلزمه بأخذه.

نفي السرقة عن سيدنا سليمان

ومما قاله المفسرون بدون أن ينتبهوا إلى عواقب قولهم، هو تفسيرهم قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة النمل, ٣٨]، فنجد أنهم يطبقون على أن "يأتيني" في "يأتيني بعرشها" بمعنى "يحضر لي"، ونجد أنهم قاطبة قد نسوا أن فعل هذا تحت أي مسمى هو سرقة، فسواء كان هذا من أجل هدايتها أو اختبارها، فهو شاؤا أم أبوا سرقة، فهذا الفهم لا يقبل.

فإذا نظرنا في معاني هذه الكلمة، وجدنا مدلولا آخر لا يسبب أي إشكالية، وهذا المدلول هو: "الفعل"، ف "أتي ب" تأتي بمعنى فعل الشيء، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٠٦] أي فافعلها وقم بها إن كنت من الصادقين، ومثل قولنا "أتيت بالشيء على أمثل وجه" أي قمت به وفعلته على أمثل وجه، ومثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الإسراء, ٨٨]، فليس المقصود هنا بأي حال أن يذهبوا فيحضروا قرآنا من مكان إلى مكان آخر، وإنما المقصود الإنشاء والصنعة، ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣] فهل المقصود هنا الإحضار؟ بداهة لا، إذا فالأولى أن نفهم أن طلب سليمان من مستشاريه كان منحصرا فيمن يستطيع أن يقوم بعمل عرشها قبل أن يأتوه مسلمين، وتأمل المشاكلة في قوله تعالى: ﴿... يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة النمل, ٣٨]، وليس فيمن يحضر له عرشها، وكأن كون الإنسان نبيا كافيا في أخذ حاجيات الناس بدون إذنهم!!

قد يقول قائل: كيف تفهم إذن قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النمل, ٤١] فالذي يُفهم من الآية، أن سليمان عليه السلام أمر أتباعه أن ينكروا لها عرشها، أي يجعلوا العرش منكراً مغيراً عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه. نقول: هذا الفهم غير مقبول، لأنه مترتب على إحضارهم العرش وهم لم يحضروه، إذا يجب أن نفهم هذا الأمر على نحو آخر، وهو: أن يقال أن نكروا هنا المراد منها جعل عرشها نكرة بالمقارنة بهذا العرش، فإذا رأت هذا العرش عرفت مقامها ومقدرتنا ومنزلتنا، فتترك الكبر وتتفكر، أما أن يقال نكروا بمعنى غيروا فما المراد منه، وما الذي يجعلها تهتدي، إذ لو كان المراد كما يدعون أن يبرزوا لها مقدرة سليمان لتركوا العرش –الذي سرقوه!– كما هو، حتى تتأكد أنه عرشها فتعرف بمقدرة سليمان الجبارة؟!

ملكة سبأ والصرح

أورد المفسرون في تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل, ٤٤]، روايات عجيبة تسيء إلى الأنبياء، كما أنها لم توضح، لم أسلمت ملكة سبأ بعد رؤيتها الصرح؟

فوجدناهم يقولون: "فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استترت، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾"اهـ

ولكن هل كون الصرح من قوارير كاف لكي يؤمن الإنسان؟! بداهة لا يؤمن الإنسان لوجود صرح عال ضخم مبني بطراز مختلف على مستوى عالي من التقدم، مهما

كانت درجة التقدم، إذن لماذا أسلمت؟ نقول: الغرض من إدخالها الصرح –والله أعلم– أن تمر بهذه التجربة، فلقد بني سليمان عليه السلام صرحا من الزجاج الشفاف تجري من تحته المياه، بحيث تعتقد أنها ستمر من فوق الماء، ونظرا لأن الزجاج كان شفافا لا يُرى، فقد كشفت عن ساقيها، فهنا قال لها سليمان عليه السلام أنه صرح ممرد من قوارير، ففهمت ملكة سبأ الدرس الذي أراد لها سليمان أن تفهمه، وهو أنه ليس كل ما لا يُرى ليس موجودا، فهي كانت تعبد الشمس لأنها تراها، فأعلمها أن هناك إله وراء الشمس، لا نراه بأعيينا ولكنه موجود ونحس كلنا بوجوده وبفعله وبأثره في الكون، وهو المستحق العبادة.

فانظر أخي في الله كيف أن أفعال الأنبياء كلها لحكمة، وكيف فهمت الملكة العظيمة الدرس الذي أعطاه لها سليمان. أما ما يقوله المفسرون، الذين لم يستطيعوا أن يخبرونا ما الغرض من إدخالها الصرح[191]، ولست أدري صراحة ماذا كانوا يفسرون إذن؟

إذا الغرض من هذه القصة عرض المستوى العظيم لملك سيدنا سليمان عليه السلام، وكشف تدليس اليهود في عرض تاريخه، وإظهار كيفية التعامل مع نعمة الله واستخدام الحكمة في الدعوة إلى الله.

سليمان والخيل

ومما ذكروه مخالفا لمنطوق الآيات تماما، ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ

[191] رووا أخبارا عجيبة في تعليل فعل سليمان فقالوا: "وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية، وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد، فقالوا إن في عقلها نقصاناً وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها "اهـ ولست أدري أي أسرار هذه التي يخافون أن تكشفها له، وهم مسخرون عنده بأمر الله؟!!، وهل بلغ الأمر بنبي مرسل، أن يبني صرحا ممردا من أجل أن يرى ساقي امرأة؟! هذا سفه لا يقبل ويجب التنزه عنه.

تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة ص ,٣١-٣٣]

حيث رووا العديد من الروايات، مفادها أن سليمان عليه السلام عُرض عليه خيل جياد في وقت العصر فألهاه ذلك عن صلاة العصر، فغضب لذلك وطلب إلى الله أن يرد عليه الشمس –وقيل طلب رد الخيل– ليصلي العصر حاضرا فردت الشمس وصلى، ثم أخذ في تقطيع أعناق الخيل وسوقها لأنها ألهته عن الصلاة!

ولست أدري من أين جاءوا بهذا القول! وانظر عزيزي القارىء في الآية، هل تجد مما قالوا شيئا؟ فهذا القول باطل تمام البطلان، ونكتفي في الرد عليه بما ذكره الإمام الرازي، ففيه الكفاية، لما فيه من الربط بين الآيات، حيث قال: "إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾]سورة ص ,١٦[وأن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال تعالى لسيدنا محمد: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ... ﴿١٧﴾﴾] سورة ص ,١٧[ثم ذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان وهذا الكلام لا يكون لائقا إلا إذا كان سليمان قد أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وإعراض عن الشهوات، فلو كان المقصود من القصة أنه أقدم على الكبائر العظيمة لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع ويكون التفسير الموافق للسياق والله أعلم: أن رباط الخيل كان مندوبا في دينهم كما أنه مندوب في ديننا فاحتاج إلى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل واجرائها وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلبا لتقوية دينه وهو المراد بقوله "عَن ذِكۡرِ رَبِّي"، ثم أنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت الخيل بالحجاب أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردوا الخيل إليه فلما عادت إليه طفق أي أخذ يمسح سوقها وأعناقها ملاعبة ورفقا بها"اهـ

ومسح السوق والأعناق أسلوب معروف في التعامل مع الخيل، والمسح هنا بمعنى المسح العادي وليس القطع أو المسح بالسيوف، فلا مبرر لتأويل اللفظ وإلا سيخرج علينا مفسر ليقول أن المسح في آية الوضوء المراد منه أن نقطع رؤوسنا!

إذا الغاية من هذه القصة إبراز السياسات الحكيمة للحكام في التعامل، وأهمية الرفق بالحيوان ورعايته.

سليمان والجني

ونأتي إلى رواية هي من أشهر الروايات الإسرائيلية، يعرفها الصغير ويحلم بها الكبير، وهي الرواية الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [سورة ص, ٣٤-٣٥]

حيث تقول الروايات: أن سليمان عليه السلام تزوج امرأة اسمها "جرادة" وكانت مشركة ولكنها أسلمت، وعلى الرغم من ذلك ظلت تبكي أباها فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها –وروي أنها صنعت التمثال بدون علم سليمان– وكانت تسجد له هي والجواري، فلما علم سليمان كسر التمثال وعاقبها وباقي القصة نعرفها كلنا، من أنه دخل يوما الخلاء فخلع الخاتم وأعطاه للجني المرافق له، فأخذه الجني ولبسه وتشكل بشكل سليمان إلى آخر القصة المعروفة بين سليمان والجني والخاتم الذي وجده في السمكة!! وهذه الروايات بمجموعها مستحيلة عقلا، وتصلح كقصة عظيمة لفيلم أسطوري خرافي شائق[192]، ونحن نرد هذه الروايات للأسباب التالية

---

[192] علق الإمام ابن كثير على هذه الروايات في كتابه البداية والنهاية، فقال: "ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هنا أثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير".

1- يروون أن الشيطان لما جلس على الكرسي اجتمع عليه الطير والإنس والجن. ومؤلفوا هذه الخرافات نسوا أن تسخير الطير والجن والريح كان بعد الفتنة لا قبلها، فلم يكن الجن قد سخر بعد فتأمل وتعجب، واقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [سورة ص ,٣٤-٣٥] ثم قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [سورة ص ,٣٦-٣٨]، فالتسخير كان بعد هذه الواقعة، وبسببها دعا سليمان عليه السلام وكانت الإجابة من الله، وعجبا للكذابين.

2- الشيطان لا يقدر على التشكل، لأنه لو حدث لا يبقى اعتماد على الشرائع لاحتمال أن محمدا وعيسى وموسى كانوا شياطينا تشكلوا بأشكالهم، وهذا أشد الأباطيل.

3- لو كان سليمان صنع التمثال لزوجه فهو كافر وهذا محال على الأنبياء، وإن كان الأمر بدون علمه فلا ذنب عليه يعاقب من أجله هذا العقاب الشديد[193].

إذن فالغاية من هذه القصة توضيح ابتلاء الأنبياء، وأنهم أشد الناس ابتلاءا وكيف أن هذا الصبر يؤدي في النهاية إلى الفوز والتمكين، وما النصر إلا صبر ساعة.

---

(193) نتوقف في فهم قوله تعالى: ﴿... وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ [سورة ص ,٣٤]، فعلى الرغم من وجود عدة أفهام مقبولة لها، مثل ما ذكره الإمام الرازي: "أن سليمان ابتلي بمرض شديد ضني منه جسده حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح ثم أناب أي رجع إلى الصحة"، ومثل ما قيل أن أخاه كان قد استولى على كرسي الملك من سليمان لفترة من الزمان، ثم عاد سليمان إلى الحكم مرة أخرى، فلذلك دعا ربه بالتمكين في الملك وأن لا ينبغي لأحد من بعده مثل هذا الملك. ولكن كل هذه الأفهام لا يشعر معها المرء بالتطابق مع النص، لذا نتوقف في هذه الجملة حتى يظهر لنا أو لغيرنا مرجح، والله أعلم.

أيوب والمس

وبعد أن تحدثنا عن سيدنا سليمان عليه السلام ننتقل إلى سيدنا أيوب عليه السلام، ونقف معه وقفة خاصة، لما ارتبط بسيرته من روايات وخرافات لا أساس لها من الصحة، بل إنها تناقض أسس الدين، ومُررت هذه القصص كغيرها، على الرغم من أن القرآن لم يذكر مما يقولون شيئا، فلنرى كيف ذكر القرآن هذه القصة وكيف فسرها المفسرون: قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة ص , ٤١-٤٣]

هذا ما ذكره القرآن عن هذا النبي، مجرد كلمات بسيطة تحكي الحادثة التي وقعت له، وهي واضحة لكل ذي عينين، والآن لنرى كيف صاغت أخيلة القصاصين هذه الرواية، ونورد هنا ما ذكره الإمام القرطبي، فلقد أعجبني ما أورده الإمام القرطبي في التعليق على هذه الروايات –بعد أن أوردها!– حيث قال: "وذكروا كلاما طويلا في سبب بلائه ومراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه، وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره فابتلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فابتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلي. وقيل،: كان الناس يتعدون امرأته ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال. "مسني الشيطان". وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنة لوط.!! وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوما من العام فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا

لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولهم: إن الله تعالى قال له هل قدرت من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعا؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر له –لعنة الله عليه– عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم. وأما قولهم: إنه قال لزوجته أنا إله الأرض، ولو تركت ذكر الله وسجدت أنت لي لعافيته، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلها في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يعافي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبي؟! ولو كانت زوجة سوادي أوفدم بربري ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في واد للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه. ولو تصور لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره. قال القاضي: والذي جرأهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى: ﴿... إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾] سورة ص ,٤١[فلما رأوه قد شكا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها. في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا، وإن كان موجودا منه خلقا؛ أدبا أدبنا به، وتحميدا علمناه. وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قول من جملته: (والخير في يديك والشر ليس إليك) على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾] سورة الشعراء ,٨٠[وقال الفتى للكليم: ﴿... وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ... ﴿٦٣﴾﴾] سورة الكهف ,٦٣[(...)

والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا" اهـ

وهذا الكلام الذي أورده الإمام القرطبي عن الإمام أبو بكر بن العربي كلام ثمين، يوضح كيف كان وينبغي التعامل مع هذا الخرافات فأثبتناه من أجل الفائدة، ولست أدري لم ذكر الإمام هذه الروايات من الأساس؟ والآيات غاية في الوضوح، فسيدنا أيوب يشكو مس الشيطان له بنصب وعذاب، فهو يوسوس له ويحاول أن يقنطه من إيمان قومه، أو بأي أفكار أخرى –وغالب الأمراض العضوية أصلها نفسي، فالنبي كان يتألم لإعراض قومه وأهله حتى مرض، فقال الله له اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ولما شفي وهب الله له أهله وآخرين، وليس معنى ذلك أن أهله كانوا قد ماتوا فأحياهم الله له، بل يعني أنهم آمنوا به مع غيرهم رحمة من الله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [سورة مريم ,٥٣]، ولا يعني هذا أن هارون أُحيي لموسى!

ويكون الدرس الخارج من الآية أنه يجب على الإنسان الصبر الجميل في كل حال، من يصبر على البلاء يعوضه الله في آخر المطاف، فها هو نبي الله بعد مرضه وصبره عوضه الله عن مرضه. وكذلك إظهار حرص الأنبياء على هداية أقوامهم، حتى أنهم يكادون يهلكون بسبب إعراض أقوامهم عن الإيمان بالله. فانظر عزيزي القارىء الفارق بين ما قالوا به وبين ماقلنا به وتأمل أيهما خارج من النص نابع منه.

تاريخ ميلاد المسيح

ونذكر هنا نموذجا مختلفا بعض الشيء للإسرائيليات، وهو تاريخ ميلاد المسيح، فمن المعروف أن المسيح ولد في الخامس والعشرين من ديسمبر[194]، وأخذ المسلمون

[194] يلاحظ التطابق بين تاريخ المسيح عامة وبين تواريخ معبودات الوثنيين وخاصة ميترا.

بهذا التاريخ ولم يعترضوا عليه، مع أن القرآن ينفي هذا القول، فالله تعالى يقول: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [سورة مريم ,٢٥] ففي هذه الآية إشارة واضحة أن المسيح عليه السلام ولد في الصيف!! لوجود الرطب، ولكن أُهملت الآية كأنها لم تقل شيئا، وأخذ ما قاله الإنجيل كمسلمة لا جدال فيها.[195]

إذا الغرض من هذه الآية تصحيح بعض ما اختلف فيه بنو إسرائيل، وهو تاريخ ميلاد المسيح، بأن بين أنه كان في الصيف وليس في الشتاء! وإظهار أهمية الرطب كغذاء بالنسبة للمرأة حديثة الولادة.

ونكتفي بهذا القدر من النماذج في التعامل مع القصص القرآني على المستوى الأول، وفي ختامه نقول لك عزيزي القارىء: انظر كيف أضاع السادة المفسرون القصص القرآني على مستواه الأول، وهو الأخذ كقصة، فكيف بنا أن نستخرج منه باقي المستويات؟!

بداهة لن نستخرج منه شيئا، لذا لا بد من إصلاح القاعدة حتى نستطيع أن نبني عليها ما نشاء بعد ذلك، أما أن يكون الأصل واه، فسيكون البناء أوهى وينهار، والله المستعان.

نماذج للتعامل مع القصص القرآني على المستوى الثاني: التأويل التاريخي

بعد أن عرضنا لك عزيزي القارىء نماذج من فهم القصص القرآني على المستوى الأول، نعرض لك نماذج في كيفية التعامل مع القصص القرآني على مستويات أعلى

[195] انتقدت دائرة المعارف البريطانية روايات الأناجيل، التي تقول أن ليلة ميلاد المسيح كانت في ديسمبر، بسبب وجود الرعاة وقطعانهم، وتتساءل: كيف يمكن ذلك، وفي ديسمبر تهطل الأمطار غزيرة في فلسطين؟

من الأخذ كقصة، فنعرض لك نماذج في كيفية استخراج تاريخ البشرية وتطورها من القرآن.

المجتمع الأول

عرضنا سابقا، عند الحديث عن الخلق لمسألة خلق آدم، وتحول البشرية من الهمجية إلى الأنسنة، ونبدأ هنا بالتعرض لأول خطوة خطتها البشرية في تطورها، وبها انتقلت من مرحلة إلى مرحلة جديدة تماما، وذلك مع سيدنا نوح، أول الرسل عليه السلام:

1- عند النظر في الآيات التي عرضت لقصة سيدنا نوح، نجدها تقول دوما ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ... ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٥٩] ويقول تعالى على لسان سيدنا هود: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]

فنلاحظ أن الله لم يذكر في أي موضع من القرآن اسم قوم نوح، أو المكان الذي كانوا فيه، بخلاف باقي الرسل، فنجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ... ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣] ويقول: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٥]، ويقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٨٥]

فما الفارق بين نوح ومن بعده[196]؟ نقول: هل سأل أحدنا نفسه ذات مرة: لم لم يذكر الله قط اسم قوم نوح، بل يقول دوما "إلى قومه"؟ لقد تفكرت في هذه النقطة كثيرا،

(196) نجد أن السادة العلماء تفضلوا شاكرين فألغوا الفارق بين قوم نوح ومن بعدهم من الأقوام فأخبرونا باسم قبيلة نوح!!، ونحن نشكرهم ونتركهم لحالهم.

ولم يظهر لي فيها وجه شاف، إلى أن اهتديت ذات مرة إلى أنه من الممكن أن لا يكون لقوم نوح اسم. فمن المعروف أن قوم نوح هم أول قوم أرسل إليهم رسول، وهم كانوا قريبي عهد ببدأ ظهور الإنسان، فبعد ظهور الناس وكثرتهم حدث التفرق، فسكنت كل جماعة مكانا ما، ولكن لما لم يكن الناس كثيرين بدرجة كبيرة، ولم تظهر تعقيدات الحياة فلم يكن الأقوام في حاجة إلى تخصيص وتمييز أنفسهم عن الغير، هذا بالإضافة إلى أن اللغة لم تكن متطورة كما هي الآن أو بعد سيدنا نوح، فمن المقبول جدا أن تكون هناك حقبة تاريخية في بداية البشرية لم يظهر فيها أسماء للقبائل أو الأقوام، وكانت كل قبيلة تعيش متجمعة في مكانها فقط.

إذا أول عنصر استخرجناه هو عنصر عدم وجود اسم القوم وأن اللغة كانت لا تزال في بدايتها وكذلك القوم، فلم يكن المجتمع قد أخذ البناء المكتمل للقبيلة، وإنما انقسم فقط إلى "ملأ " و"أراذل".

2- أول ما ظهر الشرك كان في قوم نوح. سيقول قائل: وما الجديد في هذا، فكلنا نعرف أن نوحا عليه السلام هو أول الرسل. نقول: الجديد الذي نقصده هو أن البشر قبل نوح كانت ترعاهم الملائكة وتعلمهم أمور حياتهم وتخبرهم أوامر ربهم، ثم انقطع نزول الملائكة لتعليم البشر، ومع انقطاع نزول الملائكة بدأ ظهور الانحرافات الإيمانية، فبعث الله نوحا إلى قومه لينذرهم.

وأخذنا هذا القول من القرآن، فالقارىء الذي يقرأ القرآن ولا يتدبره، تمر عليه آيات مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]، ومثل قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ [سورة فصّلت, ١٤]، ومثل قوله تعالى للرسول لما طلب قومه رؤية الملائكة: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [سورة الأنعام, ٩]

بدون أن يكلف خاطره، أن يسأل نفسه مرة: ما الذي يجعل كل هؤلاء الأقوام يصرون على رؤية الملائكة كعلامة لتصديق الرسول؟

لو تفكر القارىء مرة في قول قوم نوح له: ﴿... مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون ,٢٤] لعرف بداهة أن الملائكة كانت تأتي الناس قبل نوح لتعلمهم وتعرفهم بربهم، حيث قام الملائكة بدور المربيين للبشر، حتى يصلوا إلى درجة معينة من التطور يستطيعون فيها الاعتماد على أنفسهم، ولما تطور الناس بعض الشيء رُفعت عنهم هذه المساعدات، فلقد كان الإنسان في بداية حياته ساذجا جدا، فعلمته الملائكة كيف يعيش على الأرض، فلما نضج تركته، فلما كفر أرسل الله إليه بشرا مثله ليدعوه، ولكن لما كان القوم قد اعتادوا أن من يأتيهم ويتكلم عن الله لا بد أن يكون ملكا، فقد استنكروا كون الآتي ليس بملك، وترفعوا أن يؤمنوا لغير ملك.

ونجد أن هذا الاعتقاد ترسخ عند البشر، حتى عند الأجيال التي لم تر الملائكة، وتناقلته الأجيال، فقد كان الآباء تحكيه للأبناء، وهكذا دواليك[197]، فكان البشر كلما يأتيهم نبي يتنكرون له، ويطلبوا إليه أن يأتيهم بملَك ليؤمنوا، فالناس لم ينكروا أبدا وجود الله –إلا في عصورنا الحديثة المتمدنة!– ولكنهم كانوا يطلبون مجيء الملائكة، فلو لم يكن لهذا أصل في حياتهم الماضية، فما مبرر هذا الطلب والإلحاح؟

نخرج من قصة نوح هذه بالتصور الأول لحال البشر، فهم كانوا قوما بدائيين لغتهم لغة بدائية وطبيعة الحياة طبيعة بسيطة، لدرجة أنها لم تهتم بتسمية القبيلة، وأن قوم نوح كانوا أول قوم أرسل إليهم بشر، وقبل ذلك كانت تسوسهم وتربيهم وتعلمهم الملائكة.

[197] بداهة كانت الملائكة تأتي البشر في غير الصورة البشرية، فالبشر لا يتحملون الصورة الملائكية الحقيقية، والله أعلم بالشكل الذي كانت تظهر به للبشر، ولكن هذا يفسر الكثير من الرسومات التي وجدت ورسمت على أنها للملائكة، والمنتشرة في جميع أنحاء العالم، ونحن نرى أن هذه الصور رسمت من الوصف الذي كان يحكيه الآباء لأبنائهم عن الملائكة لا من المشاهدة، فهذا يبرر الاختلافات الشديدة بين الرسومات.

هذا تصور بسيط لحال البشرية في بدايتها، خرجنا به من النظر في بعض آيات الكتاب الحكيم، لذا يجب علينا أن نتحرك ونبحث لنرى، هل يوجد في التراث والتاريخ ما يشير إلى وجود الملائكة وقيامهم بهذا الدور، فإذا طابقنا بين ما وجدناه وبين ما ذكر في القرآن، وبين ما وجد في تراث البشرية، فقد قمنا بتأويل الآية إلى حد كبير كما ينبغي أن يكون. قد يقول قائل: وما الهدف من هذا البحث؟ نقول: سيكون هذا البحث والإثبات ضربة قاصمة للإلحاد والملحدين، فإذا استطعنا أن نثبت أن الخلق تم في أرحام أرضية كما قلنا، وأن هذا الخلق الذي خرج تولته الملائكة بالرعاية، فسيقضي هذا على حججهم تماما من أن الإنسان تطور عبر الزمن، ثم صار بشكله الحالي، فاستطاع اكتشاف الطبيعة من حوله وتسخير خصائصها بهذه السرعة، فمن أين حصل على العلم؟ دوما مصدر العلم رباني، فلقد منّ الله علينا وأعطانا وربانا وهذبنا وأحسن خلقتنا، وجعلنا أناسا، فلم يتركنا في ظلال الهمجية، ثم ظهر بعض البشر يتكبرون على قبول وجوده، بينما لا يجدون حرجا في الاعتراف بالجاذبية منذ ظهرت كنظرية.[198]

3- ظهرت الأموال والأبنية في زمان سيدنا نوح عليه السلام. فالله تعالى يقول: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة نوح ,١٢] ففي هذه الآية دليل على ظهو ر الملكية الفردية عند البشر منذ قديم الأزل، فالأموال لم تكن مشاعا، بدليل ترغيب سيدنا نوح لقومه بها، فلو كانت مشاعا كما يدعي الماركسيون، لما كان لهذه الآية معنى، لذا نرد قولهم بشيوعية المال عند الإنسان الأول.

ولكن لا يتصور القارىء أن الآية دليل على وجود المال بصيغته النقدية، لا فالمال يطلق على كل ما يتمول به من غير العقارات، فالبقر مال والحلي مال، أما الشجر

[198] على الرغم من أن الجاذبية تعد من الحقائق العلمية المسلم بها، إلا أن هذه النظرية لا يزال بها الكثير والكثير من الثقوب التي تحتاج إلى رتق. وما أن ظهرت حتى آمن بها هؤلاء *البشر*، بدون أن تكون هناك أدلة علمية قاطعة عليها، وبدون أن تقاس بالأدوات العلمية، كما يطلب هؤلاء المتبجحون أن يفعلوا مع الإله!!

والبيوت فعقارات. أما الدليل على ظهور الأبنية في عصر نوح عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة نوح, ٢٨]، ولكن لا نجزم بطبيعة هذا البيت أو حجمه أو مواد بنائه، ولكن نرجح أنه كان بيتا بدائيا بسيطا لم تستخدم فيه المواد المعقدة، والدليل على ذلك المواد المستعملة في عمل الفُلك: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة القمر, ١٣]

4- انقسم المجتمع إلى طبقات، وهذه النقطة أيضا في الرد على الماركسية، فالله تعالى يقول: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة هود, ٢٧]، فها هو المجتمع ينقسم على نفسه إلى ملأ –علية القوم، أقصد علية القوم– وأراذل، وهذا ما كان وسيظل دوما حال البشر.

هذه كانت بعض النقاط التي استطعت استخراجها من قصة سيدنا نوح، من مجرد نظرة في النص القرآني، لم تحاول أن تربط بين الآيات وبعضها، مجرد نظرة عابرة من فرد واحد، ولكن مع النظر في كتاب الله ستستخرجون إشارات وعلوم أخرى.

وننتقل إلى الحديث عن مرحلة جديدة من مراحل البشرية.

مرحلة قوم عاد

من ينظر في حال قوم هود، يجد أن القرآن يركز على حدوث طفرة في خلق هؤلاء القوم، فنجد أن الله تعالى يقول: ﴿... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة

الأعراف ,٦٩]، ويقول في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ... ﴿١٥﴾﴾ [سورة فصّلت ,١٥]

فهل يمكننا أن نفهم أن هؤلاء القوم قد أتوا من سلالة معينة من البشر، كانت تمتاز بخصائص وراثية عالية الجودة؟! أم أنه بسبب حدوث هذه الطفرة في خلقة هؤلاء القوم اكتسبوا هذه القوة؟ لا نستطيع التحديد أو الجزم، لذا يجب على علمائنا الأفاضل أن يبحثوا في تاريخ البشرية، وينظروا متى وكيف ولم كانت هذه الطفرة في البشر؟

1- نلاحظ أن سلم التطور تقدم كثيرا في قوم عاد، فنجد أن نبي الله يذكرهم بنعم الله عليهم، فيقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الشعراء ,١٢٨-١٢٩]، ويخاطبهم مذكرا إياهم أن الله من عليهم بالمال والبنين –لاحظ أن سيدنا نوح كان يعد قومه بالمال والبنين عند الإيمان–، أما هؤلاء فقد منّ الله عليهم، فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾]سورة الشعراء ,١٣٣-١٣٤]

2- ظهرت بدايات الصناعة مع قوم عاد، ولا نعني بهذا أن "مصانع" لها دلالة كلمة مصنع في حياتنا المعاصرة، ولكن تبعا لأي دلالة من دلالتها سواء كانت مآخذ المياة أو الحصون، فهي تشير إلى ظهور الصناعة كعلامة مميزة وظاهرة في قوم هود، وهذا ما لم نجده في قوم نوح عليه السلام.

3- بدأت عملية التمايز بين الشعوب، واتخذ كل قوم اسما معينا، وبدأت الحروب بين الشعوب، والتجهيزات والاستعدادت لها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الشعراء ,١٣٠] وبدليل اتخاذ المصانع.

إذا مع قوم هود بدأت عملية التمايز والتطور تزداد، وتقدمت البشرية كثيرا، ولكن للأسف كان تقدما أبترا، فقادها هذا التقدم والقوة التي وهبتها إلى التمرد والكفر فكان

عاقبتهم العقاب والخسران، فأهلكهم الله كما أهلك من قبلهم، لتبدأ البشرية مرحلة جديدة وهي مرحلة قوم ثمود.

مرحلة ثمود[199]

عند النظر في القرآن نجد أنه أكثر من ذكر عاد وثمود معا، فهما الحضارتان الأوليتان في تاريخ البشرية، وتطورت البشرية في عهد صالح عنها في عهد هود عليهما السلام، ونلاحظ نقاط الاختلاف والتمييز عن الحضارات السابقة:

1- نلاحظ أن قوم صالح اتخذوا خطوة جديدة للأمان؛ وهي اتخاذ القصور ونحت الجبال بيوتا، وهذا قد يشير إلى بداية العصر الحجري بالنسبة للإنسان، حيث بدأ الاتجاه إلى استخدام الأحجار كمواد ومكان للبناء.

وبخلاف القومين السابقين –قوم نوح وقوم عاد– فإننا نجد أن القرآن ذكر إشارة إلى أن قوم ثمود كانوا من العرب، وذلك حين قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ٧٣] فقد أخرج الله لهم ناقة كآية، والناقة من المعروف أنها حيوان ذو أهمية في بلاد العرب، وثمود تذكر دوما في القرآن مرتبطة بعاد، وهود عليه السلام أنذر قومه عاقبة قوم نوح، فالأقوام كانت تعرف بعضها، وفي هذا دليل واضح على أن بداية الحضارة البشرية ظهرت في الجزيرة العربية. لذا يجب على علمائنا أن يحفروا وينقبوا حتى يستخرجوا ما يثبت الأصل العربي للحضارات، ولا نتبع ما يقوله الغرب من

(199) نلاحظ أنه لم يرد ذكر لعاد وثمود في التوراة والإنجيل، واليهود والنصارى ينكرون وجودهما، ولكن القرآن يعرفنا أنهم كانوا يعرفونهما، ولكنهم أخفوا ذكرهم تلبيسا على غير اليهود، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ... ﴿٩﴾﴾ [سورة إبراهيم, ٩]، فهذه الآية تدل على أنهم كانوا على معرفة بحال عاد وثمود، ولكنهم أخفوا ذلك علي سبيل العادة، وحتى لا يظهر أن أصل الحضارة عربي وليس كما يدعون.

أن اليونان هم أصل الحضارة، فما أخذ اليونان حضارته إلا عن طريق الفينيقين وهم أخذوها من العرب، فنحن أصل الحضارة وفي أرضنا هذه خرج آدم ومن معه، فليبحث علمائنا في أرضنا حتى يستخرجوا كنوزها، ولا يركنوا إلى الذين كفروا، فيمسهم الهوان في الدنيا والآخرة.

2- نلاحظ أن القرآن لم يذكر آي آية حسية لنوح عليه السلام، ولم يذكر أنه لم يأت بها ولكن بما أنه سكت فيرجح أنها لم تأت، بينما نفى مع هود عليه السلام كونه أتى بها، فقال: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾ [سورة هود ,٥٣]، ثم عاد فذكر أن الله أرسل إلى قوم صالح الناقة كآية، فنلاحظ بدء عصر الآيات حتى يؤمن القوم بأنبيائهم، وهذا يقودنا إلى سؤال هام:

لم لم يأت الله بمعجزة على يدي رسله لقومي نوح وعاد، بينما أتت لقوم ثمود؟

نجد أن هذا شيئ محير، فمن المفترض أنه كلما تقدمت البشرية زاد اعتمادها على العقل، فيفترض أن يلغى الإيمان الحسى ويطالب بالإيمان العقلي، ولكن يبدو والله أعلم أن البشرية لما بعد عهدها بتعليم الملائكة حدثت ارتكاسة ما للبشرية، فأدى ذلك إلى ضرورة أن يعطوا آية حسية مثل أن تخرج الناقة كآية حتى يؤمنوا.

4- نلاحظ أن القرآن لم يذكر لهؤلاء الأنبياء أي كتب، بل إنه يكتفي بذكر بعض التعاليم التي كان يدعو قومه إليها، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد أن الطور التشريعي في هذه المرحلة كان لا يزال في بدايته، نظرا لبدائية حياة القوم، فلم يكونوا في حاجة إلى تشريع معقد، بل كان يُكتفى بالدعوة إلى عبادة الله وترك ما يعبدون من دون الله، بالإضافة إلى ترك الخصال السيئة، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [سورة هود ,٨٥] فهنا أبرز بعد عبادة الله على إيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشيائهم، أما مرحلة الكتب التشريعية الكاملة فنلاحظ أنها بدأت مع سيدنا إبراهيم أبي

الأنبياء عليه السلام فنجد أنه أعطي صحفا كما أعطي موسى، ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعلى ,١٩].

ها نحن قد ذكرنا لك عزيزي القارىء نماذج بسيطة من استخراج التطور التاريخي للبشرية، عن طريق تتبع التسلسل الموجود في القرآن، وهذا الاستقراء قد يصيب ويخطىء ولكن علينا أن نستقرأ القرآن ونستنطقه ونتحرك معه على أعلى المستويات ولا نخشى شيئا، ويمكننا أن نكمل متابعة التطور مع باقي الإنبياء، ولكن نترك للقارىء مهمة ملاحظة هذه التطورات بنفسه، ولكن نعطيه بعض الإشارات فقط:

1- بدء وجود كتاب تشريعي متكامل مع سيدنا إبراهيم "صحف إبراهيم"، ولم يذكر القرآن وجود أي صحف قبل ذلك، فيمكن القول أن بداية الكتب كانت مع سيدنا إبراهيم عليه السلام.

2- بدأ مع سيدنا إبراهيم أو قُبيله تأسيس الدول بالمعنى الحديث، فنحن نلاحظ أن قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام كانت الأمم أقرب إلى نظام القبائل والعشائر التي انقسمت إلى ملأ –عالة القوم– وأراذل –عامة الشعب–، والمعارضون للنبي كانوا دوما من الملأ، فلم نجد ذكرا للملك أو للكبير، فهذا يعني أن السلطة لم يكن قد أُجري لها عملية "مركزة"، بل كانت في أيد جماعات لهم أتباع، أما مع مرور الزمان، تطورت الأمم ومُركزت السلطة، وظهر النظام الملكي.

3- تقدمت البشرية تقدما كبيرا مع أو قبل الخليل(ص)، ثم انتكست انتكاسة كبرى مع وجود هذا الرخاء والتقدم، فظهر اللواط لأول مرة في تاريخ البشرية على يدي قوم لوط، فاستأصل القوم بسبب هذه الانتكاسة.[200]

[200] يرد نموذج قوم لوط على من يدعون أن هذا الشذوذ وراثي في الغالب، وغير مكتسب، فكيف لم يظهر في تاريخ البشرية إلا مع قوم لوط؟ وكيف انتشر بين القوم هذا الانتشار؟

4- إنتقلت البشرية نقلة جديدة مع مجيء موسى عليه السلام، فلم يعد هناك إهلاك للأمم المكذبة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة القصص, ٤٣]، ويمكننا أن نقسم التاريخ البشري إلى قسمين: ما قبل موسى والتوراة، وما بعدهما. فقبل موسى كانت الأمم التي تكذب تُهلك وتستؤصل، حتى تستكمل مسيرة التوحيد وتجد لها مكانا آمنا على الأرض، أما بعد موسى فقد انتقلت البشرية إلى مرحلة جديدة، لا يتم فيها إهلاك الكفار بل يتركون فيهلكون أنفسهم بأيديهم،[201] عندما يخالفون سنن الله في كونه فيهلكون.

5- انتقلت البشرية نقلة أكبر مع مجيء النبي الخاتم(ص)، فقد أصبحت البشرية مهيئة لاستقبال واستيعاب الرسالة الخاتمة من رب العالمين، ولم تعد بحاجة إلى رسالات مؤقتة أو مرتبطة بمكانها.

6- بدأ تفاعل البشرية مع القرآن، وكلما زاد استقراء واستنطاق وتطبيق القرآن، تتقدم البشرية خطوات سريعة إلى الأمام، وكلما زاد البعد عن القرآن وهجره قراءة وتدبرا واستنطاقا، ترتكس البشرية ارتكاسا كبيرا وتصاب بانتكاسات أعتى.

كانت هذه المحاولات بعض نماذج لاستقراء القصص القرآني استقراءا تاريخيا واستخراج تقسيم لتاريخ البشرية، استطعنا من خلالها إيجاد خطوات تقدم للبشرية منثورة بين ثنايا هذه القصص، فمن هذه القصص وغيرها يمكننا أن نستخرج التاريخ الحقيقي للبشر ونتجنب بذلك المخادعات والتلبيسات التي يدعيها غيرنا في تاريخنا -وقد أكون أخطأت في هذا الاستقراء فأنا لا أدعي العصمة أو الصواب، ولكن يجب على المرء أن يستقرأ ويستخرج ما يستطيع من كنوز القرآن.

[201] أما ما حدث من إهلاك فرعون وجيشه فكان لأفراد وليس لأقوام وكان بسبب تتبعهم لموسى وقومه وفسادهم في الأرض، أما باقي الشعب المصري فلم يصبه شيء.

ضرورة تصحيح التاريخ العربي

مشكلتنا الكبرى أننا أخذنا بعض الاستقراءات الخاطئة لكتاب الله –بسبب الكتاب المقدس!!– وأسقطناها على تاريخنا، ظانين أنها مسلمات دينية، مع أن القرآن لم يقل ذلك وهو من إسقاطاتنا براء، ونضرب هنا نموذجا للتدليس التاريخي، الذي يعلمنا القرآن أنه يجب علينا أن نتجنبه وألا نقع في شراكه، وهذا النموذج هو التاريخ المصري القديم.

فقد ارتبط التاريخ المصري القديم بهذا الاسم "التاريخ الفرعوني"، على الرغم من أن القرآن لم يقل أنه كان بمصر فراعنة، فلقد تكلم مرة عن وجود من يسمى فرعون وتكلم في المرة الثانية عن وجود الملك، وجاء هذا الاستعمال من التوراة التي قالت "الفراعنة" بالجمع. ونحن كمصريين ننظر إلى تاريخنا نظرة تبرأ وبعد، فهم كانوا كفرة عبدة أوثان، فيجب ألا ننتسب إليهم، ونحن لا نقول ذلك من أجل أن ننتسب ونفتخر بأصلنا الفرعوني ونبتعد عن الإسلامي، ولكن الحق أحق أن يتبع، فأجدادنا كانوا كغيرهم من الشعوب أتتهم رسل من ربهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وليس معنى أنهم كفروا بسيدنا موسى أنهم كانوا كفرة طيلة حياتهم، فلقد آمن بموسى من المصريين عدد ليس بالقليل، ومن هؤلاء زوج فرعون وقريب فرعون، الذي اشتهر بمؤمن آل فرعون، وبداهة، إذا آمن من الخواص نفر فسيؤمن من العوام جماعات.

وما نود قوله هو أننا اكتسبنا هذا الانطباع بسبب التوراة، وجاء علماء الآثار الغربيون ليرسخوا عندنا هذا الاعتقاد، فأصبحنا مصر الفرعونية، والمشكلة العظمى أن الناس يعتقدون أن ما يقوله هؤلاء العلماء من المسلمات التاريخية، مع أن التاريخ المصري –وكل تاريخ مكتشف– به الكثير من الثغرات، التي يملؤها العلماء بتصوراتهم، فكثير من العلماء يقرون بعجزهم عن معرفة الحقيقة في مسألة التاريخ المصري، ونضرب هنا مثلا ب: باسكال فيرنوس وجان يويوت الفرنسيين، مؤلفا موسوعة الفراعنة التي

أصدرتها دار الفكر للدراسات والنشر فى القاهرة، بالتعاون مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون في القاهرة أيضا عام 1991.

فهما يقران بعجزهم في تكوين تصور شامل عن التاريخ المصري القديم، ويقولون أن كل ما فيه ليس بالشكل الذي يتصوره الناس، بل قابل للأخذ والرد والتغيير، ونذكر هنا نماذج مما قالاه: "قد تصيبنا خيبة أمل واضحة عند الإجابة على هذه التساؤلات، ولكن يجب التغلب على هذه الخيبة ... الصروح الضخمة المشيدة من الاحجار، كالمعابد واللوحات والأصنام، ما هي في الحقيقة إلا أعمال تثير الدهشة، وتحث على الإشادة بها، والتحدث عنها بإسهاب، لقيمتها الجمالية، أما عن وجهة النظر التاريخية، فهي صماء؛ بكماء،... أما عن التواريخ المدرجة لتقسيم الأسر الفرعونية والأحداث والوقائع، فهى مجرد تواريخ تقريبية تصلح فقط لتوضيح التدرج التاريخى النسبي، دون أن ننسب لأنفسنا الدقة المتناهية فى تحديد اللحظات التاريخية البارزة، والأحداث المهمة فيها، ذلك لأن كل شىء فى هذا التاريخ لا يرقى أبدا لأن يكون موثقا على وجه اليقين، يعبث به فيه من يشاء، ويقدسه من يشاء." اهـ

ونحن نقول أن واحدا من هؤلاء الأجداد المصريين القدماء العظام، على مدى الثلاثة آلاف سنة التى سبقت ولادة المسيح عليه السلام، لم يقل عنه شعبه أنه فرعون، ولم يطلق واحد منهم على نفسه لقب فرعون، كما لم يكتب على قبر واحد منهم أنه فرعون. أما الفرعون والفرعنة والفرعونية والتفرعن، فكلها من نسج خيال المؤرخين، ومن استخدام علماء المصريات والمؤلفين، فخوفو ملك، وخفرع ملك، ومينا موحد القطرين ملك، وتحتمس ملك وأحمس ملك، وامنحتب ملك، وهكذا، وليبحث كل من يخالف هذه الحقيقة، وليثبت عكس ذلك.[202]

---

[202] بداهة كل هذا الكلام على أساس أن عملية فك غموض اللغة الفرعونية القديمة كان سليما، فهناك بعض الباحثين، الذين يرون أن شامبليون أخطأ في هذه العملية بعض الأخطاء القاتلة، التي ستؤدي حتما إلى قراءة التاريخ الفرعوني قراءة خاطئة، ومنهم من قدم طرحا جديدا لكيفية قراءة اللغة المصرية القديمة، استطاع من خلاله أن يظهر اسم سيدنا موسى وصوره منقوشين على الأثار المصرية القديمة.

فهذا نموذج واضح للتزوير، فهم يقولون أننا فراعنة، ونحن نتبرأ من فرعون ومن النسبة إليه، فقد كان عليه لعنة الله من الذين شُهد لهم بالنار، وصار نموذجا للكبر، أما أجدادنا العظام فعلينا أن نبحث عن تاريخهم نحن بأنفسنا، ولا نتركه للغرب يؤلف تاريخنا كما يحلو له ثم يقدمه لنا.

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والتلاعب به، لا بد من الإشارة أنه تمت عملية طمس كبيرة للتاريخ العربي، فنحن كعرب ننظر إلى أنفسنا أننا كنا طيلة عمرنا مجموعة من البدو المتخلفين، الذين لا يعرفون ولا يفقهون شيئا ولا هم لهم إلا رعاية الجمال، وأن الحضارة كانت في اليونان ومصر ومع الفينقيين، مع أن هذا يخالف الواقع، فكبرى الحضارات ظهرت عندنا، فحضارة عاد وثمود نشأت في الوطن العربي، ونظرا لأنهما ليسا موجودين في العهد القديم أهملهما المؤرخون تماما وسرنا وراءهم. فيجب علينا أن نتذكر أن آدم ظهر في الوطن العربي، ومن هنا ظهر الإنسان العاقل، بينما كانت أوروبا لا تزال في مراحل الهمجية –فعلا لا مجازا–، ولكن مع مرور الزمان تغيرت طبيعة الوطن العربي وتصحر، واندثر الكثير من مظاهر الحضارة في الوطن العربي، وهنا بدأ العرب في الهجرة والانتقال إلى شمال الجزيرة العربية وإلى مصر.

وختاما: يجب علينا معشر العرب أن ننقب لنستخرج تراثنا، ونثبت للعالم كله أننا أصل الحضارات، ومن هنا من عندنا خرج الإنسان الأول، لذا كان حتما ولزاما أن يخرج الرسول الخاتم من مهد الحضارة حيث ظهر الإنسان الأول، من أم القرى؛ مكة. وبعد أن نستقري تاريخنا المغمور تحت الرمال، نستقرأ تاريخنا المذكور في القرآن، فلقد خلد القرآن بعض الأحداث التي حدثت بعد البعثة المحمدية، فهل نعتقد أن هذا التخليد كان عبثا، أم أن هذه الأحداث كانت نقاطا فاصلة في تاريخ البعثة المحمدية والبشرية أيضا؟

لذا لزاما علينا أن نستقرأ هذه الأحداث ولا نعتقد أنها غير ذي بال، أو نساويها بالأحداث التي وردت إلينا عن طريق كتب السيرة، فهذه أحداث خلدت، فهي قطعا

أهم مما لم يخلد، فهذه أحداث فاصلة في تاريخ البعثة المحمدية، وهي كذلك فاصلة في تاريخ البشرية كلها، فلنستخرج منها الفوائد والعبر، وإلا سنكون من الذين نسوا ماضيهم ففقدوا حاضرهم وخسروا مستقبلهم.

نماذج للتعامل مع القصص القرآني على المستوى الثالث: السنن الكونية

وبعد أن قدمنا نموذجا مبسطا للإستقراء التاريخي للقصص القرآني، نقدم للقارىء نموذجا آخر للتعامل مع القصص القرآني، وهو استخراج السنن الكونية من القصص القرآني. فمما يأسف له المرء أن هذا الصنف من التأويل في التعامل مع النص القرآني قد أُهمل أيما إهمال، وبالذات في الجزء التاريخي القصصي، فالقرآن لم يعرض لنا هذه القصص من أجل التسلية، لا ورب الكعبة، فقد عرضت هذه القصص لأهداف سامية؛ منها استخراج سنن الله في كونه، وكيف ترقى الأمم وكيف تنحدر وكيف تنهار، ونعرض هنا لنماذج من استخراج السنن الكونية من القرآن:

1- السنة الأولى في هلاك الأمم هو ذهاب الأخلاق.

سيقول الكثيرون: ها هو الشيخ يعود فيتكلم عن أهمية الأخلاق، فهي وإن كانت هامة ولكن ليست هي العامل الأول في هلاك الأمم، فهناك عوامل أخرى أهم، وفي الواقع لقد كنت أظن نفس هذا الظن، إلى أن نظرت في تاريخ هلاك الأمم في التاريخ الإنساني، وجدت أنها هلكت كلها بسبب ذهاب الأخلاق، ووجدت أن بيت الشعر الذي يقول:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وجدته صاقا تماما بدرجة مائة بالمائة، وتصور أخي كيف يكن حال أمة متقدمة، إندثر فيها العفو أو الإيثار أو الشجاعة أو الاقتصاد أو العفاف والطهارة أو الصبر والثبات

أو الصدق أو مُحقت فيها الشورى، كيف تظل متقدمة؟! حتما ستنهار، وتتبع معي عزيزي القارىء الممالك الكبرى التي هلكت في أي مكان في العالم، وفي أي زمان، تابعة لأي دين كانت، تجد أن عوامل الهلاك واحدة، ويبدأ الهلاك بفساد المترفين، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الإسراء, ١٦]، فالفساد يبدأ من المترفين، وإذا تبعهم العامة أو سكتوا عنهم فسيحيق العذاب بهم جميعا، والله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنفال, ٢٥]، فالعذاب ينزل بسبب فساد المترفين وسكوت وسكون العامة، فالأمة لن ينفعها أنها ذات تقدم علمي أو خلافه، فستنهار على يد حضارة ذات أخلاق، وتتبع عزيزي القارىء الأمم التي انهارت، فكلها كانت أمم ذات تقدم وحضارة كبيرة، ولكنها لفساد أخلاقها دبّ التحلل والخلل في أركانها، فاجتيحت على يد أمة ذات أخلاق وبداوة –خشونة–، فالإمبراطورية الرومانية اجتيحت بواسطة قبائل الجرمان البربرية، والفرس والروم تم اجتياحهم بواسطة المسلمين العرب، والدولة الإسلامية في الأندلس اجتيحت على يد القشتاليين، فالدولة التي ينخر فيها دود الفساد ستنهار لا محالة، فها هي الدول العظمى تنهار بسبب الاستبداد وانتشار الفساد، فالأمم البدوية تظل ردحا من الزمان في مرحلة الطفولة إلى أن تعتنق مبدأ أو هدف ما، وهنا تنتقل هذه الأمة إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الفتوة والشباب، وهنا تفرض هذه الأمة نفسها على الساحة المحيطة فتأخذ دورها في القيادة، فتنهض الأمم ذات الأخلاق والمبادىء التي تعيش على فطرتها، وهذه هي دورة الحياة فالأمم التي تعيش من أجل مبدأ معين تظهر وبقدر تمسكها واجتماعها على هذا المبدأ تستمر حتى تصل إلى الهدف وإلى الغاية، وعندما تنسى هذا المبدأ والغاية التي تحي من أجله يبدأ دبيب الانهيار، وبقدر ما كانت الأمة قوية البنيان تستمر، ولكنها لن تستمر إلى الأبد، فلا بد

من وجود حضارة أخرى بدوية على فطرتها، لم يظهر فيها الشذوذ أو الفساد الأخلاقي[203] فتطيحها عن الساحة وتأخذ مكانتها مهما كان دينها.

2- سنة التدافع.

يقول الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [سورة البقرة, ٢٥١]، ويقول كذلك: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [سورة الحج, ٤٠] فالله تعالى يوضح أن الناس لا يمكن أن يستمروا على حال واحد، بل لا بد من وجود ما يدفع الأمة إلى العمل وإلى الحركة، ولولا وجود الخصم لركن الناس إلى النوم، والأمة التي تتكبر وتفسد في الأرض تفسد هي نفسها، لذا يرسل الله عليها من يهلكها، والله يوضح لنا فضله علينا بهذه السنة، فلو لم يكن هناك تدافع لفسدت الأرض، ويضرب لنا نموذجا على ذلك بسيدنا داود وحربه ضد جالوت، فقوم جالوت كانوا يفسدون في الأرض، فأرسل الله عليهم من يردهم عن إفسادهم وهم طالوت وجنوده، ويحل الأخيار مكان الأشرار فينصلح حال الناس.

3- الصبر.

يوضح سبحانه لنا أهمية هذا العنصر في فلاح الأمم، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [سورة العصر, ٢-٣] ويقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا

---

(203) نلاحظ أن الشذوذ -وليس الزنا- عندما يظهر في الأمم فإن هذا يعد مؤشرا قويا على قرب إنهيار هذه الأمة، ولقد وجد ذلك في المجتمع الأندلسي قبيل إنهياره، وبدء ظهوره وانتشاره في المجتمعات الغربية حديثا، وللأسف تعاني أمتنا العربية من هذا الداء، لذا أرى أن سبب تأخر انهيار الحضارات الغربية هو عدم وجود البديل الذي يخلفها، فنحن في كثيرمن النقاط مثلهم أو أسوأ.

ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾] سورة الأعراف, ١٣٧[فالقرآن يوضح لنا أهمية الصبر في فلاح الأمم في الدنيا والآخرة، والأمم التي تصبر هي التي تحقق ذاتها، أما الأمم التي لا تربي نفسها على الصبر، وتسير وراء أهوائها وشهواتها لا تحقق أي نهوض، وإذا كانت في حالة نهضة فستسقط هذه الأمة، وتذكروا كلامنا على الأمم المترفة والأمم البدوية الخشنة.

4- مراعاة العامل النفسي في الإعداد.

يضرب سبحانه لنا مثلا لذلك، فيقول: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾] سورة الأنفال, ٤٣[فلا بد من مراعاة العامل النفسي في الإعداد لأي شيء يقوم به الإنسان، ففيه دور كبير في النجاح والاستمرار أو التوقف والتراجع والتعطل.

5- الأمم هي التي تنزل الهلاك والدمار بأنفسها.

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾] سورة الشورى, ٣٠[، ويقول تعالى كذلك: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾] سورة الروم, ٤١[ويقول: ﴿... وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ... ﴿٧٩﴾] سورة النساء, ٧٩[، ويقول: ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾] سورة آل عمران, ١١[ويقول: ﴿... فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ... ﴿٥٤﴾] سورة الأنفال, ٥٤[، ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ ... ﴿١٣﴾] سورة يونس, ١٣[

فبسبب أعمال الناس ينزل بهم الهلاك، لا أنه ينزل جزافا ولو أحسنوا في الدنيا ولو بدون دين لانصلح حالهم، وكما قال الإمام ابن تيمية: "إن الله يقيم الدولة العادلة ولو

كانت كافرة"، فالقيادة الحكيمة تقود الأمم إلى الفلاح، والقيادة الفاسدة تقود قومها إلى الهلاك: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الزخرف ,٥٤-٥٥] ثم كان عاقبتهم جميعا رئيسا ومرؤوسا: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة هود ,٩٨]. لذا يجب على كل أمة أن تنتبه إلى ما تفعله، وأن تفيق إلى نفسها وتحاسب نفسها ورؤسائها، حتى لا يقودوهم إلى الخسران المبين.

6- الحث على الاتعاظ والامتثال من التاريخ.

وهذا من أهم عوامل استمرار الأمم، فلقد عاب الله على الكفار إعراضهم عن تاريخ من سبقهم، وتكرارهم نفس ما فعله السابقون، لذا قال لهم في عدة مواضع: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الأحزاب ,٦٢]، وقال: ﴿... سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة غافر ,٨٥]، وقال: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة فاطر ,٤٣] فإن الأمة التي تهمل عبر التاريخ ولا تستفيد من دروسه لا تستحق البقاء، وأنا أرى أنه لولا بقايا إسلام لا تزال معنا لأستُأصلنا نحن معاشر العرب منذ أمد طويل.

7- الإيمان والعمل الصالح شرط الاستخلاف في الأرض.

نجد أن الله عز وجل يذكر شرط التمكين في الدنيا بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة النّور ,٥٥]. قد يقول قائل: ولكن الدول الكافرة تستخلف في الأرض أيضا، ألم تصبح الولايات

المتحدة الأمريكية هي سيدة العالم الآن؟ نقول: الذي فيه أمريكا الآن ليس استخلافا بل هو استدراج، فالدولة التي تستخلف هي التي تعمل بمنهج الله في الحياة فتصلح في الأرض، فتنشر العلم والخير والرخاء في الدنيا بدون انتظار أي مقابل من الناس، لذا نجد أن الدول الاستعمارية الوحيدة على مر تاريخ البشرية كانت الدول الإسلامية، أما باقي الدول فهي دول تخريبية محتلة، ونحن نقصد بالدول الاستعمارية التي تعمر الأرض لأهلها، وهذا ما فعله المسلمون في كل بلد فتحوه وانظر ذلك في كل الدول الإسلامية، أما الدول الغربية الهمجية فهي تخرب ولا تستعمر وتمتص الخيرات إلى بلادها، وأما أمريكا فهي تستعبد الناس ولا تعمل بمنهج الله، فهي تفسد ولا تصلح، فهذا ليس استخلافا بل استدراج سيؤدي بها في نهاية المطاف إلى هلاكها، وإن غدا لناظره قريب، والله أعلم.

كانت هذه عزيزي القارىء بعض النماذج السريعة لإستقراء بعض السنن الكونية من كتاب الله، وهي نماذج بسيطة يستطيع القارىء العادي لكتاب الله أن يستخرجها منه، فالمسألة لا تحتاج إلى إعمال ذهن بشكل كبير، فمن يقرأ القرآن سيجد هذه السنن أمام عينيه، ولكن الأمر يحتاج فقط أن يقرأ القرآن وهو يقرأه!!، لا أن يحرك شفتيه ويتلفظ بألفاظ لا يقابلها أي مدلول في عقله[204]، بل عليه أن يعي ما يقرأه وسيكتشف كنوزا، فلقد كنت أقرأ القرآن وأنا صغير، وأقول هذا كتاب الله كما علمنا أهلنا، ولكن ماذا كنت أستخرج منه؟ لا شيء، ولكن بعد أن كبرت وبدأت أفهم القرآن وجدت أن هذا الكتاب يحتوي من كل شيء ما لا يمكن للعقل استيعابه، وكل جملة فيه تحتوي حكما وعلوما متراكمة، فاقرأوا القرآن وستجدون ذلك واضحا جليا ظاهرا طافحا في كل آياته وكلماته.

(204) المشكلة التي كنا نقابلها نحن الأزهرية، والتي لا يزال يقابلها الأطفال الصغار أن السادة الآباء والمعلمين يركزون أيما تركيز على الحفظ ويهملون الفهم، فلا بد أن تحفظ القرآن، أما أن تفهمه فهذا فيه خطر عظيم شديد ولن تستطيعه الآن، فاكتف بالحفظ!، ولست أدري لم لا يتم تعليم الأطفال معاني ألفاظ القرآن منذ صغرهم، حتى لا يكونوا كالأوعية التي تحفظ ما فيها ولا تعرف ما هو، فنحن نريدهم حفاظا فهام لا حفاظا صمام.

الفصل الخامس: التأويل الاقتصادي

وبعد أن مررنا سريعا على السنن الكونية المنثورة قي القرآن، لا بد أن نمر مرور الكرام على التأويل الاقتصادي لكتاب الله، إذ أنه من غير المقبول أن يكون هذا الكتاب العظيم الذي ما فرط الله فيه من شيء، أُهمل فيه الجانب الاقتصادي، الذي يعد من أهم العناصر في حياة البشرية، والذي عده البعض العنصر الأهم في تاريخ البشرية[205]، فلا بد أن يكون في هذا الكتاب الكثير والكثير من المبادىء الأساسية في الاقتصاد، التي إذا اتبعتها البشرية انصلح حالها تماما، فلننظر في كتاب الله لنستخرج منه أهم أسس الاقتصاد الناجح، الذي ينصلح عليه حال البشرية:

بادىء ذي بدء لا بد من لفت الانتباه إلى أن الإسلام ينظر إلى الإقتصاد نظرة متكاملة، تجعله داخلا في عناصر الحياة متفاعلا معها، ولا تأخذه بمعزل عن باقي عناصر الحياة البشرية، فالاقتصاد لا يدور في فلك اكتساب المال فقط، كما يعتقد الكثير من الناس، ولكنه يدور في الفلكين، فلك إنفاق المال وفلك إكتسابه، ولا يقل أيٌ منهما عن الآخر في الأهمية، بل إن الإسلام قد يعد إنفاق المال في بعض الأحايين أهم من إكتسابه، لما في ذلك من الفائدة العظيمة للمجتمع.

ونحن إذا نظرنا إلى الاقتصاد وجدنا أن معنييه الأساسين هما "التوجيه والتوفير"، فإذا استطعت أن توجه مصروفاتك وتقتصد فيها فأنت اقتصادي عظيم، فالمال عنصر حيوي في تقدم المجتمع، ولكنه ليس العنصر الرئيس بل هو عنصر تابع لعنصر الأخلاق،[206] الذي يُبقي المجتمع على القمة أو يهوي به إلى الحضيض، فلو اتبع

---

[205] بداهة هم الماركسيون، ولست أدري ما شأن هؤلاء العلماء، كلما يتخصص إنسان في مجال ما يريد أن يجعله هو الذي يسير البشرية، فمنهم من يريد أن يجعل الجنس ومنهم من يريد أن يجعله المال، ومنهم من يريد، ومنهم ومنهم، وبداهة لا يوجد عنصر واحد له هذا الدور، بل لكل عنصر دور يلعبه في تسيير البشرية، وتختلف درجة هذا التسيير حسب المستوى الأخلاقي في المجتمع –عدنا مرة أخرى لمسألة الأخلاق–.

[206] لن يعجب هذا الحديث بعض خبراء الإقتصاد، فعندهم لا دخل للأخلاق أو العقيدة في الاقتصاد، مع أنه لا يمكن أن ينكر دورها –فلا يمكن مثلا أن يفصل الاقتصاد الشيوعي عن عقيدته–، فهي التي تؤدي إلى عدم التلاعب في الاكتساب أو الإنفاق،

المترفون طريق الفساد والهلاك وظل الفقراء على صمتهم فسيهلك المجتمع لا محالة، حتى ولو لم يكن المجتمع قويا، أما إذا كان المجتمع قويا فسيكون سقوطا مدويا مسببا كوارث للمجتمع الدولي، لذا يلفت الإسلام إلى أهمية ربط عناصر الإقتصاد بغيره من العناصر الحياتية، لا أن يتم أخذه كعنصر مستقل، فلا يوجد عنصر مستقل في هذه الحياة كما علمنا الإسلام بكل العناصر متداخلة، لذا يلفت الإسلام نظرنا إلى التداخلات في جميع عناصر الحياة، ويعطينا نظرية متكاملة متداخلة للاقتصاد الإسلامي، فهو ليس اقتصاد رأس مالي ولا إشتركي ولا خليط بينهما كما يحلو للبعض أن يصفه، بل هناك بعض العناصر المشتركة بين هذا وذاك وعناصر غير موجودة في هذا وذاك، ولنبدأ بعرض بعض أجزاء هذه النظرية:

أهم عناصر التصور الاقتصادي الإسلامي

1- إلهية الموارد، والإنسان مستخلف فيها فقط. فالله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٦٥] فيلعب هذا العنصر دورا كبيرا في توجيه تصرف الإنسان، فإذا عرف الإنسان أن هذا دوره في الحياة أثر هذا بدرجة كبيرة على سلوكه في توجيه الاكتساب والإنفاق، وقلل كثيرا من أثر النزعة الفردية، فإذا علم أن دوره في الحياة: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة هود, ٦١]، فسيؤدي هذا إلى وضع هدف لا بد من إنجازه، وينجز هذا الهدف بطريقة سلمية لا تخريب فيها أو إيذاء للآخرين.

وفي توزيع الأرباح وفي كل شيء، ولولا الأخلاق ودورها لفسد المجتمع بطريقة أسرع، ولن ينفعه النظريات الاقتصادية أو المراقبة البشرية.

2- نظرية "الندرة" نظرية خاطئة تماما.

نجد أن أهم نظرية يقوم عليها الاقتصاد الرأسمالي هي نظرية الندرة، أي أن الموارد أقل من المصارف، وكل هذا ناتج عن الاعتقاد أن الإنسان هو الذي يسير حياته وأن الطبيعة هي التي تعطي وتمنع، وهم يرون أن ما تنتجه الطبيعة أقل مما يحتاجه الإنسان، فلذا لا بد من السيطرة على هذه الموارد، حتى تستطيع كل أمة أن توفر لنفسها حاجاتها الأساسية والهامشية في جميع الأحوال.

والإقتصاد الإسلامي ينفي هذه الندرة تماما، ويرى أن موارد الأرض كافية لحاجة الإنسان، ولكن يجب عليه أن يعمل لاستخراجها، ونجد هذا واضحا في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ٢١﴾ [سورة الحجر, ٢١]، فالله تعالى يوضح لنا أن خزائن كل الموارد موجودة عند الله، ولكنه لا يخرجها للبشر إلا بقدر معلوم؛ وهو القدر الذي تحتاجه البشرية، ونحن نرى هذا واضحا في تاريخ البشرية، فقد ظل النفط لقرون عديدة مخزونا في الأرض، وكان يفور في كثير من الأحايين ولكن الناس ما كانوا يلقون له بالا، ولكن عندما تقدمت البشرية وازداد عددها وتعقيد حياتها، هداها الله إلى استخدام النفط فساهم كثيرا في تسيير البشرية، وإذا جاء وقت وشح فيه النفط فسيظهر الله للبشرية مصدرا جديدا للطاقة، تظل تنهل منه فترات طويلة وهلم جرا، وما يقال في مصادر الطاقة الآلية يقال في مصادر الطاقة البشرية، فمن المعروف أن البشر يركزون على بعض الزراعات ويتخذونها كمصادر رئيسة للغذء، مثل الأرز والقمح، وتوجد الكثير من المزروعات، نافعة للجنس البشري ولكنها لم تلتفت إليها وعلى سبيل المثال البطاطس، فلم تبدأ البشرية في الالتفات إلى البطاطس كمصدر رائع للطاقة البشرية إلا في عصور قريبة، وهذه المزروعات موجودة في الغابات والصحاري، وعندما تضطر البشرية ستلتفت إليها، والله أعلم كيف سيكون أصناف طعام البشرية بعد مائة أو مائتي عام.

3- ينهى الإسلام عن الفساد بعد الإصلاح.

يوضح لنا الإسلام أن الفساد الذي يحدث في الأرض هو بسبب الإنسان، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم, ٤١]، فينبه الإنسان إلى مراعاة سلوكه والانتباه إلى ما يقوم به، فيقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ... ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ٥٦]، فلا يجوز للإنسان أن يفسد في الأرض بإلقاء المخلفات الصناعية في الأنهار أو في المناطق السكنية، بل يجب عليه أن يتعامل معها بالشكل الصحيح.

4- أقر الإسلام الملكية الفردية والتفاوت الطبقي.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الزخرف, ٣٢] ويقر أن هذا التفاوت لمصلحة المجتمع، فكل فرد في المجتمع مهما علا شأنه فهو مسخر للآخر، فالطبيب مسخر للعامل، والمهندس مسخر للفلاح والفلاح مسخر للمهندس وغيره، والمعلم مسخر للتلاميذ وهلم جرا، فتجد أن المجتمع كله أحرار مسخرون، فكلنا حر من جهة مسخر من أخرى، وهذا ما لا بد منه في المجتمع، إذ لو اختفى التفاوت الطبقي وصار الناس كلهم أغنياء لفسدت الأرض، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الشورى, ٢٧] فبسط الرزق مصاحب للبغي في الأرض، ونحن نلاحظ أن البغاة دوما هم ممن بسط لهم في الرزق، فتصور عزيزي القارىء لو بسط الرزق للناس كلهم، كيف سيكون الحال وهل سيستمر المجتمع؟

ومع أن الإسلام أقر التفاوت الطبقي فلقد حاول تضييقه قدر الإمكان، فنجد أن الله تعالى يقول: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ

وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ... ﴿٧﴾]سورة الحشر ,٧[، فهو يحاول أن يوزع الثروات بشكل عادل حتى لا تتركز في أيدي الأغنياء فقط، لذا فرض أيضا نظام الميراث، الذي يعتمد توزيع الثروة وعدم تركيزها في يد معينة، وأمر كذلك بالزكاة، التي تقضي على الفقر في المجتمع الإسلامي تماما[207]

5- يرى الإسلام أن المال وسيلة وليس غاية، ومن أجل ذلك حرم كنز المال، ولهذا من الآثار العظيمة في زيادة الدخل، وتحسين حال المجتمع، واتخذ من أجل هذا التحريم إجراءات عدة منها:

أ – حث الناس على الإنفاق. فقال: ﴿... وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ ... ﴿٢١٩﴾]سورة البقرة ,٢١٩[، فيرى الإسلام أنه من الأفضل للإنسان أن ينفق كل ما زاد عن حاجاته، وليكن هذا الإنفاق في أي مصدر كان، والسادة المفسرون يرون أن المراد من هذه الآية هو الصدقة، ولكنا نرى أن الإنفاق عام ويكون أولا في الصدقة ويمكن أن يصرف إلى جهات عدة، فأنا أرى أن في هذه الآية حث على تدوير المال، فما بقى عن حاجاتك فأنفقه في تجارة أو زراعة أو صناعة، وتصور عزيزي القارىء كيف سيكون حال البشرية لو دوَّر الناس أموالهم الفائضة عن حاجياتهم في صناعة أو زراعة أو تجارة.

[207] قد يرى البعض أن هذا الكلام إنشائيا أكثر منه واقعيا، ولكنه واقعي تماما، ولكن المشكلة أن المسلمين لا يحسنون إخراج الزكاة، فنحن نجد أن المسلمين يخرجون أموالهم في بناء المساجد أو مبالغ تعطى إلى الفقراء مباشرة، ولكن هناك طرق أفضل في إخراج الزكاة وبالذات لمن يخرجون مبالغ كبيرة، فمن الممكن أن ننشأ بهذا المبلغ مصنعا صغيرا –مثلا–، فيعمل في هذا المصنع بعض الشباب فنكون قد كفلنا مصدر رزق لهؤلاء الشباب، وقضينا على نسبة من البطالة وساعدنا في تحسين اقتصاد البلد، والربح الذي يخرج من المصنع نجعل منه جزءا لما يحتاجه المصنع والباقي يخرج على هيئة عطاء مباشر للفقراء، وتصور أن المبلغ الذي كنت ستخرجه مرة واحدة وينتهي الأمر سيستمر في الصب في ميزان حسناتك، فأجر العمال لك، وأجر المال الذي يخرج ويخرج ويخرج سنين طويلة سيظل لك حتى بعد مماتك كما قال(ص) "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية ..."، ومن الممكن لمن لا يخرج مبالغ كبيرة في الزكاة بأن يكفل عمل بسيط لفرد كشراء محل صغير أو أن يشتري له أدوات عمل تساعده على احتراف صنعة، وهلم جرا، فقارن بين هذه الوسائل في إخراج الزكاة النافعة للمجتمع ولمخرج الزكاة والتي تستمر إلى ما شاء الله وبين الطرق التقليدية التي لا تقدم أو تؤخر.

ب – حرم الإسلام الربا. فالله تعالى يقول: ﴿... وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ... ﴿٢٧٥﴾﴾]سورة البقرة ,٢٧٥[، ومن المعروف أن من أهم أسباب كنز المال هو الربا، فأنا أجمع المال ولا أنفقه أو أدوّره، ثم أنتظر أن يأتي أحدهم فيقترض مني فأقرضه بالربا بضمانات طبعا، فأضمن في هذه الحالة رأس مالي وزيادة عن ذلك الربح بدون أي مجهود أو مخاطرة، ولكن إذا أغلق هذا الباب سيضطر الناس إلى تدوير أموالهم وإلا ستقل قيمتها مع مرور الزمان.

ج – فرض الإسلام الزكاة والصدقات. ونحن نقر أن للزكاة دور آخر، ولكن من أهم أهداف الزكاة أيضا القضاء على الكنز، فالضرائب لا تؤخذ إلا على الأموال العاملة، أما الأموال المكنوزة المخبأة فلا يؤخذ منها الضرائب، أما الزكاة فهي واجبة على كل مال متقوم بلغ النصاب وحال عليه الحول، فإذا كنز الإنسان المال ولم يدوره سيتناقص هذا المال من ناحيتين، من ناحية قلة قيمته ومن ناحية نقص نسبة الزكاة، أما إذا دور الإنسان ماله فلن تذهب الزكاة ونقص القيمة بماله وسيزداد ربحا. اهـ

6– أوجد الإسلام عامل المراقبة المزدوجة.

فمن المعروف أن العامل غير المؤمن لا يوجد عليه رقيب إلا مرؤوسه، أما العامل المؤمن فعليه رقيبان، الله ثم المرؤوس، فوجود المراقبة المزدوجة تؤدي حتما إلى تقليل نسبة الفساد الذي يئن منه المجتمع الغربي، والعربي أيضا بسبب تهميش دور المراقبة المزدوجة وتبني إقتصاديات رأس مالية.

7– حثّ الإسلام على التعاون والقضاء على الإحتكارات قدر الإمكان.

فالله تعالى يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الرحمن ,١٠] ، وقال: ﴿... وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة فصّلت ,١٠] فالموارد الأرضية موزعة بالتساوي بين كل البشر ولكل البشر، فلا توجد منطقة في الأرض مجدبة أو معدومة الموارد بل كلها متساوية، ولكن الإختلاف يحدث فقط في نوعية

الموارد، وما يوجد هنا يندر أو ينعدم هناك، لذا لا بد من التعاون في إستخراج هذه الموارد وجعلها في مصلحة كل الأنام، وليس في مصلحة جنس معين أو خلافه، فيعطي هذا ما يحتاجه هذا ويأخذ هذا ما يحتاجه من ذاك، وما زاد عن حاجتي أعطيه لغيري بأي سعر بدلا من أغرقه أو أحرقه.[208]

8– نهى الإسلام عن التبذير.

فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الإسراء ,٢٩]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان ,٦٧]، فالله تعالى ينهى عن التبذير والإسراف ويذم المبذرين، لما في هذين العنصرين من إسراع حركة هلاك المجتمع، وظهور الأحقاد بين الطبقات، أما في حالة الإنفاق المعتدل، فلا يظهر الفساد الخلقي والاجتماعي، فالإسلام يحث على الزهد في الإنفاق قدر الإمكان.

9– أمر الإسلام بمناسبة الأجور للعمل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف ,٨٥]، وآفتنا نحن المسلمين، أن من بيننا من يبخس العمال أجورهم، فلا يعطيهم ما يستحقونه من الأجر، مع أنه يربح بسببهم الكثير، فيعطيهم أقل القليل من الأجور ويتهرب من التأمين عليهم وغير ذلك من الأمور المشينة للمسلم، ظانا بذلك أنه لا وزر عليه.[209]

[208] هناك الكثير من الأحاديث التي تنهى عن الاحتكار، ولكنا نحاول هنا أن نركز قدر الإمكان على استخراج النظرية من القرآن.

[209] من العلماء من أوجب للعمال نصف الربح الذي يربحه صاحب العمل، فإذا ربح صاحب شركة كبرى ما عشرة آلاف ألف جنيه، فبعد أن يخرج منها مستحقاتها من حاجات المصنع وضرائب وزكاة وخلافه، فعليه أن يعطيهم نصف الربح أو ما قاربه، ولكن هذا لا يخطر طبعا ببال أي من هؤلاء، ونحن لا نقول لأصحاب الأموال أعطوا العمال نصف الربح، ولكن نطالب فقط بأن يعطوهم ما يستحقون من أجور تكفل حياة آمنة مطمئنة لهؤلاء العمال.

10- أمر الإسلام بالوفاء بالعقود.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ... ١﴾ [سورة المائدة, ١]
فيجب على المسلم أن يفي بعقوده مع متعاقده كائنا من كان مسلما أو غيره، فما دام قد عاقده فعليه الوفاء.

11- ساوى في الحقوق والوجبات في العمل بين الرجل والمرأة.[210]

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ... ١٩٥﴾ [سورة آل عمران, ١٩٥] **وللأسف الشديد لا نزال نجد تفريقا بين الرجل والمرأة في الحقوق في المجتمعات الغربية والعربية الإسلامية، وإن كان في البدان الإسلامية أكبر.**

12- حدد الإسلام مصادر الدخل.

فمن المعروف أن الإسلام لا يبيح الإكتساب من أي وجه، بل لا بد من كون مصدر الإكتساب حلالا، فنجد أن الإسلام أمر باجتناب الخمر من تجارة وشرب وصناعة وخلافه، على الرغم مما فيها من المنافع، فالله تعالى يقول: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ... ٢١٩﴾ [سورة البقرة, ٢١٩]، **فالخمر فيها منافع، ولكن لا تجاز هذه المنافع لما فيها من المضار الأخرى، لذا يجب على المكتسب في الإسلام أن يتحرى مصدر الدخل الحلال النافع للمجتمع، ويبتعد عن مصادر الدخل الممنوعة مثل المخدرات أو السجائر أو الإنتاج الفني المفسد!!، أو الفن الجنسي أو الدعارة!! وكثير من المصادر التي تعتمد على التغرير بالإنسان.**

[210] نحن لا نحبذ عمل المرأة إلا في مجالات محددة، ولكن إذا اضطرت المرأة للعمل فلا بد من حدوث مساواة بينها وبين الرجل.

ونكتفي بهذا القدر من العناصر الرئيسة للاقتصاد الإسلامي، وهناك الكثير والكثير لا يزال منثورا في القرآن، ولكن ليس هذا موضعه في هذا الكتاب، ولقد أردنا أن نضرب بعض الأمثلة للقارىء لما يمكن أن يستخرجه مباشرة من القرآن بدون عميق تفكر أو تدبر، فأنا لست من أهل الذكر في هذا الفن، فما بالنا لو جاء التدبر من أهله وهم الاقتصاديون؟ حتما سنخرج بنتائج عظيمة رائعة مدهشة. نتائج، لو اتبعها المسلمون أفراد وحكومات، وأفرادٍ قبل الحكومات لتغير حالهم كثيرا في جميع المجالات، ولكن للأسف لما سادت ثقافة رأس المال أو الثقافة الإشتراكية همشت النظرية الإسلامية فتدهور حالنا تماما،[211] ولا يزال يتدهور، لذا فلزاما على كل مسلم أن يطبق كلام ربه حتى ينصلح حاله وحال أمته.

---

[211] من الملاحظ أن الشعوب الإسلامية هي الشعوب الوحيدة التي لا يكاد يوجد بها أي نظام إقتصادي، فتجد فيها خليطا من نظام اقتصادي إسلامي –مهمش بسيط– ونظام رأس مالي ونظام إشتراكي، لذا نجد العجب العجب في اقتصاديات هذه الدول، ويلاحظ جميع دول العالم تقدمها المبهر إلى الوراء!!

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الطويلة نوعا ما مع القرآن نصل إلى خاتمة هذا الكتاب، فنقول: عرضنا لك عزيزي القارىء في ثنايا هذا الكتاب عشرات النماذج من تعامل السادة المفسرين مع النص القرآني، وكيف أنهم جعلوا النص القرآني تابعا لعقولهم ولأرضيتهم المعرفية أو للروايات الواردة عن أهل الكتاب أو غيرهم، بدلا من أن يجعلوه متبوعا وذلك كله بسبب القول بالتفسير، فقدموا وأخروا وحذفوا وأضافوا من عند أنفسهم، ما ليس في كتاب الله ونسبوه إلى الله، وكيف أنهم تركوا المنهج القرآني النبوي في التعامل مع القرآن، فأدى ذلك بنا إلى نتائج وخيمة، أكبرها وصف القرآن بالعسير الذي يحتاج إلى تفسير. ثانيها: إعراض الناس عن القرآن لشعورهم أنه كتاب معقد وأنه مزلة أقدام. ثالثها: إظهار القرآن بمنظر المتناقض من خلال التفسيرات العجيبة التي أتوا بها، فاتخذها أعداء الإسلام مدخلا عظيما للطعن في الإسلام. رابعها: حصر القرآن في مجالي الفقه أو العقيدة والدفاع عن هذا الاتجاه باستماتة. وكثير من التأثيرات السيئة للقول بتفسير القرآن.

وعرضنا لك عزيزي القارىء المنهج القويم في التعامل مع القرآن كاملا –ما عدا الآيات المتعلقة بالله– ألا وهو التأويل، ووضحنا لك أنه لا يمكن أن يقوم شخص أو حتى مجموعة أفراد في عصر ما بعملية تأويل للقرآن، لذا لا يمكن أن يوجد مع المنهج التأويلي كتب لتأويل القرآن، بل قد توجد بعض الكتب التي تدور في فلك تأويل آية أو بعض الآيات المتعلقة بشأن ما في القرآن تأويل مرحلي يتغير مع تغير الزمان، وتقوم هذه الكتب بعرض كيفية تأويل القرآن في الواقع، لا أنها ستأولها في الكتاب –ما عدا بعض الآيات القليلات التي سيكون تأويلها كتابيا– وما لا يمكن تأويله يُتوقف فيه، حتى يأتي من يستطيع أن يأوله، ووضحنا أن القرآن كتاب شامل لجميع مجالات الحياة موجه لها مهيمن عليها، واضح متفق مع المعقول، يعلوها في بعض الأحايين ولكنه لا يعارضها أبدا.

وأنا أعرف أن القارىء سيرى أن الكتاب ركز على الجانب الفقهي والإيماني، ومسألة خلق الإنسان والقصص القرآني، وأتى بنماذج بسيطة سريعة مقتطفة للجانب التاريخي والاقتصادي، ولم يعرض لكثير من جوانب الحياة. فنقول: إن الغرض الأكبر من الكتاب هو تغيير طريقة نظر المسلمين إلى القرآن وإلى طريقة التعامل معه، وهذا يستلزم بالدرجة الأولى تصحيح التصور اللازم الموجود في الرؤوس، وهذا يحتاج بالدرجة الأولى إلى أن نصحح ما ترسخ عند الناس، وهذا لن يكون إلا بالتعرض للجزء الفقهي العقيدي القصصي من القرآن بالدرجة الأولى، فهذا هو المترسخ عند الناس، ولا بد من الانطلاق من هذه النقاط حتى يُتعرض فيما بعد لباقي النقاط والمسائل، ولا يمكن التعرض لكل المسائل والنقاط المطروحة في القرآن فدونه أعمار وأجيال أو كما يقال "دونه خرط القتاد"، ولكن هذه الأجزاء التي أهملت في هذا الكتاب ولم تعط حقها هي من الأهمية بمكان في حياة الإنسان، فالقرآن بأكمله كتاب "فقه حياة" بالمعنى الواسع، وليس بالمعنى المألوف لعلم الفقه.

والذي آلمني وأنا أكتب هذا الكتاب، أن كثيرا من القراء قد يعتقد من خلال تتبعه لأسلوبي في التعامل مع النص القرآني، أنني أدعو إلى تهميش دور السنة في حياة المسلم والتركيز فقط على القرآن، وهذا لم يخطر لي ببال، فأنا من أشد الحريصين على تطبيق السنة والتمسك بها كبيرة وصغيرة، ولكن السنة الموافقة للقرآن النابعة منه، أما المخالفة له فهناك طرق كثيرة للتعامل معها.

ونقول لك عزيزي القارىء: اقرأ القرآن ولا تخش شيئا وافهمه كما هو، وإذا فاتك فهم جزء منه وسألت عنه، فمعك الميزان الذي تزن به الإجابة ألا وهو القرآن نفسه، فإذا وجدت أن الإجابة مطابقة للنص فخذها ولا تخف، أما إذا رأيت بها تقديم أو تأخير أو حذف أو تقدير فاعلم أن من أجابك ليس بخبير، بل هو من المقلدين التابعين، وإذا قال لك أن هذا مما استقلت به السنة، فاعلم أنه من القائلين بنقص القرآن، نعوذ بالله من ذلك، فألق جوابه خلف ظهرك ولا تبالي.

واعلم عزيزي القارىء أن التقليد غير جائز في شرع الله، فالأمر واضح والنهي مفصل، فلا يحل لإمرىء مسلم أن يترك ما أمر الله به أو ما نهى عنه، بحجة أن فلان أو علان من العلماء قال أن الأمر هنا للندب أو أن النهي هنا للكراهة، فما وظيفة الفقيه إلا الإرشاد إلى الطريق إذا وقع الحرام أو ترك اللِزام أو في التوفيق بين الأمور وبعضها، أو إسقاط آيات القرآن على واقع المجتمع، أما الأحكام الموجهة للأفراد فكل إنسان مسؤول عنها أو التعامل مع محدثات الأمور، مما لم تكن مع زمان القرآن وكيفية إسقاط آي القرآن عليها، أمّا ما كان في زمان الرسول فلا يمكن إلا أن يكون ذكر صراحة مباشرة، فلا يجوز القول أن المراد من كذا هو كذا، فلم لم يوضحه الله عز وجل؟!

وختاما نقول: ما هانت هذه الأمة إلا بتركها كتاب ربها، وإعراضها عنه، فلو عادت الأمة ثُباتا أو جميعا إلى القرآن لتغير حالها ولعلى شأنها، وكما قال الفاروق: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله"

وأعلم أن هذا الأمر ليس باليسير، فأعداء الإسلام لنا بالمرصاد كل يحاول أن يصدنا عن سواء السبيل، فكن منهم على حذر، وحدد لنفسك هدفا في الحياة مسترشدا بكتاب الله، واجعله نبراسك في الحياة تفز في الدنيا والآخرة. وفي كل مكان وزمان سل نفسك: ماذا قدمت لهذا الدين؟ والله المستعان وعليه الاتكال.

تم بحمد الله

أنهيت هذا الكتاب لست عشر مضين من شهر صفر في عام سبع وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة النبوية المكرمة، الموافق السادس عشر من مارس في عام ست وألفين بعد ميلاد المسيح.

ونرجو ا الله أن يتقبله وأن يجعله خالصا لوجهه ويجزينا عنه خير الجزاء، وأن يسخرنا لخدمة دينه وأن يجعلنا من الهداة المهدين لا الضالين ولا المضلين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

للتواصل مع الكاتب يرجى زيارة موقعه الشخصي:

www.amrallah.com

سرد لأهم المراجع

* القرآن الكريم.

* ابن تيمة: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوي.

* ابن حزم الظاهري: أبو محمد علي بن أحمد، المحلى.

* ابن حنبل: أحمد بن محمد، مسند أحمد.

* ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة.

* ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، فقه اللغة.

* ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة.

* ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم.

* ابن منظور: محمد بن مُكرَّم بن عليّ بن أحمد بن حبقة الأنصاري الإفريقي، لسان العرب.

* أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق ابن بشير بن شداد، سنن أبي داود.

* أبو شهبه: محمد، الإسرائيليات في كتب التفسير.

* أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران، الفروق في اللغة.

* إدريس: أحمد، تاريخ الإنجيل والكنيسة.

* الأثري: عبد الله بن عبد الحميد، الوجيز في عقيدة السلف الصالح، أهل السنة والجماعة.

* الأشعري: أبو الحسن علي ابن إسماعيل، اعتقاد أهل السنة، شرح أصحاب الحديث.

* الأطير: حسني يوسف، على هامش الحوار بين القرآن واليهود.

* البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري.

* البغوي: الحسين بن مسعود الفراء، "معالم التنزيل".

* البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، شعب الإيمان.

* الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي.

* الجبري: عبد المتعال، الناسخ والمنسوخ بين الإثبات والنفي.

* الذهبي: محمد حسين، التفسير والمفسرون.

* الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن بن الحسين التيمي الطبرستاني، التفسير الكبير.

* السامرائي: فاضل، لمسات بيانية.

* السباعي: مصطفى، السنة ومكانتها في التشريع.

* السعدي: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن.

* السقا: أحمد حجازي، حياة القبور بين المسلمين وأهل الكتاب.

* السقا: أحمد حجازي، لا نسخ في القرآن.

* السقا: أحمد حجازي، يوم الرب العظيم المسمى معركة هرمجدون في التوراة والإنجيل والقرآن.

* السويدي: عبد الرحمن بن محمود، أسرار خلق الكون.

* السيوطي: جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها.

* الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد أبو إسحاق اللخمي الغرناطي، الموافقات.

* الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، نيل الأوطار من منتقى الأخبار.

* الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن.

* الطيار: مساعد بن سليمان، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر.

* الغزالي: محمد، تراثنا الفكري في ميزان الشرع.

* الغزالي: محمد، كيف نتعامل مع القرآن.

* الغزالي: محمد، محاور القرآن الخمسة.

* الفضلي: عبد الهادي، مذهب الإمامية.

* الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط.

* القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن.

* الكاتب: أحمد، تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه.

* المرتضى الزبيدي: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس في شرح القاموس.

* المودودي: أبو الأعلى، أسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة ومعضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام.

* النجار: عبدالوهاب، قصص الأنبياء.

* النيلي: عالم سبيط، اللغة الموحدة.

* النيلي: عالم سبيط، الحل القصدي في مواجهة الاعتباطية.

* الواحدي النيسأبوري: أبو الحسن علي، أسباب النزول.

* أميني: محمد تقي، النظام الإلهي للرقي والانحطاط، ترجمة: مقتدى حسن الأزهري.

* توكل: دري محمد، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم.

* جرار: بسام، الإعجاز الرقمي في القرآن.

* حجازي: عوض الله جاد، ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي.

* زرندي: مير محمدي، بحوث في تاريخ القرآن وعلومه.

* شحرور: محمد، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة.

* شحرور: محمد، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي.

* طاهر: هاني، تنزيه آي القرآن عن النسخ والنقصان.

* طاهر: هاني، الحرية الدينية وعقوبة المرتد في الإسلام.

* طاهر: هاني، الفرقان في إبطال مقولة السنة قاضية على القرآن.

* عنبر: محمد، جدلية الحرف العربي.

* عوض: إبراهيم، إعجاز قرآني علمي أم مجرد ملاحظات ساذجة يعرفها كل أحد؟

* رعون: كمال أحمد، الطلاق في الإسلام محدد ومقيد، في سبيل حل جذري لمشكلة الطلاق.

* قسم الدراسات والبحوث، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، التوحيد عقيدة الأمة منذ آدم

* قسم الدراسات والبحوث، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام.

* قسم الدراسات والبحوث، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، مفاتح القرآن والعقل.

* قنديل: يحيى كامل، رسالة الإسلام، القرآن تفسير أم تأويل.

* مالك: أبو عبدالله مالك بن أنس ابن مالك ابن أبي عامر، الموطأ.

* محمود: مصطفى، عالم الأسرار.

* مسلم: مسلم بن الحجاج النيسأبو ري، صحيح مسلم.

* منصور: أحمد صبحي، القرآن وكفى مصدرا للتشريع الإسلامي.

صفحات من الشبكة المعلوماتية:

* تاريخ الفراعنة الكاذب للشيخ أبي إسلام أحمد عبدالله

* صفحة www.eltwhed.com

* صفحة www.almutazela.com

* صفحة www.sa66.com

* برنامج الباحث في القرآن الكريم، الإصدار الثالث.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران
* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام
* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟
* السوبرمان بين نيتشه والقرآن
* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون
* قراءة لسور الطعن
* السيدة عائشة والتاريخ المشوه
* قصص القرآن القرآني
* الجن .. الأرباب المختلَقة
* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً
* السلفية .. منهج إسلامي؟
* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة
* رواية خواطرٌ شواذ
* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية
* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست